

أَيْضًا الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ

تَأْلِيفُ

عَلَى مُحَمَّدٍ الْبَجَاوِي

مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ الْبَرَاهِيمِ

دار الحديث

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

قدّمنا إلى قراء العربية كتابنا « أيام العرب في الجاهلية » ، يلمّ أشتات تلك الأيام ، ويؤلفُ بينها ؛ فاستقبله الأدباء والمؤرخون استقبالا كريما ، وعدّوه مرجعهم الأول في تلك الأيام .

وكنا قد وعدنا في مقدمته بكتاب « أيام العرب في الإسلام » ؛ واستنجزنا بعضُ القراء وعدنا ، ورغبوا إلينا في إخراج هذا الكتاب ، حتى تم به تلك الحلقة التاريخية الأدبية التي بدأناها .

وها نحن أولاء نقدمه إليهم إنجازاً لوعدنا ، ووفاء لحقهم علينا ، وإتماماً لعملنا . وسيطالعون في هذا الكتاب أشهر أيام العرب في الإسلام ، وقد صيغت حواشيها صياغة قصصية أحكمت حلقاتها ، واتصلت أجزاءها ، ولمع أبطالها .

وفي ثناها نصوص أدبية في الذروة العليا من الأدب ، قد فنبطت كلماتها ، وشرحت ألفاظها ، وعرضت وسط حوادثها .

فهذا الكتاب تاريخ مجيد ، وقصص رائع ، وأدب رفيع .

وقد يكون من الخير للأمم العربية أن يظهر فيها هذا الكتاب في هذه الآونة التي توالى فيها عليهم أحداث ، وتتابعت محن ، وخاضوا غمار حروب ، فلم يهينوا ولم يضعفوا .

وسيجدون في الأيام تاريخهم المشرق الوضاء ، وجنودهم الأجرء الشجعان ،
وقوادهم الصناديد المحنكين .

وسيروا كيف تغلب هؤلاء على الصماب ، وكيف فتحوا الممالك والأمصار ،
وكيف شاعت فيهم روح التضحية ، فرفعوا شأن أمتهم ، وثبتوا دعائم نهضتهم ،
وأقاموا صرح ملكهم .

لعل في هذا كله هداية ، ولعل فيه قدوة ، ولعل فيه درسا .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية من الكتاب ، نقدمها لقرائنا بعد أن هذبنا فيها ، وأصلحنا ما كان قد ندّ في الطبعة الأولى .

وقد زدنا فيها أياماً للعرب كانت غرّة في أيامهم ، ومثلاً بارزاً في جهادهم ، وعلماً على عروبتهم ونصرهم ، لنصل الماضي بالحاضر ، ونعرّف بمواقف العروبة في أيامها الحالية والحاضرة .

فنحن اليوم نعيش في ماضينا التليد ، وعلينا أن نحبي من أجدادنا ماخلده التاريخ من مآثر ، وما سجله من مفاخر ، ولهذا أضفنا إلى الكتاب فصولاً ، شملت أيام العرب مع الصليبيين وغيرهم ، مما تم به سلسلة الأيام الخالدة في تاريخ العرب والعروبة .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير أمتنا العربية .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هي الطبعة الثالثة من كتابنا « أيام العرب في الإسلام » ، نقدمها للقراء بعد أن أعدنا النظر فيه ، وزدنا في ضبطه ، وأكثرنا من شرح الألفاظ الغريبة .
ثم زدنا في فهارس الكتاب ليسهل الانتفاع به والرجوع إليه .
والكتاب - كما عرفه القراء - مرجع لأيام العرب ووقائعها وفتوحاتها في الإسلام ؛ وهو مكمل لصنّوه « أيام العرب في الجاهلية » .
والله نسأل أن ينفع به الشادين في الأدب ، والمتطلعين إلى الوقوف على مجد العرب القديم وتراثهم المجيد .

المؤلفان

ربيع الأول ١٣٨٨ هـ (يونيو ١٩٦٨ م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - يوم بدر*

قدم رسول الله من غَزْوَةِ الْمُشَيْرَةِ^(١) ، ولم يمكث بالمدينة إلا أياماً قلائل ، حتى أغار كُرُزُ بْنُ جَابِرٍ الْفِهْرِيُّ عَلَى سَرْحِ^(٢) الْمَدِينَةِ ، فخرج رسول الله في طلبه ، حتى بلغ سَفْوَانَ^(٣) ، وفاته كُرُزُ فَلَمْ يُدْرِكْهُ^(٤) .

ثم بعث رسول الله عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ^(٥) مَعَ رَهْطٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَكُتِبَ لَهُ كِتَابًا ، وَأَمْرُهُ أَلَّا يَفْتَحَهُ حَتَّى يَسِيرَ يَوْمِينَ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِيهِ فَيَمْضِي لِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَلَا يَسْتَكْرِهُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ .

فسار عَبْدُ اللَّهِ يَوْمِينَ ، وَفَتَحَ الْكِتَابَ ، فَإِذَا فِيهِ : « إِذَا نَظَرْتَ فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتَّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ - بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ - فَتَرُصِدُ^(٦) بِهَا قَرِيشًا ، وَتَعَلِّمَ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ » .

فلما نظر عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فِي الْكِتَابِ قَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً . ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى نَخْلَةَ أُرْصِدُ بِهَا قَرِيشًا حَتَّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بِخَبَرٍ ؛

* سيرة ابن هشام : ٢ - ٢٣٨ ، تاريخ الطبري : ٢/٢٦٧ . وكان ذلك اليوم في السنة الثانية من الهجرة ، وبدر : ماء مشهور ، بين مكة والمدينة بينه وبين البجرايلة .

(١) قبل هذا اليوم غزوة ودان (قرية جامعة بين مكة والمدينة) ، وتسمى أيضاً غزوة الأبواء ، وقد خرج فيها النبي يريد قريشاً وبني ضمرة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، ثم رجع النبي إلى المدينة ولم يلق حرباً . ثم غزوة العشيرة (بطن يثرب) ، وقد خرج لغزو قريش ، ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً . (٢) السرح : المال السالم .

(٣) سفوان : واد من ناحية الحجاز . (٤) هذه غزوة بدر الأولى . (٥) هذه سرية عبد الله بن جعفر . (٦) رصده : ترقبه .

وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليَنطَلِقْ ، ومن كره ذلك فليَرْجِعْ ، فأما أنا فاضٍ لأمر رسول الله .

فضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد ، وسلك على طريق الحجاز ، حتى إذا كان ببعض الطريق أضلَّ سعدُ بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوانَ بهيراً لهما كأننا يعتقبانه^(١) ، فتخلفنا في طلبه .

ومضى عبدُ الله بن جَحْش وبقيةُ أصحابه حتى نزل نخلة ، فرَّت عليه عير^(٢) لقريش فيها عمرو بن الحضرمي .

فلما رآهم القومُ قد نزلوا قريباً منهم هابوهم ؛ وتشاور أصحابُ النبي في الأمر ، وقالوا : لئن ترَكْنَا القومَ هذه الليلةَ ليدخلنَّ الحَرَمَ ، ولينتهنَّ به منكم ؛ ولئن قتلناهم لنقتلنَّهم في الشهر الحرام . وتردّوا وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجّعوا أنفسهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا على قتله منكم ، وأخذ ما معهم . وقتلوا عمرو بن الحضرمي ، وأسروا أسيرين^(٣) .

وأقبل عبدُ الله بن جَحْش وأصحابه بالخير والأسيرين حتى قدّموا على رسول الله بالمدينة ؛ فلما رآهم النبي قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام .

فلما سمعوا مقالة النبي سَقَطَ في أيديهم ، وظنّوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ؛ وقالت قريش : قد استحلَّ محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا الرجال . وأكثَرَ الناسُ في ذلك ؛ فأنزل الله على رسوله : ﴿ ^(٤) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ

(١) يعتقبانه : يتماقبانه في الزكوب واحداً فواحداً . (٢) العير : الإبل والدواب

التي كانوا يركبونها في التجارة . (٣) هما عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان .

(٤) سورة البقرة : ٢١٧ .

قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ (١) وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا .

فلما أنزل الله فيهم هذا القرآن ، وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض رسول الله المير والأسيرين .

وبعث إليه قريش في فداء أسيريهما ، فقال الرسول : لا نُفديكموها حتى يقدم صاحبنا (٢) ، فإنّا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبَيْكم . وقدم صاحباً الرسول ، فقبل رسول الله الفداء .

ثم إن رسول الله سمع بأبي سفيان بن حرب مُقبلاً من الشام في عيرٍ عظيمة لقريش ، فيها أموالٌ وتجارة ؛ فدب (٣) المسلمين إليها ، وقال : هذه عيرُ لقريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها . فانتدب الناس (٤) .

وكان أبو سفيان ، حين دنّا من الحجاز يتحسّس الأخبار ، ويسأل من لقي من الرُكبان ؛ تخوفاً على أموالِ قريش ، حتى أصاب خبراً من بعض الناس ؛ أن محمداً قد استنفر أصحابه له ولعيره (٥) ؛ فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ؛ وبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض له في أصحابه . فخرج ضمضم مسرعاً إلى مكة .

هذا ما كان من أبي سفيان ، أما في مكة فقد كان حديثُ الناس فيها يتصل

(١) أى إن قتلتهم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام . وإخراجكم منه أكبر عند الله من قتل من قتلت . (٢) هما سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، وهما اللذان أضلبعيرهما . (٣) ندبه إلى الأمر : دعاه وحشه ووجهه . (٤) انتدب الناس : أجاؤا وأسرعوا . (٥) الاستنفار : الاستنصار ، أى طلب منهم الخروج لأبي سفيان وعيره .

بالمير بسبب آخر ؛ فقد رأت عائكة بنت عبد المطلب - قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال - رؤيا أفزعته ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : يا أخى ؛ إني رأيت الليلة رؤيا تخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومُصيبة ، فآتكم عنى ما أهدئكم به . قال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت ركباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح^(١) ، ثم صرخ بأعلى صوته : أَلَا انْفِرُوا لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاث ! فَأَرَى النَّاسَ اجْتَمَعُوا لَهُ . ثم دخل المسجد والناس يُتَبِعُونَهُ ، فبينما هم حوله مثل^(٢) به بعيره على رأس أبي قبيس^(٣) . فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرةً فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت^(٤) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فُلقة^(٥) .

قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ! وأنتِ فآتكميها ، ولا تذكريها لأحد . ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة - وكان صديقاً له - فذكرها له ، واستكتمه إياها ، ولكن الوليد ذكرها لأبيه عتبة ، ففشأ الحديث بمكة ؛ وتحدثت به قريش في أنديةها .

وغداً العباس بن عبد المطلب يطوف بالبيت ؛ وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برويا عائكة ، فلما رآه أبو جهل قال : يا أبا الفضل ؛ إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغ أقبل حتى جلس معهم ، فقال : يا بني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبئة ؟ قال العباس : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عائكة . قال : وما رأيت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ؛ أما رضيتم أن يننبأ رجالكم حتى تننبأ نساؤكم ! لقد زعمت عائكة في رؤياها أن ركباً أقبل إلى مكة فقال : انذروا في

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، وأبطح مكة : مسيل واديها . (٢) مثله : قام منتصباً . (٣) أبو قبيس : جبل بمكة . (٤) ارفضت : تفتت . (٥) فُلقة : قطعة .

ثلاث ! فستربصُ بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمضِ الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتبُ عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهل بيتٍ في العرب .

فلم يكن من العباس إليه شيء ، إلا أنه جحد ذلك ، وأنكر أن تكون قد رأت شيئاً . ثم تفرقوا . وفي المساء لم يبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس ، فقلن : أقررتن لهذا الفاسق الخبيث^(١) أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ! فقال : قد فعلت ، وإيم الله لأتعرضنَّ له ، فإن عادَ لأقتصنَّ .

وغدا العباسُ في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وهو مُغضب ، ودخل المسجد فرأى أبا جهل ، ومشى نحوه يتعرَّضُ ليمودَّ ليمض ما قال فيقع به ، فإذا به يخرج نحو باب المسجد يشتدُّ^(٢) ، فقال في نفسه : أكلُ هذا فرقاً^(٣) مني !

ولم يكن فرعا منه ، ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه ، ذلك صوتُ ضَمضم الغفاري وهو يصرخُ ببطن الوادي ، واقفاً على بعيره ، قد حوّل رَحله ، وشقَّ قِيصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ؛ اللَّطِيْمَةُ اللَّطِيْمَةُ^(٤) ! أموالكم مع أبي سُفْيَان ، قد عَرَض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ! الغوث الغوث !

وشغل الناس بما جاء به ضَمضم الغفاري ، وتجهّزوا سِرّاعاً ، وقالوا : أيلظنُّ محمدُ وأصحابه أنها غيرُ ابن الحضرمي^(٥) كلا ! ليعلمنَّ غير ذلك .

وكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلاً . وأوعبت^(٦) قريش ، فلم يتخلّف من أشرافها أحد ، إلا أن أبا لهب تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام

(١) يردن أبا جهل . (٢) يشتد : يمدو ويسرع . (٣) فرقاً : خوفاً .
(٤) اللطيمة : العير تحمل المسك . (٥) هي التي خرج إليها عبد الله بن جحش في سريره كما تقدم في هامش صفحة ٧ . (٦) أوعب القوم : خرجوا كلهم للغزو .

ابن المغيرة ، وكان قد لاط^(١) له أربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يكون عنه في هذا البعث .

ولما فرغت قريش من جهازهم ، وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة من الحرب^(٢) ، فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا ! وكاد ذلك يثديهم ؛ فتبدى لهم سراقه بن مالك — من أشراف كنانة — فقال لهم : أنا لكم جار من أن تأتاكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ؛ فخرجوا سراعاً .

وخرج رسول الله في أصحابه وأمامه رايتان : إحداهما مع علي في المهاجرين ، والأخرى مع سمد بن معاذ في الأنصار .

وكانت الإبل سبعة ، فاعتقبوها^(٣) ؛ وسار النبي في طريقه إلى مكة ، حتى إذا

(١) لاط ، أى ألصق به أربعة آلاف .

(٢) كان سبب الحرب التي كانت بين قريش وبين بني بكر أن ابنا لحفص بن الأخيف القرشي خرج يبتغي ضالة له بضجتان ، وهو غلام حدث في رأسه ذؤابة ، وعليه حلة له ، وكان غلاماً وضيقاً نظيفاً ، ومر بهامر بن يزيد بن الملوح سيد بكر ، فراه فأعجبه ، فقال له : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشي . وولى الغلام . فقال عامر بن يزيد : يا بني بكر ، أما لكم في قريش دم ؟ قالوا : بلى ، والله إن لنا فيها لدماً . قال : ما كان رجل ليقول هذا الغلام برجله إلا كان قد استوفى دمه . فتبعه رجل من بني بكر فقتله بدم كان له في قريش .

فتسكمت فيه قريش ، فقال عامر بن يزيد : يا معشر قريش ، قد كانت لنا فيكم دماء ، فإن شئتم فأدوا ما لنا قبلكم ونؤدى ما لكم قبانا . وإن شئتم فإنما هي الدماء رجل برجل ، فتجافوا عما لكم قبانا وتجافى عما لنا قبلكم . فهان ذلك الغلام على هذا الحى من قريش ، وقالوا : صدق ! رجل برجل . ولهو عنه ولم يطلبوا به .

وبينما كان أخو هذا الغلام — وهو مكرز بن حفص — يسير يمر الظهران رأى عامر بن يزيد على جبل له ، فأقبل عليه حتى أناخ به ، وعامر متوشح بسيفه ، فعلاه مكرز بالسيف حتى قتله ، ثم خاض بطنه بسيفه ، وأتى بالسيف إلى مكة ، وعلقه في أستار السكبة . فلما أصبحت قريش رأت سيف عامر . فعرفوه ، وقالوا : إن هذا سيف عامر عدا عليه مكرز بن حفص فقتله .

وبينما هم في حريهم حجاز الإسلام بين الناس فتشاغلوا به ، حتى إذا أجمعت قريش المسير إلى بدر ذكروا الذي بينهم وبين بني بكر . . .

(٣) اعتقبوها ، أى ركبوها واحداً بعد الآخر .

كان قريباً من الصفراء بمث بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزغباء الجهنين إلى بدرٍ يتحسّسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وعيره .

وسار حتى نزل وادى الذفران^(١) ، وهناك أتاه الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمدوا عيرهم ؛ فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمرُ بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقدادُ بن عمرو فقال : يا رسول الله ؛ امض لما أراك الله فنحنُ معك ، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ أَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾^(٢) . ولكن أذهب أنت وربك فقاتلَا إِنَّا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بركِ الغماد^(٣) لجالدنا^(٤) معك من دونه حتى تبلغه . فقال له رسولُ الله خيراً ، ودعا له . ثم قال رسول الله : أشيروا على أيها الناس - وإنما يريد الأنصار^(٥) .

فقال سعدُ بن مُعاذ : والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله ! قال : أجل . قال : قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهداً ومواثيقاً على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحنُ معك ؛ فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحرَ لخضناه معك ، ما تخلف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إِنَّا لصبرُنا في الحرب ، صدقٌ في اللقاء ، ولعلّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك ؛ فسر بنا على بركة الله .

(١) الذفران : واد قرب وادى الصفراء . (٢) سورة المائدة : ٢٣ . (٣) برك الغماد : مثلة الغنم : موضع ، أو هو أقصى معمور الأرض . (٤) جالداً : جاهدنا . (٥) وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ بِقَوْلِ سَعْدٍ ، وَلَشَّطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَاللَّهُ لَسَكَّاتِي الْآنَ أَنْظِرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ .
ثُمَّ ارْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ ذَرَفَرَانِ حَتَّى نَزَلَ قَرِيْبًا مِنْ بَدْرٍ ، وَرَكِبَ هُوَ وَرَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَسَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى شَيْخٍ مِنَ الْعَرَبِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ قُرَيْشٍ وَعَنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُمْ ، فَقَالَ الشَّيْخُ : لَا أَخْبِرُكُمْ حَتَّى تُخْبِرَانِي مَنْ أَنْتُمَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : إِذَا أَخْبَرْتَنَا أَخْبَرْنَاكَ . قَالَ : أَوَذَاكَ بِذَاكَ ! قَالَ : نَعَمْ . قَالَ الشَّيْخُ : فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كَانَ صَدَقَ الَّذِي أَخْبَرَنِي فَهُمْ الْيَوْمَ بِمَكَانٍ كَذَا وَكَذَا — لِمَكَانٍ الَّذِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ — وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَرِيْبًا خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ؛ فَإِنْ كَانَ الَّذِي أَخْبَرَنِي صَدَقَنِي فَهُمْ الْيَوْمَ بِمَكَانٍ كَذَا — لِمَكَانٍ الَّذِي بِهِ قُرَيْشٌ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَبَرِهِ قَالَ : يَمَنْ أَنْتُمَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : نَحْنُ مِنْ مَاءٍ . ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ .

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا أَمْسَى بَمَثَلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَالزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى مَاءِ بَدْرٍ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَلَيْهِ ، فَأَصَابُوا رَأْيِيَّةً^(١) لِقُرَيْشٍ ، فِيهَا أَسْلَمٌ — غُلَامُ بَنِي الْحِجَّاجِ — وَعَرِيضُ أَبُو يَسَارٍ — غُلَامُ بَنِي الْعَاصِ بْنِ سَعْدٍ — فَأَتَوْا بِهِمَا ، وَسَأَلُوهُمَا ، وَرَسُولُ اللَّهِ قَائِمٌ يَصْلِي ، فَقَالَا : نَحْنُ سُقَاتُ قُرَيْشٍ ، بَعَثُونَا نَسْقِيَهُمْ مِنَ الْمَاءِ . فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا ، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سَفْيَانَ ، فَضَرَبُوهُمَا ، فَلَمَّا أَذْلَقُوهُمَا^(٢) قَالَا : نَحْنُ لِأَبِي سَفْيَانَ ؛ فَتَرَكُوهُمَا . وَرَكِعَ رَسُولُ اللَّهِ وَسَجَّدَ سَجْدَتَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَ وَقَالَ : إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا ، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا ! صَدَقَا وَاللَّهِ ، إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٌ ؛ أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ ؛ قَالَا : هُمُ وَاللَّهِ وَرَاءَ هَذَا الْكَثِيبِ الَّذِي تَرَى بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى^(٣) .

(١) الرَّايَةُ : الْبَعْرُ أَوِ الْبَغْلُ أَوِ الْحِمَارُ يَسْتَقِي عَلَيْهِ . (٢) أَذْلَقُوهُمَا : بِالْفَوَالِ ضَرَبَهُمَا وَأَسْفَرُوهُمَا . (٣) عُدْوَةُ الْوَادِي : شَاطِئَتُهُ .

فقال لهما رسول الله : كم القوم ؟ قالا : كثير . قال : ما عدّتهم ؟ قالا : لا ندرى . قال : كم يَنْجَرُونَ كلَّ يوم ؟ قالا : يوماً تسعا ويوماً عشرة . فقال رسول الله : القومُ فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشرف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وعدداً كثيراً من رجال قريش .

فأقبل رسول الله على الناس فقال : هذه مَكَّة قد أَلَقْتُ إِلَيْكُمْ أَفْلاذَ^(١) كَبِدِهَا .

ومضى بَسْبَس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تلٍّ قريب من الماء ، ثم أخذَا شَنَا^(٢) لهما يستقيان فيه ، فسمعا جارتين من جَوَارِي الحاضر^(٣) ، وهما تتلازمان^(٤) ، والملزومة تقول لصاحبتهما : إنما تأتى العيرُ غداً أو بعد غد ، فأعمل لهن ، ثم أقضيك الذى لك . فركبا بعيرهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ، فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو سفيان بن حرب يتقدّم العيرَ حَذِراً ، حتى ورد الماء ، فرأى رجلاً ، فقال له : هل أحسستَ أحداً ؟ فقال : ما رأيتُ أحداً أنكره ، إلا أنى قد رأيتُ راكبين قد أناخا إلى هذا التلِّ ، ثم استقيّا في شَنِّ لهما ، ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مُنَاخَهما^(٥) فأخذ من أبعاد بعيرهما ففتّه ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه عَلَافٌ^(٦) يَثْرِبُ^(٧) . ورجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجهه عيره عن الطريق ،

(١) الأفلاذ : جمع فلذة : القطعة . (٢) الشن : القرية الخلق الصغيرة .

(٣) الحاضر : القوم النازلون على الماء . (٤) تتلازمان : تتماصكان .

(٥) مناخهما : المكان الذى أناخا فيه بعيرهما . (٦) يريد ما يعلقه أهل المدينة ولا

يرسلونه للرعى ، فهو جم علوفة . (٧) يثرب : اسم من أسماء المدينة .

فَسَاحِلَ^(١) بِهَا ، وَتَرَكَ بَدْرًا يَسَارًا ، وَانْطَلَقَ مُسْرِعًا .

وَأَقْبَلَتْ قَرِيشٌ حَتَّى نَزَلُوا الْجَحْفَةَ^(٢) ؛ وَلَمَّا رَأَى أَبُو سَفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أُخْرِزَ عَيْرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قَرِيشٍ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عَيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ، وَقَدْ نَجَوْنَا بِهَا ، فَارْجِعُوا .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ : وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَّ بَدْرًا^(٣) ، فَتَقِيمَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا ، فَتَنْخَرُ الْجَزُرَ ، وَنُطْعِمَ الطَّعَامَ ، وَنَسْقِيَ الْخَمْرَ ، وَتَمْرُفَ عَلَيْنَا الْقِيَّانَ ، وَتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بِمَدْهَا ؛ فَامْضُوا .

فَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ^(٤) : يَا بَنِي زُهْرَةَ ، قَدْ نَجَّى اللَّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، وَخَلَّصَ لَكُمْ صَاحِبَكُمْ - خُرْمَةَ بْنُ نُوفَلٍ - وَإِنَّمَا نَفَرْتُمْ لَتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ ، فَاجْعَلُوا بِي جُبْنَهَا ، وَارْجِعُوا ، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تُخْرِجُوا فِي غَيْرِ ضَمِيمَةٍ^(٥) ، لَا مَا يَقُولُ هَذَا - يَمْنَى أَبُو جَهْلٍ . فَارْجِعُوا ، وَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهَيْرٌ وَاحِدٌ .

وَمَضَتْ قَرِيشٌ حَتَّى نَزَلُوا بِالْعُدْوَةِ^(٦) الْقُصْوَى مِنَ الْوَادِي ، وَكَانَ الْوَادِي دَهْسًا^(٧) ؛ وَبَعَثَ اللَّهُ السَّمَاءَ ، فَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ مِنْهَا مَاءٌ لَبَدَّ الْأَرْضَ ، وَلَمْ يَنْعَمَهُمْ عَنِ الْمَسِيرِ ، وَأَصَابَ قَرِيشًا مِنْهَا مَاءٌ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَرْتَحِلُوا مَعَهُ .

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ يُبَادِرُهُمْ إِلَى الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَذْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرِ نَزَلَ بِهِ ، فَقَالَ الْحَبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ ؟ أَمِنْ لَنَا أَنْ نَزَلَكَ اللَّهُ

(١) ساحل ؛ أى أتى بالبحر ساحل البحر . (٢) الجحفة : موضع بين مكة والمدينة .

(٣) كان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . (٤) كان حليفاً لبني

زُهرة ، وكان فيهم مطاعاً . (٥) الضميمة : المعاش والتجارة . (٦) العدو : الشاطئ .

(٧) الدهس : الأرض السهلة يشغل فيها المشى .

ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر ، أم هو الرأى والحربُ والمسيكة ! قال : بل هو الرأى والحربُ والمسيكة . قال : يارسولَ الله ، فإنَّ هذا ليس بمنزل ، فانهضْ بالناس حتى نأتى أذنَى ماء من القوم فننزله ، ثم نُعَوِّرَ ماوراءه من القلب^(١) ، ونَبْنِي عليه حَوْضًا فنملؤه ماء ، ثم نقاتِلُ القومَ فنشرب ولا يشربون .

فقال رسولُ الله : لقد أشرتَ بالرأى . ونهضَ مَنْ معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أذنَى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلبِ فَعَوَّرَتْ ، وبني حوضًا على القايِب الذى نزل عليه فَمِلَى ماء .

ثم قال سعدُ بن معاذ : يابى الله ؛ ألا نَبْنِي لك عَرِيشًا^(٢) تكونُ فيه ، ونَمِدَّ عندك رَكابَكَ ثم نَمْتِ عَدُوَّنَا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرنا على عَدُوَّنَا كان ذلك ما أَحَبَّبْنَا ، وإن كانت الأخرى جَلَسْتَ على رَكابِكَ فلحققت بَمَنْ وراءنا مِنْ قومنا ؛ فقد تخلفَ عنك أقوام — يابى الله — ما نحن بأشدَّ لك حُبًّا منهم ، ولو ظنُّوا أنك تَلْقَى حَرَبًا ماتخلِّقُوا عنك ؛ يَمْتَعِكَ الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فَأَنسَى عليه النبيُّ ودعاه بخير . ثم بَنَى لرسولِ الله عَرِيشَ فساكن فيه .

ولما اطمانت قُرَيْشٌ فى مُقَامِهَا بَعَثُوا عُمَيْرَ بنَ وَهَبٍ وقالوا له : اخْزَرْ^(٣) لنا أصحابَ محمد . فجال^(٤) بفرسه حَوْلَ العَسْكَرِ ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظرَ : أَلِلْقَوْمِ كَمِينَ أو مَدَدٌ؟ فضرب فى الوادى حتى أَبْعَدَ فلم ير شيئا ، فرجع إليهم وقال : ما وجدتُ شيئا ، ولكنى قد رأيتُ ، يامعشر قريش ، البَلَايَا^(٥) تَحْمِلُ المَنايا ، نَوَاضِحُ^(٦)

(١) نعورها ، أى ندفنها ونسد عبونها التى ينبع منها الماء ، والقلب : جمع قلب ؛ وهو البئر .

(٢) العريش : الخيمة ، أو البيت الذى يستظل به . (٣) الخزر : التقدير . (٤) جال : طاف .

(٥) البلايا : جمع بلية ، وهى الناقة التى أبلأها السفر . (٦) النواضح : الإبل التى يستقى

عليها ، واحدها ناضح .

يَتَرَبَّ تَحْمِلُ الْمَوْتَ النَّاقِعِ^(١)، قَوْمٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مَنَّةٌ وَلَا مَلْجَأٌ إِلَّا سَيُوفُهُمْ، وَاللَّهُ مَا أَرَى أَنْ يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَقْتُلَ رَجُلًا مِنْكُمْ؛ فَإِذَا أَصَابُوا مِنْكُمْ أَعْدَاءَهُمْ فَاخَيْرُ الْمَيْشِرِ بِمَدِّ ذَلِكَ! فَارَوَا رَأْيَكُمْ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ مَشَى فِي النَّاسِ حَتَّى أَتَى عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْوَلِيدِ؛ إِنَّكَ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا وَالْمَطَاغُ فِيهَا، فَهَلْ لَكَ إِلَى خَيْرٍ تُدْكَرُ بِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا حَكِيمُ؟ قَالَ: نَرْجِعُ بِالنَّاسِ وَتَحْمِلُ أَمْرَ حَلِيفِكَ عَمْرُو بْنُ الْخَضِرِيِّ^(٢). قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. أَنْتَ عَلَىٰ بِذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ حَالِيفِي فَعَلِيَ عَمَلُهُ^(٣) وَمَا أَصِيبَ مِنْ مَالِهِ. فَأَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَإِنِّي أَخَشَى عَلَى أَمْرِ النَّاسِ مِنْهُ. ثُمَّ قَامَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ خَطِيمًا، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؛ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا تَصْنَعُونَ بِأَنْ تَلْقَوْا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ شَيْئًا، وَاللَّهُ إِنِّي أَصَبْتُكُمْ لَأَيِّزَالِ الرَّجُلُ يَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَجُلٍ يَكْرَهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ ابْنَ عَمِّهِ أَوْ ابْنَ خَالِهِ، أَوْ رَجُلًا مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَارْجِعُوا وَخَلُّوا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَسَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ أَصَابُوا فَذَاكَ الَّذِي أُرِدْتُمْ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ أَلْفَاكُمْ قَدْ سَأَلْتُمُوهُ.

وَانْطَلَقَ حَكِيمُ يَوْمَ^(٤) أَبَا جَهْلٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ نَثَلَ^(٥) دِرْعًا لَهُ مِنْ جِرَاحِهَا فَهُوَ يَهَيْئُهَا، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَكَمِ؛ إِنَّ عُتْبَةَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِكَذَا وَكَذَا... فَقَالَ: انْتَفَعِ وَاللَّهِ سَخِرُهُ^(٦) حَسِينَ رَأَى مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ! كَلَّا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَمَا بِعُتْبَةَ مَا قَالَ، وَلَسَكُنَّ قَدْ رَأَى أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ أَكَاةُ جَزُورٍ^(٧) وَفِيهِمْ ابْنُهُ، فَتَتَخَوَّفُكُمْ عَلَيْهِ.

(١) موت دائم . (٢) هو الذي قتل في سرية عبد الله بن جعش .

(٣) العقل : الدية . (٤) يوم : يقصد . (٥) نثل درعا : ألقاها عنه ، وأخرجها .

(٦) السحر : الرنة وما حولها ، وهو كناية عن شدة الخوف وتتمكن الفرع .

(٧) أى تزدحم بال .

ثم بحث إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيتَ كَأْرَكَ بِعَيْنِكَ ، فقم فانشدْ خُفْرَتَكَ^(١) ومقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي فصرخ : واعمرأه ! فحميت الحرب ، وحقب^(٢) أمرُ الناس ، واستوسقوا^(٣) على مام عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل : انتفخ والله سحره - قال : سيعلم من انتفخ سحره ، أنا أم هو !

ثم خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - فقال : أعاهد الله لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمته ، أو لأموتنّ دونه .

ولما رآه المسلمون خرج إليه حمزة بن عبد المطاب ، فلما التقيا ضربه حمزة فاطن^(٤) قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب^(٥) رجله دماً ؛ ثم جبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن يبر^(٦) يمينه ، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه ، وابنه الوليد ، حتى إذا فصل^(٧) من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قال : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناد : يا محمد ؛ أخرج إلينا أ كفاءنا من قومنا . فقال رسول الله : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا علي .

(١) خفرتك ، أي عهدك . (٢) حقب أمر الناس : اشتد . (٣) استوسقوا : اجتمعوا .

(٤) أطن قدمه : قطعها . (٥) تشخب : تسيل . (٦) أبر يمينه : أمضاها على الصدق .

(٧) فصل من الصف : خرج منه .

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قال عُبيدة : أنا عُبيدة . وقال حمزة : أنا حَمْزَة . وقال عليّ : أنا عليّ . فقالوا : نعم ، أَكْفَأُ كِرَام .
وبارز عُبيدة - وكان أسنّ القوم - عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شَيْبَة بن ربيعة ، وبارز عليّ الوليد بن عتبة .

فأما حمزة فلم يمهّل شَيْبَة أَنْ قتله ، وأما عليّ فلم يمهّل الوليد أَنْ قتله ، واختلف عبيدة وعُتْبَة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت^(١) صاحبه . وكرّ حمزة وعليّ بأسيا فهما على عُتْبَة ، فذَفَقَا^(٢) عايه ، واحتملا صاحبهما عُبيدة فجاءا به إلى أصحابه ، وقد قُطِعَت رِجْلُهُ ، فريخها يسيل ، فلما أتوا به رسول الله قال : أَلَسْتُ شَهِيدًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : بلى .

ثم تراخف الناسُ ، ودنا بعضهم من بعض ، وأمر رسول الله أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إِنْ اكْتَنَفْتُمْ^(٣) الْقَوْمَ فَأَنْضِحُوهُمْ^(٤) عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ^(٥) .

وخرج رسول الله يُعَدِّلُ صفوفَ أصحابه ، وفي يده قِدْحٌ^(٦) يُعَدِّلُ بِهِ الْقَوْمَ ، فَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةٍ ، وَهُوَ مُسْتَنْتَلٍ^(٧) مِنَ الصَّفِّ ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ بِالْقِدْحِ ، وَقَالَ : اسْتَوِ يَسْوَاد . فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْجَعْتَنِي ، وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، فَأَقْدَنِي^(٨) . فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ بَطْنِهِ وَقَالَ : اسْتَقِدْ . فَاعْتَنَقَ سَوَادُ رَسُولَ اللَّهِ وَقَبَّلَ بَطْنَهُ . فقال النبيّ : مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَاد ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، خَظَرُ مَا تَرَى ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدُكَ . فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ بِخَيْرٍ .

(١) أثبت صاحبه : أى عرفه . (٢) ذفف على الجريح : أجهز عليه .
(٣) اكتنفكم القوم : أحاطوا بكم . (٤) انضحوم : ادفعوم . (٥) النبل : السهام .
(٦) القدح : العود . (٧) مستنئل : متقدم . (٨) أقدنى : اقتبس لى من نفسك .

ثم عدل رسول الله الصفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر ، وأخذ رسول الله يُناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد . وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ؛ فإن الله منجز لك ما وعده .

وخفق رسول الله خفقة^(١) ، وهو في العريش ، ثم انتدبه فقال : أبشروا يا أبا بكر ، أذاك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان^(٢) فرس يقوده على ثنايا النقع^(٣) . ثم خرج رسول الله إلى الناس فخرّضهم وقال : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مُقبلاً غير مُدبرٍ إلا أدخله الله الجنة .

فقال عُمير بن الحُمام - وفي يده تمرات - يا كلبن : بئح ، بئح^(٤) ! فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل .

ثم أخذ رسول الله خفنة^(٥) من الحصباء^(٦) فاستقبل بها قريشاً ، وقال : شأنت^(٧) الوجوه ! ثم نفّحهم^(٨) بها ؛ وأمر أصحابه أن يشدوا عليهم ، فكانت الهزيمة ، وقُتل من قتل من صناديد^(٩) قريش ، وأسر من أسير من أشرفهم . ووضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسونه ، ويخافون عليه كركة العدو .

ورأى رسول الله الكراهة في وجه سعد بن معاذ لِمَا يَصْنَعُ الناس ، فقال له :

(١) خفق : حرك رأسه إذا نرس . (٢) عنان : زمام . (٣) النقع : الفبار .
(٤) بئح : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء ، أو الفخر والمدح . (٥) الحصباء : الحصى
(٦) شأنت : قبحت . (٧) نفّحهم : رماهم . (٨) الصناديد : السيد الشجاع .

والله لسكانك يا سمعدُ تَكْرَهُ ما يَصْنَعُ القوم ! قال : أَجَلُ يا رسولَ الله ! كانت أولَ وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشَّرِكِ ، فكان الإِثْنَانُ^(١) في القتل أحبَّ إلى من استبقاء الرجال .

ثم قال النبي لأصحابه : إني قد عَرَفْتُ أن رجلا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بِقِتالنا ، فن أَلْقَيْ منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن أَلْقَيْ أبا البَخْتَرِيِّ^(٢) بن هشام فلا يقتله ، ومن لَقِيَ العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مُسْتَكْرَها .

فقال أبو حذيفة : أنقِطْ آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا وترك العباس ! والله لئن أَلْقَيْتَهُ لأَحْمِيَنَّه^(٣) السَّيْفَ . فبانت رسول الله مقاتله ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حنيفة ؛ أَيُضْرَبُ وجهُ عمِّ رسول الله بالسيف ! فقال عمر : يا رسول الله ، دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ أَبِي حذيفة ، فوالله لقد نَفَقَ . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بأَمِنَ من تلك الكلمة التي قُلْتُ يومئذ ، ولا أزالُ منها خائفا إلا أنْ تَكْفُرَها عَنِّي الشهادة^(٤) .

ورأى أمية بن خلف عبد الرحمن بن عوف ، ومعه أَدْرَاغُ له قد استلبها ، فقال له : هل لك في أنْ تَأْخِذَني ؟ فأنا خيرُ لك من هذه الأَدْرَاغ التي معك ! فطرح الأَدْرَاغَ من يده ، وأخذ بيده ويَدَ ابنه ومشى بهما .

وسار عبدُ الرحمن بن عوف بين أمية وبين ابنه ، فقال له أمية : من منكم المُعْلَمُ

(١) اثنان في العدو : بالغ الجراحة فيهم ، واثنان في الأرض قتلا : إذا أكثره .

(٢) إنما نهى الرسول عن قتل أبي البختري لأنه كان أكرم الناس عن رسول الله وهو بن هاشم ، وكان لا يؤذيه ، ولا يباهه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام بنقض الصحيفة التي كتبت على

بن هاشم وبني المطلب . (٣) أَلْحَمْتُكَ عرض فلان : إذا أمكنتك منه تشتمه . وألحمته سيفي :

مكنته منه . (٤) قتل يوم القيامة شهيدا .

بريشة نعامة في صدره ؟ قال : ذاك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل !

ورآه بلال^(١) ، وهو يفودهما ، فقال : رأس الكفر أمية بن خلف ! لا نجوت إن نجأ ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا بلال ؛ إنه أسيرى . قال بلال : لا نجوت إن نجأ . قال عبد الرحمن : أسمع يا ابن السوداء ! قال : لا نجوت إن نجأ . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ؛ رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجأ ! فأحاطوا بهم ، حتى جعلوهم في مثل المسكة^(٢) ، وعبد الرحمن يذب عنه .

فصرب رجل ابن أمية فخر صريما ، وصاح أمية صيحة شديدة ، فقال له عبد الرحمن : انج بنفسك ولا نجأ ! فوالله ما أغنى عنك شيئا ؛ فهبروها^(٣) بأسيا فهم حتى فرغوا منها^(٤) .

ولما فرغ رسول الله من عدوه أمر أن يلتمس أبو جهل في القتلى ، وقال : انظروا - إن خفي عليكم في القتلى - إلى أثر جرح في ركبته ، فإني ازدحت يوما أنا وهو على مأذبة لعبد الله بن جُدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف^(٥) منه بيسير فدفعته ، فوق على ركبتيه ، فججش^(٦) في إحداها جحشا لم يزل أثره به .

ومر عبد الله بن مسعود فوجده بآخر رمق فعرفه ، فوضع رجله على عنقه ، وقال له : هل أخراك الله يا عدو الله ! قال : وبماذا أخزاني ؟ أعمد^(٧) من رجل قتلتموه ! أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ورسوله . ثم قال له : لقد ارتقيت

(١) كان أمية يضرب بلالا بمكة لترك الإسلام .

(٢) المسكة : السوار والخال . (٣) هبروها : قطعوا لحمها . (٤) كان عبد الرحمن

يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أذراعى ، ولغمت بأسيرى .

(٥) أشف منه : أكبر منه . (٦) ججش : خدش . (٧) أعمد : أجب .

مُرَّتَقَى صَعْبًا يَا رُوَيْمَى الْغَنَمَ ! ثُمَّ احْتَزَّ رَأْسَهُ ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَالَ : هَذَا رَأْسُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ .

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْقَتْلِ أَنْ يُطْرَحُوا فِي الْقَلْبِ ، فَأُلْقُوا فِيهِ ، وَلَمَّا سُحِبَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ إِلَى الْقَلْبِ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ فِي وَجْهِ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ عَتْبَةَ فَإِذَا هُوَ كَثِيبٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا حَذِيفَةَ ؛ لِمَ لَكَ قَدْ دَخَلَكَ مِنْ شَأْنِ أَبِيكَ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا شَكَكْتُ فِي أَبِي وَلَا فِي مَصْرَعِهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ أَبِي رَأْيًا وَحِلْمًا وَفَضْلًا ، فَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَهْدِيَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا أَصَابَهُ ، وَذَكَرْتُ مَا مَاتَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، بَعْدَ الَّذِي كُنْتُ أَرْجُو لَهُ أَحْزَنَنِي ذَلِكَ . فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ بِخَيْرٍ .

وَلَمَّا صَارَ الْقَتْلُ فِي الْقَلْبِ وَقَفَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْقَلْبِ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا . فَقَالَ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَتُكَلِّمُ قَوْمًا مَوْتَى ؟ قَالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ لَا يَسْتَعْطِمُونَ أَنْ يُجِيبُونِي . ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ الْقَلْبِ ؛ بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ! كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقْتَنِي النَّاسَ ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَّانِي النَّاسَ ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتَنِي النَّاسَ .

ثُمَّ أَمَرَ الرَّسُولُ بِجَمْعِ مَا فِي الْعَسْكَرِ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَاخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ ، فَقَالَ مَنْ جَمَعُوهُ : هُوَ لَنَا . وَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ الْعَدُوَّ وَيَطْلُبُونَهُ : نَحْنُ شَغَلْنَا عَنْكُمْ الْعَدُوَّ حَتَّى أَصَبْتُمُوهُ . وَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْرُسُونَ رَسُولَ اللَّهِ : وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقُّ بِهِ مِنَّا ، لَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نَقْتَلَ الْعَدُوَّ إِذْ مَنَحَنَا اللَّهُ أَكْثَافَهُمْ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ

المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكننا خِفْنَا على رسولِ الله كَرَّةَ العَدُوِّ فقمْنَا دونه ، فما أنتم بأحقَّ به منا ! .

ولكنَّ رسولَ الله أمرَ الناس أن يَرُدُّوا ما بأيديهم من النَّفْلِ ^(١) ؛ ثم بعث من يبشِّرُ أهلَ المدينة بما فتح الله عليه وعلى المسلمين .

وسارَ قَافِلًا إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، والنَّفْلُ الذي جمعه حتى إذا كان ببعض الطريق ^(٢) قَسَمَ النَّفْلَ على المسلمين على السواء .

ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء ^(٣) لَقِيَهِ المسلمون يَهْنِئُونَهُ بما فتح الله عليه وعلى مَنْ مَعَهُ من المسلمين ، فقال لهم سلامة بن سلامة : ما الذي تَهْنِئُونَا بِهِ ! فوالله إن لقينا إلا عجائزَ صُلَمًا كالبُذُنِ ^(٤) المَعْلَةَ فنحَرْنَاهَا ، فتَبَسَّمَ رسولُ الله ، ثم قال : يَا بَنَ أَخِي ، أولئك المَلَأُ ^(٥) .

ثم مضى رسول الله حتى قدم المدينة قبل الأسرى بيوم .

ولما جِئَ بالأسرى فرَّقَهُم رسول الله بين أصحابه ، وقال : اسْتَوْصُوا بِالْأَسَارَى خَيْرًا .

وجمع أصحابه ثم قال : ماتقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استَبَقَهُم واستَأْنِ بِهِمْ ^(٦) ، لعلَّ الله أن يتوبَ عليهم . وقال عُمر : يا رسول الله ؛ كَذَّبوك وأخرجوك ، قدَّمَهُم وأضربَ أعناقَهُم : وقال عبيد الله بن رَوَاحَةَ : يا رسول الله ؛ انظر واديًّا كثيرَ الحطبِ فأدْخِلْهُمْ فِيهِ ، ثم أضرمه عليهم نارا . فقال له العباس : قَطَعْتَكَ رَحِمُكَ ! وسكت رسولُ الله فلم يُجِبْهُمْ ، ثم دخل .

(١) النفل : الفينة . (٢) نزل النبي بمضيق الصفراء على كثيب قسم فيه النفل .

(٣) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة . (٤) البذن :

جمع بدنة ، والبدنة من الإبل والبقر ، كالأضحية من النعم تهدي إلى مكة ، تطلق على الذكر والأنثى .

(٥) المَلَأُ : الأشراف . (٦) استأنى به : انتظر وتربس ولم يعجل .

فقال ناس : يأخذُ بقولِ أبي بكر . وقال ناس : يأخذُ بقولِ عمر . وقال ناس : يأخذُ بقول عبد الله بن رَوَاحَة . ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله عز وجل ليُليِّنُ قلوبَ رجالٍ فيه ، حتى تكونَ ألينَ من اللبن ، وإن الله ليشدُّ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشدَّ من الحجارة ؛ وإن مثلك يا أبا بكر مثلُ إبراهيم قال : ﴿ فَعَنِّي عَنِّي فَإِنَّهُ مَنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ومثلك مثلُ عيسى ، قال : ﴿ إِن تَعِدُّهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . ومثلك يا عمر مثلُ نوح ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾^(١) . ومثلك كمثلك موسى ، قال : ربنا اطمس^(٢) على أموالهم ، واشدُّد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . ثم قال : أنتم اليوم عالة^(٣) فلا يُفْلِتَنَّ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبٍ عُنُقٍ . فلما كان الغدُ غدا عُمَرُ على النبي وهو قاعد مع أبي بكر ، وإذا هما يبيكان ، فقال : يا رسول الله ؛ أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فأبى وجدتُ بكاءً بكيت ، وإن لم أجِدْ تبا كُتيتُ^(٤) لبكائكما . فقال رسول الله : نَبَّيْكَ لِلَّذِي عَرَضَ عَلَى أَصْحَابِكَ مِنَ الْفِدَاءِ ، لقد عُرِضَ عَلَى عَذَابِكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ؛ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ^(٥) فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾^(٦) .

وكان أول من قدم مكة بمعد بذر الحيسُمان الخُزاعِي ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : قُتِلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؛ وجعل يُعَدِّدُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ ، فقال صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ : والله ما يُعَدُّ قَلَّ هذا . قال : والله قد رأيتُ أباك وأخاك حين قُتِلَا .

(١) دياراً : أحدا . (٢) أهلكما . (٣) عالة : تتكفل بكم . (٤) التباكى : تكلف البكاء . (٥) يشخن : حتى يبالغ في قتل أعدائه . (٦) سورة الأنفال ، آية ٦٧ .

ثم أقبل من بعده أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال له أبو لهب : هلمَّ إليّ ، فمعدك - لعمري - الخبر . فجلس إليه . والناسُ قيامٌ عليه ، فقال له : يا ابن أخي ؛ أخبرني كيف كان أمرُ الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القومَ فنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا . وإني والله ما أمتُ الناس ، لقد لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بلقٍ بين السماء والأرض ، والله ما تليقُ شيئاً^(١) ، ولا يقومُ لها شيء .

وناحت قريشٌ على قتلها ، ثم قالوا : لاتفعلوا ؛ فيبلغ محمدًا وأصحابه فيشتمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتى لا يشتدوا في الفداء .

وكان الأسودُ بنُ المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده^(٢) ، وكان يحب أن يسكن على بنيهِ ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحةً من الليل ، فقال لفلانٍ له وقد ذهب بصره : انظر ، هل أحلَّ النحيبُ ؟ هل بكت قريش على قتلها ؟ لعلني أبكي ، فإن جوفى قد احترق ! فلما رجع إليه الفلامُ قال : إنما هي امرأةٌ تبكي على أمير لها أضلته ، فقال :

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بِمِيرُ	وَيَمْنَعُهَا مِنَ النُّومِ السَّهْوُ !
فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرِ وَلَكِنْ	عَلَى بَدْرِ تَقَاصَرَتِ الْجُدُودُ ^(٣)
عَلَى بَدْرِ سَرَاةِ بَنِي هُصَيْيصَ	وَمَخْزُومٍ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّي إِنْ بَكَيْتِ عَلَى عَقِيلَ	وَبَكِّي حَارِثًا أَسَدَ الْأَسُودِ
وَبَكْيِهِمْ وَلَا تَسْمِي جَمِيعًا	وَمَا لِأَبِي حَلِيمَةَ مِنْ نَدِيدِ ^(٤)
أَلَا قَدْ سَادَ بِمَدِّهِمْ رِجَالُ	وَلَوْلَا يَوْمٌ بَدَّرَ لَمْ يَسُودُوا ^(٥)

(١) ما تليق شيئاً : ما تمسك أو ما تبق شيئاً . (٢) زمعة ، وعقيل ، والحارث بن زمعة .

(٣) البكر : الفتى من الإبل . (٤) لا تسمى : لا تسمى والنديد : الشبيه والمثيل .

(٥) في البيت لقواء ، وهو اختلاف حركة الروي .

ثم بعثت قريش في فداء الأسرى ، فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو ، وقاؤكهم فيه ، فلما انتهى إلى رضاهم قالوا : هات الذي لنا . قال : اجعلوا رجلى مكان رجله ، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه . فخلوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرزاً مكانه عندهم ، فقال مكرز :

فَدَيْتُ بِأَذْوَادِ ثَمَانٍ سَبَاً فَتَى ينال الصميم غرماً لا المواليا^(١)
رَهْنَتُ يَدِي ، وَالْمَالُ أَيْسَرُ مِنْ يَدِي على ، ولكنى خشيتُ المخازيا
وقلت : سهيلٌ خيرٌنا فاذهبوا به لأبنائنا حتى ندير الأمانيا

وبعثت زينب بنت رسول الله في فداء أبي العاص بن الربيع^(٢) بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين يئى عليها ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها ، وتردوها عليها مالها فافعلوا ! فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوها عليها الذي لها .

وكان أبو عزة الجمحي رجلاً محتاجاً ، فقال : يا رسول الله ؛ لقد عرفت ما لي من مال ، وإنى لأدو حاجة وعيال ، فامنن علي ، فن عليه الرسول ، وأخذ عليه ألا يظاهر^(٣) عليه أحداً .

وكان فداء المشركين يومئذ نحو أرבעة آلاف درهم ، إلا من لا مال له ، فقد من عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وجلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية ، وتذكرا قتلى بدر ، فقال صفوان : والله ما في العيش بدمهم خير . فقال له عمير : صدقت والله ! أما والله

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر . الصميم : الخالص النسب .

(٢) كان زوجها ، وكانت خديجة خالته . (٣) لا يظاهر : لا يعين عليه أحداً .

لولا دَيْنٌ عَلَى لَيْسَ عِنْدِي لَهُ قَضَاءٌ ، وَعِيَالٌ أَخْشَى عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ بَعْدِي لَرَكِبْتُ إِلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ ؛ فَإِنَّ لِي قَبْلَهُمْ عِلَّةً : ابْنِي أُسِيرٌ فِي أَيْدِيهِمْ .

فَاغْتَنَمَهَا صَفْوَانٌ ، وَقَالَ لَهُ : عَلَى دَيْنِكَ ، أَنَا أَقْضِيهِ عَنْكَ ، وَعِيَالُكَ مَعَ عِيَالِي أَوْاسِيهِمْ مَا بَقُوا . قَالَ عُمَيْرٌ : فَاسْكُتُمْ شَأْنِي وَشَأْنُكَ . قَالَ : أَفْعَلْ .

ثُمَّ أَمَرَ عُمَيْرٌ بِسَيْفِهِ فَشَحِذَ لَهُ وَسُمٌّ ، وَانْطَلَقَ حَتَّى قَدَّمَ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

فَبَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ يَوْمِ بَدْرٍ ، وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، إِذْ نَظَرَ عُمَرُ فَرَأَى عُمَيْرَ بْنَ وَهْبٍ حِينَ أَنَاخَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مَتَوَشِّحًا السَّيْفَ ، فَقَالَ : هَذَا السَّكْبُ عَدُوَّ اللَّهِ ، مَا جَاءَ إِلَّا لِشَرٍّ .

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؛ هَذَا عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ قَدْ جَاءَ مَتَوَشِّحًا سَيْفَهُ . قَالَ : فَأَدْخَلَهُ عَلَى . فَأَقْبَلَ عُمَرَ حَتَّى أَخَذَ بِحِمَالَةِ^(١) سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ ، فَلَبَّيْهُ^(٢) بِهَا ، وَقَالَ لِرَجَالٍ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ : ادْخُلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَاجْلِسُوا عِنْدَهُ ، وَاحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْخَبِيثِ ؛ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ .

وَدَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : أَرْسِلْنِي يَا عُمَرُ ، أَذْنُ يَا عُمَيْرُ ؛ فَدَنَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ ؟ قَالَ : جِئْتُ لِهَذَا الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ فَأُخْسِنُوا فِيهِ . قَالَ : فَمَا بِالْسَّيْفِ فِي عُنُقِكَ ؟ قَالَ : قَبَّحَهَا اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ ، وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا ؟ قَالَ : اصْدُقْنِي مَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ ؟ قَالَ : مَا جِئْتُ إِلَّا لَذَلِكَ . قَالَ : بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحَجْرِ فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلْبِيبِ مِنْ قُرَيْشٍ ، ثُمَّ قُلْتَ : لَوْلَا دَيْنٌ عَلَى وَعِيَالٌ عِنْدِي لَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّدًا ، فَتَحْمِلَ لَكَ

(١) حمالة السيف : ما يعلق به .

(٢) لبي به : جعلها في عنقه وجره بها .

صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بِدِينِكَ وَعِيَالِكَ عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ ، وَاللَّهُ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ .

قَالَ عُمَيْرٌ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ؛ قَدْ كُنَّا نَكْذِبُكَ بِمَا كُنْتَ تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَخْضُرْهُ إِلَّا أَنَا وَصَفْوَانُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَسَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : فَهَمُّوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ ، وَأَقْرَبُوهُ الْقُرْآنَ ، وَأَطْلِقُوا لَهُ أَسِيرَهُ . ففعلوا ثم قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي كُنْتُ جَاهِدًا عَلَى إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ ، شَدِيدَ الْأَذَى لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ اللَّهِ ، وَالْآنَ أَحَبُّ أَنْ تَأْذِنَ لِي فَأَقْدِمَ إِلَى مَكَّةَ فَأَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَإِلَى الْإِسْلَامِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِمْ ، وَإِلَّا آذَيْتُهُمْ فِي دِينِهِمْ كَمَا كُنْتُ أُوذِي أَصْحَابَكَ فِي دِينِهِمْ . فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ فَلَحَقَ بِمَكَّةَ ، وَلَمَّا قَابَلَهُ صَفْوَانُ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَهُ أَبَدًا ، ثُمَّ أَقَامَ بِمَكَّةَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيُؤْذِي مَنْ خَالَفَهُ أَذًى شَدِيدًا ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدِهِ نَاسٌ كَثِيرٌ^(١) .

(١) لما انقضى أمر بدر أنزل الله سورة الأنفال بأسرها . وارجع إلى ابن هشام : ٢-٢٦٨

٢ - يوم أُحُد (*)

لما أُصِيبَتْ قُرَيْشُ يَوْمَ بَدْرَ ^(١) ، وَرَجَعَ فَلَهُمْ ^(٢) إِلَى مَكَّةَ ، وَعَادَ أَبُو سَفِيَّانَ بِعَبِيرِهِ ، مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَيْيَمَةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَكَلَّمُوا أَبَا سَفِيَّانَ وَمَنْ كَانَتْ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْعِيرِ تِجَارَةٌ ، فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكَكُمْ ^(٣) ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ ، فَلَعَلَّنَا نُذَرِكُ مِنْهُ ثَمَارًا بَيْنَ أَصَابِ مَنْ ، ففعلوا ، واجتمعت قُرَيْشٌ وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ قِبَائِلِ كِفَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ .

وَبَعَثَتْ قُرَيْشُ الشُّعْرَاءَ لِيُثْبِرُوا قِبَائِلَ الْعَرَبِ وَيَجْمَعُوهُمْ حَوْلَهُمْ ، وَأَغْرَوْهُمْ بِالْمَالِ مَرَّةً ، وَمَنَّوْهُمْ الْأَمَانِيَّ مَرَّةً أُخْرَى ؛ فَهَذَا أَبُو عَزَّةَ الْجُمَحِيُّ قَدْ مَنَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرٍ ، إِذْ كَانَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ وَحَاجَةً ، وَكَانَ فِي الْأَسَارَى ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي فَقِيرٌ وَذُو عِيَالٍ وَحَاجَةٌ قَدْ عَرَفْتُهَا ، فَاْمُنْ عَلَيَّ . فَمَنَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ . هَذَا أَبُو عَزَّةَ يَقُولُ لَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ : يَا أَبَا عَزَّةَ ، إِنَّكَ أَمْرٌ شَاعِرٌ فَاعْنِنَّا بِلِسَانِكَ ، وَاخْرُجْ مَعَنَا ، فَقَالَ : إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَنَّ عَلَيَّ ، فَلَا أُرِيدُ أَنْ أَظَاهِرَ ^(٤)

* سيرة ابن هشام : ٣ - ٣ ، تاريخ الطبري : ٣ - ٩ ، وكان هذا اليوم في السنة الثالثة من الهجرة . وأحد : جبل تلقاء المدينة .

(١) بعد غزوة بدر لم يقم رسول الله بالمدينة إلا سبع ليالٍ ، ثم غزا بني سليم ، فبلغ ماء من مياههم يقال له « الكدر » فأقام عليه ثلاثاً ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً . ثم كانت غزوة السويق - وكان أبو سفيان قد نذر حين رجع من مكة أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً - فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه ، ولكنه لم يلتق بالمسلمين في حرب ، لاذ خرج النبي في طلبهم فقاتلوه . (٢) فلهم : المهزومون منهم . (٣) وترك : جعل لكم عنده ثأراً . (٤) أظاھر : أعين وأساعد .

عليه . قال : فأعيناً بنفسك ، فلكَ علىَّ إن رجعتَ أن أعينكَ ، وإن أُصِبتَ أن أجعلَ
بناتك مع بناتي ، يُصِيبهنَّ ما أصابهنَّ من عُسرٍ ويُسرٍ . نخرج أبو عزة يسيراً في
تهامة ، ويدعو بني كنانة ويقول :

أيا بني عبدِ مناة^(١) الرِّزَامُ^(٢) أنتم حُمَاةٌ وأبؤكم حَامُ
لا تعدُّوني نصرَكُم بعدَ العامِّ لا تُسَلِّمُونِي لا يحِلَّ إسلام

وخرج مُسَافِعُ بن عبد مناف إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حَرْبِ
رسولِ الله ، فقال نحواً مما قاله أبو عزة ، ودعا جُبَيْرُ بن مُطْعِمٍ غلاماً له حبشياً ، يقال له
وَحْشِيٌّ يقذف بِحَوْبَةٍ له قَذْفَ الحبشة ، قَلَمًا يُخِطِي بها ، فقال له : اخرج مع
الناس ، فإن أنتَ قتلْتَ حَمْرَةَ بَعْمَى^(٣) فأنت عَتِيق .

وخرجت قُرَيْشٌ ، بأَحَابِيشِهَا^(٤) ، وَمَنْ تبعها مِنْ بني كِنَانَةَ وأهل تهامة ،
وخرجوا معهم بِالظُّمُنِ^(٥) التماسَ الحفيظة ولئلا يَفَرُّوا .

وخرج أبو سفيان بن حَرْبٍ - وهو قائدُ الناس - بهنْدُ بنت عُبَيْة ، وخرج
عِكْرِمَةُ بن أبي جهل بأمِّ حَكِيمِ بنت الحارث ، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت
- الوليد ، وكذلك غيرهم .

وأقبلوا جميعاً حتى نزلوا بِمَعِينَيْنِ^(٦) في جبلٍ ببطن السَّبَخَةِ على شَفِيرِ^(٧) الوادي
مما يلي المدينة .

فلما سمع بهم رسولُ الله المسلمون ، وعرفوا أنهم نزلوا حيثُ نزلوا قال النبيُّ
للمسلمين : إني رأيتُ والله خيراً ، رأيتُ بقرأً تُذْبَحُ ، ورأيتُ في ذُبَابٍ سيفي

(١) في اللسان : بني عبد مناف . (٢) الرزام : جمع رازم : من رزم الرجل على قرنه إذا
برك عليه . (٣) كان عمه طعيمة قتل يوم بدر .

(٤) الأحابيش : هم القبائل الذين حالفوا قريشاً وهم تحت جبل يسمى حبشياً ، فسموا بذلك .

(٥) الظمن : جمع طلعينة وهي المرأة ما دامت في الهودج . (٦) عيينين - بكسر العين
وفتحها : جبل بأحد . (٧) شفير : ناحية .

ثَلَمَا^(١) . وَرَأَيْتُ أَنِي أُدْخِلْتُ يَدِي فِي دِرْعِ حَصِينَةٍ ؛ فَأَوَّلْتُهَا الْمَدِينَةَ^(٢) ؛ فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَقَامٍ ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ اخْرُجْ بِنَا إِلَى أَعْدَائِنَا لَا يَرَوْنَ أَنَّا جَبِينًا عَنْهُمْ وَضَعْفًا . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَقِمْ بِالْمَدِينَةِ وَلَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ ، فَوَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى عَدُوِّ لَنَا قَطًّا إِلَّا أَصَابَ مِنَّا ، وَلَا دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَدُوٌّ إِلَّا أَصَبْنَا مِنْهُ . فَدَعَاهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْسِسٍ ، وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ ؛ وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ كَمَا جَاءُوا .

وَلَكِنْ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ - مِمَّنْ أَحْبَبُوا لِقَاءَ قُرَيْشٍ - مَازَالُوا بِرَسُولِ اللَّهِ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَبِسَ لَأُمَّتَهُ^(٣) ، ثُمَّ خَرَجَ . فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ لَبَسَ السَّلَاحَ نَدَمُوا ، وَقَالُوا : يَبْنَؤُا مَاصْتَعْمًا ! اسْتَكَرْهَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا ، أَنْشِيرْ عَلَى النَّبِيِّ وَالْوَحْيُ يَا بَنِيَّ !

وَقَامُوا فَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا : اصْنَعْ مَا رَأَيْتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبِسَ لَأُمَّتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتَلَ .

وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ، يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، وَخَرَجَ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّوْطِ - بَيْنَ أَحَدٍ وَالْمَدِينَةِ - انْخَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَثْكَثٍ النَّاسِ وَقَالَ : أَطَاعَهُمْ نَخْرَجُ وَعَصَانِي ، وَاللَّهِ مَا نَدْرِي عَسَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ !

(١) ذباب السيف : حده أو طرفه . ثلم السيف : كسر حرفته . (٢) حدث بعضهم أن رسول الله قال : فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيني فهو رجل من أهل بيتي يقتل . (٣) الأمة : الدرع .

وَاتَّبَعَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ: يَا قَوْمُ! أَذْكَرُكُمْ اللَّهَ! لَا تَتَّخِذُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيِّكُمْ! قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنْكُمْ تُقَاتِلُونَ مَا أَسْلَمْنَاكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالٌ، فَلَمَّا اسْتَمَضَوْا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إِلَّا الْانْصِرَافَ قَالَ لَهُمْ: أَبَعَدَ كَمْ اللَّهُ يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ! فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ نَبِيَّهُ.

وَلَمْ يَثْنِ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَارُوا نَحْوَ هَذِهِ فَمَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَثَبٍ^(١)، مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَنَفَذَ بِهِمْ فِي حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ^(٢) وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ، حَتَّى سَلَكَ فِي مَالٍ لِمَرْبَعِ بْنِ قَيْظَى - وَكَانَ رَجُلًا مُنَافِقًا ضَرِيرًا - فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَامَ يَخْشَى^(٣) التُّرَابَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَيَقُولُ: إِنْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخَلَ حَائِطِي^(٤)، ثُمَّ أَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَا أَصِيبُ بِهَا أَحَدًا غَيْرَكَ يَا مُحَمَّدَ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ؛ فَابْتَدَرَهُ^(٥) الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَفْعَلُوا؛ فَبَدَأَ الْأَعْمَى الْأَعْمَى الْقَلْبَ أَعْمَى الْبَصَرَ.

وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى نَزَلَ الشَّعْبُ^(٦) مِنْ أُحُدٍ، فِي عُدْوَةِ^(٧) الْوَادِي إِلَى الْجَبَلِ، فَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ، وَقَالَ: لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ حَتَّى تَأْمُرَهُ بِقِتَالٍ. وَأَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ عَلَى الرُّمَّةِ، وَقَالَ لَهُ: انْضَحْ^(٨) الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، وَإِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَابْتُئِمْ مَكَانَكَ، لَا تُؤْتِيَنَّ مِنْ

(١) كَثَبٌ: قَرْبٌ. (٢) الْحَرَّةُ: أَرْضُ ذَاتِ حِجَارَةٍ نَخْرَةً سَوْدَ. (٣) حَشَا التُّرَابِ يَحْنُوهُ، وَيَحْنِيهِ: رَمَاهُ. (٤) الْحَائِطُ: الْبَسْتَانُ. (٥) ابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ: مَجَلُّوْا لَهُ وَأَسْرَعُوا. (٦) الشَّعْبُ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ. (٧) عُدْوَةُ الْوَادِي: شَاطِئُهُ، وَهِيَ مِثْلَةُ الْعَيْنِ. (٨) انْضَحَ الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ: رَمَاهَا لِيَدَامَهَا وَيَبْعِدَهَا.

قَبْلِكَ . وظاهر رسول الله بين درعين ، ودفع اللواء إلى مُصَنَّب بن عُمير .
أما قريش فقد عَبَّأتْ^(١) ثلاثة آلاف رجل ، معهم مائتا فارس قد جَنَّبُوها^(٢) ،
وجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالد بن الوليد ، وعلى مَيْسَرَتِهَا عِكْرِمَةُ بن أبي جهل .
وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عَبْدِ الدار ، يُحَرِّضُهُمْ على القتال :
يا بني عبد الدار ؛ إنكم قد وُلِّيتُمْ لَوَاءَنَا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ؛ وإنما يُؤْتَى
الناسُ من قَبْلِ رَأْيَاتِهِمْ ، إذا زَالَتْ زَالُوا ، فإمّا أن تَكْفُونَا لَوَاءَنَا ، وإمّا أن تُخْلُوا
بيننا وبينه . فمَمُّوا به وتواعدوه ، وقالوا : نحن نُسَلِّمُ إِلَيْكَ لَوَاءَنَا ! ستعلمُ غداً إذا
التَقِينَا كيف نصنع !

والتقى الناسُ ، ودنا بعضهم من بعض ؛ فقامت هند بنت عتبة في النسوة
اللاثى معها ، وأخذت الدُّفوفَ يضرِّبُ بها خلفَ الرجالِ يحرِّضُهُمْ ، فقالت هند :
وَيْهًا^(٣) بني عبد الدار وَيْهًا حُمَاةَ الْأُدْبَارِ !
* ضَرْبًا بِكُلِّ بَتَّارٍ^(٤) *

إِنْ تُقْبِلُوا نَعَانِقُ وَتَقْرِشُ النَّمَارِقُ^(٥)
أَوْ تَذُبُّرُوا نَفَارِقُ فِرَاقٍ غَيْرِ وَامِقٍ^(٦)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يَأْخُذْ سِيفِي هَذَا بِحَقِّهِ ؟ فقام إليه رجالٌ
فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دُجَانَةَ^(٧) فقال : وما حَقُّهُ يا رسول الله ؟
قال : أَنْ تَضْرِبَ به العدوَّ حتى يَنْحَنِيَ . قال : أنا آخُذُهُ بِحَقِّهِ . فأعطاه إياه . فلما
أخذه من يد رسول الله أخرج عصا بته الحمراء فعصَّبَ بها رأسه ، وخرج وهو يقول :

(١) عبأ الجيش : جهزه وهيأه ورتبه للحرب . (٢) جنبوا الخيل : سيروها بجانبهم حتى
إذا فتر المركوب تحولوا إلى الجنوب . (٣) لغراء . (٤) البتار : السيف القاطع .
(٥) النمارق : جمع نمركة ، والنمركة : الوسادة الصغيرة ، أو الطنفسة فوق الرجل .
(٦) وامق : محب . (٧) هو سمالك بن خرشة .

إِنِّي أَمْرُؤٌ عَاهَدَنِي خَلِيلِي أَلَّا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيْوَلِ^(١)
أَضْرِبُ^(٢) بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ ضَرْبَ غُلَامٍ مَاجِدٍ بِهَلُولِ^(٣)
ثُمَّ جَعَلَ يَتَبَخَّخْتُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ حِينَ رَأَاهُ : إِنَّهَا لِمِشِيَّةٌ
يُيَبِّغُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ . وَجَعَلَ أَبُو دُجَانَةَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ ،
حَتَّى انْتَهَى إِلَى نِسْوَةٍ فِي سَفْحِ جَبَلٍ ، مَمْنَنٌ دُفُوفٌ لَهَا ، وَفِيهَا امْرَأَةٌ تَقُولُ :
نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ إِنْ تَقْبَلُوا نَفَارِقُ

.....

فَرَفَعَ السَّيْفَ لِيَضْرِبَهَا ، ثُمَّ كَفَّ عَنْهَا ؛ لِأَنَّهُ أَكْرَمَ سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ
يَضْرِبَ بِهِ امْرَأَةً .

وَنَظَرَ وَخَشِيَ غُلَامٌ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ إِلَى حَمْزَةٍ يَهْدُ النَّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يُبْقَى عَلَى
شَيْءٍ ، فَهَزَّتْ حَرْبَتَهُ ، وَدَفَعَهَا إِلَيْهِ فَخَرَّ صَرِيحًا .

وَقَاتَلَ مُضْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ حَتَّى قُتِلَ ، فَأَعْطَى النَّبِيُّ اللِّوَاءَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ ،
فَقَاتَلَ بِهِ ، وَقَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى أُنْزِلَ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَصَدَقَهُمْ وَعَدَهُ ؛ فَهَزَمُوا
الْمُشْرِكِينَ ؛ وَحَسُّوهُمْ^(٤) بِالسَّيْفِ حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنِ الْعَسْكَرِ ، وَأَصَابُوا أَصْحَابَ
اللِّوَاءِ^(٥) .

وَلَمَّا هَزَمَ الْمُشْرِكُونَ ، وَرَأَاهُمُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَبَلِ ، قَالَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : هَلُمُّوا فَأَدِرْ كُوا الْغَنِيمَةَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنَا إِلَيْهَا أَحَدٌ ! وَتَرَكُوا أَمَاكِنَهُمْ ،
فَخَلَوْا ظَهْرَ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَيْلِ ،

(١) الكيول : مؤخر الصفوف . (٢) قال في اللسان : « سكنت الباء في أضرب لكثرة
الحركات » ، وارجع إلى الفائق ٢-٤٣٩ . (٣) البهلول : السيد الجامع لكل خير .
(٤) حسوهم : قتلهم قتلا ذريعا مستأصلا . (٥) لم يزل لواء المشركين صريحا حتى أخذته
عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش فاجتمعوا حوله ، وفي ذلك قال حسان :
فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بين الجلائب

وَأَتَى الْمَسْلُومُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، فَانْكَشَفُوا وَأَصَابَ مِنْهُمْ الْمُشْرِكُونَ . وَصَرَخَ صَارِخٌ يَقُولُ : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ؛ فَانْكَفَأَ الْمَسْلُومُونَ ، وَانْكَفَأَ عَلَيْهِمُ الْكَفَّارُ ^(١) ، وَخَلَصَ الْعَدُوُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَدُثَّ ^(٢) بِالْحِجَارَةِ حَتَّى وَقَعَ لِشِقِّهِ ؛ فَأُصِيبَتْ رِبَاعِيَّتُهُ ^(٣) ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهِ ، وَكُلِمَتْ شَفَتُهُ ^(٤) ، وَجَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَصَارَ يَمَسِّحُ الدَّمَ وَهُوَ يَقُولُ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ^(٥) !

وَدَخَلَتِ حَلَقَتَانِ مِنْ حَلَقِ الْمَغْفَرِ ^(٦) فِي وَجْدَتَيْهِ ، وَوَقَعَ فِي حُورَةٍ ، وَغَشِيَهُ الْقَوْمُ ، فَقَالَ : مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي ^(٧) لِنَفْسِهِ ؟ فَقَامَ زِيَادُ بْنُ السَّكَنِ فِي نَفَرٍ خَمْسَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَقَاتَلُوا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ رَجُلًا رَجُلًا ، يُقَتِّلُونَ دُونَهُ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ زِيَادٌ ؛ فَقَاتَلَ دُونَهُ حَتَّى أُنْبِتَتْهُ الْجِرَاحَةُ ^(٨) ؛ ثُمَّ فَاءَتْ فِئَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَجْهَضُوهُمْ عَنْهُ ^(٩) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَدْنُوهُ مِنِّي . فَأَدْنَوْهُ مِنْهُ ، فَوَسَّدَهُ قَدَمَهُ ، وَمَاتَ وَخَذَهُ عَلَى قَدَمِ رَسُولِ اللَّهِ .

وَقَاتَلَتْ أُمُّ عُمَارَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتَ كَعْبٍ ، وَقَدْ وَصَفَتْ مَا كَانَ مِنْهَا إِذْ ذَاكَ فَقَالَتْ : خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَأَنَا أَنْظَرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ ، وَمَعِيَ سِقَالٌ لِي فِيهِ مَاءٌ ، فَانْتَهَيْتُ

(١) انْكَفَأَ الْقَوْمُ : انْهَزَمُوا ، وَانْكَفَأَ عَلَيْهِ : مَالَ . (٢) دُثَّ بِالْحِجَارَةِ : رُمِيَ بِهَا .

(٣) الرِّبَاعِيَّةُ كَثَائِمِيَّةٌ : لِاحْدَى الْأَسْنَانِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَلِي الثَّنَائِيَّاتِ بَيْنَ الثَّنِيَّةِ وَالنَّابِ .

(٤) الْكَلِمُ : الْجَرْحُ ، وَالشِّقُّ : الشَّقُّ .

(٥) كَانَ الَّذِي أَصَابَهُ عَثْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَقَالَ حَسَّانُ فِي ذَلِكَ :

فَأَخْزَاكَ رَبِّي يَا عَتِيبَ بْنَ مَالِكٍ وَلَقَاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ لِاحْدَى الصَّوَاعِقِ

بَسَطْتَ يَمِينًا لِلنَّبِيِّ تَعَمُّدًا فَأَدْمَيْتَ فَاهَ قَطَعْتَ بِالْبَوَارِقِ

فَهَلَا ذَكَرْتَ اللَّهَ وَالْمَنْزِلَ الَّذِي تَصِيرُ إِلَيْهِ عِنْدَ لِاحْدَى الْبَوَائِقِ !

البَوَائِقُ : جَمْعُ بَائِقَةٍ ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ لِأَنَّهَا تَهْلِكُ مَنْ تَنْزِلُ بِهِ .

(٦) الْمَغْفَرُ : شَبِيهِهِ بِالْذَّرْعِ ، ذُو حَلْقٍ ، يَجْعَلُ عَلَى الرَّأْسِ فِي الْحَرْبِ .

(٧) يَشْرِي : يَبِيعُ . (٨) أُنْبِتَتْهُ : جَعَلَتْهُ ثَابِتًا فِي مَكَانِهِ لَا يَفَارِقُهُ ، مِنْ شِدَّتِهَا .

(٩) فَاءَتْ : رَجَعَتْ ، وَأَجْهَضُوهُمْ : أزالوهم

إلى رسول الله ونحو أصحابه ، والدولة والريح^(١) للمسلمين ؛ فلما انهزم المسلمون انتحزت إلى رسول الله ، فقامت أبشِرُ القتال ، وأذُبُ عنه بالسيف ، وأرْمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلى .

وترس^(٢) دون رسول الله أبو دُجَّانة بنفسه ، يقع النبل في ظهره وهو مُنَحْنٍ عليه ، حتى كثر فيه النبل . وكذلك فعل سعدُ بن أبي وقاص وغيره .

وساد الناس هرج ومرج^(٣) بعد الهزيمة وقول الناس : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ! إلى أن عرفه كعبُ بن مالك ؛ إذ رأى عينيه تزهران^(٤) من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ أبشروا ، هذا رسول الله ! فأشار إليه الرسول : أن أنصت .

فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به ، فأخذ على بن أبي طالب بيده ، ورفع طلحةُ بن عبيد الله حتى استوى قائماً ؛ ومصَّ مالك بن سنان الدّم عن وجهه ، ونزع أبو عبيدة إحدى الحلقةين ، فسقطت ثنيته وهو يمالج إخراجها ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، ونهض معهم نحو الشعب ، يصاحبه أبو بكر وعمر ورهط من المسلمين .

ولما أسند^(٥) رسول الله في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجوت ! فقال القوم : يا رسول الله ؛ أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله : دعوه . فلما دنا منه تناول الحربة ، ثم استقبله فطمعته في عنقه طمعة تدأ^(٦) منها عن فرسه مراراً ، ورجع إلى قريش وقد خدش في عنقه خدشاً غير كبير ، فقال : قتلني والله محمد ! قالوا : ذهب والله فؤادك ، والله ما بك من بأس ؟

(١) الغلبة والنصر . (٢) أذب : أدافع . (٣) الترس التسنن بالترس ، والمراد : وقف دونه بقيه بنرسه . (٤) هرج ومرج : اختلاط واضطراب . (٥) تزهران : تضئان وتلهمان . (٦) أسند في الجبل : صعد فيه . (٧) تدأ : مال .

قال : إنه كان قال لي بمكة : أنا أقتلُك ! ثم مات بِسَرْف^(١) ، وهم قافِلُونَ به إلى مكة^(٢) .

وانتهى رسولُ الله إلى فَمِ الشَّعب ، وبينما هو هناك ومعه نَفَرٌ من أصحابه إذ عَلتَ عاليةٌ من قُرَيْشِ الجبل ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يَعْمَلُوا . فقاتل عمر ورَهْط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل .

وقُتِلَ من المسلمين عددٌ كبير^(٣) ، ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى من أصحاب رسول الله : يَجْدَعْنَ الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خَدَمًا^(٤) ، وأعطت هند خَدَمَهَا وقلائدها وقِرَاطَها وَخَشِيًّا غلام جُبَيْر بن مُطْعِم ، وبَقَرَت^(٥) عن كَبِدِ حَمَزَةَ فلا كَتَمَهَا^(٦) ؛ فلم تستطع أن تُسَيِّفَهَا فَلَفَظَتَهَا ، ثم عَلتَ على صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ فصرخت بأعلى صوتها قائلة :

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُمر^(٧)
ما كانَ عَنْ عُتْبَةَ لى من صَبْرٍ ولا أخى وعمّه وبِكْرِي^(٨)
شفيتُ نَفْسِي وقضيتُ نَذْرِي شفيتُ وَخَشِيَّ غليلَ صَدْرِي
فَشُكْرُ وَخَشِيٍّ عَلَى عَمْرِي حتى تَرِمَّ أَعْظَمِي في قَبْرِي^(٩)

(١) سرف : موضع على ثلاثة أميال من مكة . (٢) قال حسان في ذلك :
لقد ورث الضلالة عن أبيه أبى يوم بارزه الرسول
(٣) قال أبو سفيان بن حرب يذكر صبره في ذلك اليوم ومعاونة ابن شعوب شداد :
ولو شئتُ لنجتني كميت طمرة ولم أحمل النعماء لابن شعوب
فما زال مهري مزج السكب منهم لدى غدوة حتى دنت لغروب
فأجابه حسان :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولست لزور قلته بعصيب
أنعجب أن أقصدت حمزة منهم ونجيباً وقد سميت به بنجيب !
(٤) خدماً : جمع خدمة وهي الخائال . (٥) بقرت : شقت . (٦) لا كتمها : مضغتها .
(٧) السمر : العذاب . (٨) أبوها عتبة ، وأخوها الوليد ، وعمها : شيبه ، وبكرها :
ابنها حنظلة ، وأربعتهم قتلوا يوم بدر . (٩) ترم : تبلى .

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد فقالت :

خَزِيَّتِ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرٍ يَا بِنْتَ وَقَاعٍ عَظِيمِ الْكَفْرِ^(١)
صَبَّحَكَ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ مِنْهَا شَمَّيْنِ الطَّوَالِ الزَّهْرِ^(٢)
بِكُلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرَى^(٣) حَمَزَةُ لَيْثِي وَعَلَى صَقْرِي
إِذْ رَامَ شَيْبٌ^(٤) وَأَبُوكَ غَدْرِي نَحْضَبَا مِنْهُ ضَوَاحِي النَّحْرِ^(٥)
* وَنَذَرُكَ السَّوَاءَ فَشَرُّ نَذَرٍ *

ثم إن أبا سفيان بن حرب أشرف على الجبل ، وصرخ بأعلى صوته فقال :
أفي القوم محمد ؟ ثلاثا . فنهاهم رسول الله أن يجيبوه . ثم قال : أفي القوم ابن
أبي قحافة ؟ ثلاثا . فنهاهم رسول الله أن يجيبوه . ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟
ثلاثا . فنهاهم رسول الله أن يجيبوه . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء
فقد قتلوا ؛ لو كانوا في الأحياء لأجابوا ! فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه
أن قال : كذبت يا عدو الله ! قد أبقي الله لك ما يخزيك . فقال : اعل هبل ،
اعل هبل^(٦) . فقال رسول الله : أجهبوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله
أعلى وأجل . قال أبو سفيان : ألا إن لنا العزى ولا عزى لكم ! فقال رسول الله
قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم يوم بدر ، والحرب
سجال^(٧) ! إن موعدكم بدر للعام القابل ! فقال رسول الله لرجل من أصحابه :
قل : نعم ؛ هو بيننا وبينك موعد^(٨) .

(١) وقاع : كبير الوقوع في الدنيا . (٢) منهاشمين : من الهاشمين . الزهر : الكرام .

(٣) يفري : يقطع . (٤) شيب : شيبة . (٥) ضواحي النحر : ما ظهر من الصدر .

(٦) هبل : صنم . (٧) الحرب سجال : أي للجماعة مرة ، وللجماعة مرة أخرى .

(٨) خرج رسول الله في شعبان سنة أربع لبعاد أبي سفيان حتى نزل بدرأ ، وأقام عليه ثمانى
ليال ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان في أهل مكة ، ثم بدا له الرجوع ، فانصرف رسول الله
إلى المدينة ولم يلق حرباً ، وهذه هي غزوة بدر الآخرة .

ثم بعث رسول الله على بن أبي طالب فقال : اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ! فإن كانوا قد جنبوا^(١) الخيل ، وامتنطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أراذوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأنأجزنهم . فخرج على في آثارهم ليرى ما يصنعون ، فإذا هم قد جنبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، وتوجهوا إلى مكة .

وفرح الناس لقتلهم ، فقال رسول الله : من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجده جريحاً في القتلى ، به رمق^(٢) . فقال له : إن رسول الله قد أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : أنا في الأموات . فأبلغ رسول الله عنى السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عنى السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خالص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف . ثم لم يبرح حتى مات ؛ فجاء رسول الله فأخبره خبره^(٣) .

وخرج رسول الله يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، فوجده يبطن الوادي قد برئ بطنه ، ومثّل به ، فجذع أنفه وأذناه ، فقال حين رأى ما رأى : لولا أن تحزن صفة وتكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير . ولئن أظهرني^(٤) الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم .

(١) جنبوا الخيل : جعلوها بجانبهم لم يركبوها ، حتى إذا فتر المراكب تحولوا إلى المحبوب .

(٢) الرمق : بقية الحياة . (٣) دخل رجل على أبي بكر ، وبنت لسعد بن الربيع جارية

صغيرة يقبلها ، فقال له الرجل : من هذه ؟ قال : هذه بنت رجل خير مني ؛ هو سعد بن الربيع .

(٤) أظهرني : نصرني .

ولما رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله وغيظَه مما فعلَ بِمَعَّةٍ قالوا : والله لئن أظفَرَنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثِّلَنَّ بهم مُثْلَةً لم يُمثِّلها أَحَدٌ من العرب^(١).

ووقف رسول الله على حمزة ، وقال : لئن أصاب بِمثلك أيدا ، ما وقفتُ موقفاً قطُّ أغيظُ إلى من هذا ! ثم أمر به فُسِّجَى^(٢) بِرُذَّةٍ ، ثم صلى عليه ، ثم أتى بالقتلى يُوضَعون إلى حمزة ، فصلى عليهم وعليه معهم .

وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب لتُنظَرَ إليه ، فقال رسول الله لابنها الزبير بن العوام : ألقها فأرجمها حتى لا ترى ما بأخيها . فقال لها : يأمُّ ؛ إن رسول الله يأمرُك أن ترجمي . قالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي ؛ وذلك في الله قليل ! فما أرضانا بما كان ! لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله !

فلما جاء الزبير إلى رسول الله وأخبره بذلك قال : خلَّ سبيلها . فأتته فنظرت إليه وصلت عليه واسترجعت^(٣) واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله فدُفِنَ .

وأشرف رسول الله على القَتلى ، وقال : أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنه ما من جريحٍ يُجَرَّحُ في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدعى جرحه ، اللونُ لونُ دمه ، والريحُ ريحُ مسك . انظروا أكثر هؤلاء جَمْعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر . ثم قال : انظروا إلى عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو ، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا ، فاجعلوها في قبرٍ واحد .

ثم انصرف راجعاً إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش ، فذمى لها أخاها عبد الله ابن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها مصعب بن عمير - زوجها - فصاحت

(١) عن ابن عباس أن الله أنزل في ذلك : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فعفا رسول الله وصبر ، ونهى عن المثلة . (٢) سجي : غطى .
(٣) قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وَوَلَّوْتِ . فقال رسول الله : إنَّ زوجَ المرأةِ منها بمكان .

ومرَّ رسولُ الله بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ ، فَسَمِعَ مِنْهُمْ الْبُكَاءَ وَالتَّوْاحَ عَلَى قَتْلِهِمْ ، فَذَرَفَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ وَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ : لَكِنَّ حِمْزَةَ لَا بَوَارِكِي لَهُ ! فَذَهَبَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَأَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ إِلَى دُورِ الْأَنْصَارِ فَأَمْرُ نِسَاءِهِمْ أَنْ يَذْهَبْنَ فَيَكِينَنَّ عَلَى عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ . وَسَمِعَ النَّبِيُّ بُكَاءَهُنَّ عَلَى حِمْزَةَ فَخَرَجَ إِلَيْهِنَّ ، وَهُنَّ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَقَالَ : رَحِمَ اللَّهُ الْأَنْصَارَ ! فَإِنَّ الْمَوَاسَاةَ مِنْهُمْ مَا عَلِمْتُ لَقَدِيمَةً ، مَرُّهُنَّ فَلْيَتَصَرَّفْنَ .

ومرَّ فِي طَرِيقِهِ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ قَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا بِأَحَدٍ ، فَلَمَّا نَعَمُوا إِلَيْهَا قَالَتْ : فَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالُوا : خَيْرًا ، هُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا تُحِبُّينَ . قَالَتْ : أَرُونِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَأُشِيرَ لَهَا إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ : كُلُّ مَصِيبَةٍ بِمَدَّكَ جَلَلٍ^(١) !

وَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَهْلِهِ نَاولَ سَيْفَهُ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ وَقَالَ : اغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بَنِيَّةَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ . وَنَاولَهَا عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ فَقَالَ : وَهَذَا أَيْضًا فَاغْسِلِي عَنْ دَمِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ .

وَلَمَّا كَانَ الْفَدُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ مُرْهَبًا لِلْعَدُوِّ ، وَلِيَبْلُغَهُمْ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِهِمْ فَيُظَنُّوا بِهِ قُوَّةً ، وَأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ لَمْ يُوهِنِهِمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ . وَأَذَّنَ مُؤَذِّنُهُ أَلَّا يُخْرَجَنَّ مَعَنَا أَحَدٌ إِلَّا مِنْ حَضَرٍ يَوْمَنَا بِالْأَمْسِ ، فَكَلَّمَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ أَبِي كَانَ خَلَفَنِي لَأُخَوَاتِي لِي سَبْعٌ وَقَالَ : يَا بَنِيَّ ؛ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي وَلَا لَكَ

أن نترك هؤلاء النسوة لا رجلَ فيهنَّ ، ولستُ أؤثرُك بالجهاد مع رسول الله على نفسي ، فتخلفُ على أخوانك ، فتخلفنَّ عليهنَّ . فأذن له بالخروج .

وخرج رسولُ الله حتى انتهى إلى حَمراء الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال - فرَّب به مَعْبِدُ الْخَزَاعِي ^(١) ، فقال : يا محمد ؛ والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك ، ولودِدْنَا أنَّ الله عافاك منهم . ثم سار مَعْبِدُ الْخَزَاعِي ، حتى لَقِيَ أَبَا سَفِيَّانَ ابن حرب وَمَنْ مَعَهُ بِالرَّوْحَاءِ ^(٢) ، وقد أجمعوا الرِّجْمَةَ إلى رسولِ الله وأصحابه ، وقالوا : أَصَبْنَا حَدَّ ^(٣) أصحابه وأشرافهم وقادَتَهُمْ ، ثم رجع قبل أن نستأصلهم ! لنُكْرِنَ على بقيَّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنَّ مِنْهُمْ . فلما رأى أبو سَفِيَّانَ مَعْبِدَ الْخَزَاعِيَّ قال : ما وراءك يا مَعْبِدُ ؟ قال : قد خرج محمدٌ في أصحابه يطلبُكم في جَمْعٍ لم أرَ مثله قطُّ ؛ يتحرِّقون عليكم تحريقًا ، وقد اجتمع معه مَنْ كان تخلف عنه في يومكم وتلدِّموا على ماضيهم وفيهم من ألحقَ عليكم شئًا لم أرَ مثله قطُّ ! قال : ويحك ما تقول ! قال : والله أرى أنَّك لا ترتحل حتى ترى نواصِيَ الْخَيْلِ . قال : فوالله لقد جمعنا الكثرة عليهم لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ . قال : فإني أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ أبيانا من الشعر . قال : وما قلتُ ؟ قال : قلتُ :

كَادَتْ تُهْدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ ^(٤)
تَرْدِي بِأَسَدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلُهُ ^(٥) عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَاذِيلِ ^(٦)

(١) كانت خزاعة ، مسلمهم ومشرِكهم موضع سر رسول الله بتهامة ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها . (٢) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين ميلاً من المدينة . (٣) حد أصحابه : بأسهم . (٤) تهدي : تسقط من الإعياء لهول ما ترى . والجرد : الخيل الكريمة . والأبابل : الجماعات . (٥) ردى الفرس : رجى الأرض بحوافرها ، أو هو بين العدو والمشي . الثنابلة : القصار . (٦) الميل : الذين لا يثبتون على السرج . والمعازيل : الغزل من السلاح .

فَظَاتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً لَمَّا سَمَوْا بِرئيسٍ غيرِ مَخْدُولٍ
فَقَات : وَيْلُ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ إِذَا تَغَطَّمَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجَلِيلِ (١)
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبُسْلِ ضَاحِيَةٍ اكْلٌ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولٍ (٢)
مِنْ جَدِّشِ أَحْمَدٌ لَا وَخْشَ (٣) قَدَابِلُهُ وَلَيْسَ يَوْفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقَيْلِ

ومرّ بأبي سفيان رَكْبٌ مِنْ غُبْدِ الْقَيْسِ فَقَالَ : أَيْنَ تَرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نُرِيدُ
الْمَدِينَةَ ، قَالَ : لَمْ ؟ قَالُوا : نُرِيدُ الْمِيرَةَ (٤) . قَالَ : فَهَلْ أَنْتُمْ مَبْلَغُونَ عَنِي مُحَمَّدًا رِسَالَةً
أُرْسِلُكُمْ بِهَا إِلَيْهِ ، وَأَحْمِلَ لَكُمْ إِبَائَكُمْ هَذِهِ غَدًا زَبِيئًا بُمَكَاظٍ إِذَا وَافَيْتُمُوهَا ؟
قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَإِذَا وَافَيْتُمُوهُ فَأَخْبِرُوهُ أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ
لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتِهِمْ .

فرّ الركبُ برسول الله ، وهو بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سَفْيَانَ ،
فَقَالَ : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

وَأَرَادَ أَبُو سَفْيَانَ السَّيْرَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَأْصِلَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ
أُمِيَّةَ بْنِ خَافٍ : يَا قَوْمَ ، لَا تَفْعَلُوا ، فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ حَرَّبُوا (٥) ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ
لَهُمْ قِتَالٌ غَيْرَ الَّذِي كَانَ ، فَارْجِعُوا . فَارْجِعُوا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ
بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّهُمْ هُمُّوا بِالرَّجْعَةِ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ سُوِّمَتْ (٦) لَهُمْ
حِجَابَةٌ لَوْ صُبِّحُوا بِهَا لَسَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ .

(١) تَغَطَّمَت : اضطربت ، والجليل : الصنف من الناس . (٢) البسل : الحرام ، ويريد
بأهل البسل مكة ، والإربة : العقل . (٣) الوحش : صفار الناس وورذالهم . القنابل : طوائف
الناس والجيل . (٤) الميرة : جلب الطعام . (٥) حربوا : غضبوا وتغلبوا .
(٦) سوّمت : أرسلت .

وقدم رسول الله المدينة ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول له مقام يقومه كل جمعة لا يُسَكَّرُ ، شَرَفًا له في نفسه وفي قومه ، وكان إذا جلس رسول الله يوم الجمعة ، وهو يخطب الناس قام فقال : آتِهَا النَّاسُ ؛ هذا رسول الله بين أظهركم ، أَكْرَمَكُمْ الله وأعزكم به ، فأنصروه وعزروه^(١) واسمعوا له وأطيعوا ، ثم يجلس ؛ حتى إذا صنع يوم أحد^(٢) ما صنع ، ورَجَعَ بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعل ، فأخذ المسلمون بثيابه من نَوَاحِيهِ ، وقالوا : اجلس أي عدو الله ! لستَ لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لسكائنما قلتُ بُجْرًا^(٣) أن قُتُّ أشدُّ أمره . فلقِيَه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد . وقال له : مالكَ ويْلَكَ ! قال : قُتُّ أشدُّ أمره ، فوثب على رجلٍ من أصحابه يَجْبِذُونِي^(٤) ويمنّفونني لسكائنما قلتُ بُجْرًا أن قُتُّ أشدُّ أمره ! قال : ويْلَكَ ! ارجع يستغفر لك رسول الله . قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي .

وكان يوم أحد يومَ بلاءٍ وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومَحَقَ المنافقين ، ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه ، وكان يوما أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

ومما قيل من الشُّعر في هذا اليوم قول حسان بن ثابت يمجيب هبيرة بن أبي وهب^(٥) :

(١) عزروه : عظموه . (٢) أي رجوعه بثلك الناس . (٣) البجر : الشر والأمر العظيم .

(٤) يجذبونني : يجذبونني . (٥) ديوانه : ٤٢٤ .

سُقْتُمْ كِنَانَةَ جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ^(١) إِلَى الرَّسُولِ فَجُنِدُ اللَّهِ مُخْزِيهَا
 أَوْرَدَتْهُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً^(٢) فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْقَتْلُ لَا قِيَهَا
 جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشًا بِلَا حَسَبٍ^(٣) أُمَّةَ الْكُفْرِ غَرَّتْكُمْ طَوَافِيهَا
 أَلَا اَعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ قَتَلَتْ^(٤) أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا^(٥)
 كَمْ مِنْ أُسِيرٍ فَكَنَّاهُ بِلَا تَمَنٍّ وَجَزَّ نَاصِيَةً كُنَّا مَوَالِيَهَا^(٦)

(١) في الديوان: «من عداوتكم» . . (٢) الضاحية : البارزة . (٣) في الديوان : «أنتم
 أحابيش جمع بلا نسب» . (٤) في الديوان : «هلا . . . إذ لقيت» .
 (٥) في الديوان : «ومن أرديته فيها» . القليب : البئر ، ويريد بأهل القليب : من قتل في
 بدر من المشركين فطرح في القليب . (٦) موالياها : أهل النعمة والفضل عليها . يريد أنهم فكوا
 كثيراً من أسرى قريش يوم بدر بغير فداء فكانوا لذلك أصحاب النعمة .

٣ - يوم الرجيع (*)

قدم على رسول الله بعد أخذ رهط من عضل والقارة^(١) ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاما وخيرا ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفتقوننا في الدين ، ويُقرئونا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله معهم ستة من أصحابه ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، فخرج مرثد مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع غدروا^(٢) بهم ، واستصرخوا عليهم هذيانا .

ولم يلبث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رأوا الرجال في أيديهم السيوف ، فأخذوا أسياقهم ليقاتلوهم ، فقالوا لهم : إنا لا نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نُصيب بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم . فقال مرثد ابن أبي مرثد ورجلان معه^(٣) : لا تقبل من مُشركٍ عهدًا ولا ميثاقًا ، وقاتلوا حتى قُتلوا جميعًا .

وأما الثلاثة الآخرون^(٤) فرغبوا في الحياة ، وأعطوا بأيديهم ، فأَسْرَوْهم ، وخرَجُوا بهم إلى مكة ليبيئهموهم هناك .

* سيرة ابن هشام : ٣ - ١٦٠ ، تاريخ الطبري : ٣ - ٢٩ ، معجم البلدان ٤ - ٢٢٨ ، وكان هذا اليوم في السنة الرابعة من الهجرة . والرجيع : ماء لهذيل .

(١) عضل والقارة : قبيلتان من كنانة . (٢) قال حسان يهجو هذيانا :

هم غدروا يوم الرجيع وأسلمت أماتهم ذا عفة ومكارم
رسول رسول الله غدرا ولم تكن هذيل توفي منكرات المحارم

(٣) هما خالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح . (٤) هم زيد بن الدثنة ،

وعبد الله بن طارق ، وخبيب بن عدي .

أما أحدُهم ، وهو عبدُ اللهِ بنُ طارق فقد انتزع يده من القرآن^(١) حينما وصل إلى الظَّهْرَان وأراد الفرار ، فقتلوه .

وأما ثانيهم ، وهو خُبَيْب بن عَدِيٍّ ، فقد ابتاعه بعضُ أهلِ مَكَّةَ ليقْتله بأبيه ، وخرجوا به من الحرم ليقْتلوه ، فقال : ذَرُونِي أَصِلْ رَكْعَتَيْنِ ؛ فَصَلَّى سَجْدَتَيْنِ ، ثم قال : لولا أن يقولوا : جَزَعَ من الموت لَزِدْتُ ، وما أبا لي على أي شَيْءٍ كانَ اللهُ مَضْرَعِي !

ثم رفعوه على خَشَبَةٍ ، فلمَّا أَوْتَقَوْهُ ؛ قال : اللهم إنا قد بَلَّغْنَا رسالةَ رسولِكَ ، فبَلِّغْهُ الغداةَ ما يُصْنَعُ بنا . اللهم أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، واقتُلْهُمْ بَدَدًا ، ولا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . . . ثم قتلوه .

وأما الثالث ، وهو زَيْدُ بن الدَّيْنَةِ ، فقد ابتاعه بِمَكَّةَ صَفْوَانُ بن أُمَيَّةَ ليقْتله ، بأبيه أُمَيَّةَ بن خَلَف .

وبعث به صَفْوَان مع مَوْلى له إلى التَّنْعِيمِ^(٢) ليقْتله ، واجتمع إليه رَهْطٌ من قُرَيْشٍ ، فيهم أبو سفيان بن حَرْب ، فقال له أبو سفيان حين قُدِّمَ ليقْتَلَ : أنشدك الله يا زَيْد ، أتحبُّ أنَ محمداً عندنا الآن مكانَكَ نضربُ عُنُقَهُ ، وأنتَ في أهْلِكَ ! قال : والله ما أحبُّ أنَ محمداً تُصِيبَهُ شوكةٌ تُؤْذِيهِ وأنا جالسٌ في أهْلِي ! قال أبو سَفِيَّان : ما رأيتُ في الناسِ أحداً يحبُّهُ أصحابُهُ كما يحبُّ هؤلاءُ محمداً .

ولما قُتِلَ الذين وجَّهَهُم النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى عَضَلٍ والقارةِ ، وبلغه خبرُهم بعث عمرو بن أُمَيَّةَ الصَّنَمِرِيُّ إلى مَكَّةَ مع رجلٍ من الأنصار ، وأمرها بقتل أبي سفيان ابن حرب — قال عمرو :

(١) القرآن : الحبل . (٢) التنعيم : موضع على ثلاثة أميال من مكة .

(٤) — أيام العرب في الإسلام .

بمعنى رسول الله بعد قتل أصحابه الذين بعثهم إلى عضل والقارة ، وبمعنى
معى رجلا ، وقال : اثنتيا أبا سفيان بن حرب فاقتلاه . فخرجت أنا وصاحبي ، ومعى
بميرى لى ، وليس مع صاحبي بميرى ، ورجله عانة ، فكنت أحمله على بميرى ، حتى جئنا
بطن ياجج^(١) ؛ فعمقنا بميرنا فى فناء شعب بالجبل ، وأسندنا^(٢) فيه ، فقات لصاحبي :
انطلق بنا إلى دار أبي سفيان ، فإنى محاول قتله ، فانظر فإن كانت محاولة ، أو خشيت
شيئا فالحق بميرك فاركبه ، واثرت رسول الله بالمدينة فأخبره الخبر ، وخل عنى فإنى
رجل عالم بالبلد ، جرى عليه .

ودخلنا مكة ، ومعى مثل خافية النسر^(٣) ، قد أعددت له إن عاقبى إنسان
قتلته به .

فقال لى صاحبي : هل لك أن نبداً فنطوف بالبيت ونصلى ركعتين ! فقلت له :
أنا أعلم بأهل مكة منك ، إذا أظلموا رشوا أفنيتهم ثم جلسوا فيها ، وأنا أعرف بها
من الفرس الأبلق .

فلم يزل بى حتى أتينا البيت فطفنا به ، وصلينا ركعتين ، ثم خرجنا فمرنا
بمجلس من مجالسهم ، فعرفنى رجل منهم فصرخ بأعلى صوته : هذا عمرو بن أمية !
فتبادر أهل مكة ، وقالوا : ما جاء عمرو بخير ! وقاموا فى طلبى وطالب صاحبي ،
فقلت له : النجاء ! هذا والله ما كنت أخذر ، فأنج بنفسك !

وخرجنا نشد^(٤) حتى أصعدنا فى الجبل ، فدخلنا غاراً فيتنا فيه لياتنا ،
وأعجزناهم فرجموا ، وقد استترت دونهم بأحجار حين دخلت الغار ، وقلت لصاحبي :
أمهلنى حتى يسكن الطالب عنا ، فإنهم والله سيطلبوننا ليأتهم هذه ، أو يومهم هذا
حتى يمتسوا .

(١) ياجج : موضع بمكة . (٢) يقال أسندنا فى الجبل : إذا سعد فيه . (٣) يريد خنجره .

(٤) نشد : نعدو .

وإني لفي هذا الغار إذ أقبل عثمان بن مالك يَخْتَلِ (١) بفرسٍ له ، فلم يزل يدنو حتى قام علينا بباب الغار ، فقلت لصاحبي : هذا والله ابنُ مالك ، لئن رآنا كيَمَلَمَنَّ بنا أهلَ مكة .

فخرجتُ إليه فَوَجَّأته (٢) بالخنجر تحت الثدي ، فصاح صيحةً أسمع أهلَ مكة ، فأقبلوا إليه ورجعتُ إلى مكاني فدخلتُ فيه ، وقلتُ لصاحبي : مكانك ! واتبع أهلُ مكة الصوت يشتدون ، فوجدود وبه رَمَقٌ ، فقالوا : وبلك ! مَنْ ضربك ؟ قال : عمرو بن أمية ؛ ثم مات ، ولم يخبرهم بمكاننا .

فقالوا : والله لقد علمنا أنه لم يأتِ بخير ، وشغلهم صاحبهم عن طلبنا ، فاحتملوه ؛ ومكثنا في الغار يومين حتى سكنَ عنا الطلب .

ثم خرجنا إلى التَّعْمِيمِ ، فإذا خشبة خُيِّبَ بن عدى ، فقال لي صاحبي : هل لك في خُيِّبٍ تُنْزِلُه عن خشبته ؟ فقلت : أين هو ؟ قال : هو ذاك حيث ترى . فقلت : نعم ، فأْمِهْلِنِي وتَنَحَّ عَنِّي . قال : ولكنَّ حوله حرٌّ أسأً يحرسونه ! قلت : إن خشيتُ بأساً فخذ الطريقَ إلى جَمَلِك فارْكَبْهُ ، والْحَقْ بِرَسُولِ اللَّهِ فَأخْبِرْهُ الخبر .

فاشددتُ إلى خشبته فاحتللتُهُ ، واحتملته على ظهري ، فوالله ما مشيتُ إلا نحو أربعين ذراعاً حتى نَدَرُوا (٣) بي ، فطرحته ، فَاأْنَسَى وَجَبَتَهُ (٤) حين سقط ، واشتدوا في أثرِي ، فأخذتُ طريقِي إلى أن أَعْيَوْا ورجعوا .

وانطلق صاحبي إلى بعيره فركبه ، ثم أتى الرسولَ فأخبره أمرنا ، وأقبلتُ أَمْشِي حتى إذا أشرفتُ على غارِ بَضَجْنَانَ (٥) دخلتُ فيه ، ومعى قوسي وأسهمي . فبينما أنا فيه إذ دخلَ عليَّ رجلٌ من بني الدَّيْلِ بن بكر ، أعورٌ طويلٌ ،

(١) يختل به، أي يداوره ويطلبه من حيث لا يشعر. (٢) وجَّأته : ضربته . (٣) نذر بالأمر: علمه فحذره . (٤) الوجبة : السقطة مع الهدية . (٥) بضعجان : جبل قرب مكة .

يسوق غنما له ، فقال : مَنْ الرجل ؟ فقلت : رجل من بني بكر ! قال : وأنا من بني بكر ، ثم اضطلع معي فيه ، ورفّع عقيرته يتغنّى ، ويقول :
ولست بتسليم ما دمت حيًّا ولست أدِينُ دينَ المساهمين
فقلت : سوف تعدم . ولم يابث الأعرابي أن نام وغطّ فقامتُ إليه ، فقتلته أسوأ قِثاة ، ثم ماتُ إليه فجاءت سَيِّة^(١) قوسى فى عينه الصحيحة ، وتحملتُ عليها حتى أخرجتها من قفاه .

وأخذت المحجة^(٢) كَأَنِّي نَسْر ، وكان النجاء ؛ حتى إذا كنتُ بالبيق^(٣) ، رأيتُ رجلين قد بَعَثْتُهُمَا قريش يتحسّسان من أمر الرسول ، فعرفتهما ، وقلتُ لهما : استأسرا^(٤) . فقال : أنحنُ استأسرُ لك ! فرميتُ أحدهما بسهم فقتلته ، ثم قلتُ للآخر : استأسرْ ؛ وأوثقتُه ، وقدمتُ به على رسول الله .

ولما قدمتُ المدينة مررتُ بجاعةٍ من الأنصار ، فقالوا : هذا واللهِ عمرو بن أمية ؛ وسمع الصبيان قولهم ، فاشتدوا إلى رسول الله يُخبرونه .

وذهبتُ إلى النبي ، وقد شدّتُ إبهام أسيرى بوتر قوسى ، فنظر إلى وضحك حتى بدتُ نواجذه ، ثم سألني فأخبرته الخبر ، فدعا لى بخير .

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها . (٢) المحجة : المقصد والطريق . (٣) البقيع :

مقبرة بالمدينة . (٤) استأسرا كونا أسيرين .

٤ — يوم بئر معونة*

قدم أبو براء عامرُ بن مالكٍ مُلَاعِبُ الْأَسِنَّةِ^(١) على رسول الله في المدينة ، وأهدى إليه هَدِيَّةً ، فأبى رسول الله أن يقبلها ، وقال : يا أبا براء ؛ لا أقبلُ هذه الهديةَ ، فأَسْلِمُ إن أردتَ أن أقبلَ هديَّتكَ . ثم عرض عليه الإسلام ، وأخبره بما وعدَ اللهُ المؤمنين من الثواب ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يُسَلِّمْ ولم يَبْعُدْ من الإسلام . وقال : يا محمد ؛ إنَّ أمركَ هذا الذي تدعو إليه حسنٌ جميلٌ ؛ فلو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدَعَوْهُمْ إلى أمركَ رجوتُ أن يستجيبوا لك !

فقال رسولُ الله : إني أخشى عليهم أهل نجد ؛ فقال أبو براء : أنا لهم جار ؛ فابعثهم فليَدْعُوا النَّاسَ إلى أمركَ .

فبعث رسولُ الله المنذرَ بن عمرو^(٢) في أربعين رجلاً من أصحابه ، فساروا حتى نزلوا بئرَ معونةَ ، فقال بعضهم لبعض : أَيُكْمُ يُبَلِّغُ رسالةَ رسولِ الله أهلَ هذا الماءِ ؟ فقال حَرَامُ بن ملحان : أنا أَبْلِغُ رسالةَ رسولِ الله . وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى حِوَاءَ^(٣) منهم ، فاحتسبى أَمَامَ الْبَيْتِ ؛ ثم قال : يا أهل بئرِ معونة ! إني رسولُ محمدٍ إليكم ، إني أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله ؛ وأنَّ محمدًا عبدٌ ورسولُهُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ ورسولِهِ . فخرج إليه عامر بن الطفيل من كِسْرِ الْبَيْتِ^(٤) بِرُمُحٍ ؛ فَضْرَبَ بِهِ فِي جَنْبِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ ؛ فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! فُزْتُ وَرَبُّ الْكُفَّةِ^(٥) !

* سيرة ابن هشام : ٣- ١٨٤ ، تاريخ الطبري : ٣- ٣٣ . كان في السنة الرابعة من الهجرة . وبئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم . (١) سيد بني عامر بن صعصعة . (٢) قيل : سبعين رجلاً . (٣) العرب تقول تجتمع بيوت الحمى : محتوى ومعوى وحواء . (٤) كسر البيت : جانبه . (٥) يريد أنه فاز بالشهادة ، فله الجنة .

وَاتَّبَعُوا أَثَرَهُ حَتَّى أَتَوْا أَصْحَابَهُ ، وَاسْتَمَاعُوا عَلَيْهِمْ بِقِبَائِلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، وَخَرَجُوا جَمِيعًا حَتَّى غَشَوْا ^(١) الْقَوْمَ ، فَأَحَاطُوا بِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ .

وَلَمَّا رَأَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَخَذُوا السِّيُوفَ ، ثُمَّ قَاتَلُوهُمْ حَتَّى قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ؛ إِلَّا كَعَبْ بْنَ زَيْدٍ ، فَأَيَّاهُمْ تَرَكَوهُ وَبِهِ رَمَقٌ ، فَارْتَثَ ^(٢) مِنْ بَيْنِ الْقَتْلِ ، وَعَاشَ حَتَّى قُتِلَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ .

وَكَانَ فِي سَرْحٍ ^(٣) الْقَوْمَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ^(٤) ، فَلَمَّ يُنَبِّئُهُمَا بِمُصَابِ أَصْحَابِهِمَا إِلَّا الطَّيْرُ تَحْوُمُ عَلَى الْمَسْكَرِ ؛ فَقَالَا : وَاللَّهِ إِنْ لِهَذِهِ الطَّيْرُ شَأْنًا . فَأَقْبَلَا لِيَنْظُرَا ، فَإِذَا الْقَوْمُ فِي دِمَائِهِمْ ، وَإِذَا الْخَيْلُ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ وَاقِفَةٌ ؛ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِعَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ : مَا تَرَى ؟ قَالَ : أَرَى أَنْ نَذْهَبَ بِرَسُولِ اللَّهِ فَنُخْبِرَهُ الْخَبَرَ . فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : لَكِنِّي لَا أُرْغَبُ بِنَفْسِي عَنْ مَوْطِنٍ قُتِلَ فِيهِ الْمُنْذَرُ بْنُ عَمْرٍو ! ثُمَّ قَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ ، وَأَخَذَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ أُسِيرًا .

فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مِنْ مُضَرَ أَطْلَقَهُ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ ، وَجَزَّ نَاصِيَّتَهُ وَأَعْتَقَهُ ؛ فَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ أَقْبَلَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ ؛ حَتَّى نَزَلَا مَعَهُ فِي ظِلٍّ هُوَ فِيهِ - وَكَانَ مَعَ الْعَامِرِيِّينَ عَقْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَجَوَارٌ لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ - فَسَأَلَهُمَا حِينَ نَزَلَا بِهِ : مِمَّنْ أَنْتُمَا ؟ قَالَا : مِنْ بَنِي عَامِرٍ . فَأَمْلَهُمَا حَتَّى إِذَا نَامَا عَدَا عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَصَابَ بِهِمَا ثَمَارَهُ مِنْ بَنِي عَامِرٍ بِمَا أَصَابُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ .

وَقَدَّمَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَتَلْتَ

(١) غَشِيَهُ : جَاءَهُ (٢) يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا ضَرَبَ فِي الْحَرْبِ فَأُتِخِنَ وَحُمِلَ بِهِ رَمَقٌ : ارْتَثَ .

(٣) السَّرْحُ : شَجَرٌ كَبِيرٌ عِظَامُ يَسْتَفْزِلُ فِيهِ . (٤) أَحَدُ بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ

قتيلين لَأَدِينَهُمَا^(١) . ثم قال رسول الله : هذا عمل أبي براء ! قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً .

وشقَّ على أبي براء ما أصاب أصحابَ الرسول بسببه وجواره ، وقال حسان يحرِّضه على عامر بن الطفيل^(٢) :

بنى أُمُّ البنين أَلَمْ يَرُعْكُمْ وأنتم من ذوائبِ أَهْلِ نَجْدِ^(٣)
تَهَكُّمُ عامِرٍ بِأَبِي بَرَاءِ^(٤) لِيُخَفِّرَهُ ، وما خَطَأُ كَعَمْدِ^(٥)
أَلَا أَبْدِغُ رُبِيعَةَ ذَا الْمَسَاعِي^(٦) فما أَحدثَ في الحِذَّانِ بَعْدِي !
أَبوكَ أَبُو الحُرُوبِ أَبُو بَرَاءِ^(٧) وخالِكَ ما جَدُّ حَكَمُ بْنُ سَعْدِ

فإنما بلغ أبا براء قولُ حسان حمل على عامر بن الطفيل ، فطمئنه ، فأخطأ مقتله ، ووقع عن فرسه ، فقال : هذا عمل أبي براء ؛ إن أمتُ فُدِي لعمري فلا يُتَبَعَنَّ به ، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أتى إلى .

(١) أدينهما : أدفع ديتهما . (٢) ديوانه : ١٠٧ . (٣) هم أبو براء ولخوته ، ويريد بالذوائب رؤساءهم . (٤) تهكم : فاعل «يرعكم» في البيت قبله . (٥) ليخفره : لينقمص عهده . (٦) المساعي : المكرمات . وفي الديوان : ألا من مبلغ عني رسعا . (٧) في الديوان : أبو الفعال .

٥ — يوم بنى النضير*

لَمَّا قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ^(١) — وَقَدْ كَانَ لهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ جَوَازٌ وَعَهْدٌ — كَتَبَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ الْعَامِرِيُّ يَقُولُ : إِنَّكَ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ لهُمَا مِنْكَ جَوَازٌ وَعَهْدٌ ، فَأَبْعَثْ بِدَيَّتِهِمَا .

فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَّةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ ، وَسَأَلَهُمُ الْمَعُونَةَ قَالُوا : نَعَمْ ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ . ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ — وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَلَسَ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بَيْوتِهِمْ — فَأَيَّكُمْ يَعْلُو هَذَا الْبَيْتَ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيَقْتُلُهُ بِهَا فَيُرِيحَنَا مِنْهُ !

فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشٍ : أَنَا لِدَٰلِكَ ! فَصَعِدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ الصَّخْرَةَ . فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَتَرَكَ أَصْحَابَهُ فِي مَجْلِسِهِمْ .

وَلَمَّا اسْتَبْطَأَ رَسُولَ اللَّهِ أَصْحَابُهُ قَامُوا فِي طَلَبِهِ ، فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ : رَأَيْتُهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ .

فَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَانَتِ الْيَهُودُ تَرِيدُ بِهِ مِنَ الْغَدَرِ ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُوا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ . فَأَتَى ، فَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ إِلَى يَهُودَ ،

* سيرة ابن هشام : ٣-١٩١ ، الطبري : ٣-٣٦ . وقد كان في السنة الرابعة من الهجرة وبنو النضير حى من اليهود سكن المدينة .

(١) انظر يوم « بئر معونة » صفحة ٥٢ من هذا الكتاب .

فقل لهم : اخرجوا من بلادى فلا تساركنونى ، وقد هممتُ بما هممتُ به من الفدر .

فجاءهم محمد بن مسلمة فقال لهم : إن رسول الله يأمركم أن تظعنوا^(١) . فقالوا : يا محمد ؛ ما كنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس ! فقال : تغيرت القلوب وعا الإسلام العهود ! فقالوا : نتحمل^(٢) !

ولكن عبد الله بن أبي أرسل إليهم يقول : لا تخرجوا فإن معى من العرب ومن انضموا إلى من قوى ألفين ؛ فأقيموا فهم يدخلون معكم ، وقريظة كذلك تدخل معكم .

فبلغ كعب بن أسيد القرظى ذلك ، فقال : لا ينقض العهد رجل من قريظة وأنا حى .

فقال رجل منهم لكبيرهم ابن أخطب : يا حىي ؛ أقبَلْ هذا الذى قاله محمد قبل أن تقبل ما هو شر منه . قال حىي : وما هو شر منه ؟ قال : أخذ الأموال وسبى الذرية ، وقتل المقاتلة ؛ فأبى حىي ، وأرسل جدى بن أخطب^(٣) إلى رسول الله يقول : إنا لا نريم^(٤) دارنا ، فاصنع ما بدا لك .

فكبر رسول الله وكبر المسلمون معه ، وقال : حاربت يهود !

وانطلق جدى بن أخطب إلى عبد الله بن أبي يستمدّه فلم يستجب له ، فرجع وأخبر حىيًّا بذلك ؛ فقال : هذه مكيدة !

وزحف إليهم رسول الله ، وحاصروهم ست ليال فتحصنوا منه فى الحصور ،

(١) أن تظعنوا : أن ترحلوا . (٢) نتحمل : نرتحل . (٣) أخوه .

(٤) لا نريم : لا نبرح .

فَأَمَرَ بِقَطْعِ النَّخِيلِ وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا ، فَنَادَوْهُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ ،
وَتَعْيِيهِ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ ، فَمَا بَالُ قَطْعِ النَّخِيلِ وَتَحْرِيقِهَا !

وَلَمَّا يَتَسَوَّاهُ مِنَ الْمَمُونَةِ ، وَطَالَ بِهِمُ الْحَصَارُ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ
سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُجِيلِيَهُمْ وَيَكُفَّ عَنْ دِمَائِهِمْ ، عَلَى أَنْ لَّهُمْ مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَى الْحَلَقَةِ^(١) ، فَفَعَلَ .

فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتِ الْإِبِلُ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدُمُ بَيْتَهُ ،
فَيَضُمُّهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ . فَيَنْطَلِقُ بِهِ ، نَافِرًا بَعْضُهُمْ إِلَى خَيْبَرٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ
إِلَى الشَّامِ^(٢) .

(١) الحلقة : اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها . (٣) نزل في بني النضير سورة
الحشر بأسرها .

٦ - يوم الخندق*

خرج نفرٌ من اليهود^(١) حتى قدِموا على قُرَيْشٍ في مكة ، فدَعَوْهم إلى جَرَبِ رسول الله ، وقالوا لهم : إنا سنكونُ معكم حتى نستأصِلَه ؛ فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهلُ الكتابِ الأول ، وأهل العلم بما أصبَحْنَا نختلفُ فيه نحن ومحمد ، فديننا خيرٌ أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه ! وأنتم أولى بالحقِّ منه ! فسرَّ قريشاً ما قالوا ، ونَشِطُوا لما دَعَوْهم إليه من حَرَبِ رسول الله ، واجتمعوا لذلك واتَّعدوا له . ثم خرج أولئك النَّفَرُ من اليهود حتى جاءوا غَطَفَانَ ، فدَعَوْهم إلى حَرَبِ المسلمين ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم ، وأنَّ قريشاً قد تآبَعُوهم على ذلك ؛ فأجابوهم .

وخرجت قريشٌ ، وقائدها أبو سفيان ، وخرجت غَطَفَانُ وقائدها عِيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، والحارث بن عوف في بني مُرَّة ، ومِسْعَرُ بْنُ رُخَيْلَةَ فيمن تآبَعَه من أَشْجَعٍ .

ولما سمع رسولُ الله بما أَجْمَعُوا له من الأَمْرِ ضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه بنفسه ، وعمل معه المسلمون حتى أحكموه .

ولما فرغوا منه خرج رسولُ الله في ثلاثة آلاف من المسلمين جعلوا ظهورهم إلى سَلَمٍ^(٢) ، وضربوا عسكرهم هناك . وأمر بالذَّرَارِيِّ والنساء فجُعِلوا في الآطام^(٣) .

* سورة ابن هشام : ٣-٢٢٩ ، تاريخ الطبري : ٣-٤٣ . كان في السنة الخامسة من الهجرة

(١) منهم سلام بن أبي الحقيق ، وحي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، وهوذة بن قيس ، وأبو عمار الوائل في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل ، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله . (٢) سلم موضع بقرب المدينة . (٣) الآطام : جم أطم ، وهو حصن مبني بالحجارة .

وأقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسياال في عشرة آلاف من أحبيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بدئب نغمي ، إلى جانب أحد .

وخرج حُيَيَّ بن أخطب^(١) حتى أتى كعب بن أسد^(٢) ، فلما سمع كعب به أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناداه حُيَيَّ : يا كعب ؛ افتح لي ، قال : ويحك يا حُيَيَّ ! إنك رجل مشئوم ، وإني قد عاهدتُ محمداً ، فلستُ بناقض ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصديقاً . قال : افتح لي أكرمك . قال : ما أنا بفاعل ، قال : ما أغلقت الحصن دوني إلا لتخوفك على جشيشتك^(٣) أن آكل منها معدك ! فأحفظ^(٤) الرجل . ففتح ، فقال له : ويحك يا كعب ! جئتُك ببرز الدهر ، وبيحر طأم^(٥) . جئتُك بقريش : قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياال ، وجئتُك بغطفان : قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بدئب نغمي ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يترخوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

قال كعب : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق^(٦) ماءه ، فهو يرعد ويرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حُيَيَّ ! دعني وما أنا عليه ، فإنني لم أرَ من محمد إلا صديقاً ووفاءً . ولكن حُيَيَّ لم يزل بكعب يفتل منه في الذروة والغارب^(٧) ، حتى أعطاه عهداً وميثاقاً : لن رجعت قريش وغطفان ولم يُصيبوا محمداً دخلت

(١) كبير بني النضر كما تقدم . (٢) صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان وادخ النبي على قومه وعاهده على ذلك وعاقده . (٣) الجشيشة : واحدة الجشيش ، وهو أن تطحن المنطة طحناً جليلاً ثم تصب بها القدر ، ويلقى عليها لحم أو تمر فيطبخ . (٤) أحفظ الرجل : أغضبه . (٥) أراد تشبيه القوم في كثرتهم بالبحر الزاخر . (٦) الجهام : السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه ، وهراق : صب . (٧) أصل الغارب مقدم السنام ، والذروة أعلاه ؛ أراد أنه ما زال ينادعه ويتلفه حتى أجابه ، وأصله أن الرجل إذا أراد أن يؤلف البعير الصعب لينقاد له جعل يمر يده عليه ويمسح غاربه ويفتل وبره حتى يستأنس ، ويضم فيه الزمام .

مملك في حصنك حتى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ . وَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ ، وَبَرِئَ
مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ .

فلما انتهى إلى الرسولِ الخبرُ بعثَ سعدَ بنَ مُعَاذٍ^(١) وسعدَ بنَ عُبَادَةَ^(٢) ،
وعبدَ اللهَ بنَ رَوَاحَةَ^(٣) ، وخَوَّاتَ بنَ جُبَيْرٍ^(٤) ، وقالَ لهم : انطلقوا حتى تنظروا :
أَحَقُّ مَا بَلَّغْنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا ! فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لِحَنَّا^(٥) أَعْرِفَهُ ،
وَلَا تَفْتَنُوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ .
فخرجوا حتى أتَوْهُمْ ، فوجدوهم على أَخْبَثِ مَا بَلَّغَهُمْ عَنْهُمْ ، نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ،
وقالوا : مَنْ رَسُولُ اللَّهِ ! لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدَ ! فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ
وشاتموه ، وكان رجلاً فِيهِ حِدَّةٌ . فقالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ ،
فإِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى^(٦) مِنَ الْمَشَاتِمَةِ .

ثم أَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ،
وقالوا : عَضَلُ وَالْقَارَةُ^(٧) ! فقالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ !

وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ ، وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ أَسْفَلِ مَنْهُمْ ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ظَنٍّْ ، وَنَجَّمَ^(٨) نِيقَ الْمُنَافِقِينَ ، حَتَّى قَالَ
قَائِلُهُمْ^(٩) : كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كَنُوزَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَحْدُنَا الْيَوْمَ
لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْغَائِطِ !

(١) سِيدُ الْأَوْسِ . (٢) سِيدُ الْخَزَرَجِ . (٣) أَخُو بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ .

(٤) أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ . (٥) أَشِيرُوا إِلَى وَلَا تَفْصَحُوا ، وَعَرَضُوا بِمَا رَأَيْتُمْ .

(٦) أَرْبَى : أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ . (٧) أَيْ كَفْدَرُ عَضَلُ وَالْقَارَةُ ؛ حِينَمَا اعْتَدُوا عَلَى خَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ

يَوْمَ الرَّجِيعِ . (٨) نَجَّمَ ظَهَرَ . (٩) هُوَ مَعْتَبُ بْنُ قَشِيرٍ .

وأقام الرسولُ على الخندق ، وأقام عايه المشركون بضعا وعشرين ليلةً ، لم يكن بينهم حربٌ إلا الرمي بالنبل والحصار . فلما اشتدَّ البلاءُ على الناس بعث رسولُ الله إلى غُيَيْنَةَ بنِ حِصْن ، وإلى الحارث بن عَوْف - وهما قائدَا غَطَفَان - فعرض عليهما أن يُعطِيهما ثلث ثَمَارِ المدينة على أن يَرِجَمَا بِمَنْ مَعَهُمَا ، وجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتابَ ، ولكن لم تقع الشهادة ، ولا عزيمة الصلح إلا المرافضة^(١) في ذلك .

ثم استشار رسولُ الله في ذلك سعد بن مُعَاذ وسعد بن عُبَادَةَ ، فقالا له : يا رسولَ الله ؛ أَمْرٌ تَحِبُّهُ فنصنعه ، أم شيء أَمَرَكَ اللهُ به لا بدَّ لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ! قال : بل شيء أصنعه لسكم ؛ والله ما أصنعُ ذلك إلا لأنني رأيتُ العربَ قد رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ واحدةٍ وكالِبُوكُمْ^(٢) من كلِّ جانب ، فأردتُ أن أكسِرَ عنكم من شوكتهم . فقال سعد بن مُعَاذ : يا رسولَ الله ؛ قد كُنَّا نحن وهؤُلاءِ القوم على شِرْكٍ بالله وعبادةِ الأوثان ، لا نعبُدُ الله ولا نعرفُهُ ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً إلا قِرَى^(٣) أو بَيْعًا ، فَحِينَ أَكْرَمَنَا اللهُ بالإسلام ، وهدانا له وأعزَّنَا بك وبه نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ! والله ما لنا بهذا حاجة ، والله لا نُعْطِيهِمْ إلا السيفَ حتى يَحْكُمَ اللهُ بيننا وبينهم . قال رسولُ الله : فأنت وذاك ! وتناول سعد بن مُعَاذ الصحيفةَ فحما ما فيها من الكتاب^(٤) ، ثم قال : لِيُجْهِدُوا^(٥) علينا .

وأقام رسولُ الله والمسلمون ، والعدوُّ يحاصِرُهُمْ ، ولم يكن بينهم قتالٌ ، إلا أن فَوَارِسَ^(٦) من قريش قد تهيَّئُوا للقتال ، ثم خرجوا على خَيْلِهِمْ حتى مرُّوا بمنازلِ بني كِنَانَةَ ، فقالوا : تهيَّئُوا يا بني كِنَانَةَ للحرب ، فستعلمون منَ الفرسان اليوم !

(١) المرافضة : المجاذبة والمفاوضة . (٢) كالبوكم : اشتدوا عليكم ، وكثر شرهم . (٣) القِرَى : ما يقدم للضيف . (٤) الكتاب : الكتابة . (٥) أجهدوا علينا العداوة : جدوا فيها . (٦) منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب .

وأقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمسيكة ما كانت العرب تسكدها ^(١) ! ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبخة - بين الخندق وسلمع - وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الشجرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تمنق ^(٢) نحوهم ؛ فوقف عمرو بن عبدود ^(٣) ، وقال من يُبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب ، وقال له : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه . قال له : أجل ! قال علي : فإني أدعوك إلى النزال . قال : ولم يابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك ! قال له علي : ولكى والله أحب أن أقتلك ! فحَمَى ^(٤) عمرو عند ذلك وزله عن فرسه ، وعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي فتنازلاً وتجاؤلاً ، فقتله علي ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة . ومرو يومئذ سمذ بن معاذ بحصن بنى حارثة - وهو من أخرز حصون المدينة - وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته يرقد بها ^(٥) ويقول :

لَبْتُ قَلِيلاً يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ ^(٦)

فقال له أمه - وكانت في الحصن هي وعائشة : الحق يا بني ، فقد والله أخرت ، فقالت لها عائشة : يا أم سعد ؛ والله لو دِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أُسْبَغَ مِمَّا هِيَ ^(٧) ! ثم رُمِيَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ بِسَهْمٍ ، فَقَطَعَ مِنْهُ الْأُكْحَلَ ^(٨) .

(١) يقال : إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله . (٢) العنق : ضرب من السير السريع . (٣) من الفرسان الذين اقتحموا الخندق . (٤) حمى : غضب .

(٥) يرقد : يسرع بها . (٦) لبث : انتظر ، والهيجا : الحرب ، وحمل : اسم رجل ، وحن : درب . (٧) كان ذلك قبل أن يضرب الهيجا . (٨) الأكل : عرق في الذراع .

وكانت صفية بنت عبد المطلب في فَارِ ع - حِصْنِ حَسَّانِ بنِ ثَابِت - وكان حَسَّانُ فيه مع النساء والصبيان ، فمَرَّ رجلٌ من يَهُودَ ، فجعل يُطِيفُ بِالْحِصْنِ ، ولمَّا رَأَتْهُ صَفِيَّةٌ قَالَتْ : إِنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ قَطَعَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ عَهْدٍ ؛ وَلَيْسَ بَيْنَنَا أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنَّا ، وَرَسُولُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ فِي نُحُورِ^(١) عَدُوِّهِمْ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُمْ إِلَيْنَا إِنْ أَتَانَا آتٍ . ثُمَّ قَالَتْ لِحَسَّانَ : إِنَّ هَذَا الْيَهُودِيَّ - كَمَا تَرَى - يُطِيفُ بِالْحِصْنِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُهُ أَنْ يَدُلَّ عَلَيَّ عَوْرَتَنَا مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ يَهُودَ ، وَقَدْ شَغَلَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ ، فَانْزِلْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ . فَقَالَ حَسَّانُ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا بِنْتَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ! وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْتُ مَا أَنَا بِصَاحِبِهِ هَذَا . فَلَمَّا قَالَ لَهَا ذَلِكَ وَلَمْ تَرَ عِنْدَ شَيْئٍ احْتَجَزَتْ^(٢) ، ثُمَّ أَخَذَتْ عَمُوداً ، وَنَزَلَتْ مِنَ الْحِصْنِ ، وَضَرَبَتْهُ بِالْعَمُودِ حَتَّى قَتَلَتْهُ .

ولمَّا فَرَغَتْ مِنْهُ رَجَعَتْ إِلَى الْحِصْنِ فَقَالَتْ : يَا حَسَّانُ ؛ انْزِلْ إِلَيْهِ فَاسْلُبْهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْعَمْنِي مِنْ سَلْبِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ ، قَالَ حَسَّانُ : مَا لِي بِسَلْبِهِ مِنْ حَاجَةٍ يَا بِنْتَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ! وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ فِي خَوْفٍ وَشِدَّةٍ ، لِنَظَاهِرِ عَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَإِتْيَانِهِمْ إِيَّاهُمْ مِنْ قَوَائِمِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مَنْهُمْ .

ثُمَّ إِنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ ، وَإِنْ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي فَمُرَّنِي بِمَا شِئْتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذَلْ^(٣) عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ .

فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَقَالَ : يَا بَنِي قُرَيْظَةَ ؛ قَدْ عَرَفْتُمْ وَدِّيَ إِيَّاكُمْ ، وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . قَالُوا : صَدَقْتَ ،

(١) أَمْلَ النُّحُورِ الصُّدُورَ ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنَّهُمْ مُشْتَبِكُونَ مِنْ عَدُوِّهِمْ . (٢) أَيْ شَدَّتْ وَسَطَهَا بِمَا يَقْوِيهِ . (٣) أَيْ ادْخَلَ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَخْذَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

لست عندنا بمتهمة . فقال لهم : إن قريشاً و غطفان ليسوا مثلكم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبنائكم ونسائكم ، لاتقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً و غطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم^(١) عليه ، وبلدكم وأموالهم ونسائهم بغيره ، فليسوا مثلكم ، فإن رأوا نهزة^(٢) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلصوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ؛ فلا تقابلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشrafهم ، يكونون بأيديكم نقة لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنأجزوهم . فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ؛ فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم وُدّي لكم ، وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيتُ علىَّ حقاً أن أبلغكموه نصيحاً لكم ، فاكتموا عني . قالوا : نفعل . قال : تعلموا^(٣) أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إننا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش و غطفان رجلاً من أشrafهم ، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم ؛ فإن بعثت إليكم يهود تلتمس منكم رهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يامعشر غطفان ؛ إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ، ولا أراكم تتهموني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم ! قال : فاكتموا عني ، قالوا : نفعل ، فما وراءك ؟ فقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم كما حذرهم .

(١) ظاهروهم : عاونوهم . (٢) نهزة : فرصة . (٣) تعلموا : اعلوا .
(• - أيام العرب في الإسلام)

فلما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان بن حرب وروس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنأ بدار مقام ، وقد هلك الخف والحافر^(١) . فاعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لانعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بمضنا حدثاً فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنأ مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ؛ فإننا نخشى إن ضرستكم^(٢) الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمرُوا^(٣) إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق . وأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا : إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم ، واخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل معكم محمداً حتى تعطوا رهناً . فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبث عليهم الريح في ليال شاتية باردة ، فجعلت تكفأ^(٤) قدورهم ، وتطرح أبنيتهم .

فلما انتهى إلى رسول الله ماختلف من أمرهم ، وما فرق من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً .

(١) يريد الإبل والحيل . (٢) ضرستكم : نالت منكم . (٣) تنشمرُوا : تسرعوا

ل الرجوع . (٤) تكفأ قدورهم : تقلبها .

قال حذيفة : لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق ، وقد صَلَّى هَوِيًّا ^(١) من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : مَنْ رجلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعل القومُ ثم يرجع ؟ فقام رجلٌ من القومِ مِنْ شِدَّةِ الخوفِ ، وشِدَّةِ الجوعِ ، وشِدَّةِ البرْدِ . فلما لم يَقُمْ أَحَدٌ دَعَانِي رسولُ الله ، فلم يكن بُدٌّ من القيام حين دَعَانِي ، فقال : يا حُذَيْفَةُ ؛ اذهبْ فادخلْ في القومِ فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثْ شيئاً حتى تأتينا .

فذهبتُ فدخلتُ في القومِ ، والريحُ وجنودُ اللهُ تفعلُ بهم ما تفعلُ ، لا تُقِرُّ لهم قِدرًا ولا نارًا ولا بناءً . فقام أبو سفيان فقال : يا معشرَ قريش ! لينظر امرؤُ مَنْ جليسه !

فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جَنْبِي ، فقلت : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : فلان ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشرَ قريش ؛ إنكم والله ما أصبحتم بِدَارِ مقام ، لقد هلك الكُراع ^(٢) والخُفَّ ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شِدَّةِ الريحِ ما تَرَوْنَ ، لا تطمئنُّ لنا قِدرٌ ، ولا تقومُ لنا نار ، ولا يستمسكُ لنا بِنَاءٌ ، فارتحلوا فإني مُرتحل . ثم قام إلى جَمَلِهِ وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فو الله ما أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلَّا وهو قائم ، ولولا عهدُ رسولِ الله إليَّ ، إذ قال لي : « لا تحدثْ شيئاً حتى تأتيني » لقتلته بِسَهْمٍ .

فرجعتُ إلى رسول الله ، وهو قائمٌ يُصَلِّي ، فلما سَلَّمَ أخبرته الخبر . وَسَمِعَتْ غَطَفَانٌ بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى المدينة .

(١) هويًا من الليل : جزءًا منه . (٢) الكراع . الخيل .

٧ — يوم بنى قريظة*

أصبح النبيُّ منصرفاً عن الخندق ، راجعاً إلى المدينة ، ووضع المسلمون السلاح ، ولما كان الظهر أمر رسولُ الله مؤذناً فأذن في الناس : مَنْ كان سميعاً مطيعاً ، فلا يُصلِّينَ العصرَ إلَّا في بنى قريظة .

وقدَّمَ رسولُ الله عليَّ بنَ أبي طالبٍ برأيته إلى بنى قريظة ، وابتدروا الناس^(١) ، وسار عليٌّ حتى إذا دنا من حصونِ بنى قريظة سمع منها مقالةً قبيحة عن رسولِ الله ، فرجع حتى لقيَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسولَ الله ؛ لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخاب^(٢) . قال : ولِمَ ؟ أظنك سمعتَ لى منهم أذى ! قال : نعم ، قال : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً .

ولما أتى رسولُ الله بنى قريظة نزل على يثُرٍ من آبارها يقال لها : يثُرُ أُنَى ، وتلاحقَ به الناسُ ، وحاصروهم رسولُ الله خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصارُ ، وقذفَ الله في قلوبهم الرُّعبَ .

فلما أيقنوا أن رسولَ الله غيرُ منصرفٍ عنهم حتى يُنَاجِزَهم ، قال كعب بنُ أسدٍ لهم : يا معشرَ يهود ؛ قد نزلَ بكم من الأمر ما تروُنَ ، وإني عارضٌ عليكم خلالاً ثلاثاً ، فخذوا أيها شِيتُم ، قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجلَ ونُصدِّقه ، فوالله لقد تبَيَّنَ لكم أنه نبيُّ مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٢٥٢ ، تاريخ الطبري : ٣ : ٥٢ . وكان هذا اليوم في ذى القعدة وصدر ذى الحجة من السنة الخامسة .

(١) ابتدر القومُ أمراً : بادر بعضهم بعضاً لايه ، أيهم سبق إليه فيجاب عليه .

(٢) الأخاب : جمع الأخبث ، وهو ذئب الأُطْب من الولد والناس .

دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَةِ أَبَدًا ، ولا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ . قال : فإذا أبيتُم على هذه ، فهِكُمُوا فَلَنَقْتُلَ أَبْنَاءَنَا ونِسَاءَنَا ، ثُمَّ نَخْرُجُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ مُصْلِحِينَ^(١) سِوَفْنَا ، ونحن لم نترك وراءنا نَقْلًا^(٢) ، حتى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ؛ فَإِنْ تَهَلَّكَ نَهْلِكَ ولم تترك وراءنا نَسْلًا نَحْشَى عَلَيْهِ ، وَإِنْ أَظْهَرَ فَلَعَمْرَى لَنَجِدَنَّ النِّسَاءَ وَالْأَبْنَاءَ . قالوا : نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ ؛ فَمَا خَيْرُ الْمَيْشِ بِعَدَمِهِمْ ! قال : فَإِنْ أَبِيتُمْ عَلَى هَذِهِ فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْتِ ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمِنُوا فِيهَا ، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غِرَّةً . قالوا : نَفْسِدُ عَلَيْنَا سَبْتَنَا ، وَنُحْدِثُ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْهُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا إِلَّا أَصَابَهُ الْمَسْحُ . قال : مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مِنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا !

ثُمَّ إِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ^(٣) . بن عبد المنذر لِنَسْتَشِيرَهُ ، فَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ . فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ ، وَبَهَّشَ^(٤) إِلَيْهِ النِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا لُبَابَةَ ، أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ ؟ قال : نَعَمْ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ^(٥) .

ثُمَّ نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ؛ فَتَوَاتَبَتِ الْأَوْسُ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّهُمْ كَانُوا مَوَالِينَا دُونَ الْخَزَرَجِ ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِي مَوَالِي إِخْوَانِنَا بِالْأَمْسِ مَا قَدْ عَلِمْتَ^(٦) .

(١) أَصْلَت سَيْفَهُ : جَرَدَهُ مِنْ عِمْدِهِ . (٢) كُلُّ شَيْءٍ يَحْرُسُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ ثَقُلٌ . (٣) أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَكَانُوا خُلَفَاءَ الْأَوْسِ . (٤) بَهَّشَ إِلَيْهِ : ارْتَوَحَ وَخَفَ إِلَيْهِ . (٥) قَالَ أَبُو لُبَابَةَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خَنْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عِمْدِهِ . وَقَالَ : لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ بِمَا صَنَعْتُ ، وَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَأَطَاعَهُ رَسُولُ اللَّهِ . (٦) قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ حَاصِرَ بَنِي قَيْنِقَاعَ ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزَرَجِ ، فَزَلُّوا عَلَى حُكْمِهِ ، فَسَأَلَهُ إِيَّاهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَالُودٍ فَوَهَبَهُمْ لَهُ .

فلما سمع رسول الله مقالة الأوس قال : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى : قال : فذاك إلى سعد بن معاذ .
وقد كان سعد في خيمة امرأة من المسالين كانت تداوى الجرحى : فلما حكمه رسول الله في بني قريظة أتاه قومه لخم لود على حمار قد وطئوا له بوسادة من آدم ؛ وأقبلوا به على رسول الله وهم يقولون : يا أبا عمرو ؛ أحسن في مواليك ؛ فإن محمدا إنما ولّاك لتحسين فيهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد أتى لسعد ألا تأخذ في الله لومة لائم .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله قال لهم : قوموا إلى سيديكم . فقاموا إليه ، ثم قالوا : يا أبا عمرو ؛ إن رسول الله قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمتم ؟ قالوا : نعم . وقال رسول الله : نعم ، قال سعد : فإنّي أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسّم الأموال وتُسبى الذراري والنساء . فقال رسول الله لسعد : لقد حكمتم فيهم بحكم الله . فصاح على : يا كتيبة الإيمان ! وتقدّم هو والزيبر بن العوام ، وقال : والله لأذوقنّ مذاق حمزة ، أو لأفتحنّ حصنهم . فقالوا : يا محمد ، نزل على حكم سعد بن معاذ .

ثم استنزلوا . وحبسهم رسول الله بالمدينة ، وخرج إلى سوق المدينة فخنّدق بها خنّادق ، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم^(١) في الخنّادق .
وكانوا يساقون أرسالا^(٢) ، وفيهم حبيّ بن الخطّاب^(٣) ، وكعب بن أسد ؛

(١) كانوا نحو سبعمائة . (٢) أفواجا : فرقا متقطعة ، بعضهم يتلو بعضا . (٣) قد كان حبي بن الخطّاب دخل بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغلطان وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه .

فقالوا السكيب ، وهم يسرون إلى رسول الله : يا كعب ؛ ما تراه يصنع بنا ؟ قال :
أفي كل موطن لا تمقلون ! ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم
لا يرجع ! هو والله القتل .

وأتى بجبي بن أخطب مجموعة يده إلى عنقه بحبل ، وعليه حلة فقأحية^(١)
قد شققها عليه من كل ناحية قدر أئمة لثلاث يسكنها . فلما نظر إلى رسول الله قال :
أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل
على الناس فقال : أيها الناس ؛ إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة
كتبها الله على بني إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه^(٢) .

ثم إن رسول الله قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ؛
ولما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ فمات منه^(٣) .

(١) تشبه لون الورد حين ابتداء تفتح . (٢) قال جبل بن جوال الثعلبي :

امرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل بني العز كل مقلقل

(٣) قال رجل من الأنصار يرقبه :

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو
وقالت أم سعد حين احتمل نعشه وهي تبكيه :

ويل أم سعد سعدا صرامة وحدا
وسوددا ومجدا وفارساً معدا

* سدّ به مسدا *

٨ - يَوْمُ ذِي قَرْدٍ*

قال سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ : أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَائِداً إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَبَعَثَ بِظَهْرِهِ^(١) مَعَ رَبَاحٍ غَلَامَهُ ؛ وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسٍ إِبِلَاحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَصَبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُيَيْنَةَ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ فَاسْتَأْجَمَ أَجْمَعٌ ، وَقَتْلَ رَاعِيَّهِ .

قُلْتُ لِرَبَاحٍ : خُذْ هَذَا الْفَرَسَ وَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ ، وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرِّحِهِ^(٢) .

ثُمَّ قَتُّوا عَلَى الْأَكْمَةِ^(٣) ، فَاسْتَقْبَلَتْ الْمَدِينَةَ ، فَنَادَيْتُ ثَلَاثَةَ أَصْوَاتٍ : وَاصْبَاحَاهُ^(٤) ! ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ .

وَمَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقُرُهُمْ^(٥) ، فَإِذَا رَجَعُ إِلَى فَارَسٍ مِنْهُمْ أَتَيْتُ شَجَرَةً وَقَعْدْتُ فِي أَصْلِهَا ، فَرَمَيْتُهُ فَمَقَرْتُ بِهِ ؛ وَإِذَا تَضَائِقُ الْجَبَلِ وَدَخَلُوا فِي مُتَضَائِقِ عِلَوَاتِ الْجَبَلِ ، ثُمَّ رَدَيْتُهُمْ^(٦) بِالْحِجَارَةِ ؛ وَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ حَتَّى مَا تَرَكْتُ بَعِيراً مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي ، وَحَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رُمْحاً وَثَلَاثِينَ بُرْدَةً يَسْتَخَفُّونَ بِهَا ، لَا يُلَاقُونَ شَيْئاً إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَاماً^(٧) حَتَّى يَعْرِفَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ .

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٢٣ ، الطبري : ٣ : ٦٠ . كان في ذي الحجة من السنة السادسة وذو قرد : موضع قرب المدينة . (١) الظهر : الإبل التي يحمل عليها ويركب . (٢) السرح : الماشية تسرح في المرعى . (٣) الأكمة : التل أو الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله . (٤) واصباحاه تقول عند الغارة عليهم في الصباح : يا صباحاه ! يندرون الحى أجمع بالنداء العالي . (٥) أى أقتل مكرهم . (٦) رديتهم : رميتهم . (٧) الآرام : الأعلام .

ثُمَّ انْتَهَوْا إِلَى مُتَضَائِقٍ مِنْ ثَابِيَةٍ ^(١) ، وَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ مِمْدًا ،
فَقَعَدُوا يَنْضَحُونَ ^(٢) ، وَقَعَدْتُ عَلَى قَرْنٍ ^(٣) فَوَقَّعَهُمْ ؛ فَنَظَرَ عُيَيْنَةُ فَقَالَ : مَا الَّذِي أَرَى ؟
قَالُوا : لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرَحِ ^(٤) . وَاللَّهِ مَا فَارَقْنَا هَذَا مِنْذُ غَالَسَ يَرْمِينَا حَتَّى اسْتَمْتَدَّ
كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا . قَالَ : فَلْيَقِمْ إِلَيْهِ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ .

فَعَمَدَ إِلَى أَرْبَعَةٍ مِنْهُمْ ؛ فَلَمَّا أُمَكَّنُونِي مِنَ الْكَلَامِ قُلْتُ : أَنْتُمْ فُونِي ؟ قَالُوا :
مَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : سَامَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ؛ وَالَّذِي كَرَّمْتُ وَجْهَهُ مُحَمَّدٌ ، لَا أَطْلُبُ أَحَدًا
مِنْكُمْ إِلَّا أَدْرَكْتُهُ ، وَلَا يَطْلُبُنِي أَحَدٌ فَيَدْرِكُنِي . قَالَ أَحَدُهُمْ : إِنِّي أَظُنُّ . وَرَجَعُوا ،
فَمَا بَرَحْتُ مَكَانِي ذَلِكَ حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ ؛ أَوْ لَهِمُ الْآخِرَمِ
الْأَسَدِيِّ ، وَعَلَى أَثَرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ ، يَتْبَعُهُ الْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكَنْدِيُّ .

فَأَخَذْتُ بِمَنْأَنِ فَرَسِ الْآخِرَمِ ، فَقُلْتُ : يَا آخِرَمُ ؛ إِنَّ الْقَوْمَ غَيْرُ قَائِلٍ فَاحْذَرِهِمْ
حَتَّى يَلْحَقَ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ . فَقَالَ : يَا سَلَمَةَ ؛ إِنَّ كُنْتُ تَوَافِقُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ ، فَلَا تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ .
فَخَلَّيْتُهُ .

فَالْتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُيَيْنَةَ ، فَعَقَرَ الْآخِرَمُ بَعْدَ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ ، وَطَعَنَهُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ ؛ وَلَكِنَّ أَبَا قَتَادَةَ لَحِقَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، فَطَعَنَهُ طَعْنَةً قَاتِلَةً .

وَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلَيْ حَتَّى مَا أَرَى وَرَأَى مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ وَلَا غِبَارِهِمْ شَيْئًا ،
وَعَدَلُوا ^(٥) قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شِمْبٍ ^(٦) فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ ذَوْقَرْدٌ ، يَشْرَبُونَ مِنْهُ
وَهُمْ عَطَاشٌ ، فَنَظَرُوا إِلَى أَعْدُو فِي آثَارِهِمْ ، فَخَلَّاتَهُمْ ^(٧) عَنِ الْمَاءِ ، فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ
قَطْرَةً .

(١) الثَّابِيَةُ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ . (٢) يَنْضَحُونَ: يَرْمُونَ بِالنَّبْلِ . (٣) الْقَرْنُ : أَعْلَى الْجَبَلِ

(٤) الْبَرَحُ : الشَّرُّ وَالْعَذَابُ . (٥) عَدَلُوا : مَالُوا . (٦) الشِّمْبُ : مَا انْفَرَجَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ

(٧) خَلَّاهُ عَنِ الْمَاءِ : طَرَدَهُ وَمَنَعَهُ .

وعطف على واحد منهم ، فرميته بسهم فأصابه في كتفه . ثم جثت إلى رسول الله وهو على الماء الذي حلائهم عنه ، فإذا هو قد أخذ تلك الإبل التي استنقذت من العدو ، وكل رُمح وكل بُرْدَةٍ ، وإذا بلال قد نحر ناقة من تلك الإبل ، وهو يتشوى لرسول الله من كميدها وسنّامها . فقلت : يا رسول الله ؛ خلني أنتخب من القوم مائة رجل ، فأتابع بهم هؤلاء الفارين ، حتى لا يبقى منهم أحد !

فضحك رسول الله وقال : أكنت فاعلا ! فقلت : نعم ، والذي أكرمك . ولما أصبحنا أردفني رسول الله على المنياء^(١) . ورجعنا قافلين إلى المدينة .

(١) أصل المنياء : الناقة المشقوقة الأذن ، وهي هنا لقب لنانة رسول الله ، ولم تكن عضباء .

٩ - يوم بنى المصطلق*

بلغ رسول الله أن بنى المصطلق يجتمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء يقال له المريسيع^(١) ، وتراخف الناس واقتتلوا ، فهزم المسلمون بنى المصطلق ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا .

ورجع الناس إلى الماء ، وأقبل عمر بن الخطاب على فرس يقوده جهجاه بن مسعود ، وازدحم هذا مع سنان بن برة الجهني - حليف بني عوف بن الخزرج - على الماء ، واقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! ولما سمع عبد الله بن أبي غضب وقال : أوقد فعلوها ! قد نافرؤنا وكأثرؤنا في بلادنا . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأدل .

ثم أقبل على من حضر من قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتهم بلادكم ، وقاسمتهم أموالكم . أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم .

وسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر . وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله حينذاك وسمع الحديث ، فقال : من يقتله يا رسول الله ؟ فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل .

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٣٣ ، الطبري ٣ : ٦٣ . كان في السنة السادسة من الهجرة .
وبنو المصطلق : جماعة من خزاعة .

(١) المريسيع : بئر لخزاعة ، وقد تضاف إليه غزوة بنى المصطلق ، فيقال : غزوة المريسيع .

فارتحل الناس وعلم عبد الله بن أبيّ بما بلغ رسول الله ، فشى إليه وحلف أنه ما تسكّم بذلك الكلام ، فقال بعض من حضر من الأنصار : يا رسول الله ؛ عسى أن يكون الغلام قد أوهم^(١) في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل !

وسار رسول الله ؛ فلقية أسيد بن حضير ، فحيّاه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ؛ لقد رخت^(٢) في ساعة منكرة ما كنت تروخ في مثلها . فقال رسول الله : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ! قال : وأى صاحب يا رسول الله ! قال : عبد الله بن أبيّ . قال : وماذا قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرض منها الأذل . قال : يا رسول الله ؛ فانت الذي تخرجه منها إن شئت ، هو والله الدليل وانت العزيز ! يا رسول الله ، ارفق به ، فقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتموجوه ، وإنه ليرى أنك قد استلبته الملك .

ثم مشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله ليشغل الناس عن الحديث الذي كان من عبد الله بن أبيّ .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ما كان من أمر أبيه ، فقال يا رسول الله ؛ إني قد سمعت أنك تريد قتل أبي لما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني أحمل إليك رأسه ، والله ما علم الناس رجلاً أبرّ بوالده مني ، ولكني أخشى أن تأمر غيري بقتله ثم لا تستريح نفسي حتى أقتل ذلك الذي أمرته بقتله ، فأكون قد قتلت رجلاً مؤمناً بكافراً فأدخل النار . فقال رسول الله : بل ترفق به ونحسب صُحْبَتَهُ ما بقي معنا .

(١) أوهم : غلط ولم يتحقق . (٢) رخت : رجعت .

وقسم رسول الله سبأيا بنى المصطلق ، فوَقَمَتْ جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارث لثابت ابن قيس فكَاتَبَتْهُ^(١) على نفسها ، فَأَتَتْ رسولَ الله تَسْتَعِينُهُ في أمرها ، وقالت : يا رسول الله ؛ وَقَمْتُ في نصيبِ ثابت بن قيس فكَاتَبْتُهُ على نفسي ، وَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ على ذلك . فقال : وَهَلْ لَكَ في خَيْرٍ مِنْ ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أَقْضَى عَنْكَ كِتَابَتُكَ وَأَتَزَوَّجُكَ . قالت : نعم ، يا رسول الله ، قال : قد فَعَلْتُ .

وذاع الخبرُ بين الناس ، فَأَرْسَلُوا ما بأيديهم ، وَأَعْتَقُوا نحو مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، وقالوا : أصهار رسول الله .
ودفع رسولُ الله جُوَيْرِيَةَ إلى رجل من الأنصار وديعةً حتى قدم المدينة ، وهناك أقبل أبوها - الحارث بن أبي ضرار - بِفِدَاءِ ابْنَتِهِ ، وقال : يا محمد ؛ أَسْرَتُم ابنتي ، وهذا فِدَاؤُهَا .

وَدَفَعَ الْفِدَاءَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ ابْنَتَهُ ، وأسلم الحارثُ وابْنَتَهُ ، فخطبها رسول الله إلى أبيها ، ثم تزوجها^(٢) .

(١) المكاتبة : أن يتفق السيد مع مولاة على مبلغ من المال ، فإذا أداها عتق .

(٢) في هذه الفقرة كان حديث الإفك ، وهو مبسوط في كتابنا : « قصص القرآن » .

١٠ - يوم الحديبية*

خرج رسول الله قاصداً مكة لزيارة البيت ، لا يَبْنِي حَرْباً وَلَا قِتَالاً ، ولكنه استنفر^(١) المسلمين وَمَنْ حوله من الأعراب أَنْ يَخْرُجُوا معه ، خشية أن تعرّض له قُرَيْشٌ بحرب ، أو يصدّوه عن البيت ، فتشاقَل الأعراب ، وقالوا : أنْذهَبْ إلى قومٍ قد غزَوْا محمداً في عُقْرِ داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم معه ! واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهلهم^(٢) .

وخرج رسول الله بَمَنْ معه من المهاجرين والأنصار ، وَمَنْ لحقَ به من العرب ليس معهم من السلاح إلا السُّيُوفُ في القُرْب^(٣) ، وساق معه الهدى^(٤) ، وأُخْرِمَ بالعمرة^(٥) ليأمنَ الناسُ حَرْبَه ، وليعلموا أنه جاء زائراً للبيت ، معظماً له .

ولما كان بمُضَفَّانَ^(٦) لَقِيَهُ بِشْرُ بْنُ سَفِيَّانٍ فقال : يا رسول الله ؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذُ المطافيل^(٧) ، وقد لبسوا جلودَ الثور ، ونزلوا بذى طُوًى^(٨) ، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخلها عليهم أبداً ؛ وهذا خالد بن الوليد في خيلهم بكراع الغميم^(٩) .

* الطبري : ٣ - ٧١ ، سيرة ابن هشام : ٣ - ٣٥٥ ، السيرة الحلبية : ٣ - ١٠ ، سيرة دحلان : ٢ - ١٩٢ . كان في السنة السادسة من الهجرة . والحديبية : موضع بينه وبين مكة مرحلة واحدة ، وفي يائها الثانية التشديد والتخفيف . (١) استنفر المسلمين : استنجدهم واستنصرهم . (٢) وذلك قوله تعالى : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شفاننا أموالنا وأهلونا) . (٣) القرب : جمع قراب ، وهو غمد السيف . (٤) الهدى : ما أهدى إلى مكة من النعم . (٥) العمرة : الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة فقط ، والفرق بين الحج والعمرة أن العمرة تجوز للأشخاص في السنة كلها ، والحج في وقت معروف من السنة ، مع زيادة بعض الأعمال . (٦) مضفان : موضع بين مكة والمدينة . (٧) العوذ : جمع عائد ، وهي الناقة الحديثة النتاج . والمطافيل : التي لها أطفال . (٨) ذو طوى : واد بمكة (٩) كراع الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

فقال رسول الله : يَا وَيْحَ قريش ! قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن أصابوني كان ذلك الذي أَرَادُوا ، وإن أَظْهَرَنِي الله عليهم دَخَلُوا في الإسلام وَافَرِين ، وإن لم يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وبهم قوَّة ، فما تظُنُّ قريش ! فَوَ اللَّهِ لَا أزالُ أَجَاهِدُهُمْ على الذي بعثني الله به حتى يُظْهَرَهُ الله أو تنفرد هذه السالفة ^(١) ! ثم قال : مَنْ رجلٌ يُخْرِجُ بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله . ثم سلك بهم طريقاً وَغَرَا ، وخرجوا منه بعد أن شقَّ عليهم ذلك ، فأمرهم الرسول : أن اسلكوا ذات اليمين . ولما سار الجيش رأيت خيل قريش قَتَرَةً ^(٢) الجيش ، وأن رسول الله قد خالفهم عن طريقهم ، فركضوا راجعين إلى مكة .

وسار رسول الله حتى إذا سلك في ثنية المُرَّارِ ^(٣) بركت ناقته ، فقال الناس : خَلَّاتِ الناقةُ ^(٤) ! فقال : ما خَلَّاتُ وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة ، لا تَدْعُونِي قريش اليوم إلى خُطَّةٍ يسألونني فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَنْطِيتُهُمْ بِهَا .

ونزل رسول الله بأفصى الحديبية . ولما اطمانَّ به المقام جاء بُدَيْل بن وَرْقَاءَ الْخِرَاعِي في نفر من قومه ^(٥) . وكانوا عَمِيَّةَ ^(٦) نُصَحِر رسول الله من أهل تهامة . فقال : إني تركتُ كَعْبَ بن لؤي وعامر بن لؤي قد نزلوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحَدَيْبِيَّةِ ^(٧) ، معهم أساحيتهم ، وهم مقاتِلُوك وصادُوك عن البيت . فقال رسول الله : إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، ولكننا جئنا مُعْتَمِرِينَ ، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرَّتْ بهم ،

(١) السالفة : صفحة العنق ، وكى بانفرادها عن الموت . (٢) فترة الجيش : الغبار الذي يثور عند سيره . (٣) عند الحديبية . (٤) خَلَّات : حُرَّت ولم تسر . (٥) قومه : خزاعة (٦) عَمِيَّة الرجل : موضع سيره . (٧) العَد - بالكسر - : الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها مثل ماء العين وماء النهر ، وجمعه أَعْدَاد .

فإن شاءوا مَادَدْنَاهُمْ مُدَّةً ، ويَحْلُوا بَيْنِي وبين الناس ، فإن أظْهَرَ فإن شاءوا أن يَدْخُلُوا فيما دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَمَّوْا ، وإِلَّا فَقَدْ جَمَّوْا^(١) ، وإن أَبَوْا ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا قَاتِلَ لَهُمْ عَلَى أَمْرِي حَتَّى تَنْهَرَدَ سَالِفَتِي ، أَوْ لِيَنْهَضَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ . فَقَالَ بُدَيْلٌ : سَلْبُلُغُهُمْ مَا تَقُول .

وانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَرِيْشًا ، فَقَالَ : إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا ؛ فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَمَّانَا . فَقَالَ سَهْمُؤُهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تَحْدِثُوا عَنْهُ بَشْيْءً . وَقَالَ ذُووُ الرِّأْيِ مِنْهُمْ : هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ . فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا سَمِعَ مِنَ الرَّسُولِ ، فَقَالُوا : وَإِنْ كَانَ لَا يَرِيدُ قِتَالًا فَلَنْ يَدْخُلَهَا عَلَيْنَا عَنُوءَ أَبَدًا ، وَلَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ عَنَّا بِذَلِكَ .

ثُمَّ بَعَثَ قَرِيْشٌ إِلَى الرَّسُولِ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ ، فَلَمَّا رَأَاهُ مُقْبِلًا قَالَ : هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ كَلَّمَهُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِبُدَيْلٍ وَأَصْحَابِهِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَرِيْشٍ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ .

ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ الْخُلَيْسَ بْنَ عِلْقَمَةَ — وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الْأَحَابِيْشِ^(٢) — فَلَمَّا رَأَاهُ الرَّسُولُ قَالَ : إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ^(٣) ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ . فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيرَ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ^(٤) أَنْوَادِي فِي قَلَائِدِهِ^(٥) — وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طَوْلِ الْجُبْسِ — عَنْ مَحَلِّهِ^(٦) رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى ، وَأَخْبَرَ قَرِيْشًا بِمَا رَأَى ، فَقَالُوا لَهُ : اجْلِسْ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ ، فَقَالَ :

(١) جَوَا اسْتَرَا حَوَا وَكَثُرُوا . (٢) الْأَحَابِيْشُ : أَحْيَاءُ مِنَ الْقَارَةِ انْضَمُّوا إِلَى بَنِي لَيْثٍ فِي الْحَرْبِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، سَمَّوْا بِذَلِكَ لَاسُودَادَهُمْ . (٣) التَّأَلُّهُ : التَّعْبُدُ . (٤) الْعُرْضُ : الْجَانِبُ وَالنَّاحِيَةُ . (٥) الْقَلَائِدُ : مَا يَمْلُقُ فِي أَعْنَاقِ الْهَدْيِ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ هَدْيٌ . (٦) مَحَلُّهُ : مَوْضِعُهُ الَّذِي يَنْحَرُ فِيهِ مِنَ الْحَرَمِ .

يامعشر قريش؛ والله ماعلى هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، ائصد عن بيت الله من جاء معظماً له ! والذى نفس الحليس بيده لتدخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أولاً نفرن بالأحايش نفرة رجل واحد . قالوا : مه ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله عروة بن مسعود الثقفي ، فقال لهم : يامعشر قريش ؛ إني قد رأيت ما يلقى منكم من بئسهم إلى محمد - إذا جاءكم - من التّعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنى والد وأنى ولد^(١) ، وقد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى^(٢) . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله ، فجلس بين يديه ، ثم قال : يا محمد ؛ أجمعت أوشاب^(٣) الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك تفضها^(٤) ! إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل^(٥) قد لبسوا جلود النمر ، يماهدون أنفسهم ألا تدخلها عليهم عبوة أبدا ، وإيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا^(٦) عنك غدا . فقال أبو بكر : أنحن نكشف عنه ! قال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة ، قال : أما والله لولا يدك كانت لك عندى لكافأئك بها ، ولكن هذه بتلك . ثم جمل يتناول لحية الرسول وهو يكلمه ، فجعل المغيرة بن شعبه يقرع يده إذا تناول لحية الرسول ويقول : اكف يدك . فقال عروة : ويحك ! ما أظلك وأغلظك ! فتبسم رسول الله

(١) أى كالولد لهم فى حب الخير لهم ، وأنه كالولد لهم ، لأن أمه سبيعة بنت عبد شمس .

(٢) آسيتكم : جمع تكم فى مال أسوة بنفسى . (٣) أوشاب : أخلاط . (٤) بيضتك :

أصلك وعشيرتك . وتفضها : تسكرها . (٥) العوذ : النياق المديشات النتاج . والمطفل : الذى

لها طفل ، وجمعها مطافيل . (٦) انكشفوا عنك : انهمزوا وتركوك وحدك أمام عدوك .

(٦ - أيام العرب فى الإسلام)

فقال عروة : مَنْ هَذَا يا محمد ؟ قال هذا : ابنُ أخيك المغيرة بن شعبه . قال :
أى غدر ! وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس^(١) ! ثم إن عروة جعل يرمُق أصحابَ
النبيِّ بعينه ، فرآهم إذا أمرهم ابتدروا أمره^(٢) ، وإذا تَوْضَّأ كادوا يقتتلون على
وَضُوئِهِ^(٣) ، وإذا تَسَكَّمُوا عنده خفَضُوا أصواتهم ، وما يُحَدِّثُونَ النظر إليه
تَعْظِيماً له .

ثم رَجَعَ إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني قد جِئْتُ كِسْرَى في مَلَكَةٍ ،
وَقَيْصَرَ في مَلَكَةٍ ، والنَجَاشِيَّ في مَلَكَةٍ ، وإني مارَأَيْتُ في قَوْمٍ قَطَّ مثل محمدٍ في
أَصْحَابِهِ ، ولقد رَأَيْتُ قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ شَيْءَ أَبَدًا ، فَرَوْا رَأْيَكُمْ !

ثم دعا رسولُ الله عمرَ بن الخطاب لِيَمِيعَتِهِ إلى مكة ، فبَلَغَ عنه أَشراف قريش
ما جاء له . فقال : يا رسولَ الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بِمَكَّةَ من بنى
عَدِيٍّ^(٤) أَحَدٌ يَنْمَعِي ، وقد عَرَفْتُ قريشَ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا ، وَغِيَاظَتِي عَلَيْهَا ، وَلَكِنِّي
أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي ، هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ .

فدعا رسولُ عثمانَ ، وَبَعَثَهُ إلى أَشراف قريش ، يَخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ ،
وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِراً لِهَذَا الْبَيْتِ مَعْظَمًا لِحَرَمَتِهِ . فخرَجَ عُثْمَانُ إلى مكة ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَمْعِيدٍ ،
فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ ، وَأَجَارَهُ ، حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ .

وانطلق عُثْمَانُ حَتَّى أَتَى أَبَا سَفْيَانَ وَعِظَاءَ قريش ، فبَلَغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ مَا أَرْسَلَهُ
بِهِ . فقالوا لِعُثْمَانَ ، حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَتِهِ : إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ بِهِ .
قال : مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ . فَاحْتَبَسَتْهُ قريشُ عِنْدَهَا .

(١) كَانَ الْمَغِيرَةُ قَدْ قَتَلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ ، فَوَدَى عُرْوَةَ الْمَقْتُولِينَ ، وَأَصْلَحَ
الْأَمْرَ بِذَلِكَ . (٢) ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ : بَادَرُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَيْهِ ، أَيُّهُمْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ فَيَنْقَلِبُ .

(٣) الْوَضُوءُ — يَفْتَحُ الْوَاوُ : الْمَاءَ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ . (٤) قَوْمُ عَمْرِ .

فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قُتِل . فقال الرسول : لا نبرحُ حتى نناجز^(١) القوم ، ودعا الناس إلى البيعة ، ونادى المنادى : أيها الناس ، البيعة البيعة ! فناروا إلى رسول الله ، وهو تحت شجرة فبايعوه . ثم أتى رسول الله أن الذي وصل من أمر عثمان باطل .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ، وقالوا له : إيت محمدًا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدثُ العربُ أنه دخلها علينا عفوًا أبدًا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه الرسول قال : قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله تكلم فأطال الكلام ، وتراجما ، ثم جرى بينهما الصلحُ .

فلما ألتأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب^(٢) وثبَّ عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ؛ أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشرَكين ، قال : بلى ، قال : فعلامَ نُعطى الدِّنيَّة^(٣) في ديننا ! قال أبو بكر : يا عمر ، الزَّمَّ غَرْزَه^(٤) ؛ فإني أشهدُ أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهدُ أنه رسول الله .

ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشرَكين ؟

(١) نناجز : نقاتل . (٢) الكتاب : الكتابة والتدوين . (٣) الدنية : الذل والصغار والهوان . (٤) الغرز : بمنزلة الركاب للسرَّج في الأصل ، أي لا تمجد عن طريقه ، ولا تختار لنفسك إلا ما يختاره .

قال : بلى . قال : فَمَلَّامَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟ قال : أنا عبدُ الله ورسوله ، لَنْ أَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي ^(١) .

ثم دعا رسولُ الله عليَّ بنَ أبي طالب ، فقال : اكتبُ : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سُهَيْل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم . فقال رسولُ الله : اكتبُ باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب : « هذا ما صالح به محمد رسول الله سُهَيْل ابن عمر ... » قال سُهَيْل : لو شهدتُ أنك رسولُ الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسمَ أبيك . فقال رسولُ الله : اكتب : « هذا ما صالحَ عليه محمد ابن عبد الله سُهَيْل بن عمرو ، واصطاحا على وَضْعِ الحرب عن الناس عَشْرَ سنين ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ ، وَيَكْفُ بِمُضْمَرٍ عَنْ بَعْضٍ ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَتَى مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلَيْتَهُ رَدَّ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مِمَّنْ مَعَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرُدُّوهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَبْنِيَا عَيْبَةَ ^(٢) مَكْفُوفَةً ، وَأَنْهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ ^(٣) ، وَأَنْهُ مِنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ » .

فَتَوَاتَبَتْ خُرَاعَةٌ فَقَالُوا : نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ وَقَالُوا : نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ .

ثم اتفقوا أَنْ يَمُودَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الْعَامَ فَلَا يَدْخُلُوا مَكَّةَ ، وَأَنْهُ إِذَا كَانَ عَامٌ قَابِلٌ يَدْخُلُهَا الرَّسُولُ بِأَصْحَابِهِ ؛ وَمَعَهُمْ سِلَاحُ الرَّأْكَبِ ، السِّیُوفُ فِي الْقُرْبِ ، وَيَقِيمُونَ بِهَا ثَلَاثًا ^(٤) .

(١) كان عمر يقول : ما زلت أنصدق وأصوم وأصلي وأعتيق من هذا الذي صنعت يوشك عذابي كلامي الذي تسكمت به . (٢) العيبة : ما يعمل فيه الثياب ، والمكفوفة : المرسجة ، ومعناه : لأن بيننا وبينهم في هذا الصلح صدراً معقوداً على الوفاء بما في الكتاب . (٣) الإسلال : السرقة الخفية والإغلال : الخيانة . (٤) قد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها الرسول . فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم .

وبينما رسول الله يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ؛ إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انقلت إلى رسول الله .

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه^(١) ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت^(٢) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل يمتره^(٣) بتليبيه ، ويجرّه ليردّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ أأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم .

فقال الرسول : يا أبا جندل ؛ اصبر واحتسب ؛ فإن الله جاعلٌ لك ولعمرك ممك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إننا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطينا عهد الله . وإننا لا نغدر بهم .

فلما فرغ من الكتاب شهد على الصنح رجال من المسلمين ورجال من المشركين ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فلم يقيم منهم أحد . فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له : اخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر وتدعو حالك ! فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ، وحنق رأسه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا .

وقفل الرسول إلى المدينة ، لم يدخل مكة ، ولم يلق حرباً .

ولما قدم المدينة أتاه أبو بصير - عتبة بن أسيد - لاجئاً ، فكتب في رده أزهراً

(١) أخذ فلان بتلييب فلان ؛ إذ جمع عليه ثوبه الذي هو لابس عند صدره وقبض عليه يجره .

(٢) لجت القضية : انقضت ، وانتهى أمرها . (٣) النتر : الجذب .

ابن عبد عوف ، والأخنس بن شريق كتابا ، وبعثا به رجلا من بني عامر ، ومعه مولى يَهْدِيهِ الطريق ؛ فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ بِالْكِتَابِ ، فَقَرَأَهُ أَبُو بَنِي كَعْبٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِذَا فِيهِ : قَدْ عَرَفْتَ مَا شَارَ طُنَاكَ عَلَيْهِ مِنْ رَدٍّ مَنْ قَدِيمٍ عَلَيْكَ مِنْ أَصْحَابِنَا ، فَأَبْعَثْ إِلَيْنَا بِصَاحِبِنَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : يَا أَبَا بَصِيرَ ؛ إِنْ أَدْنَى أَعْلَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا عَلِمْتَ مِنْ عَهْدٍ ، وَلَا يَصْلَحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ، وَإِنْ اللَّهُ جَاعِلٌ لَكَ وَلِنَ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، فَانْطَلِقْ إِلَى قَوْمِكَ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَدْتَنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونَنِي فِي دِينِي ! قَالَ : يَا أَبَا بَصِيرَ ؛ انْطَلِقْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا .

فَانْطَلَقَ أَبُو بَصِيرَ مَعَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ بِذِي الْحَلِيفَةِ^(١) جَلَسَ إِلَى جِدَارٍ وَمَعَهُ صَاحِبَاهُ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرَ لِأَحَدِ صَاحِبَيْهِ - وَمَعَهُ سَيْفُهُ : أَمَارُكُمْ سَيْفُكُمْ هَذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ؛ انْظُرْ إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ ، فَاسْتَلَّهُ أَبُو بَصِيرَ ثُمَّ عَلَّاهُ بِهِ حَتَّى قَتَلَهُ . وَخَرَجَ الْمَوْتَى سَرِيعًا حَتَّى أَتَى الرَّسُولَ ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ لَهُ : قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي .

وَمَا بَرِحَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرَ مَتَوَشِّعًا بِالسَّيْفِ ، وَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَفَتْ ذِمَّتُكَ ، وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ ، أَسَلَّمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُمَبِّثَ بِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : وَيْلَى أُمَّهُ مِجْحَشٌ^(٢) حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ !

وَقَالَ لِأَبِي بَصِيرَ : اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ ، نَخْرُجُ أَبُو بَصِيرَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى

(١) موضع في تهامة .

(٢) فلان محش حرب : موقد نارها .

ساحل البحر بطريق قريش إلى الشام بالتجارة ، واجتمع إليه كثير من المسلمين^(١)
كانوا احتسبوا بمكة ، ورصدوا لكل قرشي يذهب ، لا يظفرون بأحد منهم
إلا قتلوه ، ولا تمر بهم غير إلا أخذوها ، حتى ضجّت قريش وكتبت إلى
رسول الله تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء ، فلا حاجة لهم بهم . فآواهم رسول الله
ثم استقدمهم إلى المدينة .

(١) كان منهم أبو جندل بن سهيل .

١١ — يوم مُؤْتَةَ*

أرسل النبي ﷺ الحارث بن عُمير الأزديّ بكتاب إلى أمير بَصْرَى^(١) من قِبَل الحارث بن أبي شمر الغسانيّ ، فلما نزل مُؤْتَةَ عرض له شُرَحْبِيل ابن عمرو الغسانيّ ، فقال له : إلى أين تريد ؟ فقال : الشام . فقال : املك من رُسُل محمد ! قال : نعم . فأمر به فأوثق ، ثم قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُقُقَهُ .

ولما علم رسول الله بذلك بمث بَعَثَهُ إلى مُؤْتَةَ ، واستعمل عليه زيد بن حارثة ، وَنَدَبَ^(٢) القوم . وقال : إن أُصِيبَ زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصِيبَ جعفر فعبد الله بن رَوَاحَةَ على الناس . وأمرهم أن يَأْتُوا مَقْتَلَ الحارث ابن عُمير ، وأن يَدْعُو مَنْ هُنَاكَ إلى الإسلام ، فإن أجابوا إِلَّا فَالْيَسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ وَيُقَاتِلُوهُمْ .

فتجهز الناس وتهيئوا للخروج ، وكانوا ثلاثة آلاف ، ولما حان موعدُ خروجهم ودّع الناسُ أمراء النبي ﷺ وسلّموا عليهم ، فلما ودّع عبد الله بن رَوَاحَةَ مع مَنْ وُدّع بكى . فقالوا : ما يبكيك يا بن رَوَاحَةَ ؟ فقال : أما والله ما بي حُبُّ الدنيا ولا صَبَابَةٌ^(٣) بكم ، ولكني سمعتُ رسول الله يقرأ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النار : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٤) . فاستُ أَذْرِي كيف لي

* سيرة ابن هشام : ٣-٤٣٧ ، الطبري : ٣-١٠٧ ، السيرة الحلبية : ٣-٧٦ ، سيرة دحلان : ٢-٢٣٩ . وكان هذا اليوم في السنة الثامنة من الهجرة . ومُؤْتَةَ : موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس .

(١) بصري : بلد بالشام . (٢) ندب القوم : دعاهم إلى الخروج . (٣) الصبابة : الشوق ، أو رفته وحرارته . (٤) سورة مريم ٧١ .

بالصدر^(١) بعد الورود ! فقال المسلمون : صَحِّبَكُمُ اللَّهُ ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين . ثم قال عبد الله بن رَوَاحَةَ :

لَكِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْدِفُ الرَّبْدَا^(٢)
أَوْ طَمَعَةً بِيَدَيَّ حَرَّانَ مُجْهِزَةٍ^(٣) بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَيْدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدِّي^(٤) أُرْشِدَهُ اللَّهُ مَنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

ثم خرج القومُ وخرج الرسولُ يشيئُهم ، وَلَمَّا وَدَّعَهُمْ قَالَ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِعَنِّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، لَا تَغْدِرُوا^(٥) ، وَلَا تَمْلُؤُوا^(٦) ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا ، وَلَا مُنْمَرًا بِصَوْمَعَةٍ ، وَلَا تَقْرَبُوا نَخْلًا ، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا ، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْتًا .

ثم مَضَوْا حَتَّى نَزَلُوا مَعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَبَلَغَ النَّاسُ أَنَّ هِرَاقْلَ قَدْ نَزَلَ مَآبَ - مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ - فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ لَحْمٌ وَجُدَامٌ وَبَهْرَاءٌ وَبِلَى . فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا عَلَى مَعَانَ لَيْلَتَيْنِ يَفْكُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ وَقَالُوا : نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَنُخْبِرُهُ بِمَدَدِ عَدُونَا ، فَإِمَّا أَنْ يَمْدَنَا بِالرِّجَالِ ، وَإِمَّا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَنَمْضِيَ لَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : يَا قَوْمَ ، إِنْ التَّي تَسْكُرُهُونَ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ . وَمَا نَقَاتِلُ النَّاسَ بِمَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ ، وَلَا نَقَاتُلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ ، فَانْطَلِقُوا فَأَعْمَاهِي إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ : إِمَّا ظَهْرًا وَإِمَّا شَهَادَةً .

(١) الصدر : الرجوع . (٢) ذات فرغ : واسعة يسيل دماها . (٣) مجهزة : سريعة القتيل : (٤) الجلدت : القبر . (٥) الغدر : نقض العهد . (٦) غل وأغل : خان .

فقالُ الناسُ : قد صدقَ اللهُ ابنُ رَواحة .

ثم مضى الناسُ حتى إذا كانوا بِتُخُومِ^(١) الْبَلَقَاءِ لَقِيَتْهُمْ جُوعٌ هِرَقْلٌ مِنَ الرُّومِ
وَالْفُرسِ عِنْدَ مَشَارِفِ مِنْ قَرَى الشَّامِ . وَلَمَّا دَنَا الْعَدُوُّ أَنْحَازَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مُوتَةِ ، ثُمَّ
تَمَجَّثُوا لَهُمْ ، وَجَعَلُوا عَلَى مِيمَتِهِمْ قُطْبَةَ بَنِي قَتَادَةَ مِنْ بَنِي عُدْرَةَ ، وَعَلَى مِيسِرَتِهِمْ عَبَايَةَ
ابْنِ مَالِكٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَحَمَلَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ .

ثُمَّ اتَّقَى الْجَعْمَانِ ، وَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حَتَّى شَاطَ^(٢) فِي رِمَاحِ الْقَوْمِ . فَأَخَذَ الرَّايَةَ
جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَارْتَجَزَ :

يَا حَبِيبَا الْجَنَّةِ واقترابها طَيِّبَةً وَبارداً شَرَابَهَا
وَالرُّومِ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بِمِידَةٍ أَنْسَابُهَا
* عَلَى إِذْ لَا قِيَّتَها ضِرَابُهَا *

ثُمَّ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ قُتِلَ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَواحةَ الرَّايَةَ وَتَقَدَّمَ بِهَا عَلَى فَرَسِهِ ، وَارْتَجَزَ :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّ
إِنْ أَجْلَبَ^(٣) النَّاسُ وَشَدَّوْا الرِّثَّةَ^(٤) مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ !
قَدْ طَالَمَا كَفْتِ مُطْمَئِنَّةً هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَتَّةٍ^(٥)

يَا نَفْسِ إِلَّا تُقَتَّلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتُ

(١) التُّخُومُ : مَا يَفْصِلُ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَالْمُدُودِ . (٢) شَاطَ : إِذَا سَالَ دَمُهُ وَهَلَكَ .

(٣) الضَّرَابُ : الْحِمَالَةُ وَالْقَتَالُ . (٤) أَجْلَبَ النَّاسُ : صَاحُوا وَاجْتَمَعُوا . (٥) الرِّثَّةُ :

الصَّيْحَةُ الْحَزِينَةُ . (٦) النُّطْفَةُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ ، وَالشَّتَّةُ : الْقُرْبَةُ الْخُلُقُ .

وما تَمَنَّيْتَ فَقَدْ أُعْطِيَْتَ . إِنْ تَفَعَّلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ^(١)
وأخذ سيفه وقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون ، وأراد بعضُ المسلمين الانهزام فجعل
عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ يَقُولُ : يَا قَوْمَ ، يُقَاتِلُ الْإِنْسَانُ مُقْبِلًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُقَاتَلَ مُدْبِرًا .
ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ ثَابِتٌ بْنُ أَرْقَمٍ ، وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، اصْطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ
مِنْكُمْ . قَالُوا : أَنْتَ ، قَالَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ . فَاصْطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ،
فَلَمَّا أَخَذَ الرَّايَةَ دَافَعَ الْقَوْمَ وَخَاشَى^(٢) بِهِمْ ، ثُمَّ انْحَاذَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنِ الْآخَرِ
مِنْ غَيْرِ هَزِيمَةٍ عَلَى أَحَدِهِمَا ، وَانصَرَفَ النَّاسُ ، فَقَفَلَ^(٣) بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ .
وَتَلَقَّاهُمُ الرَّسُولُ ، وَلَقِيَهُمُ الصَّبِيَّانِ يَشْتَدُّونَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّتِهِ ،
فَقَالَ : خَذُوا الصَّبِيَّانِ قَاحِلُوهُمَا وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ ، فَأَتَى بِعَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخَذَهُ
وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَمَلَ النَّاسُ يَمْحُثُونَ عَلَى الْجَيْشِ التُّرَابَ ، وَيَقُولُونَ : يَا فُرَّارَ ،
فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! فَيَقُولُ الرَّسُولُ : لَيْسُوا فُرَّارًا ، وَلَكِنَّهُمْ الْكُرَّارَ .

(١) يريد صاحبيه : زيدا وجعفرًا .

(٢) خاشى بهم : أبقي عليهم وحذر فأنحاز (اللسان - خشى) . (٣) قفل : رجع .

١٢ - يوم الفتح*

خرج مالك بن عباد^(١) - حليف بني بكر - تاجراً ، وكان ذلك قبل الإسلام . فلما توسَّطَ أرضَ خُزاعةَ عَدَّوْا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعدَّتْ بنو بكر على رجلٍ من خُزاعة فقتلوه ، ثم عدَّتْ خُزاعة على بني الأسود بن رَزْق - وهم أشرافُ بني بكر - فقتلوا منهم بمرَقة عند أنصاب^(٢) الحرَم .

وبينما بنو بكر وخُزاعة على ذلك حَجَزَ بينهم الإسلام ، وتشاغل الناسُ به . ولما كان صلح الحديبية بين رسول الله وبين قريش كان فيما شَرَطُوا على رسول الله ، وشَرَطَ لهم أنه مَنْ أَحَبَّ أن يدخلَ في عَهْدِ محمد وعَقْدِهِ دخل فيه ، وَمَنْ أَحَبَّ أن يدخلَ في عهد قريش وعَقْدِهِم دخل فيه ؛ فدخلتْ بنو بكر في عَقْدِ قريش ، ودخلتْ خُزاعة في عَقْدِ رسول الله .

فلما كانت تلك الهدنة اغتنمتهما بنو بكر ، وأرادوا أن يُصيبوا من خُزاعة بأولئك النَّفَرِ الذي أصابوا منهم ، فخرج نوفل بن معاوية - من بني بكر - حتى بيَّتَ^(٣) خُزاعة ، وهم على ماء لهم يقال له الوَتِير^(٤) ، فأصابوا منهم رجلاً ، وتحاوزوا^(٥) واقتتلوا ، ورَفَدَتْ^(٦) قريشُ بني بكر بالسَّلاح ، وقاتل معهم من قريش مَنْ قاتل مُسْتَعْظِياً ، حتى حَازُوا خُزاعة إلى الحرَم .

* سيرة ابن هشام : ٤ - ٣ ، الطبري : ٣ - ١١٠ ، وكان هذا اليوم في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة .

(١) من بني الحضرمي ، وكان حلف بني الحضرمي إلى الأسود بن رزق الديلي ، وهم أشراف بني بكر . (٢) أراد بالأنصاب الحجارة التي وضعت لتكون علامات وحدودا بين الحل والحرم . (٣) بيَّتهم : أوقع بهم ليلاً . (٤) الوتير : ماء بين عرفة إلى أدام . (٥) تحاوز الغريقان : انحاز كل واحد عن الآخر . (٦) رفدت : أعانته .

فلما تظاهرت قريش على خُزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونَقَضُوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استحلَّوا من خُزاعة ، خرج عمرو بن سالم الخُزاعي ، حتى قَدِمَ على رسول الله بالمدينة ، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظَهْراني الناس فقال :

لا هُمَّ إني ناشدُ خَمَّدا	حَافَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْنَدَا ^(١)
فوالدَا كُنَّا وَكُنْتَ وَلَدَا	تُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فانصُرْ هَذَا اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا ^(٢)	وَادِعُ عِبَادِ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدَا	أَبْيَضَ مِثْلَ الْبَدْرِ يَنْمَى صُعْدَا
إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا ^(٣)	فِي فَيْلَقِي ^(٤) كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَا
وجعلوا لي في كَدَاءٍ ^(٥) رُصْدَا	وزعموا أن لست أدعو أَحَدَا
وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا	هُمُ بَيْتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا ^(٦)

* فقتلونا رُكَّامًا وَسُجَّدَا *

فقال رسول الله - حين سمع ذلك : قد نُصِرْتَ يَا عَمْرُو ! وجاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ في نفرٍ من خُزاعة ، حتى قدموا على رسول الله فأخبروه بِمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ ، وبمظاهرة^(٧) قريش بني بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة .
وقال رسول الله للناس : كَأَنِّي بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَ لَيْشُدَّ الْعَقْدُ ، وَيَزِيدَ فِي الْمُدَّةِ .

(١) ناشد . طالب . الأتلد : القديم . (٢) أعتدا : حاضراً .

(٣) الخسف : الذل ، وسيم الخساف : كلفه ، وتربد : تغير .

(٤) الفيلق : العسكر الكثير . (٥) كدء : موضع بمكة . (٦) الوتير : اسم ماء .

(٧) المظاهرة : المعاونة .

ومضى بُدَيْل وأصحابه ، فلقوا أبا سفيان بُعْسَفَان^(١) قد بعثته قريش إلى النبي
ليشدَّ العقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا .
فقال أبو سفيان : من أين أقبلت يا بُدَيْل ؟ قال : سرتُ في خزاعة في هذا
الساحل ، وفي بطن هذا الوادي . قال : أَجِئْتَ محمداً ؟ قال : لا .
فلما راح بُدَيْل إلى مكة قال أبو سفيان : إن كان بُدَيْل قد ذهب إلى المدينة فقد
أكلت راحلته النوى ، ثم عمِد إلى مَبْرَكِ ناقته فأخذ من بَمْرِها ففَتَّه ، فرأى فيه
النوى ، فقال : أَحْلِفْ لقد جاء بُدَيْل محمداً !

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حَبِيبَةَ - زوج رسول
الله - فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طَوَّعَتْهُ عنه ، فقال : يا بُنَيَّةُ ؛
والله ما أدري ، أرغبتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عني ؟ قالت : بل هو
فراش رسول الله ، وأنتَ رجلٌ مُشْرِكٌ ، فلم أحب أن تجلسَ على فراش رسول الله !
قال : لقد أصابك يا بُنَيَّةُ بَمْدَى شَرٌّ !

ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ، فكلَّمه فلم يرُدَّ عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبي بكر
فكلَّمه أن يكلم رسولَ الله . فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلَّمه ،
فقال : أنا أشفعُ إلى رسول الله ، فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ^(٢) لجاهدتكم به .
ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمةُ ومعهما الحسن بين يديها ،
فقال : يا علي ؛ إنك أمسُ القومِ بي رَحِمًا ، وأقربهم مني قَرابةً ، وقد جئتُ في حاجةٍ
فلا أرجعُ - كما جئتُ - خائباً . اشفعْ لنا إلى محمد ، قال : وَيَحْك يا أبا سفيان !

(١) بعسفان : موضع على مرحلتين من مكة . (٢) الذر : صغار النمل .

والله لقد عزم رسول الله على أمرٍ ما نستطيع أن نكلّمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال :
يا بنتَ محمد ؛ هل لك أن تأمرى بُنيّك هذا فيجبر^(١) بين الناس ، فيكون سيّد^١ ،
العرب إلى آخر الدهر ! قالت : والله ما بلغ بُنيّ ذلك أن يُجبر بين الناس ، وما يُجبر
على رسول الله أحد ، قال : يا أبا الحسن ؛ إني أرى الأمور قد اشتدّت علىّ فأنصحنى .
فقال : والله ما أعلم شيئاً يُعنى عنك شيئاً . ولكنك سيّدُ بنى كِنانة ، فقم فأجبر^٢
بين الناس ، فالحق بأرضك . قال : أوترى ذلك مُعنيّاً عنى شيئاً ! قال : لا ، والله
ما أظنّ ، ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس ، إني قد أجرتُ بين الناس . ثم
ركب بميره فانطلق .

فلما قدّم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتُ محمداً فكلّمته ، فوالله ما ردّ
علىّ شيئاً . ثم جئتُ ابنَ أبي قُحافة فلم أجد عنده خيراً ، ثم جئتُ ابنَ الخطّاب
فوجدته أعدى القوم ، ثم جئتُ عليّ بنَ أبي طالب فوجدته ألين القوم ، وقد أشار
علىّ بشيء صنعته ، فوالله ما أدرى هل يُعنيّني شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبماذا أمرك ؟
قال : أمرنى أن أجبر بين الناس ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ؛
قالوا : ويملك ! والله إن زاد على أن لَمِب بك ، فما يُعنى عنا ما قلت ، قال : الله
ما وجدتُ غير ذلك .

وأمر رسول الله بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهّزوه ، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة
وهي تحرك جهاز النبيّ ، فقال : أى بنّة ، أمركم رسولُ الله أن تجهّزوه ؟ قالت :

(١) يجبر بين الناس : أى يفضل بينهم ويمنهم من البنى والمدوان .

نعم فتجهّز . قال : فأين تريّنه يريد ؟ قالت : والله ما أدري ! ثم إنَّ رسولَ الله أعلمَ الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدّة والتهيؤ ، وقال : اللهم خذِ العيونَ والأخبارَ عن قريش حتى نبغتها^(١) في بلادها . فتجهّز الناس .

ولمّا أجمع رسولُ الله السيرَ إلى مكة كتب حاطبُ بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسولُ الله من السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جُمُلا^(٢) على أن تبلغه قريشا ، فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ، وخرجت به .

وأتى رسولُ الله الخبرُ من الوحي ، فبعث علىَّ بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وقال لهما : أدركا امرأة قد كتّبت معها حاطبُ بكتابٍ إلى قريش يحذّرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة^(٣) ، فاستنزلاها ، والتمسا الكتابَ في رَحْلِها فلم يجدا شيئا . فقال لهما علىَّ : إني أخلف ما كذب رسولُ الله ، ولا كذبتنا ، ولتُخرجنَّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنَّك ! فلما رأت الجدّ منه قالت : أعرضا عني ، فأعرضا عنها ، فحلت قرونَ رأسها واستخرجت الكتابَ منه ، فدفعته إليهما فجاءا به إلى النبيّ .

ودعا رسولُ الله حاطبا ، فقال : يا حاطبُ ؟ ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ؟ أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ؛ ما غيّرت ولا بدّلت ، ولكني كنتُ امرأةً ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم أهلٌ وولد ، فصاغتُهم عليهم . فقال : عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنقه ؛ فإنَّ الرجلَ قد نافق .

(١) نبغتها : نفاجئها . (٢) جملا : ما يجعل مقابل عمل . (٣) الخليقة : ماء بين مكة واليامة .

فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ! لعن الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم^(١) .

ثم برح رسول الله المدينة ، واستخلف عليها أبا رهم كاثوم بن حُصَيْن .

ومضى النبي لسفَره ، حتى نزل مرَّ الظهران^(٢) في عشرة آلاف من المسلمين ، وكانت قد عُصِّيت الأخبارُ عن قريش فلم يأتهم خبرُ رسول الله ، ولم يدروا ماهو فاعل . وخرج في بعض تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به !

قال العباس بن عبد المطلب : ولما نزل رسول الله مرَّ الظهران قلت : يا صباح قريش ! والله لئن بَقَّتْها^(٣) رسول الله في بلادها فدخل مكة عَنَوَةً ، إنه لهلاك قريش آخر الدهر . وجلس على بغلة رسول الله البيضاء ، وقال : أخرجُ إلى الأراك لعلى أرى حَطَّاباً^(٤) ، أو صاحب لبٍ ، أو داخلا يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتونه فيستأمنونه .

فخرجتُ ؛ فوالله إننى لأطوفُ في الأراك ألتَمِسُ ما خرجتُ له ، إذ سمعتُ صوتَ أبي سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، وقد خرجوا يتحسسون الخبر عن رسول الله ، فسمعتُ أبا سفيان يقول : والله مارأيتُ كاليوم قطُ نيراناً . فقال بديل : هذه والله خُرَاعة قد حَمَشْتَهَا^(٥) الحرب . فقال أبو سفيان : خُرَاعةُ أذلُّ وأقلُّ من أن تكونَ هذه نيرانها ! فعرفتُ صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ،

(١) أنزل الله تعالى في حاطب : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . . » سورة المتحنة . (٢) مر الظهران : واد قرب مكة . (٣) بقَّتها : فاجأها . (٤) الحطاب : ما أعد من الشجر وقوداً ، وحطبه : جمعه . (٥) حَمَشْتَهَا الحرب : أغضبتها .

فعرِف صوتي، فقال: أبو الفضل! قلت: نعم، فقال: لَيْتِكَ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي! قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسولُ الله قد دَلَفَ^(١) إليكم بما لا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ، قال: فما الحيلة فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي! قلت: تَرَكْبُ عَجْزُ هذه البغلة فَأَسْتَأْمِنُ لَكَ رسولَ الله؛ فوالله لئن ظَفِرَ بك ليضربَنَّ عُنُقَكَ. فردَفَنِي^(٢)، فخرجتُ به أركضُ بغلةَ النبيِّ نحوَ المسلمين، فكلَّمَا مَرَرْتُ بِنَارٍ مِنْ نيرانِ المسلمين ونظروا إليَّ قالوا: عَمَّ رسولُ الله على بَغْلَةٍ رسولُ الله؛ حتى مَرَرْتُ بِنَارِ عمر بن الخطاب فقال: أبو سفيان! الحمد لله الذي أُمَكَّنَ منك بغير عَقْدٍ ولا عَهْدٍ! ثم اشتدَّ^(٣) نحوَ النبيِّ، وركضتُ البغلةَ وقد أُرِدِفْتُ أبا سفيان حتى اقتحمت على باب القبة، وسبقتُ عمر بما تسبقُ به الدابةُ البطيئةُ الرجلَ البطيءَ، فدخلَ عمر على رسولِ الله فقال: يا رسولَ الله، هذا أبو سفيان عدوُّ الله قد أُمَكَّنَ الله منه بنير عَهْدٍ ولا عَقْدٍ، فدَعَنِي أضربَ عنقه.

فقلت: يا رسولَ الله، إني قد أَجْرَتُهُ، ثم جلستُ إلى النبيِّ فأخذتُ برأسه فقلت: والله لا يناجيه اليوم أحدٌ دوني، فلما أَكْثَرَ عُمُرِي شَأْنَهُ قلتُ: مهلاً يا عمر؛ فوالله لو كان من رجالِ بني عَدِيٍّ^(٤) بن كعب ما قلتُ هذا، ولكنك عرفتَ أنه من رجالِ بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إلي رسولِ الله من إسلام الخطَّاب لو أسلم. فقال رسولُ الله: اذهبْ به يا عباس إلى رَحْلِكَ، فإذا أصبحتَ فأتني به.

فذهبتُ به إلى رَحْلِي، فباتَ عندي. فلما أصبحَ غَدَوْتُ به إلى رسولِ الله، فلما رآه قال: وَيْحَكَ يا أبا سفيان! أَلَمْ يَأْنِ^(٥) لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! قال: يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي! مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ! والله لقد ظننتُ أن لو

(١) دلف: تقدم. (٢) تبعني. (٣) اشتد: عدا وأسرع. (٤) قوم عمر.

(٥) لم يَأْنِ لك: ألم يحن لك الوقت الذي تعلم فيه...

كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئاً ، قال : وَيَحْك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسولُ الله ! فقال : : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك وأحملك وأكرمك ! أمّا هذه ففي النفس منها شيء . فقال العباس : وَيْلَكَ ! أَسْلِمَ ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمداً رسولُ الله قبل أن تُضربَ عنقُكَ ، فشهد شهادةَ الحق . فقال رسولُ الله للعباس حين تشهد أبو سفيان : انصُرِفْ يا عباس فاحبسْه عند خَظَمِ^(١) الجَبَلِ بمضيقِ الوادي حتى تمرَّ عليه جُنُودُ الله ، فقلت : يا رسولَ الله ، إنَّ أبا سفيان رجلاً يحبُّ الفخر ، فاجعلْ له شيئاً يكون له في قومه . فقال : نعم ، مَنْ دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن ، ومَنْ دخلَ المسجدَ فهو آمن ، ومَنْ أغلقَ عليه بابه فهو آمن .

فخرجتُ فحبستُهُ عند خَظَمِ الجبلِ بمضيقِ الوادي ، فمرّت القبائلُ على راياتها ، وكلّما مرت قبيلة ، قال : يا عباس ؛ مَنْ هذه ؟ فأقول : سُلَيْم ، فيقول : مَالِي وَلِسُلَيْم ! ثم تمرُّ القبيلةُ فيقول : يا عباس ؛ مَنْ هؤلاء ؟ فأقول : مُزَيْنَةُ ، فيقول : مَالِي وَلِمُزَيْنَةَ ! حتى نفدت القبائلُ ، ما تمرُّ قبيلةٌ إلا يسألني عنها ، حتى مرَّ رسولُ الله في كتيبته الخَضِرَاءُ^(٢) ، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحَدَقُ^(٣) من كثرة الحديد ، فقال : سبّحان الله يا عباس ! مَنْ هؤلاء ؟ قلت : هذا رسولُ الله في المهاجرين والأنصار ، قال : مَالِ أَحَدٍ بِهِؤلاءِ قَبْلُ ولا طاقةٌ ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابنِ أخيكَ عظيماً ، قلت : يا أبا سفيان ؛ إنها النبوة ، قال : فنعم إذن ، قلت : الحقُّ بقومك الآن فخذْهم .

(١) خَظَمِ الجبل : مقدمه . (٢) إنما قيل لها خضراء لسكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٣) جمع حدقة ، وهي سواد العين .

نخرج أبو سفيان سريماً حتى أتى مكة ، فصرخ في المسجد : يامعشر فريش ؛ هذا محمد قد جاءكم بما لا قبيل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه هند بنت عتبة فقالت : اقتلوا هذا الحيت الدسم الأحمش^(١) . فبش من طليعة قوم ! قال : ويلكم ! لا تفرنكم هذه من أنفسكم ؛ فإن محمداً قد جاءكم بما لا قبيل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قلوا : قاتلك الله ! وما تمنى عنا دارك ! قال : ومن أغتاق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . ففترق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

ولما انتهى رسول الله إلى ذي طوى^(٢) وقف على راحلته ممتهجراً بشقة برود حبرة حمراء^(٣) ، وإنه ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه^(٤) ليكاد يمس واسطة الرخل .

وبينا رسول الله يذى طوى ، وقف أبو قحافة وقال لابنة له : أى بُنية ، اظهري بي على أبي قبيس^(٥) . فأشرفت به عليه - وقد كفت بصره - فقال : أى بُنية ؛ ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعا ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلاً يسمى بين يدي ذلك السواد مقبلاً ومذبراً . قال : أى بنية ؟ ذلك الوازع^(٦) . ثم قالت : قد والله انتشر السواد ، فقال : إذن دفعت الخيل ، فأسرعى بي إلى بيتي ، فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته ، وكان في عنق الجارية طوق

(١) أصل الحيت : زق السم ، وهى تسمى أبا سفيان استعظاما لقوله . الدسم : الدنى من الرجال ، ورجل حش الخلق : دقيق الحلقة ، قالته في معرض الدم . (٢) ذو طوى : مثل الطاء : موضع قرب مكة . (٣) معتجراً : معتماً ، والشقة : النصف ، والحبرة : ضرب من ثياب اليمن . (٤) عثنون : لحية . (٥) أبو قبيس : جبل بمكة . (٦) الوازع في الحرب : الموكل بالصوف يتقدم الصف فيصلحه ، ويتقدم ويؤخر .

من وَرَقٍ^(١) ، فتلَقَّاهَا رجل فقطعه من عنقها^(٢) .

وكان رسول الله قد فرَّق جيشه من ذى طُوًى ، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدَى^(٣) ، وأمر سعد بن عبادة^(٤) أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء^(٥) ، وأمر خالد بن الوليد فدخل من اللَّيْطِ^(٦) أسفل مكة في بعض الناس ، وأبو عُبَيْدة بن الجراح بالصف من المسلمين يتصبَّب^(٧) لمكة بين يدي رسول الله . ودخل النبي من أواخر^(٨) حتى نزل بمكة ، وضربت له هناك قُبَّةٌ .

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسا بالحنْدَمَةِ^(٩) ليقاتلوا ، وكان حماس بن قيس يُعِدُّ سِلَاحًا قَبْلَ دخول رسول الله ويُصلِحُ منه ، فقالت له امرأته : لماذا تُعِدُّ ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أرى أنه يقوم لحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم .

ثم شهيد الحَنْدَمَةِ مع صفوان وسهيل وعكرمة . فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد ناوَشُوهم شيئاً من قتال فانهزموا . وخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلق على بابي ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

(١) ورق : فضة . (٢) ولا وصل رسول الله إلى مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه بقوده فلما رآه رسول الله قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يعشى إليك من أن تمشى إليه أنت ، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره وقال : أسلم ، فأسلم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختي ، فلم يجبه أحد فقال : أى أختية ، احتسمى طوقك ، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل .

(٣) كدى : جبل أسفل مكة على طريق اليمن . (٤) زعم بعض أهل العلم أن سعداً — حين وجه داخلا — قال : اليوم يوم للمحمة ، اليوم تستحل الحرمه . فسمعها رجل من المهاجرين فقال : يا رسول الله ، اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن تكون له في قريش صولة ، فقال : رسول الله اعلى بن أبي طالب ؛ أدركه لخذ الراية منه ، فكان أنت الذى يدخل بها . (٥) كداء : جبل بأعلى مكة . (٦) الليط : موضع أسفل مكة . (٧) يتصبب : ينحدر . (٨) أواخر : موضع قرب مكة

(٩) الحندمة : جبل .

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكرِمَةُ
وَأَبُو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالْمَوْتِمَةِ وَاسْتَقْبَلْتَهُمُ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ (١)
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُجُمَةٍ ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةٌ
لَهُمْ نَهْيٌ (٢) خَلْفَنَا وَهَمْهَمَةٌ لَمْ تَنْطِقِي فِي الْيَوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ

وكان رسول الله قد عهد إلى أمرائه من المسلمين - حين أمرهم أن يدخلوا مكة -
أَلَّا يَقْتُلُوا أَحَدًا غَيْرَ مَنْ قَاتَلَهُمْ إِلَّا نَفَرًا تَتَمَّاهُمْ ، أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت
تحت أستار الكعبة (٣) .

ولما نزل رسول الله مكة ، واطمأنَّ الناسُ خرج حتى جاء البيت فطاف به سَبْعًا
على رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِخْجَنٍ فِي يَدِهِ (٤) . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ،
فأخذ منه مفتاحَ الكعبة ، ففُتِحَتْ لَهُ فدخلها : ثم وقف على باب الكعبة ، وقد
استكف (٥) له الناسُ في المسجد ، فقام رسول الله على باب الكعبة فقال :

« لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ
وَخَدَهُ ، أَلَا كُلُّ مَأْثُورَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانَةَ
الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ . أَلَا وَقَتِيلُ الْخَطَا شَبِيرٌ لِّلْعَمْدِ بِالسَّوْطِ وَالْمِصَا فِيهِ الدَّيَّةُ مَغْلُظَةٌ
مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بَطُونِهَا أَوْلَادُهَا . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ
أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَمَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ .
ثُمَّ تَلَا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ثم قال : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرًا ، أَخُ كَرِيمٍ
وَابْنُ أَخِي كَرِيمٍ ، قَالَ : أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ .

(١) المؤتمه : التي قتل زوجها . المسلمون . (٢) النهيت : الزئير . (٣) منهم
عبد الله بن سعد أخو عامر بن لؤي ، وعبد الله بن خطل ، والحويرث بن نفيذه . (٤) المحجن :
عود عود الطرف يسكه الراكب للبعير في يده . (٥) استكف له : اجتمعوا له .

ثم جلس رسول الله في المسجد ، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ؛ اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، فقال النبي : أين عثمان ابن طلحة ؟ فدعى له فقال : هالك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم برٍّ ووفاء . ثم قال لعلي : إنما أعطيك ما ترزءون لا ما ترزءون^(١) .

ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، ولما فرغ النبي من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من قريش ، فيهن هند بنت عتبة متغلبة متنكرة لخدمتها وما كان من صميمها بحمزة ، فلما دنون منه ليبايعنه ، قال رسول الله : تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً ؟ فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال ، وسؤتيك ، قال : ولا تسرقن ، قالت : والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة^(٢) ، وما أدري أكان ذلك حلالاً لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان . وكان شاهداً لما تقول : أمّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل ، فقال رسول الله : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت : أنا هند بنت عتبة ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزنين ، قالت : وهل زنى الحرة ! قال : ولا تقتلن أولادكن ، قالت : قد ريئناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدرٍ كباراً ، فأنت وهم أعلم ، فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب^(٣) . قال : ولا تأتين بهتان^(٤) تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، قالت : إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل . قال : ولا تمصينني في معروف ، قالت : ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نمصيك في معروف . فقال رسول الله لعمر : بايعهن ، واستغفر لهن ، فبايعهن عمر .

(١) رزأه : أصاب منه خيراً . (٢) الهنة : الشيء القليل .

(٣) استغرب في ضحكه : بالغ فيه . (٤) أي لا يأتي ببولد من غير أزواجهن فينسبهن إلى

الزوج فإن ذلك بهتان وبراءة . ويقال : كانت المرأة تلتقطه فكثبناه .

١٣ - يوم حُنين*

سمعت هوازن^(١) بخروج رسول الله من المدينة ، وظنوا أنه يريدُهم ، فاجتمعوا له ، فلما أتاهاهم أنه قد انتجّه إلى مكة ، وأنه قد فتّح الله عليه بها ، خافوا أن يسير إليهم ويغزّوهم ، ومشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض ، وقالوا : إن محمداً قد فرغ لنا ، ولا مانع له دوننا ؛ فالرأى أن نغزوّه قبل أن يغزوَنَا ، وأجمعوا أمرهم على ذلك^(٢) .

وكان جماعُ الناس حينئذٍ إلى مالك بن عوف النَّصْرِيّ ، فلما أجمع مالكُ السيرَ لقتال المسلمين حطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

ونزل بأوطاس^(٣) فاجتمع إليه الناس ، وفيهم دُرَيْدُ بن الصَّمَّة^(٤) - وكان شيخاً كبيراً ليس فيه شيء إلا التَّيَمُّنُ برأيه ومعرفة بالحرب - في شِجَارٍ^(٥) له يُقَادُّ به كَبِيرُهُ ، فقال دُرَيْدُ : بأيّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجالُ الخيل ! لا حَزَنُ ضَرَسٍ ، ولا لَيْنُ دَهْسٍ^(٦) . مالى أسمعُ رُغَاءَ البعير ونهاقَ الحَيرِ ويُمَارَ^(٧) الشَّاءِ ، وبسكاء الصَّغِيرِ ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم وأبناءهم

* سيرة ابن هشام : ٤ - ٦٥ ، السيرة الحلبية : ٣ - ١٢١ ، سيرة دحلان : ٢ - ٣١٣ ، الطبري ٣ - ١٢٥ . وكان هذا اليوم في اليوم في السنة الثامنة من الهجرة . وحنين : واد إلى جنب ذى الحجاز ، ويسمى غزوة أوطاس ، وهوازن .

(١) كان قد خرج لفتح مكة . (٢) لم يتخلف من هوازن إلا كعب وكلاب . (٣) أوطاس : واد في ديار هوازن ، وفيه عسكروا هم وثقيف . (٤) كان رئيس بني جشم وسيدهم وأوسطهم ، ولكن السن أدركته حتى ضعف ضعفاً شديداً . (٥) الشجار : الهودج الصغير الذي يكنى واحداً نجسب . (٦) الضرس : ما خشن من الآكام ، والدهس : السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملاً وليس هو بتراب ولا طين . (٧) يمار : صوت .

ونساءهم . فقال : وأين مالك ؟ فدعى له ، فقال : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يومٌ له ما بعده من الأيام ؛ مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ويغار الشاء وبكاء الصغير ! قال : سقتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردتُ أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم . فألقضَ به^(١) ، ثم قال : راعى ضأنٌ والله ! هل يردُّ النهزمَ شيء ! إنها إن كانت لك لم ينفكْ إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحتُ في أهلك ومالك . ما فعلت كعب وكلاب^(٢) ؟ قال : لم يشهد منهم أحدٌ ، قال : غاب الحد والجدة^(٣) ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب كعب ولا كلاب ، ولوددتُ أنكم فعلتم ما فعلوا ، فمن شهدَها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال : ذاك الجدعان^(٤) من بني عامر لا ينفعان ولا يضران . يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم البيضة^(٥) — بيضة هوازن — إلى نحور الخيل شيئاً ؛ ارفعهم إلى متمنع بلادهم وعُليا قومهم ، ثم الق الصُّبَاءَ^(٦) على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك ألقاك ذلك وقد أحرزتْ أهلك ومالك ، قال : والله لأفعل ؛ إنك قد كبرت وكبر علمك لتطيمُني يامعشر هوازن أو لاتكنَّي على هذا السيف حتى يخرج من ظهري . قال دُرَيْد : هذا يومٌ لم أشهده ، ولم يفتني :

ياليثني فيها جَدْعٌ^(٧) أخبُ فيها وأضع^(٨)
أقودُ وطفاء الرَّمْعِ^(٩) كأنها شاة^(١٠) صدع^(١١)

(١) ألقض به : نقر باسائه في فيه كما يزرع الخمار ؛ فعل ذلك استجهالاً له . (٢) كعب وكلاب : قبيلتان في هوازن . (٣) الحد : البأس ، والجد : الحف .
(٤) الجدعان : منى جدع ، بالفتح وهو صغير السن . (٥) البيضة : أصل القوم ومجتمعهم .
(٦) جمع صابئ ، وكانوا يسمون المسلمين صباء ، لأنهم خرجوا من دين قريش إلى الإسلام .
(٧) الجدع يريد : شاباً . (٨) الحبب والإيضاع : ضربان من السير . (٩) الرمعه : هنة زائدة وراء الظلف ، وجمعه زمع . — والوضف : أصاه كثرة شعر الحاجبين والعينين ، يريد فرساً هذه صفتها . (١٠) الشاة : يريد الوعل . (١١) الصدع : الفئ الشاب القوى .

وبعث مالكُ بنُ عوفٍ عُيُونًا من رجاله لينظروا له ، ويأتوه بخبرِ الناسِ .
فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالُهم ، فقال : وَيْلَكُمْ ! ماشاً نُكَمْ ؟ قالوا : رأينا رجالاً
بيضاً على خَيْلٍ بُلق ، فوالله ما تماسكتنا أن أصابنا ماري ، فلم يَنْهَهُ ذلك عن
وَجْهِهِ ، ومضى على ما يريد !

ولما سمع بهم رسولُ الله بعث إليهم عَبْدَ الله بنُ أَبِي حَذَرَدٍ ، وأمره أن يدخلَ
في الناس ، فيقيمَ فيهم حتى يَأْتِيَهُ بخبرٍ منهم ، ويعلمَ عِلْمَهُمْ ؛ فانطلق فدخلَ فيهم ،
فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له مِنْ حَرْبِ الرسول ، وعلمَ أمرَ مالكٍ وهوازن
وما هم عليه .

ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأخبرَهُ خبرَهُمْ ، فقال : انتهيتُ إلى خِيَاءِ
مالك بن عوف ، وعنده رؤساء هَوَازِن ، فسمعتُهُ يقول : إن محمداً لم يُقاتلْ قوماً
قطّ قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى قوماً أَغْمَاراً^(١) لا عِلْمَ لهم بالحرب فيظهر عليهم ،
فإذا كان السَّحَرُ فعضُّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم مِنْ ورائكم ، ثم تكونُ الحملةُ
منكم ، واكسروا أَغْمَادَ سيوفكم فتلقوْهُ بمشرين ألف سيف ، واحملوا حَمَلَةَ
رجل واحدٍ ، واعلموا أن الغلبةَ لمن حَمَلَ أولاً .

فدعا رسولُ الله عُمَرَ بنَ الخطاب ، فأخبرَهُ خبرَ ابنِ أَبِي حَذَرَدٍ ، فقال عمر :
كذب ، فقال ابنُ أَبِي حَذَرَدٍ : إن تكذَّبْنِي فطالما كَذَّبْتُ بالحقِّ يا عمر ، فقال عمر :
أَلَا تسمع يا رسولَ الله إلى ما يقول ! فقال : قد كُفِتَ ضَالًّا فهداك الله يا عُمَرُ .

ولما أجمع النبيُّ السَّيْرَ إلى هَوَازِن لِيَلْقَاهُمْ ذُكِرَ لَهُ أنَّ عند صفوان بن أُمَيَّة
أدراعاً وسلاحاً - وهو يومئذ مُشْرِكٌ - فأرسل إليه ، فقال : يا أبا أُمَيَّة ، أَعِرْنا سلاحَكَ

(١) الأغمار : جمع غمر ، بضم أوله ، وهو الجاهل النر الذي لم يجرب الأمور ، ويطلق على
كل من لا غناء عنده ولا رأى .

هذا نَلَقَى فيه عدوَّنَا غداً . فقال صفوان : اُعْصَبَا يا محمد ! قال : بل عاريةٌ مضمونةٌ حتى نؤدِّيَها إليك . قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

ثم خرج النبيُّ ومعه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة ، فكانوا اثني عشر ألفاً ، واستعمل رسولُ الله عتاب بن أسيد^(١) على مكة أميراً على الناس ، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازن .

ولما استقبل المسلمون واديَّ حُنينٍ انحدرُوا في وادٍ من أودية تهامة ، وكان القومُ قد سبقوهم إلى هذا الوادي ، فكَمَنُوا لهم في شِعَابِهِ وَأَخْنَأَتْهُ وَمُضَايِقِهِ^(٢) ، وقد أجمعوا وتَهَيَّئُوا وأعدُّوا ، فما راعَهُمْ إِلَّا الكَتَائِبُ^(٣) قد شَدَّتْ عليهم شدة رجل واحد ، واستقبلوهم بالنبل كأنهم جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ .

وانهزمَ الناسُ أجمعون ، فَأَنْشَمَرُوا^(٤) لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وانحاز^(٥) الرسولُ ذات اليمين ، ثم قال : أين أيُّهَا النَّاسُ ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ ، أنا رسولُ الله ، أنا محمد ابنُ عبد الله ! وانطلق الناس ، إِلَّا أنه قد بَقِيَ مع رسول الله نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

ولما انهزمَ الناس ، ورأى مَنْ كان مع رسولِ الله من جُفَاةِ مَكَّةِ الهزيمة تكلمَ رجالٌ بما في أنفسهم ، فقال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال كَلْدَةُ ابن الحنبل : أَلَا بَطَلُ السِّحْرِ اليوم ! وقال شيبة بن عثمان^(٦) : اليوم أدركُ ثأري .

(١) عتاب بن أسيد : استعمله النبي على مكة عام الفتح ، ثم أقره أبو بكر فاستمر فيها إلى أن مات يوم مات أبو بكر . (٢) الشعاب : جمع شعب ، وهو الطريق في الجبل . (٣) الكتيبة : جماعة الخيل إذا أغارت ، من المائة إلى الألف . (٤) انشمر الرجل ، إذا مرجداً ومضى . (٥) انحاز : عدل . (٦) كان أبوه قتل يوم أحد .

سأقتل محمداً . ورأى رسول الله الناس لا يُلَوْنُ على شيء ؛ فقال : يا عباسُ ؛
اصرخ : يا معشرَ الأنصار ، يا أصحابَ السَّمُرَةِ^(١) ! فنادى العباسُ : يا معشرَ الأنصار !
يا معشرَ أصحابِ السَّمُرَةِ ! فأجابوا : لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ !

وكان الرجلُ منهم يذهب لِيُثْنِيَ بِمِيره فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ دِرْعَه فيقذفها
في عنقه ، ويأخذ سيفه وترُسَه ، ثم يترك بِميره ويَحُلِّي سبيله في الناس ، ثم يَوْمُ
الصوت حتى ينتهيَ إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه مائةُ رجلٍ منهم استقبلوا
الناس فاقبلوا ، وأشرفَ رسولُ الله فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم^(٢) ، فقال : الآنَ سَمِيَ
الوطيس^(٣) .

ورأى الناسُ رجلاً من هوازن على جَمَلٍ أحمر ، بيده رايةٌ سوداء ، في رأس
رُمح طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمح ، وإذا فاتته الناسُ رفع رُمحه لَمَن
وراءه فاتبعوه ، فهو^(٤) له عليُّ بن أبي طالب ورجلٌ من الأنصار يُريدَانِهِ ، فأتاه
عليٌّ من خلفه ، فضرب عُرْقوبَ الجمل فوقه على عَجْزِهِ ، ووثب الأنصارى عليه فضربه
ضربةً أطن^(٥) قدمه بِنِصْفِ ساقه ، فأنجفع^(٦) عن رَحْله .

واجتلد الناسُ ، فارجعت راجعةُ الناسُ مِنْ هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى
عند رسول الله .

والتفت رسولُ الله إلى جانبه فرأى أبا سفيان بن الحارث ، وهو آخذٌ بِثَقَرِ^(٧)
بَنَلَتِهِ ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : أنا ابنُ أُمِّكَ يا رسولَ الله !

(١) السمرة : الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٢) مجتلد القوم : موضع الجلاد ، وهو الضرب بالسيف في القتال . (٣) الوطيس : شيء
يتخذ مثل التنوير يختبئ فيه ، وهذا كناية عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق . وقيل الوطيس :
حجارة مدورة فإذا سميت لم يمكن أحداً الوطء عليها ، وهذا يضرب مثلاً للأمر إذا اشتد .

(٤) هوى له : أسرع . (٥) الإطنان : سرعة القطع . (٦) أنجفع : انقلب .

(٧) الثفر : السير الذي في مؤخر السرج .

والتفت فرأى أمّ سليم مع زوجها ، وهى حازمةٌ وسطها برؤٍ لها ، ومعها جملُ زوجها ، وقد خشيت أن يمزّها (١) الجمل ، فأدنت رأسه منها ، وأدخلت يدها في خِزَامَتِهِ (٢) مع الخِطَام ، فقال لها الرسول : أم سليم ، قالت : نعم ! بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ؛ كما تقتل الذين يقاتلونك ؛ فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله : أو يكفى الله يا أمّ سليم ! وقال لها أبو طلحة زوجها : ما هذا الخنجر الذى معك يا أمّ سليم ؟ قالت : خنجر أخذته ، إن دنأ منى أحد من المشركين بمجته به (٣) ، قال : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أمّ سليم الرميضاء (٤) !

وانهزمت هوازين ، فاستحرج (٥) القتل من ثقيف في بنى مالك ، فقتل منهم كثير ؛ وكانت رأيتهم مع ذى الخمار (٦) ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ؛ ولما بلغ رسول الله قتله قال : أبعد الله فإنه كان يُبغض قريشاً . وكانت رايةُ الأحلاف (٧) مع قارب بن الأسود (٨) ، فلما هزم الناس أسند رأيته إلى شجرة ، وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف ، فلم يقتل منهم إلا رجلاً .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم

(١) يعزها : يغلها . (٢) الحزامة : حلقة من شعر تجعل في ورة أنف البعير يشد فيها الزمام . (٣) بمجته به : شققت به بطنه . (٤) الرميضاء ، من الرمس ، وهو قذى تلتفظه العين . (٥) استحرج : اشتد . (٦) قال عباس بن مرداس فيه :

ولم يك ذو الخمار رئيس قوم لهم عقل يُعَاتِبُ أو نكيرُ

(٧) الأحلاف : قوم من ثقيف ، وكانت ثقيف فرقتين : بنو مالك والأحلاف .

(٨) يقول فيه عباس بن مرداس :

أطاعوا قارباً ولهم جدودٌ وأحلامٌ إلى عزّ تصيرُ

بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وتبعته خيل رسول الله من سلك في نخلة ، فأدرك ربيعة بن ربيعة بن ربيعة بن الصمة فأخذ جملة ، وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه في شجار له فإذا برجل ، فأناخ به ، فإذا شيخ كبير ، وإذا هو دريد بن الصمة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريد بي ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن ربيعة ، ثم ضربه بسيفه فلم يغن فيه شيئاً ، فقال : بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفي هذا من مؤخر الرخل - وكان في الشجار - ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ؛ فإن كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ؛ فرب يوم قد منعت فيه نساءك ، فضربه فوق ، فتكشفت^(١) ؛ فإذا عجانه^(٢) وبطون فخذه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء^(٣) . ثم مات .

وبعث رسول الله في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بمض من انهزم ، فتناوش^(٤) القوم في القتال ، فرمى سلمة بن دريد أبا عامر الأشعري بسهم فأصاب ركبته فقتله ، فقال :

إِنْ تَسْأَلُوا عَنِّي فَإِنِّي سَلَمَةٌ ابْنُ سَمَادِيرَ لِمَنْ تَوَسَّمَهُ^(٥)
* أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُءُوسَ الْمُسْلِمَةِ *

وولى الناس أبا موسى الأشعري ، فقاتلهم حتى فتح الله على يديه وهزمهم .
وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة ، فوقف في فوارس من قومه على ثنية^(٦) من الطريق ، وقال لأصحابه : ففوا حتى تمضي ضعفاؤكم ويلحق أخراكم ، فوقف

(١) تكشف ، الكشف : رفعك الشيء عما يواريه وينطيه .

(٢) المجان : الاست . (٣) أى من غير سروج ، ويقال إن ربيعة لما رجع إلى أمه أخبرها بقتله دريداً . فقالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

(٤) تناوش القوم في القتال ، إذا تناول بعضهم بعضاً بالرماح ولم يتدناواكل التناش .

(٥) سمادير : أمه . (٦) الثنية : الطريقة في الجبل كالنقب .

هناك حتى مضى مَنْ كان لحق بهم من مُنْهَزِمَةِ الناس . فقال لأصحابه : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا : نَرَى قَوْمًا واضِعِي رِمَاحَهُمْ بَيْنَ آذُنِ خَيْلِهِمْ ، طَوِيلَةً بَوَادِئِهِمْ ^(١) ، فقال : هَؤُلَاءِ بَنُو سُلَيْمٍ ؛ وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ . فلما أَقْبَلُوا سَلَكُوا بَطْنَ الْوَادِي . ثم طَلَعَتْ خَيْلُ أُخْرَى تَتَّبِعُهَا ، فقال لأصحابه : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا نَرَى قَوْمًا عَارِضِي رِمَاحَهُمْ أَغْفَالًا ^(٢) عَلَى خَيْلِهِمْ ، فقال : هَؤُلَاءِ الْأَوْسُ وَالخَزَرَجُ ، وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ . فلما انْتَهَوْا إِلَى أَصْلِ الثَّنِيَّةِ سَلَكُوا طَرِيقَ بَنِي سُلَيْمٍ . ثم طَلَعَ فَارِسٌ فَقَالَ لأَصْحَابِهِ : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا : نَرَى فَارِسًا طَوِيلَ الْبَادِ ، وَاضِعًا رُمْحَهُ عَلَى عَاتِقِهِ ، عَاصِبًا رَأْسَهُ بِمَلَاءَةِ حُمْرَاءَ . فقال : هَذَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ ، وَأَحْلَفَ بِاللَّاتِ لِيَخَالُطَنَّكُمْ ^(٣) ! فَانْبَثُّوا لَهُ . فلما انْتَهَى الزُّبَيْرُ إِلَى أَصْلِ الثَّنِيَّةِ أَبْصَرَ الْقَوْمَ فَصَمَّدَ لَهُمْ ، فَلَمْ يَزَلْ يُطَاكِعُهُمْ حَتَّى أَزَاحَهُمْ عَنْهَا .

ثم مُجِئَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ سَبَايَا حُنَيْنٍ وَأَمْوَالُهَا ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالسَّبَايَا وَالْأَمْوَالِ إِلَى الْجُمُرَانَةِ ^(٤) ، فَخُيِّسَتْ بِهَا ^(٥) .

وَقَدِمَ قُلُوبُ تَقِيفِ الطَّائِفِ ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَدِينَتِهَا ، وَصَنَعُوا الصَّنَائِعَ لِلْقِتَالِ ؛ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى نَزَلَ قَرِيبًا مِنَ الطَّائِفِ ، فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ ، وَقُتِلَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالنَّبْلِ ، وَلَمْ يَقْدِرِ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَدْخُلُوا حَائِطَهُمُ الَّذِي أَغْلَقُوهُ دُونَهُمْ . فلما أُصِيبَ أُولَئِكَ النَّفَرُ بِالنَّبْلِ ، وَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَسْكَرَهُ عِنْدَ مَسْجِدِهِ الَّذِي بِالطَّائِفِ ، وَحَاصَرَهُمْ بِضِعْمًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً . ثم رَمَاهُمْ بِالْمُنْجَنِيْقِ ^(٦) ،

(١) بَوَادِئُ جَمْعُ بَادٍ ، وَهُوَ أَصْلُ الْفَخْدِ . (٢) أَغْفَالٌ : جَمْعُ غَفْلٍ ، وَهُوَ مَا لَا عِلَامَةَ لَهُ .
(٣) يَخَالُطَنَّكُمْ ، خَالَطَهُ : مَازَجَهُ . (٤) الْجُمُرَانَةُ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ يَكْسِرُونَ عَيْنَهُ ، وَيَشْدُدُونَ رَأْسَهُ . (٥) مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ بِامْرَأَةٍ وَقَدْ قَتَلَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَالنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : امْرَأَةٌ قَتَلَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ . فَقَالَ لِبَعْضٍ مِنْ مَعَهُ : أَدْرَكَ خَالِدًا ، فَقُلْ لَهُ : إِنَّ مُحَمَّدًا يَنْهَاكَ أَنْ تَقْتُلَ وَلِيدًا أَوْ امْرَأَةً أَوْ عَسِيفًا .
(٦) الْمُنْجَنِيْقُ : آلُهُ تَرْمِي بِهَا الْحِجَارَةَ فِي الْحَرْبِ .

ودخل تقرأ من أصحاب رسول الله تحت دَبَابَةٍ^(١) ، ثم زَحَفُوا بها إلى جدار الطائف ليخْرِقُوهُ ؛ فأرسلت عليهم ثقيف سِكَك الحديد مَحْمَاةً بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمىهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا رجالا منهم ؛ فأمر النبي بقطع أعقاب ثقيف ، فوقع الناس فيها يَقطَعُونَ .

وتقدم أبو سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة إلى الطائف ؛ فناديا ثقيفاً : أَنْ أَمْنُونَا حتى نكلمكم ، فأمَنُوها . فدَعَا نساء من قريش وبني كِنانة ليخرجن إليهما ، وهما يخافان عليهنَّ السَّيَاءَ^(٢) فَأَبَيْنَ ، فقال لهما ابنُ الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ، يا مغيرة ؛ ألا أدلكما على خير مما جئتما له ؛ إن مال بني الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ؛ إنه ليس بالطائف مالٌ أبعدُ رِشَاءً^(٣) ولا أشدُّ مؤونةً ، ولا أبعدُ عمارة من مال بني الأسود ، وإن محمداً إن قطعه لم يعمُر أبداً . فكلَّما فليأخذه أو ليدعه لله والرحيم ؛ فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل . فكلَّما الرسول فيه ، فتركه لهم .

ثم إن خُوَيْلَةَ^(٤) ابنة حكيم قالت : يا رسول الله ؛ أعطني — إن فتح الله عليك الطائف — حُلِيَّ بَادِيَةِ ابنة غَيْلان ، أو حُلِيَّ الفارعة بنت عقيل — وكنتا من أَحْلَى^(٥) نساء ثقيف — فقال لها الرسول : وإن كان لم يُؤْذَنْ لي في ثقيف يا خُوَيْلَةَ ، فخرجت خُوَيْلَةَ فذكرت ذلك لمُمر بن الخطاب ، فدَخَلَ على رسول الله ، فقال : ما حديثُ حَدَّثْتَنِيهِ خُوَيْلَةَ زَعَمَتْ أَنَّكَ قُلْتَهُ ؟ قال : قد قُلْتُهُ ، قال : أو ما أُذِنَ لك فيهم يا رسول الله ! قال : لا ، قال : أفلا أُؤْذَنُ بالرحيل ؟ قال : بلى . فأذن عمر بالرحيل .

(١) الدبابة : آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها .
(٢) السياء : الأسر . (٣) الرشاء : الحبل . (٤) خويلة : امرأة عثمان بن مظعون .
(٥) أحلى أى أكثرهن حلياً .

وانصرف الناس عن الطائف بعد القتال والحِصَار ، وسار الرسولُ بمن معه من المسلمين حتى نزل الجِمرانة ، وكان سَبِيُّ هَوازِن قد قدم إليها .

وأتى رسولَ الله وفدُ هَوازِن وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسولَ الله ؛ إنا أصلُ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك ؛ فامْنُنْ علينا مِنْ الله عليك . وقام رجلٌ من هَوازِن - أحد بني سَعْد^(١) ؛ فقال : يا رسولَ الله ؛ إنا في الحظائر عَمَاتُكَ وخالاتُكَ وخَوَاضِيقُكَ^(٢) اللّائِي كُنَّ يَكْفُلُنكَ ، ولو أننا مَلَحْنَا^(٣) للحارث ابن أبي شَمِرٍ أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل مَتًا بمثل ما نزلت به رَجَوْنَا عطفَه وعائدتَه^(٤) ، وأنت خيرُ الكفولين ، ثم قال :

امْنُنْ علينا رسولَ الله في كَرَمِ فَإِنَّكَ المرءَ نَرُجُوهُ وننتظرُ
امْنُنْ على بَيْضَةِ^(٥) قد عاقَمَ قَدَرُ مُمَزَّقِ شَمْلُهَا ، في دَهرِها غَيْرُ^(٦)

فقال رسولُ الله : أبناؤُكم ونساؤُكم أحبُّ إليكم أم أموالُكم ؟ فقالوا : يا رسولَ الله ، خَيْرُتَنَّا بين أحسابِنَا وأموالِنَا ؛ بل تردُّ علينا نساءنا وأبنائنا ؛ فهم أحبُّ إلينا ، فقال : أمّا ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ؛ فإذا أنا صَلَّيْتُ الظَّهْرَ بالناس فقولوا : إنا نستشفعُ برسولِ الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسولِ الله ، في أبنائنا ونسائنا ؛ فسأعطيكُم عند ذلك وأسألُ لكم .

فلما صَلَّى رسولُ الله بالناس الظَّهْرَ قَامُوا فَتَكَلَّمُوا بالذي أَمَرَهُمْ به ، فقال رسولُ الله : أمّا ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسولِ الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسولِ الله ، وقال الأقرع بن

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم مسترضعاً في بني سعد . (٢) حواضن : جمع حاضنة ، وهي المربية . (٣) ملحنا ، أي أرضعناها . (٤) عائدتَه ، أي فضله . (٥) البيضة هنا : الأصل والعشيرة . (٦) غير الدهر : أحداثه .

حابس : أمّا أنا وبنو تميم فلا ، وقال عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ : أمّا أنا وبنو فزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس : أمّا أنا وبنو سُليمان فلا ؛ فقالت بنو سُليمان : ما كان لنا فهو لرسول الله ، فقال العباسُ لقومه : وهَنَّتُمُونِي^(١) ! فقال الرسول : أمّا مَنْ تَمَسَّكَ مِنْهُمْ بِحَقِّهِ مِنْ هَذَا السَّبْيِ فَلَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتُّ فَرَانِضٍ^(٢) مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ نُصِيبُهُ ؛ فَرَدُّوا إِلَى النَّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ .

ثم قال الرسول لو قد هوازن : ما فعل مالك بن عوف ؟ قالوا : هو بالطائف مع ثَقِيفٍ ، فقال : أخبروا ما سكا أنه إن أتى مسلماً رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ .

ولما عرف مالك ذلك خرج من الطائف مستخفياً ، فأمر براحلته فَهَيَّئَتْ لَهُ ؛ وأمر بفرس فَأَعَدَّ لَهُ ، وخرج ليلاً على فرسه يركضه حتى أتى راحلته — حيث أمر بها أن تُحْبَسَ لَهُ — فركبها ، ولحق برسول الله ، فأدركه بِالْجَمْرَانَةِ ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ ، وَأَعْطَاهُ مِائَةَ مِنَ الْإِبِلِ ؛ وَأَسْلَمَ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ ، وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى قَوْمِهِ وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ تِلْكَ الْقَبَائِلِ حَوْلَ الطَّائِفِ .

ولما فرغ رسول الله من ردِّ سبايا حُنَيْنٍ إِلَى أَهْلِهَا رَكِبَ وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ يَقُولُونَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ اقْسِمْ عَلَيْنَا فَيُنَّا^(٣) مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ ، حَتَّى الْجُثُوهَ إِلَى شَجَرَةٍ ، فَاخْتَطَفَتِ الشَّجَرَةُ عَنْهُ رِداءَهُ ، فَقَالَ : رَدُّوا عَلَى رَدَائِي أَيُّهَا النَّاسُ ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ بَعْدُ شَجَرَتُهُامَةَ نَعْمًا^(٤) لَقَسَمْتُهٗ عَلَيْكُمْ ، ثُمَّ مَا أَلْفَيْتُمُونِي بِخَيْلٍ وَلَا جَبَانٍ وَلَا كَذُوبٍ . ثُمَّ قَامَ إِلَى جَنْبِ بَدِيرٍ ، فَأَخَذَ وَبَرَةً مِنْ سَنَامِهِ فَجَعَلَهَا بَيْنَ إصْبَعَيْهِ ، ثُمَّ رَفَعَهَا وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إِنَّهُ وَاللَّهِ لَيْسَ لِي مِنْ فَيْئِكُمْ وَلَا هَذِهِ الْوَبَرَةُ إِلَّا الْخُمْسُ^(٥) ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ ؛

(١) وهَنَّتُمُونِي : أضعفتوني بمخالفتكم رأيي . (٢) جمع فريضة ، وهي البعير المؤخوذ في الزكاة .

(٣) النِّزْمُ : الفريضة . (٤) النعم : الإبل والشاء ، أو خاص بالإبل . (٥) كان الأمير في

الجاهلية يأخذ الربع من الفريضة ، وجاء الإسلام فجعله الخمس ، وجعل له مصارف .

فَأَدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ^(١) ، فَإِنَّ الْغُلُولَ^(٢) يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَنَارًا وَشَنَارًا^(٣) يوم القيامة .

فجاءه رجل من الأنصار بكُتَّبة^(٤) من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ؛ أخذتُ هذه الكُتَّبةُ أعمل بها بَرْدَةً بِعِيرٍ^(٥) لى دَبِيرٍ^(٥) ، قال : أَمَا نَصِيْبِي مِنْهَا فَلَكَ ، فقال : إنه إذا بلغتْ هذه فلا حاجةَ لى بها . ثم طرحها من يده .

ووزَّعَ الرسولُ الغنائمَ ، وأعطى ما أعطى فى قريش وقبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شيء ؛ فوجدَ^(٦) هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، وكثُرَتْ منهم القالةُ ؛ حتى قائلهم : لَقِيَ رسولُ الله قَوْمَهُ ! فدخل عليه سعدُ بنُ عُبَادَةَ فقال : يا رسول الله ، إِنَّ هَذَا الْحَى مِنْ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فى أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فى هَذَا الْيَوْمِ الذى أَصَبْتَ ؛ فَقَدْ قَسَمْتَهُ فى قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فى قبائل العرب ، ولم يكُ فى هَذَا الْحَى مِنْ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، قال : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قال : يا رسول الله ؛ مَا أَنَا إِلَّا مِنْ قَوْمِي . قال : فَاجْمَعْ لى قَوْمَكَ فى هَذِهِ الْحَظِيرَةِ . فخرج سعدُ ، فجمع الأنصارَ فى تلك الحظيرة ؛ فلما اجتمعوا أتاه سعدُ فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معشر الأنصار ؛ مَا قَالَتْ بَلْعَتْنِي عَنْكُمْ ، وَمَوْجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَى فى أَنْفُسِكُمْ ! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فهداكم الله ، وعَالَ^(٧) فَأَغْنَاكُمْ الله ، وأعداء فألَّفَ الله بين قلوبكم ! بلى ، والله ورسوله أمنُّ وأفضل . ثم قال : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! قَالُوا : بِمَاذَا نَجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ لله ورسوله المنُّ والفضلُ ! قال : أَمَا وَاللَّهِ لو شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ

(١) الخياط والمخيط : الخيط والإبرة . (٢) الغلول : الخيانة . (٣) الشنار : أتبج العيب والعار . (٤) الكتبة من كل شيء : ما اجتمع منه . (٥) البرذعة : الحلاس يلقى تحت الرجل . والذبرة : قرحة الدابة ، والبعر دبر . (٦) وجد : غضب . (٧) العالة : الفقراء .

وَلَصَدَّقْتُمْ : أَتَيْنَاكُمْ مَكْذَبًا فَصَدَّقْتُمْ ، وَتَخَذُوا فَنَصْرَنَا ، وَطَرِيدًا فَأَوَيْنَاكُمْ ،
وَعَائِلًا فَاسْتَيْنَاكُمْ^(١) ، أَوْجَدْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُغَاةٍ^(٢) مِنَ الدُّنْيَا ،
تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا يُسْلِمُوا ، وَوَكَّلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ! أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ
أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُوا أَنْتُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رَحَالِكُمْ ! فَوَالَّذِي
نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَسَكَنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا^(٣)
وَسَلَّكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَّكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ
وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ !

فَبَكَى الْقَوْمَ حَتَّى اخْضَلُوا لِحَاظِهِ^(٤) ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا^(٥) وَحِطًّا ،
ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَتَفَرَّقُوا^(٦) .

وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مُنْصَرَفِهِ عَنِ الطَّائِفِ كَتَبَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ إِلَى أَخِيهِ
كَعْبِ^(٧) يَخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَتَلَ رَجُلًا بِمَكَّةَ مِمَّنْ كَانَ يَهْجُوهُ وَيُؤْذِيهِ ، وَأَنَّ مِنْ بَقِيَّةِ
مَنْ شَعَرَاءَ قَرِيشٍ قَدِ هَرَبُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ ؛ فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فِطْرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
فَإِنَّهُ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا جَاءَهُ تَائِبًا ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَنْجِ إِلَى نَجَاتِكَ^(٨) مِنَ الْأَرْضِ .
فَلَمَّا بَلَغَ كَعْبُ الْكِتَابُ ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، وَأَشْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَرْجَفَ بِهِ^(٩)

(١) آسِينَاكُمْ : جَعَلْنَاكُمْ كَأَحَدِنَا . (٢) لُغَاةٌ بَقِيَّةُ يَسِيرَةٍ . (٣) الشَّعْبُ : الطَّرِيقُ بَيْنَ
الْجَبَلَيْنِ ، (٤) اخْضَلُوا لِحَاظَهُ : بَلَوْهَا بِالْذَمِّ . (٥) الْقِسْمُ : النِّصْبُ . (٦) قَالَ حَسَّانُ
ابْنُ ثَابِتٍ بِعَاتِبِ النَّبِيِّ فِي حُرْمَانِهِ الْأَنْصَارِ :

وَأَتَى الرَّسُولَ فَقَبِلَ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ
لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدَّدَ الْبَشَرُ
عَلَامٌ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهِيَ نَارِ حَةٍ
قَدَامَ قَوْمٍ هُمْ آوَوْا وَهُمْ نَصَرُوا
تَمَامُهُمُ اللَّهُ أَنْصَارًا بَنَصَرَهُمْ
دِينَ الْهَدَى وَعَوَانَ الْحَرْبِ تَسْتَعِيرُ
الْعَوَانُ : الَّتِي قُوتِلَ فِيهَا الْمَرَّةُ بَعْدَ الْمَرَّةِ .

(٧) كَانَ كَعْبٌ قَدْ قَالَ شِعْرًا لَمْ يَرْضَهُ النَّبِيُّ . وَانْظُرْ سِيرَةَ ابْنِ هِشَامٍ ٣-١٥٠ .

(٨) النِّجَاءُ : الْخَلَامُ وَالنَّجَاةُ . (٩) أَرْجَفَ بِهِ : حَاسَ فِيهِ .

مَنْ كَانَ فِي حَاضِرِهِ مِنْ عَدُوِّهِ ، فَقَالُوا : هُوَ مَقْتُولٌ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ بُدًّا قَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَمْدَحُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَذَكَرَ فِيهَا خَوْفَهُ وَإِرْجَافَ الْوُشَاةِ بِهِ مِنْ عَدُوِّهِ ، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدَّمَ الْمَدِينَةَ ، فَنَزَلَ عَلَى رَجُلٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ مِنْ جُھَيْنَةَ ؛ فَنَدَا بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ ، وَأَشَارَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَالَ لَهُ : هَذَا هُوَ ، فَقُمَ إِلَيْهِ فَاسْتَأْمَنَهُ (١) .

فَقَامَ إِلَيْهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ - وَكَانَ النَّبِيُّ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنْ كُتِبَ بِنَ زَهِيرٍ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَأْمِنَ مِنْكَ تَائِبًا مُسْلِمًا ، فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ إِنْ أَنَا جِئْتُكَ بِهِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كُتِبَ بِنَ زَهِيرٍ !

فَوُثِبَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ دَعْنِي وَعَدُوَّ اللَّهِ أَضْرِبَ عُنُقَهُ ؛ فَقَالَ : دَعْنِي عَنْكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِبًا نَارِعًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .
فَقَالَ قَصِيدَتَهُ :

بَانتُ سَمَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مُتَسِيمٌ إِثْرَهَا ، لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ (٢)
وَمَا سُعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ (٣)
هَيْفَاءُ مَقْبَلَةٌ ، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةٌ (٤) ، لَا يَشْتَكِي قِصَرُ مِنْهَا وَلَا طَوْلُ
تَجَلُّو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مَنَهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ (٥)
شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ (٦)

- (١) استأمنه : اطلب منه أن يؤمنك . (٢) بانت : فارقت . متبول : متبول : مصاب ، بالثبل ، وهو الذحل والعداوة ، ويقال : قلب متبول ؛ إذا غلبه الحب وهيمه . مكبول : مقيد .
(٣) الأغن من الغزلان وغيرها : الذي في صوته غنة . غضيض الطرف : مسترخي الأجفان .
(٤) هيفاء : ضامرة البطن والخصر . عجزاء : عظيمة العجيزة .
(٥) تجلّو : تكشف . عوارض : ثنايا . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب بعد الشرب تباعاً .
(٦) شجّت : مزجت . الشبم : يروى بكسر الباء وفتحها على الاسم والمصدر : البارد .
المخنية من الوادي : منرجه حيث ينعطف . الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . مشمول : هبت عليه ريع الشمال ، وهي باردة .

تَنْسِفِ الرِّيحُ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ^(١) مِنْ صَوْبِ غَادِيَةٍ رِيضٍ^(٢) يَمَالِيلُ^(٣)
 فِيهَا خُلَّةٌ^(٤) لَوْ أَتَمَّهَا صَدَقَتْ^(٥) بَوَعْدِهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ^(٦)
 لَكِنَّا خُلَّةٌ قَدْ سَيِّطَ مِنْ دَمِهَا^(٧) فَجَعَّ وَوَلَعَ^(٨) وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ^(٩)
 فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا^(١٠) كَمَا تَكُونُ فِي أَثَوَابِهَا الْغُولُ^(١١)
 وَمَا تُمْسِكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ^(١٢) إِلَّا كَمَا يُمْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ^(١٣)
 فَلَا يَفِرُّكَ مَا مَنَنْتَ وَمَا وَعَدْتَ^(١٤) إِنْ الْأَمَانُ وَالْأَحْلَامُ تَضْلِيلُ^(١٥)
 كَانَتْ مَوَاعِيدُ عِرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا^(١٦) وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(١٧)

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتَهَا^(١٨) وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ^(١٩)
 أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يَبْلُغُهَا^(٢٠) إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَاثِيلُ^(٢١)
 وَلَنْ يُبَلِّغَهَا إِلَّا عُذَّافَةٌ^(٢٢) لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالُ^(٢٣) وَتَبْغِيلُ^(٢٤)
 مِنْ كُلِّ نَضَاجَةٍ الذُّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ^(٢٥) عُرْضَتُهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ بِجَهْلُ^(٢٦)
 تَرَى الْغُيُوبَ بَعِيْنُ مُفْرَدٍ لَهَقَى^(٢٧) إِذَا تَوَقَّدَتِ الْحِزَانُ وَالْمِيلُ^(٢٨)

-
- (١) القذى : ما فى الماء من أجسام غريبة . وأفراطه : مجل لإليه وملاؤه . غادية : سحابة
 تمطر بالغداة . يعاليل : حباب الماء ، وهو رغو الماء .
 (٢) الخلة : الصداقة .
 (٣) سيط : خلط . فجع : فجعة . الولع : الكذب .
 (٤) عرقوب : اسم رجل يضرب به المثل فى خلف الوعد .
 (٥) إخال : أظن . تنويل : نوال .
 (٦) المراسيل : جمع مرسال ، وهى السريعة السير .
 (٧) العذافرة : الناقة الشديدة . الأين : الإعياء . الإرقال : ضرب من العدو فوق الخبب .
 التبغيل : مشى فيه سعة ، كأنه شبه سيرها بسير البغل لشدة .
 (٨) الذفرى : الموضع الذى يعرق من البعير خلف الأذن . عرضتها : همتها .
 (٩) المفرد : الثور الوحشى ، شبهها به . واللق : الأيىض ، والحزان : جمع حزيز ، وهو
 المكان الغليظ الصلب .

ضَخَمَ مُقَلَّدَهَا ، فَعَمَّ مُقَيَّدَهَا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلُ^(١)
 غَلْبَاءُ وَجَنَاءُ عُلُكُومُ مُذَكَّرَةٌ فِي دَفِّهَا سَمَةٌ ، قُدَامُهَا مِيلُ^(٢)
 وَجِلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ لَا يُؤَيِّسُهُ طَلَحُ بَضَاحِيَةِ الْمُتَنَيْنِ مَهْزُولُ^(٣)
 حَرْفُ ، أَخُوها أَبُوهَا مِنْ مُهَجَّنَةٍ وَعَمَّهَا خَالُهَا ، قَوْدَاءُ شِمْلِيلُ^(٤)
 يَمْشِي الْقُرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزْلِقُهُ مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابُ زَهَالِيلُ^(٥)
 عَيْرَانَةٌ قَذَفَتْ بِالنَّجْصِ عَنْ عُرْضِ مِرْفَقِهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ^(٦)
 كَأَنَّ مَا فَاتَ عَيْنِهَا وَمَذْبَحُهَا مِنْ خَطَمِهَا وَمِنْ اللَّحْيَيْنِ بَرِطِيلُ^(٧)
 تَمُرُّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلٍ فِي غَارِزٍ لَمْ تُخَوِّنْهُ الْأَحَالِيلُ^(٨)
 قَنَوَاهُ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عِنَقُ مُيْنٍ وَفِي الْخَدَيْنِ تَسْهِيلُ^(٩)

(١) المقلد: العنق . مقيد : موضع القيد في رجلها . والفعم : المتلى .

(٢) غلباء : غليظة الرقبة . وجناء : تامة الخلق ، عظيمة لحم الوجنة ، صلبة شديدة .
 العلكوم : القوية الصلبة . ناقة مذكرة : متشبهة بالجل في الخلق . الدف : الجنب . قدامها ميل :
 طويلة العنق . والميل مد البصر .

(٣) الأطوم : السلحفاة البرية أو الزرافة ، يصف جلدها بالقوة والاملاسة . لا يؤيسه :
 لا يؤثر فيه . الطلح : القراد . الضاحى : البارز . المتنان . الجانبان .

(٤) تشبه الناقة بالحرف من حروف المعجم إذا كانت ضامرة ، وبحرف الجبل إذا كانت غليظة
 مهجنة : كريمة . قوداء : طويلة العنق والظهر . شمليل : خفيفة سريعة . وأبوها أخوها ، وعمها
 خالها يريد أنها مداخلة النسب في الكرم ، فلم يدخل في نسبها أجنبي .

(٥) اللبان : الصدر . الأقرب : الخواصر . زهاليل : ملساء ناعمة ، جمع زهلول .

(٦) عيرانة : صلبة ، تشبيهاً لها بعير الوحش ، والألف والنون زائدات . النجص : اللحم .
 وقذفت باللحم ، يريد أنها ممتلئة الجسم . عن عرض : تعترض في مرآتها . الزور : الصدر ، وبناته :
 ما حواليه من الأضلاع وغيرها .

(٧) فات : تقدم . مذبح : مكان الذبح . الخطم : الأنف . اللحى : الحنك . البرطيل : حجر
 مستطيل عظيم ، شبه به رأس الناقة ، كان الذي تقدم عينيها ومذبحها من الخطم والحنك حجر
 عظيم . (٨) العسيب : جريد النخل . خصل : جمع خصلة ، وهو اللقافة من الشعر . غارز :
 ضرع . تنخونه : تنقصه . الأحاليل جمع إحليل ، وهو مخرج اللبن من الضرع . يعني أنه قد نشف
 لبنها ، فهي سمينة لم تضعف بخروج اللبن منها .

(٩) القنواء : الحدودبة الأنثى . حريتها : أذنيها . سهل الخدين : غير مرتفع الوجنتين .

تَخْدِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ^(١) ذَوَابِلُ مَسْمُونِ الْأَرْضِ تَحْلِيلُ^(٢)
سَمَرُ الْمُعْجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الْحَصَى زَيْمًا^(٣) لَمْ يَقْمِنْ رُءُوسَ الْأَكْمِ تَنْمِيلُ^(٤)
كَأَنَّ أُوبَ ذِرَاعِيهَا إِذَا عَرَقَتْ^(٥) وَقَدْ تَلَفَعَ بِالْقُورِ الْعَسَائِقِلُ^(٦)
يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْحَرْبَاءُ مُصْطَخِدًا^(٧) كَانَ ضَاحِيَهُ بِالشَّمْسِ تَمْلُولُ^(٨)
وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيَهُمْ وَقَدْ جَمَلَتْ^(٩) وَرَقَّ الْجُنَادِبُ يَرْكُضْنَ الْحَصَى قِيلُوا^(١٠)
شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَمِيطَلِ نَصَفَ^(١١) قَامَتْ لِحَاوِيَهَا نُسْكَدُ مَثَاكِيلُ^(١٢)
نَوَاحَةُ رِخْوَةِ الضَّبْعَيْنِ لَيْسَ لَهَا^(١٣) لَمَّا نَعَى بِكَرَاهَا النَّاعُونَ مَقُولُ^(١٤)
تَفْرِى اللَّابَانَ بِكَفِّيَّهَا، وَمِدْرَعُهَا^(١٥) مَشَقَّقُ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَائِلُ^(١٦)

يَسْمَى النُّوَاةُ جَنَابَيْنَهَا، وَقَوْلُهُمْ : إِنَّكَ يَا بَنَى أَبِي سُلَمَى لِمَقُولِ

(١) تخدى : تسرع . يسرات البعير : قوائمه . اللاحقة الضامرة . ذوابل : يابسة . مسهن الأرض تحليل ، أى تمس الأرض مساً خفيفاً سرعاً كمن يخاف على شىء أن يفعله فيفعل منه اليسير يحال به يمينه . (٢) سمر : ليست برخوة . المعجيات : أعصاب قوائم الإبل والحيل ، واحده نجاة زيمًا : متفرقاً . الأكمة : ما اجتمع من الحجارة فى مكان واحد . التميل : أن يوضع للجمل طبق من حديد يقيه الحجارة .

(٣) أوب : رجوع . القور : جمع قارة ، وهى الأصاغر من الجبال . العساقيل : جمع عسقول . السراب . قال ابن سيده : أراد : وقد تلفع القور بالعساقيل ، فقلب .

(٤) الحرباء : حيوان يرى له سنام كسنام الجمل ، يستقبل الشمس ويدور معها حيث دارت ، ويتلون ألوانا . مصطخدا : منتصباً مصطلياً بحر الشمس . ضاحيه : ما برز منه للشمس وظهر . تملول : محروق ، أى كأن ما ظهر منه للشمس مشوى بالملحة من شدة حره .

(٥) الحادى : الذى يسوق الإبل . ورق : جمع أورق ، وهو الأخضر يضرب إلى السواد . الجنادب : جمع جند ، وهو صفار الجراد . قيلوا : فعل أمر من « قال » ، إذا استراح وقت القيلولة . (٦) شد النهار : وقت ارتفاعه وعلوه . العيطل : الناقة الطويلة . النصف : بين الشابة

والكهلة . النكد : جمع ناكد ، وهى التى لا يعيش لها ولد . مثاكيل : جمع مثكال ، وهى التى فقدت ولدها .

(٧) النواحة : النائمة التى تبكى ولدها . الضبعين ، مثنى الضبع وسط العضد . المعقول : العقل .

(٨) تفرى : تقطع . اللبان : الصدر . المدرع : القميص . التراق : جمع ترقوة ، وهى أعلى

الصدر . رعائيل : قطع .

وقال كلُّ صديق كنتُ أمْلُهُ
فقلتُ : خَلُّوا سبيلي لا إيا لَكُمْ
كلُّ ابن أنثى وإن طالت سلامته
نُبِّئتُ أن رسولَ الله أُوْعِدَنِي
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً (١)
لا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ
لَقَدْ أَقَوْمُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
مَا زِلْتُ أَقْتَطِعُ الْبَيْدَاءَ مُدْرِعًا
حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي مَا أَنَا زُعْمَا
فَلَهُوَ أَخَوْفُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَّمَهُ
مَنْ ضَيَّفَهُمْ بِضَرَاءِ الْأَرْضِ مَخْدَرُهُ (٢)
يَغْدُو فَيَلْحِمُ ضِرْعَا مَيْنَ ، عَيْشُهُمَا (٣)
إِذَا يُسَاوِرُ قَرْنًا لَا يَحِيلُ لَهُ
مِنْهُ تَظَلُّ سَبَاعُ الْجَوِّ نَافِرَةً
وَلَا يَزَالُ بَوَادِيهِ أَخُو ثِقَةٍ

لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ إِنِّي عِنْدَكَ مُشْغُولٌ (١)
فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولٌ
يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَذْبَاءُ مَحْمُولٌ (٢)
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ (٣)
قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
أُذُنٍ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقْوَابِ
يَرَى وَيَسْمَعُ مَا قَدْ أَسْمَعَ الْفَيْلُ
مِنَ الرَّسُولِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلٌ (٤)
جُنَحَ الظَّلَامِ وَثُوبُ اللَّيْلِ مَسْدُولٌ (٥)
فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلُهُ الْقَيْلُ
وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْتُولُ
فِي بَطْنِ عَثْرٍ غَيْلٌ دُونَهُ غَيْلٌ (٦)
لَحْمٌ مِنَ النَّاسِ مَغْفُورٌ خَرَادِيلُ (٧)
أَنْ يَتْرُكَ الْقِرْنَ إِلَّا وَهُوَ مَغْلُولٌ (٨)
وَلَا تَمْشِي بِوَادِيهِ الْأَرَاجِيلُ (٩)
مُضَرَّجُ الْبَزِّ وَالْدَّرْسَانِ مَا كُولُ (١٠)

(١) لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ : لأشغلك عما أنت مهتم به . (٢) الآلة الحدباء : النعش الذي يحمل عليه الموتى . (٣) أُوْعِدَنِي : تهددني . (٤) النافلة : العطية .
(٥) التنوِيل : العطاء ، وهو يقصد العفو . (٦) البداء : الصحراء (٧) الضيفم : الأسد ، ضراء الأرض : ماوارك من الشجر . مخدره : غابته وأجته . (٨) عثر : موضع تنسب إليه الأسود الفيل : الأجمة . (٩) يلحم : يطعم اللحم . (١٠) مغفور : مغفر ، والخراديل : القطع .
(١١) يساور : يواكب . (١٢) الأراجيل : الجماعات من الرجال . (١٣) البز : السلاح .
الدرسَان : جمع درس ، وهو الثوب الخلق البالي .

إِنَّ الرِّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سَيْوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
 فِي عُصْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِيْطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا : زُؤُلُوا
 زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَازِيلُ^(١)
 شَمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالٌ لَبَّوْهُمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ^(٢)
 بِيضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ كَأَنَّهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ^(٣)
 لَيْسُوا مَفَارِيخَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا ، وَلَيْسُوا مَجَازِيمًا إِذَا نِيلُوا^(٤)
 يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبُهُ إِذَا عَرَّدَ الشُّودُ التَّنَائِيلُ^(٥)
 لَا يَقَعُ الطَّمَنُ إِلَّا فِي نَحْوَرِهِمْ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ^(٦)

(١) أنكاس : جمع نكس - بالكسر : الرجل الضعيف . الكشف : جمع أكشف ، وهو الذي
 لا ترس معه في الحرب . الميل : جمع أميل وهو الذي لاسيف معه . والمعازيل : جمع معزال ، وهو
 من لا سلاح معه . (٢) السراويل : الدروع . (٣) شكت : نسجت . القفعاء : شجر ينبسط
 على وجه الأرض ، يشبه حلق الدروع . مجدول : عكم الصنعة . (٤) مفاريخ : جمع مفراج .
 ومجازيع : جمع مجزاع . (٥) عرد : هرب ، والتنايل ، جمع تنال ، وهو القصير .
 (٦) تهليل : فرار .

١٤ - يوم تبوك*

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن نصارى العرب قد اجتمعوا مع جُند الروم لمحاربتهم، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء^(١)؛ فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزوهم، وذلك في زمن عُسرة من الناس، وشدة من الحر، وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالتأس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها.

وكان رسول الله قَلَمًا يخرج في غزوة إلا كَتَبَ^(٢) عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصد إليه، إلا غزوة تبوك فإنه يَبْنِيها للناس؛ لُبْعِد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد^(٣) له، ليتأهب الناس لذلك أهبتة.

أمر الرسول الناس بالجهاز^(٤)، وأخبرهم أنه يريد غزو الروم؛ فتجهز الناس، على ما في أنفسهم من الكره لذلك الوجه، لما عرفوا من كثرة الروم وقوتهم، واثاقل بعض المنافقين، وعرف الرسول أمرهم بفراسته حيناً، وبوحي الله أحياناً.

وفي ذات يوم - وهو في جهازه ذلك - قال للجد بن قيس^(٥): يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر^(٦)؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن ولا تفتني!

* الطبري: ٣ - ١٤٢، ابن هشام: ٤ - ١٦٩، السيرة الحلبية ٣ - ١٤٧، سيرة ديجلان ٢ - ٣٦٧. كان في رجب سنة تسع من الهجرة. وتبوك: موضع من أدنى أرض الشام، وسميت أيضاً غزوة العسرة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾، وتعرب بالفاضة لانفصاح المنافقين فيها.

(١) البلقاء: أرض بالشام. (٢) كنى: تكلم بكلام وأراد غيره. (٣) صمد: صمد إليه: قصده. (٤) جهاز: المسافرين (بالفتح والكسر): ما يحتاج إليه. (٥) فيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُوْذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٦) بنو الأصفر هم الروم.

فوالله لقد عَرَفَ قَوْمِي أَنَّهُ مَا مِنْ رَجُلٍ بِأَشَدَّ عُجْبًا بالنساء مِنِّي ، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْهَرِ إِلَّا أَصْبِرَ ! فَأَعْرَضَ عَنْهُ الرَّسُولُ ، وَقَالَ : قَدْ أَذِنْتُ لَكَ .

وَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِبَعْضٍ : لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ؛ زَهَادَةٌ فِي الْجِهَادِ ، وَشُكَّا فِي الْحَقِّ ، وَإِرْجَافًا بِالرَّسُولِ ، فَفَضَحَ اللَّهُ مَا يَبْتَثُونَ ، وَأَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ فِيهِمْ : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

وَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَجْتَمِعُونَ فِي بَيْتِ سُؤْلِمَ الْيَهُودِيِّ ، يُبْتَثُّونَ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْفِتْنَةِ فِي مَهْدِهَا ، وَيُطْفِئَ جَذْوَةَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ تَسْتَفْجِلَ نَارُهَا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْرِقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتَ ، فَخَرَّبَ طَلْحَةُ عُشَّ النِّفَاقِ ، وَحَرَّقَ وَكَرَّ الْمُنَافِقِينَ .

وَجَدَّ رَسُولُ اللَّهِ فِي التَّهَيُّؤِ لِلسَّفَرِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجَهَازِ وَالْإِنْكَشَاشِ (٢) ، وَحَضَّ أَهْلَ الْغِسْنِيِّ عَلَى النِّفْقَةِ وَالْحُمْلَانِ (٣) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَحَمَلَ رَجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْغِسْنِيِّ وَاحْتَسَبُوا (٤) ، وَأَتَقَى عُثْمَانُ فِي ذَلِكَ نَفْقَةً عَظِيمَةً لَمْ يُنْفِقْ أَحَدٌ مِثْلَهَا .

وَتَسَابَقَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى إِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ ، وَعَجَزَ الْبُسْكَاءُونَ - وَهُمْ سَبْعَةٌ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ (٥) - فَاسْتَحْمَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ ، فَقَالَ : لَا أَجِدُ

(١) سورة التوبة ٨٢ . (٢) الانكماش : الإسراع . (٣) الحملان ، مصدر كالحمل ، والحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة . (٤) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ، ينوي به وجه الله . (٥) هم : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد ، وعبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن حزام بن الجوح ، وعبد الله بن المغفل المزني ، وهري بن عبد الله ، وعرباض بن سارية القرظي .

ما أحلكم عليه ، فتولّوا ، وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .
ورأى واحداً من المؤمنين اثنين منهم ، وهما يسكيان ، فقال : ما يكيكما ؟ قال :
جئنا رسول الله ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على
الخروج معه ؛ فأعطاها ناضحاً له^(١) ، وزودها شيئاً من تمر ، فخرجا مع الرسول .
وأجمع الرسول السير ، وضرب عسكره على أنية الوداع ، وتخلّف عنه نفر من
المسلمين من غير شكّ وارتياب ؛ فقد كانوا رجال صدق لا يفتهمون في إسلامهم^(٢) .
وسار معه عبد الله بن أبيّ ، وضرب عسكره قريباً منه ، ولكنه لم يلبث أن
تخلّف فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الرّيب .

واستعمل رسول الله على المدينة - حين خرج إلى تبوك - سباع بن عرفة ،
وتخلّف علىّ بن أبي طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف^(٣) بذلك المنافقون
وقالوا : ما خلفه إلا استئقالاته وتخفّفاً منه ، وسمع ذلك علىّ ، فأخذ سلاحه وخرج
حتى أتى رسول الله ، وهو نازل بالجرف^(٤) ، فقال : يا نبيّ الله ؛ زعم المنافقون أنك
استثقلتني وتخفّفت مني ! فقال : كذبوا ؛ ولكني خلفتكم لئلا تركت ورائي ، فارجع
فأخلفني في أهلي وأهلك ؛ أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا
أنه لا نبيّ بعدى ! فرجع علىّ إلى المدينة ، ومضى الرسول على سفره .

ومرّ النبيّ في طريقه بالحجر^(٥) ، فسجّى ثوبه على وجهه ، واستحثّ الناس ،
ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ؛ خوفاً أن يصيبكم مثل
ما أصابهم .

ثم نزل بالحجر ، واستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال لهم رسول الله :

(١) الناضح : الجمل الذي يستقي عليه الماء . (٢) منهم كعب بن مالك ، ومرارة بن
الربيع ، وهلال بن أمية . (٣) أرجف في الشيء وبه : خاض فيه . (٤) الجرف : موضع
قرب المدينة . (٥) الحجر : بلاد ثمود .

لا تشربوا من ماءها شيئاً ، ولا تتوضّئوا منه للصلاة ، وما كان من عجين مجتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجنّ أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له .

وأصبحَ النَّاسُ ولا ماءَ معهم ، فشكّوا ذلك إلى الرسول ، فدعا الله فأرسل سحابةً أمطرت حتى ارتوى النَّاسُ : واحتملوا حاجتهم من الماء . وتابع المسلمون السَّيْرَ ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ضلّت ناقةُ الرسول ، فخرج أصحابه في طلبها ، فقال أحد المنافقين^(١) : أليس محمدٌ يزعم أنه نبيٌّ ، ويخبركم خبر السماء ! فكيف لا يدري أينَ ناقته !

فقال رسولُ الله لأصحابه : إن رجلاً قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبيٌّ ، ويزعم أنه يخبركم بأمرِ السماء ، وهو لا يدري أينَ ناقته ! وإني والله ما أعلمُ إلا ما علّمني الله ، وقد دلّني الله عليها ، وهي في الوادي في شعب^(٢) كذا ، قد حبستها شجرةٌ بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونني بها . فذهبوا فجاءوا بها .

ثم مضى رسولُ الله سائراً ، فجعل يتخلّفُ عنه الرجل ، فيقول : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : دَعُوهُ فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فسيُليحِقْهُ الله بكم ، وإن يك غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ؛ قد تخلف أبو ذرٍّ وأبطأ به بعيره ، فقال : دَعُوهُ فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فسيُليحِقْهُ الله بكم ، وإن يك غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه .

وتلوّم^(٣) أبو ذرٍّ على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمّله على ظهره ، ثم

(١) هو زيد بن اللصيت . (٢) الشعب : ما انفرج بين جبلين . (٣) التلوّم : التلبّث والانتظار .

خرج يتبع أثر الرسول ماشياً ، ونزل الرسول في بعض منازلها ، فنظر ناظرٌ من المسلمين . فقال : يا رسول الله ؛ إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده ، قال الرسول : كن أبا ذرٍّ ! فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبو ذرٍّ ! فقال الرسول : رحم الله أبا ذرٍّ ! يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويُبْعَث وحده .

ولما انتهى رسول الله إلى تبوك لم يلق حرباً ، وصالح أهلها وقفل راجعاً .

وفي عودته أتاه يُحَنِّه بن رُوْبَة ، صاحب أَيْلَة ، فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جَرْبَاء وأذْرَح^(١) فأعطوه الجزية ، فكتب رسول الله لهم كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنِّه بن رُوْبَة وأهل أَيْلَة ، سُفْنِهِمْ وَسَيَّارَتِهِمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، لَهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْيَمَنِ ، وَأَهْلِ الْبَحْرِ ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثًا ، فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يَنْعَمُوا بِمَاءٍ يَرُدُّونَهُ ، وَلَا طَرِيقًا يُرِيدُونَ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ .

ودعا رسول الله بخالد بن الوليد ، فبعثه إلى أَلْكَيْدِر دَوْمَة — وكان رجلاً من كِنْدَة ، قد مُلِكَ عليها ، وهو نَصْرَانِيٌّ ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ؛ فائتمرَّ خالدٌ بأمر النبي ، وسار إليه في جُنْدٍ من المسلمين .

وفي ليلة مقمرة صائفة ، كان أَلْكَيْدِر دَوْمَة على سَطْحٍ له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحكُّ بقرونها بابَ القصر ، فقالت امرأته : أَرَأَيْتَ مِثْلَ هَذَا قَطُّ ؟ قال : لا والله ، قالت : فَمَنْ يَتْرَكُ هَذِهِ ؟ قال : لا أحد ، ونزل فأمر بفرسه فأُسرَجَ له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فبينهم أَخٌ له يقال له حَسَّان ، فركب وخرجوا معه

(١) جرباء وأذرح : بالشام .

بِمَطَارِ دِمٍّ^(١) ، فلما خرجوا تَلَقَّفَتْهُمْ خَيْلُ رَسُولِ اللَّهِ فَأَخَذَتْهُمْ ، وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قَبَاءٌ مِنْ دِيْبَاجٍ مُخَوَّصٍ بِالذَّهَبِ ، فَاسْتَلَبَهُ خَالِدٌ ، وَبَعَثَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ قُدُومِهِ عَلَيْهِ . وَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ جَمَلُوا يَلْمِسُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا ! فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَمَنَادِيلُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا !

ثم قدم خالدُ بَأَكِيدِرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَخَقَّنَ لَهُ دَمَهُ ، وَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ ، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ ؛ فَرَجَعَ إِلَى قَرْيَتِهِ ، وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ بِتَبُوكَ بِضْعَ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ لَمْ يَجَاوِزْهَا ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَافِلًا إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَأَقْبَلَ حَتَّى نَزَلَ بِذِي أَوَانَ^(٢) ، وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضَّرَّارِ قَدْ أَتَوْهُ ، وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لَذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ ، وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ ، وَاللَّيْلَةِ الشَّائِيَةِ ، وَإِنَّا نَحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصَلِّيَ لَنَا فِيهِ ، فَقَالَ : إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَنَرٍ وَحَالٍ شُغْلٍ ، وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَأْتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ .

ولما عاد أُنَاهُ خَبِرُ الْمَسْجِدِ وَمَا يُرَادُ بِهِ مِنَ الْكَيْدِ وَالْأَذَى ؛ فَدَعَا مَالِكَ بْنَ الدُّخْشُمِ وَمَعْنُ بْنَ عَدِيٍّ ، وَقَالَ : انْطَلِقَا إِلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلَهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ . فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا رَهْطَ مَالِكِ بْنِ الدُّخْشُمِ ، فَقَالَ مَالِكٌ لِمَنْ : أَنْظِرْنِي حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْكَ بَنَارٍ مِنْ أَهْلِ . وَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ ، فَأَخَذَ سَمْعًا مِنَ النَّخْلِ ، فَأَشْمَلَ فِيهِ نَارًا ، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَّانِ حَتَّى دَخَلَا الْمَسْجِدَ وَفِيهِ أَهْلُهُ ، فَحَرَّقَاهُ وَهَدَمَاهُ وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ^(٣) .

(١) المطرد : رمح قصير تطلعن به الوحش . (٢) ذو أوان : موضع بينه وبين المدينة ساعة

من نهار .

(٣) نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

وقدم رسول الله المدينة ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف كذلك من المسلمين - من غير شك ولا نفاق - كعب بن مالك ومُرارَة بن الربيع وهلال بن أمية ؛ فقال رسول الله لأصحابه : لانسكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة . فاعتزل المسلمون كلام أولئك النفر .

قال كعب بن مالك : ماتخلفت عن رسول الله غزوة غزاها قط ، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله إنما خرج يريد غير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله العقبه^(١) حتى تواتقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ؛ وإن كانت غزوة بدر أذكر في الناس منها .

وتخلفت عن رسول الله في غزوة تبوك ، وقد كنت قويا مسورا^(٢) ، وكان النبي قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها في حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ، وقصد غزو عدي كبير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبتة ، وأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون حينئذ كثير ، لا يجتمعهم ديوان مكتوب .

وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار ، وأحبب الظلال ، وتجهز ، وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أغدو لأتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت . فلم يزل ذلك يهادي بي حتى شمر بالناس الجسد ،

(١) العقبه : مكان بين مكة ومي ، وفيه بايع الرسول الأنصار قبل الهجرة .

(٢) قال كعب : ما اجتمعت لي راحتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة .

(٩ - أيام العرب في الإسلام)

وأصبح رسول الله غارياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدوت بعد أن فصلوا^(١) لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ؛ فلم يزل ذلك يتأدى بى حتى أسرعوا وتفرط^(٢) الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ؛ وليتني فعلت ! ولكنى لم أفعل ؛ وجمعت إذا خرجت فى الناس بعد خروج النبي يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً^(٣) عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضمفاء ، ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس مع القوم هناك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله ؛ حبسه برّده والنظر فى عطفه . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يارسول الله ما علمنا منه إلا خيراً . فسكت رسول الله .

فلما بلغنى أن النبي توجه قافلاً من تبوك حصرنى بشئ ، فجمعت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطة رسول الله غدا ! وأستمين على ذلك بكلّ ذى رأى من أهلى ؛ فلما قيل : إن رسول الله قد أظّل قادماً ، عرفت أنى لا أنجومنه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقّه ، وصبّح الرسول المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاء المخلفون فجمعوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم الرسول علائبتهم وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكيل سرائرهم إلى الله ؛ حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : تعاله ! فجمعت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلّفتك ! ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ قلت : إنى يارسول الله لو جلست عند

(١) فصل من البلد : خرج . (٢) تفرط الغزو وتفارط : فات وقته . (٣) هو مغموص

عليه : مطعون فى دينه .

غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرجُ من سَخِطِهِ بُعْذَرٌ ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا ، ولكن والله لقد علمتُ لئن حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثًا كَذِبًا لَتَرْضَيْنَّ عَنِّي ، وليوشكنَّ - الله أن يَسْخَطَ عَلَيَّ . ولئن حَدَّثْتُكَ حَدِيثًا صَدَقًا تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ ، وإني لأرجو عُقْبَايَ مِنْ الله فِيهِ . ولا والله ما كان لي عذر ، والله ما كنتُ قطَّ أَقْوَى ولا أيسرَ مِنِّي حينَ تَخَلَّفْتَ عَنكَ ! فقال رسولُ الله : أَمَّا هذا فقد صدقتُ فِيهِ ، فقمُ حتى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ .

فَقَمْتُ وَثَارَ مَعِيَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي سَلِمْةَ فَاتَّبَعُونِي ، فقالوا لي : والله ما علمناكَ كُنتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، ولقد عَجِزْتَ أَلَّا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ ؛ قد كان كافيك ذَنْبُكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللهِ لَكَ . فوالله ما زالوا بي حتى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى النَّبِيِّ فَأَكْذَبَ نَفْسِي ، ثم قلتُ لَهُمْ : هل لَقِيتُ هَذَا أَحَدًا غَيْرِي ؟ قالوا : نعم رجلانِ قَالَا مِثْلَ مَقَالَتِكَ ، وقيلَ لهما مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ . قُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قالوا : مُرَادَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهَلَالُ بْنُ أُمِّيَّةَ . فذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ فِيهِمَا أُسُوءَ ، فَصَمْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي .

وَنَهَى رَسُولُ اللهِ عَنْ كَلَامِنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حتى تَنَسَّكَرَتْ لِي نَفْسِي وَالْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَزِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَسْكَنَا وَقَعَدَا فِي بَيْتِهِمَا ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ وَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَكَلِّمَنِي أَحَدٌ ، وَآتَى رَسُولَ اللهِ فَأَسَلَّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفْتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أَصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ ، فَأَسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، وَإِذَا التَّمْتُ نُحُوهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حتى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ - وَهُوَ ابْنُ عَمَّتِي ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ - فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَالله

ما ردَّ عليَّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة؛ أنشدك الله هل تعلم أني أحبُّ الله ورسوله! فسكت ، فمدت فناشدته فسكت عني ، فمدت فناشدته فسكت عني ، فمدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففأخت عيناى ووثبت ، فتسورت الحائط .

ثم غدوت إلى السوق ، فبينما أنا أمشي إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له إلى حتى جاءني فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، في سرقة^(١) من حرير فإذا فيه : أم بعد فإنه قد باننا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ؛ ولا مضية ، فالحق بنا نواسك . قلت - حين قرأته : وهذا من البلاء أيضا ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ! ثم عمدت به إلى تنور فسجرت^(٢) به .

فأقمنا على ذلك ، حتى إذا مضت أربعون ليلة إذا رسول الله يأتيني فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعزلي امرأتك ! قلت : أطلقيها أم ماذا؟ قال : لا ، بل اعزليها ولا تقر بها ، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : ألحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا ما هو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ، فقالت له : يا رسول الله ؛ إن هلال ابن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفسكره أن أخذه؟ قال : لا ، ولكن لا يقر بئلك ، قالت : والله يا رسول الله ؛ ما به حركة إلى ؛ والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوفت على بصره .

فقال بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة

(١) السرق ، محرمة : شق الحرير الأبيض أو الحرير عامة ، والواحدة بهاذ .

(٢) سجرته : أو قدته .

هلال بن أمية أن تخدمه ! قلت : والله لا أستأذنه فيها ، فما أدرى ما يقول لى فى ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب !

فلبثنا على ذلك عشر ليالٍ ، فكمّل لنا خمسون ليلة ، ثم صليتُ الصبح : صبح خمسين ليلة ؛ على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التى ذكر اللهُ منا ، قد ضاقت علينا الأرضُ بما رحبتَ وضاقت على نفسى ، وقد كنتُ ابتغيتُ خيمةً فى ظهر سلع^(١) ، فذهبتُ إليها . وبينما أنا فيها سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على ظهر سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ؛ أُنْشِرْ ! فخرتُ ساجداً ، وعرفتُ أن قد جاء الفرج . وآذن رسولُ الله للناسِ بِتَوْبَةِ الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناسُ يبشروننا ، وذهب نحوَ صاحبيّ مُبَشِّرُونَ ، وركض رجلٌ إلى فرسًا ، وسمى ساعٍ من أسلم ، حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوتُ أسرعَ من الفرس .

فلما جاءنى الذى سمعتُ صوته يبشرنى زعتُ ثوبى فكسوتهما إياه بِشارة ، ووالله ما أمّلكُ يومئذُ غيرهما ! واستعرتُ ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقتُ أتقيمُ الرسولَ . وتلقانى الناسُ يبشروننى بالتوبة ، ويقولون : بَتَهْنِئَتِكَ توبةُ الله عليك ! حتى دخلتُ المسجدَ ورسولُ الله جالسٌ وحوله الناسُ ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله ، كَحْيَانِي وهَنَانِي ، ووالله ما قام إلى رجلٍ من المهاجرين غيره .

فلما سلّمت على رسول الله قال لى - ووجهه يبرق من السرور : أُنْشِرْ بخير يومٍ مرّ عليك منذُ ولدتك أمّك ! قلت : أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله !

فلما جلستُ بين يديه قلت : يا رسول الله ، إنَّ من توبتى إلى الله عزّ وجلّ أن أنخلع من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله . فقال : أمْسِكْ عليك بعضَ مالك ،

(١) سلع : جبل بالمدينة .

فهو خير لك . قلتُ : إني ممسكٌ سهمي الذي بخير . ثم قلتُ : يا رسول الله إن الله قد نجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما حبيتُ . والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاءه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ لرسول الله أفضل مما أبلاني ، والله ما تعمدت من كذبة منذ ذكرت ذلك للنبي إلى يوم هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي .

وأُنزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَهُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

فوالله ما أنعم الله على نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ، ومجاфاتي الكذب عليه ، فنجاني الله من الهلاك ، كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شراً ما قال لأحد : ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُخْلِفُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

١٥ — يوم السقيفة*

لما سَمِعَ عمرُ بن الخطَّابُ بموتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ رجلاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسولَ الله مات ، وإنه خارج إلى مَنْ أَرْجَفَ بذلك^(١) . ثم جاء أبو بكرٍ فصعد المذبر ، وقال لعمر : أنصت . ثم تسكَّم فقال : مَنْ كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وَمَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات . ثم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ﴾^(٢) .

فكَانَ النَّاسَ مَاعْرِفُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ . قال عمر : والله ما هو إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أبا بَكْرٍ يَتْلُوها ، فَهَقِرْتُ^(٣) حَتَّى وَقَعْتُ عَلَى الْأَرْضِ مَا تَحْمِلُنِي رِجْلَايَ ، وَعَرَفْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ مَاتَ .

واجتمع الأنصارُ في سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ ، فَقَالُوا : نُوَلِّي هَذَا الْأَمْرَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ سَعْدَ ابْنِ عُبَادَةَ ، وَأَخْرَجُوا سَعْداً إِلَيْهِمْ وَهُوَ مَرِيضٌ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ لابنه : إِنِّي لَا أَقْدِرُ لَشُكْوَايَ أَنْ أَسْمِعَ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ كَلَامِي ، وَلَكِنْ تَأَقَّ مَنِي قَوْلِي فَأَسْمِعْهُمْهُ ، فَكَانَ يَتَسَكَّمُ وَيَحْفَظُ قَوْلَهُ فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ وَيُسْمِعُ أَصْحَابَهُ . قال — بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يامعشرَ الأنصار ، لكم سابقةٌ في الدين ، وفضيلةٌ في الإسلام ليست

* الطبري : ٣ — ١٩٩ ، سيرة ابن هشام : ٤ — ٣٣٥ . والسقيفة : شبه البهو الواسع له سقف ، فعيلة بمعنى مفعولة .

(١) أَرْجَفَ بالشيء : خاض فيه . (٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٣) هَقَرْتُ : دهشت ، من العقر ، وهو أن تسلم الرجل قوائمه إلى الخوف فلا يقدر أن يعيش من الفرق والدهش .

لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضعة عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وحنّ الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجالاً قليلين ؛ وما كانوا يقدرّون على أن ينعّموا برسول الله ، ولا أن يعزّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً^(١) عُمُوا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ، ساق إليكم الكرامة ، وخصّكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ، والإعزاز لدينه ، والجهاد لأعدائه ؛ فكنتم أشدّ الناس على عدوّه من غيركم ، حتى استقامت العربُ لأمرِ الله طوعاً أو كرهاً ، وأعطى البعيدُ المقادة صاغراً دأخراً^(٢) ، حتى أُنخِن^(٣) الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العربُ ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قريُّ عَيْنٍ . استبدّوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم : أن قد وفّقت في الرأي ، وأصبحت في القول ، ولن نعدّو ما رأيت ، نولّيك هذا الأمر فإنك فينا مقنّيع ، ولصالح المؤمنين رضى . ثم ترادّوا^(٤) في الكلام بينهم فقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه ، فمَلّامُ تنأزِعُونَنَا هذا الأمر بعده ! فقالت طائفة منهم : فإنّا نقول : إذن منا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً .

فقال سعد بن عبادة ، حين سمعها : هذا أوّلُ الوهن !
وأتى عمرَ الخبرُ فأقبل إلى منزل النبيّ ، وأرسل إلى أبي بكر وهو في الدار ، وعلى بن أبي طالب دائبٌ في جهاز رسول الله ؛ أن اخرج إليّ ، فأرسل إليه :

(١) الضيم . الظلم . (٢) داخراً : ذليلاً . (٣) أُنخِنَ فلان : أوهن ، والمراد أخضع (٤) راده الشيء : رده عليه .

إني مشتغلٌ، فقال : إنه قد حدثَ أمرٌ لا بدَّ لك من حضوره ، فخرج إليه ، فقال له : أما علمتَ أنَّ الأنصارَ قد اجتمعوا في سَقِيفَةِ بنى ساعدة يريدون أن يولّوا هذا الأمرَ سعدَ بنَ عُبادة ، وأحسنُهم مقالةً مَنْ يقولُ : منّا أميرٌ ومن قريشٌ أميرٌ .

ومَضَيَا مسرعَيْنِ نحوهم ، فلَقِيَا أبا عُبَيْدَةَ بنَ الْجُرَّاحِ فَنَشَا إِلَيْهِم ثلاثتهم ، فجاءوا وهم مجتمعون في السَّقِيفَةِ ، وإذا بين الأنصار رجلٌ مُزَمَّلٌ فقالوا : مَنْ هذا ؟ قيل : سعد بنُ عُبادة ، قالوا : ما شأنه ؟ قيل : وَجِعٌ ^(١) . وقام رجلٌ من الأنصار فحمد الله وأثنى عليه وقال : أمّا بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبةُ الإسلام ، وأنتم يا معشرَ قريشٍ رهطُ نبيّنا ، وقد دَفَّتْ إلينا من قومكم دافّةٌ ^(٢) . . .

قال عمر : فلما رأيْتهم يريدون أن يختزلونا ^(٣) من أصلنا وَيَغْصِبُون الأمر — وقد كُنْتُ زَوَيْتٌ ^(٤) كلما أردت أن أقوم به فيهم ، فلما ذهبتُ لأبتدئَ المنطقَ قال لي أبو بكر : رَوَيْدًا حَتَّى أَتَكَلَّمَ ، ثم انطقْ بما أحببت . فنطقَ فاشيء . كنتُ أريدُ أن أقوله إلا وقد أتى به أو بأحسنَ منه .

فبدأ ، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله بعثَ محمدًا رسولًا إلى خلقه ، وشهيدًا على أُمَّتِهِ ، ليعبدوا الله وَيُوحِّدُوهُ وهم يعبدون من دونه آلهةَ شَتَّى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي من حَجَرٍ مَنْحُوتٍ وخَشَبٍ مَنْجُورٍ ^(٥) ، ثم قرأ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

(١) وجع : مريض . (٢) يقال : دَفَّتْ دافّةٌ ، إذا أتى قوم من أهل البادية وأفحموا .

(٣) أن يختزلونا : يريدون أن يقتطعونا ويذهبوا بنا منفردين . (٤) زويت : جمعت ،

والمراد أعددت . (٥) النجر : النحت .

ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى ﴿١﴾ ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمواصاة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم ، وتكذيبهم إياهم ، وكلّ الناس مخالف لهم زارٍ ^(١) عليهم ، فلم يستوحشوا ^(٢) لقلة عددهم ، وشَنَف ^(٣) الناس لهم ، وإجماع قومهم عليها ، فهم أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته ، وأحقّ الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا يَنَازِعُهُمْ في ذلك إلا ظالم . وأنتم يا معشر الأنصار ، مَنْ لَا يَنْكَرُ فَضْلَهُمْ في الدِّينِ وَلَا سَابِقَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ في الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرتَه ، وفيكم جَلَّةُ أَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ ؛ فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، ففتحنا الأمراء وأنتم الوزراء ، لَا تُفْتَتُونَ ^(٤) بمشورة ، وَلَا تُقْضَى دُونَكُمْ الْأُمُورُ .

ثم قام الحُبَاب بن المنذر ، فقال :

يا معشر الأنصار ؛ أَمَلِكُوا عَلَيْكُمْ أُمُورَكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ فِي فَيْئِكُمْ وَفِي ظِلِّكُمْ ، وَلَنْ يَجْتَرِيَ مُجْتَرِيٌّ عَلَى خِلَافِكُمْ ، وَلَنْ يَصْدُرَ النَّاسُ إِلَّا عَنْ رَأْيِكُمْ ، أَنْتُمْ أَهْلُ الْعِزِّ وَالثَّرْوَةِ ، وَأُولُو الْعَدَدِ وَالْمَنْعَةِ وَالتَّجَرِبَةِ ، وَذَوُو الْبَأْسِ وَالتَّجَدَةِ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَى مَا تَصْنَعُونَ ، وَلَا تَخْتَلَفُوا فَيُفْسِدَ عَلَيْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَيَنْتَقِضَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ ؛ فَإِنَّ أَبِي هَؤُلَاءِ إِلَّا مَا سَمِعْتُمْ فَنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ .

فقال عمر : هيهات ! لَا يَجْتَمِعُ اثْنَانِ فِي قَرْنٍ ^(٥) ، وَاللَّهِ لَا تَرْضَى لَكُمْ الْعَرَبُ أَنْ يُؤْمَرُوا ، وَنَبِيَّهَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ لَا تَمْتَنِعُ أَنْ تُؤَلَّى أَمْرُهَا مَنْ كَانَتْ النُّبُوَّةُ فِيهِمْ ، وَوَلَّى أُمُورَهُمْ مِنْهُمْ ، وَلَنَا بِذَلِكَ عَلَى مَنْ أَبِي الْحِجَّةُ الْوَاضِحَةُ الظَّاهِرَةُ

(١) زار : عائب . (٢) استوحش : وجد الوحشة . (٣) شنف : كره وبغض .

(٤) هذا الأمر لا يفتات : لا يفتت . وكل من أحدث دونك شيئاً فقد فأنك به وافئات عليك

فيه . (٥) قرن : حبل .

والسلطان البين ، مَنْ ذَا يُنَازِعُنَا سلطانَ محمدٍ وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل ، أو مُتَجَانِفٌ ^(١) لِإِثْمٍ ، أو متورط في هلكة !
فقام الحُباب بن المنذر ، فقال :

يامعشر الأنصار ؛ أملكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ،
فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا ما سألتهم فأجلوهم عن هذه البلاد ،
وتولوا عليهم هذه الأمور ؛ فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دَانَ
لهذا الدين مَنْ دَانَ ، ممن لم يكن يدين . أنا جُذَيْلُهَا المحَكُّ ^(٢) ، وعُذَيْقُهَا
المرَجَّب ^(٣) ! أما والله لئن شِئْتُمْ لَنُعِيدَنَّهَا جَدَّةً ^(٤) .

فقال عمر : إِذَنْ يَقْتُلَكَ اللهُ ، قال : بل إِيَّاكَ يَقْتُل ! فقال أبو عبيدة : يامعشر
الأنصار ؛ إنكم أول مَنْ نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير .

ثم قام بشير بن سعد فقال : يامعشر الأنصار ؛ إنا والله لئن كنّا أولى فضيلة في
جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ما أردنا إلا رِضَا رَبِّنَا ، وطاعة نبيّنا ، والكَدْح
لأنفسنا ؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا ،
فإن الله وليُّ المِثَّةِ ^(٥) علينا بذلك . ألا إنَّ محمداً - صلى الله عليه وسلم - من قريش ،
وقومُه أحقُّ به وأولى ، وإيَّمُ اللهُ لا يراني اللهُ أنأزِيعهم هذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله
ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأَيُّهُمَا شِئْتُمْ فبأيُّعُوا ، فقالا : لا ،
والله لا نتولّى هذا الأمرَ عليك ، فإنك أفضلُ المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ،

(١) متجانف : مائل . (٢) الجذيل : تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة ، وهو عود ينصب
للإبل الجربي لتحكك به . والمحكك : الذي تتحكك به . (٣) العذيق : تصغير العذق ، وهو
النخلة . والمرجب : الذي جعل له رجة ، وهي دعامة تبني حولها من الحجارة ، والمراد أنه رجل
يستشفى برأيه وعقله : (٤) الجذعة : الشابة الفتية ؛ يريد الخروب والغارات . (٥) المنة : النعمة .

وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَالصَّلَاةُ أَفْضَلُ دِينِ الْمُسْلِمِينَ ، فَمَنْ ذَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَكَ أَوْ يَتَوَلَّى هَذَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ ! ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايَعَكَ .

فلما ذهبوا لِبَايَعَاهُ سَبَقَهُمَا إِلَيْهِ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ فَبَايَعَهُ ، فَنَادَاهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ :
بَابَشِيرِ ؛ عَقَّقْتَ^(١) عَقَاقِي ! مَا أَحْوجُكَ إِلَى مَا صَنَعْتَ ؟ أَنْفِيسْتَ^(٢) عَلَى ابْنِ عَمِّكَ
الْإِمَارَةَ ؟ فَقَالَ : لَا ، وَاللَّهِ ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَنْزِعَ قَوْمًا حَقًّا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ .

ولما رَأَتْ الْأَوْسُ مَا صَنَعَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ ، وَمَا تَدَعَوْا إِلَيْهِ قَرِيشَ ، وَمَا تَطَلَّبَ
الْخَزْرَجُ مِنْ تَأْمِيرِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ — قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ — وَفِيهِمْ أُسَيْدُ بْنُ حُصَيْرٍ ، وَكَانَ
أَحَدَ النَّقَبَاءِ : وَاللَّهِ لَأَنْ وَلِيَّتْهَا الْخَزْرَجُ عَلَيْكُمْ مَرَّةً لَأَزَالَتْ لَهُمْ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ الْفَضِيلَةَ ،
وَلَا جَعَلُوا لَكُمْ مَعَهُمْ نَصِيبًا أَبَدًا . فَقَوْمُوا فَبَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَبَايَعُوهُ .

فَانْكَسَرَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَعَلَى الْخَزْرَجِ مَا كَانُوا أَجْمَعُوا لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ ،
وَأَقْبَلَتْ أَسْلَمُ بِجَمَاعَتِهَا حَتَّى ضَاقَتْ بِهِمُ السَّكَّكَ^(٣) : وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ لِأَبِي بَكْرٍ ،
وَأُخِمِدَتْ تِلْكَ الْفِتْنَةُ .

(١) عَقَّقْتَ : مِنَ الْعُقُوقِ ، وَهُوَ ضِدُّ الْبَرِّ . وَعَقَاقِي : اسْمُ الْعُقُوقِ .

(٢) أَنْفِيسْتَ عَلَيْهِ الشَّيْءَ : حَسَدَهُ ، وَلَمْ يَرَهُ أَهْلًا لَهُ . (٣) كَانَتْ عَمْرُ يَقُولُ : مَا هُوَ إِلَّا أَنْ

رَأَيْتَ أَسْلَمَ فَأَيَقَنْتَ بِالنَّصْرِ .

١٦ - يوم ذى القصة *

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعت أسد و غطفان و طيبي^١ على طليحة ابن خويلد الأسدي^(١) ، إلا ما كان من بعض خواصهم ، واجتمعت أسد بسمرية^(٢) و غطفان بجنوب طيبة^(٣) ، و طيبي^٢ على حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن سعد و من يليهم من مرة و عبس بالأبرق من الربدة^(٤) ، و تأشب^(٥) إليهم ناس من كنفانة ، فلم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت فرقة منهم بأبرق الربدة^(٥) ، و سارت الأخرى إلى ذى القصة ، و أمدهم طليحة بجيال بن سلمة بن خويلد^(٦) و جملة أميراً عليهم .

و هناك أرسلوا وفدًا منهم إلى المدينة ، و نزلوا على و جوه الناس ، ثم تحمّلوا^(٧) بهم على أبي بكر ، على أن يُقيموا الصلاة ، و على ألا يؤتوا الزكاة . فقال أبو بكر : و الله لو منعوني عقلاً^(٨) لجاهدتهم عليه .

* لأبي بكر على عبس و ذبيان . كان في سنة ١١ . و ذو القصة : موضع بينه و بين المدينة أربعة و عشرون ميلاً في طريق نجد ، و بهذا اليوم عز الإسلام و ذل المشركون ؛ و كان نصر المسلمين يشبه نصرهم يوم بدر . الطبري ٣-٢٢٢ ، ابن خلدون ٢-٦٥ .

(١) طليحة بن خويلد الأسدي : كان واحداً من وفد بني تميم الذين قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أسلم هو و أخوه سلمة ، ثم ادعى النبوة ، حتى كانت هزيمته على يد خالد بن الوليد ، فهرب إلى الشام ، ثم أحرم بالحج بعد أن عاد للإسلام ، و شهد القادسية و نهاوند مع المسلمين ، ثم استشهد فيها سنة ٢١ هـ . (٢) سمرية : موضع في طريق مكة . (٣) من أسماء المدينة .

(٤) التأشب : التجمع من هنا و هنا . (٥) أبرق الربدة : موضع من منازل ذبيان ، قرب

المدينة . (٦) هو ابن أخي طليحة بن خويلد . (٧) تحمّلوا بهم : ذهبوا بهم . (٨) العقال : صدقة عام يقال : أخذ منهم عقال هذا العام ، إذا أخذت منهم صدقته . و قال بعضهم : أراد أبو بكر : بالعقال لحبل الذي كان يعقل به الفريضة التي كانت تؤخذ في الصدقة .

فرجع الوفد إلى أقوامهم بذي القصة ، وأخبروهم برأى أبي بكر وقالته فيمن
يمنع الزكاة ، وحدّثوهم عن قلة المسلمين بالمدينة ، وأطمعوهم فيهم .

أما أبو بكر فإنه توجّس شرّاً منهم فأعدّ العدة لعدّتهم ، وجعل على أنقاب^(١)
المدينة نقرأ ، منهم على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ،
وعبد الله بن مسعود . وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد . وقال لهم : إنّ القوم قد
رأوا منكم قلة ، وإنّكم لا تدرّون : أليلاً توتّون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على
بريد^(٢) ، وقد كانوا يأملون أن نقبل منهم ونؤدعهم ، وقد أبيتنا عليهم ، ونبتدنا
إليهم عهدهم ، فاستعدّوا وأعدّوا .

ولم يكن إلا ثلاث ليال من عود الوفد حتى طرق القوم المدينة مع الليل
وحلّفوا بمضهم بذي حساً^(٣) ليكونوا لهم رداء^(٤) ، وكان الذين على الأنقاب
قد بثّوا عيوتهم حتى لا يؤخذوا على غرة ، فلما عرف هؤلاء خبر القوم نبهوا من
على الأنقاب ، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر . فأرسل إليهم أبو بكر : أن الزموا
أما كنّكم . ففعلوا .

وخرج في أهل المسجد على التواضح^(٥) ، فتتقعر المدو ، فاتبعهم المسلمون على
إبلهم ، حتى بلغوا ذا حساً فخرج عليهم الرّداء بأنحاء^(٦) قد تفخّوها ، وجعلوا فيها
الحبال ، ثم دهموها^(٧) بأرجلهم في وجوه الإبل ، فنفرت إبل المسلمين وهُم عليها
ولا تنفّر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء ، فعاجت^(٨) بهم ، ما يملكونها .

(١) الأنقاب : جم نقب ، وهو الطريق . (٢) البريد : فرسخان ، أو اثنا عشر ميلاً ،
أو ما بين المنزلين . القاموس . (٣) ذو حساً : موضع بنجد ، من ديار عيس وغلطان . (٤) الرداء :
العون والمدد . (٥) التواضح من الإبل : ما يستقى عليها ، واحداً ناضح . (٦) الأنحاء :
جمع نحى (بكسر النون وسكون الحاء) وهو الرق . (٧) دهموها : دحرجوها .
(٨) عاجت : رجعت .

حتى دخلت بهم المدينة ؛ من غير أن يُصابَ أحدٌ من المسلمين أو يُصرَعَ ، ولكن هؤلاء المرتدّة ظنوا الوهن بالمسلمين ؛ حتى قال شاعرهم :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لَعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ !
أَيُورِثُنَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بِمَدَنِهِ ! وتلك لعمري الله قاصمةُ الظُّمُرِ !
فَهَلَّا رَدَدْتُمْ وَفَدْنَا بِزَمَانِهِ وهلا خَشِيتُمْ حِسَّ رَاغِيَةِ الْبَكْرِ !
وإنَّ الَّتِي سَأَلُوكُمُ فَنَفَعْتُمْ لكَلِمَتُهُ أَوْ أَحَلَّى إِلَى مِنَ التَّمْرِ
ثم أرسلوا لأقوامهم بالقصة بالخبر ، فقدموا عليهم .

أما أبو بكر ، فإنه بات ليلته يهَيَّأ ، فعَبَّيَ الناس ، ثم خرج وعلى ميمنته النمان ابن مُقَرَّن ، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن ، وعلى الساقة^(١) سُؤَيْدُ بْنُ مُقَرَّن ، فاطلع الفجرُ إلّا وهم والعدوُّ في صعيد واحد ، فاقتتلوا ، وما ذرَّ^(٢) قرْنُ الشمس حتى وَلَّى العدوُّ الأدبار ، وقُتِلَ جِبَالُ بْنُ سَلَمَةَ . وتبرمهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة ، فتركوها وولّوا منهزمين ، ورجع أبو بكر إلى المدينة ، فكان أوَّلَ الفتح وفاتحةَ الجهاد مع المرتدين .

ولم يكد أبو بكر يذهب إلى المدينة حتى وثب المرتدون من عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين ، فقتلوه . ولَمَّا علم أبو بكر بِفَعْلَتِهِمْ حلف لِيَقْتُلَنَّ فِي كُلِّ قَبِيلَةٍ مِمَّنْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَزِيَادَةً .

وكان لوقعة ذى القصة أثرها ، إذ هرع بعدها فريق من المسلمين يُؤدُّون الزكاة وطرقوا المدينة بالنصداقات ، وكان فيمن قدم صفوان — وهو ابن أمية — والزُّبْرُقَانُ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي تَمِيمٍ ، وعدى بن حاتم عن طي .

(١) ساقاة الجيش : مؤخره . (٢) ذر . ظهر وبرز .

١٧ - يوم بُزَاخَة*

لما قدم أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ^(١) من غزوته استخلفه أبو بكر على المدينة ، وقال له ولجندته : أَرِيحُوا^(٢) ، وَأَرِيحُوا ظَهْرَكُمْ^(٣) . ثم خرج إلى ذِي الْقَصَّة ؛ فقال له المسلمون : نَشُدُّكَ اللَّهَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ تُعْرِضَ نَفْسَكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تُصَبَّ لم يكن للناسِ نِظَامٌ ، وَمُقَامُكَ أَشَدُّ عَلَى الْعَدُوِّ ، فَاثْبُتْ رَجُلًا ، فَإِنْ أُصِيبَ أَمَرْتُ آخِرَ . فقال : لا والله لا أفعل ، وَلَا أُاسِيئُكُمْ بِنَفْسِي . ومضى حتى انتهى إلى الرَبَذَةِ^(٤) ، فلقى بَنِي عَبْسٍ وَذُبْيَانَ وَجَمَاعَةً مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ ، فَقَاتَلَهُمْ وَهَزَمَهُمْ ، وَأَجْلَاهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

ولكن هؤلاء المنهزمين لم يثوبوا إلى رُسُدِهِمْ ، وَلَمْ يَرْجِعُوا لِإِيْمَانِهِمْ ؛ بَلْ انْحَاذُوا إِلَى طُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الْمُتَنَبِّئِ فِي بَنِي أَسَدَ ، وَقَدْ اعْتَصَمَ بِبُزَاخَةِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ . ولما اطمأنَّ أَبُو بَكْرٍ إِلَى أَنَّ أُسَامَةَ وَجُنْدَهُ اسْتَرَاخُوا وَأَرَاخُوا ظَهْرَهُمْ خَرَجَ بِهِمْ إِلَى ذِي الْقَصَّة ، وَوَزَعَ الْجُنُودَ ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ لُؤَاءٍ أَمِيرًا .

فمقد لخالد بن الوليد اللواء الأول ، وأمره بطليحة بن خويلد ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبُطاح^(٥) ، إن أقام له . وعقد لمكرمة بن أبي جهل ، وأمره

* لخالد بن الوليد على أسد وغلطان . كان في سنة ١١ وبزاخة : ماء ابني أسد .

الطبري : ٢٣٥/٣ . ابن الأثير ١٦٦/٣ . ابن خلدون ٧٠/٢ . معجم البلدان ١٦١/٢ .

(١) كان ذلك بعد شهرين من خروجه لغزو الروم ؛ حيث بلغ البلقاء ، وبث خيوله في قبائل

قضاة ، وعاد ظافراً . (٢) يقال : أراح الرجل : إذا استراح ورجعت إليه نفسه .

(٣) الظهر : الدابة . (٤) الربذة : موضع قرب المدينة .

(٥) البطاح ، بالفهم : ماء في ديار بني أسد .

بِئْسَ لِمَةٍ . بِالْيَمَامَةِ . وللمهاجر بن أبي أمية ، وأمره بقتال العنسي بصنعاء اليمن ، وأن يمضى إلى كندة بحضر موت ، ولخالد بن سعيد وجهه إلى مشارف الشام ، ولعمرو ابن العاص وجهه إلى قضاة ؛ ولخديفة بن محسن الغلفاني ؛ وأمره بالتوجه إلى أهل دباب بعمان . ولعمرفجة بن هرثمة وجهه إلى أهل مَهَرَة . ولسويد بن مقرن وأمره بتهامة اليمن ، وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين . وبعث شرحبيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل ، وقال له : إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاة وأنت على خيالك . وعقد لطرفة بن حاجر وجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن .

ثم كتب لكل منهم عهداً ؛ هذا نصه : هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأفان حين بعثه فيمن بعثه ، لقتال من رجع عن الإسلام ؛ وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله ، سره وعلايته . وأمره بالجد في أمر الله ، وبجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يُعذّر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن^(١) غارته عليهم حتى يُقرّوا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا يُنظرهم^(٢) ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ؛ فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل ، وأقرّ له قبل ذلك منه ، وأعانه عليه بالمعروف ؛ وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر^(٣) به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه^(٤) ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه ، وأقرّ قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله قتل

(١) شن الغارة : صبا من كل وجه . (٢) لا ينظرهم : لا يؤخرهم .

(٤) استسر : استتر . (٤) المراغم : المهاجر (اسم مكان) .

منهم كلٌّ قَتَلَهُ بالسَّلاح والنَّيرَان ، ثم قَسَمَ ما أَفَاءَ اللهُ عليه . إِلَّا الْخَمْسَ فَإِنَّهُ يُبَلِّغُنَاهُ ؛ وَأَنْ يَمْنَحَ أَصْحَابَهُ الْعَجَلَةَ وَالْفَسَادَ ، وَأَلَّا يُدْخَلَ فِيهِمْ حَشُوءًا حَتَّى يَعْرِفَهُمْ وَيَعْلَمَ مَا هُمْ ، لئَلَّا يَكُونُوا عِيُونًا ، وَلئَلَّا يُؤْتَى الْمَسَاوِينُ مِنْ قِبَلِهِمْ ، وَأَنْ يَقْتَصِدَ بِالْمُسْلِمِينَ وَيَرْفُقَ بِهِمْ فِي السَّيْرِ وَالْمَنْزِلِ ، وَيَتَفَقَّدَهُمْ وَلَا يَعُجِّلَ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَيَسْتَوْصِيَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي حَسَنِ الصُّحَّةِ وَلِيْنِ الْقَوْلِ .

* * *

ثم كتب للمرتدين كتاباً عاماً جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم .

من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا مِنْ عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ ، أَقَامَ عَلَى إِسْلَامِهِ أَوْ رَجَعَ عَنْهُ .

سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وَلَمْ يَرْجِعْ بَعْدَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، نُقِرُّ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَنُكْفَرُ مِنْ أَبِي ، وَنُجَاهِدُهُ .

أما بعد ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى خَلْقِهِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحَقِّقَ الْحَقَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ، فَهَدَى اللَّهُ بِالْحَقِّ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ ، وَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِذْنِهِ مَنْ أَذْبَرَ عَنْهُ ، حَتَّى صَارَ إِلَى الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا .

وَقَدْ تَوَقَّى اللَّهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ نَفَّذَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَنَصَحَ لِأَمْتِهِ ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ قَدْ بَيَّنَّ لَهُ ذَلِكَ ، وَلِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ

أَلْخُلِدَ أَفْإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿١﴾ . وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفْإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

فمن كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد ، حَتَّى قِيَوْمٍ ^(١) لا يموت ، لا تأخذه سنة ^(٢) ولا نوم ، حافظ لأمره ، مُنْتَقِمٌ من عدوه يَجْزِيهِ . وإني أوصيكم بتقوى الله وحفظكم ونصييكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهتداه ، وأن تعصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهتدِ الله ضالٌّ ، وكل من لم يُعافِه مُبْتَلًى ، وكل من لم يُعِنِه مَخْذُولٌ ، فمن هداه الله كان مهتدياً ، ومن أضله كان ضالاً ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ ، ولم يُقْبَل منه في الدنيا عمل ، حتى يُقَرَّ به ، ولم يُقْبَل منه في الآخرة صَرَفٌ ولا عَدْلٌ ^(٣) .

وقد بلغني رجوع مَنْ رَجَعَ مِنْكُمْ عن دينه ، بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله ، وجهالة بأمره ، وإجابة للشيطان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ ﴾ ؛ وإني بعثت إليكم فلاناً في جيشٍ من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله ، حتى يدعوه إلى دَاْعِيَةِ اللَّهِ ؛ فمن استجاب له وأقرَّ ، وكفَّ وعمل صالحاً قَبِلَ منه ، وأعانهُ عليه ، ومن أبى أَمَرْتُ

(١) قِيَوْمٌ : الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظه . (٢) السنة : فتور يتقدم النوم .

(٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

أَنْ يَفَارِقَهُ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ لَا يُبْقَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ قَدَرٌ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يُحَرِّقَهُم بِالنَّارِ ، وَيَقْتُلَهُمْ كُلَّ قِتْلَةٍ ، وَأَنْ يَسْبِيَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارَى ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِسْلَامَ ، فَمَنْ أَتْبَعَهُ فَمَوْخِرٌ لَهُ ، وَمَنْ تَرَكَهُ فَلَنْ يُعْجِزَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَمَرْتُ رَسُولِي أَنْ يَقْرَأَ كِتَابِي فِي كُلِّ مَجْمَعٍ لَكُمْ ، وَالِدَاعِيَةِ الْأَذَانِ ، فَإِنْ أَذَّنَ الْمُسْلِمُونَ فَأَذَّنُوا كَفُّوا عَنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يُؤَذِّنُوا عَاجِلُوهُمْ ، وَإِنْ أَذَّنُوا سَأَلُوهُمْ مَا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا عَاجِلُوهُمْ ، وَإِنْ أَقْرَبُوا قَبِلَ مِنْهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا يَنْبَغِي لَهُمْ .

ثم تقدمت الرسل بالكتب أمام الجنود ، وخرجت الأمراء ومعهم اليهود .

وكان طليحة الأسدي هذا قد ارتدَّ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وادَّعى النبوة ، فوجه النبي صلى الله عليه وسلم ضَرَّارَ بْنَ الْأَزْوََرِ^(١) إِلَى عُمَاةٍ عَلَى بَنِي أَسَدٍ يَأْمُرُهُم بِالْقِيَامِ عَلَى كُلِّ مُرْتَدٍّ ، فَخَرَجَ هَؤُلَاءُ الْمُسْلِمُونَ مَعَ ضَرَّارٍ ، وَنَزَلُوا بِوَارِدَاتِ^(٢) ، وَنَزَلَ طَلِيحَةُ وَمَنْ مَعَهُ بِسَمِيرَاءِ^(٣) ، فَمَا زَالَ الْمُسْلِمُونَ فِي نَمَاءٍ ، وَالْمُشْرِكُونَ فِي نُقْصَانٍ ، وَضَعُفُ أَمْرِ طَلِيحَةَ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَخْذُهُ ، فَضْرَبَهُ ضَرَّارٌ بِالسَّيْفِ فَلَمْ يَصْنَعْ فِيهِ شَيْئًا ، فَظَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ السَّلَاحَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ ، وَكَثُرَ جَمْعُهُ .

وَمَاتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَكَانَ طَلِيحَةُ يَقُولُ : إِنْ جَبْرِيلُ يَأْتِينِي ، وَأَخْذُ يَسْجَعُ بِالْكَاذِبِ ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمْ بِتَرْكِ السَّجُودِ فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ : إِنْ اللَّهَ لَا يَصْنَعُ بِتَعْفِيرِ وَجُوهِكُمْ وَتَقْبِيحِ أَدْبَارِكُمْ شَيْئًا ، اذْكُرُوا اللَّهَ وَاعْبُدُوهُ قِيَامًا . فَتَبِعَهُ مِنَ الْعَرَبِ كَثِيرٌ ، بَعْضُهُمْ عَنْ غَفْلَةٍ ، وَبَعْضُهُمْ عَنْ عَصَبِيَّةٍ ،

(١) كَانَتْ لَهُ صَحْبَةٌ ، وَاسْتَشْهَدَ فِيهَا بَعْدَ الْبَيْمَاتَةِ .

(٢) وَارِدَاتُ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مَكَّةَ . (٣) سَمِيرَاءُ : مَوْضِعٌ بِطَرِيقِ مَكَّةَ .

ولذلك كثُرُ أتباعه من أسد ، وأحلافهم من طيء و غطفان ، وقام عُيَيْنَةُ بن
حِصْنِ الْغَزَا رِىَّ يقول : لَأَنْ تَتَّبِعَ نَبِيًّا مِنْ الْحَلِيفَيْنِ : أسد و طيء ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ
أَنْ تَتَّبِعَ نَبِيًّا مِنْ قُرَيْشٍ ^(١) !

فلما كان يوم القَصَّة ، وهُزِمَت غطفان ، وكانوا قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ غَدْرًا ، خافوا على
أنفسهم ، فذهبوا إلى الْبُرَاخَةِ ، حيث انضمُّوا مع إخوانهم إلى طُلَيْحَةَ .
فلما أَحَسَّ طُلَيْحَةُ بِمَقْدَمِ خَالِدٍ أَرْسَلَ إِلَى جَسَدِيلَةَ وَالْعَوْثِ مِنْ طِيٍّ بِأَمْرِهِمْ
بِالْحِقَاقِ بِهِ ، فَنَجَّيْلَ إِلَيْهِ بِمَعْضُمٍ ، وَأَمَرُوا قَوْمَهُمْ بِاللِّحَاقِ بِهِمْ .

وكان أبو بكر قد بعث عَدِيَّ بنَ حَاتِمِ الطَّائِيَّ قَبْلَ مَسِيرِ خَالِدٍ إِلَى قَوْمِهِ ، وَقَالَ لَهُ :
أَذْرِكْهُمْ وَخَذْهُمْ عَنْ طُلَيْحَةَ . فَذَهَبَ إِلَى الْعَوْثِ وَأَخَذَ يَفْتِلُهُمْ فِي الذَّرْوَةِ
وَالْغَارِبِ ^(٢) ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَمَاعَةِ ، فَقَالُوا : لَا نَبَايِعُ أَبَا الْفَصِيلِ ^(٣) أَبَدًا ، فَقَالَ : لَقَدْ
أَنَا كَمِ قَوْمٌ لَيَّيْحُنَّ حَرِيمَكُمْ ، وَلَتَكُنُنَّه بِالْفَحْلِ الْأَكْبَرِ ، فَشَأْنَكُمْ بِهِ . فَقَالُوا
لَهُ : فَاسْتَقْبِلِ الْجَيْشَ فَهِنَهُ عَنَّا حَتَّى نَسْتَخْرِجَ مَنْ لَحِقَ بِالْبُرَاخَةِ مِنَّا ، فَإِنَّا إِن
خَالَفْنَا طُلَيْحَةَ وَهَمْنَا فِي يَدَيْهِ قَتْلَهُمْ أَوْ أَرَاتَهُمْ .

فاستقبل عَدِيَّ خَالِدًا وَهُوَ بِالسُّنْحِ ^(٤) ، فَقَالَ : يَا خَالِدُ ؛ أُمْسِكْ عَنِّي ثَلَاثًا يَجْتَمِعُ لَكَ
خَمْسَمِائَةِ مُقَاتِلٍ تَضْرِبُ بِهِمْ عَدُوَّكَ ؛ وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُعْجِلَهُمْ إِلَى النَّارِ ، وَتَتَشَاغَلَ
بِهِمْ . فَفَعَلَ .

(١) روى الطبري أنه كان بين أسد و غطفان و طيء حلف في الجاهلية ، فلما كان مبعث النبي
صلى الله عليه وسلم اجتمعت غطفان و أسد على طيء فأزاحوها عن دارها في الجاهلية : غوثها
بوجديلتها ، ثم عادوا بعد ذلك إلى حلفهم .

(٢) يقتلهم في الذروة والغارب : أى يخذلهم . (٣) يريدون أبا بكر .

(٤) السنح : موضع قرب المدينة ، كان به منزل أبي بكر .

فعاد عديّ إليهم ، وقد أرسلوا إخوانهم إليهم ، فأتوهم من بُزَاخَة كالدّد لهم ،
وعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد .

وأعدّ خالد نفسه ليرتحلّ إلى جَدِيَّة بِالْأَنْسَر^(١) . فقال له عدي : إن طيئاً
كالطائر ، وإن جَدِيَّة أحـدُ جَنَاحِي طييء ؛ فَأَجَلْنِي أَيَّاماً ، لعلّ الله أن ينتقذ
جَدِيَّة كما انتقذ الغوث ، ففعل . فأتاهم عديّ ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، ودَعَوْا قَوْمَهُمْ
من البُزَاخَة ، وجاء عديّ إلى خالد بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين ألفُ رَاكِب . فكان
عديّ خيرَ مولود وُلِدَ في أرض طييء ، وأعظمه عليهم بركة .

وسار خالد بالناس ، حتى إذا دنا من القوم بعث عُكَّاشَة بن مِحْصَن ، وثابت بن
أَقْرَم طليعة ، فلقياً جبالاً أخا طَلِيحَة ، فقتلاه . فلما بلغ مَقْتَلَهُ طَلِيحَة خرج مع أخيه
الآخر يَنْظُرَان ويسألان ، فَأَمَّا سَلَمَة فلم يعمَل ثابِتاً حين رآه أن قتله ، وثبت عُكَّاشَة
لَطَلِيحَة . فلما رأى طليحة أن أخاه فرغ من ثابت ، استعان به على عُكَّاشَة
فقتلاه ثم رجعا .

وأقبل خالد بالناس حتى مرّوا بثابت بن أقرم قتيلاً ، فلم يَفِطْنُوا له حتى وطئته
الطوى بأخفافها ، فكبر ذلك على المسلمين ، ثم نظروا فإذا هم بِعُكَّاشَة بن مِحْصَن
صريعاً ، فجزع لذلك المسلمون وقالوا : سيّدان من سادات المسلمين ، وفارسان من
فُرْسَانِهِمْ .

ورأى خالد ما بأصحابه من الجزع ، فَأَثَرَ أَلَا يَواجَه بهم عدوّهم حتى تطمئنّ
نفوسهم ، فسأل عديّ : ما الرأي ؟ فقال : الرأى أن تسير إلى فتقيم عندى أياماً في
طييء ، حتى أبعث إلى كلّ قبائلها ، فأجمع لك منهم أكثر مما معك ، ثم أصحبك إلى

(١) الأنسر : ماء لطى قرب الجليلين .

عدوك . ففعل وانصرف معه حتى أقام بطيئاً أياماً ، ثم خرج إلى قتال طليحة وقومه من بني أسد وأحلافه من غطفان .

قال له رجال من طيئ : نحن نكفيمك غطفان ، فإن أسداً من أحلافنا ، فقال خالد : والله ما غطفان بأوهم الشوكتين ، اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتن ، فقال عدى : لو ترك هذا الدين أسرني ، الأذى فالأذى من قومي لجاهدتهم عليه ، فأنا أمتنع من جهاد بني أسد ليحلفهم ! لا ، لعمرك الله ، لا أفعل . فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد ، لا تخالف رأي أصحابك ، امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط .

واقنتل الناس ، وكان عيينة بن حصن هو الذي يقود المعركة في جيش طليحة ، في سبعمائة من بني فزارة ، على حين أن طليحة يقيم متلففاً في كساء له بفناء بيت من شعر ، يتنبأ لهم والناس يقتتلون ، فلما هزت عيينة الحرب ، وضرسه القتال كرت على طليحة فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا ، فرجع فقاتل حتى ضرسه القتال ، وهزته الحرب ، ثم كرت عليه فقال : لا أبالك ، أما جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا والله ، قال عيينة : حتى متى قد والله يبلغ منا ! ثم رجع إلى وطيس الحرب فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طليحة فزعاً يكرر عليه : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فإذا قال لك ؟ قال : إن لك رحي كرخاء ، وحديثاً لا تنسأ . فقال عيينة : أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنسأ ! انصرفوا يا بني فزارة ، فهذا والله كذاب ! فانصرفوا وانهزم الناس وغشوا طليحة يقولون : ماذا تأمرنا ؟ فوثب على فرسه ، وحمل امرأته النوار ، وقال : من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت ، وينجو بأهله فليفعل :

ثم لحق بالشام^(١) بعد أن أرفضَ سَجْعُهُ ؛ وأقام في بني كلب هناك ، ثم عاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التي بايعتهُ قد عادت إلى الدين القيم ، وخرج بعد ذلك مُعْتَمِراً في خلافة أبي بكر ، فرَّ بِجَنَبَاتِ المدينة ، فذكر بعضُ المسلمين لأبي بكر مكانه ، فقال : ما أصْنَعُ به ! خَلُّوا عنه ، فقد هداه الله للإسلام .

(١) روى ياقوت : أن عيينة بن حصن أسر وقدم به على المدينة ، فخن أبو بكر دمه ، وخلي سبيله . وقال بعضهم : إنه دخل جباً فاغتسل ، وخرج فركب فرسه وأهل بيمرة ، ومضى إلى مكة ، وأتى مسلماً .

٨١ - يوم البطح *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون تميم أمراء ، فرّقهم فيهم ؛ فكان الزبير بن بدر على الرباب وعوف والأبناء ، وقيس بن عاصم على مُقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ، على بن عمرو ، ووكيعة بن مالك ومالك بن النويرة ، على بنى حنظلة^(١) .

فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم ووُلِّي أبو بكر اختلف هؤلاء : أيوّدون الزكاة لأبي بكر أم يُقسّمونها في الناس ؟ وكان فيمن أدى الزكاة صفوان بن صفوان ، وفيمن منعهما مالك بن نويرة^(٢) في قومه بنى يربوع ؛ وهم بطن في بنى حنظلة من تميم .

وبينما القوم في اختلافهم فجأّتهم سجاح بنت الحارث ؛ قد أقبلت من الجزيرة ، وكانت سجاح تميمية من بنى يربوع ، وأخوالها من تغلب بالمراق ، وقد تزوّجت فيهم ، وأقامت بينهم ، ثم تنصّرت فيمن تنصّر منهم ؛ وكانت تدعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال ؛ فلما تراءى إليها وفاة محمد عليه السلام ادّعت النبوة ، وقدمت إلى قومها من تميم ، تريد أن تغزو المدينة ، وأن تقاتل أبا بكر .

* لخالد بن الوليد على بنى تميم . كان سنة ١١ . والبطح : ماء في ديار بنى أسد .
الطبرى ٢٤١/٣ . ابن الأثير ١٧٣/٣ . ابن خلدون ٧٣/٢ . معجم البلدان ٢١٥/٢ :
تاريخ ابن كثير ٣٢٢/٦ . الأغاني ٦٣/٤ . الإصابة ٤٠/٦ .

(١) الرباب وعوف والأبناء ومقاعس والبطون وبنو عمرو وحنظلة : بطون في تميم .
(٢) مالك بن نويرة : كان رجلاً سورياً نبيلاً يردف الملوك ، وكان فارساً شجاعاً شريفاً مطاعاً في قومه من بنى يربوع ، وكان فيه خيلاء وتقدم ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم ولاه الصدقات على بنى يربوع ، ثم كان ما كان من رده ومنعه الزكاة حتى قتله ضرار بن الأزور ، وقال فيه أخوه متمم المرائي المشهورة .

فلما رأى بنو تميم - وهم على اختلافهم - عَزَمَها على قِتَالِ أَبِي بَكْرٍ ، ازدادوا بين الردّة والإسلام اضطراباً؛ ووقفت سَجَّاحُ في جُنْدِها على حدود بني يَرْبُوعَ ، وأرسلتْ إلى زَعِيمِهِم مالك بن نُورَةَ تَطْلُبُ المُوَادَّةَ ، وأنبأتهُ بِعَزْمِها على غزو المدينة ؛ فأجابها مالكٌ إلى المُوَادَّةِ . ولكنه صَرَفَها عن غَزْوَةِ المدينة ، وحرَّضَها على قتالِ مَنْ اختلفَ معه من أحياءِ بني تميم ؛ واقتنمت سَجَّاحُ برأيه وقالت : نعم ؛ فشأنك بمن رأيت ؛ فإني إنما أنا امرأةٌ مِنْ بني يَرْبُوعَ ، وإن كان مُلْكُك فالملِكُ مُلْكُكُمْ . ثم أرسلت إلى بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى المُوَادَّةِ ، فأبوا ، ثم أرسلت إلى وَكيع بن مالك ، فأجاب إلى ما أجب به مالك بن نُورَةَ .

واجتمع مالك ووكيع وسَجَّاحُ ، فسَجَّعتْ لهم سَجَّاحُ وقالت : أعدُّوا الركبَ ، واستعدُّوا للنَّهَابِ ، ثم أغَيروا على الرِّبَابِ ، فليس دونهم حجاب . فاستعمرت نارُ الحرب بين بني تميم ، واقتتل القوم ، ومات من الجانبين خَلْقٌ كثير . ثم إنهم تصالحوا وعاد السلام إلى بني تميم . ولما رأت أن أمرَها لم يَتَمَّ في بني تميم ، قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم : عليكم باليَمَامَةِ ودُفُّوا دَفِيفَ^(١) الحِمامَةِ ، فإنها غزوة صَرَّامة ، لا تلحقكم فيها ملامَةٌ . ثم نهَدت^(٢) بَنَ مَغْها إلى بني حنيفة ؛ حيث لقيت مُسَيْلَمَةَ وتزوجته .

ولما رأى مالك بن نُورَةَ ما صنعت سَجَّاحُ نَدِمَ وتَحَيَّرَ في أمره ، وعرف وَكيعَ وغيره من رؤساء بني تميم قُبْحَ ما صَنَعُوا ، فرجعوا رُجوعاً حسناً ، وأخرجوا الصدقاتِ ، واستقبلوا بها خالداً ، ولم يَبْقَ في بني تميم إلا مالك بن نُورَةَ ؛ فقد اعتصم بالبَطَاحِ .

وعلم خالد بآمره ، فعزَمَ على المسير إليه فتردّت الأنصار ، وتخلّفت عنه وقالوا : ما هذا بعهد الخليفة إلينا ، إن الخليفة عَهْدَ إلينا ؛ إن نحن فرغنا من البُرَاخَةِ واستَبَرْنَا بلادَ

(١) الدفيف من الطائر : أن يحرك جناحيه ورجليه في الأرض .

(٢) نهَد الرجل لعدوه : نهض .

القوم ، أن نقيم حتى يكتبَ إلينا . فأجابهم خالد : إن يكن عهد إليكم هذا ؛ فقد عهدَ إلى أن أمضى وأنا الأمير ، وإلى تنهى الأخبار ، ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصةً فكنْتُ إن أعلمته فأتيتني لم أعلمه حتى أنهزها ، وكذلك لو ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بجيأ لنا ، وأنا أقصد إليه ، ومن معي من المهاجرين والتابعين بإحسان ، ولست أكرهكم .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ، وقالوا : إن أصاب القوم خيرٌ إنه لخيرٌ حُرِّمْتُمُوهُ ، وإن أصابهم مصيبةٌ ليجتنبنكم الناس ، فأجمعوا اللحاق بخالد ، وجرّدوا إليه رسولاً ، فأقام ، حتى لحقوا به .

ثم سار مع جيشه حتى قدم البطاح ، فلم يجدوا بها أحداً ، ووجدوا مالكا قد فرّقهم في أموالهم ، ونهاهم عن الاجتماع حين اضطرب عليه أمره ، وقال : يا بني يربوع ؛ إنّا قد كنّا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين ، وبطّأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح ؛ وإنّي قد نظرت في هذا الأمر ، فوجدت الأمر يتأتى للقوم بغير سياسة . وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فإيّاكم ومناواة قوم قد صنّع لهم ، ففرّقوا في دياركم ، وادخلوا في هذا الأمر . ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام ، والتفرق في الديار . ورجع هو إلى منزله . وبث خالد السرايا بالبطاح ، وأمرهم بداعية الإسلام ، وأن يأتوه بكل من لم يُجِبْ ، وأن يقتلوه إن امتنع . وكان مما أوصى به أبو بكر : إذا نزلتم منزلاً فأذّنوا وأقيموا ؛ فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم ؛ وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ؛ وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسايلوهم ، فإن أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم ؛ وإن أبوها فلا شيء إلا الغارة ولا كلمة !

ولم يلبث أن جاءت الخيلُ بمالك بن نويرة في نفرٍ من قومه بني يربوع .

واختلف رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه فيما بينهم . أقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان ، أم أنكروا وتذكروا ؟ وكان من رؤساء الجند أبو قتادة^(١) ؛ ولما سُئِلَ قال : إنهم لما غَشُوا القوم راعوهم تَحْتَ اللَّيْلِ ، فأخذ القوم السلاح . فقلنا : إنا المسلمون ؛ فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا : فما بال السلاح معكم ؟ قالوا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح . فوضعوه ، ثم صلينا وصلوا . وقال غيره : إنهم مازالوا على ردّتهم .

ولما رأى خالد اختلاف القوم في شأن مالك وأصحابه أمر بِمَحَبَسِهِمْ ، حتى ينظر في أمرهم ، وكان ذلك في ليلة باردة . ثم أمر خالد منادياً فنادى : دافئوا^(٢) أسراكم . وهي في لغة كِنَانَة — معناها القتل ، وكان الحرّاسُ من بني كِنَانَة ، فوقعوا فيهم قتلاً ، وقتل ضرار بن الأزور مالكا .

وسمع خالد الواعية^(٣) ، ففرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ولما عَلِمَ أبو قتادة بمقتل مالك قال لخالد : هذا عمّك ! فزجره خالد ، فغضب وعاهد الله ألا يشهد حرباً بعدها مع خالد ، ومضى حتى أتى أبا بكر ، فقصّ عليه أمر خالد وقتله مالكا ، وأقسم ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد ، فغضب منه أبو بكر ، لأنه كان معجباً بخالد وانتصاراته ؛ وكله فيه عمر فلم يرّضَ إلا أن يرجع إلى خالد ، فرجع إليه وبقي معه حتى قدم معه المدينة .

ثم تزوّج خالد أمّ تميم ، ابنة المنهال زوج مالك ، وكانت العرب تكره النساء في الحروب .

(١) هو أبو قتادة الأنصاري ، واسمه الحارث بن ربيع .

(٢) أراد الإدفاء ، من الدفء .

(٣) الواعية : الصراخ .

ولما علم عمرُ بِمَقْتَلِ مالِك ؛ وما حام حوله من الرّيب ، وبخاصّة حينما سمع بزواج خالد من أمّ تميم عميد إلى أبي بكر وقال : إن في سيفِ خالدٍ رَهَقاً^(١) ، فإن لم يكن هذا حقّاً حقّ عليك أن تُقيده ، ثم عاد إليه فأكثر وقال : عدوّ الله عدوّاً على امرئ مسلم فقتله ، ثم نزا على امرأته - وكان أبو بكر لا يُقيد^(٢) من عمّاله ولا وُزَعته - فقال : هيه يا عمر ؛ تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد ، فلم أكن لأشيم^(٣) سيفاً سلّاهُ الله على الكافرين . وودى^(٤) مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه .

وأقبل خالدُ بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد ، وعليه قباءٌ عليه صدأ الحديد ، مُعْتَجِراً^(٥) بهامة ، قد غرّزَ فيهما أسهماً . فلما أن دخل المسجد قام إليه عُمر فانتزع الأنسهم من رأسه فخطمها ، ثم قال : أرثاء ! قتلتَ امرأ مسلماً ، ثم نزوتَ على امرأته ؛ والله لأرجمتك بأحجارك ! فلم يردّ خالدٌ بكلمة ، وظنّ أن رأى أبي بكر على مثل رأى عُمر فيه ، ثم دخل على أبي بكر ، وأخبره الخبر ، فعذّره أبو بكر وتجاوز عَمّاً كان في حرّ به تلك .

ولم تمضِ إلا أيام حتى قدم مُتَمِّم بن نويرة^(٦) ، أخو مالِك إلى المدينة ، وشهد مع أبي بكر صلاة الصبح ثم أنشد :

(١) الرهق السفه والحفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .

(٢) يقال : أقاد الأمير القاتل ، قتله به قوداً . (٣) أشيم : أغمد .

(٤) وداه : أعطاه دينه ، والدية : حق القتل . (٥) الاعتجار : لف العمامة .

(٦) متمم بن نويرة : أخو مالِك ، وله أبلغ المرائي فيه . روى الأصمعي : قدم متمم بن نويرة

العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى عليه ؛ فقيل له : يموت أخوك بالملا ، وتبكي أنت على قبر بالعراق ! فقال :

لَقَدْ لَا مَنَى عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ رَفِيقِي لَتَذَرَاكِ الدُّمُوعُ السَّوَافِكِ
فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللُّوَى وَاللَّكْدِكِ
فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ !
أَلَمْ تَرَهُ فِينَا يُقَسِّمُ مَالَهُ وَتَأْوِي إِلَيْهِ مَرَمَلَاتُ الضَّرَائِكِ !
الضرائك : الفقراء السيئو الحال .

نعم القَتِيلُ إذا الرِّيحَ تَنَاوَحَتْ تحت الإزار قَتَلْتَ يابْنَ الأَزْوَِرِ
أَدْعَوْتَهُ باللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لو هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدُرِ
فقال أبو بكر : والله ما دعوته ولا قتلته . ثم قال :
لا يَضْمُرُ الفَحْشاءُ تَحْتَ رِدَائِهِ حُلُوْهُ شَمَائِلُهُ عَفِيفُ الْمِزَرِ
ولنعم حَشْوُ الدَّرْعِ أَنْتَ وحَسْرًا ولنعم مأْوَى الطَّارِقِ المُنَوَّرِ
ثم بكى حتى سالت عَيْنُهُ ، ثم وقع مغشيًّا عليه ؛ وطلب دِيَةَ أَخِيهِ فَوَدَّاهُ ،
وتحدَّثَ إِلَيْهِ فِي رَدِّ سَبِي قَوْمِهِ ، فكتب بردَ سَبِيهِمْ ، وأقام بالمدينة ؛ لا تَرَاهُ قَالَهُ
دَمْعَةً عَلَى أَخِيهِ مَالِك .

* * *

وكان عُمرُ بن الخطَّابِ يَصَلِّي الصُّبْحَ يوما ؛ فلما انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذْ هُوَ بِرَجُلٍ
قَصِيرٍ أعور ، يَتَنَسَّكُ قَوْسًا ، وَيَبِيدُهُ هِرَاوَةً ، فقال : مَنْ هَذَا ؟ فقال : مُتَمِّمُ بْنُ نُورَةَ
فاستنشدته قوله في أخيه ، فأنشده :

لَعْمَرِي وَمَا دَهْرِي بَتَا بَيْنَ مَالِكٍ وَلَا جَزِعَ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَمًا^(١)
لَقَدْ كَفَنَ المِنْهَالَ تَحْتَ ثِيَابِهِ فَتَى غَيْرِ مِبْطَانَ العَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(٢)
ومضى في إنشاده حتى بلغ إلى قوله :

وَكُنَّا كَنَدُمَانِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا^(٣)
فلما تفرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

فقال عمر : هذا والله التَّأْيِينُ ! ولوددت أَنِّي أَحْسَنُ الشَّعْرَ فَأَرِثِي أَخِي زَيْدًا^(٤)
بِمَثَلِ مَارِثِيَّتِ بِهِ أَخَاكَ ، فقال مُتَمِّمٌ : لو أَنَّ أَخِي مَاتَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَخُوكَ مَارِثِيَّتُهُ .
فقال عمر : ما عَزَّأَنِي أَحَدٌ عَنْ أَخِي بِمَثَلِ مَا عَزَّأَنِي بِهِ مُتَمِّمٌ !

(١) مادهرى : ما عادتى ، والتأيين : مدح الميت بعد موته .
(٢) المنهال : هو ابن عصمة الرياحي ؛ كفن مالكا في ثوبيه . غير مبطان العشيات : لا يعجل
بالعشاء انتظاراً للضيغان . والأروع : الذى إذا رأيته راعك بحسنه .
(٣) الندمان : النديم ، وقد كان مالك وعقيل بن فارج نديمين لجذيمة الأبرش دهرًا طويلا ،
ثم قتلتهما ، في حديث مشهور . (٤) مات زيد بن الخطاب في غزوة اليمامة .

١٩ - يوم اليمامة*

في سنة عشر قدم وفد بني حنيفة^(١) من أهل اليمامة على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين، وتركوا مسيلمة بن حبيب في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله؛ إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا، يحفظها لنا. فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به للقوم، وقال: أما إنه ليس بشركم مكاناً. ثم انصرفوا. وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدّ وتلبّأ لهم، وقال: إني قد أشركت في الأمر معه، وقال لمن كان معه في وفد بني حنيفة: ألم يقل لكم حين ذكرتُموني له! أما إنه ليس بشركم مكاناً! وما ذاك إلا لأنه كان يعلم أني قد أشركت في الأمر معه. ثم جعل يسجّع لهم الأساريّين.

وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلامٌ عليك؛ أما بعدُ فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقرّيش نصف الأرض، ولكنّ قرّيشاً قومٌ يعتدون.

وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم رسولان بهذا الكتاب، فقال لهما النبيّ حين قرأ كتاب مسيلمة: فأتقولان أنتم؟ قالا: نقول مثل ما قال، فقال: أما والله لولا أن الرُّسُل لا تُقتل لضربت أعناقكما.

* لخالد بن الوليد على بني حنيفة، كان سنة ١١. واليمامة معدودة في نجد، بينها وبين البحرين عشرة أيام، وتعد هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في حروب الردة.

الطبري ١٦٢/٣، ابن الأثير ١٧٤/٢، ابن خلدون ٧٥/٢، ابن كثير ٣٢٣/٦، ابن هشام ٢٤٤/٤، ٢٧٢.

(١) حنيفة: بطل في ربيعة.

ثم كتب إلى مُسَيْلِمَةَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : سلامٌ على من اتَّبَعَ الْهُدَى ، أما بعد ، فإنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

فلما مات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث أبو بكر السَّرايا^(١) إلى المرتدِّين أرسل عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ في عسْكَرٍ إلى مُسَيْلِمَةَ ، وأتبعه شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ ، وكان مُسَيْلِمَةُ قد اشتدَّ أمره ، والتفَّ حوله أربعون ألف مقاتل من بني حَنْظَلَةَ باليمامة .

فسار عِكْرِمَةُ إلى اليمامة ، ولم ير أنَّ يُنتظرَ شُرَحْبِيلُ ، ليكون له نِفَارُ النَّصْرِ . وكان عِكْرِمَةُ بطلاً مجرباً ، وفارساً مغواراً ، وقد اجتمع في لوائه أبطالٌ لهم في الحروب بلاء ، ولكنَّه لم يَدُبُّ لِقَوَّتِهِمْ ، ونكبه بنو حَنْظَلَةَ ، وعلم شُرَحْبِيلُ بهزيمتهم فأقام بالطريق .

وكتب عِكْرِمَةُ لِأَبِي بَكْرٍ بِالَّذِي أَصَابَهُ وَأَصَابَ جُنْدَهُ ، فغضبَ أبو بكر ، وكتب إليه : يَا بَنِي أُمِّ عِكْرِمَةَ : لَا تَرَجِعَنَّ قَتُوهِنَّ النَّاسَ ؛ امضِ إلى حُذَيْفَةَ وَعَرْفَجَةَ ، فقاتِلْ أَهْلَ عُمَانَ وَمَهْرَةَ ، ثم تسير أنت وجندك حتى تَلْقَى الْمُهَاجِرِينَ ابْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بِالْيَمَنِ وَحَضَرَ مَوْتَ .

وكتب إلى شُرَحْبِيلِ بْنِ حَسَنَةَ بِأَمْرِهِ بِالْمَقَامِ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَمْرُهُ . ولما قدم خالدٌ على أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْبُطْحِ ، ورضى عنه وقبل عُذْرَتَهُ وَصَدَّقَهُ ، أرسله إلى مُسَيْلِمَةَ ، وأوعب^(٢) معه النَّاسَ ، وجعل على الْأَنْصَارِ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ وَالْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ؛ وعلى الْمُهَاجِرِينَ أَبَا حُذَيْفَةَ ، وَزَيْدَ بْنَ الْخَطَّابِ ، وعلى كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلًا

(١) جمع سرية : وهي جماعة من الجنود من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة .

(٢) أوعب الناس : خرجوا سلكهم للفزرو .

وقبل أن يقوم خالد بجيشه كتب أبو بكر إلى شُرَحْبِيل بن حَسَنَةَ كتاباً آخر جاء فيه : إذا قدم عليك خالد ، ثم فرغتم إن شاء الله ؛ فالحق بقضاعة ، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أباي منهم وخالف .

وخرج خالد في جُنْدِهِ حتى أتى اليمامة ؛ حيث كان بنو حَنِيفَةَ مستعدين هناك في جمهم الكثيف .

وكان مُسَيْلِمَةُ يُصَانِعُ كُلَّ أَحَدٍ وَيَتَأَلَّفُهُ ، ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح ، وكان معه نَهَارُ الرَّجَالِ ، وكان نَهَارُ هَذَا قد هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، وعرف أصول الإسلام ؛ فبعثه الرسول معلماً لأهل اليمامة يفقههم في الدين ، ويشد من عزائم المسلمين ، ويشغب معهم على مُسَيْلِمَةَ الْمُتَنَبِّئِ الكاذب ؛ فكان أعظم فتنة على بني حَنِيفَةَ من مُسَيْلِمَةَ نَفْسِهِ ؛ شهد له أنه سمع محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : إنه قد أشرك معه ، فصدقه القوم واستجابوا له .

وجاء طَلِيحَةُ النَّمَرِيّ اليمامة ، فقال : أين مُسَيْلِمَةُ ؟ قالوا : مه ! رسول الله ! قال : لا حتى أراه ؛ فلما جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رَحْمَان . قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ قال مُسَيْلِمَةُ : في ظلمة . فقال طَلِيحَةُ : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . واتبع مسيلمة ، وانخرط في جيشه .

ولما بلغ مُسَيْلِمَةُ دُنُوَّ خَالِد ضرب عسكره بِمَقْرَبَاء^(١) ، واستنفر الناس ،

(١) عقرباء : منزل من منازل اليمامة .

فجعلوا يخرجون إليه .

وبينما كانت جيوشُ خالد تتلاحقُ إلى أرض اليمن ، وتبلغُ أنباؤها مُسَيْلمةُ خرج مُجَاعَةُ بْنُ مَرَارَةَ في جماعةٍ من بني حَنِيفَةَ ؛ يطلبون ثَأْرَ آلِه في بني عامر وبني تميم^(١) وقد خاف أن يفُوتَه إذا شُغِلَ بِلِقَاءِ المسلمين وِقَاتْلِهِمْ ، وأدرك مُجَاعَةُ ثَأْرَهُ وعاد في أصحابه . ولما بلغوا ثَنِيَّةَ الْيَمَامَةِ كان التَّعَبُ قد أخذ منهم ، فناموا .

وأدركهم جنودُ خالد ، فوجدوهم نياماً ، وأرْسَانُ^(٢) خيولهم بأيديهم تحت خُدودهم ؛ وهم لا يشعرون بِقُرْبِ الْجَيْشِ مِنْهُمْ ، فَأَنْبَهُوهُمْ وقالوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قالوا : هذا مُجَاعَةُ ، وهذه حَنِيفَةُ ، قالوا : وأنتم ! فلا حيّاً لكم الله ! فأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالدُ بن الوليد فأَتَوْهُ بِهِمْ ، فقال لهم : متى سمعتمُ بنا ؟ قالوا : ماشعَرنا بك ؛ إنما خرجنا لثَأْرِ لَنَا فِيمَنْ حَوْلَنَا مِنْ بَنِي عامر و تميم . فأمر بهم^(٣) أن يُقْتَلُوا ، فجادوا كُلُّهُمْ بأنفسهم دون مُجَاعَةَ بْنِ مَرَارَةَ ؛ وقالوا : إن كنتَ تريدُ بأهلِ الْيَمَامَةِ غَدَاً خيراً أَوْشَرًا فَاسْتَبَقِ هَذَا وَلَا تَقْتُلْهُ . فقتلهم خالد ، وحبس مُجَاعَةَ عنده كالرَّهينة ، وأوثقه في الحديد ، ثم دفعه إلى أمِّ تميمِ امرأته ، وقال : استوصي به خيراً ، ثم مضى حتى نزل الْيَمَامَةَ .

وتقدّم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كَثِيبٍ يُشْرِفُ عَلَى الْيَمَامَةِ ، فغضب به عسكره ، ورايةُ المهاجرين مع سالم مولى أبي حُذَيْفَةَ ، ورايةُ الْأَنْصَارِ مع ثابت بن قَيْسٍ ، والعربُ على راياتها ؛ ومُجَاعَةُ بْنُ مَرَارَةَ مُقَيَّدٌ فِي الْخِيْمَةِ مع أمِّ تميم .

(١) كان ثَأْرُهُمْ في بني عامر ، أن امرأة من بني حنيفَةَ اسمها خولة بنت جعفر ، منعه قومها منها ، وأما ثَأْرُهُمْ في بني تميم فنعم أخذوها منهم .

(٢) أَرْسَانُ : جمع رَسَنَ : الحبل وما كان من زمام على أنف .

(٣) وفي بعض الروايات أن خالداً سألهم فقال : ماتقولون ؟ قالوا : نقول منا نبى ومنكم نبى !

فعرضهم على السيف .

والتقى الناسُ واقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزم المسلمون ، وخلصَ بنو حنيفة إلى مُجَاعَةَ وإلى خالد ؛ فزال خالد عن فُسْطَاطِهِ ، ودخل أناس الفُسْطَاط ، وفيه مُجَاعَةُ ، تحرَّسه أمّ تميم زوج خالد ، فحمل عليها رجلٌ بالسيف ، فقال مُجَاعَةُ : مَهْ ، أنا لها جَاراً فَنِعِمَّتِ الْحُرَّةُ ! عليكم بالرجال ؛ فرَعَبُوا^(١) الفُسْطَاط بالسيوف .

ولما حَلَّتِ الهزيمةُ بالمسلمين عادوا فَتَدَامَرُوا^(٢) ، فقال ثابت بن قيس : بُسْما عودُتُمْ أنفُسَكُمْ يامعشرَ المسلمين ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُرَاكَ إِلَيْكَ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ - يعني أهل اليمامة - وَأُرَاكَ إِلَيْكَ مِمَّا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ - يعني المسلمين - ثم أخذ يجالِدُ بسيفه . ويجعل الصحابةُ يتواصونَ بينهم ، ويقولون : يا أصحابَ سورة البقرة ، بَطَلِ السَّحَرِ اليوم ! وحفرَ ثابت بن قيس لِقَدَمَيْهِ في الأرض ؛ وهو حامل اللواء ، بعدما تحنَّط وتكفَّن ؛ ولم يزل ثابتاً حتى قُتل . وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن ؛ زَيَّنُوا القرآنَ بالفعال ؛ وحل فيهم حتى أبعدهم .

وقال زيد بن الخطاب : أَيُّهَا النَّاسُ ؛ عَضُّوا عَلَى أَضْرَاسِكُمْ ؛ وَاضْرِبُوا عُدُوَّكُمْ ، وَامْضُوا قُدُماً . وَاللَّهِ لَا أَتَكَلَّمُ حَتَّى يَهْزِمَهُمُ اللَّهُ ؛ أَوْ أَلْقَى اللَّهُ فَأَكَلَّمَهُ بِحُجَّتِي . ثم خرج للقتال ، فَلَقِيَ أَوَّلَ مَالِقِ الرَّجَالِ ؛ فَاجْتَلَدَا مَعاً ؛ وَلَمْ يَلْبَثِ الرَّجَالُ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى قَتَلَهُ^(٣) زَيْدٌ ؛ ثُمَّ قَاتَلَ زَيْدٌ حَتَّى اسْتَشْهَدَ^(٤) .

(١) رَعَبُوا الفُسْطَاط : مزقوه .

(٢) تَدَامَرُوا : مض بعضهم بعضاً على الجِدِّ في القتال .

(٣) عن أبي هريرة قال : كنت يومئذ عند النبي صلى الله عليه وسلم في رهط ، ومعنا الرجال بن عتفوة ، فقال : إن فيكم لرجلاً ضره في النار أعظم من أحد ، فهلك القوم وبقيت أنا والرجال ، وكنت متخوفاً ، حتى خرج الرجال مع مسيلمة وشهد له بالنبوة ، فكانت فتنة الرجال أعظم من فتنة مسيلمة . ابن كثير ٣٢٣/٦ .

(٤) في بعض الروايات : قال عمر لعبد الله بن عمر حين رجم من غزو اليمامة : أَلَا هَلَكْتَ قَبْلَ زَيْدٍ ! هَلَكَ زَيْدٌ وَأَنْتَ حَيٌّ ! فقال : قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسي تأخرت ، فأكرمه الله بالشهادة . الطبري ٢٤٩/٣ .

ثم نَشِبَ شَيْءٌ مِنَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ جَبَّتُوا أَهْلَ الْبُؤَادَى ؛ وَأَهْلُ الْبُؤَادَى جَبَّتُوا الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ . وَقَالَ أَهْلُ الْقُرَى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْقُرَى ؛ يَامُشِرَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ مِنْكُمْ . وَقَالَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ : إِنْ أَهْلُ الْقُرَى لَا يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ ؛ وَلَا يَدْرُونَ مَا الْحَرْبُ ؛ فَسَتَرَوْنَا إِذَا امْتَرَزْنَا^(١) مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ الْخِلَالُ !

فَمَا رَأَى يَوْمَ كَانَ أَحَدٌ وَلَا أَعْظَمَ نِكَايَةً مِمَّا رَأَى يَوْمَئِذٍ ؛ وَلَمْ يُدَرَّ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ أَشَدَّ فِيهِمْ نِكَايَةً ؛ إِلَّا أَنَّ الْعَصِيَّةَ كَانَتْ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ .

وظَلَّتْ الْحَرْبُ سِجَالًا ؛ مَرَّةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمَرَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ؛ فَقَالَ خَالِدٌ : امْتَازُوا لِنَعْلَمَ بِلَاءَ كُلِّ حَيٍّ ؛ وَلِنَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ نُوْتِي ! فَامْتَازَ أَهْلُ الْقُرَى وَالْبُؤَادَى ، وَامْتَازَتِ الْقَبَائِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَأَهْلِ الْحَاضِرَةِ ؛ وَوَقَفَ بَنُو كُلِّ أَبِي عَلَى رَأْسِهِمْ ؛ فَقَاتَلُوا جَمِيعًا ، وَقَالَ أَهْلُ الْبُؤَادَى يَوْمَئِذٍ : الْآنَ يَسْتَحِرُّ^(٢) الْقَتْلُ فِي الْأَجْدَعِ^(٣) .

فَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي أَهْلِ الْقُرَى ؛ وَثَبَتَ مُسَيْلِمَةُ ؛ فَمَرَفَ خَالِدٌ أَنَّهَا لَا تَرَى كُدًا إِلَّا بِقَتْلِ مُسَيْلِمَةَ ؛ فَبَرَزَ حَتَّى إِذَا كَانَ أَمَامَ الصَّفِّ دَعَا إِلَى الْبِرَازِ وَاسْتَمَى ؛ وَقَالَ : أَنَا ابْنُ الْوَلِيدِ ؛ وَنَادَى بِشُعَارِهِمْ يَوْمَئِذٍ : يَا مُحَمَّدَاهُ ! فَجَعَلَ لَا يَبْرُزُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا قَتَلَهُ ، وَدَارَتْ رَحَى الْمُسْلِمِينَ وَطَحْنَتْ .

وَأَقْبَلَ الْحَيْطُونَ بِمُسَيْلِمَةَ يَخْرُجُونَ إِلَى لِقَاءِ خَالِدٍ ، فِيلْقَاهُمُ الْمَوْتَ مِنْ سَيْفِهِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوهُ ؛ وَكَثُرُ فِيهِمُ الْقَتْلُ ، وَشَعَرَ مُسَيْلِمَةُ بِالْخِزْيِ يَرْكَبُهُ ؛ فَسَاوَرَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَخْرُجَ

(١) امْتَازَ الْقَوْمُ : تَمَيَّزَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ .

(٢) اسْتَحَرَّ الْقَتْلَ ، إِذَا اشْتَدَّ . (٣) الْأَجْدَعُ : الضَّعِيفُ أَيْضًا .

كما خرجوا ؛ لكنه أُتيقن أنه مقتول إن خرج ، فتردد واضطرب ؛ وإنه لفي اضطرابه وتردده إذ شدّ خالدٌ برجاله عليه وعلى مَنْ حوله ، يُعْمِلُونَ فيهم السلاح .

ورأى محمّد بن الطّفَيْلُ فرارَ القوم ، ورأى المسلمون يتعقبونهم فصاح بهم : يا بني حنيفة ! الحديقة ! وكانت على مقربةٍ منهم ، وكانت لمسيمة ، وتدعى حديقة الرحمن ، وكانت فسيحة الأرجاء ، منيعة الجدران ، كأنها الحصن ، وقد فرّوا إليها وتحصّنوا بها من هزيمتهم ، بعد أن خرّ الألوفُ منهم صرعى ، ووقف المحكم برجاله يحمي ظهورهم أثناء فرارهم ، وإنه لكذلك يحاول صدّ المسلمين ، ويحرّضُ رجاله على دفعهم ، ويقاتلُ وإياهم أشدّ قتال ؛ إذ رماه عبدُ الرحمن بن أبي بكر بسهم وقع في نحره فقتله .

وأحاط المسلمون بالحديقه ، ليجدوا فيها ثغرة ، فصرخ البراء بن مالك ، وقال : يا معشرَ المسلمين ؛ احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه ، ففعلوا ، حتى إذا وضعوه على الجدار نظر وأرعد ، فنادى : أنزلوني ؛ ثم قال : احملوني ؛ ففعل ذلك مراراً ؛ ثم قال : احملوني ؛ فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم ؛ فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين ، فدخلوا منه زمراً تلمع في أيديهم السيوف ، ويطلّ الموتُ من حدق عيونهم ، وأغلق الباب عليهم ، ثم رمى بالفتاح من وراء الجدار ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وأبى مَنْ في الحديقة منهم .

وذهب فريقٌ إلى مسيمة يقولون : أين ما كنتَ تَعِدُنَا ؟ قال : قاتلوا عن أحسابكم ، ولم يلبث الصارخ أن صرخ : إن مسيمة قد قُتِل ؛ إن العبد الأسود قتل مسيمة^(١) !

(١) جاء في ابن كثير أن المسلمين حين دخلوا الحديقة من حيطانها خلصوا إلى مسيمة ، وإذا هو واقف في ثلمة جدار ، كأنه جل أورك ، وهو لا يعقل من الغيظ ، فتقدم إليه وحشي بن حرب ، مولى جبير بن مطعم فأصابه ، وسارع أبو دجانة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادت امرأة من القصر وأُمير الوضاعة ، قتله العبد الأسود !

وَبِمَوْتِ مُسَيْلَمَةَ انْتَهتِ المَعْرَكَةُ ؛ وَخَرَجَ خَالِدٌ بِمُجَاعَةِ يَرْسُفُ فِي الْحَدِيدِ ، لِئَرِيَهُ
مُسَيْلَمَةَ وَأَعْلَامَ جُنْدِهِ . فَأَتَى عَلَى الرَّجَالِ فَقَالَ : هَذَا الرَّجَالُ ! وَجَعَلَ يَكْشِفُ لَهُ
الْقَتْلَى حَتَّى مَرَّ بِمَحْكَمِ بْنِ الطَّفِيلِ - وَكَانَ رَجُلًا جَسِيمًا وَسِيمًا - فَلَمَّا رَأَاهُ خَالِدٌ ، قَالَ :
هَذَا صَاحِبُكُمْ ؟ فَقَالَ : لَا ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَكْرَمُ ، هَذَا مُحْكَمُ الْيَمَامَةِ . ثُمَّ مَضَى
خَالِدٌ يَكْشِفُ لَهُ الْقَتْلَى حَتَّى دَخَلَ الْحَدِيقَةَ ، فَقَلَّبَ لَهُ الْقَتْلَى ؛ فَإِذَا رُوَيْجِيلُ أَصِيفِرِ
أُخَيْنَسٍ^(١) ، فَقَالَ مُجَاعَةُ : هَذَا صَاحِبُكُمْ قَدْ فَرَّغْتُمْ مِنْهُ : فَقَالَ خَالِدٌ لِمُجَاعَةِ :
هَذَا صَاحِبُكُمْ الَّذِي فَعَلَ بِكُمْ مَا فَعَلَ ! قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا خَالِدُ .

وَلَمَّا فَرَغَ خَالِدٌ مِنْ مُسَيْلَمَةَ وَالْجُنْدِ ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي
بَكْرٍ : ارْتَحِلْ بِنَا وَبِالنَّاسِ ، فَانْزِلْ عَلَى الْحَصُونِ ، فَقَالَ : دَعَانِي أَبْتُ الْخِيُولَ فَأَلْقُطْ
مَنْ لَيْسَ فِي الْحَصُونِ ، ثُمَّ أَرَى رَأْيِي . فَبُتَّ الْخِيُولَ ، فَخَوَوْا مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ
وَنِسَاءٍ وَصَبْيَانٍ ، فَضَمُّوا هَذَا كُلَّهُ إِلَى الْمَعْسَكِ ، وَنَادَى بِالرَّحِيلِ لِيَنْزَلَ عَلَى
الْحَصُونِ .

فَقَالَ لَهُ مُجَاعَةُ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا جَاءَكَ إِلَّا سَرْعَانُ^(٢) النَّاسِ ، وَإِنَّ الْحَصُونِ
لَمَلُوءَةٌ رِجَالًا ، فَهَلُمَّ إِلَى الصَّلْحِ عَلَى مَا وَرَأَى . فَصَالَحَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ دُونَ النَّفُوسِ ،
ثُمَّ قَالَ : أَنْطَلِقُ إِلَيْهِمْ فَأَشَاوِرُهُمْ ، وَنَنْظُرُ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، ثُمَّ أَرْجِعْ إِلَيْكَ .

فَدَخَلَ مُجَاعَةُ الْحَصُونِ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا النِّسَاءُ وَالصَّبْيَانُ ، وَمَشِيخَةٌ فَانِيَةٌ ، وَرِجَالٌ
ضَعْفَى . فَظَاهَرَ الْحَدِيدَ عَلَى النِّسَاءِ ، وَأَمْرَهُنَّ أَنْ يَنْشُرْنَ شَعُورَهُنَّ ، وَأَنْ يُشْرِفْنَ
عَلَى رُءُوسِ الْحَصُونِ .

(١) الْخُنْسُ تَأْخُرُ الْأَنْفُ عَنِ الْوَجْهِ مَعَ ارْتِفَاعِ قَلِيلٍ فِي الْأَرَبَةِ ، وَهُوَ أَخْنَسُ ، وَمَصْغَرُهُ أُخَيْنَسٌ

(٢) سَرْعَانُ النَّاسِ ، بِسُكُونِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا : أَوَائِلُهُمْ .

ثم رجع فأتى خالدًا ؛ فقال : قد أبوا أن يُجيزُوا ما صنعت ، وقد أشرف لك
بعضهم نقضاً علىّ ، وهم مِنِّي بَرَاء .

فنظر خالدٌ إلى رءوس الحصون وقد اسودّت ، وقد نهكت المسلمين الحربُ ،
وأحبّوا أن يَرَجِعُوا بالظفر والنصر ، وراؤا أنه قد قُتِلَ من المهاجرين والأنصار
خلقٌ كثير .

فرأى خالدٌ من الخير أن يصالحَ مُجَاعَةً ، فقال له : هلم لأصالحك على الصّفراء
والبيضاء ، والحلقة ونصف السّبي . فقال مُجَاعَةٌ : الآن آتِ قومي فأعرض
عليهم ما قد صنعت . قال خالد : فانطلق إليهم ، فذهب وعاد فقال : أبوا ما صالحتك ،
ولكن إن شئتَ صَنَعْتُ شيئاً . قال : ما هو ؟ قال : تأخذُ مِنِّي ربع السّبي وتدع
رُبْعاً ، قال خالد : قد فعلتُ ؛ قال مُجَاعَةٌ : قد صالحتك .

فلما فرغاً فُتِحَتِ الحصون ؛ فإذا فيها النّساء والصبيان ومشِيخةٌ فانيةٌ ، ورجال
ضِعَافٌ ، فقال خالد لمُجَاعَةٍ : وَيَحْكُ ! خَدَعْتَنِي ، قال : قومي ؛ ولم أَسْتَطِيعْ إلّا ما
صَنَعْتُ . فأجاز خالد الصّالح .

وحُسِرَ بنو حنيفة للبيّمة والبراءة مما كانوا عليه ، ورجى بهم إلى خالد ، فبايعُوا
وأعلنوا رجوعَهم إلى الإسلام ، وبراءتهم من الرّدة .

ثم بعث خالد وفداً من بنى حنيفة إلى أبي بكر ، فقدموا عليه ، فقال لهم أبو بكر :
وَيَحْكُمُ ! ما هذا الذي كان منكم ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذي بلغك
مما أصابنا ، وقد كان امراً لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

٢٠ - يوم جُؤَانِي *

كان يقيم في البَحْرَيْنِ (١) قبائلُ مِنْ رَبِيعَةٍ مِنْ بَكْرٍ وَتَغِيبَ ، وكانوا قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأمر عليهم المُنْذِرُ بنِ سَاوَى (٢) .

ثم حدث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُنْذِرُ بنِ سَاوَى اشْتَكَيَا فِي شَهْرٍ وَاحِدٍ ، ومات الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ثم مات المُنْذِرُ بعده بَقَايِلَ ؛ فارتدَّ أَهْلُ الْبَحْرَيْنِ جَمِيعًا عَنِ الْإِسْلَامِ كَمَا ارْتَدَّ غَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ أَنْحَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ ، فَأَمَّا بَكْرٌ فَإِنَّهَا ثَبَتَتْ عَلَى رِدَّتِهَا ، وَأَمَّا عَبْدُ قَيْسٍ فَإِنَّهُمْ رَزَقُوا الْجَارُودَ بنَ الْمُعَلَّى ، فَثَنَاهُمْ عَنْ رِدَّتِهِمْ .

وكان الجَارُودُ قَدِيمٌ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْتَادًا ، فَقَالَ لَهُ : أَسْبِمْ يَا جَارُودُ ؛ فَقَالَ : إِنَّ لِي دِينًا ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ : إِنْ دِينُكَ يَا جَارُودُ لَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَلَيْسَ بِدِينٍ . فَقَالَ لَهُ الْجَارُودُ : فَإِنْ أَنَا أَسْلَمْتُ ، فَمَا كَانَ مِنْ تَبِيعَةِ الْإِسْلَامِ فَعَالِيكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَسْلَمَ ، وَمَكَثَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى فَتَحَهُ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ عَبْدِ قَيْسٍ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا كُلَّهُمْ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَتْ عَبْدُ قَيْسٍ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا مَاتَ ؛ وَارْتَدَّ .

* للعلاء بن الحضرمي على ربيعة ، سنة ١١٠ . وجؤاني : حصن لعبد القيس .

الطبري ٣/ ٣٥٤ . ابن الأثير ٢/ ١٧٨ . فتوح البلدان ٨٩ .

(١) بلاد البحرين : شقة ضيقة من الأرض على خليج فارس ، وتتصل باليمامة في جزئها الأعلى .

(٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه العلاء الحضرمي إلى البحرين ليدعو أهلها إلى

الإسلام أو الجزية ، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وإلى سيديخت ، مرزبان هجر ، يدعوها إلى

الإسلام أو الجزية ، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعض العجم ، وأما أهل الأرض من الجوس

واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء ، وكتبوا بینه وبينهم كتابا .

فبعث إليهم الجارود، ثم قام فخطبهم؟ فقال: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر، فأخبروني به إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عما بدالك. قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا، بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنت سيدنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم.

وأما بقية قبائل ربيعة فإنهم ثبتوا على ردتهم، واجتمع رأيهم على أن يلقوا بمعاوية الملك إلى المنذر بن النعمان بن المنذر، الملقب بالمغرور. عند ذلك خرج الحطيم^(١) بن ضبيعة، فيمن أتبعه من بكر بن وائل على الردة، ومن تأشب^(٢) إليه من غير المرتدين؛ ممن لم يزل كافراً حتى نزل القطيف وهجر، ثم حاصروا ومن معه من المسلمين في جوائى، واشتد عليهم الحصار، حتى كاد يهلكهم الجوع، وفي ذلك قول شاعرهم:

ألا أبلغ أبا بكرٍ رسولاً وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قومٍ كرامٍ قعود في جوائى مُحصرينا
كأنّ دماءهم في كلّ فجٍّ شعاع الشمس ينفش النّاطرينا
توكلنا على الرحمن إنّنا وجدنا الصبر للمتوكلينا

(١) قال البلاذري: إنما سمي الحطيم لقوله:

* قَدْ كَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمَ *

(٢) تأشب: اجتمع.

وكان خالد بن الوليد قد قضى على مُسيّلة باليمامة وأتباعه حين عقد أبو بكر للعلاء ابن الحضرمي اللواء ، وأرسله لمحاربة المرتدين من أهل البحرين . فلما كان رَحِيال اليمامة أسرع من عاد إلى الإسلام من بني حَنيفة ينضمّون إلى العلاء حين مرّ باليمامة ، فلحق به ثُمَامَة بن أُنَال الحنفي في المسلمين من بني حَنيفة ، ثم قيس بن عاصم المِزَنَري ثم انضمّ إليه عمرو بن حنظلة وسعد بن تميم والرباب وغيرهم .

قال منجّاب بن راشد : فسلك بنا السلاء الدّهْناء ، حتى إذا كنّا في بُحبوحتها ، وأراد الله عزّ وجلّ أن يُريَنّا آيَاتِهِ نَزَلَ ، وأمر الناس بالتَّوَلّ ، فنَفَرَت الإبلُ في جَوْفِ الليل ، فابقى عندنا بَعِيرٌ ولا زاد ، فما علمتُ جَمْعاً هَجَمَ عليهم من الغمِّ مِثْلَ ما هَجَمَ علينا ، وأوصى بعضنا إلى بعض ، ونادى منادى العلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا ؛ فقال : ما هذا الذي ظَهَرَ فيكم وغلبَ عليكم ؟ فقال الناس : وكيف نُنَلام ونحن إنْ بَلَّغْنَا غَدَاً لم تَحْمِ شَمْسُهُ حتى نَصِيرَ حديثاً ! فقال : أيها الناس ، لا تُرَاعُوا ! أَلَسْتُمْ مسلمين ! أَلَسْتُمْ مجاهدين في سبيل الله ! أَلَسْتُمْ أنصارَ الله ! قالوا : بلى ! قال : فَأَبْشَرُوا ، فوالله لا يَخْذُلُ اللهُ مَنْ كان في مِثْلِ حَالِكُمْ .

ونادى المنادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصلى بنا ، ومنا المتيمّم ، ومنا من لم يَزَلْ على طُهُورِهِ . فلما قضى صلاته جَثَا لِلْكَسْبَتِيَّةِ ، وجثا الناس . فنَصَبَ^(١) في الدُّعَاءَ ؛ وَنَصَبُوا مَعَهُ ، فلمعَ لهم سَرَابُ الشمس ، فالتفت إلى الصّفِّ فقال : رائدٌ ينظر ؛ ما هذا ، ففعل ثم رجع ، فقال : سَرَابٌ ، فأقبل على الدُّعَاءِ ، ثم لمع لهم آخر وأخر إلى أن وجدوا الماء ، فقام الناس .

قال منجّاب : فَشَيْئاً إِلَيْهِ حتى نزلنا عليه ، فشرِبْنَا واغتسلنا ، وما تعالَى النهارُ

(١) نصب : جد .

حتى أقبلت الإبل تَكَرُّدُ^(١) من كل وجه ، فأناخت إلينا ، فقام كل رجل إلى ظمِّره فأخذه ، ثم أرويتناها وأسقيناها العَلَل بعد النَهْل^(٢) ، وترويتنا ثم تروخنا .

وسار العلاء بقومه حتى نزلوا بهَجَرَ ، وأرسل إلى الجارود يأمره أن ينزل بعبد قيس على الحُطَم مما يليه ، وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هَجَرَ . واجتمع المشركون كلهم إلى الحُطَم ، وخندق المسلمون على أنفسهم وكذلك المشركون ؛ فكانوا يترآوون القتال ، ويرجعون إلى خندقهم ، وظلوا كذلك شهرا .

وبينا الناس ليلة إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة ، كأنها هزيمة أو قتال ، فقال العلاء : مَنْ يأتينا بخبر القوم ؟ فقال عبدالله بن خذاف : أنا آتيكم بخبر القوم ، ثم ذهب وعاد ، فأخبرهم أنَّ القوم سُكَّارَى ، لا يملك أحدٌهم دفعا عن نفسه ، فخرج المسلمون من خنادقهم حتى اقتحموا عليهم عسكرهم ، ووضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا ، وفر المرتدُّون هُرَّابا ، فإذا هم بين متردٍ في الخندق ودَّهشٍ مقتول أو مأسور ، أو ناجٍ لا يعرف لنفسه مستقرا ؛ واستولى المسلمون على ما في العسكر ، لم يُفِلَتْ رجلٌ إلا بما عليه .

وأما الحُطَم فإنه قد طار فؤاده ، وقام إلى فرسه - والمسلمون خلالهم - ليركبه ، فلما وضع رجله في الرَّكَب انقطع به ، فمرَّ به عفيف بن المنذر فسمعه يستغيث ويقول : ألا رجلٌ من بني قيس بن ثعلبة يَمُقِلُنِي ! فعرف صوته ، فقال له : نعم ، أعطني رجلك أعقلك ، فأعطاه رجله فأطنَّها^(٣) من الفخذ وتركه . فقال : أجهز على . فقال : إني أحب ألا تموت حتى أمضك^(٤) - وكان مع عفيف عدَّة من ولد أبيه

(١) الكرَد : الدفع والطرْد .

(٢) النَهْل : أول الشرب ، والعلل : الشرب بعد الشرب .

(٣) أطنَّها : قطعها . (٤) أمضك : أهلك .

قُتِلُوا لِيَأْتِيَهُمْ - وجعل الحُطَمُ لا يَعرُفُ به في الليل أحدٌ من المسلمين إِلَّا قَالَ : هل لك في الحُطَمِ أَنْ تَقْتُلَهُ ! حتى مرَّ به قَيْسُ بن عاصم المِنْقَرِيُّ ، فقال له ذلك ، فقال عليه فقتله ، فلما رأى فخذَه نادرة^(١) قَالَ : وَاسْوَأَ تَأَهُ ! لو علمت الذي به لم أُحَرِّكهُ .

وأصبح العلاء فقسَّم الأَنْفَالَ ؛ ونفَّل رجالاً من أهل البلادِ ثياباً ، وأعطى ثَمَامَةَ بن أَثَالِ الحَنْفِيَّ خَمِيصَةً^(٢) ذات أعلام كانت للحُطَمِ يُبَاهِي بها .

وفرَّ الذين نَجَوْا من الموتِ أو الأسْرِ ، وركبُوا الشَّرَاعَ إلى دَارِينَ ، وهي جزيرةٌ من جُزُرِ الخَلِيجِ الفَارِسِيِّ تَوَاجِهَ البَحْرَيْنِ ، كان بها أديارٌ خمسةٌ لخمسِ شُعَبٍ من النصارى ، فتركهم العلاء بها حتى أَيقَنَ أَنَّ من بَقِيَ بالبَحْرَيْنِ من القبائلِ قد رجعوا إلى دينِ الله ، وكان جيشه قد زاد عَدَدَهُ بِنِ انضمامِ إليه من أهل البلاد ؛ عند ذلك أَمَرَ النَّاسَ بالذهابِ إليها حتى لا يبقَ لمرْتَدِّ في الأرضِ مَلْجَأٌ .

فركبوا الشُّفْنَ ، والتَّقَوُا بأعدائهم فقتلوهم ، وضرب الإسلام رِوَاقَهُ في تلك الأنحاء .

وكتب العلاء إلى أَبِي بَكْرٍ رسالةً بهزيمةِ القومِ ، وقتلِ الحُطَمِ يقول فيها :
أما بعد ؛ فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ سَبَّ عَدُوَّنَا عَقُولَهُمْ ، وَأَذْهَبَ رِيحَهُمْ ؛ بِشَرَابِ أَصَابِوهُمِ النَّهَارَ ، فَاقْتَحَمْنَا عَلَيْهِمْ حُنْدَاقَهُمْ فوجدناهم سُكَّارِي ، فقتلناهم إِلَّا الشَّرِيدَ ، وقد قتل الله الحُطَمَ .

فكتب إليه أَبُو بَكْرٍ : أما بعد ، فَإِنَّ بَلْعَكَ عَنْ بَنِي شَيْبَانَ شَيْءٌ ، فابْعَثْ إِلَيْهِمْ جُنْدًا ، فَأَوْطِئْهُمْ وَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ .

فلم يجتمعوا بعد .

(١) نادرة : مقطوعة . (٢) الخيصة : كساء أسود مراه له علمان .

٢١ — يوم صنمَاء *

كان بَادَانُ عاملاً للفرسِ على اليمن ، فلما أسلم وأسلمت اليمنُ أقرَّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ما كان في يده حتى مات ؛ وبعد وفاته جعل رسولُ الله ابنه شَهْرًا والياً على صنمَاء ، وولّى على بَقِيَّةِ اليمنِ عُمَلاً آخرين ؛ جعل مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ مُعَلِّماً يَنْتَقِلُ في كلِّ ولايةٍ من هذه الولايات .

وحدث قبل وفاة رسول الله أن قام رجل من عَنَسٍ^(١) ، اسمه الأسود العنسيّ ، وكان كاهناً ، فَتَنَّبَأَ ، وتابعه قومٌ من أغراب اليمن ؛ فاشتدَّ بهم ساعده ، واقتحم بهم بلادَ نَجْرَانٍ ، فلم تلبث أن دانت له ، ودخل في أمره عَوَاطِمٌ مَذْحِجٍ^(٢) ، وكثُر سَوَادُهُ ، وأمر أمرُهُ^(٣) .

ثم قصد صنمَاء ، فنازل عاملها شهراً وقتله ، وهزم الأبناء^(٤) خمس وعشرين ليلة من مَخْرَجِهِ ، ثم تزوج بامرأة شهر بن بَادَانٍ ، وجعل أمرُهُ يَسْتَطِيرُ استطراداً الحريق ، وصار لا يَمِيلُ إلى قوم إلا دخلوا في أمره ، أو صانموه ، تَقِيَّةً^(٥) أو بقاءً على أنفسهم .

فكتب عُمَالُ رسولِ الله إليه بشأن الأسود وما يصنع ، فأرسل عليه السلام كتاباً إلى مَنْ بِصَنَمَاءَ مِنَ الأبناء ، يأمرهم فيه بالقيام على دينهم ، والنهوض إلى

* للمهاجر ابن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل ، على قيس بن عبد يغوث ، سنة ١١ . وصنمَاء : حاصمة اليمن . الطبري ٣/ ٢٦٢ ، ابن الأثير ١٨٣٣ .

(١) عنس : قبيلة في قحطان . (٢) مذحج : قبيلة في كهلان . (٣) أمرأمره : اشتد .

(٤) الأبناء : قوم من المعجم سكنوا اليمن . (٥) تقيّة : خوفاً .

الحرب ، والعمل في أمرِ الأسود ، إمّا غيلةً وإمّا مُصادمةً ، وأن يستعينوا بكلِّ مَنْ رَأَوْا عنده نَجْدَةٌ وِدِينًا .

عمل القومُ بأمرِ الرسولِ ، ولكنهم رأوا الأمرَ مُستصعباً عليهم ؛ لأنَّ الرجلَ قوياً المِرَاسِ .

وبينما هم على هذه الحال إذ عَلِمُوا بتغيُّرِ الأسودِ على قَيْسِ بنِ عبدِ يغوثِ المرَاديِّ رئيسِ جندهِ ، وعرفوا أنه قد خَبِثَتْ نِيَّتُهُ فِيهِ ، وأُضْمِرَ لَهُ الشَّرُّ ، وأَعْلَمَهُ أَنَّ الْوَحْيَ أَنَاءَ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْمَلِكَ يَقُولُ : عَمَدَتْ إِلَى قَيْسٍ فَأَكْرَمْتَهُ ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ مِنْكَ كُلٌّ مَدْخُلًا ، وَصَارَ فِي الْعِزِّ مِثْلَكَ ، مَالٌ مِثْلَ عَدُوِّكَ ، وَحَاوَلَ مُلْكَكَ ، وَأُضْمِرَ الْغَدْرَ لَكَ ؛ إِنَّهُ يَقُولُ : يَا سَوْدَ ، يَا سَوْدَ ، يَا سَوْدَ ، يَا سَوْدَ ! انْقُطِفْ قُنَّتَهُ ، وَخُذْ مِنْ قَيْسٍ أَعْلَاهُ ، وَإِلَّا سَلَبَكَ أَوْ قَطَفَ قُنَّتَكَ .

فَقَالَ قَيْسٌ - وَأَقْسَمَ بِهِ : كَذِبٌ ، لَأَنْتَ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي ، وَأَجَلُّ عِنْدِي مِنْ أَنْ أُحَدِّثَ بِكَ نَفْسِي ، فَقَالَ الْأَسْوَدُ : أَتَكْذِبُ الْمَلِكُ ! قَدْ صَدَّقَ الْمَلِكُ ، وَعَرَفْتُ الْآنَ أَنَّكَ تَائِبٌ .

انتهز الأبناء هذه الفرصة ، ودَعَوْا قَيْسًا إِلَى مَا يَرَوْنَ مِنَ الْفَتْكِ بِهِ ، فَلَبَّى ، ثُمَّ أَفْضَوْا إِلَى آزَادِ امْرَأَةِ الْأَسْوَدِ - وَقَدْ كَانَ تَزَوَّجَهَا بِمَسَدِ شَهْرِ بْنِ بَاذَانَ - بِأَمْرِهِمْ ، وَقَالَ : مَنْ لَقِيَهَا مِنْهُمْ : يَا بِنْتَ الْعَمِ ؛ قَدْ عَرَفْتَ بِلَاءَ قَوْمِكَ هُنْدَ قَتَلَ زَوْجَكَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ مُمَالَةٍ عَلَى الْأَسْوَدِ ، وَإِخْرَاجِهِ أَوْ قَتْلِهِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَاللَّهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ شَخْصًا أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْهُ ، مَا يَقُومُ لِلَّهِ عَلَى حَقٍّ ، وَلَا يَنْتَهِي عَنْ حُرْمَةٍ . فَإِذَا عَزَمْتُمْ فَآذِنُونِي ^(١) .

(١) آذِنُونِي : أَعْلَمُونِي .

ثم جاء كتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء ، ووصل كتابه إلى أهل نَجْران ، فأنحازوا إلى ناحية ، يريدون قتالَ الأسود ، وكتبوا مَنْ بِصَنَمَاءَ من الأبناء ليعينوا عليه .

غير أن المؤتمرين بقتله من الأبناء عاجلوه فقتلوه في قصره ومالأتهم زوجته ، وما طلع الفجرُ حتى أعلنوا أمرهم ، وفرَّ أصحابه ، وجعلوا يترددون بين صنماء ونَجْران ، وذهب الخبرُ إلى المدينة وقد توفَّى رسولُ الله .

وبعوت الأسود ظنَّ المسلمون في صنَمَاءَ وما وليها أن جَوَّ البلاد قد ضفا ، ولكن حين جاءهم خبرُ وفاة الرسول عادوا إلى أشدِّ ممَّا كانوا عليه من الردَّة ، فبعث أبو بكر إلى مَنْ بَقِيَ على إسلامه منهم يأمرهم بالثبات على أمرهم حتى توافيهم النجَّدات .

ثم حدث أن قيسَ بن عبد يغوث رئيسَ جُنْدِ الأسود والعامل على قتله ، بادر إلى الردَّة . وكتب إلى المهزَّمين من جُنْدِ الأسود ، فاجتمعوا إليه ، وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء ، فصنع وليمةً دعاهم إليها ، فلم يظفَرُ بأحدٍ منهم سوى داذَوِيه ، وامتنع فيروز بقبيلة خولان .

ثم استتبَّ الأمر لقيسِ بِصَنَمَاءَ ، وغرَّبَ عِيالات الأبناء ، وانضمَّ إليه عوامُ القبائل من حَمِير ، ودان له الأمرُ ، واطمأنَّ بِصَنَمَاءَ ؛ كما اطمأنَّ الأسود من قبل

وعرف فيروزُ ما أصابَ بني وطنه ؛ فاستنصَّ القبائل التي بقيت على إسلامها لينصروه ، فأجابه بنو عُقيل بن ربيعة ، كما أجابته عكَّ ؛ وساروا يستنقذون عِيال الأبناء ، وخرج فيروزُ على رأسهم ، فنازل قَيْسًا دُونَ صنماء ، وأجلاه عنها ،

وخرج هارباً في جُنْدِهِ إلى حيثُ انتهوا إلى المكان الذي كانوا فيه قبل مَقْتَلِ
الأسود .

وفي أثناء هذا القتال وافي جيشُ المسلمين يقوده المهاجرُ بنُ أبي أمية ، وجاء
على أثرِهِ عِكرمة بن أبي جهل بجنوده ، بعد أن انتهى من عُمان ومَهْرَةَ ، وبيَـمَـاؤنِ
هذه الجيوش هزم اللهُ المرتدَّين ، ومنح المسلمين أَقْفِيَّتَهُمْ ، وأَسِرَ قَيْسُ بن
عبدِ يَمُوثَ وعَمْرُو بن مَعْدِيكَرِبَ ، وكان قد ارتدَّ وانضمَّ إلى قيس .

ولما جاء عمرو وقيسُ أسيرين إلى أبي بكر ، أنب قَيْسًا على عمله وحقن دَمَهُ ؛
ووبَّخَ عَمْرًا على ما كان منه ، وقال له : أَمَا تَسْتَحْيِ أَنَّكَ كل يوم مهزوم أو مأسور ؟
لو نصرتَ هذا الذينَ لَرَفَمَكَ اللهُ ! فقال : لا جَرَمَ ! لَأُقْبِلَنَّ ، ولا أعودُ .
فأطلقَهُمَا ؛ ورجعا إلى قومهما مؤمنين .

٢٢ - يوم ذات السلاسل*

لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة كتب إليه أبو بكر يأمره أن يتوجه إلى العراق بعد الفتح ، حتى يلقى عياضاً . وكتب إلى عياض^(١) بن غنم - وهو بين النجف^(٢) والحجاز : أن سره حتى المصبيح^(٣) ، فابداً بها ، ثم ادخل العراق من أغلاها حتى تلقى خالداً ، وأذنا لمن شاء بالرُّجوع ، ولا تستفتِحاً بمسكاريه .
ولما قدم الكتاب على خالد وعياض استمداً أبا بكر ؛ فأمد خالد بالقمقاع بن عمرو التميمي^(٤) ؛ ف قيل له : أتمد رجلاً قد انقض عنه جنوده برجل ! فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وأمد عياضاً بعبد بن عوف الحميري . وكتب إليهما : أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يغزونا معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي ، واستنصر بالثقي بن حارثة ؛ فلم يشهد الأيَّام بالعراق مرَّةً .

* لخالد بن الوليد على هرمز . المحرم سنة ١٢ . وسميت ذات السلاسل ، لأن الفرس اقترنوا في السلاسل حتى لا يفروا . أو لأن مآجعه خالد من غنائمهم من السلاسل كان وقر بهير . وبعض المؤرخين يسميه يوم كاظمة ؛ نسبة إلى أقرب قرية من السكان الذي وقع فيه .
الطبري ٢/٤ ، ابن الأثير ٣/١٨٧ ، فتوح البلدان : ٢٤٢ ، ابن خلدون ٣/٧٨ .
(١) عياض بن غنم : ترشي فهرى ؛ هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وشهد بدرًا وأحدًا والمثدق وكثيراً من المشاهد . مات بالمدينة سنة ٢٠ .
(٢) النجف : موضع ، على بعد عشر مراحل من البصرة .
(٣) المصبيح : موضع ، على آخر حدود الشام ؛ مما يلي العراق .
(٤) القمقاع بن عمرو من تميم ، كان أحد فرسان العرب وشعرائهم ، وكانت له صحبة ، شهد فتوح الشام وأكثر فتوح العراق . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت للجهاد ؟ قال : طاعة الله ورسوله والحيل .

(١٢ - أيام العرب في الإسلام)

وكان المثنى^(١) قدم على أبي بكر ؛ فقال : أمرتني على من قبلي من قومي ، أقاتل من يليني من أهل فارس ، وأكفيك ناحيتي ففعل ذلك ، فجمع قومه ، وأخذ يُغير بناحية كسكر^(٢) مرة ، وفي أسفل الفرات مرة ، إلى أن نزل خالد الفجاج في طريقه إلى حرب الفرس ، فكتب إليه يستقدمه ، وبعث إليه بكتاب أبي بكر ، يأمره فيه بطاعته ، فانقضّ إليه جوادًا حتى لحق به .

ثم قصد - كما أمر أبو بكر - الأبلّة ، وقد جمع ثمانية آلاف من ربيعة ومضر مع ألفين ممن كان معه ، وكانت الأبلّة الثغر الذي تسير التجارة منه إلى الهند والسند ، وهي أعظم ثغور فارس شأنًا ، وأشدّها شوكة ، وكان هُرْمُز أمير هذه المنطقة كلّها من قبل فارس ، وهو من أسوأ أمراء الفرس مُعاملةً للعرب ، فكلّ العرب عليه مَغِيظٌ مُحَنّ ، حتى ضربوا به المثل في الخبث والكفر ، فكانوا يقولون : أَخْبَثُ من هُرْمُز .

ولما شارف خالد الأبلّة كتب إلى هُرْمُز : أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذّمة ، وأقرّر بالجزية ؛ وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ، فقد جئتُك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة .

ثم فرّق جنده ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحدة ، فسرح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر ، وسرح عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ، ودليلاهما مالك

(١) المثنى بن حارثة : ينتمي نسبه إلى شيبان ، كان إسلامه وقدمه على الرسول سنة تسع وكان شهيدًا شجاعًا ميمون النّقية حسن الرأى ، أبلى في حروب العراق بلاء لم ينله أحد . مات سنة ١٤ قبل القادسية .

(٢) كسكر : كورة واسمة بين الكوفة والبصرة .

ابن عباد وسالم بن نصر ؛ أحدهما قبل صاحبه بيوم ، ثم خرج خالد ودليله رافع ؛ وواعدهم جميعاً الحفير^(١) ، ليجتمعوا به ، وليصادموا به عدوهم .

ولما قدم كتاب خالد إلى هرْمُزْ كتب بالخبر إلى شيري بن كسرى ، وإلى أردشير بن شيري ، وجمع جموعه ، ثم تعجل إلى كاظمة^(٢) في سرعان^(٣) أصحابه ليتلقى خالداً . ولما بلغه أنهم تواعدوا الحفير ، نزل وتعبى به ، وجعل على مجذبتيه^(٤) أخوينه قبأذ وأنوشجان .

فلما أتى الخبر خالداً بأن هرْمُزْ في الحفير ، أمال الناس إلى كاظمة ، وبلغ هرْمُزْ ذلك فبادره إلى كاظمة ، وتعبى مع أصحابه ، واقتربوا في السلاسل والماء في أيديهم ، وقدم خالد عليهم ، فنزل على غير ماء ؛ فقالوا له في ذلك ؛ فأمر مناديه فنادى : ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ؛ ثم جالدوهم على الماء ، فلم يري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين . فحطت الأثقال والخيل وقوف ؛ ثم زحف إليهم حتى لا قاهم ؛ فاقتتلوا ؛ وأرسل الله سبحانه فأغدرت ما وراء صف المسلمين .

ثم خرج هرْمُزْ فنادى إلى التزال ، فشى خالد إليه ، فالتقيا واختلعا ضربتَيْن ، واحتضنه خالد ؛ فشد أهل فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرْمُزْ من يده ، ولكن القمقاع بن عمرو لم يمهلهم وحل عليهم ، وشد المسلمون ، فانهزم أهل فارس أمامهم ، فطاردوهم وركبوا أكتافهم إلى الليل .

وجمع خالد الرثا^(٥) وفيها السلاسل ، فكانت وقر^(٦) بمير ، ألف رطل ، وأفلت قبأذ وأنوشجان .

(١) الحفير : موضع بين مكة والبصرة .

(٢) كاظمة : على سيف البحرين من البصرة ؛ بينها وبين البصرة مرحلتان .

(٣) سرعان أصحابه : مقدمهم .

(٤) المجذبة : مقدمة الجيش .

(٥) الرثا : جمع رثة ؛ وهى الناع . (٦) الوقر ، بالكسر : الحمل الثقيل .

ولما تراجعَ الطلبُ نادى منادى خالد بالرحيل ، وسار بالناس ، واتبعته الأتقال
حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من الفرات — حيث تقع البصرة اليوم — وسبى أولاد
المقاتلة ، وأقرَّ مَنْ لم ينهض من الفلاحين ، وجعلَ لهم الذِّمَّةَ ، وبلغَ سَهْمُ الفارس
في يوم ذات السلاسل ألفَ درهمٍ خلا السلاح .

وما بقيَ من الغنائم أرسله خالدٌ إلى أبي بكر . وكان أهلُ فارس يجمعُون
قلانسهم على قدر أحسابهم في المشائر ، فمنَ تَمَّ شرفُه فقيمة قلنسوته مائةُ ألف ؛
وكان هرمز أميرَ الأُبُلَّةِ ممن تَمَّ شرفُه ، فكانت قيمة قلنسوته مائةُ ألف ،
ولمَّا أُرْسِلَتْ إلى أبي بكر - نَفَّلَهَا خالداً ، وكانت مُفَصَّصَةً بالجواهر^(١) .

(١) كان مما بعثه خالد إلى أبي بكر في المدينة فيل أخذه المسلمون في الموقعة ، ولم يكن أهل
المدينة رأوا فيلا في حياتهم ؛ بل لم تر بلاد العرب كلها فيلا قبل ذلك ؛ إلا فيل أبرهة حين حاول
فتح الكعبة ، فلما طاف قائد الفيل به في المدينة بحب أهلها لمنظر الحيوان الضخم ، وتولى بعضهم
الريب في أمره . بل لقد جعلت ضغبات النساء يقلن : أمن خلق الله هذا ! . وخيل إلى بعضهن أنه
من صناعة الفرس ، ورأى أبو بكر أنه لا نفع فيه ، فردّه إلى العراق مع قائده .

٢٣ - يوم الثُّنَى *

كان هُرْمُزُ كُتِبَ إلى أردشير بأمرِ خالد وكتابه ، ومسيره إليه من اليمامة ، فدعا إليه قارن بن قريانس ، أحدَ الأمراء الذين تمَّ شرفُهم ، وجعله على رأس قوةٍ سارت مددًا لهُرْمُز .

فخرج قَارِنُ من المدائن ؛ حتى إذا انتهى إلى المَذَار بلغته الهزيمة ، وقابله المهزَمون ؛ فاستوقفهم ، وتحدث إليهم ، وبعث السكينة إلى نفوسهم ، وضمَّهم إلى جيشه ؛ فقال بعضهم لبعض : إن افترقتم اليوم لم تجتمعوا بعدها أبدًا ؛ فاجتمعوا على العود مرة واحدة ، فهذا مددُ الملك ، وهذا قارن ؛ لعلَّ الله يُدِيلُنَا^(١) ويشفينَا من عدوِّنا ؛ ونُدْرِك بعض ما أصابُوا مِنَّا . ففعلوا ، واستعمل قارن على مُحَبَّبَتَيْهِ قُبَادَ وَأَنُوشِرَوَانَ .

وَأَرَزَ^(٢) الثُّنَى بن حارثة الشيباني وأخوه المعنَى إلى خالد بالخبر ، بعد أن انتهى من يوم السَّلاسل ، وقال له : إن القوم قد اجتمعوا بالثُّنَى : المغيث والمُفَاث .

فخرج خالد سائرًا حتى نزل المَذَار على قَارِنَ في جموعه ؛ واقتتلوا على حَنَقٍ وحَفِظَةٍ ، وخرج قارنُ يدعو إلى البراز ؛ فبرز له خالدٌ وقتله ، ثم قتل الأنوشجان وقُبَادَ ؛ وهُزِمَتِ فارسُ هزيمةً عظيمة .

* لخالد بن الوليد على قارن بن قريانس (من الفرس) ، صفر سنة ١٢ ، والثنى : نهر في المذار . والمذار : بلد بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط ، وتسمى أيضًا وقعة المذار .

الطبري ٧/٤ . ابن الأثير ١٨٨/٢ . معجم البلدان ٢٥/٣ ابن خلدون ٧٩/٢ .

(١) يدِيلُنَا : ينصرنا . (٢) أَرَزَ : رجع .

وبعد انتهاء الواقعة ، سلم خالد الأسلابَ لسنّ سلبها ، بالغة ما بلغت ، وقسم
الفيء ، ونقل من الأخماس أهل البلاء ، وزاد سهم الفارس في يوم الثنى على سهمه
في يوم ذات السلاسل .

وبعث ببقية الخماس ، ووفد وفدًا مع سعيد بن النعمان إلى أبي بكر .
ثم أقام خالد بالمدار يسبي عيالات المقاتلة^(١) ومن أعانهم ، وأقرّ الفلاحين
ومن أجاب إلى الحراج .
وولى العمال على الجباية ، وأقام مكانه يتجسس الأخبار .

(١) كان ممن سبى في هذه الواقعة حبيب أبو الحسن البصرى ، وأبو زياد مولى لمخيرة بن شعبة .

٢٤ - يوم الولجة*

لما فرغ خالدٌ من الثَّني ، وأتى الخبرُ أُرْدشيرَ اتَّجِهَ تفكيرُهُ إلى الاستعانة على العرب بالعرب ، وكان يطمئنُّ إلى ولاء قبائل عربية كثيرة ؛ منها جماعات من بكر بن وائل ؛ فدعاهم وجعل عليهم قائداً منهم ووجههم إلى الولجة وبعث الأندرزغر - وكان فارسياً من مولدَى السَّواد - وأرسلَ بهم جاذوياً في أثره في جيش عظيم ، وأمره أنْ يَعْبُرَ طريق الأندرزغر ، فالتقت جنودُهما بالولجة ، وعسكروا فيها .

ولما بلغ خالدٌ خبرَ الأندرزغر ونزوله الولجة نادى بالرحيل ، وتقدَّم إلى من خَلَفَ من قَوَّاده وجنوده ، وأمرهم بالحدَر وقِلَّة الغفلة وتركِ الاغترار ، وخرج سائراً في جيشه حتى بلغ الولجة ، والتقت جنودُ المسلمين بجنود الأعاجم وجهاً لوجه . وكان خالد قد أمرَ اثْنَيْنِ مِنْ أمراء جنده أنْ ينفصلوا أثناء السير عنه ، وأن يكتنوا وراء العدو ؛ فيأخذوه أثناء القتال على غِرَّة ، لكنَّ هذا الكمين تأخَّر فلم يظهر حين كانت صفوفُ المقاتلين تترجَّح ؛ متقدمة طوراً ومتراجعة طوراً . واشتدَّ القتالُ ، وظنَّ الفريقان أن الصَّبْرَ قد نفذ ، وأن المعركة لن تنتهي إلى غاية .

وبينما هم كذلك خرج الكمينُ في وجهين ، فانهزمت صفوفُ الأعاجم وولَّوا

* لخالد بن الوليد على الأندرزغر (الفرس) . صفر سنة ١٢ ، والوجهة : من أرض كسكر في الشمال من المذار .

الطبري ٨/٤ ، ابن الأثير ١٨٨/٢ ، ابن خلدون ٧٩/٢ ، معجم البلدان ٤٣٣/٨ .

وأخذهم خالد من بين أيديهم ، والكَمِينُ من خلفهم ، فلم يَر رجلٌ منهم مقتلاً صاحبه ؛ ومَضَى الأندرزغر في هزيمته ، فمات عطشاً .

وقام خالد في الناس خطيباً ، يرغبهم في بلادِ المعجم ، ويُرْهِدُهم في بلادِ العرب ، وقال : ألا ترون إلى الطعام كَرَفُخٍ ^(١) التراب ! وبالله لو لم يلزمنا الجهادُ في الله ، والدُّعاهُ إلى الله عز وجلّ ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأى أن نُقَارِعَ على هذا الرِّيف ، حتى نكونَ أولى به ، ونُوَلِّيَ الجوعَ والإفلالَ مَنْ تَوَلَّاهُ ، رِمْنِ اثْنًا قَلَّ عَمَّا أَنْتُمْ عليه .

ثم سار في الفلاحين بسيرته فلم يقتلهم ، وسبى ذَرَارِيَّ المقاتلةِ ومنَ أعانهم ، ودعا أهل الأرض إلى الجزاء ^(٢) والذِّمَّةَ ، فتراجموا .

(١) الرفخ هنا : الأرض الكثيرة التراب ، يقال : جاء فلان بمال كرفخ التراب ، أى في كثيرته
(٢) الجزاء : جمع جزية ، وهى خراج الأرض مما يؤخذ من الدى .

٢٥ - يوم الئيس*

كان خالد بن الوليد قد أصاب يوم الولجة من نصارى بكر بن وائل ؛ الذين أعانوا أهل فارس . فغضب لهم نصارى قومهم ، وكتبوا الأعاجم ، وكتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى الئيس ، وعليهم عبد الأسود العجلي ، وسائده جابر بن بجير ، ومالك بن قيس .

وبلغ ذلك أردشير ، فكتب إلى بهمن جاذويه : أن سر حتى تقدم الئيس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب . فانطلق بهمن إلى أردشير ليستأمره فيما يريد أن يشير به ، وقدّم جابان ، وأمره أن يحث السير إلى الئيس ، وقال له : كف فكيف نفسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك ، إلا أن يُجْلوك .

نزل جابان الئيس ، واجتمعت إليه المساليح^(١) التي كانت بإزاء العرب ، وانضم إليه النصارى الذين كتبوا الأعاجم من بكر ، وجعل يدبر أمور القتال . ولم يكن خالد قد وقف على نبأ جابان وجنود فارس ، وإنما بلغه ما كان من تجمع العرب النصارى بالئيس ؛ فنهد^(٢) لهم .

* لخالد بن الوليد على بهمن جازويه (الفرس) . صفر ١٢ . وأليس : قرية من قرى الأنبار في منتصف الطريق بين الحرة والأبلة .

الطبرى ٩/٤ ، ابن الأثير ١٨٩/٢ ، ابن خلدون ٧٩/٢ ، معجم البلدان ٣٢٨/١ .

(١) المسالح : جمع مسلحة ، والمسلحة : القوم ذوو سلاح . وقد تطلق على الثغر .

(٢) نهض : نهض .

فلما طلع جَابَانُ بَأْسًا قَالَتِ الْأَعَاجِمُ لَجَابَانِ : أُنْمَا جِلْهَمُ أُمِ نُفْدَى الْقَوْمِ ، وَلَا تُرِيهِمْ أَنَّا نَحْفِلُ بِهِمْ ، ثُمَّ نَقَاتْلُهُمْ بَعْدَ الْفَرَاغِ ؟ فَقَالَ جَابَانُ : إِنْ تَرَكُوكُمْ فَتِهَانُوا ؛ وَلَكِنْ ظَنَّنِي بِهِمْ أَنَّهُمْ سَيُجْلِيُونَكُمْ وَيُغَارِبُونَكُمْ عَنِ الطَّعَامِ ؛ فَمَصُورُهُ وَبَسْطُوا الْبُسْطَ ، وَوَضَعُوا الْأَطِيمَةَ ؛ وَتَوَافَوْا إِلَيْهَا .

فلما انتهى خَالِدٌ إِلَيْهِمْ ، وَقَفَ وَأَمَرَ بِحِطِّ الْأَثْقَالِ ؛ فَلَمَّا وُضِعَتْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ ، وَوَكَّلَ حَوَاحِيَّ يَحْمُونَ ظَهْرَهُ ؛ ثُمَّ نَدَرَ^(١) أَمَامَ الصَّفِّ ، فَنَادَى : أَيْنَ أَبَجَرُ ؟ أَيْنَ عَبْدُ الْأَسْوَدِ ؟ أَيْنَ مَالِكُ بْنُ قَيْسٍ ؟ فَكَكَلُوا^(٢) عَنْهُ جَمِيعًا إِلَّا مَالِكًا ، فَبَرَزَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : يَا بَنَ الْخَبِيثَةِ ! مَا جَرَّأَكَ عَلَيَّ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَلَيْسَ فِيكَ وِفَاءٌ ! ثُمَّ ضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ ، وَأَجْهَضَ^(٣) الْأَعَاجِمَ عَنْ طَعَامِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلُوا . فَقَالَ جَابَانُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ يَا قَوْمُ ! أَمَا وَاللَّهِ مَا دَخَلْتَنِي مِنْ رَيْسٍ وَخَشْتَهُ قَطَّ حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ ، فَقَالُوا - حَيْثُ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْأَكْلِ - تَجَلَّدًا : نَدَعُهُ حَتَّى نَفْرَغَ مِنْهُمْ ؛ ثُمَّ نَعُودُ إِلَيْهِ .

وَجَمَلَ جَابَانُ عَلَى مُجَنَّبَتَيْهِ عَبْدَ الْأَسْوَدِ وَأَبَجَرَ ، وَخَالِدٌ عَلَى تَمَبَّتِيهِ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي قَبْلَهَا ؛ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا ، وَالْمَشْرُكُونَ يَزِيدُهُمْ كَلْبًا^(٤) وَشِدَّةً مَا يَتَوَقَّعُونَ مِنْ قُدُومِ بَهْمَنْ جَاذَوِيَّةٍ ، وَصَبَرُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَصَابَرُوا حَتَّى يَجِيئَهُمُ الْمَدَدُ ؛ وَرَأَى خَالِدٌ صَبْرَهُمْ وَقُوَّةَ تَجَلُّدِهِمْ لِبَأْسِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ بِاعْتِهِمْ عَلَى هَذَا وَذَلِكَ ، وَتَرَجَّحَتْ الْمَوْقِعَةُ حِينًا ؛ فَنُتَوَجَّهَ خَالِدٌ إِلَى رَبِّهِ يَسْتَنْصِرُهُ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنْ لَكَ عَلَيَّ إِنْ مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ إِلَّا أَسْتَبْقِيَ مِنْهُمْ أَحَدًا قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، حَتَّى أُجْرِيَ نَهْرُهُمْ بِدِمَائِهِمْ !

وَلَمْ يَذَرُ خَالِدٌ أَثْنَاءَ ذَلِكَ لَوْ نَأَمَنَ أَلْوَانُ الْمُدَاوَرَةِ إِلَّا ضَيِّقَ بِهِ الْخِنَاقَ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ فَلَمَّا رَعِيلَ صَبْرَهُمْ وَتَدَاعَتْ قُوَّتُهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَفَرٌّ تَحَطَّمَتْ صَفُوفُهُمْ ،

(١) ندر من بين القوم : ظهر . (٢) نكل : نكس وجبن .

(٣) أجهضهم عن طعامهم : أجهلهم . (٤) الكلب : الحرس والشدة .

وانقلبوا على أعقابهم ، يسارعون إلى الهرب ، ولا مأرب لهم إلا النجاة .
ثم أمر خالدٌ مناديه فنادى في الناس : الأسر ، الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع .
فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مُستأسرين^(١) ، يساقون سوق القم ، وقد وكل بهم
رجالاً يضربون أعناقهم في النهر ، ففعل بهم ذلك يوماً وليلة ؛ والنهر لا يجري دماً ؛
فقال له بعض أصحابه : لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماً و هم ؛ إن الدماء لا تزيد على
أن تترقرق منذ نهيت عن السيالان ، ونهيت الأرض عن نشف الدماء ، فأرسل
عليها الماء تبرئ يمينك - وقد كان صد الماء عن النهر فأعاده - فجرى دماً عبيطاً^(٢) ،
فسمى نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم^(٣) .

ولما هزم القوم وأجلوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من طلبهم ، وقف خالد على
الطعام فقال : قد نقلتكموه فهو لكم ، ففعل عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل
من لم يعرف الرقاق يقول : ما هذه الرقاق البيض ؟ وجعل من عرفها
يُجيبهم ويقول لهم مازحا : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون : نعم ؛ فيقول :
هو هذا !

وبعث خالد بالخبر إلى أبي بكر مع جندل المجلي ، فقدم على أبي بكر بالخبر ،
وبفتح أئس ، وبقد الفاء ، وبعدة السبي ، وبما حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء
من الناس ؛ فلما قدم على أبي بكر ورأى صرامته ، وقال له : ما اسمك ؟ قال : جندل ،
قال : ويها يا جندل :

نفس عصام سودت عصاما وعودته الكر والإقداما^(٤)
وأمر له بجارية من ذلك السبي .

(١) أى يعرضون أنفسهم للأسر . (٢) عبيطاً : طرياً .
(٣) روى الطبرى أنه كانت على النهر أرحاء ، طحنت في ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفاً من الجند
والماء من تحتها يتدفق أحمر فانيا . (٤) البيت للناطقة الديباني ، ديوانه ١٠٦ .

٢٦ - يوم الحيرة*

لما فرغ خالد من يوم أليس أنى أمغيشياً^(١) ، فوجد أن أهلها قد جَلَوْا عنها ،
وتفرقوا في السَّوَادِ^(٢) ، فأمر بهدمها ، وإزالة كل شيء كان في حيزها ، فأصاب
منها ما لم يُصِبْ من غيرها ، حتى بلغ سَهْمُ الفارس ألفاً وخمسمائة ، سوى النفل^(٣)
الذي نُفِّلَهُ أهلُ البلاء .

وكان الآزاذبه مرزبان^(٤) الحيرة في ذلك الحين ، فلما علم بأخبار أليس وخراب
أمغيشياً وانتصار خالد عندها ، وفعاله فيهما ، أيقن أنه غير متروك ، وقدَّر أن خالداً
سيركبُ إليه النهر ، فتهيأ لحربه ، وقدم ابنه ، وأمره أن يسد قناطر الفُرات ليموق
بذلك سَيْرَ السفن إليه ؛ ثم خرج في إثره حتى عسكر خارجاً من الحيرة .

ولما استقلَّ^(٥) خالد من أمغيشياً ، وحملَ الرَّجُلُ^(٦) في السفن ، وسار شمالاً إلى
ناحية الحيرة جنحت^(٧) السفن ، وارتطمت بقاع النهر ؛ فارتاع المسلمون لجنوحها ،
وأخذ الغضبُ من خالدٍ مأخذَه ، ثم سأل عن عِلَّةِ ذلك ، فقال الملاحون : إن أهل
فارس فجَّروا الأنهار ، فسلك الماء غير طريقه ؛ فلن يأتينَا الماء إلا بسدِّ الأنهار .

* لخالد بن الوليد على أهل الحيرة ، ربيع الأول سنة ١٢ ، والحيرة : موضوع على ثلاثة أميال
من الكوفة ، على موضع يقال له النجف .

الطبرى: ٤ - ١١ ، ابن الأثير : ٢ - ١٨٩ ، ابن خلدون : ٢ - ٨٠ ، فتوح البلدان : ٢٤٥

(١) أمغيشيا ، كانت مصرأ كالحيرة ، وكانت أليس من ثغورها .

(٢) السواد : قرى العراق . (٣) النفل : الغنيمة والهبة . ونفله : أعطاه النفل .

(٤) المرزبة كمرحلة : رئاسة الفرس ، وهو مرزبانهم . (٥) استقل : رحل .

(٦) الراجل : ضد الفارس ، جمعه الرجل ، كصاحب وصاحب .

(٧) جنحت السفينة : انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض .

فتمجَّلَ خالدُ فلقِيَّ ابنَ الأَزَازِبهِ على فَمِّ المَتَيْقِ ، وفَجَّاهُ وجندَهُ وهم آمِنُونَ في تلكَ السَّاعةِ ، فاقْتتلوا حتَّى هزَمَهُم ، وقَتَلَ ابنَ الأَزَازِبهِ ؛ وأعاد الماءَ يجرى في النهرِ ، فعادت السُّفُنُ إلى المَسيرِ ، وحملت إليه جِيشَهُ ، فسار بهُ إلى الخَوَزَنْقِ والنَّجَفِ .
وكان الأَزَازِبهُ يُقيمُ بمسكِرِهِ بينَ الغَرَيَّينِ^(١) والقَصْرِ الأَبْيَضِ ، فبلغه موتُ أَرْدَشِيرِ ، ثم علم بموتِ ابنِهِ ، وزحفَ خالدُ نحو الخَوَزَنْقِ ؛ فوَلَّى هارباً من غير قتال .

ووصل خالدٌ وأصحابُهُ فلم يَلْقَوْا عسكراً ؛ فأقاموا بينَ الغَرَيَّينِ والقصرِ الأَبْيَضِ ، وأهلُ الحيرةِ مُتَحَصِّنُونَ .

فأدخَلَ الخَيلَ مِنْ عسكِرِهِ ، وأمرَ بِكُلِّ قَصْرِ رَجُلًا من قُوَّادِهِ يحاصِرُ أهْلَهُ ويَقَاتِلُهُم ؛ فكان ضِرَّارُ بنُ الأَزُورِ محاصِراً القصرِ الأَبْيَضِ ، وفيهِ إِيَّاسُ بنُ قَبِيصَةَ الطَّائِيّ ، وكان ضِرَّارُ بنُ الخَطَّابِ محاصِراً قَصْرَ المَدَسِيِّينَ وفيهِ عَدِيّ بنُ عَدِيٍّ ، وكان ضِرَّارُ بنُ مُقَرَّنٍ محاصِراً قَصْرَ بَنِي مَازِنَ ، وفيهِ ابنُ أَكَّالَ ، وكان المُنَشَّى محاصِراً قَصْرَ ابنِ بُقَيْلَةَ ، وفيهِ عَمْرُو بنُ عبدِ المَسيحِ ، وعَهِدَ إليهِم جَمِيعاً أَنْ يبدؤوا بالدُّعَاءِ ، فَإِنْ أَجابوا قَبِلُوا مِنْهُم ، وَإِنْ أَبَوْا أَجْلَوْهم يوماً ، ثم قَاتَلُوهم وقَتَلُوهم .

فكان أوَّلُ القوادِ الذين أنشَبوا القتالَ بعدَ تأجيلِهِم يوماً هو ضِرَّارُ بنُ الأَزُورِ ، وكان على قتالِ أَهْلِ القَصْرِ الأَبْيَضِ ؛ فأصبحوا وهم مُشْرِفُونَ ؛ فدعاهم إلى إحدى ثلاثِ : الإسلامِ ، أو الجزاءِ^(٢) ، أو المُنَابَذَةِ^(٣) . فاختاروا المُنَابَذَةَ ، وتنادَوْا : عليكم بالحصا ، فقال ضِرَّارُ : تَنَحَّوْا ؛ لا يَنَالُكُم الرَّمْيُ ، حتَّى نَنظُرَ في الذي هَتَفُوا بِهِ . فلم يلبثْ أَنْ امتلأَ رَأْسُ القَصْرِ من رِجالٍ مُعَلَّقِي المَخَالِي^(٤) ؛ يرمون المسلمين بالحصا ،

(١) الغريان : بناءً ان كانا معروفين بالكوفة .

(٢) الجزاء : جمع جزية . (٣) المنابذة : تحييز كل من الفريقين للحرب .

(٤) المخالي : جمع غلالة .

فقال ضرار : ارشقوهم ؛ فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل ، وصبح كل أمير أصحابه
بمثل ذلك .

فاتحوا الدور والديرات وأكثروا القتل ، فنادى القسيسون والرهبان : يا أهل
القصور ؛ ما يقتلنا غيركم ! فنادى أهل القصور : يا معشر العرب ؛ قد قتلنا واحدة
من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تبكفونا خالدا ، فكفوا عنهم وأرسلوهم
إلى خالد .

فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدي وقال :
ويحكم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنقمون من العرب ! أم عجم ! فما تنقمون من
المدل والإنصاف ! فقال له عدي : بل عرب عاربة ؛ وأخرى متعربة ، فقال :
لو كنتم كما تقولون لم تحادونا^(١) وتكرهوا أمرنا .

فقال له عدي : يدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا العربية ، فقال خالد :
اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا ؛ فلکم ما لنا وعليكم ما علينا ؛
أو الجزية ، أو المناجزة والمناجزة^(٢) ، فقد أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم
على الحياة . فقال : بل نعطيك الجزية ، فقال خالد : تبأ لكم ! ويحكم ! إن
الكفر فلاة مصلة^(٣) ، فأخفق العرب من سلكها ، فلقية دليان ؛ أحدهما عربي
فتركه واستدل^(٤) الأعمى .

ولم يغير هذا الكلام من إصرار القوم على دينهم ، فصالحوه على مائة ألف
درهم وتسعين ألفا ، وتتابع أهل القصور على ذلك ، وأهدوا له الهدايا ، وبعث

(١) حاد : غاضبه وعاداه وخالفه .

(٢) المناجزة : المبارزة . (٣) صحراء فلاة . وأرض مصلة — بفتح الصاد وكسرهما : يضل

فيها الماشي . (٤) استدل الأعمى : طلب منه أن يده .

بافتح والهدايا إلى أبي بكر ، فأجاز أبو بكر المعاهدة ، وقبل الهدايا واحتسبها من الجزاء .

وكتب إلى خالد : أن اخسب لهم هديتهم من الجزاء ، إلا أن تكون من الجزاء ، وخذ بقية ما عليهم ، فقو بها أصحابك .

ثم كتب خالد لأهل الحيرة هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيري بن أكال ، وهم نقيباً^(١) أهل الحيرة . ورضى بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به . عاهدتهم على مائة ألف وتسعين ألف درهم ، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم ، إلا من كان منهم على غير ذي يد ، حميساً عن الدنيا ، تاركاً لها ؛ وعلى المنعة ، فإن لم يمنعمهم فلا شيء عليهم حتى يمنعمهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالدمنة منهم بريئة .

وكتب في شهر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة .

ولما استقر خالد في الحيرة خرج إليه صلوبة بن نسطونا صاحب قس الناطف^(٢) ، فصالحه على باتقياً^(٣) وباروسماً^(٤) وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف ؛ فكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبة بن نسطونا وقومه . إني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، على عشرة آلاف دينار ، القوي على

(١) نقيب القوم : ضميتهم ورئيسهم .

(٢) قس الناطف : موضع قريب من الكوفة . (٣) باتقيا : ناحية من نواحي الكوفة .

(٤) باروسما : من ناحية بغداد .

قدر قُوَّته ، والمَقِلُّ على قَدَرٍ إِقْلَالِهِ في كُلِّ سَنَةٍ ، وإِنَّكَ قد نُقِبْتَ^(١) على قَوْمِكَ ،
وإنَّ قَوْمَكَ قد رَضُوا بِكَ ، وقد قَبِلْتُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَضِيَتْ
وَرَضِيَ قَوْمُكَ ، فَلَكَ الذَّمَّةُ وَالْمَنْعَةُ ؛ فَإِنْ مَنَعْنَاكُمْ فَلَنَا الْجُزْئِيَّةُ ، وَإِلَّا فَلَا حَتَّى
نَمْنَعَكُمْ .

ولما رأى دَهَاقِينُ^(٢) البلاد ما تمَّ لخالد من الظَّفَرِ أَتَوْهُ فصالحوه على ما بين
الْفَلَاحِيجِ^(٣) إلى هُرْمُزِ جَرْدِ^(٤) ، على أَلْفِي أَلْفِي درهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً .
ولما تمَّ لخالد فتحُ الحيرةِ صَلَّى صلاةَ الْفَتْحِ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ ، لَا يُسَلِّمُ فِيهَا ، فَلَمَّا
أَتَمَّ^(٥) انْفَتَلَ^(٥) إلى أَصْحَابِهِ يَقُولُ : لَقَدْ قَاتَلْتُ يَوْمَ مَوْتَةٍ ، فَانْقَطَعَ في يَدِي تِسْعَةُ
أَسْيَافٍ ، وَمَا لَقِيتُ قَوْماً كَمَنْ لَقِيتُهُمْ مِنْ أَهْلِ فَارَسٍ .
ثُمَّ أَقَامَ بِالْحِيرَةِ وَجَمَلَهَا مَرَّةً كَرَّةً قِيَادَتِهِ^(٦) .

(١) نُقِبَتْ : صُرَتْ نَقِيْباً وَضَمِيْنًا . (٢) الدَهَقَانُ - بِكسْرِ الدالِ وَضَمِّهَا : زَعِيمُ فَلَاحِي الْعَجَمِ
وَرَأِيسُ الْإِقْلَامِ . (٣) فَلَاحِي السَّوَادِ : قَرَاهَا . (٤) هُرْمُزِ جَرْدِ : نَاحِيَةٌ مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ
(٥) انْفَتَلَ : انْصَرَفَ .

(٦) مِنْ طَرَائِفِ مَا يَرْوِيهِ الْمُؤَرِّخُونَ لِأَبْنِ فَتْحِ الْحِيرَةِ أَنَّ خَالِدًا أَبَى أَنْ يَكْتُبَ مَعَ الْقَوْمِ عَهْدًا إِلَّا
أَنْ تَسْلَمَ كِرَامَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَسِيحِ أُخْتُ عَمْرُو إِلَى شُوَيْلٍ ؛ وَلَمَّا أَصْرَ عَلَى ذَلِكَ لَمَّا قَبِلَ مِنْ أَنْ شُوَيْلٍ
هَذَا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ فَتْحَ الْحِيرَةِ فَسَأَلَهُ كِرَامَةُ . فَقَالَ لَهُ : هِيَ لَكَ ، إِذَا
فَتَحْتَ عَنُودَ ، وَكَانَتْ كِرَامَةُ بَارِعَةً الْجَمَالِ فِي صَبَاهَا ، وَكَانَ شُوَيْلٍ قَدْ رَأَاهَا فِي شَبَابِهِ ، فَجُنَّ بِهَا دَهْرًا .
وَشَقِيَ هَذَا عَلَى أَهْلِهَا ، فَقَالَتْ لَهُمْ : هُوَنُوا عَلَيكُمْ وَأَسْلُونِي ، فَإِنِّي سَأَفْتَدِي ، وَمَا تَخَافُونَ عَلَى
امْرَأَةٍ بَلَفَتْ ثَمَانِينَ سَنَةً إِلَّا نَحْنًا هَذَا رَجُلٌ أَحَقُّ رَأْيِي فِي شَبِيبَتِي فَظُنُّنَا أَنَّ الشَّبَابَ يَدُومُ ، وَرَفَعْتُ لِي
شُوَيْلٍ فَقَالَتْ لَهُ : مَا أُرْبِكَ إِلَى عَجُوزٍ كَمَا تَرَى ؟ فَادْنُ . قَالَ : لَا ، إِلَّا عَلَى حَكْمِي ،
قَالَتْ : فَلَمْ حَكْمِكَ مَرْسَلًا . قَالَ : لَسْتُ لِأُمِّ شُوَيْلٍ ، إِنْ نَقَصْتُكَ عَنْ أَلْفِ دَرَاهِمٍ .
وَتَظَاهَرَتْ كِرَامَةُ بِاسْتِكْثَارِ الْمُبْلَغِ لَتُخَدِّعَهُ ، ثُمَّ أَتَتْهُ وَرَجَعَتْ بِهِ إِلَى أَهْلِهَا . وَسَمِعَ أَصْحَابُ شُوَيْلٍ بِمَا صَنَعَ
فَسَخَرُوا مِنْهُ لِقَلَّةِ الْفِدَاءِ ، وَعَنْفِهِ بَعْضُهُمْ . فَكَانَ اعْتِدَارُهُ : مَا كُنْتُ أَرَى عِدْدًا يَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ . وَشَكَا
أَمْرَهُ إِلَى خَالِدٍ ، وَقَالَ : كَانَتْ نَبِيْغَايَةِ الْعَدَدِ . فَقَالَ خَالِدٌ : أَرَدْتُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ غَيْرَهُ ، نَأْخُذُ بِمَا يَظْهَرُ
وَنَدَعُكَ وَنَبِيْكَ ، كَاذِبًا كُنْتَ أَوْ صَادِقًا .

٢٧ - يوم ذات العيون*

خَلَفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْحَيَرَةِ الْقَمْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو ، وَخَرَجَ فِي تَعْيِيَّتِهِ ، وَجَمَلَ عَلَى مَقْدَمَتِهِ الْأَقْرَعَ^(١) بْنُ حَابِسٍ ، وَسَارَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى انْتَهَوْا رُكْبَانًا إِلَى الْأَنْبَارِ^(٢) ، فَرَأَوْا أَنَّ أَهْلَهَا قَدْ تَحَصَّنُوا بِهَا ، وَخَنَدَقُوا عَلَيْهَا ، وَأَشْرَفُوا مِنْ حِصْنِهِمْ . وَكَانَ يَقُودُ الْجُنُودَ فِيهَا شِيرَزَادُ صَاحِبُ سَابَاطٍ ، وَكَانَ أَعْقَلَ أَجْمَمِيٍّ يَوْمَئِذٍ .

وَلَمَّا قَدَّمَ خَالِدٌ أَطَافَ بِالْخَنْدَقِ ، وَأَنْشَبَ الْقِتَالَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى رُمَاتِهِ ، فَأَوْصَاهُمْ وَقَالَ : إِنِّي أَرَى أَقْوَامًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ ، فَارْمُوا عِيُونَهُمْ وَلَا تَوَخَّوْا غَيْرَهَا . فَرَمَوْهُمْ فَفَقَتْهُوا أَلْفَ عَيْنٍ يَوْمَئِذٍ ، وَتَصَايَحَ الْقَوْمُ إِذْ ذَهَبَتْ عِيُونُهُمْ .

وَلَمَّا رَأَى شِيرَزَادُ ذَلِكَ رَاسَلَ خَالِدًا فِي الصُّلْحِ عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَرْضَهُ خَالِدٌ ، فَرَدَّ رُسُلَهُ .

وَأَتَى خَالِدٌ أَضِيقَ مَكَانٍ فِي الْخَنْدَقِ بِرَذَايَا^(٣) الْجَيْشِ فَنَحَرَهَا ، ثُمَّ رَمَى بِهَا فِيهِ فَأَفْغَمَهُ^(٤) ، ثُمَّ اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ ، وَالرَّذَايَا جَسُورُهُمْ .

* لخالد بن الوليد على شيرازاد (الفرس) . سنة ١١٢ هـ . وسميت ذات العيون لما وقع فيها من فقه عيون الأعداء .

الطبري : ٤ - ٢٠ . ابن الأثير : ٧ - ١٩٢ . ابن خلدون : ٢ - ٨١ .

(١) الأقرع بن حابس ، ينتهي نسبه إلى تميم ، كان حكيما في الجاهلية ، ثم وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مسلما ، وشهد فتح مكة وحنينا والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم ، وشهد كثيرا من أيام الفتوح ، وقتل باليرموك في عشرة من بيته .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات غربي بغداد .

(٣) الرذايا : جمع رذى ، والرذى : المهزول من الإبل ، الهالك .

(٤) أفغمه : ملأه ..

(١٣ - أيام العرب في الإسلام)

واجتمع المسلمون والمشركون في الخندق ، وأرَزَ القوم^(١) إلى حصنهم ، ورأسَلَ
شِيرَزَادُ خالداً في الصلح على ما أراد ؛ فقبِلَ منه على أن يُخلِّيَهُ ويُلحِقَهُ بِمَأْمَنِهِ
في جَرِيدَةٍ^(٢) خَيْلٍ ، ليس معهم مِنَ المَتَاعِ والأموال شَيْءٌ .

وخرج شيرزاد حتى قدم على بهمن جاذويه ، فأخبره الخبر ، وقال له : إني كنتُ
في قوم ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب ، فسمعتُهم - حين قدم المدؤء علينا -
يَقْضُونَ على أنفسهم ، وقلما قَضَى قومٌ على أنفسهم قضاءً إلا وجب عليهم .
ثم قاتلهم الجند ، ففَقَتُوا منهم أَلْفَ عَيْنٍ ؛ فعرَفْتُ أن المسألة أسلم .

(١) أرز القوم : رجعوا .

(٢) الجريدة : خيل لا رجالة فيها .

٢٨ — يوم عَيْنِ التَّمَرِ*

لما فرغ خالدٌ مِنَ الْأَنْبَارِ واستَحْكَمَتْ لَهُ، استخلفَ عليها الزُّبْرَانَ بنَ بَدْرٍ وقَصَدَ لَمَيْنَ التَّمَرِ، وفيها مهران بن بهرام في جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ الْعَجَمِ، وَعَقَّةُ بْنُ أَبِي عَقَّةٍ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ الْعَرَبِ؛ فَلَمَّا سَمِعُوا بِخَالِدٍ، قَالَ عَقَّةُ لِمِهْرَانَ: إِنَّ الْعَرَبَ أَعْلَمُ بِقِتَالِ الْعَرَبِ، فَدَعَانَا وَخَالِدًا.

قال: صدقت؛ لَعَمْرِي لَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِقِتَالِ الْعَرَبِ، وَإِنْكُمْ لَمِثْلُنَا فِي قِتَالِ الْعَجَمِ؛ وَخَدَعَهُ وَأَتَمَّى بِهِ، وَقَالَ: دُونَكُمْوهُمْ، وَإِنْ احْتَجَجْتُمْ إِلَيْنَا أَعْنَاكُمْ. فلما مضى عَقَّةُ نَحْوَ خَالِدٍ قَالَتِ الْأَعَاجِمُ لِمِهْرَانَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَقَالَ: دَعُونِي، فَإِنِّي لَمْ أُرِدْ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَشَرٌّ لَهُمْ؛ إِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ مَنْ قَتَلَ مَلُوكَكُمْ وَفَلَّ حَدَّكُمْ، فَاتَّقَيْتُهُ بِهِمْ؛ فَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ عَلَى خَالِدٍ فَهِيَ لَكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْآخَرَى فَلَنْ يَبْلُغُوا مِنْهُمْ حَتَّى يَهْنِئُوا، فَفَنَقَاتْلَهُمْ وَنَحْنُ أَقْوَى، وَهُمْ مُضْمَعُونَ. فَاعْتَرَفُوا لَهُ بِنُضْلِ الرَّأْيِ.

فلزم مهران لَمَيْنَ، وَنَزَلَ عَقَّةُ لَخَالِدٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَعَلَ عَلَى مَيْمَنَتِهِ بُجَيْرًا، أَحَدَ بَنِي عُبَيْدٍ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْهَذِيلَ بْنَ عِمْرَانَ. وجاء خالد في تمبيلة جُنْدِهِ، وَقَالَ لِمُحَبِّبَتَيْهِ: اكْفُونَا مَا عِنْدَهُ؛ فَإِنِّي حَامِلٌ عَلَيْهِ. وَبَيْنَا عَقَّةُ يَقِيمُ صُفُوفَهُ احْتِضَنَهُ خَالِدٌ، وَأَخَذَهُ أُسِيرًا، وَانْهَزَمَ صَفُّهُ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، فَأَكْثَرَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمُ الْأَسْرَ.

* لخالد بن الوليد علي مهران بن بهرام وعقّة بن أبي عقّة. كان ذلك اليوم سنة ١٢ هـ. وعين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غرب الكوفة.

الطبري: ٤ - ٢١. ابن الأثير: ٢ - ١٩٣، ابن خلدون: ٢ - ٨١، معجم البلدان:

ولما جاء الخبر إلى مهران هرب في جُنْدِهِ ، وتركوا الحصن . وانتهت فُلَّالُ عَقَّةٍ من العرب والمعجم إلى الحصن ، واقتحموه واعتصموا به . وأقبل خالد في الناس حتى نزل الحصن ومعه عَقَّةُ أسيراً ، وكان هؤلاء المهزومون يرجون أن يكون خالد كمن كان يُغِيرُ من العرب ، فلما رأوه يُحَاوِلُ القضاء عليهم سألوه الأمان ، فأبى إلا أن ينزلوا على حُكْمِهِ ، فأجابوه إلى ما طلب ، وفتحوا له باب الحصن فاعتقلهم . وأمر بِعَقَّةٍ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ ، ولما رآه الأشرى مطروحاً على الجسر يتسوا من الحياة .

ثم ضَرَبَ خالدُ أعناقَ أَهْلِ الحصنِ أَجْمَعِينَ ، وسَبَى كُلَّ مَا حَوَى حِصْنُهُمْ ، وَغَنِمَ مَا فِيهِ ، ووجد في بَيْعَتِهِمْ^(١) أربعين غُلاماً يتعلَّمون الإنجيل ، عليهم باب مُغْلَقٌ ، فكسره وقال لهم : ما أنتم ؟ قالوا : رُهْنٌ . فقسَّمَهُمْ فِيمَنْ أَحْسَنُوا البلاءَ ، فكان منهم أبو زياد مَوَّلَى ثَقِيفٍ ، وَنُصَيْرُ أبو البطل الفاتح موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، فقيه البصرة .

ثم أرسل إلى أبي بكر بالأخماس مع الوليد بن عُقْبَةَ ، وأخبره بالفتح .

(١) البيعة : متعبد النصارى .

٢٩ — يوم دومة الجندل *

لَمَّا قَدِمَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ مِنْ عِنْدِ خَالِدٍ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بِمَا بَعَثَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْمَاسِ وَجَّهَهُ إِلَى عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ ، وَأَمَدَّهُ بِهِ ؛ فَقَدِمَ عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ ، وَعِيَاضٌ يُحَاصِرُ الْقَوْمَ ، وَهُمْ يَحَاصِرُونَهُ ، وَقَدْ أَخَذُوا عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَلَمْ يَجِدْ بَعْدَ مُدَاوَلَةٍ الرَّأْيَ مَعَهُ وَسِيلَةً تُنْقِذُهُ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ : الرَّأْيُ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ خَيْرٌ مِنْ جُنْدٍ كَثِيفٍ ؛ ابْهَثْ إِلَى خَالِدٍ فَاسْتَمِدَّهُ .

فَفَعَلَ . وَقَدِمَ رَسُولُهُ عَلَى خَالِدٍ ، رَغِبَ^(١) وَقَعَمَةَ عَيْنِ التَّمْرِ ، فَعَجَّلَ إِلَى عِيَاضَ بِكِتَابِهِ :

مِنْ خَالِدٍ إِلَى عِيَاضَ ، إِيَّاكَ أُرِيدُ .

لَبَّثْتُ قَلِيلًا تَأْتِيكَ الْحَلَالِيبُ يَحْمِلُنَ آسَادًا عَلَيْهَا الْقَاشِبُ^(٢)

* كِتَابُهُ تَتَّبِعُهَا كِتَابُهُ *

ثُمَّ خَلَّفَ خَالِدٌ عَلَى عَيْنِ التَّمْرِ عُوَيْمَ بْنَ الْكَاهِلِ الْأَسَدِيَّ ، وَخَرَجَ فِي تَعْيِنتِهِ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا الْعَيْنُ يَسْرِعُ السَّيْرَ جُهْدَهُ .

وَلَمَّا بَلَغَ أَهْلَ دُومَةِ مَسِيرُ خَالِدٍ إِلَيْهِمْ بُهَتُوا ، ثُمَّ اخْتَلَفَ زَعَمَاؤُهُمْ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَصْنَعُونَ .

وَكُنَ عَلَيْهِمْ رُئِيسَانِ : أَكِيدَرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَقَالَ أَكِيدَرُ : أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِخَالِدٍ ، لَا أَحَدٌ أَيْمَنُ طَائِرًا مِنْهُ ، وَلَا يَرَى قَوْمٌ وَجْهَهُ

* لَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى أَكِيدَرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَالْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ ، كَانَ سَنَةُ ١٢ هـ . وَدُومَةُ

الْجَنْدَلُ : عَلَى سَبْعِ مَرَاكِلَ مِنْ دِمَشْقَ .

(١) رَغِبَ : بَعْدَ . (٢) الْقَاشِبُ : السَّيْفُ الصَّقِيلُ الْمَجْلُو .

خالد قتلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال :
لن أَمَّا لَكُمْ عَلَى حَرْبِ خَالِدٍ^(١) ، فشأنكم . وخرج إِطِيتَهُ .
وبلغ ذلك خالداً ، فبعث عاصم بن عمرو معارضاً له ، فأخذه وجاء به إلى خالد ،
فضرب عنقه^(٢) .

ولما نزل خالد على دومة جعلها بينه وبين عسكر عياض ، واطمأن هناك ،
نفرج إليه الجودي بن ربيعة ووديمة الكلبي ؛ فهزمهما الله على يدى خالد
وأخذها أخذاً .

وَأَرْزُ^(٣) بَقِيَّةُ النَّاسِ إِلَى الْحَصْنِ ، فلما امتلأ أغلق مَنْ فِيهِ أَبْوَابَهُ دُونَ أَصْحَابِهِمْ ،
وَتَرَكُوهُمْ عُرْضَةً لِلْمُسْلِمِينَ ، يَقْتُلُونَهُمْ وَيَأْسِرُونَ مِنْهُمْ مَنْ يَشَاءُونَ .
وأقبل خالد على الذين أَرْزُوا إِلَى الْحَصْنِ فقتلهم ، حتى سدَّ بهم باب الحصن ،
ودعا بالجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسارى فضرب أعناقهم أيضاً ، إلا أسارى
كَلْبَ فَإِنَّ غَاصِمًا قَالَ : قَدْ أَمَّنَّا هُمْ ؛ فَأُطْلِقَهُمْ لَهُ خَالِدٌ ، وَقَالَ : مَالِي وَلَكُمْ ! أَتُحْفَظُونَ
أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتُضَيِّعُونَ أَمْرَ الْإِسْلَامِ !
ثم طَوَّفَ خَالِدٌ بِالْحَصْنِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْبَابِ ، أَمَرَ بِهِ فَاقْتُلِعَ ، وَاقْتَحَمَ الْمُسْلِمُونَ
عَلَى مَنْ فِيهِ ، فَفَقَتَلُوا الْمُقَاتِلَةَ ، وَسَبَّوْا النِّسَاءَ .
وأقام خالد بدومة الجندل ، وَرَدَّ الْأَقْرَعَ إِلَى الْأَنْبَارِ .

(١) قال ذلك أكيدر لأنه لم ينس عام تبوك .

(٢) وهناك رواية أخرى بأنه أسر وأرسل إلى المدينة . (٣) أَرْزُ : رجم .

٣٠ - يوم اليرموك*

بعد أن عاد أبو بكر إلى المدينة ، مُنْصَرَفَهُ مِنَ الْحِجْ ، أَرَادَ أَنْ يَعْقِدَ لَوَاءَ خَالِدِ
ابْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي^(١) ، وَيُوجِّهَهُ إِلَى الشَّامِ ؛ فَنَهَاهُ عَمْرُ بْنُ قُتَيْبَةَ : إِنَّهُ لَخَذُولٌ ،
وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ التَّرْوِثَةِ^(٢) ، فَلَا تَسْتَنْصِرْ بِهِ ، فَلَمْ يَحْتَمِلْ أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهِ ، وَأَطَاعَ عَمْرُ
فِي بَعْضِ أَمْرِهِ ، وَعَصَاهُ فِي بَعْضٍ^(٣) .

ثم أمر خالداً أَنْ يَنْزِلَ تَيْمَاءَ^(٤) ، وَأَلَّا يَبْرَحَهَا ، وَأَنْ يَدْعُوَ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ
العرب بالانضمام إليه ، وَأَلَّا يَقْبَلَ إِلَّا مَنْ لَمْ يَرْتَدَّ ، وَلَا يَفْتَاتِلَ إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُ ،
حَتَّى يَأْتِيَهُ أَمْرُهُ .

* للعرب على الروم ، كان سنة ١٣ هـ . واليرموك : واد بناحية الشام ينتهي إلى نهر الأردن .
الطبري ٤ : ٢٨ . ابن الأثير ٢ : ٢٠٠ . ابن خلدون ٢ : ٨٣ . فتوح البلدان ١٤٠ : معجم
البلدان ٨ : ٥٠٤ .

(١) خالد بن سعيد : من السابقين الأولين من المهاجرين ، وقيل : كان خامس المسلمين ؛ سبقه
أبو بكر وعلي وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص . واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات
مذحج ، واستشهد يوم مرج الصفر سنة ١٤ هـ .
(٢) التروثة : النظر في العواقب .

(٣) قيل : كان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد أن خالداً كان عاملاً لرسول الله صلى الله عليه
وسلم على اليمن ، فقدم بعد وفاة الرسول بشهر ، والقوم في مصابرة أهل الردة ، وكان لا يسأ جبة
ديباج ؛ فقال عمر لمن يليه : مزقوا عليه جبته ، ألبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور !
فوجدوها خالد في نفسه ، ولقي علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، فقال : يا بني عبد مناف ، لقد
طبت نفسك عن أمر يليه غيركم . وتربص ببينة أبي بكر مدة ، يقول : أمرني رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولم يعزاني ، حتى قبضه الله ، فكان عمر يضطغن ذلك عليه ، واسكن أبا بكر لم يحفلها ،
ولم يضطغن عليه .

(٤) تيماء : بلد في أطراف الشام ووادي القرى ، على طريق الحاج من دمشق .

فَفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ حَتَّى نَزَلَ بِتَيْمَاءَ ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ جُوعٌ كَثِيرَةٌ ، وَبَلَغَ الرُّومَ عِظَمُ ذَلِكَ الْمُسْكِرِ ، فَأَخَذُوا يُعَذِّبُونَ عُذَّتَهُمْ ، وَيُجْمِعُونَ رَأْيَهُمْ .

فَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ ، وَبَنَزَلَ مِنْ اسْتَنْفَرَتِ الرُّومُ وَنَفَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ بَهْرَاءَ وَكَلْبَ وَسُلَيْجَ وَتَنُوحَ وَلَخْمَ وَجُدَامَ وَغَسَّانَ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ : أَنْ أَقْدِمَ وَلَا تُخْجِمَ ، وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ .

فَسَارَ إِلَيْهِمْ خَالِدٌ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ تَفَرَّقُوا وَأَعْرَوْا مَنَزِلَهُمْ ، فَزَلَهُ ، وَدَخَلَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ قَدْ تَجَمَّعَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ : أَقْدِمْ ، وَلَا تَقْتَحِمَنَّ حَتَّى لَا تُؤْتَى مِنْ خَلْفِكَ ؛ فَسَارَ فِيمَنْ كَانَ خَرَجَ مَعَهُ مِنْ تَيْمَاءَ ، وَفِيمَنْ لَحِقَ بِهِ حَتَّى نَزَلُوا الْقَسْطَلَ^(١) .

فَسِيرَتِ الرُّومُ إِلَيْهِ عَسْكَرًا يَقُودُهُ بَاهَانُ الْبَطْرِيْقُ^(٢) ؛ فَكَتَبَ خَالِدٌ بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَاسْتَمَدَّهُ .

وَوَافَقَ ذَلِكَ قَدُومَ عِكْرِمَةَ فِيمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ تَيْهَامَةَ وَعُمَانَ وَالْبَحْرَيْنِ ، فَأَمَرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ .

وَسَارَ مَعَ عِكْرِمَةَ ذُو الْكَلَّاعِ عَلَى رَأْسِ الْجُنْدِ الَّذِينَ صَحِبُوهُ مِنَ الْيَمَنِ حَتَّى يَطْمَأَنَّ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ ، وَيَتَأَيَّسَ مَسِيرَتَهُ .

ثُمَّ تَرَاخَى إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنَّ الرُّومَ اجْتَمَعَتْ بِالْيَرْمُوكَ وَنَزَلُوا بِهِ ، وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَنَشْفَلَنَّ أَبَا بَكْرٍ فِي نَفْسِهِ عَنْ تَوَرُّدِ بِلَادِنَا بِحُيُولِهِ ، فَكَتَبَ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ - وَكَانَ عَلَى صَدَقَاتِ سَعْدٍ وَعُذْرَةَ وَجُدَامَ : إِنِّي كُنْتُ قَدْ رَدَدْتُكَ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي

(١) القسطل : بلد في طريق البحر الميت .

(٢) البطريق : القائد من قواد الروم ، تحت يده عشرة آلاف رجل .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَا كَهْ ؛ إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وُلِّيَتْهُ ثُمَّ وُلِّيَتْهُ ، وقد أُحْبِبْتُ - أبا عبد الله - أن أفرِّغَكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ في حياتِكَ وَمَعَادِكَ مِنْهُ ، إلا أن يكون الذي أَنْتَ فيه أَحَبُّ إِلَيْكَ .

فكتب إليه عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : إني سَهَمْتُ مِنْ سِهَامِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ الرَّأْيِ بِهَا ، وَالْجَامِعُ لَهَا ؛ فَانْظُرْ أَشَدَّهَا وَأَخْشَاهَا وَأَفْضَلَهَا ، فَأَرْمِ بِهِ شَيْئاً إِنْ جَاءَكَ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي .

ثم كتب أبو بكر إلى الوليد بن عُقْبَةَ ، وكان على صدقاتِ قُضَاعَةَ بنحو ذلك ، فأجابه بإِشَارِ الْجِهَادِ ، فكتب إليهما : استخلفا على أعمالكما ، واندبَا مَنْ يَلِيَكُمَا .

فاستخلف كلٌّ منهما ، وندبَا الناسَ ، فقتلَا إليهما بشرٌ كثيرٌ ، وانتظرا أَمْرَ أَبِي بَكْرٍ .

وقام أبو بكر في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رَسُولِهِ وقال :
أَلَا إِنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ جَوَامِعَ ، فَمَنْ بَلَغَهَا فَهِيَ حَسْبُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ لَهَا كِفَاهُ اللَّهِ ،
عَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْقَصْدِ ؛ فَإِنَّ الْقَصْدَ أَبْلَغُ ، أَلَا إِنَّهُ لَادِينَ لِأَحَدٍ لَا إِيمَانَ لَهُ ، وَلَا
أَجْرَ لِمَنْ لَا حِسْبَةَ لَهُ ، وَلَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ . أَلَا وَإِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ
عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يُخَصَّ بِهِ ؛ هِيَ التَّجَارَةُ الَّتِي دَلَّ
اللَّهُ عَلَيْهَا وَنَجَّى بِهَا مِنَ الْخِزْيِ ، وَالْحَقَّ بِهَا الْكَرَامَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثم أمدَّ عَمْرًا بِبَعْضٍ مِنْ اتَّدَبِ^(١) لِلغَزْوِ إِلَى مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ . وَأَمَرَهُ عَلَى
فلسطين ، وَأَمَرَهُ بِطَرِيقِ سَمَاهَا لَهُ . وَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَأَمَرَهُ بِالْأَرْدُنِّ ،

(١) يقال : اتَّدَبَ الْقَوْمُ مِنْ ذَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ دُونَ أَنْ يَنْدُبُوا .

وأمدّه ببعضهم . ودعا يزيد بن سفيان ، فأمره على جُنْدٍ عظيم ، هم جمهورٌ من انتدب له ، وجعل في جنده سُهيل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة ، وشيعة ماشياً ، وكان مما قاله له : إذا قدمت على جُنْدِكَ فأحسِنْ صُحْبَتَهُمْ ، وابدأهم بالخير ، وعِدْهُمْ إِيَّاهُ ، وإذا وعظتَهُمْ فَأَوْجِزْ ، فإن كثيرَ الكلام يُنسى بَعْضُهُ بَعْضاً . . . وإذا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلُ عَدُوِّكَ فَأَكْرِمْهُمْ ، وأَقِلْ لُبَّهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ بِهِ ؛ وامْنَعْ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ مُحَادَثَتِهِمْ ، وَكُنْ أُنْتِ الْمُتَوَلَّى لِكَلَامِهِمْ ؛ واسْمُرْ بالليل في أضْحَاكِكَ تَأْتِكَ الْأَخْبَارُ ، وَتَنَكَّشِفَ عِنْدَكَ الْأَسْتَارُ ، وَاصْدُقِ اللَّقَاءَ ، وَلَا تَجْبُنْ فَيَجِبَنَّ النَّاسُ .

واستعمل أبا عُبَيْدَةَ بنَ الْجَرَّاحِ على مَنْ اجتمع له ، وأمره على حِمَصٍ ، وخرج معه ماشياً ، والناسُ معهما وخلفهما .

وسبق الوليدُ بن عُقْبَةَ هُؤَلَاءِ ، وَاتَّصَلَ بِمُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ فَسَانَدَهُ^(١) . وبلغ خالدًا ترجُّهُ الْأُمَرَاءُ إِلَيْهِ ، فَطَلَبَ الْخَطْوَةَ لِنَفْسِهِ ، وَاقْتَحَمَ عَلَى الرُّومِ ، وَأَعْرَى ظَهْرَهُ ؛ فَاسْتَطْرَدَ^(٢) لَهُ بِأَهَانَ ، وَقَصْدَهُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى دِمَشْقَ ، فَاقْتَحَمَ خَالِدٌ فِي الْجَيْشِ ، وَمَعَهُ ذُو الْكَلَاعِ وَعِكْرِمَةُ وَالْوَلِيدُ ، حَتَّى إِذَا نَزَلَ مَرْجُ الصُّفَرِ^(٣) ، بَيْنَ الْوَأْقُوسَةِ^(٤) وَدِمَشْقَ ، أَحَاطَ بِهِ بِأَهَانَ وَجُنُودُهُ ، وَأَخَذُوا عَلَيْهِ الطَّرْقَ ، وَوَجَدُوا سَعِيدَ بْنَ خَالِدٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْجُنْدِ ، فَقَتَلُوهُ وَقَتَلُوا مَنْ مَعَهُ .

وَأَتَى الْخَبِيرُ خَالِدَ بْنَ سَعْدٍ نَفْرَجَ هَارِبًا فِي جَرِيدَةٍ^(٥) ، وَأَفْلَتَ مَنْ أَفْلَتَ مِنْ

(١) ساندَه : عاضده ، كافه وساعده .

(٢) استطرد : تراجع خديعة ومكرا .

(٣) مرج الصفر : موضع قرب دمشق .

(٤) الواقوسة : واد في أرض حوران .

(٥) الجريدة : الجماعة من الخيل .

أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، وقد أجهضوا^(١) عن عسكرهم . وانتهت هزيمة خالد إلى ذى المروة^(٢) وأقام عكرمة في الناس رداء لهم ، ورد باهان وجنوده ، وأقام من الشام على قريب .

ولما علم أبو بكر بما نكب به خالد بن سعيد قال : كان عمرُ وعلى أعلم بخالد مني ، ولو أطعتهما فيه اتقيته ، ثم كتب إليه : أقم مكانك ، فلمرى إنك مقدم محتجماً نجيماً من الغمرات ، لا تخوضها إلى حق ، ولا تصبرُ عليه . ثم أذن له في دخول المدينة ، فعاد ومعه الوليد بن عقبة ، وندب الناس مع شرحبيل بن حسنة^(٣) ، بعد أن عهد إليه بعمل الوليد .

وأوعب^(٤) القواد بالناس نحو الشام ، وظلَّ عكرمة رداءً للناس ، وبلغ الروم ذلك ، فكتبوا إلى هرقل ، فخرج هرقل حتى جاء حمص ؛ فأعدَّ لهم الجنود ، وعيَّ لهم العساكر ، وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده ورجاله . فأرسل إلى عمرو بن العاص أخاه تذارق (تيودوريك) في تسعين ألفاً ، وبعث جرّاجة نحو يزيد بن أبي سفيان ، فمسكر بإزائه ، وبعث الدراقص ، فاستقبل شرحبيل ابن حسنة ، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة . فها بهم المسلمون ، ولم يكن جمعهم يزيدُ على واحدٍ وعشرين ألفاً ؛ سوى ستة

(١) يقال : أجهضه عن المكان ، إذا أزاله عنه .

(٢) ذى المروة : موضع قريب من المدينة .

(٣) كان شرحبيل مع خالد بن الوليد في العراق ، وقد جاء في هذه الآونة إلى المدينة بأنباء النصر وبالسبي والأخاس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عقبة الذي رجع مع خالد بالهزيمة .

(٤) أوعب القوم : خرجوا للنزوة .

آلاف مع عكرمة ، ففرزوا جميعاً بالسكّيب والرسل إلى عمرو بن العاص ، واستشاروه ، فقال لهم : الرَّأْيُ الاجْتِمَاعُ ، وذلك أَنَّ مِثْلَنَا إِذَا اجْتَمَعَ لَمْ يُغْلَبْ مِنْ قِلَّةٍ ، وَإِذَا نَحْنُ تَفَرَّقْنَا لَمْ تُقَمْ كُلُّ فِرْقَةٍ لِنِ اسْتَقْبَالِهَا ، لَكثَرَةِ عَدُوِّنَا وَمَا أَعَدَّ لَنَا .

فَاتَّعَدُوا الْيَرْمُوكَ لِيَجْتَمِعُوا بِهِ ، وَكَتَبُوا لِأَبِي بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا كَاتَبُوا بِهِ عُمَرَا ؛ فَطُلِعَ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ بِمِثْلِ رَأْيِ عَمْرٍو ، وَفِيهِ : اجْتَمِعُوا فَتَسْكُونُوا عَسْكَرًا وَاحِدًا ، وَالْقَوَا زَحَفَ الْمُشْرِكِينَ بِزَحْفِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ أَعْوَانُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ نَاصِرُ مَنْ نَصَرَهُ ، وَخَاذِلُ مَنْ كَفَرَهُ ، وَلَنْ يُؤْتَى مِثْلُكُمْ مِنْ قِلَّةٍ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى الْعَشْرَةُ الْآلَافَ وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهَا بِذُنُوبِهِمْ ، فَاحْتَرِسُوا مِنَ الذَّنُوبِ ، وَاجْتَمِعُوا بِالْيَرْمُوكَ مُتَسَانِدِينَ ، وَلِيَصِلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَصْحَابِهِ .

وَبَلَغَ ذَلِكَ هِرَقْلَ ، فَكَتَبَ إِلَى بَطَارِقَتِهِ : أَنْ اجْتَمِعُوا لَهُمْ ، وَانْزِلُوا مِنْزِلًا وَاسِعًا الْعَطْنِ ، وَاسِيعَ الْمَطَرَدِ ، ضَيِّقَ الْمَعْرَبِ ؛ وَعَلَى النَّاسِ التَّنْذِاقَ ، وَعَلَى الْمَقْدِمَةِ جَرَّاجَةً وَعَلَى مُجَنَّبَتَيْهِ بَاهَانَ وَالذَّرَاقِصَ ، وَعَلَى الْحَرْبِ الْفَيْقَارَ ؛ وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ بَاهَانَ فِي الْأَثَرِ مَدَدٌ لَكُمْ .

فَفَعَلُوا ، وَنَزَلُوا الْوَأْقُوصَةَ ، عَلَى ضَفَّةِ الْيَرْمُوكِ ، وَصَارَ الْوَادِي خَنْدَقًا لَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ بَاهَانَ وَأَصْحَابُهُ أَنْ تَسْتَفِيقَ الرُّومَ ، وَيَأْتَسُوا بِالْمُسْلِمِينَ ، وَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفْئِدَتُهُمْ عَنْ طَيْرَتِهَا .

وَانْتَقَلَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ عَسْكَرِهِمُ الَّذِي اجْتَمِعُوا بِهِ ، فَزَلُّوا بِحِذَاءِ الرُّومِ ؛ وَلَيْسَ لِلرُّومِ طَرِيقٌ إِلَّا عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ عَمْرٍو : أَشْيَاهَا النَّاسُ أَبْشِرُوا ، حُصِرَتْ وَاللَّهِ الرُّومُ ! وَقَلَمَّا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ .

فَأَقَامُوا بِإِزَارِهِمْ شَهْرَيْنِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا يَقْدِرُ الرُّومُ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ .

فاستمدوا أبا بكرٍ حتى لا يَظَلُّوا الشهورَ ؛ فيسأم الجندُ ، ويضعف إيمانهم بالنصر ، وتذهب ريحهم .

فقال أبو بكر : والله لأُنسِيَنَّ الرومَ وسَاورِسَ الشيطان بخالد بن الوليد ؛ وكتب إليه بالحيرة كتاباً ؛ وافاه مُنْصَرَفَهُ من الحجِّ - وكان خالد قد ذهب إلى مكة حاجاً ، من غير أن يُعْلِمَ الناسَ أَمْرَ حَجِّهِ - جاء فيه : أن سِرَّ حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شَجُّوا وأشَجُّوا^(١) ، وإياك أن تعودَ لثُلِّ مافَعَلْتَ^(٢) ، فإنه لم يُشَجِّرِ الجموعَ من الناس^(٣) بَعَوْنِ الله شَجَاكَ ، ولم يَنْزِعِ الشَّجَا من الناس^(٣) نَزْعَكَ ، فَلْيَهِنْثَاكَ - أبا سليمان - النية والخطوة ، فَأَتَمِّمْ يُتَمِّمِ اللهُ لك ، ولا يدخلَنَّكَ عُجْبٌ فتخسَّرَ وتُخْذَلَ ، وإياك أن تُدِلَّ بِعَمَلٍ ، فإن الله عز وجل له المَنُّ ؛ وهو وليُّ الجزاء .

ثم أمره أن يخرجَ في شَطْرِهِ من الناس ، وأن يَخْلُفَ على الشطر الباقي المُثَنَّى بن حارثة ، وقال له في ختام كتابه : فإذا فَتَحَ اللهُ عليكم فارُدُّوهم إلى العراق وأنت معهم ؛ ثم أَنْتَ على عَمَلِكَ .

فأحضر خَالِدُ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأثرَ بهم على المثنى ، وترك للمثنى مثلَ عَدَدِهِم ممن لم يكن له مع الرسول صُحْبَةٌ . ثم نظر فيمن بقى ؛ فاختار مَنْ كان قَدِيمَ على النبي صلى الله عليه وسلم وافداً أو غيرَ وَافِدٍ ، وترك للمثنى

(١) الشجاء : النقص . يريد أن المسلمين ضاقوا بعدوهم ، وضيقوا عليه ، حتى كان بعضهم لبعض كالشجاء في الملق .

(٢) يشير إلى حجه بغير استئذان .

(٣) من الناس : صفة لمُحْذوف ، هو فاعل لم يشج ، ولم ينزع . أى لم يشج أعداءه أحد من الناس ؛ كما تشجيهم أنت . ولم ينزع الشجاء من أواليائه أحد من الناس نزعك .

مثلَ عدَدِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقَنَاعَةِ . ثُمَّ قَسَمَ الْجَنْدَ نِصْفَيْنِ ، فَنَصَبَ الْمُثَنَّى وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَقِيمُ إِلَّا عَلَى إِنْفَازِ أَمْرِ أَبِي بَكْرٍ كُلِّهِ ؛ فِي اسْتِصْحَابِ نِصْفِ الصَّحَابَةِ ، أَوْ بَعْضِ النِّصْفِ ؛ وَبِاللَّهِ مَا أَرْجُو مِنَ النَّصْرِ إِلَّا بِهِمْ ، فَكَيْفَ تُعَرِّبُنِي مِنْهُمْ .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَالِدٌ تَلَكَّأَ عَلَيْهِ قَلِيلًا ، ثُمَّ عَذَرَهُ وَأَرْضَاهُ ، وَأَخَذَ حَاجَتَهُ ، وَانْجَذَبَ مَاضِيًا لَوَجْهِهِ ، بَعْدَ أَنْ شَيَّمَهُ الْمُثَنَّى إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ .

أَخَذَ خَالِدٌ يَطْمَنُ بِجَيْشِهِ فِي الْبَرِّ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قُرَاقِر^(١) ؛ وَأَرَادَ السَّيْرَ مِنْهَا مَفُوزًا^(٢) إِلَى سُوى^(٣) . ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ لِي بِطَرِيقٍ أَخْرُجُ فِيهِ مِنْ وَرَاءِ جُمُوعِ الرُّومِ فَإِنِّي إِنِ اسْتَقْبَلْتُهَا حَبَسْتَنِي عَنْ غِيَاثِ الْمُسْلِمِينَ . فَكُلُّهُمْ قَالَ : لَا نَعْرِفُ إِلَّا طَرِيقًا لَا يَحْمِلُ الْجِيُوشَ ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهُ الرَّاكِبُ الْفَدَّ ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَغَرَّرَ بِالْمُسْلِمِينَ .

فَالْتَمَسَ خَالِدٌ دَلِيلًا ؛ فَذُلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ الطَّلَاطِيِّ ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : انْطَلِقْ بِالنَّاسِ ، فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ : إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَ ذَلِكَ بِالْخَيْلِ وَالْأَثْقَالِ ، وَاللَّهُ إِنْ الرَّاكِبَ الْفَرْدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُغَرَّرًا ؛ إِنَّهَا لَخَمْسُ لَيَالٍ ، لَا يَصَابُ فِيهَا مَاءٌ ؛ مَعَ مَضَلَّتِهَا . فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : وَيَحْكُ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . ثُمَّ وَقَفَ فِي الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ : لَا يَخْتَلِفَنَّ هَدْيُكُمْ ، وَلَا يَضْمُنَنَّ يَقِينُكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي عَلَى قَدَرِ النِّيَّةِ ، وَالْأَجْرُ عَلَى قَدَرِ الْحِسْبَةِ ، وَإِنْ السَّلْمُ لَا يَنْبَنِي لَهُ أَنْ يَكْثُرَ بَشْيٌ . يَقَعُ فِيهِ مَعَ مَعُونَةِ اللَّهِ لَهُ . فَتَحَمَّسَ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا : أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ ، فَشَأْنُكَ .

(١) قُرَاقِر : مَاءٌ لِكَلْبٍ .

(٢) الْمَفُوزُ : مَنْ يَسْلُكُ الْمَفَازَةَ ، وَهِيَ الْفَلَاةُ لَا مَاءَ بِهَا .

(٣) سُوى : مَاءٌ لِبَهْرَاءَ عَلَى بَعْدِ خَمْسِ لَيَالٍ مِنْ قُرَاقِر .

ثم قال لرافع بن عُميرة : إنه قد أتننى من الأمير عَزَمَةَ بذلك ؛ فَمَرُّ بِأَمْرِكَ .
قال : استكثروا من الماء ؛ مَنْ استطاع منكم أن يَصُرَّ أُذُنَ نَاقَتِهِ على ماء فليَفْعَلْ ،
فإنها المَسْهَلُكُ إِلَّا ما دفع الله . ابْغِنِي ^(١) عشرين جزُوراً عِظَماً سَمَاناً . فأتاه بهنَّ خالد
فعمِدَ إليها فظَمَّأها ، حتى إذا أَجْهَدَها عَطَشًا أوردَها الماءَ عَمَلًا بعدَ تَهَلٍّ ^(٢) ،
فشرِبَتْ حتى إذا تَمَلَّأتْ عَمِدَ إليها ؛ ففَطَعَ مَشَا فَرَّها لثلاثِ نَجَرَةٍ ، وقال
لخالد : سِرْ .

فسار خالد مُغِذًّا بِالْخِيُولِ وَالْأَتَقَالِ ، فَكَلِمًا نَزَلَ مِنْزَلًا شَقَّ بَطْنَ عَدَدٍ مِنَ الْإِبِلِ ،
فَأَخَذَ مَا فِي أَكْرَاسِهَا ، فَسَقَاهُ الْخَمِيلَ ، ثُمَّ شَرِبَ الْفَاسَ مِمَّا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنَ الْمَاءِ ،
فَفَعَلُوا ذَلِكَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ .

ولما خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْمَغَازَةِ ، قَالَ لِرَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ : وَيْحَكَ
يَا رَافِعُ ! مَا عِنْدَكَ ؟ قَالَ : أَدْرَكَتِ الرَّيُّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ - وَشَجَّعَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : أَتَيْهَا
النَّاسُ ، انْظُرُوا عَلَمَيْنِ كَاتِبَتُهُمَا تَذْيَانُ ، فَلَمَّا اتَوَّهُمَا وَقَفَ عَلَيْهِمَا وَقَالَ : اضْرِبُوا
يَمِينَةَ وَيَسْرَةَ لِمَوْسِجَةٍ ^(٣) كَقَعْدَةِ الرَّجُلِ ، قَالُوا : مَا نَرَاهَا ، قَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ! ؛ هَلَكْتُمْ وَاللَّهِ إِذَا وَهَلَكْتُ ، لَا أَبَالِكُمْ ! انْظُرُوا ، فَطَلَبُوا فَوَجَدُوا
جِذْمَهَا ^(٤) ؛ فَقَالُوا : جِذْمٌ وَلَا نَرَى شَجَرَةً . فَقَالَ : احْتَفَرُوا حَيْثُ شِئْتُمْ . فَحَفَرُوا
فَنَبَعَ الْمَاءُ .

فلما رأى ذلك المسلمون كَبَرُوا ، فَقَالَ رَافِعٌ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ وَاللَّهِ مَا وَرَدَتْ هَذَا

(١) ابغنى : التمس لى .

(٢) العلل : الشربة الثانية ، والنهل : الشربة الأولى .

(٣) الموسجة : شجرة كثيرة الشوك .

(٤) الجذم : الأصل .

الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردتُهُ إلا مرّة واحدة وأنا غلام مع أبي . فقال شاعر من المسلمين :

لِلّهِ عَيْنًا رَافِعٌ أَتَى اهْتَدَى فَوَزَّ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوى
خَمْسًا إِذَا مَسَارَهَا الْجَيْشُ بَكَى مَسَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسَى يُرى
وسار خالد حتى انتهى إلى سُوى ، فَأَغَارَ على أهله - وهم بهراء - قُبَيْلَ الصُّبْحِ
وناسٌ منهم يشربون خمرًا ، وساقبهم يَغْنَى ويقول :

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ لَعَلَّ مَنَايَنَا قَرِيبٌ وَمَا نَدْرِي !
أَلَا عَلَّلَانِي بِالزُّجَاجِ وَكَرَّرَا عَلَى كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي
أَلَا تَلَلَّانِي مِنْ سُلَافَةِ قَهْوَةٍ تُسَلِّي مُهُومَ النَّفْسِ مِنْ جَبْدِ الْحَرِّ
أُظُنُّ خِيُولَ الْمُسْلِمِينَ وَخَالِدَا سَتَطْرُقُكُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ مِنَ الْبَشْرِ^(١)
فَهَلْ لَكُمْ فِي السَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمُحَصَّنَاتِ مِنَ الْخَلْدِ
فَدَهَمَهُمْ وَسَبَى مِنْهُمْ ، ثُمَّ سَارَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَغَارَ عَلَى غَسَّانٍ بِمَرْجٍ^(٢) رَاهِطٍ ؛
فَصَبَّحَهُمْ وَقَتَلَ وَسَبَى ، وَسَارَ حَتَّى أَتَى عَلَى بُصْرَى^(٣) ، فَقَاتَلَ مَنْ بِهَا ،
وظَفَرَ بِهِمْ ، وَصَالَحَهُمْ ، وَبَعَثَ بِالْخَمْسِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ؛ ثُمَّ سَارَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ،
لِيُوَاجِهَ الرُّومَ .

وبينا هو في طريقه إلى اليرموك ، لقيه رجل من رُوم العرب فقال : يَا خَالِدُ ؛
إِنَّ الرُّومَ فِي تَجَمُّعٍ كَثِيرٍ ، مَائَتِي أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرْجِعَ عَلَى حَامِيَتِكَ

(١) البشّر : من منازل تغلب بن وائل .

(٢) مرج راهط : موضع من نواحي دمشق دمشق .

(٣) بصرى : موضع بالشام .

فأقبل . فقال خالد : أبالرُّوم تُخَوِّفُنِي ! والله لوددت أَنَّ الْأَشْقَرَ^(١) بَرَاءٌ مِنْ تَوَجِّيهِ^(٢) ، وَأَنَّهُمْ أَضْعَفُوا ضَعْفَهُمْ .

وقدم خالد إلى التَّيْرُمُوكِ ، وَعَسْكَرُ أَبِي عُبَيْدَةَ بِجَاوَرٍ لِمَسْكَرِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَشَرَحْبِيلَ مَعَ يَزِيدَ ، فَمَسَكَرَ عَلَى حِدَّةٍ .

وقد وافق مجيئهُ محنةُ المسلمين ، حين كانوا في شدةٍ ؛ إذ جاء بأهانٍ لحربهم بمددٍ كثيرٍ ، فالتقى المسلمون بهم وهزموهم ، حتى أُلْجِئُوهم إلى الخندق ، فلزموه شهراً ، يُحَضِّضُهُمُ الْقِسَايِسُونَ وَالشَّامِسَةُ وَالرُّهْبَانُ ، وَيَنْعَمُونَ لَهُمُ النَّصْرَانِيَّةُ ؛ حتى حمسُوهم ، وخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله .

فلما أحسَّ المسلمون خروجَهم ، وأرادوا الخروجَ مُتَسَانِدِينَ ؛ سار فيهم خالد بن الوليد ، فحمد الله وأثنى عليه ؛ وقال : إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ ، لَا يَنْبَغِي فِيهِ الْفَخْرُ وَلَا الْبَنَى ؛ أَخْلِصُوا جِهَادَكُمْ ، وَأَرِيدُوا اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ ؛ فَإِنْ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَابِعْدَهُ ، وَلَا تُقَاتِلُوا قَوْمًا عَلَى نِظَامٍ وَتَمِيعَةٍ وَأَنْتُمْ عَلَى تَسَانُدٍ وَانْتِشَارٍ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ وَلَا يَنْبَغِي ؛ وَإِنْ مَنْ وَرَاءَكُمْ لَوْ يَعْلَمُ عَمَلَكُمْ ، حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ هَذَا ؛ فاعْمَلُوا فِيهَا لَمْ تُؤْمَرُوا بِهِ ؛ بِالَّذِي تَرَوْنَ أَنَّهُ الرَّأْيُ مِنْ وَالِيكُمْ وَمَحَبَّتِهِ .

قالوا : فها تِ ، فما الرأي ؟ قال : إِنَّ أبا بكرٍ لم يَبْعَثْنَا إِلَّا وَهُوَ يَرَى أَنَّا سَنَتَيَّاسَرُ ، وَلَوْ عَلِمَ بِالَّذِي كَانَ وَيَكُونُ لَكَانَ قَدْ جَمَعَكُمْ ؛ إِنَّ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ أَشَدُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّا قَدْ غَشِيَهُمْ ، وَأَنْفَعُ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ أُمْدَادِهِمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا فَرَّقَتْ بَيْنَكُمْ ، فَاللَّهُ اللَّهُ ! فَقَدْ أَفْرَدَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِلَدٍّ مِنَ الْبُلْدَانِ ، لَا يَنْتَقِصُهُ

(١) الْأَشْقَرُ : اسم الفرس خالد .

(٢) التَّوَجَّى : أَنْ يَشْتَكِيَ الْفَرَسُ بَاطِنَ حَافِرِهِ .

منه إن دان لغيره من أمراء الجنود ، ولا يزيد عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا يتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا ؛ فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وهذا يوم له مآبده ، إن ردذناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نرؤهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليهم بعضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمرؤا كلكم ، ودعوني أليكم اليوم .

فأمره ، وأصبح خالد أمير المسلمين في ذلك اليوم . وخرجت الروم في تعبئة لم ير الرايون مثلاً قط ، وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك .

نخرج في ستة وثلاثين كردوساً^(١) إلى الأربعين ، وقال : إن عدوكم قد كثر وطغى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأى العين من الكراديس ، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص ؛ وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان . وجعل لكل كردوس يزيد رئيساً يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب ، وكان كل كردوس يزيد قليلاً على الألف ، وجعل للجيش قاصداً يذكركم ، وكان القاص أبا سفيان بن حرب ، يسير فيقف على الكراديس فيقول : الله الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنها ذادة الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرتك على عبادك !

ثم أمر خالد مجنبسى القلب أن ينشبا القتال ، وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقتعاع بن عمرو ، ففعلا .

(١) الكردوس : الفرقة من الخيل .

والتحم القتال ، وتطارد الفرسان .

وإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة وفيه حمية بن زُئيم ، فأخذته الخيول ، وسألوه الخبر ، فلم يخبرهم إلا بسلامة ، وأخبرهم عن أمداد - وكان قد جاء بموت أبي بكر رحمه الله ، وتأمر أبي عبيدة - فأبلغوه خالدا ، فأخبره خبر أبي بكر ، وأسرّه إليه ، وأخبره بالذي أخبر به الجند ، فقال له : أحسنت فقف . وأخذ الكتاب وجعله في كنانته ، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند ، ووقف حمية مع خالد .

ثم خرج جرجة^(١) ونادى : ليخرج إلى خالد فخرج له خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقفه بين الصّفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد آمن أحدهما صاحبه . فقال جرجة : يا خالد ؛ أصدقني ولا تكذّبنني ، فإن الحرّ لا يكذب ؛ ولا تخادعني ، فإن الكريم لا يخادع . . . بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فيم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيّه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا ، ونأيتنا عنه جميعا ؛ ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فكنت فيمن كذّبه وباعده وقتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك . فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين . قال : صدقتني .

ثم قال جرجة : يا خالد ؛ أخبرني إلام تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله

(١) اسم مقدم عسكر الروم يوم اليرموك ، والضبط من القاموس .

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . قَالَ : فَمَنْ لَمْ يُجِيبْكُمْ ؟
قَالَ : فَالْجَزِيَّةُ وَنِعْمَتُهُمْ ؛ قَالَ : فَإِنْ لَمْ يُعْطَها ؟ قَالَ : نُؤْذِنُهُ بِحَرْبٍ ثُمَّ نَقَاتِلُهُ ، قَالَ :
فَمَا مَنْزِلَةُ الَّذِي يَدْخُلُ فِيكُمْ وَيُجِيبُكُمْ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : مَنْزِلَتُنَا وَاحِدَةٌ فِيمَا
افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا ، شَرِيفُنَا وَوَضِيعُنَا ، وَأَوَّلُنَا وَآخِرُنَا .

ثُمَّ قَالَ جَرَجَةَ : هَلْ لِمَنْ دَخَلَ فِيكُمْ الْيَوْمَ يَا خَالِدُ مِثْلُ مَا لَكُمْ مِنَ الْأَجْرِ
وَالذَّخْرِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَفْضَلُ .

قَالَ : وَكَيْفَ يُسَاوِيكُمْ وَقَدْ سَبَقْتُمُوهُ ؟ قَالَ : إِنَّا دَخَلْنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَبَايَعْنَا
نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهَرِنَا تَأْتِيهِ أَخْبَارُ السَّمَاءِ ، وَيُخْبِرُنَا بِالْكَتَبِ
وَيُرِينَا الْآيَاتِ ، وَحَقٌّ لِمَنْ يَرَى مَا رَأَيْنَا ، وَيَسْمَعُ مَا سَمِعْنَا أَنْ يُسَلِّمَ وَيَبَايَعَ ؛ وَإِنَّكُمْ
أَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا مَا رَأَيْنَا ، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا سَمِعْنَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْحُجَجِ ، فَمَنْ دَخَلَ فِي هَذَا
الْأَمْرِ بِحَقِيقَةٍ وَنِيَّةٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنَّا .

قَالَ جَرَجَةُ : بِاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَنِي ، وَلَمْ تُخَادِعْنِي وَلَمْ تَأْلَفْنِي ؟ قَالَ : بِاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتُكَ
وَمَا بِي إِلَيْكَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ وَخَشَةَ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَوَلَّى مَا سَأَلْتَ عَنْهُ .

فَقَالَ : صَدَقْتَنِي ؛ وَقَلَبَ الثُّرُسَ وَمَالَ مَعَ خَالِدٍ ، وَقَالَ : عَلَّمَنِي الْإِسْلَامَ ، فَسَالَ
بِهِ خَالِدٌ إِلَى فُسْطَاطِهِ ؛ فَشَنَّ^(١) عَلَيْهِ قِرْبَةً مِنْ مَاءٍ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ .

وَحَمَلَتِ الرُّومُ مَعَ انْقِلَابِهِ إِلَى خَالِدٍ ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهَا مِنْهُ حَمَلَةٌ . فَازَالُوا الْمُسْلِمِينَ
عَنْ مَوَاقِفِهِمْ ؛ وَرَكِبَ خَالِدٌ وَمَعَهُ جَرَجَةُ وَالرُّومُ خِلَالَ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَنَادَى النَّاسُ
فَثَابُوا ، وَتَرَاجَعَتِ الرُّومُ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ .

فَزَحَفَ خَالِدٌ بِهِمْ حَتَّى تَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ ، فَضَرَبَ فِيهِمْ خَالِدٌ وَجَرَجَةُ مِنْ
لَدُنِ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ إِلَى جُنُوحِ الشَّمْسِ لِلْغُزُوبِ ، ثُمَّ أَصِيبَ جَرَجَةُ ، وَلَمْ يَصِلْ صَلَاةَ

(١) شَنَّ : صَبَّ .

سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الأولى والعصر إيماء .
وسهّد خالد للروم ، ووقف عكرمة - وكان على الحامية - ونادى فى الناس :
مَنْ يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ، فى أربعمائة
من وجوه المسلمين وفرسانهم ، ونشب القتال .

وكان المكان واسع المطرد ، ضيق السهّرب ، وتضايقت خيل الروم ،
فلما وجدت مذهباً ذهبّت تشتدّ فى الصحراء ، وأفرج لها المسلمون ، وترك فرسانهم
الرجال فى مصافّهم ، وتفرّقوا فى كل مذهب لا يلبّون على شىء .

وأقبل خالد والمسلمون على الرّجل^(١) ففضّوهم ، فكأنما هُدم بهم حائط ،
فاقتحموا فى خندقهم ، فاقتحمه عليهم ، فعمدوا إلى الواقوسة فهووا فيها ، فكان
عدد من تهافت فيها يزيد على مائة وعشرين ألفاً ، سوى من قتل فى المعركة من الخيل
والرّجل ؛ وقاتلوا حتى الليل ، حيث وقعت الهزيمة على الروم ، وقتل الله صناديدهم
وفرسانهم وقُتل أخو هرقل ! وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حصّ فجعلها
بينه وبينهم ، وأمر عليها .

وفى ذلك اليوم أبلى المسلمون وقاتلوا ، حتى النساء كان لهنّ نصيب ، يقمن
بسقى الجند ، ومدّاواة الجرحى ؛ وأصيب من وجوه المسلمين أكثر من
ثلاثة آلاف قتلوا جميعاً إلا من برأ منهم .

وأتى خالد بعد المعركة بمكرمة جريحاً فوضع رأسه على نحره ، وبعمرو بن عكرمة
فوضع رأسه على ساقه ، وجعل يمسح عن وجوههما ، ويقطر فى حلوقهما الماء ؛
ويقول : كلا ! زعم ابن الحنّمة^(٢) أنا لا نستشهد !

(١) الرّجل : الراجلون ، غير الركبتين .

(٢) يريد عمر بن الخطاب .

ولما انتهت الموقعة سلّم خالد الكتاب إلى أبي عُبيدة بالإمارة ، ثم قال : الحمد لله
الذى قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أحبّ إلىّ من عُمر ، والحمد لله الذى ولىّ عُمر ،
وكان أبغض إلىّ من أبي بكر ثم ألزمنى حبّه .

وقسّمت الغنائم ، فكان سهمُ الفارس ألفاً وخمسمائة . ثم نادى أبو عُبيدة
بالرحيل ، فارتحل المسلمون بزخفهم حتى وضعوا عساكرهم بمرج الصنمر ،
وأقام فيها أبو عُبيدة وقال : لا أبرح حتى يأتى أمر عمر ...

٣١ — يوم النمارق*

بعد أن ودّع المثنى بن حارثة الشيباني خالد بن الوليد في مسيره إلى الشام أقام بالحيرة، ووضع المسلحة^(١) وأذكى العيون .

وأما الفرس فإنهم قد استقاموا على شهريران بن أردشير ، فوجّه إلى المثنى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذويه في عشرة آلاف ، نخرج المثنى نحوه ، وجعل على مجتبتيه الممّنى ومسعودا أخويه ، وأقام ببابل ، وفيها جاءه من كسرى شهريران كتاب جاء فيه : إني قد بعثت إليكم جنساً من أهل فارس وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم .

فأجابه المثنى : من المثنى إلى شهريران ؛ إنما أنت أحد رجلين : إمّا باغٍ فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا ، وإمّا كاذبٌ فأعظم الكذبين عقوبةً وفضيحةً عند الله وفي الناس — الملوكة . وأمّا الذي يدّئنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطردتم إليهم ؛ فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير .

فجزع الفرس من كتابه ، ثم التقت جيوش هرمز وجيوش المثنى ببابل ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان فيلهم يفرق^(٢) منه المسلمون ؛ فانتدب^(٣) له المثنى في جمع

* لأبي عبيدة على هرمز (الفرس) سنة ١٣ . والنمارق : موضع قرب الكوفة من أرض العراق .

الطبري ٦٢/٤ . ابن الأثير ٢/٢١٢ . ابن خلدون ٢/٨٧ .

(١) المسلحة : القوم ذو سلاح .

(٢) يفرق : يخاف ويفزع .

(٣) قال الجوهرى : يقال : ندبه الأمر فانتدب له ، أى دعا له فأجاب .

مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلُوهُ ، وَانْهَزَمَ الْفُرْسُ وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدَائِنِ يَقْتُلُونَهُمْ .
وَنَزَلَتْ أَنْبَاءُ الْهَزِيمَةِ بِشَهْرِيرَانَ نَزُولِ الصَّاعِقَةِ ؛ فَجُحِمَ وَمَاتَ .

وَأَرَادَ الْفُرسُ أَنْ يُعْلِكُوا عَلَيْهِمْ ابْنَةَ كَسْرَى لِيَقْرُعُوا إِلَى تَنْظِيمِ شُؤْنِهِمْ ، فَلَمْ
يُنْفِذْ لَهَا أَمْرًا فَخُلِعَتْ . وَخَلَفَهَا عَلَى الْعَرْشِ سَابُورُ بْنُ شَهْرِيرَانَ . وَاسْتَوَزَرَ سَابُورُ
الْفَرُّخْزَادَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَزَوِّجَهُ آزَرْمِيدُخْتَ ابْنَةَ كَسْرَى ، فَغَضِبَتْ إِلَّا يَكُونَ زَوْجُهَا
مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ ، وَقَالَتْ لِسَابُورَ : يَا بْنَ عَمٍّ ؛ أَتَزَوِّجُنِي عَبْدِي ! لَكِنَّ سَابُورَ لَمْ
يَسْمَعْ لِقَوْلِهَا وَأَغْلَظَ لَهَا فِي الْخُطَابِ ، فَاسْتَعَانَتْ بِأَحَدِ فُتَّاكِ الْأَعْجَمِ . فَلَمَّا كَانَتْ
لَيْلَةَ الْعُرْسِ ، وَدَخَلَ الْفَرُّخْزَادُ مَخْدَعَ آزَرْمِيدُخْتَ ثَارَ بِهِ الْفَاتِكُ فَقَتَلَهُ وَمَنْ مَعَهُ ،
ثُمَّ سَارَ بِابْنَةِ كَسْرَى وَأَعْوَانِهَا إِلَى سَابُورَ فُخَاصِرُوهُ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ ، وَجَلَسَتْ
آزَرْمِيدُخْتَ عَلَى الْعَرْشِ مَكَانَهُ .

وَتَرَامَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ إِلَى الْمُثَنَّى ، فَسَارَ بِجَيْشِهِ بِطَارِدُ الْفُرسِ حَتَّى بَلَغَ أَبْوَابَ
الْمَدَائِنِ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِاتْتِصَارِهِ عَلَى الْفُرسِ ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْاسْتِعَانَةِ بِمَنْ
ظَهَرَتْ تَوْبَتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّدَّةِ ، لَكِنَّهُ انتَظَرَهُ طَالًا ، وَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَدُّ الْخَلِيفَةِ ،
فَانْسَحَبَ فِي الْجَيْشِ إِلَى أَدْنَى الْعِرَاقِ مِنْ حُدُودِ الْبَادِيَةِ ، وَاسْتَخْلَفَ بِشِيرَ بْنَ
الْخِصَامِصِيِّ عَلَى مَنْ بِالْعِرَاقِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَهَبَ بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُقْنِعَ
أَبَا بَكْرٍ بِرَأْيِهِ .

فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ وَأَبُو بَكْرٍ مَرِيضٌ قَدْ أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ ، وَلَكِنَّهُ اسْتَقْبَلَهُ ، وَسَمِعَ
إِلَيْهِ ، وَاقْتَنَعَ بِرَأْيِهِ ، وَقَالَ : عَلَى بِمُؤَرَّ - وَكَانَ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ - فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ :
اسْمَعْ يَا عُمَرُ مَا أَقُولُ لَكَ ، ثُمَّ اْعْمَلْ بِهِ ، إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَمُوتَ مِنْ يَوْمِي هَذَا ،
فَإِنْ أَنَا مَتَ فَلَا تُمَسِّينَ حَتَّى تَنْدُبَ النَّاسَ مَعِ الثَّنِي . وَإِنْ تَأَخَّرْتُ إِلَى اللَّيْلِ فَلَا

تُصْبِحَنَّ حَتَّى تَنْدُبَ النَّاسَ مَعَ الْمُثَنَّى . وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ مَصِيبَةٌ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ وَوَصِيْقَةِ رَبِّكُمْ . وَقَدْ رَأَيْتَنِي مُتَوَقِّفًا رِسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا صَنَعْتُ وَلَمْ يُعَصِّبِ الْخَلْقَ بِمِثْلِهِ ، وَبِاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَنَا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ لَخَذَلْنَا وَلَمَّا قَبَيْنَا ، فَاضْطَرَمَّتِ الْمَدِينَةُ نَارًا ، وَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أَمْرَاءِ الشَّامِ فَارْدُذَ أَصْحَابِ خَالِدٍ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُهُ وَوَلَاةُ أَمْرِهِ ؛ وَهُمْ أَهْلُ الضَّرَاقَةِ بِهِمْ ، وَالْجُرَّاءَةُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا فَرَّغَ عُمرُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ نَدَبَ النَّاسَ مَعَ الْمُثَنَّى قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، مِنَ اللَّيْلَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ أَصْبَحَ فَبَايَعَهُ النَّاسَ ، وَنَدَبَهُمْ إِلَى فَارَسَ ، وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى الْبَيْعَةِ ، فَفَرَّغُوا فِي ثَلَاثَ ؛ كُلَّ يَوْمٍ يَنْدُبُهُمْ فَلَا يَنْتَدِبُ أَحَدٌ إِلَى فَارَسَ ؛ وَكَانَ وَجْهُ فَارَسَ مِنْ أَكْرِهِ الْوُجُوهَ إِلَيْهِمْ ، وَأَثْقَلَهَا عَلَيْهِمْ ، لِشِدَّةِ سُلْطَانِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ وَعِزِّهِمْ وَقَهْرِهِمُ الْأَمَمَ ؛ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعَ عَادَ فَنَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَتَسَكَّمُ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ ؛ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسَ ، لَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهُ ؛ فَإِنَا قَدْ تَبَجَّجَبَحْنَا^(١) رَيْفَ فَارَسَ ، وَغَلَبْنَاهُمْ عَلَى خَيْرِ شَيْءٍ السَّوَادِ^(٢) ، وَشَاطَرْنَا هُمْ وَنَلْنَا مِنْهُمْ ، وَاجْتَرَأْنَا مِنْ قِبَلِنَا عَلَيْهِمْ ، وَلَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا .

وَقَامَ عُمرُ فِي النَّاسِ فَقَالَ : إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَارٍ إِلَّا عَلَى النَّجْعةِ^(٣) ، وَلَا

(١) التَّبَجَّجَحَ : التَّمَكَّنَ فِي الْحُلُولِ وَالْمَقَامِ .

(٢) السَّوَادُ : قَرْيَةُ الْعِرَاقِ وَضِيَاعُهَا الَّتِي فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، سَمِيَ بِذَلِكَ

لِسَوَادِهِ بِالزَّرُوعِ وَالنَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ .

(٣) النَّجْعةُ : طَلَبُ الْكَلَاءِ فِي مَوْضِعِهِ .

يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ . أَيْنَ الطُّرَّاءُ^(١) المهاجرون عن مَوْعِدِ اللَّهِ ؟ سِيرُوا فِي
الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمْوَهَا ؛ فَإِنَّهُ قَالَ : « لِيُظْهَرَ عَلَى الدُّيُنِ
كُلِّهِ » ، وَاللَّهُ مُظْهِرُ دِينِهِ ، وَمُمِيزُ نَاصِرِهِ ، وَمَوْلَى أَهْلِهِ مَوَارِيثَ الْأَرْضِ . أَيْنَ عِبَادُ
اللَّهِ الصَّالِحُونَ !

فَكَانَ أَوَّلَ مُنْتَدِبِ أَبِي عُبَيْدٍ بْنُ مَسْعُودٍ^(٢) ، ثُمَّ كَتَبَ سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسَلِيطُ
ابْنُ قَيْسٍ . فَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ الْبَعْثُ ، قِيلَ لِعَمْرٍ : أَمْرٌ عَلَيْهِمْ رَجُلَانِ مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ، إِنْ اللَّهُ رَفَعَكُمْ بِسَبْقِكُمْ وَسُرْعَتِكُمْ إِلَى الْعَدُوِّ ،
فَإِذَا جَبُنْتُمْ وَكَرِهْتُمُ الْقِتَاءَ ، فَأَوَّلَى بِالرِّيَاسَةِ مِنْكُمْ مَنْ سَبَقَ إِلَى الدَّفْعِ ، وَأَجَابَ إِلَى
اللَّهِ ؛ وَاللَّهُ لَا أَوْمَرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَهُمْ اتِّدَابًا .
ثُمَّ دَعَا أَبَا عُبَيْدٍ فَأَمَرَهُ ، وَدَعَا سَلِيطًا وَسَعْدًا ، فَقَالَ لَهُمَا : أَمَّا إِنْ كُنَا لَوْ سَبَقْتُمَا
لَوَلَّيْتُمَا .

ثُمَّ قَالَ لِأَبِي عُبَيْدٍ : اسْمَعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَشْرِكْهُمْ فِي
الْأَمْرِ ، وَلَا تَجْتَهِدْ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَبَيَّنَ ؛ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ ، وَالْحَرْبُ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ
الْمَكِيثُ^(٣) الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ .

وَعَجَّلَ الثُّنَيَّ إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَأَبُو عُبَيْدٍ بَيْنَ مَعِهِ ، وَكَانُوا خَمْسَةَ آلَافٍ فِي أَثَرِهِ ،

(١) الطُّرَّاءُ : الْفَرَبَاءُ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٢) أَبُو عُبَيْدٍ بْنُ مَسْعُودٍ : يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى ثَقِيفٍ ، وَهُوَ وَالِدُ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ الْمَشْهُورِ فِي

خِلَافِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ .

(٣) الْمَكِيثُ : الرَّزِينُ .

وصار أبو عُبَيْدٍ يَسْتَنْفِرُ مَنْ يَمُرُّ بِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ ؛ فَأَجَابَهُ بِشَرٍّ كَثِيرٍ . وَوَصَلَ الْمُثَنَّى إِلَى الْحِيرَةِ ؛ وَجَاءَ بَعْدَهُ أَبُو عُبَيْدٍ بِقَلِيلٍ .

وَكَانَ الْفُرْسُ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ قَدْ وَلَّوْا عَلَيْهِمْ آزْرَمِيدُ خْتِ مَلِكَةً ، وَاخْتَارَتْ هِيَ رِسْتَمَ أَحَدَ عِظَمَاءِ الْفَرَسِ ، قَائِدًا عَامًّا لِلْجُنُودِ الْفَارَسِيَّةِ ؛ وَدَانَتْ لَهُ الْفَرَسُ حِينَمَا وَرَدَ أَبُو عُبَيْدٍ . وَكَانَ أَوَّلُ مَا صَنَعَ رِسْتَمُ أَنْ كَتَبَ إِلَى دَهَاقِينَ ^(١) السَّوَادِ أَنْ يَثُورُوا بِالْمُسْلِمِينَ ، وَدَسَّ فِي كُلِّ رُسْتَاقٍ ^(٢) رَجُلًا لِيَثُورَ بِأَهْلِهِ ؛ وَكَانَ مِمَّنْ أَرْسَلَهُ جَابَانُ وَنَزَّيْسِيُّ مِنَ الْقَوَادِ ، فَأَثَارُوا النَّاسَ مِنْ أَعْلَى الْفَرَاتِ إِلَى أَسْفَلِهِ ؛ وَاجْتَمَعَ جُنْدٌ عَظِيمٌ قَامَ فِي النَّمَارِقِ ^(٣) ، وَنَزَلَ الْمُثَنَّى بِخَفَّانٍ ^(٤) ، ثُمَّ تَلَا حِمَّ الْجِيْشَانِ ، وَاقْتَتَلُوا اقْتِتَالًا شَدِيدًا ، ثُمَّ انْهَزِمَتِ الْفَرَسُ وَأَسِيرَ جَابَانُ ، كَمَا أُسِرَ قَائِدُهُ تَحْتَ إِمْرَتِهِ يُدْعَى مُرْدَانُ شَاهٍ ؛ فَأَمَّا آسِيرُ مُرْدَانُ شَاهٍ فَقَتَلَهُ ، وَأَمَّا آسِيرُ جَابَانُ فَقَدْ خَدَعَهُ جَابَانُ ؛ فَقَالَ لَهُ : إِنَّكُمْ مَعَاشِرَ الْعَرَبِ أَهْلُ وِفَاءٍ ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ تَوْثِقُنِي وَأُعْطِيَكُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَأَذْخِلْنِي عَلَى مَلِكِكُمْ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ بِمَشْهَدٍ مِنْهُ . فَفَعَلَ وَأَجَازَ أَبُو عُبَيْدٍ أَمَانَهُ . وَلَمَّا عَلِمَ بَنُو تَمِيمٍ أَنَّهُ الرَّئِيسُ قَالُوا لِأَبِي عُبَيْدٍ : اقْتُلْهُ فَإِنَّهُ الْأَمِيرُ . قَالَ : وَإِنْ كَانَ الْأَمِيرُ ؛ أَيُّومَتِهِ صَاحِبُكُمْ وَأَقْتُلْهُ أَنَا ! مَعَاذَ اللَّهِ ؛ مَا لَزِمَ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ فَقَدْ لَزِمَهُمْ كُلُّهُمْ !

وَقَسَمَ أَبُو عُبَيْدٍ الْغَنَائِمَ ، وَكَانَ فِيهَا عِطْرٌ كَثِيرٌ وَنَفْلٌ ، وَبَعَثَ بِالْأَخْمَاسِ إِلَى عُمَرَ .

(١) . الدَهَقَانُ : رَئِيسُ الْإِقْلِيمِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى زَعِيمِ فَلَاحِي الْعَجَمِ .

(٢) . الرُّسْتَاقُ : بِمَجْمُوعَةِ الْقُرَى . (٣) مَوْضِعٌ كَمَا تَقْدُمُ .

(٤) خَفَّانٌ : مَأْسِدَةٌ قَرِبَ الْكُوفَةِ (الْقَامُوسُ) .

٢٢ — يوم السَّاقَطِيَّة*

كانت كَسْكَر^(١) قَطِيمَةً لِنَرْسِي ابنِ خَالَةِ كَسْرِي ؛ وكان النَّرْسِيَّانَ^(٢) له يَحْمِيهِ ؛ لا يَأْكُلُهُ سِوَاهُ ولا يَفْرِسُهُ غَيْرُ أَهْلِ كَسْكَر .

فلما انهزم الفرسُ يومَ النَّمَارِقِ قال رستمُ القائدُ لِنَرْسِي : اشْخَصْ إِلَى قَطِيمَتِكَ فاحْمِهَا مِنْ عَدُوِّكَ وَعَدُوَّنَا ، وَكُنْ رَجُلًا .

فلما رأى أبو عُبيد الفألة^(٣) متَوَجِّهِينَ نحو نَرْسِي نادى بالرحيل ، وقال لجنده : اتَّبِعُونِي .

فلما رأى الفرسُ سَهْمِيَّوَّ أَبِي عُبيد ورجالَهُ وَجَّهُوا جَيْشًا لِيَمِينِ نَرْسِي ، على رأسه الجالندوس ؛ ولكن أبا عُبيد عَاجِلُ الْقَوْمِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُمْ الْمَدَدُ ؛ وكان الثَّغْنَى على تَبِئَتِهِ الْمَاضِيَةِ ، وَالتَّقْوَا بِالسَّاقَطِيَّةِ ، وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا . ثم انهزمت فارس ، وَهَرَبَ نَرْسِي ، وَغَلَبَ الْمُسْلِمُونَ على أَرْضِهِ وَتَمَرَّه وَعَسْكَرِهِ ، وَأَخْرَبَ^(٤) أَبُو عُبيد مَا كَانَ حَوْلَ مُعْسَكَرِهِمْ ، وَجَمَعَ الْغَنَائِمَ ، فَرَأَى مِنَ الْأَطْعَمَةِ شَيْئًا عَظِيمًا ، فَبَعَثَ فَيَمَنْ يَلِيهِ مِنْ

* لأبي عبيد على نرسى والجالندوس (الفرس) . سنة ١٣ . والسقاطية : ناحية بأرض كسكر قريبة من واسط .

تاريخ الطبري ٦٤/٤ ، معجم البلدان ٩١/٥ ، ابن الأثير ٢١٣/٢ ، ابن خلدون ٨٨/٢

(١) كسكر : كورة واسمة ، كانت قصبتها خسرو سابور ، ثم سارت واسط قصبتها .

(٢) النرسيان ضرب من التمر يكون أجوده ، واحدته نرسيانة وأهل العراق يضرّبون الزبد

بالنرسياء مثلاً لما يستطاب . (٣) الفألة : المهزومون . (٤) أخرب : مثل خرب بتشديد الراء .

العرب ، فانتَقَوْا ماشاءوا ، وأَخَذَتْ خَزَائِنُ نَرْسِي ، فلم يكنوا بشيء مما خُزِنَ
أَفْرَحَ مِنْهُمْ بِالنَّرْسِيَّانِ .

فاقتسموه وجعلوا يُطعمونه الفلاحين ، وبعثوا بِخُمْسِهِ إِلَى عَمْرِ ، وكتبوا إِلَيْهِ :
إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنَا مَطَاعِمَ كَانَتْ لِلأَ كَسْرَةِ يَحْمُونَهَا ، وَأَحْبَبْنَا أَنْ تَرَوْهَا ، لِتَذْكُرُوا
إِنْعَامَ اللَّهِ وَإِفْضَالَه .

وأقام أَبُو عُبَيْدٍ بِكَسْكَر ، وسَرَّحَ الثُّنَيَّ وَغَيْرَهُ مِنَ الْقَوَادِ ، يُغَيِّرُونَ عَلَى
النَّوَاحِي ، وَيَفْلُونَ^(١) عَصَائِبَ الْجُنُودِ الْمُتَفَرِّقَةِ هُنَاكَ ، ثُمَّ صَالَحَهُ مَنْ خَافَ مِنْ بَقْيٍ .
وَجَاءَ الدَّهَاقِينُ^(٢) إِلَى أَبِي عُبَيْدٍ بِأَنِّيَّةٍ فِيهَا أُطْعِمَةُ فَارِسٍ وَقَالُوا : هَذِهِ كَرَامَةٌ
أَكْرَمْنَاكَ بِهَا قَرَى لَكَ . قَالَ : أَلَا كَرَّمْتُمُ الْجُنْدَ وَقَرَّيْتُمُوهُمْ مِثْلَهُ ؟ قَالُوا :
لَمْ يَتَيَسَّرْ ، وَنَحْنُ فَاعِلُونَ . قَالَ : لَاحَاجَةٌ لَنَا فِيهِ ؛ بئس المرء أبو عبيد ! إِنَّ صَحْبَ
قَوْمًا مِنْ بِلَادِهِمْ أَهْرَاقُوا دِمَاءَهُمْ دُونَهُ أَوْ لَمْ يُهَيِّقُوا ، فَاسْتَأْثَرَ عَلَيْهِمْ بَشَاءٌ يُصِيبُهُ !
لَا وَاللَّهِ لَا نَأْكُلُ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مِثْلَ مَا يَأْكُلُ أَوْسَاطُهُمْ . وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ
طَعَامِهِ أَتَى بِهِ الدَّهَاقِينُ غَدَاةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى عَلِمَ أَنَّهُمْ قَرَّبُوا مِثْلَهُ لِأَصْحَابِهِ .
ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبُو عُبَيْدٍ ، وَقَدَّمَ الثُّنَيَّ فِي تَعْبِئَتِهِ حَتَّى قَدِمَ الْحِيرَةَ وَاسْتَقَرَّ بِهَا .

(١) فل القوم : هزمهم .

(٢) الدهقان : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

٣٣ — يوم قُسّ الناطف*

رجع الجالندوس منهزماً ، ومعه جنوده في يوم السَّقَاطِيَّة ، فقال رُسْتَم : أَيْ
الْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى الْعَرَبِ فِيمَا تَرَوْنَ ؟ قَالُوا : بَهْمَن جَاذَوِيهِ^(١) . فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ الْفِيلَةُ ،
وَرَدَّ الْجَالَنْدُوسَ مَعَهُ ، وَقَالَ لَهُ : قَدَّمَ الْجَالَنْدُوسُ ، فَإِنْ عَادَ لِمِثْلِهَا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ .
وَسَارَ بَهْمَنُ مِنَ الْمَدَائِنِ يَقْصِدُ مُوَاجَهَةَ عَدُوِّهِ وَالْقَضَاءَ عَلَيْهِ ، وَمَعَهُ رَايَةٌ
كِسْرَى ، وَكَانَتْ مِنْ جُلُودِ النَّمْرِ ، عَرْضُ ثَمَانِيَةِ أَذْرَعٍ ، فِي طُولِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ
ذِرَاعاً ، وَنَزَلَ بِقُسِّ النَّاطِفِ .

وَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ ، فَنَزَلَ الْمَرْوَحَةَ ، وَعَسْكَرَ بِهَا ، وَجَعَلَ الْفُرَاتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْمَدَوِّ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بَهْمَنُ جَاذَوِيهِ : إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَنَدْعَكم وَالْعُبُورَ ، وَإِمَّا أَنْ
تَدْعُونَا نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ .
فَقَالَ النَّاسُ : لَا تَعْبُرْ يَا أَبَا عُبَيْدٍ ، نَنْهَيْكَ عَنِ الْعُبُورِ ، فَخَلَفَ لِيَقْطَعَ الْفُرَاتَ
إِلَيْهِمْ .

فَنَاشَدَهُ سُلَيْطُ بْنُ قَيْسٍ وَوُجُوهُ النَّاسِ ، وَقَالُوا : إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَ جُنُودِ
فَارَسَ مَذْكَانُوا ، وَإِنَّهُمْ قَدْ حَفَلُوا^(٢) لَنَا وَاسْتَقْبَلُونَا مِنَ الزُّهَاءِ^(٣) وَالْمُدَّةِ بِمَا لَمْ يَلْقَئَا

* لِلْفَرَسِ (بَهْمَن) عَلَى الْعَرَبِ (أَبِي عُبَيْدٍ) سَنَةُ ١٣ . وَقُسُّ النَّاطِفِ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنَ
الْكُوفَةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ الشَّرْقِيِّ . وَيُسَمَّى أَيْضاً يَوْمَ الْمَرْوَحَةِ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ
الْقُرْبَى . وَقَدْ يُسَمَّى يَوْمَ الْجَسْرِ لِأَنَّكَ مِنْ قِطْعَةٍ وَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ .
الطَّبْرِي ٦٧/٤ . ابْنُ الْأَثِيرِ ٢١٤/٢ . ابْنُ خَلْدُونِ ٩٠/٢ مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٨٨/٧ . فَتُوحُ
الْبُلْدَانِ ٢٥٢ .

(١) كَانَ بَهْمَنُ يُقَالُ بِذِي الْحَاجِبِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْتَصِبُ حَاجِبِيَهُ لِيَرْفَعَهُمَا عَنْ عَيْنَيْهِ كَبَرًا .

(٢) حَفَلُوا ، أَيْ اجْتَمَعُوا وَاحْتَشَدُوا .

(٣) يُقَالُ : قَوْمٌ ذُو زُمَاءٍ ، أَيْ عِدَدٌ كَثِيرٌ .

به أحدٌ منهم ، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجالٌ وملجأٌ ومرجعٌ ، من فرقةٍ إلى كَرَّةٍ .

فقال : لا أفعلُ ، جَبِنتَ واللهِ يا سُلَيْط ! فقال سُلَيْطُ : أنا واللهِ أَجْرَأُ منك نَفْساً ، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم ! فَلَجَّ أَبُو عُبَيْدٍ ، وترك الرأى ، وقال : لا يكونون أَجْرَأَ على الموت منا ؛ بل نَعْبِرُ إليهم .

وكانت زوج أبي عُبَيْدٍ رأت رؤياً : أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب ، فشرب منه أبو عُبَيْدٍ في أناس من أهله ، وأخبرت بذلك أبا عُبَيْدٍ ، فقال : هذه هي الشهادة ، وأوصى بمن يخلفه في الجيش إذا مات .

وأمر جنوده بالعبور ؛ فَعَبَرُوا مِنَ الْمَرْوَحَةِ - حيث تحصَّنوا - إلى قُسِّ الناطف - حيث أقام الفُرس - وعَبَرَ سُلَيْطُ بن قَيْسٍ في مُقَدِّمة العابرين .

وكان جندُ المسلمين دونَ عشرة آلاف ، ومع ذلك ضاق بهم المكانُ الذي تركه لهم الفُرسُ وراءَ الجسر ، فلم يكن لهم فيه مَرَجٌ من فرقةٍ إلى كَرَّةٍ ، ولم يُنمِهِلْهُمْ بَهْمَنَ حينَ تمَّ عبورُهم أن أمرَ جنوده فحملوا عليهم ، وفي مقدمتهم الفِيلةُ عليها الجلاجل ، ونظرت خيولُ المسلمين إلى هذه الفِيلةِ ، وسمعت رنينَ جَلالِجِليها فأنكرت ما رأت وما سمعت ، وفرت ، فلم يثبت منها إلا القليلُ على كُرِّهِ . ورشق الفُرسُ المسلمين بالنبل فقتلوا منهم خلقاً كثيراً^(١) .

واشتدَّ الأمرُ بالمسلمين ، فترجل أبو عُبَيْدٍ والناس ، ومشَوْا إلى الفُرسِ وصاغَهم بالسيوف ؛ فجعلت الفِيلةُ لا تَحْمِلُ على جماعةٍ إلا دَفَعَتْهم . فتأذى

(١) الفاروق عمر ، للدكتور هيكل .

أبو عُبَيْد : اَحْتَوَسُوا^(١) الْفَيْلَةَ ، واقطعوا بُطْنَهَا^(٢) ، واقْلَبُوا عنها أهلها .
وفعل القومُ ذلك ، فما تركوا فيلاً إلا حَطُّوا رَحْلَه ، وقتلوا أصحابه .

ووثب هو على الفيل الأبيض ، فقطع بِطَانَه ، فوقع الذين عليه ، وضرب خرطومَه
بالسيف ، ولكنَّ الفيل تقدَّم لأبي عُبَيْد وضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم
وقف فوقه فأزهقَ رُوحه .

فلَمَّا بَصُرَ به الناسُ تحتَ الفيل خشعت أنفُسُ بعضهم ، ثم أخذ اللواء الذي
أَمَرَه بعده ، فقاتل الفيلَ حتى تنحى عن أبي عُبَيْد ، فأخذه المسلمون فأخْرَزُوهُ ، ثم
قتل الفيلَ ، وتتابع سبعةٌ من ثَقِيف ، كلُّهم يأخذُ اللواء ، ويقاتل حتى يموت ، ثم
أخذ اللواء الثنَّى فهرب عنه الناس .

فلَمَّا رأى عبدُ الله بن مَرْثَد الثَّقَفِيَّ مَالَقَى أبو عُبَيْد وخلفاؤه ؛ وما يصنع الناس ،
بَادَرَهُم إلى الْجِسْرِ فقطعه ، وقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَرْتُوا على ما مات عليه أمراؤكم
أو تظْفَرُوا ، وحاز المشركون المسلمين إلى الْجِسْرِ ، فتوالت بهم إلى الفرات ، ففرق
من لم يَصْبِر .

وَحَشِيَ الثَّنِيُّ أن تتمَّ الفوضى ، فوقف اللِّوَاء بيده يُنادي : يَا أَيُّهَا النَّاس ، إِنَّا
دُونَكُمْ فَأَعْبَرُوا على هَيْئَتِكُمْ^(٣) ، ولا تُدْهَشُوا ؛ فَإِنَّا لن نَزَالِ حتى نراكم من
ذلك الجانب ، ولا تُفْرِقُوا أنفسكم .

فَعَبَرُوا الْجِسْرَ ، وعبدُ الله بن مَرْثَد قائمٌ عليه يَمْنَعُ الناس من العبور ،
فأخذوه وأَتَوْا به الثنَّى فصرَّ به ، وقال : ما حملك على الذي صنعت ؟ قال :
لِيُقَاتِلُوا .

(١) قال في اللسان : يقال : احتوش القوم الصيد ، إذا نفره بعضهم على بعض .

(٢) البطن : جمع بطن : الحزام . (٣) على هَيْئَتِكُمْ : أى متمهين .

وقاتل عُرْوَةُ بْنُ زَيْدٍ الْخَيْلَ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَأَبُو مُحَجَّجٍ الثَّقَفِيُّ ، وَقَاتَلَ أَبُو زَبِيدٍ الطَّائِيَّ ؛ سَحِيحَةً لِلْعَرَبِيَّةِ - وَكَانَ نَصْرَانِيًّا قَدِمَ الْخَيْرةَ لِبَعْضِ أَمْرِهِ .

وَنَادَى الْمُثَنَّى : مَنْ عَبَّرَ نَجَا . ثُمَّ أَصَابَ الْجَسْرَ ، فَعَبَّرَ النَّاسُ ، ثُمَّ عَبَّرَ بَيْنَ مَعَهُ إِلَى الْمَرْوَحَةِ وَهُوَ جَرِيحٌ ، ثُمَّ أَرَفَضَ عَنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ حَتَّى لَحَقُوا بِالْمَدِينَةِ ، وَسَارَ بَعْضُهُمْ فِي الْبَوَادِي اسْتَحْيَاءً مِنَ الْهَزِيمَةِ .

وَبَعَثَ الْمُثَنَّى بِخَبَرِ الْهَزِيمَةِ إِلَى عُمَرَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ قَالَ : مَا عِنْدَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ النَّاسِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ - وَقَدْ سَمِعَتْهُ يَحْدُثُ عُمَرُ : مَا سَمِعْتُ بِرَجُلٍ حَضَرَ أَمْرًا فَحَدَّثَ عَنْهُ كَانَ أَثْبَتَ خَبَرًا مِنْهُ .

فَلَمَّا قَدِمَ قَلْبُ النَّاسِ ^(١) وَرَأَى عُمَرُ جَزَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنَ الْفِرَارِ قَالَ : لَا تَجْزَعُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أَنَا فِئْتُكُمْ ؛ إِنَّمَا انْحَزَرْتُمْ إِلَى .
ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فِي حُلٍّ مِنِّي ، أَنَا فِئَةٌ كُلُّ مُسْلِمٍ ، مَنْ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَقَطَعَ شَيْءًا مِنْ أَمْرِهِ فَأَنَا لَهُ فِئَةٌ ، يَرْحَمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدٍ ! لَوْ كَانَ انْحَاذَ إِلَى لَكُنْتُ لَهُ فِئَةً .

وَسَمِعَ مُعَاذَ الْقَارِيَّ - وَكَانَ مِنْ شُهَدَاءِ وَفَرٍّ - مِنْ يَقْرَأُ ^(٢) : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَئْجَرًا فَا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، فَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَا تَبْكُ يَا مُعَاذُ ، أَنَا فَتَيْتُكَ ، وَإِنَّمَا انْحَزَرْتَ إِلَى .

(١) الفل من الناس : المنهزمون منهم .

(٢) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

٣٤ - يوم البُوَيْب *

بعد أن بلغت المزيعة بالمسلمين مبلغها يوم قُسَّ النَّاطِفِ نَدَبُ^(١) عُمرِ النَّاسِ إلى المثنى بن حارثة ؛ وكان فيمن نَدَبُ^(٢) جريرُ بن عبد الله في قومه من بجيلة ، وعِصْمَةُ بن الحارث فيمن تبعه من ضَبَّة ، وكتب إلى أهل الرِّدَّة يستنفرهم ، ولم يوافق أحدٌ إلا رمى به المثنى ؛ فتوافى إليه جمعٌ عظيم .

وبلغ رستم وألفيزان ما عليه المثنى ، وما ينتظر من المدد ، فجعا جُنْدًا عظيمًا جملاً عليه القائد مَهْرَانُ الهَمْدَانِيَّ وأمرأه أن يسرع السيرَ للقاء هؤلاء الغزاة المسلمين .

وعرف المثنى مسيرة هذا الجيش ، فأرسل إلى جرير وعِصْمَةَ وكلٍّ من أناءٍ مُمدًّا له يُعلمهم بالخبر ، ويواعدهم البُوَيْب .

فانتهوا إلى المثنى وهو بالبُوَيْب ، ومَهْرَانُ بإزائه من وراء الفرات ، وقد أرسل

* للعرب (المثنى بن حارثة) على الفرس (مهران الهمداني) . سنة ١٣٣ . والبويب : نهر بالعراق يأخذ من الفرات . وقد يسمى يوم مهران ، ويسمى يوم الأعشار ، لأن مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس .

الطبري ٧١/٤ ، ابن الأثير ٢/٢١٥ ، ابن خلدون ٢/٩٠ ، معجم البلدان ٢/٣١٠ ، فتوح البلدان ٢٥٣ .

(١) هذه رواية ابن الأثير وقال البلاذري : مكث عمر بن الخطاب سنة لا يذكر العراق لمصاب أبي عبيد وسليط ، وكان المثنى مقيمًا بأليس يدعو العرب للجهاد . ثم إن عمر ندب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتناقلون عنه ، حتى هم أن يغزو بنفسه ، وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ، ورغبهم في غنائم آل كسرى ، فردوا الاختيار إليه ، فأمرهم بالشخوس .

(٢) قال البلاذري : وقدم جرير بن عبد الله في بجيلة ، فسأل أن يأتي العراق على أن يعطى وقوه ربح ماغلبوا عليه ، فأجابه عمر إلى ذلك .

إلى الثنّى : إما أن تعبر إلينا ، وإما أن نعبر إليك ؛ فقال المثنّى : اعبروا ؛ فعبّره
مهران ، ونزل مع جُنْدِه على شاطئ الفرات .

وعبّى المثنّى أصحابه ، وكان في رمضان ، فقام خطيباً وقال : إنكم صوّام ؛
والصّوم مرقة ومضعفة ، وإنى أرى من رأى أن تُفطروا ، فتَقَوّوا بالطعام على
عدوّكم . قالوا : نعم ، وأفطروا .

وأبصر المثنّى رجلاً يَسْتَوْفِرُ وَيَسْتَنْتِلُ^(١) من الصّف ، فقال : مآبُ هذا ؟
قالوا : هو رَمَن فرّ يوم الزّحف يوم الجِسر^(٢) ، وهو يريد أن يستقتل ، فقرعه
بالرمح وقال : لا أبالك ! الزّم موقفك ؛ فإذا أتاك قرْنُك فأغنيه عن صاحبك ،
ولا تستقتل ، فقال : إني بذلك لجدير ، واستقرّ ولزِم الصّف .

وأقبل الفرس في ثلاثة صفوف ، مع كل صف فيل ، ورَجَلهم أمام فيلهم .
وأخذ المثنّى يطوف في صفوفه ، ويمهد إليهم بعمده ، وهو على فرسه الشّمس ،
ووقف على الرّايّات راية راية ؛ يُحضّضهم ويأمرهم بأمره ، ويهزّهم بأحسن
ما فيهم ، تحضيضاً لهم ، ولكلّ منهم يقول : إني لأرجو ألا تُوتى العرب اليوم
من قبلكم ، والله ما يسرّني اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرّ لعامّتكم . فيجيبونه
بمثل ذلك .

وأنصفهم المثنّى في القول والفعل ، وخلط الناس في المكروه والمحبوب ،
فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولاً ولا عملاً .

ثم قال : إني مكبرٌ ثلاثاً ، فتهيّئوا ، ثم احمِلوا مع الرابعة .

فلما كبر أول تكبيرة أمجلهم أهل فارس وعاجلهم ، فخالطهم مع أول

(١) استوفز . تهيأ للوثوب . استنتل : تقدم .

(٢) انظر يوم قس الناطف : ص ٢٣٠ .

تسكيرة ، واختلَّت لِشِدَّةِ الفُرْسِ بَعْضُ صُفُوفِ السَّامِيِّينَ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الْمُثَنَّى مَنْ يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ الْأَمِيرَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ : لَا تَفْضَحُوا الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ ، فَقَالُوا : نَعَمْ ، وَاعْتَدَلُوا .

وَلَمَّا طَالَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ عَمِدُ الْمُثَنَّى إِلَى أَنَسِ بْنِ هَلَالِ النَّمَرِيِّ ؛ فَقَالَ : يَا أَنَسُ ، إِنَّكَ أَمْرٌ عَرَبِيٌّ^(١) ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَلَى دِينِنَا ، فَإِذَا رَأَيْتَنِي جِلْتُ عَلَى مِهْرَانَ فَاحْمِلْ مَعِيَ . وَحَمَلَ الْمُثَنَّى عَلَى مِهْرَانَ ، فَأَزَالَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي مَيْمَنَتِهِ ؛ ثُمَّ خَالَطُوهُمْ ، وَاجْتَمَعَ الْقُلُبَانُ ، وَارْتَفَعَ الْغُبَارُ ، وَالْمُجَنَّبَاتُ تَقْتَتِلُ ، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقْرُعُوا لِنَصْرِ أَمِيرِهِمْ لَا الْمَشْرُكُونَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ ، وَارْتَثَ^(٢) مَسْعُودُ أَخُو الْمُثَنَّى يَوْمَئِذٍ ، وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الْمُسْلِمِينَ .

وَلَمَّا أُصِيبَ مَسْعُودُ بْنُ حَارِثَةَ تَضَمَّضَ مَنْ مَعَهُ ، فَقَالَ : يَا مَعَاشِرَ بَكَرَ ؛ ارْفَعُوا رَأْيَتَكُمْ رَفَعَكُمْ اللَّهُ ؛ وَلَا يَهْوُلَنَّكُمْ مَصْرَعِي . وَكَانَ الْمُثَنَّى قَالَهُمْ : إِذَا رَأَيْتُمُونَا أُصِيبْنَا فَلَا تَدْعُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؛ الزُّمُوا مَصَافِّكُمْ ، وَأَغْنُوا عَمَّنْ يَلِيكُمْ . وَأَوْجَعَ قَلْبُ الْمُسْلِمِينَ فِي قَلْبِ الْمَشْرُكِينَ ، وَقَتَلَ غِلَامٌ نَصْرَانِيٍّ مِنْ تَغْلِبِ مِهْرَانَ ، وَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ؛ وَأَخَذَتْ الْمُجَنَّبَاتُ يَقْتُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا ؛ وَالْمُسْلِمُونَ فِي الْقَلْبِ يَدْعُونَ لَهُمْ بِالنَّصْرِ ، وَالْمُثَنَّى يَقُولُ : أَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، حَتَّى انْهَزَمَ الْفُرسُ وَفَرُّوا .

فَسَابَقَهُمُ الْمُثَنَّى إِلَى الْجَسْرِ فُسَبِقَهُمْ ، وَأَخَذَ طَرِيقَهُمْ ، فَافْتَرَقُوا بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ مَصْعِدِينَ وَمَصُوبِينَ ، وَاعْتَوَرَتْهُمْ خِيُولُ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَتَلُوهُمْ وَجَمَلُوهُمْ جُمُئًا ، فَكَانَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْفُرسِ وَقْعَةٌ أَبْقَتْ رِمَّةً مِنْهَا .

(١) كَانَ أَنَسُ بْنُ هَلَالٍ مِنْ نَصَارَى النَّمَرِ ، قَدِمَ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنْ قَوْمِهِ وَهُمْ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ وَقَالُوا

نَقَاتِلْ مَعَ قَوْمِنَا .

(٢) ارْتَثَ : أَصْبَحَ جَزِيحًا مَشَارِفًا لِلْهَلَاكِ .

ولما فرغوا جلس المثنى للناس من بُعد الفراغ ، يحدّثهم ويحدثونه ، وكلما جاء رجل فتحدّث قال له : أَخْبِرْنِي عَنْكَ . فقال له قُرْطُ بْنُ سَجَّاحٍ : قتلتُ رجلاً فوجدتُ منه رائحةَ المسك ، فقلت : « مِهْرَان » ، ورجوتُ أن يكون إِيَّاهُ ، فإذا هو سَاجِبُ الخليل « شهر بزار » ، فوالله ما رأيتهُ - إذ لم يَكُنْ مِهْرَان - شيئاً .

فقال المثنى : قد قاتلتُ العربَ والعجمَ في الجاهلية والإسلام ، والله لِمِائَةٍ من العجمَ في الجاهلية كانوا أشدَّ علىَّ من ألفٍ من العرب ، ولِمِائَةٍ اليومَ من العرب أشدُّ علىَّ من ألفٍ من العجم ؛ إنَّ اللهَ أذهبَ قوَّتهم وأَوْهَنَ كَيْدَهُمْ ؛ فلا يروَعَنَّكُمْ زُهَاءُ^(١) تَرَوْنَهُ ، ولا سَوَادٌ ، ولا قَيْسِيٌّ^(٢) فُجَّجٌ^(٣) ، ولا نِبَالٌ طَوَالٌ ؛ فإنهم إذا أُعْجِلُوا عنها ، أو فقدوها كانوا كالبهائم ، أينما وجهتموها اتَّجَهَتْ .

وقال رِبْعِيٌّ^(٤) : لَمَّا رَأَيْتُ رُكُودَ الْحَرْبِ واحتدامها قلت : تَتَرَسُّوا بِالْجَنَانِ^(٥) فإنهم شَادُّونَ عَلَيْكُمْ ؛ فاصبروا لِشِدَّتَيْنِ ، وأنا زَعِيمٌ لَكُمْ بِالظَّفَرِ في الثالثة ؛ فأجابوني والله ، فَوَفَّى اللهُ كَفَّالَتِي .

وقال عَرَفُجَةُ : حُزْنَا كَتِيبَةً مِنْهُمْ إِلَى الْفُرَاتِ ، ورجوتُ أن يكونَ اللهُ تَعَالَى قد أَذِنَ في غَرَقِهِمْ ، وَسَلَّى عَنَّا بِهَا مُصِيبَةُ الْجِسْرِ ؛ فلما دخلوا في حَدِّ الإِحْرَاجِ كَرُّوا عَلَيْنَا ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، حتَّى قالَ بَعْضُ قَوْمِي : لو أَخَّرْتَ رَأْيَتَكَ أَفَقَلْتَ ؛ على إِقْدَامِهَا ، وَحَمَلْتُ بِهَا عَلَى حَامِيَتِهِمْ فقتلتُهُ ، فوَلَّوْا نَحْوَ الْفُرَاتِ ، فما بلغه أَحَدٌ مِنْهُمْ فِيهِ الرُّوحُ .

(١) عدد كثير . (٢) قوس لجاء : بان وترها عن كبدها .

(٣) هو رِبْعِيٌّ بنُ عامر بن خالد التميمي . (٤) تترس . تستر بالترس . والحجن : الترس ، وجمعه حجان .

ثم عاد المثنى فقال - وقد ندم - على أخذه بالجسر : لقد عجزت عجزاً وثق الله شرها بمسابقتي إليهم إلى الجسر ، وقطعه حتى أخرجتهم ، فإني غير عائد ؛ فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس ؛ فإنها كانت منى زلة ؛ لا ينبغي إخراج أحدٍ إلا من لا يقوى على امتناع .

ومات أناس من الجرحي من أعلام المسلمين ؛ منهم خالد بن هلال ومسمود ابن حارثة ، فصلّى عليهم المثنى وقال : والله كيهون على وجدى أن شهدوا البويب ؛ أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكسوا .

وأصاب المسلمون غمّاً ودقيقاً وبقراً ؛ فبعثوا به إلى عيال من قدم من المدينة ؛ وفي هذه الواقعة يقول الأعور المثنى : (١)

هاجت لأعور دار الحى أحزاناً	واستبدلت بعد عبد القيس همداًنا (٢)
وقد أرائنا بها والشمل مجتمعا	إذ بالثخيلة قتلى جند مهرانا (٣)
أزمان سار المثنى بالخيول لهم	فقتل القوم من فرس وجيلانا
سمّا لأجناد مهران وشيعته	حتى أبادهم مثنى ووحدانا
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى	مثل المثنى الذى من آل شيبانا
إن المثنى الأمير القرم لا كذب	في الحرب أشجع من ليث بخفانا (٤)

(١) الطبرى : ٣ - ٤٧١ . (٢) فى الطبرى : « خفانا » .

(٣) النخيلة : موضع على سمت الشام فى العراق .

(٤) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

٣٥ — القادسية *

قال أهل فارس لرُستم والفيروزان ؛ وهما على أهل فارس : أين يُذهبُ بكما ! لم يَبْرَحْ بكما الاختلافُ حتى أَوْهَنْتُمَا أَهْلَ فارسٍ وأطعمتُمَا فيهم عدوَّهم ، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تَقَرَّكما فارس على هذا الرَّأْيِ ، وأن تُعَرِّضاها لِلْهَلَكَةِ^(١) ؛ والله لَتَجْتَمِعَانِ أو لَنَبْدَأَنَّ بكما قبل أن يَشُمَّتَ بنا شامِت .

فقال الفَيْرُزَان ورستم لبُورَاب ابنة كسرى : اكتبى لنا نساء كِسْرَى وسَرَارِيَّةَ^(٢) ونساء آل كسرى وسَرَارِيَّهم ؛ ففعلت ، ثم أخرجت ذلك إليهما . فأرسلَا في طَلَبِهنَّ ، فلم يَبْقَ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا أَتَوْا بِهَا ، فأخذوهن بالرجال ، ووضعوا عليهن العَذَاب ؛ يستدلوْنهنَّ على ذَكَرٍ من أبناء كسرى ، فلم يوجدْ عندهنَّ مِنْهُم أحد ؛ إِلَّا غُلامٌ يُدْعَى يَزْدَجَرْد من ولد شهریار بن كسرى ؛ وأمه من أهل بادُورِيَا^(٣) ؛ فأرسلوا إليها ودلَّتهم عليه ؛ فجاءوا به فَلَكَوه ؛ وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة ، واجتمعوا عليه ، واطمأنَّت فارس ؛ وتبارى الرؤساء في طاعته ومَعُونَتِهِ .

بلغ المُثَنَّى بن حارثة ذلك ؛ فكتب به إلى عُمر ، ولم يصل الكتابُ إلى عمر حتى كَفَرَ أهل السَّوَادِ^(٤) ؛ مَنْ كَانَ له عَهْدٌ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ له عَهْدٌ ، وخرج المُثَنَّى على حَامِيَتِهِ حتى نَزَلَ بِذِي قَارِ^(٥) .

* الطبري ٨١/٤ ، ومعجم البلدان ٦/٧ . كان سنة ١٤ . والقادسية : موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا .

(١) الهلكة : الهلاك . (٢) سراري : جمع سرية : الأمة التي بوأتها بيتا . (٣) بادوريا : بلد قريب من بغداد . (٤) السواد : البلاد التي افتتحها المسلمون من العراق ، سميت بذلك لسوادها بالزروع والنجيل والأشجار . (٥) ذوقار : ماء لبكر بن وائل ، قريب من الكوفة .

ثم جاءهم كتابُ عُمرَ ، وفيه : أما بعد ؛ فأخّر جوا من بين ظَهْرِي^(١) الأعاجم ، وتفرّقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حُدُودِ أرضِكُم وأرضهم ؛ ولا تدعُوا في رِيْمةٍ أحداً ولا مُضَرَ ، ولا حلفائهم من أهلِ النَّجْدَاتِ ولا فارساً إلا اجْتَنَبْتُمُوهُ ؛ فإن جاء طائماً وإلا حَشَرْتُمُوهُ ، احْمِلُوا الْعَرَبَ عَلَى الْجِدِّ إِذَا جَدَّ الْعَجَمُ ، فَلْتَلْقُوا جَدَّهُمْ بِجِدِّكُمْ .

فكان القومُ في أمّوَاهِ^(٢) العراق ؛ من أولها إلى آخرها مَسَالِحِ^(٣) ؛ بعضهم ينظر إلى بعض ، ويُغِيثُ بعضهم بعضاً إن كَانَ كَوْنٌ ، وذلك في ذِي الْقَعْدَةِ من السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وفي ذِي الْحِجَّةِ من السنة نفسها كتب عُمرُ إلى عمّال العرب على السُّكُورِ^(٤) والقبائل : لا تدعُوا أحداً له سِلَاحٌ أو فَرَسٌ أو نَجْدَةٌ أو رَأْيٌ إلا انْتَحَبْتُمُوهُ ، ثم وجهْتُمُوهُ إِلَى ، وَالْعَجَلِ الْعَجَلِ !

فمضتِ الرُّسُلُ إلى مَنْ أَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِ ، مُخَرَّجَةً إِلَى الْحِجِّ ؛ ووافاه من القبائل مَنْ كانت طرقها على مَكَّةَ والمدينة في مَكَّةَ ، فأما مَنْ كان من أهل المدينة على النِّصْفِ ما بينه وبين العراق فوافاه بالمدينة مَرَّجَعَهُ من الحج ؛ وأما من كانوا أسْفَلَ من ذلك فانضمُّوا إلى الْمُثَنَّى . وَمَنْ وَاظَفُوا عُمرَ أَخْبَرُوهُ عَمَّن وراءهم بِالْحَثِّ .

وفي أوَّلِ يَوْمٍ من المحرم من السنة الرابعة عشرة خرج عُمرُ حتى نزل على ماء يُدْعَى صِرَاراً^(٥) ، فَعَسَّكَرَ بِهِ ولا يَدْرِي النَّاسُ ما يُرِيدُ : أَيْسِيرُ أَمْ يُقِيمُ ؟ وكانوا إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ عن شيء رَمَوْهُ بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، أو بعبد الرحمن بن عَوْفٍ ،

(١) ظهري الأعاجم : وسطهم . (٢) أمواه : جمع ماء .

(٣) المسالِح : جمع مسلحة ، وهي القوم ذوو سِلَاح . (٤) السُّكُور : جمع كورة ، وهي

الصقم . (٥) صرار موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، على طريق العراق .

وكانوا إذالم يقدرُ هذان على علمٍ شيءٍ مما يُريدون ثلثوا بالعبّاس ، فقال عثمان لعمر : ما الذى تُريد ؟ فنادى : الصَّلَاةُ جامعة .

فلما اجتمع الناسُ سألهم رأيهم فيمن يسيرُ على رأس الجيش إلى العراق ، فقال العامة : سيرٌ وسيرٌ بنا معك . فدخل معهم في رأيهم ، وكرِه أن يدعهم إلا أن يخرُجوا من هذا الرأى فى رِفْق ؛ فقال : استعدُّوا وأعدُّوا ؛ فإنى سائرٌ إلا أن يحىء رأيى هو أمثل^(١) من ذلك .

ثم جمع أهلَ الرأى ، فاجتمع إليه وجوه أصحابِ النبى صلى الله عليه وسلم وأعلامُ العرب ، فقال أخضرُونى الرأى ؛ فإنى حائرٌ ، فأجمعَ مَلُوكُهُمْ^(٢) على أن يبعثَ عمرُ رجلاً من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيم هو بالمدينة ، ويرميه بالجنود ، فإن كان الذى يشتبهى من الفتح ، فهو الذى يُريدُ ويريدون ، وإلا أعاد رجلاً وندب جنُداً آخر ، وفى ذلك ما يَمِيطُ العدوَّ ويشدُّ أزرَ المسلمين ، حتَّى يحىءَ نصْرُ الله .

فنادى عمرُ مرَّةً ثانيةً : الصَّلَاةُ جامعة ! فاجتمع الناسُ إليه ، وأرسل إلى علىّ كَرَّمَ الله وجهه - وكان قد استخلفه على المدينة - فأتاه ، وإلى طلحة - وقد بعثه علىّ المقدمة - فرجع إليه .

وقام فى الناس فقال : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد جمع على الإسلام أهله ، فألَّفَ بين القلوب ، وجعلهم فيه إخواناً ؛ وكذلك يحقُّ على المسلمين أن يَكُونُوا وأمرهم شُورى بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالناسُ تَبَعٌ لِمَن قام بهذا الأمر ؛ ما اجتمعوا عليه ورَضُوا به أَرَمَ الناسَ وكانوا فيه تَبَعاً لهم ،

(١) أمثل : أفضل . (٢) المَلَأُ : الأشراف .

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَكَيْتُمْ كَرَجُلٍ مِنْكُمْ ، حَتَّى مَرَفَنِي ذَوُو الرَّأْيِ مِنْكُمْ عَنِ الْخُرُوجِ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُمْ أَنَّ أَقِيمَ وَأَبْعَثَ رَجُلًا ، وَقَدْ أَحْضَرْتَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ قَدَمْتِ وَمِنْ خَلَّفْتَ (١) .

فَكَانَ طُلْحَةَ مِمَّنْ تَابَعَ النَّاسَ ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مِمَّنْ نَبَاهَهُ . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : مَا فِدَيْتُ أَحَدًا بِأَبِي وَأُمِّي بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ يَوْمِئِذٍ وَلَا بَعْدَهُ ؛ فَقُلْتُ : يَا أَبِي وَأُمِّي ! أَقِيمَ وَأَبْعَثَ جَنَدًا ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ قَضَاءَ اللَّهِ لَكَ فِي جُنُودِكَ قَبْلُ وَبَعْدَ ، فَإِنَّهُ إِنْ يُهْزَمَ جَيْشُكَ لَيْسَ كَهَزِيمَتِكَ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ تُقْتَلَ أَوْ تُهْزَمَ فِي أَنْفِ (٢) الْأَمْرِ خَشِيتُ أَلَّا يُكَبِّرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَأَلَّا يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَبَدًا .

فَقَالَ عُمَرُ : فَأَشِيرُوا عَلَيَّ بِرَجُلٍ .

وَكَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَامِلًا لِعُمَرَ عَلَى صَدَقَاتِ هَوَازِنَ ، وَكَانَ فِيمَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بِانْتِخَابِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ ؛ مِمَّنْ كَانَ لَهُ سِلَاحٌ أَوْ فَرَسٌ ؛ فَجَاءَ كِتَابُهُ : إِنِّي قَدْ انْتَخَبْتُ لَكَ أَلْفَ فَارِسٍ ، كُلُّهُمْ لَهُ نَجْدَةٌ وَرَأْيٌ ، وَصَاحِبُ حَيْطَةٍ ؛ يَحُوطُ حَرِيمَ قَوْمِهِ ، وَيَنْعِي ذِمَارَهُمْ (٣) ؛ إِلَيْهِمْ أَنْتَ أَحْسَابُهُمْ ، فَشَأْنُكَ بِهِمْ .

وَوَافَقَ كِتَابُهُ مَشُورَتَهُمْ ؛ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : وَجَدْتُهُ ؛ قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : الْأَسَدُ فِي بَرَائِنِهِ ؛ سَعْدُ (٤) . وَمَالَأَهُ أُولُو الرَّأْيِ .

فَانْتَهَى عُمَرُ إِلَى رَأْيِهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ ؛ فَقَدِمَ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُ عَلَى حَرْبِ

(١) يريد عليا وطلحة .. (٢) أنف الأمر : أول الأمر .

(٣) الذمار : ما يلزمك حفظه وحايته . (٤) هو سعد بن أبي وقاص مالاك بن وهب وهو

الذي ذكره بعد باسم سعد بن وهيب .

العراق ، وأوصاه فقال : يَسْمَعِد ، سَمْعَدَ بنى وَهَيْب ، لَا يَغُرُّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَقِيل : خال^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمَحُوهُ السَّيِّءُ بِالسَّيِّئِ ، وَلَكِنَّهُ يَمَحُوهُ السَّيِّئُ بِالْحَسَنِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا طَاعَتُهُ ؛ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيمُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ ، يَتَفَاضِلُونَ بِالْعَاقِبَةِ ؛ وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ ، فَانْظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقْنَا فَالْزَمْهُ فَإِنَّهُ الْأَمْرُ ؛ هَذِهِ عِظَتِي بِإِيَّاكَ ، إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ^(٢) وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

ولما أراد أن يُسَرِّحَهُ دَعَاهُ فَقَالَ : إِنِّي وَلِيَّتُكَ حَرْبُ الْعِرَاقِ ، فَاحْفَظْ وَصِيَّتِي ، فَإِنَّكَ تُقَدِّمُ عَلَى أَمْرٍ كَرِيهِ شَدِيدٌ ، لَا يُخَلِّصُ مِنْهُ إِلَّا الْحَقُّ ، فَعُوذُ نَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ الْخَيْرُ ، وَاسْتَفْتِحْ بِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَادَةٍ عَتَادًا ، فَعَتَادُ الْخَيْرِ الصَّبْرُ ، فَالصَّبْرُ الصَّبْرُ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ ، يَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ : فِي طَاعَتِهِ وَفِي اجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ يُبْغِضَ الدُّنْيَا وَحُبَّ الْآخِرَةِ ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَةِ ، وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً ، مِنْهَا السِّرُّ وَمِنْهَا الْعَلَانِيَةُ ، فَأَمَّا الْعَلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَامُهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، وَأَمَّا السِّرُّ فَيُعْرَفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ ، فَلَا تَزْهَدْ فِي التَّجَبُّبِ ، فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبَّبَهُ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغَّضَهُ ، فَاعْتَبِرْ مِنْزِلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ مَنْ يَشْرَعْ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ .

ثُمَّ قَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ لَا أَضْرِبُ بَنَ مَلُوكِ الْعَجَمِ بِمَلُوكِ الْعَرَبِ ، فَلَمْ يَدَعْ رَئِيسًا

(١) كَانَ سَمْعَدُ مِنْ بَنِي زَهْرَةَ أَخْوَالِ النَّبِيِّ ، وَكَانَ مِنْ أَسْبَقِ قُرَيْشٍ إِلَى الْإِسْلَامِ .

(٢) حَبِطَ عَمَلُهُ : بَطُلَ ثَوَابُهُ .

ولا ذار رأي ولا ذا شرف ولا ذا سُلطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم
بوجه الناس وغرّهم.

وفصل سعدٌ عن المدينة في أربعة آلاف ، ثلاثة مئتين قدم عليه من اليمن والسرّة
وألف من سائر الناس . وشيئهم عمر من صرار إلى الأعوص^(١) ، ثم قام في
الناس خطيباً ، فقال : إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم القول
ليحيي بها القلوب ؛ فإن القلوب ميتة في صدورنا حتى يحييها الله ، من علم شيئاً
فلينتفع به . وإن للمدل أمارات وتبشير ؛ فأما الأمارات فالحياء والسخاء
والهين واللين ، وأما التبشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، ويسر
لكل باب مفتاحاً ، فباب المدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت
يتذكر الأموات ، والاستعداد له بتقديم الأعمال ؛ والزهد أخذ الحق من كل
أحد قبله حق ، وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ؛ ولا تصانع في ذلك أحداً ،
واكتف بما يكفي من الكفاف ؛ فإن من لم يكفه الكفاف لم يفته شيء ؛
إني بينكم وبين الله ، وليس بيني وبينه أحد ؛ وإن الله قد أزمى دفع الدماء عنه ،
فأنتهوا شكاتكم إليفا ، فمن لم يستطع فإلى من يبلّغنا ، تأخذ له الحق غير
منقوص ..

وأمر سعداً بالسّير ، وقال : إذا انتهيت إلى زرود^(٢) فانزل بها ؛ وتفرّقوا
فيما حولك منهم ، وانتخب أهل النجدة والرأى والقوة والمدّة .
ثم أمدّ عمر سعداً بعد خروجه بالفي يمانى وألنى نجدى من غطفان
وسائر قيس .

(١) الأعوص : موضع قرب المدينة .

(٢) زرود : ماء على طريق الحاج إلى الكوفة .

وقدم سعد زرود في أول الشتاء فنزلها؛ وتفرقت الجنود فيها حولها من أمواه^(١) بنى تميم وأسد، وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر، وانتخب من بنى تميم والرباب أربعة آلاف، وانتخب من بنى أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة^(٢)؛ فأقاموا هناك بين سعد بن أبي وقاص وبين المثنى بن حارثة؛ وكان مع المثنى ثمانية آلاف من ربيعة؛ ممن بقى بعد فصول^(٣) خالد وممن بقي يوم الجسر، وكان مع المثنى ألفان من اليمن...

وبينما الناس كذلك: سعد يرجو أن يقدم المثنى؛ والمثنى يرجو أن يقدم عليه سعد مات المثنى من جرأته يوم الجسر.

ثم نزل سعد بشراف^(٤)، ركت إلى عمر بمنزله وبمنازل الناس، فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فمشر^(٥) الناس وعرف عليهم، وأمر على أجنادهم، وعبهم، وأمر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدرهم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم، وواعدتهم القادسية، واضمهم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إلى بالذي يستقر عليه أمرهم.

فبعث سعد إلى المغيرة فانضم إليه؛ وإلى رؤساء القبائل فأتوه، وقدر الناس وعبهم، وأمر أمراء الأجناد، وعرف العرفاء^(٦)؛ فعرف على كل عشرة رجلاً ممن له وسائل في الإسلام، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة؛ وولى الحروب رجالاً؛ فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقيتها^(٧) وطلاتها ورجلها

(١) أمواه: جمع ماء.

(٢) يطلق الحزن على مواضع كثيرة، أشهرها حزن بنى يربوع. والبسيطة: موضع بين الكوفة وحزن بنى يربوع.

(٣) فصول: خروج.

(٤) شراف: ماء بنجد. (٥) عثرت الشيء عشيراً: كان تسعة فزدت واحداً حتى تم عشرة.

(٦) العريف: رئيس القوم، وجمعه عرفاء. (٧) بساقة الجيش: مؤخره.

ورُكبانها ؛ ولم يفصل إلا على تعبيته ؛ ولم يخرج من شراف إلا بكتاب عمر وإذنه .

فأما أمراء التَّعْبِيَّة فاستعمل زُهْرَةَ بن عبد الله على المقدمات ، وزهرة كان ملكَ هَجَرَ في الجاهلية ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وقدمه . واستعمل على اليمنة عبد الله بن المعتَم ، وكان من أصحاب رسول الله . واستعمل على الميسرة شُرْحَبِيل ابن السَّمْط السَّكِنْدِي ، وكان غلاماً شاباً ؛ أبلى في حَرْبِ الرَّدَّة ، وجعل عاصم بن عمرو على السَّاقَةِ ، وسواد بن مالك على الطلائع ، وعلى الرَّجُل حَمَّال بن مالك الأَسَدِي ، وعلى الرُّكْبَان عبد الله بن ذِي السَّهْمَيْنِ الْخُثَمِيُّ ؛ فكان أمراء التَّعْبِيَّة يُلَوْنُ الأُمِيرَ ، وأمراء الأعشار يُلَوْنُ أمراء التَّعْبِيَّة ، وأصحابُ الرِّايَاتِ يُلَوْنُ أمراء الأعشار ، والقُوَّادُ رِءُوسُ القِبَائِلِ يُلَوْنُ أصحابَ الرِّايَاتِ . وكان على القضاء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، وجُعِلَ إليه قِسْمَةُ الْفَيْءِ ، وجعل داعيتهم ورأئدهم سلمان الفارسي ؛ والترجان هلال الهَجْرِي ؛ والكاتب زياد بن أبي سفيان .

فلما فرغ سعدٌ من تَعْيِيَّتِهِ ، وأعدَّ لكل شئٍ عُدَّتَهُ كتب بذلك إلى عمر ؛ وقبل رُجُوع الكتابِ مِن عمر قدم المُعَنَّى بن حارثة وسَلِمَى بنت خَصَفَةَ التَّيْمِيَّة إلى سعد بوصية المعنى بن حارثة ورأيه ؛ فذكر رأيه لسعد ؛ ألا يقاتل عدوَّه من أهلِ فارس إذا استَجْمَعَ أمرُهم في عُمُرٍ دارِهم ، وأن يُقَاتِلَهُمْ على حدود أرضهم ، على أدنى حَجَرٍ من أرض العرب ، وأدنى مَدْرَةٍ^(١) في أرض العَجَم ، فإن يُظْهِرَ اللهُ المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ؛ وإن يكن الأخرى فأموا إلى فِتَّة^(٢) ، ثم يكونون أعلمَ بسيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يردَّ الله الكُرَّةَ عليهم .

(١) المدر : قطع الطين اليابس ، واحدته مدرة . والعرب تسمى القرية مدرة .

(٢) الفتة : الطائفة من الناس .

فلما انتهى إلى سعدٍ رأى المُثنَّى ووصيته ترحم عليه كثيراً ، وأمر المُنَى على عمله ، وأوصى بأهل بيته خيراً ، وخطب سلمى فتزوجها وبنى بها .
ثم قدم على سعد وهو بشراف كتابُ عمر بنتل رأى المُثنَّى ، إذ قال : أما بعد ، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على أمرك كله ؛ واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة^(١) وبأسهم شديد ؛ وعلى بلاد منيع وإب كان سهلاً ، كشود^(٢) لجوره وفيوضه ودأبه^(٣) ، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض^(٤) ؛ وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابذوهم الشدة والضرب ، وإياكم والمناظرة لموعهم ، ولا يخذعكم ، فإنهم خدعة مكررة ، أمرهم غير أمركم ، إلا أن تجادوهم ؛ وإذا انتهيت إلى القادسية . والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، ولما يريدونه من تلك الأصل^(٥) ؛ وهو منزل رغيب^(٦) خصب ، دونه قناطر وأنهار ممتعة ، فتكون مسالحك على أنقابها^(٧) ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ؛ ثم الزم مكانك ، فلا تبرحه ؛ فإذا أحسوك أنفضتكم^(٨) رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوكم ، واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً ؛ إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أذرباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة

(١) فاضلة : زائدة . (٢) عقبة كشود وكأداء : صعبة .

(٣) الدأى : جمع دأء ؛ وهو الفضاء وما اتسع من القلاع والأودية .

(٤) غاض الماء غيضاً : قل ، وفاض فيضاً : كثر ، والمعنى : قليلاً من كثير .

(٥) الأصل والأصول : جمع أصل . (٦) رغيب : يرغب فيه ، أو واسع .

(٧) أنقاب : جمع نقب : الطريق بين الجبلين ، يريد طرقها .

(٨) أنفضتكم : حركتهم وأثارهم .

من أرضهم إلى أذنى حَجَرٍ من أرضكم ؛ ثم كنتم عليها أجراً ، وبها أعلم ؛ وكانوا عنها أجبن ، وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ، ويرد لكم الكثرة .

وكتب إليه باليوم الذي ير تجل فيه من شراف . فسار سعد على تعييته ، والكتب بينه وبين عمر متواصلة .

ثم جاءه من عمر كتاب آخر قال فيه : أما بعد فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية الحسنة . والصبر العبر ؛ فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسنة ، والحذر الحذر على من أنت عليه ، وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، واكثرُوا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ واكتب إلى : أين بملك جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم ؛ فإنه منمى من بعض ما أردت الكتاب به فلة علمى بما هجمت عليه ، والذي استقر عليه أمر عدوكم ، فصيف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن - صفة كدأى أنظر إليها ؛ واجعلنى من أمركم على الجليية^(١) ، وخف الله وارجه ؛ ولا تدل بشيء . واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم .

فكتب إليه سعد بصفة البلدان : القادسية بين الخندق والعتيق ، وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح^(٢) إلى الحيرة بين طريقين ؛ فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحوض^(٣) ، يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وأن ما عن يمين القادسية إلى الوجة فيض من

(١) الجليية : الخبر البقين .

(٢) الجوف : المطنن من الأرض ، ومكان لاح : ضيق .

(٣) الحوض : نهر كان بين القادسية والحيرة .

فِيُوضِي مِيَاهِهِمْ ، وَأَنَّ جَمِيعَ مَنْ صَالَحَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ قَبْلِي إِلَيَّ^(١) لَأَهْلٍ فَارِسَ ، قَدْ خَفَوْا لَهُمْ وَاسْتَعْدُّوا لَنَا ، فَهُمْ يَحَاوِلُونَ إِنْغَاضَنَا^(٢) وَإِفْجَاحَنَا ، وَنَحْنُ نَحَاوِلُ إِنْغَاضَهُمْ وَإِبْرَازَهُمْ ، وَأَمْرُ اللَّهِ بَعْدُ مَاضٍ ، وَقَضَاؤُهُ مُسْلِمٌ إِلَى مَا قَدَّرَ لَنَا وَعَالَيْنَا ، فَنَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرَ الْقَضَاءِ وَخَيْرَ الْقَدَرِ فِي عَافِيَةٍ .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : « قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ ، فَأَقِمُ بِمَكَانِكَ حَتَّى يُنْفِضَ اللَّهُ لَكَ عَدُوَّكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا مَا بَعْدَهَا ، فَإِنَّ مِنْحَكَ اللَّهُ أَذْبَارَهُمْ فَلَا تَنْزِعْ^(٣) عَنْهُمْ حَتَّى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ الْمَدَائِنَ ، فَإِنَّهُ خِرَابُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .
وَجَعَلَ عُمَرُ يَدْعُو لِسَعْدِ خَاصَّةً ، وَيَدْعُو مَعَهُ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَةً .

ثُمَّ عَادَ عُمَرُ فَكُتِبَ إِلَيْهِ : « إِنِّي قَدْ أَلْقَيْتُ فِي رُوعِي^(٤) أَنْكُمْ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ وَهَزَمْتُمُوهُمْ فَاطْرَحُوا الشَّكَّ ، وَآثَرُوا التَّقِيَّةَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ لَاعَبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنَ الْعِجَمِ بِأَمَانٍ ، أَوْ قَرَفَهُ^(٥) بِإِشَارَةٍ أَوْ بِلِسَانٍ ، فَكَانَ لَا يَدْرِي الْأَجْعَى مَا كَلَمَهُ بِهِ ، وَكَانَ عَنْدهُمْ أَمَانًا ، فَأَجْرُوا ذَلِكَ لَهُ مَجْرَى الْأَمَانِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالضَّحِكَ . وَالْوَفَاءُ الْوَفَاءُ ! فَإِنْ اَلْخَطَأُ بِالْقَدَرِ الْهَلَكَةِ ، وَفِيهَا وَهْنُكُمْ ، وَقُوَّةُ عَدُوِّكُمْ ، وَذَهَابُ رِيحِكُمْ^(٦) ، وَإِقْبَالُ رِيحِهِمْ . وَاعْلَمُوا أَنِّي أَحَذَّرُكُمْ أَنْ تَكُونُوا شِدْنًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَسَبِيًّا لِتَوْهِينِهِمْ .

وَأَقَامَ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ شَهْرًا ، ثُمَّ كُتِبَ إِلَى عُمَرَ : لَمْ يُوَجِّهْ الْقَوْمُ إِلَيْنَا أَحَدًا ، وَلَمْ يُسَيِّدُوا إِلَى أَحَدٍ قِيَادَةَ جَيْشٍ لِحَارِبَتِنَا ، وَمَتَى يَبْلُغُنَا ذَلِكَ نَكْتُبُ بِهِ ، وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ ، فَإِنَّا بِمَنْجَاةٍ^(٧) دُنْيَا عَرِيضَةٍ ، دُونَهَا بَأْسٌ شَدِيدٌ ، قَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْنَا فِي الدَّعَاءِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾^(٨) .

(١) هم ألب عليه بفتح الهزرة وكسرهما : مجتمعون عليه بالظلم والعداوة

(٢) إِنْغَاضُنَا : إِهَاجَتُنَا . (٣) تَنْزِعُ : تَكْفُ . (٤) الرُّوعُ : الْقَلْبُ . (٥) قَرَفَهُ : دَانَاهُ

(٦) رِيحِكُمْ : قُوَّتُكُمْ . (٧) بِمَنْجَاةٍ : بِنَاحِيَةٍ . (٨) سُورَةُ الْفَتْحِ ١٦ .

(١٦ - أَيَّامُ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ)

وبعث سَعْدٌ في مقامه ذلك إلى أسفل الفرات عاصِمَ بن عمرو ، فسار حتى أتى مَيْسَانَ^(١) ، فطلب غَنَمًا أو بَقَرًا ، فلم يَقْدِرْ عليها وأوغَلَتْ في الآجَامِ ، وأوغل خَلْفَهُمْ حتى أصاب رجلًا على أَجَمَةٍ ، فسأله واستدله على البقر والغنم ، فحلف له ، وقال : لأَعْلَمَ ؛ وإذا هو رَاعِي ما في تلك الأَجَمَةِ . فدخل واستناق الثيران ، وأتى بها العسكر ، فقسم ذلك سَعْدٌ على الناس فَأَخْضَبُوا أَيَّامًا . وَحَسِبَ الناس أن ذلك آيَةٌ تبشير يُسْتَدَلُّ بها على رضا الله ونَصْرِهِ .

ثم إنَّ سَعْدًا بعث عِيونًا إلى أهلِ الحيرة ليماموا له خبرَ أهلِ فارس ، فرجعوا إليه بالخبرِ ، بأن الملك قد وُلِّي رُسْتَمَ حَرْبَهُ ، وأمره بالمسكرة ، فكتب بذلك إلى عُمَرَ ، فكتب إليه عمر : لَا يَسْكُرُ بَنَّاكُ^(٢) مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ ، وَلَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ ، وَاسْتَمِنَ بِاللَّهِ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَنْظَرَةِ^(٣) وَالرَّأْيِ وَالْجَلْدِ يَدْعُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دَعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ ، وَفَلْجًا^(٤) عَلَيْهِمْ ، وَاكْتُبْ إِلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ .

ولما جاء سَعْدًا أَمْرُ عُمَرَ جَمَعَ نَفَرًا عَلَيْهِمْ نِجَارًا^(٥) وَلَهُمْ آراءٌ ، وَنَفَرًا لَهُمْ مَنْظَرًا ، وَعَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ وَلَهُمْ آراءٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَيْهِمْ نِجَارٌ وَلَهُمْ آراءٌ وَاجْتِهَادٌ فَالْتَمَعَانُ بْنُ مَقْرَنٍ ، وَبُسْرُ بْنُ أَبِي رُحْمٍ ، وَحَمَلَةُ بْنُ جُوَيْيَةِ السَّكْنَانِي ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ التَّمِيمِي ، وَفُرَاتُ بْنُ حَيَّانِ الْعِجْلِي ، وَعَدِيٌّ بْنُ سُهَيْلٍ ، وَالْمُعْغِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ .

وَأَمَّا مَنْ لَهُمْ مَنْظَرٌ لِأَجْسَامِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ وَلَهُمْ آراءٌ ، فَعُطَارْدُ بْنُ حَاجِبٍ ، وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَسَّانٍ ، وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبٍ ،

(١) ميسان : بين واسط والبصرة .

(٢) كربة النعم : اشتد به . (٣) منظره الرجل : إذا نظرت إليه فأعجبك .

(٤) فلجا : أي نصرا . (٥) النجار : شكل الإنسان وهيئته .

والغيرة بن شُعبة ، والمُعنى بن حارثة . ثم بَعَثَهُم دَعَاةً إِلَى الْمَلِكِ ، وَأَنْفَذَهُمْ إِلَيْهِ بِالْمَدَائِنِ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أَمَرَ التَّرْجَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : سَلِّمُ مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ وَمَا دَعَاكُمْ إِلَى غَزَوِنَا وَالْوَلُوعِ بِيْلَادِنَا ؟ أَمِنْ أَجْلِ أَنَّا أَجْمَعْنَا كُمْ ^(١) ، وَتَشَاغَلْنَا عَنْكُمْ اجْتَرَأْتُمْ عَلَيْنَا !

فَقَالَ النَّمَانُ بْنُ مُقَرَّرٍ لِأَصْحَابِهِ : إِنْ شِئْتُمْ أَجَبْتُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ شَاءَ آثَرْتُهُ . فَقَالُوا : بَلْ تَكَلَّمْ ، وَقَالُوا لِلْمَلِكِ : كَلَامُ هَذَا الرَّجُلِ كَلَامُنَا .

فَتَسَلَّمَ النَّمَانُ بْنُ مُقَرَّرٍ فَقَالَ :

إِنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَدُلُّنَا عَلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُنَا بِهِ ، وَيُعَرِّفُنَا الشَّرَّ وَيَنْهَانَا عَنْهُ ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَمْ يَدْعُ إِلَى ذَلِكَ قَبِيلَةٌ إِلَّا صَارَتْ فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ تَقَارِبُهُ ، وَفِرْقَةٌ تُبَاعِدُهُ ؛ وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي دِينِهِ إِلَّا الْخَوَاصُّ . فَكَثَّ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْثَ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُنْبَذَ ^(٢) إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَنْ يَبْدَأَ بِهِمْ . فَدَخَلُوا مَعَهُ جَمِيعًا عَلَى وَجْهَيْنِ : مُكْرَهُ عَلَيْهِ فَاغْتَبِطَ ، وَطَائِعَ أَتَاهُ فَازْدَادَ ، فَعَرَفْنَا جَمِيعًا فَضَّلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ ؛ مِنَ الْعَدَاوَةِ وَالضُّيْقِ ، ثُمَّ أَمَرَنَا أَنْ نَبْدَأَ بِنِ بَلِينَا مِنَ الْأُمَمِ ، فَندَعُوهُمْ إِلَى الْإِنصَافِ ، فَنَحْنُ ندَعُوكُمْ إِلَى دِينِنَا ؛ وَهُوَ دِينُ حَسَنِ الْحَسَنِ ، وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ ، فَإِنْ أَيْتَمَ فَأَمْرُهُ مِنَ الشَّرِّ ، هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخِرِ قَسَرٍّ مِنْهُ الْجَزَاءُ ^(٣) ؛ فَإِنْ أَيْتَمَ فَلِلْمَنَاجِزَةِ ^(٤) ؛ فَإِنْ أَجَبْتُمْ إِلَى دِينِنَا خَلَّفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقَمْنَا كَمَّ عَلَيْهِ ، عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ

(١) أَجْمَعْنَاكُمْ ، أَيْ أَرْجَنَّاكُمْ وَانصَرَفْنَا عَنْكُمْ ، مِنْ أَجْلِ الْمَاءِ إِذَا تَرَكَهُ يَجْمَعُ .

(٢) يُنْبَذُ إِلَيْهِمْ : يَكْشِفُهُم بِالْأَمْرِ وَيَقَاتِلُهُمْ . (٣) الْجَزَاءُ بِالْكَسْرِ : جَمْعُ جَزِيَةٍ .

(٤) الْمَنَاجِزَةُ : الْقِتَالُ .

وَنَرْجِعْ عَنْكُمْ وَشَأْنَكُمْ وَبِلَادَكُمْ ، وَإِنْ اتَّقَيْتُمُونَا بِالْجِزَاءِ قَبِلْنَا وَمَنْعْنَاكُمْ ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ .

فَقَالَ يَزِيدُ جَرْدٌ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً كَانَتْ أَشَقَّي وَلَا أَقَلَّ عِدْدًا ، وَلَا أَسْوَأَ ذَاتَ بَيْنٍ مِنْكُمْ ، قَدْ كُنَّا نَوَكِّلُ بِكُمْ قُرَى الصَّوَّاحِي فَيَكْفُونَا غَارَاتِكُمْ ، لَا تَغْزُواكُمْ فَارِسَ ، وَلَا تَطْمَعُونَ أَنْ تَقُومُوا لَهُمْ ، فَإِنْ كَانَ غُرُورًا لِحِقِّكُمْ ، فَلَا يَفِرُّكُمْ مِنْهَا ، وَإِنْ كَانَ الْجَهْدُ^(١) دَعَاكُمْ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوَّةً إِلَى خِصْمِكُمْ ، وَأَكْرَمْنَا وَجُوهَكُمْ وَكَسَوْنَاكُمْ ، وَمَلَّكْنَا عَايَكُمْ مَلَكَ يَرْفُقُ بِكُمْ . فَاسْكِتِ الْقَوْمَ .

ثُمَّ قَامَ الْمَغِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ فَقَالَ : أَشْيَهَا الْمَلِكُ ، إِنْ هَؤُلَاءِ رُفُوسُ الْعَرَبِ وَوُجُوهُهُمْ ، وَهُمْ أَشْرَافُ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الْأَشْرَافِ ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ الْأَشْرَافُ الْأَشْرَافُ ، وَيُعَظِّمُ حَقُوقَ الْأَشْرَافِ الْأَشْرَافُ ، وَيُفَخِّمُ الْأَشْرَافُ الْأَشْرَافُ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ جَمْعُهُ لَكَ ، وَلَا كُلُّ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ أَجَابُوكَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَلَا يَحْسُنُ بِعَثَلِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ ، فَجَاوِبْنِي لِأَكُونَ الَّذِي أَبْلُغُكَ ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ ، إِنَّكَ قَدْ وَصَفْتَنَا صِفَةً لَمْ تَكُنْ عَالِمًا بِهَا .

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ ، فَمَا كَانَ أَسْوَأَ حَالًا مِنَّا ، وَأَمَّا جَوْعُنَا فَلَمْ يَكُنْ يُشَبِّهُ الْجَوْعَ ، كُنَّا نَأْكُلُ الْخَنَافِيسَ وَالْجَمْلَانَ^(٢) ، وَالْمَقَارِبَ وَالْحَيَّاتَ ، فَذَرَى ذَلِكَ طَعَامَنَا ، وَأَمَّا الْمَنَازِلُ فَإِنَّمَا هِيَ ظَهْرُ الْأَرْضِ ، وَلَا نَلْبَسُ إِلَّا مَا غَزَلْنَا مِنْ أَوْبَارِ الْإِبِلِ وَأَشْعَارِ الْقَنَمِ ، دِينُنَا^(٣) أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَيُغَيِّرَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيْدٍ فَنُ ابْنَتُهُ وَهِيَ حَيَّةٌ ؛ كَرَاهِيَّةٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِنَا ، فَكَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا مَعْرُوفًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ،

(١) الجهد : المشقة ، وهو يريد الحاجة والفقر والجوع .

(٢) الجملان : جمع جمل بفتح الجيم ، وهو دابة سوداء من دواب الأرض .

(٣) أى شأنا .

ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسبه خير أحسابنا ، ويئته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبيلتنا ، وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها ، أصدقنا وأحلمنا . فذعا إلى أمر ، فلم يجب أحد غير رزب^(١) كان له ، وكان الخليفة من بعده ، فقال وقتلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئا إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنت إذا لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ؛ وأنا خلقت كل شيء ؛ وإلى يصير كل شيء ؛ وإن رحمتي أدر كتسكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأحللكم داري دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابكم على هذا فله مآلكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فأغرضوا عليه الجزية ، ثم امنوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه ؛ فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ؛ ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناواه . فاختر إن شئت الجزية عن يدي وأنت صاغر^(٢) وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك .

فقال يزجرد : أتستقبلني بمثل هذا ! لولا أن الرسل لا تقتل اقتلتكم ، لاشيء لكم عندي .

ثم قال يزجرد : ائتوني بوقر^(٣) من تراب ، واحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم

(١) هو أبو بكر الصديق .

(٢) وأنت صاغر ، أي وأنت ذليل راض بالضم .

(٣) الوقر : الحمل الثقيل .

سُوقُوهُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ بَابِ الْمَدَائِنِ . وَقَالَ : ارْجِعُوا إِلَى صَاحِبِكُمْ ، فَأَعْلِمُوهُ أَنِّي مَرْسَلٌ إِلَيْكُمْ رِسْتُمْ ، حَتَّى يَدْفِيَهُ وَيُدْفِيَكُمْ^(١) فِي خَنْدَقِ الْقَادِسِيَّةِ ، وَيَنْكَلَّ بِهِ وَبِكُمْ مِنْ بَعْدِ ، ثُمَّ أُورِدَهُ بِلَادَكُمْ ؛ حَتَّى أَشْغَلَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ بِأَشَدِّ مِمَّا نَالَكُمْ مِنْ سَابُورَ .

ثُمَّ قَالَ : مَنْ أَشْرَفُكُمْ ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، ثُمَّ قَالَ عَاصِمٌ - وَافْتَتَاتِ^(٢) لِيَأْخُذَ التُّرَابَ : أَنَا أَشْرَفُهُمْ ، أَنَا سَيِّدُ هَؤُلَاءِ ، فَحَمَلْنِيهِ . فَقَالَ : أَكْذَاكَ هُوَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ فَحَمَلَهُ عَلَى عُنُقِهِ ، فَخَرَجَ بِهِ مِنَ الْإِيوَانِ وَالِدَّارِ حَتَّى أَتَى رَاحِلَتَهُ ، فَحَمَلَهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ انْجَذَبَ^(٣) فِي السَّيْرِ ، حَتَّى دَخَلَ وَصَحْبُهُ عَلَى سَعْدٍ ، وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ : أَبْشِرُوا ، فَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ أَقَالِيدَ مَلِكِهِمْ^(٤) .

وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَزْدَادُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ قُوَّةً ، وَيَزْدَادُ عَدُوُّهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَهْنًا^(٥) .

وَاشْتَدَّ مَا صَنَعَ الْمُسْلِمُونَ وَصَنَعَ الْمَلِكُ عَلَى جُلَسَاءِ الْمَلِكِ ، وَرَاحَ رُسْتُمْ مِنْ سَابَاطِ^(٦) يَسْأَلُهُ عَمَّا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِهِمْ ، وَكَيْفَ رَأَاهُمْ . فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ فِي الْعَرَبِ مِثْلَ رِجَالٍ رَأَيْتُهُمْ دَخَلُوا عَلَىَّ وَمَا أَنْتُمْ بِأَعْقَلِ مِنْهُمْ ، وَلَا بِأَحْسَنَ جَوَابًا مِنْهُمْ . وَأَخْبَرَهُ بِكَلَامِ مُتَسَكِّلِهِمْ .

وَقَالَ : لَقَدْ صَدَقَنِي الْقَوْمُ ، لَقَدْ وَعِدَ الْقَوْمُ أَمْرًا لَيَذُرْكُنَّهُ ، أَوْ لِيَمُوتَنَّ عَلَيْهِ . عَلَى أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ أَجْمَعَهُمْ ؛ فَقَدْ ذَكَرُوا الْجِزْيَةَ فَأَعْطَيْتُهُ تَرَابًا فَحَمَلَهُ عَلَى

(١) يدفيه : يجهز عليه .

(٢) افتتات : ادعى . (٣) الانجذاب : سرعة السير .

(٤) مفاتيح . (٥) وهنا ، أى ضعفا .

(٦) ساباط : بلد ببلاد العجم .

رَأْسِهِ ، نَخْرُجُ بِهِ ، وَلَوْ شَاءَ اتَّقَىٰ بغيره ، وَأَنَا لَا أَعْلَمُ .
فَقَالَ رُسْتَمُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُ لَا عَقْلَ لَهُمْ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَفْتَسِدَ الْقَوْمَ بِنَفْسِهِ . فَتَطَيَّرَ
بِذَلِكَ ، وَأَبْصَرَهَا دُونَ أَصْحَابِهِ .

وَخَرَجَ رُسْتَمُ مِنْ عِنْدِهِ كَثِيبًا غَضَبَانٍ - وَكَانَ مُنْجَمًا كَاهِنًا - فَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْوَفْدِ ،
وَقَالَ لِذَمَّتِهِ : إِنْ أَدْرَكْتَهُمُ الرَّسُولُ تَلَافَيْنَا أَرْضَنَا ، وَإِنْ أَعْجَزُوهُ سَلَبْنَاكُمْ اللَّهُ
أَرْضَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ .

فَرَجَعَ الرَّسُولُ مِنَ الْحَيْرَةِ بِفَوَاتِهِمْ ، فَقَالَ : ذَهَبَ الْقَوْمُ بِأَرْضِكُمْ غَيْرَ
ذِي شَاكٍ .

وَفِيمَا بَيْنَ ذَهَابِ الْوَفْدِ إِلَى يَزْدَجَرْدَ وَعُودَتِهِ كَانَ الْعَرَبُ يُغَيِّرُونَ عَلَى مَنْ دَانَاهُمْ
مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ مِنْ أَرْضِ السَّوَادِ ، وَفَزِعَ أَهْلُ السَّوَادِ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلُوا إِلَى
يَزْدَجَرْدَ : إِنْ الْعَرَبُ قَدْ نَزَلُوا الْقَادِسِيَّةَ بِأَمْرِ لَيْسَ يُشْبِهُهُ إِلَّا الْحَرْبُ ، وَإِنْ فَعَلَهُمْ لَا يَبْقَى
عَلَيْ شَيْءٍ ، وَقَدْ أَخْرَبُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَرَاتِ ، وَلَيْسَ فِيهَا هُنَاكَ أُنَيْسٌ إِلَّا فِي الْحَصُونِ ،
وَقَدْ ذَهَبَتِ الدَّوَابُّ وَكُلَّ شَيْءٌ لَمْ تَحْتَمِلْهُ الْحَصُونُ مِنَ الْأَطْعَمَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ
يَسْتَنْزِلُونَا ، فَإِنْ أَبْطَأَ عَنَّا الْغِيَاثُ ^(١) أَعْطَيْنَاهُمْ بِأَيْدِينَا .

فَدَعَا يَزْدَجَرْدَ رُسْتَمَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَوْجِّهَكَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ،
وَإِنَّمَا يُعَمِّدُ لِلْأُمُورِ مَنْ كَانَ عَلَى قَدَرِهَا ، وَأَنْتَ رَجُلٌ أَهْلٌ فَارِسِ الْيَوْمِ ، وَقَدْ تَرَى
مَاجَاءَ أَهْلِ فَارِسَ مِنْ أَمْرِ لَمْ يَأْتِهِمْ مِثْلُهُ مِنْذُ وَلِيَ آلَ أَرْدَشِيرَ ، وَأَرَاهُ أَنْ قَدْ قَبِلَ مِنْهُ ،
وَأُثْنِي عَلَيْهِ .

(١) الْغِيَاثُ : الْعَوْنُ وَالنَّجْدَةُ .

فقال له الملك : أُحِبُّ أَنْ أَنْظُرَ فِيمَا لَدَيْكَ لِأَعْرِفَ مَا عِنْدَكَ ، فَصِفْ لِي الْعَرَبَ وَفَعَلَهُمْ
مَنْذُ نَزَلُوا الْقَادِسِيَّةَ ، وَصِفْ لِي الْعَجَمَ وَمَا يَلْقَوْنَ مِنْهُمْ .

فقال رُسْتَمُ : صِفَةُ ذِيَابٍ صَادَفَتْ غِرَّةً مِنْ رِءَاءٍ فَأُفْسِدَتْ .

قال : ليس كذلك ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ رَجَاءً أَنْ تُعَرِّبَ لِي عَنْ صِفَتِهِمْ ، فَأَقْوَيْكَ لِتَعْمَلَ
عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ فَلَمْ تُصِيبْ ، فَأَفْهَمَ عَنِّي . إِنَّمَا مَثَلُهُمْ وَمِثْلُ أَهْلِ فَارَسٍ كَمِثْلِ عُقَابٍ
أَوْفَى^(١) عَلَى جَبَلٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الطَّيْرُ بِاللَّيْلِ ، فَتَبَيَّتُ فِي سَفْحِهِ فِي أَوَّكَارِهَا ، فَلَمَّا
أَصْبَحَتْ تَجَلَّتِ الطَّيْرُ فَأَبْصَرَتْهُ يَرُوقُهَا ، فَإِنْ شَدَّ شَيْءٌ اخْتَطَفَهُ ، فَلَمَّا أَبْصَرَتْهُ الطَّيْرُ
لَمْ تَنْهَضْ مِنْ خَافَتِهِ ، وَجَعَلَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا طَائِرٌ اخْتَطَفَهُ ، فَلَوْ تَنَهَضَتْ تَهَضُّةً
وَاحِدَةً رَدَّتْهُ ، وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ أَنْ تَنْجُوَ كُلِّهَا إِلَّا وَاحِدًا ، وَإِنْ
اِخْتَلَفَتْ لَمْ تَنْهَضْ فِرْقَةً إِلَّا هَلَكَتْ ، فَهَذَا مِثْلُهُمْ وَمِثْلُ الْأَعَاجِمِ ، فَأَعْمَلْ عَلَى
قَدَرِ ذَلِكَ .

وَفَصَّلَ رُسْتَمُ بَعْدَ تَلَبُّثٍ^(٢) وَتَرَدُّدٍ ، وَسَارَ مِنَ الْمَسَدَائِنِ حَتَّى بَلَغَ سَابَاطَ ، وَفِيهَا
جَمَعَ آلَةَ الْحَرْبِ وَأَدَاتَهَا ، وَبَعَثَ عَلَى مَقْدَمَتِهِ الْجَالْنُوسَ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَاسْتَعْمَلَ
عَلَى مَيْمَنَتِهِ الْهُرْمَزَانَ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ مِهْرَانَ بْنَ بَهْرَامَ ، وَعَلَى سَاقَتِهِ
الْبِيرْزَانَ ؛ ثُمَّ أَمَرَ الْجَالْنُوسَ أَنْ يَصِيبَ لَهُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ ؛ فَأَصَابَ رَجُلًا
دُونَ قَنْطَرَةَ الْقَادِسِيَّةِ ، فَاخْتَطَفَهُ ؛ وَنَفَرَ الْعَرَبُ خَلْفَهُ وَلَكِنْ أَحَدًا
لَمْ يُذَرِكْهُ .

وَأَذْخَلَ الرَّجُلَ عَلَى رُسْتَمَ فَقَالَ لَهُ : مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ وَمَاذَا تَطْلُبُونَ ؟ قَالَ : جِئْنَا

(١) أَوْفَى : أَشْرَفَ . (٢) تَلَبُّثٌ : تَبَاطُؤٌ .

نطلب مَوْعِدَ اللَّهِ ، قال : وما هو ؟ قال : أرضُكم وأبناؤُكم ودمائُكم إن أُبَيْتُمْ أنْ تُسَلِّمُوا.

قال رستم : فإن قُتِلْتُمْ قبل ذلك ؟ قال : في موعود الله أن من قُتِلَ مِنَّا قَبْلَ ذلك أَدْخَلَهُ الجنة ، وأنجزَ لمن بَقِيَ مِنَّا ما قُلْتُ لك ، فَتَحْنُ على يَقِين . فقال رستم : قد وُضِعْنَا إِذَا في أيديكم ، قال : وَيَحْكُ يارستم ! إن أعمالكم قد وَضَعْتُكُمْ ، فَأَسْلَمَكُمْ الله بها ، فلا يفرِّتْك ماترى حَوْلَك ؛ فإنك لست تُحَاوِلِ الإنس ، وإِمْما تُحَاوِلِ القُضَاءَ والقَدَرَ . فاستشاط غضباً ، وأمر به فَضْرِبَتْ عُنُقُهُ .

ثم خرج رستم حتى نزل بَبْرُس^(١) ، فَغَضِبَ أصحابُه الناسَ وفَجَرُوا ، وَشَرَبُوا الخمرَ ، فَضَجَّ المُلُوجُ^(٢) إلى رُستَم وشكَّوا إليه ما يَلْقَوْنَ في أَمْوَالِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، فقام فيهم فقال : يامُشرَ أَهلِ فارس ، والله لقد صدق العربي ، والله ما أَسْلَمْنَا إلا أَعْمَالُنَا ، والله لَلْمَرْبُ أَحْسَنُ سِيرَةٍ مِنْكُمْ ، إن الله كان ينصركم على العدو ، وَيُمْكِّنُ لَكُمْ في البلادِ بِحُسْنِ السيرةِ وَكَفِّ الظلمِ ، والوفاء بالعهود والإحسان ، فَأَمَّا إِذْ تَحَوَّلْتُمْ عن ذلك إلى هذه الأعمالِ ، فلا أدري الله إلا مُفِرّاً ما بكم ، وما أنا بآمنٍ أن يَنْزِعَ اللهُ سُلْطَانَهُ مِنْكُمْ .

وبعث الرِّجَالَ فَلَقَطُوا له بِمَضَ من يُشْكِي ، فَأَتَى بنفَرٍ فَضْرِبَ أعناقهم . ثم ركب ونادى في الناس بالرَّحِيلِ ، حتى انتهى إلى الحيرة ، ودعا أهلها وقال لهم : يَأْأَعْدَاءُ اللهِ ! فَرِحْتُمْ بدخولِ العربِ علينا بلادنا ، وكُنْتُمْ عيوناً لهم علينا وقوَّيتُمُوهم بالأموال . فَاتَّقَوْهُ يَا بَنِي بَقِيلَةَ ، وقالوا له : كُنْ أَنْتَ الذي تُكَلِّمُهُ فَتَقْدَمُ ، فقال : مَا أَنْتَ وَقَوْلُكَ : إِنَّا فَرِحْنَا بِمَجِيئِهِمْ ، فإِذَا فَعَلُوا ؟ وبأى ذلك من

(١) برس : موضع بأرض بابل . (٢) الملوج : كبار العجم .

أُمُورِهِمْ نَفَرَحَ ! إِنْهُمْ لِيَزْعُمُونَ أَنَّا عَبِيدٌ لَهُمْ ، وَمَا هُمْ عَلَى دِينِنَا ، وَإِنْهُمْ لِيَشْهَدُونَ عَلَيْنَا أَنَّا مِنْ أَهْلِ النَّارِ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا كُنَّا عِيُونًا لَهُمْ ، فَمَا الَّذِي يُخَوِّجُهُمْ إِلَى أَنْ نَكُونَ عِيُونًا لَهُمْ ، وَقَدْ هَرَبَ أَصْحَابُكُمْ مِنْهُمْ ، وَخَلَّوْا لَهُمُ الْقُرَى ! فَلَيْسَ يَمْنَعُهُمْ أَحَدٌ مِنْ وَجْهِ أَرَادُوهُ ، إِنْ شَاءُوا أَخَذُوا يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ! وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا قَوَّيْنَاهُمْ بِالْأَمْوَالِ ؛ فَإِنَّا صَانِعُنَاهُمْ بِالْأَمْوَالِ عَنْ أَنْفُسِنَا ، إِذْ لَمْ تَمْنَعُونَا مَخَافَةَ أَنْ نُسَبِّيَ ، وَأَنْ نُحَرِّبَ وَتَقْتُلَ مَقَاتِلَتَنَا ، وَقَدْ عَجَزَ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيَهُمْ مِنْكُمْ ، فَكُنَّا نَحْنُ أَعْجَزُ . وَلِعَمْرِي لَأَنْتُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُمْ ، وَأَحْسَنُ عِنْدَنَا بَلَاءً ، فَاذْهَبُوا مِنْهُمْ نَسْكُنْ لَكُمْ أَعْوَانًا ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ عُلُوجِ السَّوَادِ ؛ عَبِيدٌ مِنْ غَلَبَ . فَقَالَ رَسَمٌ : صَدَقَكَ الرَّجُلُ .

* * *

وَمَكَثَ رُسْتَمُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يَقَا تِلْ رَجَاءُ أَنْ يَضْجَرُوا بِمَكَانِهِمْ وَأَنْ يُجْهَدُوا فَيَنْصَرِفُوا ، وَكَرِهَ قِتَالَهُمْ مَخَافَةَ أَنْ يَلْقَى مَا لَقِيَ مَنْ قَبْلَهُ ، وَطَاوَلَهُمْ لَوْلَا أَنْ الْمَلِكُ جَعَلَ يَسْتَمِجِلُهُ . ثُمَّ نَزَلَ النَّجَفُ ^(١) .

وَعَرَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَطَاوِلُونَهُمْ ، فَمَهَّدَ إِلَى سَمَدٍ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْزِلُوا حُدُودَ أَرْضِهِمْ ، فَبَعَثَ سَمَدَ عَاصِمَ بْنَ عَمْرٍو وَجَابِرَ الْأَسَدِيَّ وَغَيْرَهُمَا مِنْ رِءُوسِ الْقَوْمِ لِلْإِغَارَةِ ، فَأَغَارُوا ، وَأَتَوْا سَمَدًا بِالْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَالسَّلَامَةِ .

ثُمَّ سَارَ رَسَمٌ حَتَّى نَزَلَ نَهْرَ الْعَتِيقِ ، وَسَايَرَهُ حَتَّى بَلَغَ خَفَّانَ ^(٢) ، ثُمَّ طَلَعَ مَوْضِعًا يُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَرَأَسَلَ زُهْرَةَ بْنَ الْحَوَرِيَّةِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى وَاقَفَهُ

(١) النجف : موضع قريب من الكوفة . (٢) خفان : مأسدة قرب القادسية .

فأرادَه على أَنْ يُصَالِحَهُمْ ، ويجعل له جُعْلًا على أَنْ ينصرفوا عنه ، وجعل يقولُ فيما يقول : أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفةٌ منكم في سُلْطَانِنَا ، فكُنَّا نحسِنُ جَوَارَهُمْ ، ونكفُّ الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم في أهل باديتهِم ، فنرعيهم صرَاعِينَا ، ونميرُهُم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا ، وقد كان لهم بذلك مَعَاشٌ ؛ قال له ذلك يُعَرِّضُ بالصِّلَحِ ولا يُصَرِّحُ .

فقال له زُهْرَةُ : صدقتَ ؛ قد كان ما تذكُر ، وليس أمرُنا أمرًا أولئك ، ولا طَلِبَتُنَا طَلِبَتَهُمْ ، إِنَّا لَمْ نَأْتِكُمْ لطلب الدنيا ، إِنَّمَا طَلِبَتُنَا وَهَمَّتُنَا الآخرة ، كُنَّا كما ذكرتَ ، يَدِينُ لَكُمْ مَنْ وَرَدَ عَلَيْكُمْ مِنَّا ، وَيَضْرَعُ إِلَيْكُمْ يَطْلُبُ ما في أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولًا ، فدعانا إلى رَبِّهِ فَأَجَبْنَاهُ ، فقال لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم : إني قد سَلَطْتُ هذه الطائفة على مَنْ لم يَدِينْ بديني ، فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ ، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مُقَرَّرِينَ به ، وهو دينُ الحق لا يرغبُ عنه أحدٌ إلَّا ذَلٌّ ، ولا يَمْتَصِمُ به أحدٌ إلَّا عَزٌّ .

فقال له رُسْتَمٌ : وما هو ؟ قال : أمَّا عموذُه الذي لا يصلح منه شيء إلَّا به فشهادةُ أَنْ لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، قال : ما أَحْسَنَ هذا ! وأى شيء أيضًا ؟ قال : وإخراجُ العباد من عبادة العبادِ إلى عبادة الله تعالى ، قال : حَسَنٌ ، وأى شيء أيضًا ؟ قال : والناس بنو آدم وحواء إخوةٌ لأبٍ وأمٍّ ، قال : ما أَحْسَنَ هذا !

ثم قال له رستم : أرايتَ لو أنِّي رَضِيتُ بهذا الأمرِ وأجبتُكم إليه ومعى قَوْمِي كيف يكون أمرُكم ؟ أترجمون ؟ قال : إى والله ! لا تقربُ بلادكم أبدًا

إلا في تجارة أو حاجة ، قال : صدقتني والله ؛ أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة ، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم : نعدوا طورهم وعادوا أشرفهم .

فقال له زهرة : نحن خيرُ الناس للناس ، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون نطيع الله في السفلة ، ولا يضرنا من عصي الله فينا ، وانصرف عنه .
ودعا رستم رجال فارس ، فذاكرهم هذا فحموا من ذلك وأنفوا ، فقال :
أبعدكم الله وأستحقكم ! أخزى الله آخرعنا وأجبتنا !

وبدا السعد أن يرسل إلى الغيرة بن شعبة ، وبسر بن أبي رهم ، وعرفجة بن هرثمة وخديفة بن محسن ، وربيع بن عامر ، وقرقة بن زاهر التميمي ، ومذعور ابن عدي العجلي ، والمضارب بن يزيد العجلي ، وممبّد بن مرة العجلي .
فلما أحضروا لديه قال لهم : إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم ، فما عندكم ؟ قالوا جميعاً : نتبع ما تأمرنا به ، وننتهي إليه ، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء ، نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس ، فكلّمناهم به .

فقال سعد : هذا فعل الخزيمة^(١) ، اذهبوا فتهيئوا . فقال ربيع بن عامر :
إن الأعاجم لهم آراء وآراب ، ومتى تأتيتهم جميعاً يروا أننا احتفلنا بهم ، فلا تزدحم على رجل ؛ فالتئوه جميعاً على ذلك ؛ فقال : فسرحوني ، فأمر سعد أن يسرح .

وخرج ربيع ليدخل على رستم عسكره ، فاحتبسّه الذين على القنطرة ، وأخير رستم بمجيئه ، فاستشار عظماء أهل فارس ، فقال : ما ترون ؟ أنباهي أم نتهاون ؟

(١) الخزيمة : جمع حازم .

فَأَجْمَعُ مَلَوْنَهُمْ عَلَى التَّهَاقُوتِ . فَأُظْهِرُوا الزُّبْرَجَ ^(١) ، وَبَسَطُوا الْبُسْطَ وَالنَّمَارِقَ ^(٢) ، وَلَمْ يَتْرَكُوا شَيْئًا ، وَوُضِعَ لِرِسْتِمِ سَرِيرُ الذَّهَبِ ، وَأُلْبِسَ زِينَتَهُ مِنَ الْأَنْمَاطِ وَالْوَسَائِدِ الْمَسْجُوجَةِ مِنَ الذَّهَبِ . وَأَقْبَلَ رَيْمَى يَسِيرَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ قَصِيرَةٌ ، وَمَعَهُ سَيْفٌ لَهُ مَشُوفٌ ^(٣) ، وَغَمْدُهُ لِقَافَةُ ثَوْبٍ خَلَقَ ، وَرَمَحُهُ مَعْلُوبٌ ^(٤) بِقَدِيدٍ . مَعَهُ حَجَافَةٌ ^(٥) مِنْ جُلُودِ الْبَقَرِ ، عَلَى وَجْهِهَا أَدِيمٌ أَحْمَرٌ مِثْلَ الرِّغِيفِ ، وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَنَبْلُهُ .

فَلَمَّا غَشِيَ الْمَلِكُ وَانْتَهَى إِلَيْهِ ، وَإِلَى أَدْنَى الْبُسْطِ قِيلَ لَهُ : انْزِلْ ، فَخَلَمَهَا عَلَى الْبَسَاطِ ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ عَلَيْهِ نَزَلَ عَنْهَا ، وَرَبَطَهَا بِوَسَادَتَيْنِ ، فَشَقَّهُمَا ثُمَّ أَدْخَلَ الْحَبْلَ فِيهِمَا ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَنْهَوْهُ ، وَإِنَّمَا أَرَوْهُ التَّهَاقُوتَ ، وَعَرَفَ مَا أَرَادُوا ، فَأَرَادَ اسْتِخْرَاجَهُمْ ، وَعَلَيْهِ ذَرْعٌ لَهُ كَأَنَّهَا إِضَاضَةٌ ^(٦) وَيَلْمَقَةٌ ^(٧) عِبَاءَةٌ بِمِيزَةٍ ، قَدْ جَاءَتْهَا ^(٨) وَتَدَرَّعَتْهَا ، وَشَدَّهَا عَلَى وَسْطِهِ بِسَلَبٍ ^(٩) ، وَقَدْ شَدَّ رَأْسَهُ بِمِجْرَةٍ ^(١٠) ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ شَعْرَةً ، وَلِرَأْسِهِ أَرْبَعُ ضَفَائِلَ قَدْ قُمْنَ قِيَامًا كَأَنَّهُنَّ قُرُونُ الْوَعِيلَةِ . فَقَالُوا : ضَعْ سِلَاحَكَ ، فَقَالَ : إِنِّي لَمْ آتِيكُمْ فَأَضَعْ سِلَاحِي بِأَمْرِكُمْ ، أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونِي ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ آتِيَكُمْ كَمَا أُرِيدُ رَجَعْتُ .

فَأَخْبَرُوا رِسْتِمَ ، فَقَالَ : انْذَرُوا لَهُ ، هَلْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ! فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رَمَحِهِ وَزُجَّةٍ ^(١١) نَصْلٍ ، يُقَارِبُ الْخَطْلُو ، وَيَزُجُّ ^(١٢) النَّمَارِقَ وَالْبُسْطَ ، فَاتَرَكَ لَهُمْ نَمْرُقَةً وَلَا بَسَاطًا إِلَّا أَفْسَدَهُ ، وَتَرَكَ مُنْتَهَكًا مُمَزَّقًا .

(١) الزبرج : الزينة من وشى أو جواهر . (٢) النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة .

(٣) سيف مشوف : مجلوع . (٤) يقال : غلب الرمح على البناء للمجهول ، إذا حزم مقبضه .

(٥) الحجفة : الترس من الجلد . (٦) الإضاضة : الغدير .

(٧) اليلق : القباء . (٨) فى اللسان : جبت القميم : قورت جيبه .

(٩) السلب : ليف المقل . (١٠) المعجر : ما ينسج من الليف ، شبه الجوالق .

(١١) الزج : الحديدة أسفل الرمح . (١٢) يزج : يدفع بالزج .

فلما دنا من رُسْتَم تعلق به الحرس ، وجلس على الأرض ، وركز رمحهُ بالبُسط فقالوا : ما حملك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه .

فكلمه فقال : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنُخرج مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقِهِ لندعوهم إليه ، فَمَنْ قَبِلَ ذلك منا قَبِلْنَا ذلك منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا ، وَمَنْ أَبَى قَاتَلْنَاهُ أَبَدًا حتى نُفْضِيَ إلى مَوْعُودِ الله . قال : وما مَوْعُودُ الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال مَنْ أْبَى ، والظفر لمن بَقِيَ .

فقال رُسْتَم : قد سمعتُ مقاتلتكم ؛ فهل لكم أن تؤخّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا ! قال : نعم ، كم أحبُّ إليكم ؟ أيومًا أم يومين ؟ قال : لا ، بل حتى نُكاتبَ أهلَ رأينا ورؤساء قومنا ، فقال : إن مما سنّ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أعتنا ، ألا نمكّن الأعداء من آذاننا ، ولا نؤجّلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثا ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واخترْ واحدةً من ثلاث بعد الأجل : اختر الإسلامَ وندّعك وأرضك ، أو الجزاء^(١) فنقبل نكفّ عنك ، وإن كنتَ عن نصرنا غنيًّا تركناك منه ، وإن كنتَ إليه محتاجًا منعناك ، أو المُنابذة^(٢) في اليوم الرابع ، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ، أنا كفيْلُك بذلك على أصحابي ، وعلى جميع مَنْ ترى . قال : أسيّدُهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ على أَعْلَاهُمْ .

(١) الجزاء : جمع جزية . (٢) المنابذة : المكافحة .

نخلص رستم إلى رؤساء فارس فقال : ما ترون ؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله ؛ أتدين إلى شيء من هذا ، وتدع دينك لهذا الكلب ! أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويحكم ! لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأس والكلام والسيرة ، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ، ويصنون الأ حساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ، ولا يرون فيه ما ترون .

وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ، ويذهّدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم أن تروني فأريكم ! فأخرج سيفه من خِرْقَةٍ كأنه شُعْلَةٌ نار ، فقال القوم : اغمّده ، فغمّده ، ثم رمى رأساً ورموا حَجَفَتَهُ ، فخرق رؤسهم ، وسَلِمَتْ حَجَفَتُهُ . فقال : يا أهل فارس ، إنكم عَظَّمْتُمُ الطَّعامَ واللباس والشراب ، وهي عندنا صغيرة . ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل .

فلما كان من الغد بعثوا إلى سعد : أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حُذَيْفَةَ بنَ مَحْصَنٍ ، فأقبل في نحوٍ من ذلك الزَّيِّ ، حتى إذا كان على أدنى البساط قيل له : انزل ، قال : لو جئتكم في حاجتي ، فقولوا لي : أله الحاجة أم لي ؟ فإن قال : لي ، فقد كَذَبَ ، ورجعت وتركتم .

فقال رستم : دعوه ، فجاء حتى وقف عليه ، وهو على سريره ، فقال : انزل ، قال : لا أفعل ، فلما أبى سأل : ما بالك جئت ولم يجيئ صاحبنا بالأمس ؟ قال : إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء ، فهذه نوبتي . قال : ما جاء بكم ؟ قال : إن الله عز وجل منّ علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكبين ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأبوا إلينا قبلناها : الإسلام ونصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة فقال :

أولموا دعة إلى يومٍ ما . فقال نعم ، ثلاثاً من أمس . فلما لم يجد عنده إلا ذلك ردّه وأقبل على أصحابه ، فقال : وَيَحْكُمُ ! ألا تَرَوْنَ إلى ما أرى ! جاء الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا ، وحقّر ما نُعَظِّمُ ، وأقام فرسه على زبرجنا وربّطه به ؛ فهو في يُمْنِ الطائر ؛ ذهب بأرضنا وما فيها إليهم مع قَاضٍ عقله ، وجاءنا هذا اليوم ؛ فوقف علينا في يُمْنِ الطائر ؛ يقوم على أرضنا دوننا . . . حتى أغضبهم وأغضبوه .

فلما كان من الغد أرسل إلى العرب : ابعثوا إلينا رجلاً ؛ فبعثوا إليهم المغيرة بن شعبة . ولما جاء إلى القنطرة عبّرها إلى أهل فارس ؛ واستأذنوا رُستمَ في إجازته ؛ ولم يُغَيِّرُوا شيئاً من شارتهم ؛ تقويةً لثماؤهم ؛ وأقبل المغيرة عليهم ، والقوم في زِيَّهم ؛ عليهم التَّيجان والثيابُ المنسوجة بالذهب ، وبُسُطُهم على غلوة^(١) ، لا يصل إلى صاحبهم حتّى يمشى عليها .

وأقبل المغيرة ، وله أربعُ ضفائر يمشى حتى جلس على سريرهِ ووسادته ، فوثبوا عليه ، فترّروه^(٢) وأنزلوه ، ومغثوه^(٣) . فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفّه منكم ؛ إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبدُ بعضنا بعضاً ، إلا أن يكونَ مُحارباً لصاحبه ، فظننتُ أنكم تُواسون قومكم كما نتواسى ؛ وكان أحسنَ من الذي صنعتم أن تُخبروني أن بَعْضَكُمْ أربابُ بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نَصْنَمُه ، ولم آتكم ولكن دَعَوْتُموني ؛ اليوم علمتُ أن أمركم مُضْمَحِلٌ ، وأنكم مغلوبون ؛ وإن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقال السُّفلة : صدّق والله العربي ، وقالت الدهاقين^(٤) : والله لقد رمى

(١) الغلوة : مقدار مرماة . (٢) ترروه : زحزحوه .

(٣) مغثوه : ضرباً ليس بالشديد . (٤) الدهقان : زعيم فلاحى العجم .

بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه ؛ قاتل الله أولينا ؛ ما كان أحقهم حينما كانوا
يُصغرون أمر هذه الأمة !

فازحه رستم ؛ ليجو ما صنع به ، وقال : يا عربى ؛ إن الحاشية قد تصنع
ما لا يوافق الملك ، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغى من ذلك ؛ فالأمر
على ما تحب من الوفاء وقبول الحق ؛ ما هذه المغازل^(١) التى معك ؟ قال : ما ضرَّ
الجرّة ألا تكون طويلة ! ثم راماهم ، فقالوا له : ما بال سيفك رثا ! قال : رث
الكسوة حديد المضربة ؛ ثم عا طاه سيفه . ثم قال له رستم : تتكلم أم أتتكلم ؟
فقال المغيرة : أنت الذى بعثت إلينا ؛ فتكلم ، فأقام الترجمان بينهما .

وتكلم رستم فحمد قومه ، وعظم أمرهم ، وقال : لم نزل متمكنين فى البلاد ،
ظاهرين على الأعداء ، أشرافا فى الأمم ، فليس أحد من الملوك فى مثل عزنا وشرنا
وسلطتنا ، ننصر على الناس ، وينصرون علينا إلا اليوم واليومين أو الشهر
والشهرين للذنوب ، فإذا انتقم الله فرضى رد إلينا عزنا ، وجمعنا لعدونا شر يوم
هو آت عليهم . ثم إنه لم يكن فى الناس أمة أصغر عندنا أمرا منكم ؛ كنتم أهل
معيشة سيئة ؛ لا نراكم شيئا ولا نمدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم ، وأصابكم
السنة^(٢) استغثتم بفاعية أرضنا ، ففأمر لكم بالشئ من الثمر والشعير ، ثم نردكم .
وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم ، فأنا أمر
لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وأمر لكل رجل منكم بوفر^(٣)
عز وبثوبين ، وتنصرفون عنا ؛ فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا
أسركم .

(١) المغازل ، يريد السهام . (٢) السنة : الجذب . (٣) وفر : حل .

فَتَكَلَّمَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَازِقُهُ ، فَمَنْ صَنَعَ شَيْئًا فَإِنَّمَا هُوَ يَصْنَعُهُ وَالَّذِي لَهُ ، وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتَ بِهِ نَفْسَكَ وَأَهْلَ بِلَادِكَ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالتَّكُنُّ فِي الْبِلَادِ ، وَعُظْمُ السُّلْطَانِ فِي الدُّنْيَا ، فَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُهُ ، فَاللَّهُ صَنَعَهُ بِكُمْ وَوَضَعَهُ فِيكُمْ ؛ وَهُوَ لَهُ دُونُكُمْ . وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتَ فِينَا مِنْ سُوءِ الْحَالِ ، وَضِيقِ الْمَعِيشَةِ ، وَاخْتِلَافِ الْقُلُوبِ فَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُهُ ، وَاللَّهُ ابْتَدَأَنَا بِذَلِكَ ، وَصَيَّرَنَا إِلَيْهِ ، وَالْدُّنْيَا دُولٌ ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ شِدَائِدِهَا يَتَوَقَّعُونَ الرِّخَاءَ حَتَّى يَصِيرُوا إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ رَخَائِهَا يَتَوَقَّعُونَ الشَّدَائِدَ حَتَّى تَنْزِلَ بِهِمْ ، وَيَصِيرُوا إِلَيْهَا ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِيمَا آتَاكُمْ اللَّهُ ذَوِي شُكْرِ ، كَانُ شُكْرُكُمْ يَقْصُرُ عَمَّا أُورِثْتُمْ ، وَأَسْلَمَكُمْ ضَعْفَ الشُّكْرِ إِلَى تَغْيِيرِ الْحَالِ .

وَلَوْ كُنَّا فِيمَا ابْتُلِينَا بِهِ أَهْلُ كُفْرٍ كَانَ عَظِيمٌ مَا تَتَابَعْنَا عَلَيْهِمَا مُسْتَجِلِبًا مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً يَرَفُّهُ بِهَا عَنَّا ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ غَيْرُ مَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ . . أَوْ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَنَا بِهِ ؛ أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ فِينَا رَسُولًا ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ السَّكَّامِ الْأَوَّلِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ : وَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَكَ فَكُنْ لَنَا عَبْدًا تُؤَدِّي الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتَ صَاغِرٌ ، وَإِلَّا فَالسَّيْفُ . فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا ، ثُمَّ حَلَفَ بِالشَّمْسِ لَا يَرْتَفِعُ لَكُمْ الصُّبْحُ غَدًا حَتَّى أَقْتَلَكُمْ أَجْمَعِينَ .

وَانصَرَفَ الْمَغِيرَةُ ، وَخَلَصَ رُسْتَمٌ بِأَهْلِ فَارَسَ ، وَقَالَ : أَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنْكُمْ ؟ مَا بَعْدَ هَذَا ! أَلَمْ يَأْتِكُمُ الْأَوَّلَانِ فَخَسَّرَاكُمْ وَاسْتَحْزَرَاكُمْ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ هَذَا فَلَمْ يَخْتَلِفُوا وَسَلَكُوا طَرِيقًا وَاحِدًا ؛ وَلَزِمُوا أَمْرًا وَاحِدًا ! هَؤُلَاءِ وَاللَّهِ الرَّجَالُ ، صَادِقِينَ كَانُوا أَمْ كَاذِبِينَ ، وَاللَّهُ لَئِنْ كَانَ بَلَعٌ مِنْ صَوْنِهِمْ لَسِرَّهِمْ أَلَا يَخْتَلِفُوا فَا قَوْمٌ أَبْلَغُ فِيمَا أَرَادُوا مِنْهُمْ ، لَئِنْ كَانُوا صَادِقِينَ مَا يَقُومُ لَهُؤُلَاءِ !

فلجؤا وتَجَلَّدُوا ، فقال : واللهِ إني لأَعْلَمُ أنكم تُصَغُّون إلى ما أقول لكم ، وإن هذا منكم رِثاء . . . فازدادوا لَجَاجَةً .

ولم يَكِدِ المَغِيرَةُ يقطعُ القنطرةَ ، ويصلُ إلى أصحابه ، حتى جاء خَلْفَهُ رجل من أهل فارس يقولُ له : إنَّ رُسْتَمَ رجل مُنَجَّمٌ ، وإنه إذ رآكَ حَسَبَ لَكَ ، ونظر في أمرك ، فقال : إنك غَدًا تُفْقَأُ عَيْنُكَ ، فقال المَغِيرَةُ : بَشَّرْتَنِي بخيرٍ وأجْرٍ ، ولولا أن أجاهِدَ بعد اليوم أشباهكم من المشركين لَتَمَنَّيْتُ أن الأخرى ذهبت أيضاً .

وأرادَ سَعْدُ بن أبي وقَّاص أن يَرِمِيَ بآخِرِ ما عنده من الرأى ، فأرسل إلى رُسْتَمَ بقيةَ ذَوِي الرأى ، وحَبَسَ الثلاثة^(١) ؛ فخرجوا حتى أَتَوْهُ ، وقالوا له : إن أميرنا يقولُ لك : إني أدعوك إلى ما هو خيرٌ لنا ولك ، العافية أن تقبلَ ما دَعَاكَ الله إليه ، ونرجع إلى أرضنا ، وترجع إلى أرضِكَ ، وبعضنا من بمض ، ألا إنَّ داركم لكم ، وأمركم فيكم ، وما أصبتم من ورائكم كان زيادةً لكم دوننا ، وكنا لكم عَوْنًا على أحد إن أرادكم أو قوى عليكم ، اتَّقِ الله يا رُسْتَمَ ، ولا يكوننَّ هلاكُ قومك على يدك !

فقال : إني قد كَلَّمْتُ منكم نَفَرًا ؛ ولو أنهم فهموا عَنِّي رجوت أن تكونوا قد فهمتم ، وإن الأمثال أوضح من كثير من الكلام ، وسأضرب لكم مثلاً يُبَيِّنُ لكم ، إنكم كنتم أهلَ جَهْدٍ في المعيشة ، وقَشَفٍ في الهيئة ، لا تَمْتَنِعُونَ

(١) هم الذين أُوفدوا إليهم قبل .

وَلَا تَنْتَصِفُونَ فَلَمْ نُسَبِّهِمْ جَوَارِكُمْ ، وَلَمْ نَدْعُ مَوَاسَاتِكُمْ ، تُقَحِّمُونَ^(١) المرة بعد المرة ،
فَنَمِيرُكُمْ ثُمَّ زِدَّكُمْ ، وَتَأْتُونَنَا أَجْرَاءَ وَتُجَّارًا ، وَنُحْسِنُ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا تَطَاعَمْتُمْ
بَطَامَنَا ، وَشَرِبْتُمْ شِرَابَنَا ، وَأَظْلَكْكُمْ ظِلْمًا وَصَفَّيْتُمْ لِقَوْمَكُمْ فَدَعَوْتَهُمْ ، ثُمَّ أَتَيْتُمُونَا
بِهِمْ . وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي ذَلِكَ وَمِثْلُنَا كَمِثْلِ رَجُلٍ كَانَ لَهُ كَرْمٌ ، فَرَأَى فِيهِ ثَمَلًا ،
فَقَالَ : وَمَا ثَمَلٌ ! فَانْطَلَقَ الثَّمَلُ فَدَعَا الثَّمَالِ إِلَى ذَلِكَ الْكَرْمِ ، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَ عَلَيْهِ
سَدَّ عَلَيْهِنَّ صَاحِبُ الْكَرْمِ الْجَحْرَ الَّذِي كُنَّ يَدْخُلْنَ مِنْهُ ، فَقَتَلَهُنَّ ، وَقَدْ عَلِمَتْ
أَنَّ الَّذِي حَمَلَ عَلَيْهَا هَذَا ، الْحِرْصُ وَالطَّمَعُ وَالْجَهْدُ ، فَارْجِعُوا عَنَّا عَامَكُمْ هَذَا ،
وَأَمْتَارُوا حَاجَتَكُمْ ، وَلَكُمْ الْعَوْدُ كُلَّمَا احْتَجَجْتُمْ ، فَإِنِّي لَا أَشْتَهِي أَنْ أَقْتَلَكُمْ .

فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ وَقَالُوا : أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ حَالِنَا فِيمَا مَضَى ، وَانْتِشَارِ أَمْرِنَا
فَلَمْ تَبْلُغْ كُنْهَهُ ، وَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي أَسْوَأِ حَالٍ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ فِيْنَا رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِنَا
إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؛ رَحْمَةً رَحِمَ بِهَا مَنْ أَرَادَ رَحْمَتَهُ ، وَنِقْمَةً يَنْتَقِمُ بِهَا مَنْ
رَدَّ كِرَامَتَهُ ؛ فَبَدَأَ بَنَى قَبِيلَةَ قَبِيلَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَشَدَّ عَلَيْهِ ، وَلَا أَشَدَّ إِنْكَارًا
لِمَا جَاءَ بِهِ ، وَلَا أَجْهَدَ عَلَى قَتْلِهِ وَرَدُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُهُمْ
حَتَّى طَاقُوا عَلَى ذَلِكَ كُلِّهَا ، فَصَبَّأْنَا لَهُ جِيًّا ، وَهُوَ وَخَذَهُ فَرَدُّ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا
اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَعْطَى الظَّفَرَ عَلَيْنَا ، فَدَخَلَ بَعْضُنَا فِي الدِّينِ سُرْعًا ، وَبَعْضُنَا كَرْهًا ،
ثُمَّ عَرَفْنَا جِيًّا الْحَقِّ وَالصِّدْقِ لِمَا أَتَانَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُعْجِزَةِ .

وَكَانَ مِمَّا أَتَانَا بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا جِهَادُ الْأَذْنَى فَالْأَذْنَى ، فُسِّرْنَا بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَنَا ،
نَرَى أَنَّ الَّذِي قَالَ لَنَا وَوَعَدَنَا لَا يَنْقُضُ ، حَتَّى اجْتَمَعَتِ الْعَرَبُ عَلَى هَذَا ، وَكَانُوا
مِنْ اخْتِلَافِ الرَّأْيِ فِيمَا لَا يَطِيقُ الْخَلَائِقُ تَأْلِيْفَهُمْ ، ثُمَّ أَتَيْنَاكُمْ بِأَمْرِ رَبِّنَا ،

(١) تقحون : تصابون بالقطط .

نجاهاً في سبيله ، وننفذُ لأمره ، ونستنجزُ موعودَه ، ندعوكم إلى الإسلام وحكمه ،
فإن أحببتمونا تركناكم ، ورجعنا وخلفنا فيكم كتابَ الله ، وإن أبيتم لم يحلّ لنا
إلا أن نعطىكم القتال ، أو تفتدوا بالجزى ، فإن فعلتم وإلا فإن الله أودى بنا
أرضكم وأموالكم وأبناءكم ، فاقبلوا نصيحتنا ؛ فوالله لا إسلامكم أحبُّ إلينا
من غنائمكم ، ولقتالكم بمدُّ أحبُّ إلينا من صلحكم ، وأما ما ذكرت من رثائتنا
وقلتنا ، فإن أداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر ، ومشلكم مثل رجل غرس أرضاً
واختار لها الشجر والحب ؛ وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها
فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جناتها ، فحلا الفلاحون في القصور
على ما لا يحب ، وفي الجنان بمثل ذلك . فأطال نظرتهم ، فلما لم يستحيوا من تلقاء
أنفسهم استعجبهم فكابروه ، فدعا إليها غيرهم ، وأخرجهم منها ؛ فإن ذهبوا عنها
تخطفهم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خوفاً لهؤلاء ، يملكونهم ولا يملكون
عليهم ، فيسومونهم الخسف أبداً . والله إن لم يكن ما نقول لك حقاً ، ولم يكن
إلا الدنيا ، لما كان لنا عمماً ضريراً به من لذيذ عيشكم ، ورأينا من زبرجكم من صبر
ولقار عنّاكم حتى نغلبكم عليه .

٣٦ - يوم أَرَمَات*

لم تصلح المُفَاوِضَةُ ، وَتَهَيَّأَ الْفَرِيقَانِ لِلْحَرْبِ ؛ قَالَ رُسْتَمُ : أَتَعْبُرُونَ إِلَيْنَا أَمْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ ؟ فَقَالُوا : بَلْ اعْبُرُوا إِلَيْنَا .
وَأَمَرَ سَعْدُ النَّاسَ أَنْ يَقِفُوا مُوَاقِفَهُمْ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْفُرْسِ : شَأْنُكُمْ وَالْعُبُورُ .

فَأَرَادُوا الْقَنْطَرَةَ - وَكَانَتْ لِلْفُرْسِ وَأَخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ - فَأَرْسَلَ سَعْدُ إِلَيْهِمْ : لَا تَرُدُّ عَلَيْكُمْ شَيْئًا قَدْ غَلَبْنَاكُمْ عَلَيْهِ ؛ تَكَلَّفُوا مَعْبَرًا غَيْرَ الْقَنَاظِرِ ، فَبَاتُوا يَسْكُرُونَ^(١) نَهْرَ الْعَتِيقِ إِلَى الصَّبَاحِ بِالثَّرَابِ وَالْقَصَبِ وَالْبَرَاذِعِ حَتَّى جَعَلُوهُ طَرِيقًا .
وَلَبَسَ رُسْتَمُ دِرْعَيْنِ وَمِنْغَفَرًا^(٢) ، وَأَخَذَ سِلَاحَهُ ، وَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ ، وَأَتَى بِهِ ، ثُمَّ قَالَ : غَدًا نَدْفُهُمْ دَقًّا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : إِنَّ شَاءَ اللَّهُ ، فَقَالَ : وَإِنْ لَمْ يَشَأْ .

وَلَمَّا عَبَرَ أَهْلُ فَارِسٍ أَخَذُوا مَصَافِقَهُمْ ، وَجَلَسَ رُسْتَمُ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَعَبَّى فِي الْقَلْبِ ثَمَانِيَةَ عَشْرِ فِئَلًا ، عَلَيْهَا الصَّنَادِيقُ وَالرِّجَالُ ، وَأَقَامَ الْجَالِنُوسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَيْمَنَتِهِ وَالْبَيْرُزَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَيْسَرَتِهِ ، وَبَقِيَتِ الْقَنْطَرَةُ بَيْنَ خَيْلَيْنِ مِنْ خِيُولِ الْمُسْلِمِينَ وَخِيُولِ الْمُشْرِكِينَ .

* قَالَ يَاقُوتُ : أَرَمَاتُ : جَمْعُ رَمَتْ ، وَهُوَ اسْمُ نَبْتٍ بِالْبَادِيَةِ ، كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ ، يُسَمُّوهُ يَوْمَ أَرَمَاتٍ ، وَلَا أَدْرَى أَهْوَ مَوْضِعُ أَمْ أَرَادُوا النَّبْتَ الْمَذْكُورَ .
(١) سَكَّرَ النَّهْرُ : سَدَّ فَاهُ .

(٢) الْمِنْغَفَرُ : زُرْدٌ مِنْ حَدِيدٍ يَنْسَحُ عَلَى قَدْرِ الرَّأْسِ يَلْبَسُ تَحْتَ الْقُلَنْسُوءَةِ .

وكان يَزْدَجِرْدُ وُضِعَ رَجُلًا عَلَى بَابِ إِيوَانِهِ - إِذْ سَرَّحَ رَسْتَمَ - وَأَمْرَهُ
بَلْزُومِهِ وَإِخْبَارِهِ ، وَآخِرَ حَيْثُ يَسْمَعُهُ مِنَ الدَّارِ ، وَآخِرَ خَارِجِ الدَّارِ ، وَكَذَلِكَ
وُضِعَ عَلَى كُلِّ مَسَافَةِ رَجُلًا ، فَنَظَّمْ مَا بَيْنَ الْعَتِيقِ وَالْمَسْدَائِنِ رَجَالًا ، فَكَانَ يَعْلَمُ
الْأَخْبَارَ حِينَ حُدُوثِهَا ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ حَدَثَ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ .

وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ مَصَافَقَهُمْ ، وَنَادَى مُنَادِيهِمْ : أَتَيْهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ الْحَسَدَ لَا يَحِلُّ
إِلَّا عَلَى الْجِهَادِ ، فَتَحَاسَدُوا عَلَى الْجِهَادِ .

وَكَانَ سَعْدٌ يَوْمَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْكَبَ وَلَا يَجْلِسَ إِذْ كَانَ بِهِ حُبُونٌ^(١) ،
لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهَا الرُّكُوبَ وَلَا الْجُلُوسَ ، فَأَشْرَفَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْقَصْرِ ، وَصَارَ يَرَى
بِالرَّقَاعِ ، فِيهَا أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ إِلَى خَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ ، إِذْ كَانَ كَالْخَلِيفَةِ لَهُ .

وَبَرِمَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ بِسَعْدٍ وَتَنَدَّرُوا بِمَرْضَاهُ ، وَاخْتَلَفُوا عَلَى خَالِدٍ ، فَقَالَ سَعْدٌ :
احْمَلُونِي ، وَأَشْرِفُوا بِي عَلَى النَّاسِ ، فَأَرْتَقُوا بِهِ ، فَأَكَبَ مُظْلِمًا عَلَيْهِمْ ، وَتَحْتَ
صَدْرِهِ وَسَادَةَ ، وَأَخَذَ يَأْمُرُ خَالِدًا ، فَيَأْمُرُ خَالِدُ النَّاسَ ، فَلَمَّا رَأَى الْجُنْدُ مَا بِهِ
عَذْرُوهُ .

وَكَانَ مِمَّنْ شَغَبَ عَلَى خَالِدِ بَعْضُ وُجُوهِ النَّاسِ ، فَهَمَّ بِهِمْ سَعْدٌ وَشَتَمَهُمْ ، وَقَالَ :
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ عَدُوَّكُمْ بِحَضْرَتِكُمْ لَجَعَلْتُكُمْ فَسْكَالًا لَغَيْرِكُمْ .

ثُمَّ أَمَرَ بِجَمَاعِهِ - مِنْهُمْ أَبُو مِخْجَنَ الثَّقَفِيِّ - فَخَبَسُوا ، وَقَيَّدَهُمْ فِي الْقَصْرِ ، فَأَعْلَنَ
الْقَوْمُ وَلَاءَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ .

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْقَوْمِ وَخَطَبَهُمْ قَائِلًا بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَلِكِ ، وَلَيْسَ لِقَوْلِهِ خُلْفٌ ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَلَقَدْ

(١) الحبون : الداء ميل ، واحدها حبن .

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١﴾ .
 إن هذا ميراثكم وموعود ربكم ؛ وقد أباحها لكم منذ ثلاث حجج^(٢) ، فأنتم
 تطعمون منها ، وتقتلون أهلها ، وتحبونهم^(٣) وتسبونهم إلى هذا اليوم ، وقد جاءكم
 منهم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ؛ وخيار كل قبيلة ، وعز من وراءكم ؛
 فإن تزهدوا في الدنيا ، وترغبوا في الآخرة يجمع الله لكم الدنيا والآخرة ،
 ولا يقرب ذلك أحداً إلى أجله ؛ وإن تفشلوا وتهنؤوا وتضعفوا تذهب
 ريحكم^(٤) .

ثم كتب إلى الرّايّات : إني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفة ، وليس يمتنعني
 أن أكون مكانه إلا وجمي الذي يموذنني ، وما بي من الخبون ، فإني مكب على
 وجهي وشخصي لكم باد^(٤) ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه إنما يأمركم بأمرى
 ويعمل برأي .

وقرى الكتاب على الناس فقبلوا منه ، وتحاثوا على السمع والطاعة ، وأجمعوا
 على عذر سعد ، والرضا بما صنع .

وقبل أن يأذن سعد بالقتال أرسل ذوى الرأي والفضل والنجدة إلى الناس
 فكان من ذوى الرأي المغيرة وحذيفة وعاصم ، ومن أهل النجدة طليحة وقيس
 الأسدي وغالب وعمرؤ بن معديكرب ، ومن الشعراء الشماخ ، والحطيئة ،
 وأوس بن مفرأ وعبد بن الطيب ، وقال لهم : انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق
 عليكم ، ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذي أنتم به ،

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ . (٢) حجج : سنين . (٣) جي المراج جمع ، والقوم : جمعهم

(٤) تذهب ريحكم ، أى قوتكم . (٤) باد : ظاهر .

أَنْتُمْ شعراء الناس وخطباؤهم وذوؤ رؤيهم وَنَجَدَتِهِمْ وساداتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرّضوهم على القتال .

ولما ساروا إلى الناس ، وقف قيس بن هبيرة الأسدي فقال : أئيبها الناس ، احمّدوا الله على ما هدّاكم له وأبلاكم يزدكم ، واذكروا آلاء الله وارغبوا إليه ، فإنّ الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القفر ، والفلموات التي لا تقطعها الأدلة^(١) .

وقال غالب : أئيبها الناس ، احمّدوا الله على ما أبلاكم^(٢) ، وسلّوه يزدكم ، وادّعوه يُجيبكم . يامعاشر معدّ ، ما علّمتكم اليوم وأنتم في حصونكم - يعني الخيل ومعكم من لا يعصيكم - يعني السيوف اذكروا حديث الناس في غدي .

وقال الهذيل الأسدي : يامعاشر معدّ ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليهم كأسود الأجم^(٣) ، وتربّدوا^(٤) لهم تربّد النمر ، وادّرعوا العجاج^(٥) ، وثقوا بالله ، وغضّوا الأبصار ، فإذا كَلَّت السيوفُ فأرسلوا عليهم الجنادل^(٦) ، فإنها يؤذّن لها فيما لا يؤذّن للحديد فيه .

وقال بُسر بن أبي رهم الجهني : احمّدوا الله وصدّقوا قولكم بفعلٍ ، فقد حمدتم الله على ما هدّاكم له ، ووحدتموه ، ولا إله غيره ، وكبرتموه ، وآمنتم بنبية ورسله ، فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ، ولا يكوننّ شيءٌ بأهونَ عليكم من الدنيا

(١) الأدلة : جمع دليل . (٢) ابلاكم ، أى اختبركم . (٣) الأجم : جمع أجمة : الشجر الكثير المتنّف . (٤) تربّد : تغير وتميس . (٥) العجاج : الفبار والدخان . (٦) الجنادل : ما يقله الرجل من الحجارة .

فَلَمْ يَنْهَا تَأْتِي مَنْ تَهَاوَنَ بِهَا . وَلَا تَمِيلُوا إِلَيْهَا ، فَتَهْرُبَ مِنْكُمْ لِتَمِيلَ بِكُمْ . انصروا
اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ .

وقال عاصم بن عمرو : يامعاشر العرب ، إنكم أغنيان العرب وقد صمدتم
لأغنيان المعجم ، وإنما تُخاطرون^(١) بالجنة ، ويُخاطرون بالدنيا ، فلا يكوننَّ
على دُنْيَاهُمْ أخطَ منكم على آخرتكم : لا تُحدِثُوا اليوم أمراً تكونون به
شِيناً^(٢) على العرب غداً .

وقال ربيع السعدي : يامعاشر العرب ، قاتلوا الدين والدنيا ، وسارعوا إلى
مَغْفِرَةٍ من ربكم وجنةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(٣) ، وإن
عظَّم الشيطانُ عليكم الأمرَ فاذْكُرُوا الأخبارَ عنكم بالمواسم مادام للأخبار
أهل .

وقال ربعمى بن عامر : إنَّ اللهَ قد هداكم للإسلام وجمعكم به ، وأرأاكم
الزيادة ، وفي الصبر الراحة ؛ فموِّدوا أنفسكم الصبرَ تمتادوه ، ولا تمودوها الجزعَ
فتعتادوه .

وقاموا كلهم بنحوٍ من هذا الكلام ، فتَوَاتَّقَ الناسُ وتعاهدوا .
وفعل أهلُ فارس فيما بينهمٍ مثلَ ذلك ، وتعاهدوا وتواصوا .
ثم أمر سعدٌ أن يُقرأ على الناس سورة الجهاد^(٤) ، وكانوا يتعلمونها . ثم قال
لهم : الزموا مَوَاقِفَكُمْ ، ولا تحرَّكوا شيئاً حتى تصلُّوا الظُّهْرَ ، فإذا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ

(١) خاطر : راهن أو عرض نفسه للهلاك . (٢) شيناً : عيباً . (٣) سورة العمران ١٣٣

(٤) في بعض الروايات : لما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه عمر إياه — وكان من
القراء — أن يقرأ سورة الجهاد ، وكان المسلمون يتعلمونها كلهم ، ثم قرئت في كل كتيبة وهشت لها
قلوب الناس ، وعرفوا السكينة مع قراءتها .

فإني مُكَبِّرٌ تكبيرةً، فكَبِّرُوا واستَعِدُّوا. واعلموا أنَّ التَّكْبِيرَ لم يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلَكُمْ؛
واعلموا أنما أُعْطِيْتُمُوهُ تَأْيِيداً لَكُمْ، ثم إذا سَمِعْتُمُ الثَّانِيَةَ فَكَبِّرُوا وَلِتُسْتَنَمَّ
عُدَّتُكُمْ، ثم إذا كَبُرَتْ الثَّالِثَةُ فَكَبِّرُوا، وَلِيَنْشَطُ فُرْسَانُكُمْ النَّاسَ لِيَبْرُزُوا
وَلِيُطَارِدُوا، فإذا كَبُرَتْ الرَّابِعَةُ فَارْجَعُوا جَمِيعاً حَتَّى تُخَالِطُوا عَدُوَّكُمْ، وَقُولُوا:
لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !

ولما فَرَّغَ الْقُرَّاءُ كَبَّرَ سَعْدٌ، فَكَبَّرَ الَّذِينَ يَلُونَهُ تَكْبِيرَةً، وَكَبَّرَ بَعْضُ النَّاسِ
بِتَكْبِيرٍ بَعْضٌ، فَتَحَسَّحَشَ^(١) النَّاسُ، ثُمَّ ثَنَّى فَاسْتَمَّ النَّاسُ، ثُمَّ ثَلَّثَ فَبَرَزَ أَهْلُ
النَّجْدَاتِ، فَأَنْشَبُوا الْقِتَالَ، وَخَرَجَ مِنْ أَهْلِ فَارَسٍ أَمْثَالُهُمْ، فَاعْتَوَرُوا^(٢) الطَّعْنَ
وَالضَّرْبَ، وَبَرَزَ غَالِبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيُّ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِ هُرْمَزٌ - وَكَانَ مُتَوَجِّباً -
فَأَسْرَهُ غَالِبٌ وَجَاءَ بِهِ سَعْدًا.

وَخَرَجَ عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو، فَطَارَدَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ فَارَسٍ، فَهَرَبَ مِنْهُ وَاتَّبَعَهُ حَتَّى
إِذَا خَالَطَ صَقَّيَهُمُ التَّقَى بِفَارِسٍ مَعَهُ بَعْلُهُ، فَتَرَكَ الْفَارِسُ الْبَغْلَ، وَاعْتَصَمَ بِأَصْحَابِهِ، فَحَمَّوهُ
فَاسْتَأَقَّ عَاصِمُ الْبَغْلَ حَتَّى أَفْضَى بِهِ إِلَى الصَّفِّ، فَإِذَا الْفَارِسُ خَبَّازُ الْمَلِكِ، وَإِذَا
الَّذِي مَعَهُ لَطَفٌ^(٣) الْمَلِكِ: الْأَخْبِصَةُ^(٤) وَالْمَسَلُ الْمَعْقُودُ، فَأَتَى بِهِ سَعْدًا، وَرَجَعَ
إِلَى مَوْقِفِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ فِيهِ سَعْدٌ قَالَ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى أَهْلِ مَوْقِفِهِ. وَقُولُوا لَهُمْ: إِنَّ
الْأَمِيرَ قَدْ نَفَّلَكُمْ^(٥) هَذَا فَكُلُوهُ.

وَمَرَّ عَمْرٍو بْنُ مَعْدِيكَرِبٍ يُحَضِّضُ النَّاسَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ؛ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ
إِذْ خَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَعَاجِمِ، فَوَقَفَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ؛ فَرَمَى بِنُشَابَةٍ^(٦) فَمَا أَخْطَأَتْ

(١) تَحَسَّحَشَ النَّاسُ، تَحَرَّكُوا. (٢) اعْتَوَرُوا الطَّعْنَ: تَدَاوَلُوهُ وَتَبَادَلُوهُ.

(٣) اللَّطَفُ: الْهَدَايَا، وَاحِدَةُ لَطْفَةٍ. (٤) الْأَخْبِصَةُ: الْحُلُوى. (٥) نَفَّلَكُمْ: أَهْدَاكُمْ.

(٦) النُّشَابَةُ: وَاحِدَةُ النُّشَابِ، وَهُوَ النَّبَلُ.

سِيَّة قَوْسِهِ^(١) ، وهو مُتَنَكِّبُهَا ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ ، فَاعْتَنَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِمَنْطَقَتِهِ فَاحْتَمَلَهُ ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ كَسَرَ عُنُقَهُ ، وَوَضَعَ سَيْفَهُ عَلَى حَلْقِهِ وَذَبَحَهُ ، ثُمَّ أَلْقَاهُ وَقَالَ : هَكَذَا فَاصْنَعُوا بِهِمْ .

ثُمَّ كَبَّرَ سَعْدُ التَّكْبِيرَةَ الرَّابِعَةَ ، آيَةَ الزَّحْفِ الْعَامِ ، وَحَمَلَ أَصْحَابُ الْفِيلَةِ مِنَ الْفُرْسِ ، فَفَرَّقُوا كِتَابَتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَبْذَعَرَتْ^(٢) خِيُولَهُمْ ، وَكَادَتْ بِحِيلَةٍ أَنْ تُؤْكَلَ ، وَفَرَّتْ عَنْهَا خَيْلُهَا نَهَارًا ، وَبَقِيَتِ الرَّجَالُ مِنَ أَهْلِ الْمَوَاقِفِ .

فَلَمَّا رَأَى سَعْدُ مَا حَلَّ بِهِمْ أَعَانَهُمْ بَنِي أُسْدٍ فَصَمَدُوا لَهَا ، ثُمَّ أَخَذَتِ الدَّائِرَةَ تَدُورَ عَلَيْهِمْ ، وَكَادَتْ خَيْلَهُمْ تُخْجِمُ وَتَحِيدُ .

فَأَرْسَلَ سَعْدُ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَمْرِو التَّمِيمِيِّ ؛ وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ ، أَلَسْتُمْ أَصْحَابَ الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ ! أَمَّا عِنْدَكُمْ لِهَذِهِ الْفِيلَةِ مِنْ حِيلَةٍ ! قَالُوا : بَلَى وَاللَّهِ . ثُمَّ نَادَى فِي رِجَالِ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : ذُؤِبُوا^(٣) رُكْبَانَ الْفِيلَةِ بِالنَّبْلِ ، وَاسْتَدِيرُوا الْفِيلَةَ ، فَقَطَّعُوا وَضُنُهَا^(٤) . وَخَرَجَ يَحْمِيهِمْ ، وَالرَّحَى تَدُورُ عَلَى أُسْدٍ ، وَقَدْ جَالَتِ الْمَيْمَنَةُ وَالْمَيْسَرَةُ غَيْرَ بَعِيدٍ .

وَأَقْبَلَ أَصْحَابُ عَاصِمٍ عَلَى الْفِيلَةِ فَأَخَذُوا بِأَذْنَانِهَا ، فَقَطَّعُوا وَضُنُهَا ، وَارْتَفَعَ عَوَاوُهَا ، فَمَا بَقِيَ لَهُمْ يَوْمٌ ذِي فِيلٍ إِلَّا أُعْرِيَ ، وَوَقَّتِ الصَّنَادِيقُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا ، وَقُتِلَ أَصْحَابُهَا ، وَنَفْسٌ عَنْ أُسْدٍ ، وَرَدُّوا الْفُرْسَ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ ، ثُمَّ اقْتَتَلُوا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَاسْتَمَرُّوا حَتَّى ذَهَبَتْ هَذَاهُ^(٥) مِنَ اللَّيْلِ ، وَرَجَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَأُصِيبَ مِنْ أُسْدٍ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ خَمْسِمِائَةً ، وَكَانُوا رِدْءًا لِلنَّاسِ .
وَهَذَا هُوَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ ؛ وَاسْمُهُ يَوْمُ أَرْمَاثٍ .

(١) سِيَّة الْقَوْسِ : مَا عَطَفَ مِنْ طَرَفِهَا . (٢) أَبْذَعَرَتْ خِيُولَهُمْ : نَفَرَتْ .

(٣) ادْفَعُوا وَامْنَعُوا . (٤) الْوَضْنُ : بَطَانُ عَرِيضٍ مَنْسُوجٍ مِنْ سَيُورٍ ، جَمْعُهُ وَضْنٌ .

(٥) أَوَّلُ اللَّيْلِ إِلَى ثُلَاثِهِ .

٣٧ - يوم أغوات*

وَرَأَتْ سَلَمَى زَوْجَ الْمُثَنَّى بن حارثة ، ثم زَوْجَ سَعْدٍ من بعده ما حَلَّ بالقوم يوم أَرْمَات ، وما صنع أَهْلُ فَارِسَ بِهِمْ ، فَصَاحَتْ : وَامْتَنَاهُ ! لا مُثَنَّى لِلخَيْلِ الْيَوْمَ ! وكان سَعْدٌ لا يُطِيقُ جَلْسَةً إِلَّا مُسْتَوْفِزاً^(١) أو على بَطْنِهِ ؛ وكان ضَجِيراً من نفسه ومن أَصْحَابِهِ ، فَلَطَمَ وَجْهَهَا وَقَالَ : أَيْنَ الْمُثَنَّى من هذه الكَتِيبَةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا الرَّحَى ؟ يَعْنِي أَسَدًا وَعَاصِمًا وَخَيْلَهُ ، فَقَالَتْ : أُغِيرَةً وَجُبْنَا ! قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَمْنَعُ رُؤْيَى الْيَوْمِ أَحَدٌ إِذَا أَنْتِ لَمْ تَعْذِرِيْنِي ، وَأَنْتِ تَرَيْنِ مَا بِي .

ثم أَصْبَحَ الْقَوْمُ مِنَ الْغَدِ عَلَى تَعَبَةٍ ، وَوَكَّلَ سَعْدٌ رَجُلًا بِنَقْلِ الشُّهَدَاءِ ، وَوَكَّلَ آخَرِينَ بِحَمْلِ الْجَرْحَى إِلَى الْعُذَيْبِ^(٢) ، لِيَقُومَ النِّسَاءُ بِتَمْرِضِهِمْ وَمُدَاوَاتِهِمْ . وَبَيْنَمَا الْقَوْمُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، وَلَمْ يَنْشَبِ الْقِتَالُ ، إِذْ طَلَعَتْ نَوَاصِي خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ قَادِمَةً مِنَ الشَّامِ .

* يَقُولُ الدَّكْتُورُ هَيْكَلُ فِي كِتَابِهِ « الْفَارُوقُ عَمْر » ١ : ١٧٥ : « بِطَلْقِ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَى هَذَا الْيَوْمِ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ اسْمَ أَغَوَاتٍ ، وَيَحْسَبُ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ أَنَّهُمْ اخْتَارُوا لَهُذَا الْاسْمَ لِأَنَّ الْقَعْقَاعَ أَغَاثٌ فِيهِ جَيْشُ سَعْدٍ عِنَ جَاءَ بِهِمْ مِنَ الشَّامِ ، وَلَيْسَ مِنَ الْبَسِيرِ لِإِقْرَارِ هَذَا التَّفْسِيرِ إِلَّا أَنْ نَجِدَ لِسَائِرِ أَيَّامِ الْغَزَاةِ تَفْسِيرًا مِنْ نَوْعِهِ . وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ يَوْمَ أَرْمَاتٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِمِثْلِ هَذَا التَّفْسِيرِ . أَمَّا اللَّيْلَةُ الَّتِي انْقَضَتْ بَيْنَ يَوْمِ أَرْمَاتٍ وَيَوْمِ أَغَوَاتٍ فَيُطْلَقُ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَيْهَا اسْمَ لَيْلَةِ الْهُدَاةِ . كَمَا أَنَّهُمْ يُطْلَقُونَ اسْمَ السَّوَادِ عَلَى اللَّيْلَةِ الَّتِي تَلَتْ يَوْمَ أَغَوَاتٍ . « وَفِي يَاقُوتَ : « كَانَ يُقَالُ لِلْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ يَوْمَ أَرْمَاتٍ ، وَيُقَالُ لِلْيَوْمِ الثَّانِي أَغَوَاتٍ ، وَلِلْيَوْمِ الثَّلَاثِ يَوْمَ عِمَاسٍ ، وَلِلْيَوْمِ الرَّابِعِ يَوْمِ الْقَادِسِيَّةِ ، وَفِيهِ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا أَدْرَى هَذِهِ الْأَسْمَاءُ مُوَاضِعَ أَمْ هِيَ مِنَ الرِّمْتِ وَالْفُوتِ وَالْعَمَسِ ؟ » . (١) اسْتَوْفِزَ فِي قَعْدَتِهِ : انْتَصَفَ فِيهَا غَيْرَ مُطْمَئِنٍّ ، أَوْ وَضَعَ رُكْبَتَهُ وَرَفَعَ أَلْيَتَيْهِ أَوْ اسْتَقْلَعَ عَلَى رَجُلَيْهِ وَلَمْا يَسْتَوْفَا تَمَّا .

(٢) الْعُذَيْبُ : مَاءٌ بَيْنَ الْقَادِسِيَّةِ وَالْمَغِيثَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَادِسِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَمْيَالٍ .

وذلك أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرِدَ الجُنْدَ الذين جاءوا من العِراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ، ليُكونوا عَوْناً للجنود سَعِدَ على قتال الفُرس ؛ فكان وصولهم إلى جيش المسلمين في ذلك اليوم قبل انتشاب القتال ؛ وكانوا ستّة آلاف ، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومُضر ، وألف من اليمن ؛ وكان الأمير^(١) على هذا الجيش هاشم بن عُثْبَةَ بن أبي وقّاس ، وعلى مقدمته القَعْقَاعُ بن عمرو ، وعلى مُجَنَّبَتَيْهِ قَيْسُ بن هُبَيْرَةَ والهَزْهَازُ بن عمرو العجلي . وتمجّل القَعْقَاعُ حتى قدم على المسلمين بالقادِسيّة صبيحة يوم أغواث .

وقد أراد القَعْقَاعُ أن يُورِقَ الرُّعْبَ في قلوب الفُرس ، فمهِدَ إلى أصحابه أن يتقطّعوا أعشاراً ؛ وهم ألف ، فكلّموا بلغ عشرة مَدَى البصر سرّحوا في آثارهم عشرة ؛ وكان قدومُ القَعْقَاعِ في العشرة الأولى ، فلما أتى الناس سَلِمَ عليهم وبشّرهم بالجنود ، ثم قال : أيّها الناس ، إني قد جئْتُكم في قومٍ ، والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسّوكم حسدوكم حُظْوَتَها ، وحاولوا أن يطيرُوا بها دونكم ، فاصنمُوا كما أصنع ، ثم تقدّم ونادى : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فبرز إليه رجلٌ من الفُرس ، فقال له القَعْقَاعُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أنا بَهْمَنُ جاذويه ؛ فنادى : يا لثاراتِ أبي عُبَيْدٍ وسليطِ وأصحابِ الجسر ! واجتَلَدَا ، فقتله القَعْقَاعُ ؛ وجعلت خيلُهُ تَرِدُ قِطْعاً ، وما زالت ترد إلى اللَّيْلِ ، وتلشّط الناس ، وكان لم يكن بالأمس مُصِيبَةً ؛ ثم نادى : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فنخرج إليه رجلان ، أحدهما البيرُزان ، والآخر البندَوان ؛ فانضمَّ إلى القَعْقَاعِ الحارث بن ظَبْيَانَ ، فبارز القَعْقَاعُ البيرزان فضربه ، فأذرى^(٢) رأسه ، وبارز ابنُ ظَبْيَانَ البندَوان

(١) لما قدم على أبي عبيدة كتاب عمر بصرف أهل العراق أصحاب خالد ، ولم يذكر خالدًا ، من بخالد فلم يرسله وأرسل الجيش .
(٢) أذرى رأسه : أطارها .

فضربه فأذرى رأسه ؛ وجعل القعقاع يقول : يا معاشر المسلمين ؛ باشرؤهم بالسيوف ، فإنما يحصد الناس بها ؛ ثم خرج الفاس من كل ناحية ، وبدأ الحرب والطمان ، وزاد الناس نشاطاً أن لم يروا الفيلة بينهم ؛ وحمل بنو عم القعقاع يومئذ عشرة عشرة من الرجالة على إبل قد ألبسوها ، فهي مجللة مبرقة ، تشبه الفيلة ؛ ولقي أهل فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرمات .

وكان سعد بن أبي وقاص قد حبس أبا محجن الثقفي وقيدته في قصره ؛ فلما اشتد القتال صعد إلى سعد يستغفیه ويستقيله ؛ ويسأله تسريحه للغزو مع المسلمين ؛ فزرجه وردّه ؛ فنزل حتى أتى سلمى ؛ فقال : يا سلمى ؛ هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تخليني عني وتبريني البقاء ؛ فله علىّ إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي ، فقالت : وما أنا وذاك ! فرجع يرسف في قيوده ويقول :

كفى حزناً أن تردى^(١) الخيل بالقنأ وأترك مشدوداً على وثاقها
إذا قمت عتاني^(٢) الحديد وأغلقت مصاريع دوني قد نصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وإخوة فقد تركوني واحداً لا أخلياً
ولله عهد لا أخيس^(٣) بعهده لأن فرجت ألا أزور الحوانيا^(٤)

فقالت سلمى : إني استخرت الله ورضيت بعهديك ؛ وأطلقتك وقالت : أما الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها ؛ فاقتادها وأخرجها من باب القصر وربها ؛ ثم دب عليها ؛ حتى إذا كان بحيال اليمنة كبر ، ثم حل على ميسرة القوم يكعب

(١) ردى الفرس : رجعت الأرض بحوافرها ، أو هو سير بين العدو والنسي .

(٢) عتاني : أتعبنى . (٣) لا أخيس : لا أغدر . (٤) الحوانى : موضع بيع الحر .

بِرُمَحِهِ وسلاحه بين الصَّفَيْنِ ؛ وكان يقصف الأعداء بِسَيْفِهِ قصفاً منسكراً ، وتُعَجَّبُ
الناس منه وهم لا يعرفونه ؛ وجعل سعد يقول وهو مُشْرِفٌ على الناس من فوق القصر :
والله لولا مَحْبِسُ أَبِي مَحْجَنٍ لقلت : هذا أبو مَحْجَنٍ وهذه البلقاء ! وقال بعضُ
الناس إن كان الخضر يشهد الحروب فنظنَّ صاحبَ البلقاء الخضر . وقال بعضهم : لولا
أن الملائكة لا تباشرُ القتالَ لَقُلْنَا مَلَكٌ .

ثم حَاجَزَ^(١) أهلُ فارس ، وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو مَحْجَنٍ حتى دخل من
حيث خرج ، ووضع عن نفسه وعن دَأْبَتِهِ ، وأعاد رجله في قَيْدَيْهِ ، وقال :
لقد علمتُ ثَقِيفٌ غيرَ فَخْرٍ بَأَنَا نَحْنُ أَكْرَمُهُمْ سِيوَاً
وأكثرهم دُرُوعاً سابغاتٍ وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفاً
فإن أُحْبِسَ فذلكمُ بلائِي وإن أَتْرَكَ أَذْيُقُهُمُ الحُتُوفَاً

ف قالت له سلمى : يا أبا مَحْجَنٍ ؛ في أيِّ شيء حَبَسَكَ هذا الرجل ؟ فقال : أما والله
ما حبسني بحرام أَكَلْتُهُ ولا شَرِبْتُهُ ؛ ولكنني كنتُ صاحبَ شراب في الجاهلية ؛ وأنا
امرؤ شاعرٌ يدبُّ الشعرُ على لساني ؛ يبعثه على شفتي أحياناً ؛ فيساء لذلك ثنائِي ؛
حبسني حين قلت :

إذا متُّ فاذنني إلى أصلِ كَرَمَةٍ^(٢) تروني عِظَامِي بعد موتي عُرُوقَهَا
ولا تَدْفِنَنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أخافُ إذا ما مِتَ ألا أذوقَهَا

وكانت سلمى مفاضبةً لسعد عشيةَ أغْوَاثٍ ؛ فصالحته ؛ وأخبرته خبرها وخبر
أبي مَحْجَنٍ ، فدعابه وأَطْلَقَهُ ، وقال له : اذهب ؛ فأنا مؤأخذك بشيء تقولُه حتى
تفعله . قال : والله لا أُجيبُ لساني إلى صفة قبيح أبداً .

(١) الحَاجَزَةُ : الممانعة .

(٢) الكَرَمَةُ : شجرة العنب .

٣٨ - يوم عَمَّاس *

أصبح المسلمون من اليوم الثالث وهم على مواقفهم ، وأصبحت الأعاجم على مواقفهم ؛ وقد قُتِلَ من المسلمين ألفان ، ومن المشركين عَشْرَةُ آلاف . وقال سعد : من شاء غَسَلَ الشهداء ، ومن شاء فليَدْفِنْهُمْ بدمائهم .

وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم وجملوهم ، من وراء ظهورهم ، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر ، ويُبَلِّغُون الرِّثِيَّةَ ^(١) إلى النساء .

وبات القَعَقَاعُ ليلته كَلَّهَا يُدْرِبُ أصحابه إلى المكان الذي فارقه فيه من الأمس ، ثم قال : إذا طلعت عليكم الشمس فَأَقْبِلُوا مائة مائة ، كُلُّمَا تَوَارَى عَنْكُمْ مائة فَلْتَنْتَبِهْهَا مائة . وقال : إن أدرككم هاشمُ بنُ عُثْبَةَ وجاء بمن معه يشارك في المعركة فذاك ، وإلا فجددوا للناس رجاء في المدد ، فإن الرجاء يزيدهم إقداماً في الحرب ، وإيماناً بالفوز فيها . ففعلوا ولم يشعروا بذلك أحد .

ولَمَّا ذَرَّ ^(٢) قرنُ الشمس طلعت نواصي الخيل فكَبَّرَ وكَبَّرَ الناس ، وقالوا : جاء المدد . وأدرك هاشم بن عُثْبَةَ وجنوده رجال القَعَقَاعِ ، وعرف ما فعل ، فجعل رجاله فِرَاقًا ، وأمرهم أن يتلاحقوا ، وسار على رأس الفرقة الأولى ، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصائبهم للقيال : فلما رآه الناس كَبَّرَ وكَبَّرُوا معه ، وتقدم الفرسان

* قال ياقوت : « عماس - بكسر العين ، كان اليوم الثالث من أيام القادسية يقال له يوم عماس ، ولا أدري أهو موضع أم هو من العس . مقلوب العس » .

(١) الرثيث : الجريح وبه رمق . (٢) ذر : برز وظهر .

وتكثبت الكتائب ، فاختلفوا الضرب ر سعن ، ومددوهم متتابع .

ولم يضع المدد الذي جاء المسلمين من عزيمة الفرس ، فقد أصلحوا تواليبت فيلتهم حتى أعادوها ، وأصبحوا على مواقفهم ، وأقبلت الفيلة معها الرجال يحمونها أن تقطع وضنها^(١) ، ومع الرجال فرسان يحمونهم ، إذا أرادوا كتيبة دلفوا^(٢) لها بفيل وأتباعه لينفروا خيلهم . وأنست الفيلة إلى هؤلاء الحماة فلم تفتك بهم ؛ لكنها لم تفتك كذلك بعدوهم ، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد كان أوحش ، وإذا أطافوا به كان آنس . فكان القتال كذلك حتى عدل النهار ، وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديداً ؛ العرب والعجم فيه على السواء .

على أن الفيلة ما كبت حين ألقت الموقف واشتدت من حولها المعركة أن عادت إلى مثل فتكها يوم أرمات ، ورآها سعد تفرق بين الكتائب ، فأرسل إلى جماعة ممن أسلموا من فارس ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن مقاتل الفيلة ؛ فقالوا : المشافر والعيون ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو : اكفياني الفيل الأبيض - وكان وكان يازأهما - وأرسل إلى حمال والرَّبِيل الأسديين : اكفياني الفيل الأجر - وكان يازأهما - وكانت الفيلة ككها تتبعهما .

فأخذ القعقاع وعاصم رُمحين ووضعاهما في عيني الفيل الأبيض ، فقبع ونقض رأسه ، وطرح سائسه ، ودلى مشفره ، فضربه القعقاع بسيفه ، فرمى به ، ووقع لجنيه .

وحمل حمال ، وقال للرَّبِيل : اختر ، إما أن تضرب المشفر وأظمن في عينه

(١) الوزن : جمع وزن ، وهو بطن عريض من جلد منسوج .

(٢) دافت الكتيبة في الحرب : تقدمت .

أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ، فاختار الضرب ، فحمل عليه حمال وطعنه في عينه فألقى ثم استوى ، وضربه الرّبيّل ، فأبان مشفره ، ففرّ حتى وثب في العتيق ، وتبعته الفيلة ، وخرقت صفوف الفرس ، وألقت من عليها ، وعبرت العتيق في أثر الأجرى حتى أتت المدائن بتواييتها .

ولما ذهبت الفيلة تراحف المسلمون إلى أهل فارس ، وحمّاهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار ، وظل الفريقان يقتتلان حتى أقبل الليل والغبار مخيم ، فلا يعلم سعد ولا يعلم رستم من الدائرة ، وعلى من تدور !

وهذا القتال أول الليل ، وقدّر سعد أن الجيشين سيقضيان الليل يستعدان ليوم رابع ، ولكنه خشى أن يأتيه المدؤ من مخاضة بأسفل العسكر ، فأرسل طلحة وعمرا في جماعة من الجند وقال لهما : إن وجدتما القوم قد سبقوكا إليها فانزلا بجيالكهما ، وإن لم تجداهم علموا بها ؛ فأقيا حتى يأتكما أمرى . ولم يجدا على المخاضة أحدا ؛ فسوّتا لهما نفساهما أن يحوضاهما ، وأن يأتيا الأعاجم من خلفهم ، ففعلا .

وأخذ طلحة مكانه وراء العسكر ، وكبر ثلاث تكبيرات ؛ ارتاع لها أهل فارس ؛ وظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم ، وتعجب المسلمون لسماعها وظنوا أن الأعاجم فتكوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين ، وأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل المخاضة ، فلم يبق لديهم ريب في غدر العرب بهم ؛ فقدّموا صفوفهم زاحفين ، ورأى القمقاع صنيعهم ، فزاحفهم من غير أن يستأذن سعدا .

وأطلّ سعد فرأى القمقاع يزاحفهم فقال : اللهم اغفرها له ، وانصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يستأذننى .

واستقبل الناسُ الفرسَ بالسيوف وخالطوهم ، فكان للسيوف قمعة كائنها

صوت مطارق الحدّاد ، وبات سعد بليّة لم يبت بمثلها ، ورأى العربُ والعجمُ أمراً لم يروا مثله ، وانقطعت الأصواتُ والأخبار عن رستم وسعد ، وأقبل سعد على الدّعاء ، حتى إذا كان وَجْهُ الصّبحِ عَلِمَ أن المسلمين هم الأعْلَوْنَ ، وأن الغلبة لهم ^(١) .

وكان الناسُ لم يغمضوا ليلتهم كلها ، واشتدّ بهم التعبُ ، فسار القعقاعُ فيهم ؛ وقال : إن الدائرةَ بعد ساعة لمن بدأ القوم ؛ فاصبروا ساعة ، واحملوا فإنّ النصرَ مع الصبر .

فاجتمع إليه جماعةٌ من الرّؤساء ، وتخاصّوا على الموت ، وحلوا على من يليهم ؛ واقتتلوا أشدّ قتالٍ إلى أن قام قائمُ الظّهيرة ، وحينئذ بدأ الخلل في صفوف الفرس ، وهبّت ريح عاصف ، فقلعت طيّارة رستم عن سريره ، فهوت إلى العتيق ، وزخف القعقاعُ ومن معه إلى السرير ، فمَثروا به ، وقد قام رستم عنه - حين طارت الريح بالطيّارة - إلى بغالٍ قد قدّمت عليه بغالٍ يومئذ ، فوقف بجوار أحدها يستظلّ بحمله .

ففضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه ، ورآه هلال - أحد رجال القعقاع - فعرفه ، فاقتحم النهرَ وراءه ، ثم أخذ برجله ، وخرج به ، وضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به حتى رمى به بين أرجل البغال ، وصعد السرير ثم نادى : قتلتُ رستم وربّ الكعبة . فأطاف به الناس وكبّروا ، وانهزم قلبُ الفرس ، وتتابعت الهزيمة .

فدعاهم الجالينوس إلى عبور النهر على الرّدم ، لكنّ الرّدم أنّهارَ بهم في النهر ، ففرّق بانهياره ثلاثون ألف فارس لم يُفِلتْ منهم أحد .

وجُمِعَ في ذلك اليوم من الأسلاب والأموال ما لم يُجْمع مثله ، وأرسل سعد

(١) يسمى المؤرخون هذه الليلة ليلة الهزير .

الرُّفَيْلُ يَنْظُرُ فِي قَتْلِ الْفَرَسِ ، وَيَسْمَعُ رِءُوسَهُمْ ؛ وَتَفْقَدُ الرُّفَيْلُ رُسْتَهُمْ فَلَمْ يَجِدْهُ
بَيْنَ الْقَتْلَى ، فَأَعْلَمَ سَعْدًا .

فَأَرْسَلَ سَعْدٌ إِلَى هَالَلِ التَّيْمِيِّ ، وَقَالَ لَهُ : أَلَمْ تَبْلُغْنِي أَنَّكَ قَتَلْتَ رُسْتَهُمْ ! قَالَ :
بَلَى ، قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ بِهِ ؟ قَالَ : أَلْفَيْتُهُ تَحْتَ قَوَائِمِ الْبُغَالِ ، قَالَ : فَكَيْفَ قَتَلْتَهُ ؟
فَأَخْبَرَهُ ، حَتَّى قَالَ : ضَرَبْتُ جَبِينَهُ وَأَنْفَهُ ، قَالَ : فَيَجِئُنَا بِهِ ، فَجَاءَ بِهِ ، وَكَانَ
قَدْ تَخَفَّفَ حِينَ وَقَعَ إِلَى الْمَاءِ ، فَأَعْطَاهُ سَلْبَهُ الَّذِي عَلَيْهِ ، فَبَلَغَ سَبْعِينَ أَلْفًا .

وَخَرَجَ زَهْرَةُ فِي آثَارِ الْمُهْزَمِينَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَحَقَ الْجَالِينُوسُ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ
فَقَتَلَهُ ، وَجَاءَ بِسَلْبِهِ إِلَى سَعْدٍ ، فَعَرَفَ الْأَسْرَى الَّذِينَ عِنْدَ سَعْدٍ سَلْبَهُ ، فَقَالُوا :
هَذَا سَلْبُ الْجَالِينُوسِ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : هَلْ أَعَانَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ سَعْدٌ :
مَنْ ؟ قَالَ : اللَّهُ . فَفَعَّلَهُ سَلْبَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ سَعْدٌ عَنْ عَطَائِهِ ، وَكَتَبَ إِلَى عُمَرَ .
فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى سَعْدٍ : تَعْمِدْ إِلَى مِثْلِ زَهْرَةَ ، وَقَدْ صَلَّى بِمِثْلِ مَا صَلَّى بِهِ ، وَقَدْ بَقِيَ
عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ ؛ تُفْسِدُ قَلْبَهُ ! أَمْضِ لَهُ سَلْبَهُ ، وَفَضِّلْهُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ
الْعَطَاءِ بِخَمْسِمِائَةٍ .

وَلَمَّا انْكَشَفَ أَهْلُ فَارَسَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَالْعَتِيقِ أَحَدٌ أَمَرَ سَعْدٌ
زَهْرَةَ بِاتِّبَاعِهِمْ ، فَنَادَى زَهْرَةُ فِي الْمَقْدَمَاتِ ، وَأَمَرَ الْقَمْعَاقَ بِنِ سَفْلٍ ، وَشُرْحَبِيلَ
بِنِ عَالَا ، وَأَمَرَ خَالِدَ بْنَ عُرْفُطَةَ بِسَلْبِ الْقَتْلَى وَبَدْفِنِ الشَّهَدَاءِ .

وُجِّعَتِ الْأَسْلَابُ وَالْأَمْوَالُ ، فَجُمِعَ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يُجْمَعْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ .
وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ الْمَوْقِعَةُ كَتَبَ سَعْدٌ بِالْفَتْحِ ، وَبَعْدَ مَنْ قُتِلُوا ، وَبَعْدَ مَنْ أُصِيبَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَصَرَنَا عَلَى أَهْلِ فَارَسَ ، وَمِنْهُمْ سُنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ
أَهْلِ دِينِهِمْ بَعْدَ قِتَالٍ شَدِيدٍ ، وَقَدْ لَقُوا الْمُسْلِمِينَ بِمُدَّةٍ لَمْ يَرَ الرَّاوُونَ مِثْلَ زُهَائِهَا ،

فلم ينفعمهم الله بذلك ؛ واتبعمهم المسلمون على الأنهار وفي الفجّاج ، وأصيب من المسلمين فلانٌ وفلانٌ ورجالٌ من المسلمين ، لا نعلمهم ؛ الله بهم عالم ، وكانوا يدوّون بالقرآن إذا جنّ عليهم الليل دَوَى النَّحْلِ ، وهم آساد الناس ، لا يُشبههم إلا الأسود ، ولم يفضل مَنْ مضى منهم مَنْ بَقِيَ إِلَّا بِفَضْلِ الشَّهَادَةِ ؛ إذ لم تُكْتَبْ لهم .

وكان عمر بن الخطاب عند نزول رستم القادسية يَسْتَخْبِرُ الرُّكْبَانَ عن جيش القادسية ، مِنْ حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، فلما لَقِيَ البشير^(١) سَأَلَهُ : مَنْ أَيْنَ ؟ فَأَخْبَرَهُ . قال : يا عَبْدُ اللَّهِ ، حَدَّثْنِي ، قال : هَزَمَ اللَّهُ الْعَدُوَّ . وعمرُ يُخَبِّبُ معه ويستخبره ، والرجل يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يَسْلَمُونَ عليه بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل : فمَلاً أَخْبَرْتَنِي رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ! وجعل عمر يقولُ : لا عليك يا أخى ! فقام عمر في الناس ، فقرأ عليهم الفتح ، وقال : إني حريص على أَلَّا أُدْعَ حَاجَةً إِلَّا سَدَدْتُهَا مَا اتَّسَعَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ ، فإذا عجز ذلك عَنَّا تَأَسَّيْنَا فِي عَيْشِنَا حَتَّى نَسْتَوِيَ فِي الْكَفَافِ ؛ وَلَوَدِدْتُ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا ، وَلَسْتُ مَعَكُمْ إِلَّا بِالْعَمَلِ ؛ إني والله ما أنا بِمَلِكٍ فَاسْتَعْبِدْكُمْ ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ عَرَضَ عَلَى الْأَمَانَةِ

هذه هي القادسية التي فتحت الطريق إلى إيوان كسرى في عاصمة مُلْكِهِ ، ومهدّت للقضاء على دولته ؛ وكان لها في توجيه الحضارة أبلغ الأثر .

(١) كان هذا البشير سعد بن عميلة الفزارى رسول سعد بن أبى وقاص إلى أمير المؤمنين .

٣٩ — يوم بابل*

كان عمرُ قد كتب إلى سعدٍ ألا يبرحَ منازلَه حتى يأتيه أمرُه ؛ لذلك أقام سعدٌ بالقادسية في انتظار أمرِ أمير المؤمنين عمر ؛ وأخذ المسلمون يقومون أمورهم ، ويريحون جُندهم .

وتتابع أهلُ العراق من أصحاب الأيام الذين شهدوا اليرموك ، يمدّون أهلَ القادسية ، وتوافوا بها ، وقدمت أمدادٌ فيها مراد وحمدان وأفناء^(١) الناس ؛ وكتبوا إلى عمر يسألونه عما ينبغي أن يفعلوه .

وبعد شهرين ، وقد أجمَّ الناس ؛ جاء أمرُ عمر إلى سعد بالسير إلى المدائن ، وأن يخلفَ النساء والعيال بالمعِيق ، ويجمل معهم كثفًا^(٢) من الجُند ؛ وعهد إليه أن يُشيرَهم في كلِّ مغنم ؛ ما داموا يخلّفون المسلمين في عيالاتهم .

وأذن سعدٌ بالرحيل ، وقدم زُهرة بن الحوية إلى المكان الذي كانت به الكوفة يومئذ ؛ وكان النخیرجان مُسكِراً به ، فارفض^(٣) ولم يثبت ؛ حين سمع بمسير زُهرة إليه ، ولحق بأصحابه .

ثم أتبع زُهرة بعبدالله بن المتّم ، ثم شُرّجیل بن السّمط ، ثم هاشم بن عُتبة ، وجمل خالد بن عُرْقُطَة على الساقة^(٤) ، ثم تبعهم فرسان المسلمين ؛ وكلّهم فارس

* الطبری ٤ : ١٦٦ . كان في سنة ١٥ هـ ، وبابل : مدينة قديمة بناها الكلدان على الجانب الأيسر من الفرات .

(١) أفناء : أخلاط . (٢) الكثف : الجماعة . (٣) ارفض : ابتعد بجنده .

(٤) ساقة الجيش : مؤخره .

مؤدٍ^(١) ، قد نقل الله إليهم ما كان في عسكر رَس من سلاح وكُراع^(٢) ومال ، وكان ارتحالهم لأيامٍ بقين من شوال .

ولما وصلت مُقدّمة المسلمين بُرس^(٣) لقيهم جَمْعٌ من الفرس عليهم بُشْبَهَرَي ، ولم يكن بين الفريقين كبيرُ قتالٍ حتى انهزموا وصاروا إلى بابل ، ونجا بُشْبَهَرَي بطعنَةٍ ماتَ بعدها ، ومضى قلٌّ^(٤) القادسيّة وعليهم من رءوسهم النّخيرجان ، ومِهْران الرّازي والهَرْمزان ، واستعملوا عليهم الفَيْرُزَان .

ولما رأى دِهقان^(٥) بُرس أن المسلمين قادمون على بلاده ، وقد علم أن بلدَه لا بدّ واقعٌ في قبضَتهم ، خاف مَعَرَّةَ دخولهم عليه عَنوّة ، وخشى أن يناله أحدٌ منهم بسوء ؛ فبادر إلى زُهره ، واعتقد^(٦) منه ذِمّة ، وعقد له الجسور ، وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لمواقفة^(٧) المسلمين .

ولما عرف زُهره بخبر الذين اجتمعوا ببابل من فُلّال القادسيّة أقام وكتب إلى سعد يُعلِّمه بما أجمع عليه الفرس ، وما أعدّوا له ، وقد قال الفرسُ فيما بينهم : نَقَاتِلْهُمْ دَسْتًا^(٨) قبل أن نتفرّق .

فسار سعدٌ وألّقى بهم في بابل ، ولم يكن إلا كَلَفَتِ الرِّدَاءَ حتى هزمهم ، وانطلقوا على وجوههم ، ولم يكن لهم هِمّةٌ إلا الافتِرَاق .

(١) الفارس المؤدى : القوى التام عدة الحرب .

(٢) الكراع : الخيل .

(٣) برس : أجة في موضع قريب من بابل . وبمضهم يسمى هذه الموقعة يوم برس .

(٤) الفل : المهزومون .

(٥) الدهقان ، بالضم ويكسر : زعيم فلاحى العجم .

اعتقد منه ذمة : أخذ منه عهدا .

(٧) المواقفة : أن الإنسان مع غيره في حرب أو خصومة .

(٨) دسّا : طابقا .

نخرج الهرمزان متوجّهاً نحو الأهواز ، وخرج الفيرزان حتى نزل على نهاوند
وبها كنوز كسرى فاحتواها ، وولى النخیرجان ومهران الرازى وجهيهما شطراً
المدائن ، حتى عبّرا بهرّسیر إلى جانب دجلة الآخر ، ثم قطعا الجسر .

وأقام سعد بابل أياماً ، وبلغه أن النخیرجان ومهران استخلفا على جنودهما
شهریار دِهقان كوئى^(١) ، ومبضياً إلى المدائن ؛ فخرج إليه سعد بالجنود ؛ والتقت
أوائلُ جموع المسلمين بجنود شهریار ، فلم يلبسهم حتى البراز ، وقال : ألا رجل !
ألا فارسٌ منكم شديدٌ عظيم يخرج إلى حتى أنكّل به !

فقال زُهرة : لقد أردت أن أبارزك ، فأما إذ سمعتُ قولك ، فإننى لا أخرجُ
إليك إلاّ عبداً ، فإن أقمتَ له قتلك - إن شاء الله - ببغيتك ، وإن فررتَ منه
فإنما فررتَ من عبدي . ثم أمر أبا نباتة نائل بن جُعشم الأعرجى - وكان من شجعان
بنى تميم - فخرج إليه ، ومع كل واحد منهما الرمح ، وكلاهما وثيقُ الخلق ؛
إلا أن شهریار مثل الجمل . فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه ، وألقى نائلُ رمحهُ
ليعتنقه ، وانتضياً سيفيهما ، ثم اجتلدا واعتنقا ؛ فخرّاعن دابّتيهما ، فوقع
شهریار على نائل كأنه بيت ، فضمطه بضمطه ، وأخذ الخنجر ، وأراغ^(٢) حلّ أزرارِ
درّعه ، فوقعت إبهامه في فمِ نائل ، فخطم عظمها ، ورأى منه فتوراً فتاوره ، فجلد به
الأرض ، ثم قعد على صدره ، وأخذ خنجره ، فكشف درّعه ، وطعنه في بطنه
وجنبه حتى مات . فأخذ فرسه وسواريه وسلّبه ، وانكشف أصحابه ، فذهبوا
في البلاد .

(١) كوئى : موضع بسواد العراق قريب من بابل .

(٢) أراغ : أراد .

وأقام زُهْرَةَ بَكُوْنَى حَتَّى قَدِمَ عَلَيْهِ سَعْدٌ ، وَعَلِمَ خَبَرَ نَائِلٍ مَعَ الشَّهْرِيارِ ؛
فَدَعَا أَبَا نَائِلٍ ، وَقَالَ لَهُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ يَا نَائِلُ لَمَّا كَيْسَتْ سِوَارِيهِ وَقَبَاءَهُ وَدِرْعَهُ
وَلَتَرَ كَبَنَ بَرْدَوْنَهُ . وَغَنَمَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، فَانْطَلَقَ فَتَدْرَعُ سَلْبَهُ ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي سِلَاحِهِ
عَلَى دَابَّتِهِ ، فَقَالَ : اخْلَعْ سِوَارِيكَ إِلَّا أَنْ تَرَى حَرْبًا ، فَتَلْبِسَهُمَا .
فَكَانَ أَوَّلَ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُورَ بِالْمِرَاقِ .

٤٠ — يوم بَهْرَسِير *

قَدَّمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ زُهْرَةَ بْنَ الْحَوَيَّْةِ إِلَى بَهْرَسِيرٍ ، فَمُتْلِقَاهُ شِيرَازَاذَ بِسَابَاطٍ ^(١) ؛ بِالصُّلْحِ وَتَأْدِيَةِ الْجَزَاءِ ، فَأَمَضَاهُ إِلَى سَعْدِ .

وَسَارَ زُهْرَةُ حَتَّى أَتَى الْمُظْلِمَ ^(٢) بِسَابَاطٍ ، وَكَانَ بِهِ كَتِيبَةٌ لِكُسْرَى تَسْمَى بُورَانَ ، وَكَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْكَتِيبَةِ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ : لَا يَزُولُ مُلْكُ فَارِسَ مَا عِشْنَا ؛ فَلَقِيَهُمْ زُهْرَةُ بِجُنُودِهِ فَقَتَلَهُمْ ^(٣) ، ثُمَّ جَاءَ هَاشِمُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ (ابْنَ أَخِي سَعْدِ) إِلَى الْمُظْلِمِ وَوَقَفَ حَتَّى لَحِقَ بِهِ سَعْدُ ؛ فَوَافَقَ ذَلِكَ رَجُوعُ الْمُقَرَّطِ — وَهُوَ أَسَدٌ كَانَ لِكُسْرَى قَدْ أَلْفَهُ وَتَخَيَّرَهُ مِنْ أَسْوَدِ الْمُظْلِمِ — فَبَادَرَ الْمُقَرَّطُ النَّاسَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ سَعْدُ ؛ فَزَلَّ إِلَيْهِ هَاشِمٌ فَقَتَلَهُ بِسَيْفِهِ ؛ فَقَبَّلَ سَعْدُ رَأْسَ هَاشِمٍ ، وَقَبَّلَ هَاشِمٌ قَدَمَ عَمَّةِ سَعْدِ .

ثُمَّ دَخَلَ سَعْدُ إِلَى الْمُظْلِمِ ، وَقَرَأَ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ ^(٤) .

فَلَمَّا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ هَذِهِ ^(٥) ارْتَحَلَ ، فَزَلَّ عَلَى النَّاسِ بِبَهْرَسِيرٍ ، وَجَمَلَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا قَدِمَتْ خَيْلٌ وَقَفُوا ثُمَّ كَبَّرُوا ، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ آخِرُ مَنْ مَعَ سَعْدِ .

وَفِي أَثْنَاءِ وَقُوفِهِ عَلَى أَبْوَابِ بَهْرَسِيرِ بَثَّ الْخَيُْولُ ، فَأَغَارَتْ عَلَى مَا بَيْنَ دَجْلَةِ وَالْفَرَاتِ ، فَأَصَابُوا مِائَةَ أَلْفِ فَلَاحٍ ، فَقَالَ شِيرَازَاذُ لِسَعْدِ : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مُحَارِبِينَ ،

* تاريخ الطبري ٤ : ١٦٧ ، ومعجم البلدان ٢ : ٣١٤ . كَانَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٥ هـ .

وبهريسير : من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .

(١) سَابَاط : قرب المدائن ، وتسمى سَابَاطُ كُسْرَى .

(٢) الْمُظْلِم : موضع قريب من سَابَاط . (٣) قَتَلَهُمْ : هَزَمَهُمْ وَشَتَّتْ جَمْعَهُمْ .

(٤) (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ ٤٤ . (٥) هَذِهِ : مِنَ اللَّيْلِ : جُزْءٌ مِنْهُ .

ولم يحرضوا عليكم؛ فاتركوهم . فتركهم سعد له ، بعد أن كتب عليه كتاباً بأسمائهم .

ثم كتب إلى عمر يقول : إنا وردنا بهزسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهزسير ، فلم يأتنا أحدٌ لقتال ، فبثثت الخيول ، وجمعت الفلاحين من القرى والآجام فرأيتك .

فأجابه : إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يمينوا عليكم فهو أمائهم ، ومن هرب فأدر كتموه فشانكم به .

ولما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم ، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع ، أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة . فقبلوا الجزية والمنعة ، فلم يبق في غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى^(١) إلا آمن واغتبط بملك الإسلام .

وأقام سعد على حصار أهل بهزسير شهرين ، وجنوده يرمونهم بالمجانيق والعرادات^(٢) ، ويدبئون إليهم بالدبابات^(٣) ، ويقابلونهم بكل غداة . وكان على بهزسير خنادقها وحرسها وغداة الحرب ، واستعنع سعد شيرازاد لنصب المجانيق ؛ فنصب على أهل بهزسير عشرين منجنيقاً .

قال أنس بن الحليس : بينا نحن محاصرون بهزسير أشرف علينا رسول ؛ فقال : إن الملك يقول لكم : هل إلى المصالحة على أن لنا ما يأميننا من دجلة وجبائنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟ أما شيعتكم ، لا أشبع الله بطونكم ! فردّ عليه أبو مفضل الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدري .

فرجع الرجل ورأيناهم يقطعون إلى المدائن ! فقلنا : يا أبا مفضل ؛ ما قلت له ؟

(١) السوادى : منسوب إلى السواد ، وهو العراق .

(٢) المنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة معربة . والمرادة : آلة أصغر من المنجنيق .

(٣) الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، فتدفع في أصل الحصن فينبون وهم في جوفها .

فقال : لا والذي بعت محمداً بالحق ما أدري ماهو ؛ وأنا أرجو أن أكون قد أنطقْتُ
بالَّذى هو خَيْر .

وأخذ الناسُ يسألونه ، حتى سمع بذلك سعد ، فجاءه وقال له : يا أبا مُفَرِّر ؛
ما قلت ؟ فوالله إنهم كهُرَّاب . فحدثته بمثل حديثه إيانا ؛ فنادى فى الناس ثم نهَّد^(١)
بهم ؛ فما ظهر على المدينة أحد ، ولا خرج إلينا إلَّا رجل نادى بالأمان ، فأمنَّاه ،
فقال : ما بقى فيها أحدٌ فما يمنعكم ؟

ففسَّوَرها الرجالُ ، وافتتَحناها ، فما وجدنا أحداً إلَّا أسارى أسرناهم خارجاً
منها ؛ فسألناهم وذلك الرجل : لأى شىء هربوا ؟ فقالوا : بعت الملكُ إليكم يمرض
عليكم الصَّالح ؛ فأجبتُموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عَسَل
أفريذين بأترُج^(٢) كُوتى . فقال الملك : وأويلَّه ! ألا إنَّ الملائكةَ تتكلمُ على
ألسنتهم ، تردُّ علينا وتُجيبنا عن العرب . والله لئن لم يكن كذلك ماهو إلا شىء أُلقيَ
على فى هذا الرجل لنتهى . وأرَزُوا^(٣) إلى المدائن بعد أن أحرقوا الجسر ، وجمعوا كلَّ
السفن التى تجرى فوق دجلة .

ودخل سعد والمسلمون بهرَّسير ، وتحوَّل المسكر إليها ، وحاولوا عبورَ دِجْلة فلم
يجدوا الجسرَ يَمبرون عليه ولم يجدوا سفناً تحملهم .
وفى جَوْفِ اللَّيْلِ لاح لهم الأَبْيَضُ^(٤) ؛ فقال ضِرار بن الخطاب : الله أكبر !
أَبْيَض كسرى ! هذا ما وعد اللهُ ورسوله ، وتابعوا التَّكْبِير حتى أصبحوا .

(١) نهَّد بهم : نهض بهم . (٢) الأترج : نبت .

(٣) أرزوا : أسرعوا ، وتجمعوا .

(٤) الأبيض : إيوان كسرى ، شاده كسرى أنوشروان سنة ٥٥٠ م .

٤١ — يوم المدائن*

بعد أن دخل سعد بهر سير طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدائن ، فلم يقدر
على شيء ، ووجدهم قد ضموا السفن ، فأقام بهر سير أياماً من صفر يمنعه الإبقاء
على المسلمين ، حتى أتاه أعلاج^(١) ، فدلّوه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي ،
فأبى وتردد عن ذلك .

ثم رأى رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها ، فعبرت ، فعزم على العبور لتأويل
رؤياه ، وجمع الناس وقام فيهم وقال لهم — بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إنَّ عدوكم
قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا ،
فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفأكموهم
أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادهم^(٢) . وقد رأيت من الرأي أن
تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إني قد عزمْتُ على قطع
هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعاً : عزّم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل .

فندب سعد الناس إلى العبور ، ثم قال : مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفِراض^(٣) لكيلا

* تاريخ الطبري ٤ : ١٧٠ ، وتاريخ ابن كثير ٨ : ٦٣ . كان سنة ١٦ هـ . والمدائن :
عاصمة الفرس ، بناها أنوشروان بن قباد ، وأقام بها هو ومن كان بها من ملوك ساسان .
(١) العليج : الرجل من كفار العجم .

(٢) الذائد : الرجل الذي يحمي ويدفع وجمعه ذادة .

(٣) الفراس : جمع فرسة ؛ وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى .

يمنعوننا من العبور؟ فانتدب^(١) له عاصم بن عمرو ، وانتدب بعده سائة من أهل النجدات . فأمر عليهم عاصما ، فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة .

وعندئذ قال : مَنْ يَنْتَدِبُ مَعِيَ لِنَمْنَعِ الْفِرَاضَ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَلِنُحْمِيَكُمْ حَتَّى تَعْبُرُوا ؟ فانتدب له ستون ، فتقدمهم هو إلى حافة النهر ، وهو يقول للذين تردّدوا من حوله : اتخافون ! وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾^(٢) . ثم دفع فرسه فافتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه .

فلما رأهم الأعاجم وما صنعوا ، أعدّوا للخيال التي تقدّمت مثلها ، واقتحموا عليهم دجلة ، ثم دنّوا من عاصم وقد دنا من الفراض ؛ فقال عاصم لأصحابه : الرِّمَاحَ الرِّمَاحَ ! أَشْرِعُوهَا وَتَوَخَّوْا الْمَيُونَ ، فطعنوهم في أعينهم ، فمَنْ لَمْ يُقْتَلْ مِنْهُمْ صَارَ أَعُورَ ، وَتَرَزَلَتْ بِهِمْ خِيُولُهُمْ ، حَتَّى فَرَّتْ عَنِ الْفِرَاضِ .
وملك الستون الفراض وتلاحق السائة .

ولما رأى سعد عاصما على الفراض قد منعها الناس أذن للناس في الاقتحام ، وقال : قولوا : نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ؛ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ !

وتلاحق معظم الجند ، وركبوا اللجج ، وإن دجلة لترمي بالزبد ، وإن الناس ليتحدّثون في عومهم ما يكثرّون ، كما يتحدّثون في مسيرهم على الأرض .

وكان سعد وراءهم يسايره في الماء سلمان الفارسي ، فعامت بهم الخيل ، وسعد يقول : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ! وَاللَّهِ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ وَلِيِّه ، وَلَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ دِينَهُ ، وَلَيُهْزِمَنَّ اللَّهُ عَدُوَّهُ ، إِنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ بَنِي أَوْ ذُنُوبَ تَغْلِبُ الْحَسَنَاتِ ،

(١) انتدب : خف وأسرع . (٢) سورة آل عمران ١٤٥ .

فقال له سلمان : ذُلتُ لهم والله البحور كما ذُلَّ لهم البرّ ؛ أما والذي نفسُ سلمان بيده ليَخْرُجَنَّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً .

وطَبَّقُوا دِجْلَةَ خَيْلاً وَرَجُلًا حَتَّى مَا يَرَى الْمَاءَ مِنَ الشَّاطِئِ أَحَدٌ ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْمَاءِ ، وَالْخَيْلُ تَنْفُضُ أَعْرَافَهَا صَاهِلَةً . فَلَمَّا رَأَى الْفَرَسُ ذَلِكَ انْطَلَقُوا لَا يَلُؤُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَانْتَهَى الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْقَمْصِ الْأَبْيَضِ ، وَفِيهِ قَوْمٌ قَدْ تَحَصَّنُوا . فَعَرَضُوا عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا ، يَخْتَارُونَ مِنْهَا أَيَّهَا شَاءُوا . قَالُوا : وَمَا هُنَّ ؟ قَالُوا لَهُمْ : الْإِسْلَامُ ، فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مَا لَنَا ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْجَزَايَةُ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَنَجَازِكُمْ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ؛ فَأَجَابُوهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي الْأَوَّلَى وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَكِنِ الْوَسْطَى .

وَدَخَلَ سَعْدُ الْمَدَائِنِ ، وَانْتَهَى إِلَى إِيوَانِ كَسْرَى ، وَأَقْبَلَ يَقْرَأُ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (١) .

وَصَلَّى فِيهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ ، ثَمَانِي رَكَعَاتٍ ؛ لَمْ يَفْصِلْ بَيْنَهُنَّ ، وَاتَّخَذَهُ مَسْجِدًا ، وَفِيهِ تَمَائِيلُ الْجِصِّ ، وَلَمْ يَمْتَنِعْ هُوَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ لَذَلِكَ ، وَتَرَكَوْهَا عَلَى حَالِهَا . وَأَتَمَّ الصَّلَاةَ فِي الْمَدَائِنِ ؛ إِذْ نَوَى الْمَقَامَ بِهَا . وَكَانَتْ أَوَّلُ جُمُعَةٍ بِالْعِرَاقِ ، فِي صَفَرِ سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةٍ .

جَمَعَ سَعْدٌ مَا فِي خَزَائِنِ كَسْرَى مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْغَنَائِمِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا ، وَأَصَابَ الْفَارِسُ مِنَ الْمُنْعَمِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ؛ وَكَلَّسَهُمْ كَانَ فَارِسًا ، ثُمَّ قَسَمَ دُورَ الْمَدَائِنِ بَيْنَ النَّاسِ ، ثُمَّ جَمَعَ الْخُمْسَ ، وَجَمَعَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ أَرَادَ أَنْ يَعْجِبَ مِنْهُ عَمْرٌ ، مِنْ ثِيَابِ كَسْرَى وَحُلِيِّهِ وَسَيِّفِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ يَعْجِبُ الْعَرَبَ أَنْ يَقَعَ إِلَيْهِمْ ، وَأَرْسَلَ كُلَّ ذَلِكَ إِلَى عَمْرٍ .

وكان فيما أرسله إليه بساط ذرعه ستون ذراعاً في مثلها ، صوّرت فيه طرق
الملكة ، وبُسّطت فيه الأرضُ مذهبةٌ تجري خلالها أنهار رُصّعت بالدرّ ، وجُعِلت
حافاته كالأرض المزروعة فيها نباتُ الربيع قام على سوق الذهب ، وجعل ورقه
من الحرير، وثمره من الجواهر ، وأشباه ذلك .

ولما ورد الخمس على عمر قَسَّمه على مستحقّيه ، ثم قال : أُشيروا علىّ في هذا
البساط ؛ فأَجَمَعَ مَلَوْهُمْ على أن قالوا : قد جعلنا ذلك لك ، فَرَأَيْتُكَ ، إلا ما كان
من علىّ ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، لم يجعل اللهُ علمك جهلاً ، ويقينك شكّاً ،
إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأَمْضَيْت ، أو لبست فأَبْلَيْتَ ، أو أَكَلْتَ
فَأَفْنَيْتَ ، وإنك إن تَبَقَّيْهِ اليوم على هذا لم تَعْدَم في غَدٍ مَنْ يَسْتَحِقُّ به ما ليس له .
فقال عمر : صدقتني ونصحتني . ثم قطعهُ وقسمه بين الناس .

وصدَرَ بعد ذلك أمر عمر بولاية سَعْد بن أبي وقَّاص صلاة ما غلب عليه
وحرَّبه ، وولَّى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرن الخراج ؛ الأول على ما سَقَتْ دجلة
والثاني على ما سَقَى الفرات .

٤٢ — يوم جَلُولاء*

انتهى الأعاجم بعد الهرب من المدائن إلى جَلُولاء ، ورأوا الطرق عندها تفرق إلى شتّى الأرجاء ، فقال بعضهم لبعض : إن افترقتم لَمْ تَجْتَمِعُوا أَبَدًا ، وهذا مكان يُفَرِّقُ بَيْنَنَا ، فَلَنَجْتَمِعَ للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الَّذِي نُرِيدُ ، وإن كانت الأخرى كنا قد قَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا ، وأبدَيْنَا عُذْرًا .

وأرسل إليهم يزدجردُ مِهْرَانَ الرَّازِيَّ في رجاله وأعوانه وجنوده ، وأقام هو بِحُلْوَانَ يُمِدُّهُمْ بِالرَّجَالِ وَالْأَقْوَاتِ ؛ واجتمع هؤلاء وهؤلاء واحتفروا خندقًا عظيمًا أحاطوا به الْحَسَكُ .

وعلم سعد بذلك فكتب إلى عُمر يستأمره ، فكتب عمر إلى سَعْدٍ : أَنْ سَرِّحْ هَاشِمَ بْنَ عُتْبَةَ إِلَى جَلُولَاءِ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا ، واجعل على مقدّمته القعقاع بن عمرو . وَعَيْنَ لَهُ مَنْ يَكُونُونَ عَلَى الِيمْنَةِ وَالْمَيْسِرَةِ وَالسَّاقَةِ بِأَسْمَائِهِمْ .

وفصل هاشم بن عُتْبَةَ مِنَ الْمَدَائِنِ فِي صَفَرٍ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ عَشْرَةَ فِي اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا ، مِنْهُمْ وَجُوهُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَعْلَامُ الْعَرَبِ ، وَسَارَ مِنَ الْمَدَائِنِ إِلَى جَلُولَاءِ حَتَّى قَدِمَ عَلَى الْفُرْسِ وَأَحَاطَ بِهِمْ ، فَخَاصَرَهُمْ .

وطاولهم أهل فارس ، وجعلوا لا يخرجون إليهم إِلَّا إِذَا أَرَادُوا ، وَزَاحَفَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ثَمَانِينَ زَحْفًا ، وَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَنَالُونَ مِنَ الْفُرْسِ . وجعل هاشم يقوم

* الصلبي ٤ : ١٧٩ . معجم البلدان ٣ : ١٢٩ . كان في صفر سنة ١٦ وجلولاء : بلدة في طريق خراسان في نحو أربعين ميلًا في شمال المدائن .

في الناس ويقول : إِنَّ هَذَا الْمَنْزِلَ مَنْزِلٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ . وجعل سَمْعُ يُعِدُّهُ بِالْفَرَسَانِ ، حتى إذا كَانَ آخِرًا احتفلوا للمسلمين ، فخرجوا عليهم ، فقام هاشم في الناس فقال : أبلّوا في الله بلاءً حسناً ، يَتَمَّ عَلَيْكُمُ الْأَجْرُ وَالْغَنَمُ ، واعملوا لله .

فالتَقَوْا واقتتلوا ، وبِثَّ اللهُ رِيحاً أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ ، فلم يَسْتَطِيعُوا إِلَى الْحَاجِزَةِ ، فَتَهافتَ فُرُسانُهُمْ فِي الْخَنْدَقِ ، فلم يَجِدُوا بُدًّا مِنْ أَنْ يَجْعَلُوا فُرُصًا مِمَّا يَلِيهِمْ ، تَصْعَدُ مِنْهُ خِيَلُهُمْ ، فَأَفْسَدُوا حِصْنَهُمْ ، وبلغ ذلك المسلمين فنظروا إليه فقالوا : نَنْمِضُ إِلَيْهِمْ ثَانِيَةً فَنَدْخُلُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ نَمُوتُ دُونَهُ .

فلما تَبَيَّنَ الْمُسْلِمُونَ الثَّانِيَةَ خَرَجَ الْقَوْمُ ، فَرَمَوْا حَوْلَ الْخَنْدَقِ مِمَّا بَلَى الْمُسْلِمِينَ بِحَسَكِ الْحَدِيدِ ، لَكَيْلًا يَقْدَمَ عَلَيْهِمُ الْقَوْمُ ، وَتَرَكَوا لِلْمَجَالِ وَجْهًا .

وخرجوا على المسلمين ، واقتتلوا قتالًا شَدِيدًا لم يقتتلوا مثله إِلَّا لَيْلَةَ الْهَرِيرِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ أَكْمَشُ^(١) وَأَعْجَلَ ، وَاِنْتَهَى الْقَعْقَاعُ فِي الْوَجْهِ الَّذِي زَاحَفَ فِيهِ إِلَى بَابِ خِيَلِهِمْ ، فَأَخَذَ بِهِ ، وَأَمَرَ مَنَادِيَا فَنَادَى : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، هَذَا أَمِيرُكُمْ قَدْ دَخَلَ خَنْدَقَ الْقَوْمِ ، وَأَخَذَ بِهِ ؛ فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ ، وَلَا يَمْنَعَنَّكُمْ مَنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مِنْ دَخُولِهِ .

وإنما أَمَرَ بِذَلِكَ لِإِقْوَى الْمُسْلِمِينَ ، فَحَمَلَ الْمُسْلِمُونَ ، وَهُمْ لَا يَشْكُونَ أَنَّ هَاشِمًا فِيهِ ، فلم يَقُمْ لِحُلَّتِهِمْ شَيْءٌ ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى بَابِ الْخَنْدَقِ ، فَإِذَا هُمْ بِالْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرِو قَدْ أَخَذَ بِهِ .

وَانْهَزَمَ الْفُرْسُ يَمْنَةً وَيسرةً عَنِ الْمَجَالِ الَّذِي بِحِيَالِ خَنْدَقِهِمْ ، فَهَلَكُوا فِيمَا أَعَدُّوا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَعُقِرَتْ دَوَاشِبُهُمْ ، وَعَادُوا رَجَالَةً ، وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فَلَمْ يُقْلَتْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ ، وَقَتِلَ يَوْمَئِذٍ مِائَةُ أَلْفٍ^(٢) .

(١) أَكْمَشُ فِي السَّيْرِ : أَسْرَعَ . (٢) أَوْرَدَ الطَّبْرِي رَوَايَةً أُخْرَى لِهَذَا الْيَوْمِ جُزْءٌ ٤ ، صَفْحَةُ ١٨١

٣٢ - يوم تَكْرِيت*

علم سَعْدٌ بالنصرافِ الفلُول من الفُرسِ إلى تَكْرِيت وتَحَصَّنَ بِهِمْ بِهَا ،
ومعهم الأَخْلَاف من إياد وتغلب والنَّيْمِر ، فأرسل إليهم عَبْدُ اللَّهِ بن المَعْتَم ،
واستعمل على مقدمته رَبْعَى بن الأَفْكَل العَنَزَى ، وعلى ميمينته الحارث بن حَسَّان
الذَهَلِي ، وعلى ميسرته فُرَات بن حَيَّان العَجَلِي ، وعلى ساقته هَانِي بن قَيْس ، وعلى
الخيَل عَرَفَجَةَ بن هَرْثَمَةَ . وفَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بن المَعْتَم في خَمْسَةِ آلَاف من المدائن ،
وسار إلى تَكْرِيت فوجد الفُرسَ قد خَنَدَقُوا بِهَا ، فحَصَرَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ،
تَزَاحَفُوا فِيهَا أَرْبَعَةَ وَعَشْرِينَ زَحْفًا ، وكانوا أَهْوَنَ شَوْكَةً من أَهْلِ جَلُولَاءَ .
وَوَكَّلَ عَبْدُ اللَّهِ بن المَعْتَم من يَدْعُو الْعَرَبَ لِنُصْرَتِهِ ، فاستجابوا له ، وأقبلت
الْعُمَيُّون من تَغْلِب وإياد والنَّيْمِر إلى عَبْدِ اللَّهِ بن المَعْتَم بِالْخَبَرِ ، وسألوه للعرب السَّلَامَ ،
وأخبروه أَنَّهُمْ قد استجابوا له .

فأرسل إليهم : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِذَلِكَ فَاشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَقْرَأُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَغْلِمُونَا رَأْيَكُمْ . فرجعوا
إليه بقبول ذلك ، فقال لهم : إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا فَاعْلَمُوا أَنَا قَدْ تَهَدَّنَا إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي
تَلِينَا لِنَدْخُلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، فَخُذُوا بِالْأَبْوَابِ الَّتِي تَلَى دِجْلَةَ ، وَكَبِّرُوا وَاقْتُلُوا مَنْ
قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ .

وَتَهَدَّ^(١) عَبْدُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ ، وَكَبَّرُوا ، وَكَبَّرَتْ إِيَاد وَتَغْلِب وَالنَّيْمِر ، وَقَدْ أَخَذُوا

* الطبري ٤ : ١٨٦ ، ومعجم البلدان ٢ : ٤٠١ ، كان في سنة ١٦ . وتكريت : بلد بين

بغداد والموصل على دجلة إلى شمال المدائن . (١) تَهَدَّ : نهض وخف .

بالأبواب ، فَحَسِبَ الْقَوْمُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَتَوْهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ . فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ
مِمَّا يَلِي دِجْلَةَ ، فَبَادَرُوا الْأَبْوَابَ الَّتِي عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فَأَخَذَتْهُمْ السِّيُوفُ ؛ سِيُوفُ
الْمُسْلِمِينَ مُسْتَقْبِلَتُهُمْ ، وَسِيُوفُ الْعَرَبِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِيَلْتَمِذَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، فَلَمْ يُفَلِتْ مِنْهُمْ
إِلَّا مَنْ أَسْلَمَ ؛ مِنْ تَغْلِبَ وَإِيَادَ وَالنَّمِرَ .

وَسَرَّحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَمِدِ ابْنَ الْأَفْكَلِ الْقَتَرِيَّ إِلَى الْحَصْنَيْنِ زَيْنَوَى وَالْمَوْصِلِ ،
وَقَالَ لَهُ : اسْبِقْ إِلَيْهِمَا قَبْلَ وَصُولِ الْأَنْبَاءِ إِلَيْهِمَا ، وَسَرَّحَ مَعَهُ تَغْلِبَ وَإِيَادَ وَالنَّمِرَ ،
وَمَعَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ ، وَسَارُوا جَمِيعًا حَتَّى اقْتَحَمُوا عَلَيْهِمْ فِيهِمَا ؛ فَنَادُوا بِالْإِجَابَةِ
إِلَى الصَّلَاحِ ، فَأَقَامَ مَنْ اسْتَجَابَ ، وَهَرَبَ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ ، فَوَقَّى عَبْدُ اللَّهِ لِمَنْ أَقَامَ ،
وَصَارَتْ لَهُمْ جَمِيعًا الذِّمَّةُ وَالْمَنْعَةُ ، وَاقْتَسَمُوا فِي تَكْرِيرِ كُلِّ سَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ،
وَبِعَثُوا بِالْأَخْمَاسِ إِلَى عُمرَ مَعَ فُرَاتِ بْنِ حَيَّانَ ، وَبِالْفَتْحِ مَعَ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ .

٤٤ — يوم ماسَبَذَان*

لما رجع هاشم بن عُثْبَةَ من جُلُولاء إلى المدائن بلغ سعدا أن آذين بن الهرمُزَان قد جمع جمعا ، فخرج بهم إلى السَّهْل ؛ فكتب بذلك إلى عمر .
فكتب إليه عمر : ابْعَثْ إِلَيْهِمْ ضِرَارَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي جُنْدٍ ؛ وَعَيِّنْ لَهُ أَمْراءَهُمْ .
فخرج ضِرَارُ بْنُ مَعْمَرٍ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَهْلِ مَسَبَذَانَ ، فَالْتَقَى بِالْفُرْسِ .
وَأَسْرَعَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَشْرُوكِينَ ، وَأَخَذَ ضِرَارُ آذِينَ أَسِيرًا . وَانْهَزَمَ عَنْهُ جَيْشُهُ ،
فَضْرَبَ عُقْبَةُ ..

ثُمَّ خَرَجَ فِي الطَّلَبِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّيْرَوَانِ ، وَأَخَذَ مَسَبَذَانَ عَنَوَةً ،
فَنَظَرَ أَهْلَهَا فِي الْجِبَالِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ فَاسْتَجَابُوا إِلَى الْجَزِيَّةِ ، فَأَقْرَهُهُمْ فِي مَدِينَتِهِمْ .

* الطبري ٤ : ١٨٧ . كان في سنة ١٦ . وماسبذان : موضع عن يمين حلوان إلى همدان .

٤٥ — يوم قرقيسياء *

لما رجّع هاشم بن عُثْبَةَ من جَلُولَاءِ اجْتَمَعَتْ جُوعُ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ بِمَدِينَةِ هَيْتَ عَلَى شَاطِئِ الْفَرَاتِ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ سَعْدٌ إِلَى عُمَرَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : أَنْ ابْعَثْ إِلَيْهِمْ عُمَرَ بْنَ مَالِكٍ فِي جُنْدٍ ، وَابْعَثْ عَلَى مَقْدَمَتِهِ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ الْعَامِرِيُّ ، وَعَلَى مَجْمُوعَتِهِ رُبُعِيُّ بْنُ عَامِرٍ ، وَمَالِكُ بْنُ حَبِيبٍ .

فَخَرَجَ عُمَرُ بْنُ مَالِكٍ فِي جُنْدِهِ سَائِرًا نَحْوَ هَيْتَ ، وَقَدَّمَ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهَا ، وَقَدْ خَنَدَقَ أَهْلُهَا عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا رَأَى عُمَرُ بْنُ مَالِكٍ امْتِنَاعَ الْقَوْمِ بِخَنَدَقِهِمْ وَاعْتِصَامَهُمْ بِهِ اسْتِطَالَ ذَلِكَ ، فَتَرَكَ الْأَخْيِيَّةَ عَلَى حَالِهَا ، وَخَافَ عَلَيْهِمُ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ فحاصرهم ، وَخَرَجَ فِي نِصْفِ النَّاسِ يَمَارِضُ الطَّرِيقِ ، حَتَّى جَاءَ قَرْقِيسِيَاءَ فِي غُرَّةٍ ، فَأَخَذَهَا عَنُودَ ، وَأَجَابَهُ أَهْلُهَا إِلَى الْجِزَاءِ . وَكَتَبَ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ فِي شَأْنِ أَهْلِ هَيْتَ : إِنْ اسْتَجَابُوا نَحْلَ عَنْهُمْ فَلْيُخْرِجُوا ؛ وَإِلَّا فَيُخَنَدَقُ عَلَى خَنَدَقِهِمْ خَنَدَقًا أَبْوَابُهُ مِمَّا يَلِيكَ ؛ حَتَّى أَرَى مِنْ رَأْيِي . فَاسْتَجَابُوا ، وَانْضَمَّ الْجُنْدُ إِلَى عُمَرَ وَالْأَعَاجِمُ إِلَى بِلَادِهِمْ ^(١) .

* تاريخ العنبري ٥ : ١٨٧ . كَانَ فِي رَجَبِ سَنَةِ ١٦ ، وَقَرْقِيسِيَاءَ : بَلَدٌ عِنْدَ مَلْتَقَى نَهْرِ الْخَابُورِ وَالْفَرَاتِ عَلَى تَحْتِمْ مَابَيْنَ الْعِرَاقِ وَالشَّامِ .

(١) بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ صَارَ السَّوَادُ كُلُّهُ فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، فَهَدَوْا طَرِيقَ إِدَارَتِهِ وَأَقَامُوا الْجُنُودَ مُرَابِطَةً فِي الثُّغُورِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجِبَالِ ، فَكَانَ الْفَلَاحُونَ لِلطَّرِيقِ وَالْجَسُورِ وَالْحَرْثِ وَالِدَلَالَةِ مَعَ الْجِزَاءِ عَنْ أَيْدِيهِمْ عَلَى قَدَرِ صَاقَتِهِمْ ، وَكَانَ فِي صَاحِجِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ : أَنَّهُمْ إِنْ غَشَوْا الْمُسْلِمِينَ لَعْدُوهُمْ بَرِثَتْ مِنْهُمْ الذِّمَّةُ .

٤٦ — يوم الأهواز *

كانت الأهواز تُتَاجِمُ حدودَ البَصْرَةِ ، وكان الهرمزان من بيوتات فارس ، فلما انهزم يوم القادسية أقام بتلك البلاد ، وغلب على مَنْ بها ، فسكان يُغِيرُ على أهلِ ميسان ودستَميسان^(١) ؛ فلما علم بذلك عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ أمير البصرة استمدَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ أمير الكوفة فأمدّه بنعيم بن مُقَرَّن ونعيم بن مسعود ، وأمرهما أن يَأْتِيا أَعْلَى مَيْسَانَ ودَسْتَمَيْسَانَ ، حتى يكونا بين الأعاجم وبين نهرِ تِيرَى .

وأرسل عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ سَلَمَى بْنَ الْقَيْنِ وَحَرَمَلَةَ بْنَ مَرْيَظَةَ فِي جَمْعٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستَميسان وبين مَنَازِرَ . فنزلا هناك ودَعَوَا بَنِي الْعَمِّ ابْنَ مَالِكٍ ، وكانوا من حاضِرِي تِلْكَ الْجُفَى ، فأجاب رؤساؤهم : إِنْهُمْ سَيَكُونُونَ عَوْنًا لِلْمُسْلِمِينَ ، واتفقوا على إحداث ثورة بِمَنَازِرِ وَنَهْرِ تِيرَى ؛ والهرمزان يومئذ بين نهرِ تِيرَى وبين دُلُثَ .

وفي الموعد اشتدَّ القتالُ بين الفريقين وأتى الخبر الهرمزان بأنَّ مَنَازِرَ وَنَهْرَ تِيرَى قد أُخِذَتَا ، ففتَّ ذلك في عَصُدِهِ ثُمَّ هُزِمَ جُنْدُهُ ، وقتل المسلمون منهم ما شاءوا ، وأسرُوا منهم ما شاءوا واتبعوهم حتى وقفوا على شاطئِ دُجَيْلٍ ، وأخذوا ما دونه وعسكروا بِحِيَالِ سَوَاقِ الْأَهْوَازِ ، وقد عَبَرَ الهرمزان جسرَ سَوَاقِ الْأَهْوَازِ وأقامَ بِهَا .

ولما رأى الهرمزان ما لا طاقة له به طلب الصِّلحَ ، فأجابه عُتْبَةُ إِلَى ذَلِكَ .

* الطبري ٤ : ٢٠٨ . كان في سنة ١٧ . والأهواز : إقليم واسع ، يتكون من سبع كور بين البصرة وفارس .

(١) ميسان ودستَميسان : موضعان قرب البصرة .

وصالحه على الأهواز كلها ، ما خلا نهر تيرى ومناذر ، وما غلبوا عليه في سوق الأهواز مما أخذه المسلمون غنوةً فإنه لا يُرد إليهم ، وجعل عُتْبَةُ سُلَيمى بن القَيْن على مناذر ، وحرّمة على نهري تيرى ، ووكّل إليها مسالح البصرة ، وأخذت طوائف بنى العَمّ تنزل البصرة .

ثم شجر خلاف بين بعض رؤساء بنى العَمّ ، وبين الهرمزان في حدود الأرضين ، كان من نتيجته أن نقض الهرمزان الصّلع ومنع ما قبله ، واستعان بالأكراد ، فكشّف جنده ، وانتهى الأمر إلى عُتْبَةَ بن غزوان ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر يأمره بأمره ، وأمدّهم بحرقوص بن زهير السمدى ، وكانت له حبة من رسول الله ، وأمره على القتال وعلى ما غلب عليه ، وانضم إليه سُلَيمى وحرّمة ، وعلم بأمرهم الهرمزان فنهد إليهم بجنوده .

ولما انتهى المسلمون إلى جسر سوق الأهواز أرسلوا إلى الهرمزان : إما أن تعبر إلينا ، وإما أن نعبّر إليكم ، فقال : اعبروا إلينا ، فعبروا من فوق الجسر ، ثم اقتتلوا فوق الجسر مما يلي سوق الأهواز ، حتى هُزم الهرمزان وجنده ، وفرّ إلى رامهرمز .

وافتح حرقوص سوق الأهواز فأقام بها ، ونزل الجبل ، واتّسقت له بلاد سوق الأهواز إلى تسّتر ، ووضع الجزية ، وكتب بالفتح والأخماس إلى عمر ، ووفد إليه وفداً بذلك ، فحمد الله ودعا له بالثبات والزيادة .

٤٧ — يوم طاووس*

كان المسلمون بالبصرة وأرضها - وأرضها يومئذ سوادها - ماغلبوا عليه منها
ففي أيديهم ، وما سولحوا عليه منها؛ ففي أيدي أهلها ، يؤذون الحراج ، ولهم الذمة
والمنعة ، وعميد الصلح الهرمزان .

وقد قال عمر : وددت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار ، لا يصلون إلينا
منه ، ولا نصل إليهم ، كما قال لأهل الكوفة : وددت أن بينهم وبين الجبل جبلا
من نار، لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم .

وكان العلاء بن الحضرمي على البحرين أزمان أبي بكر فمزله عمر ، وجعل
قدامة بن مظعون مكانه ، ثم عزل قدامة ، ورد العلاء - وكان العلاء يُبارى سمداً
لصدع صدعه القضاء بينهما ، فطار العلاء على سمدة في الردة بالفضل ، فلما ظفر
سمد بالقادسية ، وأزاح الأكسرة ، وأخذ حدود مايلي السواد استعلى ، وجاء بأعظم
مما كان العلاء جاء به .

أراد العلاء أن يضع شيئاً في الأعاجم ، مع أن عمر قد نهاه عن البحر حين
استعمله ، فلم يقدر الطاعة والمعصية وعواقبهما .

فندب أهل البحرين إلى فارس ، ففسرّوا إلى ذلك ، وفرّقهم أجناداً ، على أحدها

* الطبري ٤ : ٢١٢ ، ومعجم البلدان ٦ : ١٠ . كان سنة ١٧ هـ وطاووس : موضع

بنواحي فارس

الجارود بن المعلّى ، وعلى الآخر السّوّار بن همام ، وعلى الآخر خُليد بن المنذر بن ساوى ،
وخُليد على جماعة الناس .

فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر - وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوبه
غازيا ، لأنه يكره التفرير استئذانا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر .

فمبرت تلك الجوزة من البحرين إلى فارس وخرجوا في إصطخّر ، وبإزائهم أهل
فارس ، وقد اجتمعوا على الهرّب ، وحالوا بين المسلمين وبين سفنهم ، فقام خُليد في
الناس فقال : أمّا بعد ، فإن الله إذا قضى أمراً جرت المقادير حتى تُصيّبه ؛ وإن
هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعّوكم لحربهم ، وإنما جئتم لحاربتهم
والسُّنن والأرض لمن غلب ، فاستمعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا
على الخاشعين .

فأجابوه إلى ذلك ، وصَلّوا الظهر ، ثم ناهدوهم ، فاقتتلوا قتالا شديداً في موضع يقال
له طاوس ، وقُتل من قوَّاد المسلمين السّوّار والجارود ، وجعل خُليد يذمر^(١) القوم
ويحرّضهم ، واشتدَّ القتال ، وقُتل أهل فارس مقتلة لم يُقتلوا مثلها قبلها .

ولم يجد المسلمون سبيلاً إلى الرجوع في البحر ، لأنَّ الفُرس أغرقوا سفنهم
فخرجوا يُريدون البصرة ، فوجدوا شمرّك قد أخذ على المسلمين بالطرق ،
فمكروا وامتنعوا .

ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء ، من بعثه ذلك الجيش في البحر القى في رُوعه نحوه
من الذي كان ، فاشتد غضبه على العلاء ، وكتب يمزله ، وتوعَّده ، وأمره

(١) يذمر : يهجم ،

بأثقل الأشياء عليه وأبفض الوجوه إليه ، بتأثير سعد عليه ، وقال له : الحق بسعد ابن أبي وقاص فيمن قبلك ، فخرج بمن معه نحو سعد .
وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان : إن العلاء بن الحضرمي حمل جندا من المسلمين ، فأقطعهم أهل فارس ، وعصاني ، وأظنه لم يريد الله بذلك ، فخشيت عليهم ألا ينصروا وأن يملأوا ، فاندب إليهم الناس ؛ واضممهم إليك من قبل أن يجتأخوا .

فندب عتبة الناس ، وأخبرهم بكتاب عمر . فاندب الناس وخرجوا في اثني عشر ألفاً على البغال يجنبون^(١) الخيل ، وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم .
فسار أبو سبرة بالناس وساحل ، لا يلقاه أحد ، ولا يعرض له أحد ، حتى التقى بخليد ، وقد كان أهل إصطخر وشذاذ^(٢) من غيرهم هم الذين أخذوا الطريق على جيش خليد .

فلما أقام المسلمون مقامهم استصرخ الأعداء أهل فارس كلهم ؛ ففرضوا إليهم من كل وجه وكورة ، فالتقوا بعد طاوس ، وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم ؛ وإلى المشركين أمدادهم ، وبعد قتال فتح الله على المسلمين وقتل المشركين .
وأصاب المسلمون منهم ما شاءوا ، وكانت هذه الغزاة هي التي شرت فابته أهل البصرة ، فكانوا أفضل نوابت الأمصار ، وانكفأوا بما أصابوا

(١) جنبه قاده : إلى جنبه . (٢) الشذاذة : الذين لم يكونوا في حبيهم ومنازلهم ، ومفرد : شاذ .

٤٨ - يوم تُسْتَر*

لم يزل يَزْدَجِرْدُ يُثِيرُ أَهْلَ فَارِسَ أَسْفًا عَلَى مَا خَرَجَ مِنْهُمْ - وَكَانَ مَقِيلاً بِمَرْو -
فَكَتَبَ إِلَى أَهْلِ فَارِسَ يَذْكُرُهُمُ الْأَخْقَادَ وَيُؤَنِّبُهُمْ ؛ أَنْ قَدْ رَضِيعُهُمْ يَا أَهْلَ فَارِسَ ؛
أَنْ قَدْ غَلَبَتْكُمْ الْعَرَبُ عَلَى السَّوَادِ وَمَا وَالِاهُ مِنَ الْأَهْوَازِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَوْا بِذَلِكَ ؛
حَتَّى تَوَرَّدُواكُمْ فِي بِلَادِكُمْ وَعُقُرْ دَارَكُمْ !

فَتَحَرَّكَ أَهْلُ فَارِسَ وَأَهْلُ الْأَهْوَازِ ، وَتَمَاقَدُوا وَتَمَاهَدُوا ، وَتَوَاتَقُوا عَلَى النَّصْرَةِ ،
وَجَاءَتِ الْأَخْبَارُ حَرْقُوصَ بْنَ زَهِيرٍ ، وَسَلْمَى وَحَرْمَلَةَ .

وَلَمَّا عَلِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابُ بِذَلِكَ كَتَبَ إِلَى سَعْدِ أَمِيرِ الْكُوفَةِ أَنْ ابْعَثْ
إِلَى الْأَهْوَازِ بَعْثًا كَثِيفًا مَعَ النَّمَانِ بْنِ مُقَرَّنٍ ، وَعَجَلٍ ؛ وَابْعَثْ سُؤَيْدَ بْنَ مَقْرَنٍ
وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ ذِي السَّهْمَيْنِ ، وَجَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحُمَيْرِيِّ وَجَرِيرَ بْنَ عَبْسَدِ اللَّهِ
الْبَجَلِيِّ ، فَلْيَنْزِلُوا بِإِزَاءِ الْهَرْمُزَانِ حَتَّى تَنْتَبِهَنُوا أَمْرَهُ .

وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى أَمِيرِ الْبَصْرَةِ أَنْ ابْعَثْ إِلَى الْأَهْوَازِ جُنْدًا كَثِيفًا ،
وَأَمْرًا عَلَيْهِمْ سَهْلُ بْنُ عَدَى ، وَعَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ جَمِيعًا أَبَاسِيرَةَ
ابْنِ أَبِي رُمْمٍ ، وَكُلَّ مَنْ أَتَاهُ مُمِدُّ لَهُ .

وَخَرَجَ النَّمَانُ بْنُ مُقَرَّنٍ فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَأَخَذَ وَسْطَ السَّوَادِ حَتَّى قَطَعَ دِجْلَةَ
بِحَيْلِ مَيْسَانَ ، ثُمَّ أَخَذَ الْبَرَّ إِلَى الْأَهْوَازِ ، وَانْتَهَى إِلَى نَهْرِ تَيْرِي فَجَاوَزَهُ ،
ثُمَّ جَاوَزَ مَنَازِيرَ ، وَسَوَّقَ الْأَهْوَازَ ، وَخَافَ حَرْقُوصًا وَسَلْمَى وَحَرْمَلَةَ ، ثُمَّ سَارَ نَحْوَ
الْهَرْمُزَانِ - وَالْهَرْمُزَانُ يَوْمُئِذٍ بِرَامْهَرْمَزَ .

* الطبري : ٤ - ٣١٤ . كان سنة ١١٧ : وتستر : أعظم مدينة بخوزستان .

وَمَا سَمِعَ الْهَرَمَزَانُ بِمَسِيرِ النِّعْمَانِ إِلَيْهِ بِأَدْرَهُ ، وَرَجَا أَنْ يَنَالَ مِنْهُ ، وَطَمَعَ فِي نَصْرِ أَهْلِ فَارَسٍ وَقَدْ أَقْبَلُوا نَحْوَهُ ، وَنَزَلَتْ أَوَائِلُ أُمْدَادِهِمْ بِتُسْتَرَ .

فَالْتَقَى النِّعْمَانُ وَالْهَرَمَزَانُ بِأَرْبُكِ^(١) وَاقْتَتَلَا قِتَالًا شَدِيدًا . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هَزَمَ الْهَرَمَزَانَ لِلنِّعْمَانِ ، وَأَخْلَى رَامِهرْمَزَ وَتَرَكَهَا وَلِحَقَّ بِتُسْتَرَ ، وَسَارَ النِّعْمَانُ مِنْ أَرْبُكٍ حَتَّى نَزَلَ بِرَامِهرْمَزَ فَأَقَامَ بِهَا .

وَمَا وَصَلَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ إِلَى سَوَاقِ الْأَهْوَازِ جَاءَهُمْ خَبَرُ الْوَاقِعَةِ ، وَأَنَّ الْهَرَمَزَانَ لِحَقَّ بِتُسْتَرَ ، فَمَالُوا نَحْوَهَا ، وَرَاغَ النِّعْمَانُ إِلَيْهَا مِنْ رَامِهرْمَزَ ، وَقَصَدَتْهَا الْمَسَالِحُ الَّتِي تَرَكَوْهَا خَلْفَهُمْ ، وَكَانَ عَلَيْهَا خَرْقُوصٌ وَجَزْءٌ ، وَلِحَقَّ بِهِمْ سَلْمُنٌ وَحَرْمَلَةٌ ، وَنَزَلَ جَمِيعُهُمْ عَلَى تُسْتَرَ ، وَبِهَا الْهَرَمَزَانُ وَجُنُودُهُ مِنْ أَهْلِ فَارَسَ ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ جَمِيعًا إِلَى عُمَرَ ، وَاسْتَمَدَّ أَبُو سَهْرَةَ ، فَأَمَدَّهُ بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، فِي جَمْعِ آخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ .

فَخَاصَرُوا الْفَرَسَ أَشْهُرًا ، وَأَكْثَرُوا فِيهِمُ الْقَتْلَ ، وَقَتَلَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ - فِيمَا بَيْنَ أَوَّلِ الْحَصَارِ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - مِائَةَ مُبَارِزٍ سِوَى مَنْ قَتَلَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ، وَفَعَلَ غَيْرُهُ كَثِيرُونَ مِنْ صُنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا فَعَلَ .

وَزَا حَفِيهِمُ الشَّرْكُونُ فِي أَيَّامِ تُسْتَرَ ثَمَانِينَ زَحْفًا فِي حِصَارِهِمْ ، يَكُونُ عَلَيْهِمْ مَرَّةٌ وَلَهُمْ أُخْرَى ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ زَحْفٍ مِنْهَا ، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : يَا بَرَاءُ ، أَقْسِمُ عَلَى رَبِّكَ لَا يَهْزِمُنَّهُمْ . فَقَالَ : أَلَا لَيْسَ مِنْهُمْ لَنَا وَاسْتَشْهِدْنِي .

فَهَزَمُوهُمْ ، حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ حِنَادِقَهُمْ ، ثُمَّ اقْتَضَمُوها عَلَيْهِمْ ، وَأَرْزَوْا^(٢) إِلَى مَدِينَتِهِمْ وَأَحَاطُوا بِهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ الْمَدِينَةُ ، وَطَالَتْ حَرْبُهُمْ خَرَجَ إِلَى النِّعْمَانِ رَجُلٌ فَاسْتَأْمَنَهُ عَلَى أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مَدْخَلٍ يَأْتُونَ مِنْهُ الْمَدِينَةَ ، وَيَكُونُ

(١) أَرَبُك : مَدِينَةٌ بِالْأَهْوَازِ . (٢) أَرْزَوْا إِلَى مَدِينَتِهِمْ : لَازُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهَا .

فيه فَتَحُهَا فَأَمَّنُوهُ ، فقال لهم : أنهدوا من قَبْلِ مَخْرَجِ الْمَاءِ ، فَإِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَهَا .
فَنَدَبَ النِّعْمَانُ أَصْحَابَهُ فَهَدَوْا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ لَيْلًا ، وَانْسَرَبَ
سُوَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَشَرٍ ، فَاتَّبَعَهُمْ هَؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ ؛ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا كَبَرُوا
وَكَبَرِ الْمَسَامُونَ خَلْفَهُمْ ، وَفُتِحَتِ الْأَبْوَابُ ، فَاجْتَدُوا فِيهَا ، وَأَصَابُوا مِنَ الْفُرْسِ
مُقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَأَرَزَ الْهَرْمُزَانُ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَطَافَ بِهِ الَّذِينَ دَخَلُوا مِنْ مَخْرَجِ الْمَاءِ ،
فَلَمَّا عَايَنُوهُ ، وَأَقْبَلُوا قَبْلَهُ قَالَ لَهُمْ : مَا شِئْتُمْ ! قَدْ تَرَوْنَ ضَيْقَ مَا أَنَا فِيهِ وَأَنْتُمْ ، وَمَعِيَ
فِي جَمْعِي مِائَةُ نَشَابَةٍ ، وَوَاللَّهِ مَا تَمِيلُونَ إِلَيَّ مَا دَامَ مَعِيَ مِنْهَا نَشَابَةٌ ، وَمَا يَقَعُ لِي
سَهْمٌ ؛ وَمَا خَيْرُ إِسَارِي إِذَا أَصَبْتُ مِنْكُمْ مِائَةَ بَيْنِ قَتِيلٍ أَوْ جَرِيحٍ ! قَالُوا : فَتَرِيدُ
مَاذَا ؟ قَالَ : أَضْعُ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ عَلَى حَكْمِ عَمْرِ ، يَصْنَعُ بَنِي مَا شَاءَ . قَالُوا : فَلَكَ
ذَلِكَ . فَرَمَى بِقَوْسِهِ ، وَأَمْسَكَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، فَشَدَّوهُ وَثَاقًا ، وَاقْتَسَمُوا مَا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ . فَكَانَ سَهْمُ الْفَارِسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَالرَّاجِلِ أَلْفًا .

وَجَاءَ مَنْ دَلَّهُمْ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : مَنْ لِي بِالْأَمَانِ الَّذِي طَلَبْتَهُ لِي وَلِنَ مَالٍ
مَعِيَ ؟ قَالُوا : وَمَنْ مَالَ مَعَكَ ؟ قَالَ : مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ مُدْخَلُكُمْ . فَأَجَازُوا ذَلِكَ
لَهُمْ ، وَقَتَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْلِيَّةً أَنْاسٌ كَثِيرٌ ، مِنْهُمْ حِزَابَةُ بْنُ ثَوْرٍ ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ
قَتَلَهُمَا الْهَرْمُزَانُ .

وَأَوْفَدَ أَبُو سَبْرَةَ وَفَدًا إِلَى الْبَصْرَةِ فِيهِمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ،
وَأَرْسَلَ الْهَرْمُزَانُ مَعَهُمْ ، ثُمَّ خَرَجُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا هَيَّئُوا الْهَرْمُزَانُ فِي
هَيْئَتِهِ ، فَأَلْبَسُوهُ كِسْوَتَهُ مِنَ الدِّيْبَاجِ الَّذِي فِيهِ الذَّهَبُ ، وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا
مُسَكَّنًا بِالْيَاقُوتِ ، وَعَلَيْهِ حِلْيَتُهُ كَمَا يَرَاهُ عَمْرُو وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَيْئَتِهِ . ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ
عَلَى النَّاسِ يُرِيدُونَ عُمَرَ . فِي مَنْزِلِهِ ، فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَسَأَلُوا عَنْهُ ، فَقِيلَ : جَلَسَ فِي

المسجد لوفدٍ قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطالبونه في المسجد ، فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بفلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : أتريدون أمير المؤمنين؟ إنه نائم في المسجد متوسد برأسه — وكان عمر قد جلس لوفدٍ أهل العراق في برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه نزع برأسه ثم توسده فنام .

فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جاسوا ذونه ، وليس في المسجد نائم ولا يمتطآن غيره ، والدرة في يده معلقة ، فقال الهرمزان : أين عمر؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الوفد يشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه . وأصغى الهرمزان إلى الوفد ، ثم قال : أين حرسه وحجابه؟ قالوا : ليس له حارس ، ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا ديوان : قال : فينبغي له أن يكون نبياً ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء .

وكثر الناس ، فاستيقظ عمر بالجلبة ، واستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان ! ثم تأمل ما عليه ، وقال : أعوذ بالله من النار ، وأستمعُ الله . وقال : الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هذا وأشياعه . يامعشر المسلمين ؛ تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدي نبيكم ، ولا تطيرونكم الدنيا فإنها غرارة فقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلمه ، فقال : لا ، حتى لا يبق عليه من حليته شيء ، فرمى عنه بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً .

فقال عمر : هيه ياهرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ! فقال : ياعمر ، إنا كنّا وإياكم في الجاهلية ، كان الله قد خلى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا في

الجاهلية باجتماعكم وتفريقنا ، ثم قال : ما عذرُك وما حُجَّتُك في انتفاذك مرّة بعد مرّة ؟ فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك . واستسقى ماء ، فأتي به في قدح غليظ . فقال : لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا . فأتي به في إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف ، وقال : إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء . فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفاه . فقال عمر : أعيذوا عليه ، ولا تجمعوا عليه القتل والمطش . فقال : لا حاجة لي في الماء ؛ إنما أردت أن أستمئن به . فقال له عمر : إني قاتلك . قال : قد أمنتني ، فقال : كذبت ! فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، قد أمنتته ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أو من قاتل بحزاة البراء ! والله للتأتين بمخرج أو لأعقبك . قال : قلت له : لا بأس عليك حتى تخبرني ، وقلت له : لا بأس عليك حتى تشربه ، وقال له من حوله مثل ذلك . فأقبل على الهرمزان وقال : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم ، فأسلم وفرض له على ألفين ، وأنزله المدينة .

٤٩ — يوم الشوس*

لما انتهى فلّ جُلُولاء إلى يزّ دجرد وهو بحُلوان دعا بخاصّته والموَبّد ، فقال :
إنّ القوم لا يَلْقَوْنَ سَجْمًا إِلَّا فُلُّوهُ ، فما تَرَوْنَ ؟ فقال الموَبّد : نرى أن تخرّج فتزل
إصطخر ، فإنّها بيتُ المملكة ، وتضمّ إليك خزائنك وتوجّهَ إليها الجنود .

فأخذ برأيه ، وسار ومنّ معه حتى نزّلوا إصطخر ؛ وأبو موسى محاصرُ الشوس ؛
فوجهَ سيّاه إلى الشوس والهرمزان إلى تُسْتَر .

وبلغ أهل الشوس أمرُ جُلُولاء ونزول يزّ دجرد إصطخر منهزمًا ، فسألوا
أبا موسى الصلح ، فصالحهم ، وسار إلى رامهرمز .

ولما علم سيّاه بذلك دعا الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من أصبهان وقال لهم :
قد علمتم أنّا كنّا نتحدّث أنّ هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيفلبون على هذه
المملكة ، وتروث دوابّهم في إيوانات إصطخر ومصانع الملوك ، ويشدّون خيولهم
بشجرها ، وقد غلبوا على ما رأيتم ، وليس يَلْقَوْنَ جندًا إِلَّا فُلُّوهُ ، ولا ينزلون
بمحضن إِلَّا فتحوه ، فانظروا لأنفسكم . قالوا : رأينا رأيك ، قال : فإنّي أرى أن
ندخل في دينهم .

ووجهَ شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى يأخذ شروطًا على أن
يدخلوا في الإسلام .

فقدم شيرويه على أبي موسى ؛ فقال : إنّنا قد رغبنا في دينكم فنُسَلِم ، على أن
نقاتل معكم المعجم ، ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحدًا من العرب منعمتمونا
منه ، ونزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتُلاحِقونا بأشرف العطاء ،

* الطبري ٤ : ٢١٨ . . كان سنة ١٧ . والسوس : بلد بخوزستان .

وَيَعْقِدُنَا الْأَمِيرُ الَّذِي فَوْقَكَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى : بَلِّغْكُمْ مَا لَنَا وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا ! قَالُوا : لَا نَرْضَى .

وَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ ، فَكَتَبَ عَمْرٌ إِلَى أَبِي مُوسَى :
أَعْطِهِمْ مَا سَأَلُوكَ . فَكَتَبَ لَهُمْ أَبُو مُوسَى ، فَأَسْلَمُوا وَشَهِدُوا مَعَهُ حِصَارَ ثُسْتَرٍ ،
فَلَمْ يَكُنْ أَبُو مُوسَى يَرَى مِنْهُمْ جِدًّا وَلَا نِيَايَةَ ، فَقَالَ لِسِيَاهُ : يَا أَعُورُ ، مَا أَنْتَ
وَأَصْحَابُكَ كَمَا كُنَّا نَرَى . قَالَ : لَسْنَا مِثْلَكُمْ فِي هَذَا الدِّينِ ، وَلَا بَصَائِرُنَا كَبَصَائِرِكُمْ ؛
وَلَمْ تُلْحِقْنَا بِأَشْرَفِ الْعِطَاءِ .

فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ : أَنْ أَلْحَقَهُمْ عَلَى قَدَرِ
الْبَلَاءِ فِي أَفْضَلِ الْعِطَاءِ وَأَكْثَرِ شَيْءٍ أَخَذَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ .

فَفَرَضَ لِمَائَتِهِ مِنْهُمْ فِي أَلْفَيْنِ أَلْفَيْنِ ، وَلِسِتَّةٍ مِنْهُمْ فِي أَلْفَيْنِ وَخَمْسَائَةٍ .

وَحَاصَرُوا حِصْنَ بَفَارِسَ ، فَانْسَلَّ سِيَاهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ فِي زِيٍّ الْعَجْمِ حَتَّى رَمَى
بِنَفْسِهِ إِلَى جَنْبِ الْحِصْنِ ، وَنَضَحَ رِيَابَهُ بِالدَّمِ . وَأَصْبَحَ أَهْلُ الْحِصْنِ ، فَرَأَوْا رَجُلًا
فِي زِيٍّ صَرِيحًا ، فَظَنُّوا أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أُصِيبُوا بِهِ ، فَفَتَحُوا بَابَ الْحِصْنِ لِيُدْخِلُوهُ ؛
فَنَارَ وَقَاتَلَهُمْ حَتَّى جَلَوْا عَنْ بَابِ الْحِصْنِ وَهَرَبُوا ، فَفَتَحَ الْحِصْنَ وَحْدَهُ ، وَدَخَلَهُ
الْمُسْلِمُونَ .

٥٠ - يوم نهاوند

قال عُمرُ لوفدِ أهلِ البصرة : لعلَّ المسلمين يُفَضُّون إلى أهلِ الذمَّةِ بأذى ، وبأمورٍ لها ينتقضون بكم ، فقالوا : ما نعلمُ إلَّا وفاءً وحُسْنَ مَلَكة ، قال عمر : فما بالهم يَنْتَقِضُونَ ! فلم يَجِدْ عندَ أَحَدٍ منهم جوابًا يشفيه إلَّا ما كان من الأُخفِ ابنِ قيسٍ إذ قال : يا أميرَ المؤمنين ، أَخْبِرْكَ ، أَنَّكَ نَهَيْتَنَا عن الانسياحِ في البلادِ ، وأمرتنا بالاعتصارِ على ما في أيدينا ، وإنَّ مَلِكَ فارسٍ حثَّ بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يُسَاجِلُونَنَا ما دامَ مَلِكُهم فيهم ، ولم يجتمع مَلِكُكان فاتفقا حتى يُخْرِجَ أحدهما صاحبه ؛ وقد رأيتَ أَنَّا لم نأخذ شيئًا بَمَدٍّ إلَّا بانبعاشهم وتغديرهم ، وإنَّ مَلِكهم هو الذي يَبْعَثهم ، ولا يزالُ هذا دأبهم حتى تأذنَ لنا فَنَسِيحَ في بلادهم ، ونُزِيلَ مَلِكهم ، ونُخْرِجَه من مملكته وعِزِّ أُمته ، فهناك يَنْقَطِعُ رجاءُ أهلِ فارس .

فقال عمر : صدقتني والله ، وشرحت لي الأمر على حَقِّه . ثم نظر في حوائجهم وسرَّحهم .

وجاء الخبرُ عمرَ أن أهلَ فارس كَاتَبُوا مَلِكهم يَزِدُّ جرد وهو يومئذٍ بِمَرْوَ^(١) ليكونَ على رأسِ حركتهم حتى يجتمع الناسُ وينضموا تحت لوائه ، فلما جاءته السُّبُ ، ورأى فيها اجتماعَ كلمةِ الفرس وشدةَ حماسَتهم لدفعِ عدوِّه وعدوِّهم تبدَّلَ

* للتميم بن مِقرن على الفرس . . كان سنة ٢١ ، ونهاوند : من بلادِ الفرس ، قرب همدان الطبري ٤ : ٢٣٩ ، معجم البلدان ٨ : ٣٢٩ .

(١) كان يزدجرد قد اضطرَّ في أرجاءِ فارس منذ فر من المدائن ثم استقر في مرو .

يأسه أملاً، واضطرابه طمأنينة، فكتب أهل الجبال وسائر الولايات والبلاد في مملكته يشجعهم ويدعوهم إلى قتال العرب ، فتحرّكوا وتكاتّبوا^(١) ، وركب بعضهم إلى بعض ، وأجمعوا على تلبية نداء الملك ، وبعث كل أمير جنده إلى نهاوند ، حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً ، واجتمعوا بإمرة الفيرزان .

فلما اجتمعوا عنده قل لهم : إن عمر لَمَّا طال مُلكه انتهك حرمةً وأخذ بلادنا ، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا في عُقْرِ دارنا ، وأخذ بيت المملكة ، وهو آتيكم إن لم تأتوه ، وليس بمنته حتى تخرجوا من بلادكم من جنده . ونقل الأمراء حديثه إلى جنودهم ، فاشتعلت حماسهم .

وكان سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر : يقال : إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح ، وكان عمر منهم من ذلك ، فلما بلغه تجمع الفرس شخص إليه بالخبر مشافهة ، بعد أن استخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبة على الكوفة .

ثم لم يلبث عبد الله أن كتب إلى عمر يقول : إن أهل فارس قد تجمعوا ، فإن جاءونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم .

والا تواتت الأخبار والرُّسُل عند عمر أخذ يفكر في أمر الفرس ، فبدأ باستشارة الهرمزان ، وقال له : انصح لي ، فإنك أعلم بأهل فارس ، قال : نعم ! إن فارس اليوم رأس وجناحان . قال له : فأين الرأس ؟ قال : بنهاوند ، ثم ذكر موضع الجناحين وقال : الرأي عندي يا أمير المؤمنين أنك إن تقطع الجناحين يرسن الرأس . فقال

(١) تكاتبوا : كتب بعضهم إلى بعض

عمر : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ! بَلْ أَعْمِدُ إِلَى الرَّأْسِ فَأَقْطَعُهُ فَإِذَا قَطَعَهُ اللَّهُ
يَمُصُّ الْجَنَاحَانَ .

ثم أراد أن يَسِيرَ بِنَفْسِهِ ، فَقَالُوا لَهُ : نَذْكُرُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَسِيرَ بِنَفْسِكَ
إِلَى حَلَبَةِ الْعَجَمِ ، فَإِنْ أَصِيبْتَ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ نِظَامٌ .

فَرَأَى أَنْ يَسْتَشِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمْعٍ عَامٍ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى فِي النَّاسِ : الصَّلَاةُ
جَامِعَةٌ ! فَاجْتَمَعَ النَّاسُ ، وَقَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَأَخْبَرَ النَّاسَ الْخَبْرَ وَاسْتَشَارَهُمْ وَقَالَ : هَذَا
يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ ؛ أَلَا وَإِنِّي قَدْ هَمَمْتُ بِأَمْرٍ ، وَإِنِّي عَارِضُهُ عَلَيْكُمْ فَاسْمَعُوهُ ، ثُمَّ
أَخْبِرُونِي وَأَوْجِزُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَلَا تُسَكِّرُوا وَلَا
تُطِيلُوا فَيَأْتِيَكُمُ الرَّأْيُ ، أَوْ مَنِ الرَّأْيُ أَنْ أَسِيرَ فِيمَنْ قَبْلِي وَمَنْ قَدَّرْتُ عَلَيْهِ
حَتَّى أُنْزَلَ مِنْزَلًا وَسَطًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمِصْرَيْنِ ، فَاسْتَنْفِرْهُمْ ، ثُمَّ أَكُونَ لَهُمْ رِدًّا حَتَّى
يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَقْضَى مَا أَحَبُّ ؟

فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ ، وَتَشَعَّبَتْ بَيْنَهُمُ الْآرَاءُ ، ثُمَّ قَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ
قَالَ : أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أَحْكَمْتُكَ الْأُمُورَ ، وَتَجَمَّعَتْكَ الْبَلَايَا ، وَأَنْتَ وَشَأْنُكَ ،
وَأَنْتَ وَرَأْيُكَ ؛ لَا نَنْبُو فِي يَدَيْكَ ، وَلَا نَكِلُ عَلَيْكَ . إِلَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ ، فَمَرُّنَا
نُطِيعُ ، وَادْعُنَا نَجِيبُ ؛ فَإِنَّكَ وَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ ، وَقَدْ بَلَوْتَ وَجَرَّبْتَ وَاخْتَبَرْتَ ، فَلَمْ
يَنْكُشْ شَيْءٌ مِنْ عَوَاقِبِ قَضَاءِ اللَّهِ لَكَ إِلَّا عَنْ خِيَارٍ . ثُمَّ جَلَسَ .

فَعَادَ عُمَرَ فَقَالَ : إِنْ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ فَتَكَلَّمُوا .

فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ فَتَشَهَّدَ وَقَالَ : أَرَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ تَكْتُبَ إِلَى أَهْلِ
الشَّامِ فَيَسِيرُوا مِنْ شَأْمِهِمْ ، وَتَكْتُبَ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ فَيَسِيرُوا مِنْ يَمَنِهِمْ . ثُمَّ تَسِيرُ

أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصيرين ، فتلقى جمع المشركين يجمع المسلمين ، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك ، قل في نفسك ما قد تكاثرت من عدد القوم ، وكنت أعزّ عزاً وأكثراً . يا أمير المؤمنين ، إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية ، ولا تمنع من الدنيا بعزير ، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ؛ فاشهده برأيك وأعوأناك ، ولا تنب عنه . ثم جلس .

فماد عمر فقال : إن هذا يوم له ما بعده من الأيام . فتكلموا .

فقيام على بن أبي طالب فقال : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شأنهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإن أشخصت أهل اليمن من بينهم سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون مائدع وراءك أهم مما بين يديك من العورات والعيالات .

أقرّر هؤلاء في أمصارهم ، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق : فائقر فرقة لهم في حرّمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ، ولتسير فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم . إن الأعاجم إن ينظروا إليك قالوا : هذا أمير العرب وأصل العرب ، فيكون ذلك أشدّ لكتابهم ، فيتألبوا عليك .

وأما ما ذكرت من مسير القوم ، فإن الله أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم ، فإننا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة ، ولكننا كنّا نقاتل بالنصر ، فأقيم مكانك .

فقال عمر : أجل والله ، لأن شخصت من البلدة لتنتقض على الأرض من

أطرافها وأكفافها ، ولئن نظرت إلى الأعاجم ليمدّهم من لم يمدّهم ، وليقولنّ :
هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتهموه اقتطعتهم أصل العرب . فأشيروا على رجل أوله
ذلك الثغر غدا .

قالوا : أنت أفضل رأيا ، وأحسن مقدرة . قال : أشيروا على به ، واجعلوه عراقيًا .
قالوا : يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم بأهل العراق ، وجندك قد وفّدوا عليك ،
ورأيتمهم وكأمتهم . فقال : أما والله لأؤلّبنّ أمرهم رجلاً ، ليكوننّ أول
الأسنة إذا لقيها غدا ، ف قيل : من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مقرّن .
فقالوا : هو لها !

فكتب عمر إلى النعمان - وكان على الخراج بكسكّر^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمراً أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرّن : سلام
عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه بلغني أن جوعاً من
الأعاجم كثيرة قد جُمعوا لكم بمدينة سهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسرّ بأمر الله
وبمؤن الله ، وبنصر الله بمنّ معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعرّاً فتؤذيهم ، ولا
تمنعهم حقهم فتسكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة^(٢) ، فإن رجلاً من المسلمين أحبّ إلى
من مائة ألف دينار ، والسلام عليك .

ثم كتب لأهل الكوفة أن يوافوا النعمان وعليهم خذيفة بن اليمان ، وكتب
لأبي موسى أن يسير بأهل البصرة ، وأرسل إليه جوعاً من المدينة فيهم عبد الله
ابن عمر .

(١) كسكر : كورة قصبتها واسط .

(٢) الغيضة : الأجمة أو مجتمع الشجر في مغيض ما .

ثم كتب للنعمان : إن حدث بك حدث فعلى الناس خذيفة بن اليمان ، فإن حدث بخذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن .

وبعث السائب بن الأقرع - وكان رجلاً كاتباً حاسباً - فقال له : الحق بهذا الجيش فكُنْ فيهم ، فإن فتح الله عليهم فاقسيم على المسلمين فيئتهم ، وخذُ خمسَ الله وخمسَ رسوله ، وإن أصيب هذا الجيش فاذهب في سوادِ الأرض ، فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

وكتب إلى سلمى بن القَيْن وحرمة بن ربيعة ، وأمراء الجند الذين كانوا بين فارس والأهواز : أن اشغلوا فارسَ عن إخوانكم ، وحُوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتِيكم أمرى .

فقطعوا بذلك على أهل نهاوند أمّداد فارس .

وجاء أهل الكوفة فوافوا النعمان ومعهم كتابٌ من عمر وفيه : إن معك حدّ العرب ورجالهم في الجاهلية ، فأخذخلهم دون مَنْ هو دوتهم في العلم والحرب واستعين بهم ، وسَلَّ طليحة بن خويلد الأسديّ وعمرو بن أبي سلمى الغزّيّ وعمرو ابن معديكرب الزبيديّ ، ولا تولّهم شيئاً .

واجتمعت جموعُ الفرس ، وأرسل بُندار - وكان من أغلاجهم - أن أرسلوا إلينا رجلاً نُكلّمه ، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة .

قال المغيرة في خبره : لما دخلت على بُندار علمت أنه قد استشار أصحابه ، فقال : بأى شئ نأذن لهذا العربيّ ؟ بِشارتنا وبهجتنا ومُلكنا ، أم نتقشّف له فيها قبلنا حتى يزهد؟ قالوا : بل بأفضل ما تكونُ الشّارة والعُدّة ؛ فتهيئوا بها .

فلما أتيَتْهم رأيتُ حُرّاسه بحرابهم التى تلمع ، كأنّهم الشياطين ؛ وإذا هو على سرير من ذهب ، على رأسه التاج .

قال : فضيت كما أنا ، ونكست ، ثم دُفعت ومُهِنَتْ . فقلت : الرسل لا يُفعل بهم هذا ، فقالوا : إنما أنت كلب ، فقلت : معاذ الله ! لأننا أشرفُ في قومي من هذا في قومه : فأنتهروني ، ثم قالوا : اجلس ، وأجلسوني . فقال لي - والترجمان بيننا - : إنكم معشر العرب أبعدُ الناس من كل خير ، وأطول الناس جوعاً ، وأشق الناس شقاءً ، وأقذر الناس قدراً ، وأبعدهم داراً ، وما معنى أن أمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالشباب إلا تنجسوا لجيفكم ، فإنكم أرجاس ، فإن تذهبوا نحل عنكم ، وإن تأبوا نركم مصارعكم .

قال النيرة : فحمدت الله وأثنت عليه ، وقلت : والله ما أخطأت من صِفَتِنَا شيئاً ولا من نَمَتِنَا ، إنا كُفّا أبعد الناس داراً ، وأشد الناس جوعاً ، وأشقى الناس شقاءً ، وأبعد الناس من كل خير ، حتى بعث الله إلينا عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم ، فوعدنا النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ؛ فوالله ما زلنا نتعرف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإننا والله لا نرجعُ إلى ذلك الشقاء أبداً حتى تغلبكم على ما في أيديكم ، أو نُقتل بأرضكم ، ثم قت وقد أَرَعَبْتُ المِلج .

ثم أمر النعمانُ بن مُقرِّن بالتَّبِيْة ، فسارت جيوشُ المسلمين حتى التقوا بالفرس وجهاً لوجه .

فلما رآهم النعمانُ كَبَّرَ وكَبَّرَ الناسُ معه ، مما أوقع الرعبَ في قلوب الأعاجم . فأمر النعمانُ بحطِّ الأثقال وبضرب الفُسْطَاطِ ، فضربَ وهو واقف ، وتعاونَ على بنائه أشرافُ أهل الكوفة .

وأنشَبَ النعمانُ القتالَ بعد ما حطَّ الأثقال ، فاقتتلوا يومين والحربُ بينهم في ذلك

سِجَال . ثم انجَحَرَ الأعاجمُ في خنادقهم ، وحصرهم المسلمون ، فأقاموا فيها ماشاء الله ؛ لا يخرجون إلا إذا أرادوا الخروج .

فاشتدَّ ذلك على المسلمين ، وخافوا أن يطول أمرهم ، حتى إذا كان ذات يوم في جُمعة من الجمع تَجَمَّع أهلُ الرأى من المسلمين ، فتكلَّموا وقالوا : نَرَاهُمْ علينا بالخيار ^(١) .

وأتوا النعمان في ذلك ، فوافقوه وهو يروى ^(٢) في الذي رَوَّوا فيه ؛ فقال : على رِسلكم لا تبرحوا . وبعث إلى مَنْ بقى من أهل النجيدات والرأى في الحروب ، فتوافوا إليه .

فتكلم النعمان وقال : قد تَرَوْنِ المشرَكين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وأَنَّهُمْ لا يخرجون إلا إذا شاءوا ، ولا يقْدِرُ المسلمون على إخراجهم وانبعاشهم قبل مشيئتهم ، وقد تَرَوْنِ الذى فيه المسلمون من الضيق لذلك ، فما الرأى الذى به نستخرجهم إلى النابذة ^(٣) وترك التطويل ؟

فتكلم عمرو بن مُبَيَّ - وكان أكبر الناس يومئذ سنًا ، وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان - فقال : التحصن عليهم أشدُّ من المطاولة عليكم ، فدعهم ولا تُخرجهم ، وطاولهم ، وقابل مَنْ أتاكَ منهم . فردُّوا عليه جميعاً رأيه ، وقالوا : إنَّا على يقين من إنجازِ رَبَّنَا موعده لنا .

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال : ناهدْهم وكاثِرْهم ولا تخفْهم . فردُّوا عليه جميعاً رأيه ، وقالوا : إننا نناطح بنا الجُدُران ، والجُدُرانُ كَهْمُ أعوان علينا .

وتكلم طليحة الأسدي ؛ فقال : قد قالوا ولم يُصيبا ؛ وأما أنا فأرى أن

(١) كانوا معتصمين بالحصون من المنداق والمدائن ويخرجون متى شاءوا .

(٢) يروى : يفكر (٣) النابذة : المكاشفة .

تبعث خيلاً مؤدبة ، فيجدقوا بهم ويرموهم لينشَبوا القتال ويحمشوهم^(١) ؛ فإذا استَحَمَّشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أَرْزَوْا^(٢) إلينا استظرادا ؛ فإننا لم نستطرد لهم في طول ماقاتلتناهم . وإننا إذا فَعَلْنَا ذلك ، ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ، ولم يشكروا فيها ، فخرجوا فجَادُونَا وجَادُونَاهُمْ ؛ حتى يَقْضِيَ الله فينا وفيهم ما أحب ، فوافقوه على رأييه .

وأمر النعمان القَعْقَاع بن عمرو - وكان على المجرَّة - فَأَنْشَبَ القتال بعد احتجاز من المعجم ؛ فلما خرجوا نكص ثم نكص ثم نكص ؛ واغتنمها الأعاجم ؛ ففعلوا كما ظنَّ طَلِيحَة ؛ وخرجوا ، فلم يبق أحدٌ إلّا من يقوم لهم على الأبواب ، وانقطعوا عن حصنهم بعض الانقطاع ؛ والنعمان بن مقرن والمسلمون على تمبيتهم في يوم جمعة في صدر النهار ، وقد عهد النعمان إلى الناس عَهْدَهُ ، وأمرهم أن يَلْزَمُوا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يَأْذَنَ لَهُمْ ، ففعلوا . وأقبل المشركون عليهم يَرْمُونَهُمْ حتى أَفْشَوْا فيهم الجراحات ، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض ، ثم قالوا للنعمان : ألا ترى ما نَحْنُ فيه ؟ ألا ترى إلى ما لَقِيَ الناسُ ؟ فما تَنْتَظِرُ بهم ! ائْذَنَ للناس في قتالهم .

فقال لهم النعمان : رُوَيْدَا رويدا . وقالوا له ذلك مرارا ، فأجابهم بمثل ذلك مرارا ؛ رُوَيْدَا رويدا . فقال المغيرة حين رأى كَثْرَتَهُمْ : لم أركاليوم فشلا ؛ لو أن هذا الأمرَ إلىّ علمتُ ما أصنع ، فقال النعمان - وكان رجلاً ليلاً : رويداً تَرَأَمْرُكُ ؛ وقد كنت تَلِي الأمر فتُحْسِنُ ؛ فلا يَحْذِلْنَا الله ولا إياك ؛ ونحن نرجو في المَكْتِ مثل الذي نرجو في الحَث .

(١) يحمشونهم : يفضبونهم ويدفعونهم إلى القتال . (٢) أَرْزَوْا إلينا : رجعوا لاجئين وتجمعوا .

وجعل النّمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى فيها العدوّ وذلك عند الزّوال وتفقيؤ الأفياء ومهبّ الرياح . فلما كان قريبا من تلك الساعة تَحَشَّشَ^(١) النّمان . وسار في الناس على بردونٍ أخوَي^(٢) قريب من الأرض ؛ فجعل يقف على كلِّ رآيةٍ ، ويحمد الله ويشني عليه ، ويقول : قد علمتم ما أعزّكم الله به من هذا الدّين ، وما وعدكم من الظّهور ، وقد أنجز لكم هَوَادِي ما وعدكم وسُدُورَه ؛ وإِنَّمَا بَقِيَتْ عَجَازُهُ وَأَكْرَعُهُ ؛ والله مُنْجِزٌ وَعْدَه ، ومُتَّبِعٌ آخر ذلك أوّلَه ، واذكروا ما مَضَى إِذْ كنتم أَذِلَّةٌ ، وما استقبلكم من هذا الأمر وأنتم اعزّة ؛ فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ عِبَادُ اللَّهِ حَقًّا وَأَوْلِيَاؤُهُ ، وقد علمتم انقطاعكم عن إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزّكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذلتكم ، وقد ترون مَنْ أَنْتُمْ بِإِزَانِهِ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وما أَخْطَرْتُمْ وما أَخْطَرُوا لكم^(٣) ؛ فَأَمَّا مَا أَخْطَرُوا لكم فهذه الرّثّة^(٤) ، وما ترون من هذا السّواد ، وأما ما أَخْطَرْتُمْ لهم فدينُكم وبَيْضَتُكم ؛ ولا سواء ما أَخْطَرْتُمْ وما أَخْطَرُوا ؛ فلا يكونَنَّ على دنياهم اتّحى منكم على دينكم ، واتّقى الله عبدا صدق الله وأبلى فأحسن البلاء ، فإنكم بين خير منتظرين به إحدى الحسينين ، من بين شهيد حتى مرزوق أو فتوح قريب وظفر يسير ، فسكفي كلّ رجل منكم ما يليه ، ولم يكِلْ قِرْنَه إلى أخيه ، فيجتمع عليهم قِرْنُه وقرن نفسه وذلك من الملامّة ، وقد يقاتل الكلبُ عن صاحبه ، فكلُّ رجل منكم مُسَاطٌ على ما يليه ، فإذا قضيتُ أمرى فاستعدّوا ، فإنّي مُكَبَّرٌ ثلاثا ، فإذا كَبُرَتِ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَى فَلْيَتَهَيَّأْ مَنْ لَمْ يَكُنْ تَهَيَّأً ، فإذا كَبُرَتُ الثَّانِيَةَ فَلْيَشْدَدْ عَلَيْهِ سِلَاحَهُ ، وليتأهب للنهوض ، فإذا كَبُرَتُ

(١) تمحشش : تحرك . (٢) أخوَي : أسود ضارب إلى الخضرة ، أو أحمر ضارب إلى السّواد

(٣) أَخْطَرُوا المال : جعلوه خطرا بين المتراهبين .

(٤) الرّثّة : السقط من متاع البيت .

الثالثة فإني حاملٌ إن شاء الله ، فاحملوا معاً ، اللهم أعزّ دينك ، وانصرّ عبادك ،
واجمل النّعمان أوّل شهيدٍ اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك !
فلما فرغ النّعمان من التّقدّم إلى أهل المواقف ، وقضى إليهم أمرهم رجع إلى موقفه ،
فكبر الأولى والثانية والثالثة ، والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة .
وحمل النّعمان وحمل الناس ، وراية النّعمان تنقضّ نحوهم انقضاض العقاب ،
والنّعمان معلّمٌ ببياض القباء والقلنسوة ، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، لم يسمع
السامعون بوقعة يوماً قطّ كانت أشدّ منها .

فقتلوا فيها من أهل فارس بين الزّوال والإعتام ، ما طبّق أرض المعركة دماً
يزلّقُ الناسُ والدوابُّ فيه ، وأصيب فرسانٌ من فرسان المسلمين في الزّلق في
الدماء ، فزلق فرس النّعمان فصريع ، وأصيب النّعمان حين زلق به فرسه وصريع ،
وتناول زاية نعيم بن مقرّن أخوه قبل أن تقع ، وسجّى النّعمان بثوب ، وأتى
حذيفة بالراية فدفعها إليه - وكان اللّواء مع حذيفة - فجعل حذيفة نعيم بن مقرّن
مكانه ، وأتى المكان الذي كان فيه النّعمان فأقام اللّواء ، وقال المفيرة : اكتموا مصاب
أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم ؛ لكيلا يهين الناس .

واقتلوا ، حتى إذا ظلمهم الليلُ انكشف المشركون . ومات منهم مائة ألفٍ أو
يزيدون ، ولم يُفلت إلا الشريد ، ونجّى الفيرزان وهرب نحو همدان . وراه نعيم
ابن مقرّن ، فدفع القمقاع في أثره ، فأدركه حين انتهى إلى ثلّة همدان ، والثّنية مشحونة
من بغال وحير ، موقرة عسلاً عاقته عن الهرب ، وحبسته ، فقتل على الثّنية بعدما
امتنع ، وقال المسلمون : إن لله جنوداً منها العسل .

ومضى الفلّال^(١) حتى انتهوا إلى مدينة همدان ، والخيلُ قي آثارهم ، فدخلوها
فنزّل المسلمون عليهم وحوّوا ما حوّوها .

(١) الفلّال : الجماعة المنهزمون .

ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين نَهَاوَنَد ، واحتَوُوا ما فيها وما حولها ،
وقسَّم حذيفة بن اليمان بَيْنَ الناس غنائمهم ، فكان سهم الفارس ستة آلاف ،
والرَّاجِل ألفين ، ونَقَلَ مَنْ شَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاءِ ، ورفع ما بقى مِنَ الْأَخْمَاسِ
إِلَى السَّائِبِ صَاحِبِ الْأَقْبَاضِ ، لِيَبْلُغَهَا إِلَى عُمَرَ ، وَيَبْشُرَهُ بِالْفَتْحِ .

قال السَّائِبُ : فلما فتح الله على المسلمين نَهَاوَنَد أَصابوا غنائمَ عَظَمًا ،
فوالله إني لَأَقْسِمُ بَيْنَ الناسِ إِذْ جَاءَنِي عِلْجٌ مِنْ أَهْلِهَا ، فقال : أَتُؤْمِنُنِي عَلَى نَفْسِي
وَأَهْلِي وَأَهْلِي بَيْتِي ، عَلَى أَنْ أَذُوكَ عَلَى كَدُوزِ آلِ كَسْرَى ، تَكُونُ لَكَ وَلِصَاحِبِكَ ،
لَا يَشْرَكَكَ فِيهَا أَحَدٌ ؟ قلت : نعم ، قال : فَأَبْمَثُ مَعِيَ مِنْ أَذْلِهِ عَلَيْهَا . فَأَتَى
بِسَفَطَيْنِ^(١) ، عَظِيمَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا إِلَّا اللَّوْلُؤُ وَالزَّبْرَجَدُ وَالْيَاقُوتُ . فلما فَرَغْتُ
مِنْ قَسَمِي بَيْنَ الناسِ احْتَمَلْتُهُمَا مَعِيَ ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ . فقال :
ما وراءك يَا سَائِبُ ؟ فقلت : خَيْرٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِأَعْظَمِ الْفَتْحِ ،
وَاسْتَشْهَدَ النِّعْمَانُ بْنُ مُقَرَّرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون !
ثُمَّ بَكَى فَتَشَجَّ أَشَدَّ نَشِيجٍ . ثُمَّ قَامَ لِيَدْخُلَ ، فَقُلْتُ : إِنَّ مَعِيَ مَا لَا عَظِيمًا قَدْ جِئْتُ بِهِ .
ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ خَبَرَ السَّفَطَيْنِ . فقال : أَذْخِلُهُمَا بَيْتَ الْمَالِ حَتَّى نَنْظُرَ فِي شَأْنِهِمَا ،
وَالْحَقُّ بِجُنْدِكَ .

قال : فَأَدْخَلْتُهُمَا بَيْتَ الْمَالِ وَخَرَجْتُ سَرِيمًا إِلَى الْكَوْفَةِ .

قال السَّائِبُ : وَبَاتَ عُمَرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي خَرَجْتُ فِيهَا ؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ بَعَثَ
فِي أَثَرِي رَسُولًا ، فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَكَنِي حَتَّى دَخَلْتُ الْكَوْفَةَ ، فَأَنْخَتُ بِمِيزِي وَأَنَاخَ
بِعِيرِهِ مَعِيَ . فقال : الْحَقُّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ بَعَثَنِي فِي طَلَبِكَ ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكَ
إِلَّا الْآنَ .

(١) السفط : كالجواني أو كالفقة .

قال السائب له : وَيَلَّكَ ! ماذا ؟ ولماذا ؟ قال : لا أَذْرِي والله . فركبتُ معه حتى قدمت عليه . فلما رآني قال : مالي ولا بن أم السائل ! بل ما لابن أم السائب ومالي !

قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : وَيَحَكَ ! والله ما هو إلا أن نِمتُ في اللَّيْلَةِ التي خرجتُ فيها ، فباتت ملائكتُ ربي تَسَحَّبُنِي إلى ذينك السَّفَطَيْنِ يَشْتَعِلَانِ ناراً ، يقولون : لِفَكْوَيْنِكَ بهما ؟ فأقول : إني سأقسمهما بين المسلمين . فخذُهما عَنِّي لا أَبَا لَكَ ! والحق بهما ، فبعمهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم .

قال السائب : فخرجتُ بهما حتى وضعتُهما في مسجد الكوفة ، وغشيتُني التجار ، فابتاعهما مني عمرو بن حُرَيْثِ الحِزْوَميّ بألفي ألف ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم ، فباعهما بأربعة آلاف ألف ، فزال أكثر أهل الكوفة ما لا بعد .

٥١ - يوم الجمل*

لما قُتِلَ عُثْمَانُ^(١) ، رضى الله عنه اجتمع أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ، وفيهم طلحة^(٢) والزبير^(٣) ، وأتوا عليًّا ، وقالوا له : إنه لا بدَّ للناس من إمامٍ ، فقال : لا حاجةَ لى في أمركم ، فمن اختَرْتُم رَضِيتُ به . فقالوا : ما نختارُ غيرك ، وتردّدوا إليه مراراً ، وقالوا له في آخر الأمر : إنا لا نعلمُ أحداً أحقَّ به منك ، ولا أقدمَ سابقةً ، ولا أقربَ قرابةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : لا تفعلوا ، فإننى أكونُ وزيراً خيراً من أن أكونُ أميراً . فقالوا : والله ما نَحْنُ بفاعلين حتى نُبايعك ، قال : ففى المسجد ، فإن بيعةً لا تكون خفيةً ، ولا تسكونُ إلّا فى المسجد .

فخرج إلى المسجد ، وعاليه إزارٌ وعمامةٌ خزّ ، مثوكةً على قوسٍ ، فبايعه الناس ،

* تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٢ ، تاريخ ابن الأثير ٣ : ٩٤ ، تاريخ ابن كثير ٧ : ٢٢٥ . كان فى سنة ٣٦ .

(١) قتل عُثمانُ لثمانى عشرة ليلة خات من ذى الحجة سنة ٣٥ .

(٢) هو طلحة بن عبيد الله القرشى النخعى ، المعروف بطلحة الفياض . أسلم على يدى أبى بكر الصديق ، ثم هاجر إلى المدينة ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى أيوب الأنصارى ، وشهد المشاهدة كلها مع رسول الله لا بدراً ، فإنه كان بالشام لتجارة ، وكانت له فى أحد اليد البيضاء ، وشأت يده بها حينما وقى بها رسول الله ، فلما كانت قضية عُثمان اعتزل عنه ، وقتل يوم الجمل وعمره ستون عاماً : ابن كثير ٧ : ٢٤٧ .

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى ، أسلم وعمره خمس عشرة سنة ، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وآخى رسول الله بينه وبين سامة بن سلامة ، وشهد المشاهدة كلها مع رسول الله ، وصحب أباً بكر فى خلافته وأحسن صحبته ، وخرج مع الناس مجاهداً وشهد اليرموك وله فى ذلك اليوم بلاء مشهور ، ودافع عن عُثمان فى حصاره ، وفى يوم الجمل ذكره على بأمر كان بينهما عند الرسول ، فاعتزل القتال ، وكر راجعاً إلى المدينة فقتله عمرو بن جرموز ، ولما سمع على بذلك حزن عليه ، ابن كثير ٧ : ٢٤٨ .

(٢١ - أيام العرب فى الإسلام)

وكان أول من بايعه طلحة بن عبيد الله ، فنظر إليه حبيب بن ذؤيب ، فقال :
إنا لله ! أول من بدأ بالبَيْعة يده سلاء ! لا يتم هذا الأمر . وبايعه الزبير .
فقال لها عليّ : إن أحببتهما أن تباعاني ، وإن أحببتما بايعتكما ، فقالا :
بل نباعك .

وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع ، فقال : لا أباع حتى يبايع الناس ،
والله ما عليك منى بأس ، فقال عليّ : خلّوا سبيله .

وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال : لا أباع حتى يبايع الناس ، قال له عليّ :
انتهى بحميل^(١) ، قال : لا أرى لك حميلاً ، قال الأشتر : خلّ عني أضرب عنقه ،
قال عليّ : دعوه ؛ أنا حميلته ، إنك ما علمت لسيّئ الخلق صغيراً وكبيراً .
وتخلف عنه جماعة من الأنصار ، وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام .

ولما تمت البيعة ، ورجع إلى بيته ، دخل عليه طلحة والزبير في عدد من الصحابة
فقالوا : يا عليّ ، إنا قد اشتراطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا
في قتل هذا الرجل ، فقال لهم : إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع
بقوم يملكوننا ولا يملكونهم ! ها هم أولاء قد ثارت معهم غبداؤكم ، وثابت إليهم
أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء
مما تريدون ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله ، لا أرى لكم إلا رأياً ترونه إن شاء الله ،
إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن هؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم يشرع
شرية قط فيهرج الأرض من أخذ بها .

(١) الحميل : الكفيل .

إنَّ الناس من هذا الأمر - إن خُركَ - على أمور : فرقة لا ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب موافقها ، وتؤخذ الحقوق ، فاهدوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا .

ثم اشتد على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج ، وبخاصة حينما علم بهرب بنى أمية . وتفرق القوم ، بعضهم يقول : والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، لترك هذا إلى ما قال عليّ أمثل ، وبعضهم يقول : نقضى الذى عايناه ولا نؤخره ، والله إن علياً لمستغن برأيه ، وأمره عناد ، لا نراه إلا سيكون على قريش أسد من غيره .

ثم رأى عليّ أن يكون أول أعماله عزل جميع ولادة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار ، وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أولاً وابن عباس ثانياً ، فأبى ذلك إباء تاماً .

قال ابن عباس : دعاني عثمان فاستعملني على الحج ، فخرجت إلى مكة ، فأقمت للناس الحج ، وقرأت عليهم كتاب عثمان إليهم ، ثم قدمت المدينة ، وقد بويع لعليّ ، فأتيته في داره ، فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به ، فحبسني حتى خرج من عنده ، فقلت : ماذا قال لك هذا ؟ فقال : قال لي قبل مرّته هذه : أُرسل إلى عبد الله بن عامر^(١) وإلى معاوية وإلى عمال عثمان بمهودهم ، وأقرهم على أعمالهم ليبياعوا لك الناس ، فإنهم يهدأون البلاد ، ويسكنون الفاس . فأبيت ذلك عليه يومئذ ، وقلت : لا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يؤلّى . فانصرف من عندي وأنا أعرف

(١) كان عبد الله بن عامر والى عثمان بن بن عفان على البصرة .

فيه أنه يرى أنى خطيئتي ، ثم عاد إلى الآن . فقال : إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت عليك ، وخالفته في فيه ، ثم رأيت بعد ذلك رأياً ، وأنا أرى أن تصنع الذي رأيت ، فتزعمهم وتستعين بمن تيق به ، فهم أهون شوكة مما كان .

قال ابن عباس : فقلت لعل : أما المرة الأولى فقد نصحتك ، وأما المرة الآخرة فقد غشيتك ، فقال علي : ولم نصحنى ؟ قلت : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل الدنيا فتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولي هذا الأمر ، ومتى تعز لهم يقولوا : أخذ الأمر بغير شوري ، ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق ، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكررا عليك .

فقال علي : أما ما ذكرت من إقرارهم ، فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لإصلاحها ، وأما الذي يلزم من الحق والمعرفة بمقال عثمان فوالله لا أولى أحدا منهم أبداً ، فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا بذلت لهم السيف .

قال ابن عباس : فأطعني وادخل دارك ، والحق بمالك بينبع ، وأغلق بابك عليك ، فإن العرب تجول جولةً وتضطرب ولا تجد غيرك ، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا .

فأبى علي ، وقال لابن عباس : سر إلى الشام فقد وليتسكها . فقال ابن عباس : ما هذا برأي ؛ معاوية رجل من بني أمية ، وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ، ولست آمن أن يضرب عنق لعثمان ، أو يحبسني فيتحكم علي . فقال له علي : ولم ؟ قال : لإقراة ما بيني وبينك ، وإن كل ما حمل عليك حمل علي ، ولكن اكتب إلى معاوية فنه وعده ، فأبى علي ، وقال : والله لا كان هذا أبداً .

ثم فرّق العمّال على الأمصار ، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة
ابن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على
مصر ، وسهل بن حنيف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل ، فسأله : من أنت ؟
فقال : أمير على الشام . قالوا : إن كان عثمان بعثك فأهلاً بك ، وإن كان غيره
بعثك فارجع . قال : أو ما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا : بلى ، فرجع إلى علي .

وأما قيس بن سعد فإنه سار حتى أتى مصر ، فافترق عليه أهلها فرقاً ، فرقة
دخلت في الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت وقالوا : إن قتل قتلة عثمان
فنجن معكم ، وإلا فنحن على جد يلتنا^(١) ، حتى نحرك أو نصيب حاجتنا ، وفرقة
قالوا : نحن مع علي ، وكتب قيس بذلك ، إلى علي .

وأما عثمان بن حنيف فإنه سار حتى أتى البصرة ، ولم يرده أحد عن دخولها ، ولم
يجد لابن عامر^(٢) في ذلك رأياً ولا استقلالاً بحرب ، وافترق الناس بها ، فاتّبعته
فرقة القوم ، ودخلت فرقة في الجماعة ، وقالت فرقة : ننظر ما يصنع أهل المدينة ،
فنصنع كما صنعوا .

وأما عمارة فأقبل حتى إذا كان بزبالة^(٣) لقيه طليحة بن خويلد الأسدي ،
وكان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعوا إلى الطّاب بدمه ، ويقول : ألهي على أمر
سبقي ولم أدركه :

ياليتني فيها جذع أكر فيها وأضع

(١) الجديلة : الشاكلة والناحية . (٢) كان والي عثمان عليها ، وهو عبد الله بن عامر .

(٣) زبالة : منزل بطريق مكة من الكوفة ، وهي قرية عامرة بها أسوان (ياقوت) .

فطلع إليه نُمارة قادماً على الكوفة ، فقال له : ارجع ، فإن التوم لا يريدون بأمرهم بدلاً ، وإن أثبتت ضربت عنقك ، فرجع نُمارة إلى عليّ وأخبره الخبر .

وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن ، فجمع يعلّى^(١) كل شئ من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال .

ولما رجع سهل بن حنيف من طريق الشام ، ورجع من رجع ، دعا عليّ طلحة والزبير ، فقال : إن الذي كنت أخطركم قد وقع ، وإن الأمر الذي قد وقع لا يدرك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار ، كلما سُمّرت ازدادت واستنارت ، فقالا له : فأذن لنا أن نخرج من المدينة ، فإما أن نكابر ، وإما أن تدعنا ، فقال : سأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بداً فآخِرُ الدواء الكي .

ثم أرسل إلى معاوية سبرة الجهني يطلب إليه أن يُبايع ، فلما قدم عليه لم يكتب معاوية بشئ ولم يُجبهه ، حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان ، أراد معاوية أن يملن خلافته ، فدعا برجل من بني عبس ، فدفع إليه طوماراً^(٢) مختوماً عنوانه : « من معاوية إلى عليّ » .

وقال له : إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ، وارفعه حتى يراه الناس .

(١) هو يعلّى بن أمية والى عثمان على اليمن .

(٢) الطومار : الصحيفة .

فلما قدم العباسي المدينة رفع الطومار كما أمره معاوية ، وخرج الناس ينظرون ، فتفرقوا إلى منازلهم ، وقد علموا أن معاوية معترض ، ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي ، فسلمه الطومار ففضّه ، فلم يجد فيه شيئاً ، ثم سأل الرسول : ما وراءك ؟ قال : إني تركتُ قوماً لا يَرْضَوْنَ إِلَّا بِالْقَوَد ، قال : رِمَنَ ؟ قال : رِمَنُ خَيْطِ نَفْسِكَ ، وتركْتُ ستين ألف شيخٍ سيكون تحت قيص عثمان ، وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه منبر دمشق . فقال علي : مَنِي يَطْلُبُونَ دَمَ عُمَانَ ! أَلَسْتُ مَوْتُوراً كَثِيراً عُمَانَ ! اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ دَمِ عُمَانَ ، نَجَا وَاللَّهِ قَتَلَهُ عُمَانُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ امْرَأً كَانَ .

وأحبُّ أهلُ المدينة أَنْ يَعْلَمُوا مَا رَأَى عَلِيٌّ فِي مَعَاوِيَةَ وَانْتِقَاضِهِ ، لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ رَأْيَهُ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ؛ أَيَجْسُرُ عَلَيْهِ أَوْ يَنْسُكِلُ عَنْهُ — وقد بلغهم أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ دَخَلَ عَلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَى الْقُعُودِ وَتَرْكِ النَّاسِ — فَدَسَّوْا إِلَيْهِ زِيَادَ بْنَ حَنْظَلَةَ التَّمِيمِيِّ ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ : يَا زِيَادُ ، تَيْسَرُ^(١) ، فَقَالَ : لَأَيَّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : تَغْزُو الشَّامَ ، فَقَالَ زِيَادُ : الْأَنَاءُ وَالرِّفْقُ أَمْثَلُ .

وَمَنْ لَمْ يَصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يُضَرَّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنَاسِكٍ .
فتمثل علي :

مَتَى تَجْمَعُ الْقُلُوبُ الذِّكْيَ وَصَارِمًا وَأُنْفًا حَمِيًّا تَحْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ

نُفِجَ زِيَادٌ عَلَى النَّاسِ ، فَسَأَلُوهُ عَمَّا وَرَاءَهُ ، فَقَالَ : السَّيْفُ ؛ ثُمَّ دَعَا عَلِيٌّ ابْنَهُ مُحَمَّدًا فَأَعْطَاهُ لِيَوَّاهُ ، وَعَبَّأَ جُنْدَهُ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قُتَيْبَ بْنَ الْعَبَّاسِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى التَّهْيِئِ وَالتَّجْهِزِ ، وَفِيهَا هُوَ فِي ذَلِكَ فَجَأَهُ أَمْرُ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ .

(١) تيسر ، أى أعدد نفسك .

كانت عائشة قد خرجت من المدينة وعثمان محصور بها ، وقصدت إلى مكة للحج ، ولما عازمت على العودة إلى المدينة لقيها بسرف^(١) عبد بن أم كلاب ، فقالت له : مهيم ! قال : قتلوا عثمان ، ومكثوا ثمانيا ، قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير سبآز ، واجتمعوا على عليّ أبي طالب ، فقالت : ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . ردوني إلى مكة . وانصرفت وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبنّ بدمه ، فقال لها ابن أم كلاب : ولِمَ ؟ فوالله إن أول من أمار حرّقه لأنت ، ولقد كنتِ تقولين : اقتلوا نعلًا^(٢) ، قد كفر ! قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلتُ وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

مِنْكَ الْبَدَاءُ وَمِنْكَ الْغِيَرُ	وَمِنْكَ الرِّيَاحُ وَمِنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ	وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْعَمْنَاكَ فِي قَتْلِهِ	وَقَاتِلُهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرَ
وَلَمْ يَسْقُطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِنَا	وَلَمْ يَنْكَسِفِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ ذَا تُدْرٍجٍ ^(٣)	يَزِيلُ الشُّبَا وَيُقِيمُ الصَّعْرُ
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا	وَمَا مِنْ وَفَى مِثْلُ مَنْ قَدْ غَدَرَ

ثم انصرفت إلى مكة ، وهي لا تقول شيئاً ، حتى نزلت على باب المسجد ، فقصدت للحجر ، وسُتِرت فيه ، واجتمع الناس حولها ، فقالت : أيها الناس ، إن

(١) سرف : موضع من مكة على عشرة أميال .

(٢) نعل : رجل من أهل مصر طويل اللحية ؛ قيل لأنه كان يشبه عثمان ، وكان عثمان إذا نيل منه وعيب عليه شبه بهذا الرجل لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيباً غير هذا — اللسان ٤ : ١٩٣ .

(٣) يقال : رجل ذو تدراً وتدرأة ، أي مدافع ذو عز ومنعة .

الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظُلماً بالأمس ، وتَقَمُّوا عليه استعمال مَنْ حَدَّثَتْ سُنُّهُ ، وقد اسْتَعْمَلَ أمثالهم من قبله ، ومواضع من الْحِمَى حَمَّاهَا لهم فتابعهم ونَزَعَ لهم عنها . فلما لم يجدوا حُجَّةً ولا عذراً بَادَرُوا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهيرة الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لا يَصْبِغُ من عثمان خَيْرٌ من طَبَاقٍ^(١) الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتَدَوْا به عليه كان ذنباً خَلَصَ منه كما يَخْلَصُ الذهب من خَبَثِهِ أو الثوب من دَرَنِهِ ، إِذْ مَاصُوهُ^(٢) كما يُمَاصُ الثوب بالماء .

فقال عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان عامل عثمان على مكة - أنا أولُ طالب ، فكان أول مجيب ؛ وتبعه بنو أمية ، ممن هرب من المدينة إلى مكة بعد قتل عثمان ، ثم تبعهم سَعِيدُ بن العاص والوليد بن عُقْبَةَ وسائر بني أمية ، وقدم عليهم عبد الله ابن عامر من البصرة بمالٍ كثير ، وَيَعْلَى بن أمية من اليمن ، ومعه سِتْمَانَةُ بعير وستمانة ألف درهم ، وَأَنَاخُ بِالْأَبْطَحِ^(٣) .

وقدم طلحة والزُّبَيْرُ من المدينة ، فلقيا عائشة ، فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : إِنَّا تَحَمَّلْنَا^(٤) هُرَاباً من المدينة ، من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حَيَّارِي ، لا يعرفون حقاً ، ولا يُنْكِرُونَ باطلاً ، ولا يَمْنَعُونَ أنفسهم ، فقالت : انهضوا إلى هذه الغوغاء .

ثم أخذوا يتداولون ويتشاورون أين يذهبون . قال بعضهم : نَذْهَبُ إلى الشام ، فقال ابن عامر : قد كفاكم الشام معاوية ، ائتوا البَصْرَةَ ، فإن لي بها

(١) طَبَاق : ملء .

(٢) الموص : الغسل بالأصابع ، أرادت أنهم استنابوه عما نَقَمُوا منه فلما أعطاهم ما طلبوا قتلوه

(النهاية) .

(٣) الأبطح : مكان في مكة . (٤) تحمَّلْنَا : رحلنا .

صَنَائِعَ ، وَلَهُمْ فِي طَلْحَةِ هَوًى ، فَقَالُوا : قَبِّحَكَ اللَّهُ ! فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ بِالْمُسَالِمِ وَلَا بِالْمُحَارِبِ ، فَهَلَّا أَقَمْتُمْ كَمَا أَقَامَ مَعَاوِيَةُ فَتُكْفَى بِكَ ، ثُمَّ نَأَى الْكُوفَةَ ، فَفَسَدَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَذَاهِبَ ! فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَابًا ، ثُمَّ اسْتَقَامَ الرَّأْيُ عَلَى الْبَصْرَةِ .

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَدْرِي الذَّهَابَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ مَعَهَا أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا الْقَصْدِ ، فَقَالُوا لَهَا : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، دَعِيَ الْمَدِينَةَ ، فَإِنْ مَنْ مَعَنَا لَا يُقَرَّرُونَ لَتِلْكَ الْفَوَغَاءِ الَّتِي بِهَا ، وَاشْخَصِي مَعَنَا إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَإِنَا نَأَى بِلَدًا مُضَيِّعًا ، وَسِيحْتَجُّونَ عَلَيْنَا فِيهِ بِبَيْعَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَتُنْهَضِينَهُمْ كَمَا أَنْهَضْتَ أَهْلَ مَكَّةَ ، ثُمَّ تَقْعَدِينَ ، فَإِنْ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمْرَ كَانَ الَّذِي تُرِيدِينَ ، وَإِلَّا احْتَسَبْنَا وَدَفَعْنَا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ بِجَهْدِنَا حَتَّى يَقْضَى اللَّهُ مَا أَرَادَ ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا ذَلِكَ وَوَجَدَتْ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَكُونُ مُسْتَقِيمًا إِلَّا بِهَا قَالَتْ : نَعَمْ .

وَلَمَّا رَأَى أَزْوَاجُ الرَّسُولِ ذَلِكَ تَرَكْنَ عَائِشَةَ ، إِلَّا حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ فَإِنَّهَا رَأَتْ السَّيْرَ مَعَهَا .

وَلَمَّا عَلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بِذَلِكَ طَلَبَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ تَقْعُدَ فَتَعِدَتْ ، وَبَعَثَتْ إِلَى عَائِشَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ حَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُرُوجِ ، وَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لِيَسِيرَ مَعَهَا ، فَأَبَى وَقَالَ : أَنَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، أَفْعَلْ مَا يَفْعَلُونَ . فَقَالَتْ : يَغْفِرُ اللَّهُ لِعَبْدِ اللَّهِ .

وَبَعَثَتْ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ يَدْعَى ظَفَرًا ، وَاسْتَأْجَرَتْهُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ عَلِيًّا بِكِتَابِهَا ، وَيُنْخِبرَهُ بِأَمْرِ الْقَوْمِ .

وَلَمَّا التَّامَ جَمْعُ الْقَوْمِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخُرُوجُ قَالُوا : كَيْفَ نَسْتَقِلُّ وَلَيْسَ مَعَنَا مَالٌ

نَجَّهَهُمْ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالَ يَمْلِكُ بْنُ أُمَيَّةَ : مَعِيَ سِتْمِائَةُ أَلْفٌ وَسِتْمِائَةُ نَاقَةٌ فَارْكَبُوهَا ، وَجَهَّزَهُمُ ابْنُ عَامِرٍ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، ثُمَّ نَادَى الْمُنَادَى : إِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ شَاحِصُونَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَمَنْ كَانَ يَرِيدُ إِعْزَازَ الْإِسْلَامِ ، وَالطَّلَبَ بِشَأْرِ عُثْمَانَ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَرْكَبٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ جِهَازٌ فَهَذَا جِهَازٌ ، وَهَذِهِ نَفَقَةٌ .

فَحَمَلُوا سِتْمِائَةَ رَجُلٍ عَلَى سِتْمِائَةِ نَاقَةٍ سِوَى مَنْ كَانَ لَهُ مَرْكَبٌ ، وَكَانُوا جَمِيعًا أَلْفًا ، ثُمَّ نَادَوْا بِالرَّحِيلِ ، وَلَحَقَهُمُ النَّاسُ فَكَانُوا فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ رَجُلٍ .

وَلَمَّا خَرَجَتْ عَائِشَةُ مِنْ مَكَّةَ أَذِنَ مَرْوَانُ حِينَ فَصَلَ مِنْهَا ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ فَقَالَ : عَلَى أَيِّكُمْ أَسْلَمَ بِالْإِمْرَةِ ، وَأَوْذَنَ بِالصَّلَاةِ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي الزُّبَيْرِ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ : عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ ^(١) - يَعْنِي طَلْحَةَ . فَأَرْسَلَتْ عَائِشَةُ إِلَى مَرْوَانَ وَقَالَتْ : مَا لَكَ ؟ أَتُرِيدُ أَنْ تُفَرِّقَ أَمْرَنَا ! لِيَصِلَ ابْنُ أُخْتِي ، فَكَانَ يَصِلُ بِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، حَتَّى قَدِمَ الْبَصْرَةَ .

ثُمَّ شِيعَ عَائِشَةُ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ذَاتِ عِرْقٍ ^(٢) ، فَبَكَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَرَوْا يَوْمَ كَانَ أَكْثَرُ بَاكِيًا وَبَاكِيةً مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَكَانَ يُسَمَّى يَوْمَ النَّحِيبِ .

وَفِي ذَاتِ عِرْقٍ لَقِيَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَأَصْحَابَهُ بِهَا فَقَالَ : أَيْنَ تَذْهَبُونَ وَتَتْرَكُونَ ثَأْرَكُمْ عَلَى أَعْجَازِ الْإِبِلِ وَرَاءَكُمْ - يَعْنِي عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ - اقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ ، فَقَالُوا : نَسِيرُ ، فَلَعَلَّنَا نَقْتُلُ قَتْلَةً عُثْمَانَ جَمِيعًا .

ثُمَّ خَلَا سَعِيدُ بْنُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ ، فَقَالَ : إِنْ ظَفَرْتُمَا لَمَنْ تَجْعَلَانِ الْأَمْرَ ؟

(١) رَوَى عَنْ مَعَاذِ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَوْ ظَفَرْنَا لَا قَتَلْنَا ، مَا كَانَ الزُّبَيْرُ يَتْرِكُ طَلْحَةَ وَالْأَمْرَ ، وَلَا كَانَ طَلْحَةُ يَتْرِكُ الزُّبَيْرَ وَالْأَمْرَ .

(٢) ذَاتُ عِرْقٍ : مَكَانٌ بِالْبَادِيَةِ مَقَامَاتُ الْعَرَّاقِينَ .

اصدُقَانِي . قالا : نجمله لأحدنا ، أَيُّنا اختاره الناسُ . قال : بل تجملانه لولد عثمان ؛ فإنكم خرجتم تطلبون بدمه ، فقالا : فدع شيوخ المهاجرين ، ونجعلها لأبنائهم الأيتام ! قال : فلا أراى أُسمى إلا لإخراجها من بنى هبذ مناف . ثم رجع ، ورجع معه عبدُ الله بن خالد بن أسيد ، فقال المغيرة بن شعبه : الرَّأى ما رَأَى سَعِيد ؛ مَنْ كان هنا من ثقيف فليرجع ، فرجع مَنْ كان معهم من ثقيف . وأعطى يعلى بن منية عائشة جلا اسمه عسكر ، كان اشتراه بثمانين ديناراً^(١) ، فركبته ، وارتحلوا جميعاً نحو البصرة ، فلما كانوا بفنائها لقيهم عُمر بن عبد الله التيمي ، وقال : يا أُمُّ المؤمنين ؛ أنشدك الله أن تقدمي اليوم على قوم لن ترأسلى منهم أحداً ، فمَجَلَّى ابنَ عامر ، فإنَّ له بها صَنَائِعَ ، فليذهب إليهم ليلقوا الناس إلى أن تقدمي ، ويسمعوا ما جئتم به ، فأرسلته ، فأندس إلى البصرة ، وأتى القوم ، وكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وإلى غيره من وجوه القوم ، وأقامت بالحفير^(٢) تَلْتَظَرُ الجواب .

(١) روى الطبرى حديثاً آخر في أمر الجمل : « عن صفوان بن قبصة الأحسى قال : حدثني العرنى صاحب الجمل قال : بينما أنا أسير على جبل إذ عرض لى راكب ، فقال : يا صاحب الجمل ؛ تبسح جملك ؟ قلت : نعم ، قال : بكم ؟ قلت : بألف درهم ، قال : مجنون أنت ! جل يباع بألف درهم ! قال : قلت : نعم ، جلى هذا ! قال : ومم ذلك ؟ قلت : ما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى وأنا عليه أحد قط إلا فته ، قال : لو تعلم إن نريده لأحسنتم بيعنا ، قال : قلت : ولن نريده ، قال : لأملك ، قلت : لقد تركت أُمى فى بيتها قاعدة ماتريد براحا ، قال : إنما أريده لأُم المؤمنين عائشة ، قلت : فهو لك ، فغذه بغير ثمن ، قال : لا ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطك ناقة مهرية ، ونزيدك دراهم ، قال : فرجعت ، فأعطانى ناقة لها مهرية ، وزادونى أربعمئة أو ستمئة درهم ، ثم قال لى : يا أخا عرينة ، هل لك دلالة بالطريق ؟ قلت : نعم ، أنا من أدل الناس ، قال : فسر معنا . فسرت معهم ، فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألونى عنه ؛ حتى طرقتنا ماء الحوآب ، فنبهتنا كلاهما ، قالوا : أى ماء هذا ؟ قلت : ماء الحوآب ، قال : فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ، ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوآب طرقتنا ردونى ، تقول ذلك بلاننا ، فأناخت وأناخوا حولها ، وهم على ذلك ، وهى تأبى ، حتى كانت الساعة التى أناخوا فيها من الغد ، جاءها ابن الزبير ، النجاء النجاء ! فقد أدرككم والله على بن أبى طالب . »

(٢) الحفير : موضع بين مكة والبصرة .

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين - وكان رجلاً عامّة - وألزمه بأبي الأسود الدؤليّ - وكان رجلاً خاصّة - وقال لهما : انطلقا إلى هذه المرأة ، فاعلما علمها ، وعلم من معها ، فخرجا حتى انتهيا إليها بالحفير ، فأذنت لهما ، فدخلوا وسلما ، وقالوا : إن أميرنا بعثنا إليك لنسألك عن مسيرك ، فهل أنت مُخْبِرَتنا ؟ فقالت : والله ما مثلي يُعطى لبنيه الخبر ، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترّة ولا عُذر ، فاستحلّوا الدّم الحرام وسفكوه وانتهبوا المال الحرام ، وأحلّوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارّين مُضرّين ، غير نافعين ولا متّقين ، لا يقدرّون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا ، وقرأت : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) ، فهذا شأننا إلى معروف نأمرُكم به ، ومُنْكَرٍ ننهاكم عنه .

ثم خرج أبو الأسود وعمران من عندها ، حتى أتيا طلحة ، فقالا : ما أقدمك ؟ قال : الطلبُ بدم عثمان قالوا : ألم تبايع عليا ؟ قال بلى واللّج ^(٢) في عنقي ، وما أستقيل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان .

ثم أتيا الزبير ، فقالا : ما أقدمك ؟ قال : الطلبُ بدم عثمان ، قال : ألم تبايع عليا ؟ قال : بلى واللّج في عنقي ، وما أستقيل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان .

ثم رجعا إلى عائشة فودعاها ، وودعت عمران ، وقالت : يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾^(١) ثم سرحتهما ، ونادى مناديهما بالرحيل ، ومضى الرجلان حتى دخلا على عثمان بن حنيف ، فبدر أبو الأسود عمران فقال :

يا بن حنيفٍ قد أتيت فأنفِرْ

فقال عثمان : إنا لله وإنا إليه راجعون ! دارت رَحَى الإسلام وربُّ الكعبة ! أشرُّ علىَّ يا عمران ، قال : إني قاعد فاقمد ، فقال عثمان : بل امنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين على . قال عمران : بل يحكم الله بما يريد . وانصرف إلى بيته ، وقام عثمان في أمره ، فأتاه هشام بن عامر ، فقال : يا عثمان ، إن هذا الأمر الذي تروم يُسَلِّم إلى شرٍّ ما تكره ، إن هذا إلا فتق لا يُرْتَقى ، وصدع لا يجبر ، فسامحهم حتى يأتي أمرٌ على ولا تحادهم ، فأبى ؛ ونادى عثمان في الناس ، وأمرهم بالتهيؤ ، ولبسوا السلاح ، واجتمعوا إلى المسجد الجامع .

وأقبل عثمان ، ودسَّ إلى الناس قيس بن المقدية ، ليعرف ما عندهم ، فقال : إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم ، إن كانوا جاءوكم خائفين ، فقد جاءوا من المكان الذي يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان ، فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعوني في هؤلاء القوم ، فردوهم من حيث جاءوا . فقام الأسود بن سريع السعدي ، فقال : ما زعموا أننا قتلة عثمان ! فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتل عثمان منا ومن غيرنا ، فحَصَبَه^(٢) الناس ، فمرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً .

(٢) حصبه : رماه بالحصى .

(١) المائدة ٨ .

وأقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد^(١) ، ودخلوا من أعلاه ، أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان بن حنيف فيمن معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج ويكون معها ، واجتمعوا بالمربد حتى غصّ بالناس ، وكان طلحة والزبير في ميمنة المربد ، وعثمان في ميسرته .

ثم وقف طلحة ، وحمد الله وأثنى عليه ، وذكر عثمان وفضله ، والبلد وما استحل منه ، وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه ، وحثهم عليهم ؛ وقال : إن في ذلك إعزازَ دين الله عز وجلّ وسُلطانَه ، وأما الطلبُ بدم الخليفة المظلوم فإنه حدٌّ من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمرُكم إليكم ، وإن ترَكْتُم لم يَقم لَكم سلطان ، ولم يكن لَكم نظام .

وتسكَّم الزُّبيرُ بمثل ذلك ، فقال مَنْ في الميمنة : صدَقا وبرّا وقالَا الحق ، وأمرَا به .

وقال مَنْ في الميسرة : فجَرَا وغَدَرَا وقالَا الباطل وأمرَا به . قدَّ بايَعَا ثم جاء يَقُولَان ما يَقُولَان ! وتحائى^(٢) الناسُ وتحاصَّبوا^(٣) وأرْمَجُوا^(٤) .

فتمكَّمت عائشةُ ، وكانت جَهْورِيَّة يملو صَوْتُهَا كثرةً ، كأنه صوت امرأة جلييلة ، وحمدت الله وأثنت عليه وقالت : كان الناسُ يتجنَّبون على عثمان ، ويُزْرُونَ على عمَّالِهِ ، ويأتُونَنَا بالمدينة فيستشيروننا فيما يُخَيِّرُونَنَا عَنْهُمْ ، فننظر من ذلك فنجدُه بريًّا تقيًّا وفيًّا ، ونجدُهم فجَرَةً غَدَرَةً كَذَّابَةً ، يحاولون غيرَ ما يُظهرون ، فلما قَوُوا على المكاثرة كاثَرُوهُ ، فاقتحموا عليه دَارَه ، واستحلُّوا الدَّم الحرام والمالَ الحرام

(١) المربد : محلة عظيمة بينها وبين البصرة ثلاثة أميال .

(٢) تحائى الناس : رمى بعضهم بعضاً بالتراب . (٣) تحاصَّبوا : رمى بعضهم بعضاً بالحصاة .

(٤) أَرْمَجُوا : أثاروا الغبار .

والبلد الحرام ، بلا ترّة ولا عذر ، ألا إن ممّا ينبغي ، لا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتل عثمان ، وإقامة كتاب الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بِهِمْ ﴾ (١) .

فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين ، فقالت فرقة : صدقت والله وبرّت ، وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبت والله ما نعرف ما تقولون .

فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدرت معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان بن حنيف حتى وقفوا بالمربد ، وبقي أصحاب عثمان يتدافعون حتى تجاوزوا ، ثم مال بعضهم إلى عائشة ؛ وأخذ عثمان ومن معه الطريق إلى المسجد

ثم أقبل جارية بن قدامة السعديّ نحو عائشة ، وقال : يا أمّ المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلح ، إنه قد كان لك من الله ستر وحُرمة ، فهتكت سترك ، وأباحت حُرمتك ، إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك ، إن كنت خرجت طائفةً فارجمي إلى منزلك ، وإن كنت أتيتنا مُستكرهة فاستميني بالناس .

وخرج شابٌّ من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال : أمّا أنت يا زبير فحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمّا أنت يا طلحة فوقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك يوم أحد ، وأرى أمّكم معكم ، فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا : لا ، قال : فما أنا منكما في شيء . ثم قال :

سُنْتُمْ حَلَائِلُكُمْ وَقَدْ نَزَلْتُمْ أَمَّكُمْ هَذَا لَمَمْرُكَ قَلَّةُ الْإِنصَافِ
أَمَرْتُ بِحَجْرٍ ذِيوَهَا فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشْقُ الْيَدَ بِالْإِيحَافِ (٢)

(١) آل عمران ٢٣ . (٢) الإيحاف : ضرب من سير الحيل والإيهال .

غَرَضًا يُقَاتِلُ دُونَهَا أَبْنَاوَهَا بِالنَّبْلِ وَالْخَطِيِّ وَالْأَسْيَافِ
هَتِكَتْ بِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ سُبُورَهَا هَذَا الْخَبْرُ عَنْهُمْ وَالْكَافِ
وَأَقْبَلَ غُلَامٌ مِنْ جُهَيْنَةَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ - وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَجُلًا عَابِدًا - فَقَالَ :
أَخْبِرْنِي عَنْ قَتْلَةِ عَثْمَانَ ، فَقَالَ : نَعَمْ . دَمُ عَثْمَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاثٍ : ثَلَاثٌ عَلَى صَاحِبَةِ
الْهُودُجِ - يَعْنِي عَائِشَةَ - وَثَلَاثٌ عَلَى صَاحِبِ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ - يَعْنِي طَلْحَةَ أَبَاهُ ،
وَتَلَاثٌ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ فَقَالَ الْغُلَامُ : لَا أُرَانِي عَلَى ضَلَالٍ . وَلِحَقِّ
بِعَلَى ، وَقَالَ :

سَأَلْتُ ابْنَ طَلْحَةَ عَنْ هَالِكٍ بِجَوْفِ الْمَدِينَةِ لَمْ يُقْبَرْ
فَقَالَ : ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ هُمْ أَمَاتُوا ابْنَ عَفَّانَ وَاسْتَمْعَبُوا
فَثَلَاثٌ عَلَى تِلْكَ فِي خِذْرِهَا وَثَلَاثٌ عَلَى رَاكِبِ الْأَحْمَرِ
وَتَلَاثٌ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَنَحْنُ بِدَوِّيَّةٍ قَرَقَرِ
فَقُلْتُ صَدَقْتَ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَخْطَأْتَ فِي الثَّالِثِ الْأَزْهَرِ

وَأَقْبَلَ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ وَهُوَ عَلَى الْخَيْلِ ، فَأَنْشَبَ الْقِتَالَ مَعَ أَصْحَابِ عَائِشَةَ ، وَقَاتَاهُمُ
أَصْحَابُ عَائِشَةَ إِلَى أَنْ حَبَزَ بَيْنَهُمَا اللَّيْلُ ؛ وَأَمَرَتْ عَائِشَةُ أَصْحَابَهَا فَتَيَّامَنُوا إِلَى مَقْبَرَةِ
بَنِي مَازِنَ ؛ وَرَجَعَ عَثْمَانُ إِلَى الْقَصْرِ ؛ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى قِبَائِلِهِمْ .

وَجَاءَ أَبُو الْجُرَاءِ التَّمِيمِيُّ ، فَأَشَارَ عَلَى طَلْحَةَ وَمَنْ مَعَهُ بِمَسْكَانٍ أُمْتَلَأَ مِنْ مَكَانِهِمْ ،
فَسَارُوا إِلَى مَقْبَرَةِ بَنِي حِصْنٍ ، وَبَاتُوا يَتَأَهَّبُونَ لِلْحَرْبِ .

وَأَصْبَحَ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ فَنَادَاهُمْ وَهُوَ يَسُبُّ فِي يَدِهِ الرَّمْحَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ
عَبْدِ الْقَيْسِ : مَنْ هَذَا الَّذِي تَسُبُّهُ وَتَقُولُ لَهُ مَا أَسْمَعُ ؟ قَالَ : عَائِشَةُ . قَالَ : يَا بَنَ الْخَبِيثَةِ ؛

أَلَا تَرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ هَذَا؟ فَوَضَعَ حَكِيمُ السَّنَانِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَقَتَلَهُ. ثُمَّ لَامَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَتَلَهَا.
ثُمَّ اجْتَمَعَ الْفَرِيقَانِ ، وَاقْتَتَلَا قِتَالًا شَدِيدًا مِنْ حِينَ بَزَغَتِ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ زَالَ
النَّهَارُ ؛ وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي أَصْحَابِ ابْنِ حُنَيْفٍ ، وَفَشَتِ الْجِرَاحَةُ فِي الْفَرِيقَيْنِ ، وَمَنَادَى
عَائِشَةُ يَنَاشِدُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْكَفِّ فَيَأْتُونَ ؛ حَتَّى إِذَا مَسَّهِمُ الشَّرِّ وَعَضَّهِمْ ، نَادَوْا
أَصْحَابَ عَائِشَةَ إِلَى الصَّلَاحِ ؛ فَأَجَابُوهُمْ ، وَتَهَادَنُوا وَتَوَاعَدُوا ، وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا اشْتَرَطُوا
فِيهِ أَنْ يَبْعَثُوا رَسُولًا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَخْبِرَ أَهْلَهَا ، فَإِنْ كَانَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ قَدْ أُكْرِهَا
عَلَى بَيْعَةِ عَلِيٍّ خَرَجَ عُثْمَانُ وَأَخَذَ لَهَا الْبَصْرَةَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنَا أُكْرِهَا خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ ؛
وَهَذَا كِتَابُ الْمَوَادَعَةِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَعُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ : إِنَّ عُثْمَانَ يَقِيمُ
حَيْثُ أَدْرَكَهُ الصَّلَاحُ عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَإِنَّ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ يَقِيمَانِ حَيْثُ أَدْرَكَهُمَا الصَّلَاحُ
عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمَا ؛ حَتَّى يَرْجِعَ أَمِينُ الْفَرِيقَيْنِ وَرَسُولُهُمْ كَعْبُ بْنُ سَوْرٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ،
وَلَا يُضَارُّ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ فِي مَسْجِدٍ وَلَا سَوْقٍ وَلَا طَرِيقٍ وَلَا فُرْصَةٍ ، حَتَّى
يَرْجِعَ كَعْبٌ بِالْخَبَرِ ؛ فَإِنْ رَجَعَ بِأَنَّ الْقَوْمَ أُكْرِهُوا طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ فَلَا مَرُءٌ أَمْرُهَا ،
وَإِنْ شَاءَ عُثْمَانُ خَرَجَ حَتَّى يَلْحَقَ بِطَيْئَتِهِ ، وَإِنْ شَاءَ دَخَلَ مَعَهُمَا . وَإِنْ رَجَعَ بِأَنَّهُمَا لَمْ
يُكْرَهَا فَلَا مَرُءٌ أَمْرُ عُثْمَانَ ، فَإِنْ شَاءَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ أَقَامَا عَلَى طَاعَةِ عَلِيٍّ ، وَإِنْ شَاءَا
خَرَجَا حَتَّى يَلْحَقَا بِطَيْئَتِهِمَا .

وَخَرَجَ كَعْبٌ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِقُدُومِهِ ، فَقَامَ كَعْبٌ
فَقَالَ : إِنِّي رَسُولُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إِلَيْكُمْ ؛ أَأَكْرَهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ عَلَى بَيْعَةِ
عَلِيٍّ ، أَمْ أَتَيَاهَا طَائِعَتَيْنِ ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَإِنَّهُ
قَامَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَمْ يَبَايَمَا إِلَّا وَهَما كَارِهَانِ ؛ فَوَائِبُهُ سَهْلٌ بَنُ حُنَيْفٍ وَالنَّاسُ

حتى خشي عليه أصحابُ رسول الله القتلَ فقاموا لينعموه ، فانفرج عنه الناس ،
وأخذ صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ بيده حتى أخرجه ثم أدخله منزله ، وقال : أَمَا وَسِعَكَ
مَا وَسِعْنَا مِنَ السَّكُوتِ ! قال : لا ؛ والله ما كنتُ أرى أن الأمرَ يترامى إلى
ما رأيت .

ثم رجع كَعْبٌ إلى البصرة بما وقف عليه بالمدينة . وبلغ عليًّا الخبرُ الذي كان
بالمدينة من ذلك ، فبادر بكتابٍ إلى عثمان يقول فيه : والله ما أُكْرِها على فرقة ،
ولقد أُكْرِها على جماعةٍ وفضل ، فإن كانا يريدان الخلعَ فلا عذرَ لهما ، وإن كانا
يريدان غير ذلك نظرنا ونظرًا .

وقدِمَ السَّكَّابُ على عثمان بن حُنَيْفٍ وقدم كعب ، فأراد طلحة والزبير تنفيذَ
الشَّروطِ ، وأرسلوا إلى عثمان : أن أخرج عَنَّا ، فاحتجَّ عُثْمَانُ بالسَّكَّابِ وقال :
هذا أمرٌ آخر غير ما كنَّا فيه .

وجمع طلحة والزبير الرجال في ليلةٍ مظلمةٍ باردة ، ذات رياحٍ ونَدَى ، ثم
قصدا المسجد ، فوافقا صلاةَ العشاء ، وكانوا يؤخِّرونها ، فأبطأ عثمان بن حُنَيْفٍ ،
فقدَّمَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَتَّابٍ للصلاة ، فشهر أصحاب عثمان بن حُنَيْفٍ السَّلاحَ ،
فأقبلوا عليهم ، واقتتلوا بالمسجد ؛ حتى قتلوهم . ثم أدخلوا الرجال على عثمان ليخرجوه
فأخرجوه إليهما ، وما بقيت في وجهه شعرةٌ بعد أن ضربوه أربعين سوطًا .

فاستمظا ذلك ، وأرسلوا إلى عائشة بالذي كان ، واستطلعا رأيها ؛ فأرسلت إليهما
أنَّ خَلُّوا سبيلَه ، فليذهب حيث شاء ؛ ولا تحبسوه ، فمضى عثمان حيث لحق بهلى ،
وصلى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَتَّابٍ بالناس العشاء والفجر .

وأصبح طلحة والزبير وبيتُ المال والحرسُ في أيديهما ، والناسُ معهما ،
ومن لم يكن معهما مغمور . وأصبح حكيم بن جبلة في خيله ، ومن تبعه من عبد قيس

ومن نَزَعَ إليهم من أفناء ربيعة ، وقد بلغه ما فعل عثمان بن حنيف فقال :
لست بأخيه إن لم أنصره ؛ ثم توجه نحو دار الرزق ؛ وبها طعام أراد عبد الله
ابن الزبير أن يعطيه أصحابه ، فقال له عبد الله : مالك يا حكيم ؟ قال : نريد أن
نرتق من هذا الطعام ، وأن تخلوا عثمان فيقيم في دار الإمارة ، على ما كتبتم بينكم
حتى يقدم عليّ ، وإني والله لو أجد أعواناً عليكم ما رضيت بهذه مدكم حتى أقتلكم
من قتلتم ، ولقد أصبحتم وإن دماءكم حلالٌ لنا بمن قتلتم ؛ أما تخافون الله ؟
بم تستحلون الدم الحرام ؟ قال : يد عثمان بن عفان . قال : فالذين قتلتم هم قتلوا
عثمان ؟ أما تخافون مقت الله ؟ فقال له عبد الله : لا نرزقكم من هذا الطعام ،
ولا نحلّ سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع عليّ ، فقال حكيم : اللهم إني
أحكم عدلٌ فاشهد . وقال لأصحابه : لست في شك من قتال هؤلاء القوم ،
فن كان في شك فليتنصرف ، وتقدم ليقابلهم .

فقال طلحة والزبير : الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة ؛ اللهم
لا تبق منهم أحداً ، وأقِدْ منهم ، ثم اقتتلوا أشد قتال ، وجعل حكيم يضرب
بالسيف ويقول :

أضربهم باليسـ ضرب غلام عيسـ

فضرب رجلٌ رجلاً فقطمها ، ثم قتل وهزم أصحابه ، ولم يفلت إلا خرّ قوص
ابن زهير في نفر من أصحابه ، فلجئوا إلى قومهم . ونادى منادى طلحة والزبير :
إن كان في قبائلكم أحدٌ ممن غزا المدينة فلتأتونا بهم ، فجيء بهم أذلاء
فقتلوا .

ثم أمرّا للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم ، وفضلاً بالفضل أهل السمع
والطاعة .

ثم كتبوا لأهل الشام بما صَنَعُوا وصاروا إليه ، فقالوا : إنا خرجنا لوضعِ الحرب وإقامةِ كتابِ الله عزَّ وجلَّ ، بإقامةِ حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل ، حتى يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي يردُّنا عن ذلك ، فبايعَنا خيارُ أهلِ البصرة ونُجَبَاؤُهُمْ ، وخالفَنا شِرَارَهُمْ ونَزَّاعَهُمْ ، فردُّونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا : نأخذُ أُمَّ المؤمنين رهينةً أَنْ أمرَ تَهُمُ بالحقِّ وحَشَّتهم عليه ، فأعطاهم اللهُ سُنَّةَ المسلمين مرةً بمدة مرة ، حتى إذا لم يَبْقَ حُجَّةٌ ولا عُذرٌ استبسل قَتْلُهُ أمير المؤمنين ، فخرجوا إلى مضاجعهم ، فلم يُفْلِتْ منهم إلا حَرَقَوْص ، والله تعالى مُقَيِّدُهُ إِنْ شاء الله .

وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إِنْ انْهَضْتُمْ بِمِثْلِ مَا تَهْضُمُنَا بِهِ ، فَنَلْقَى الله عز وجل وتلقونه ، وقد أَعْذَرْنَا وَقَضَيْنَا الذي علينا .

وبعثوا به مع سَيَّارِ العَجَلِ ، وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثله ، وإلى أهل اليمامة والمدينة ، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتاباً طَوَّلَتْهُ ، وحَشَّتهم على مُتَابَعَتِهَا .

ولما أتى عَلِيٌّ الخَبْرُ دعا إليه وجوه أهل المدينة ، وخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن آخرَ هذا الأمرِ لا يَصْلُحُ إلا بما صلَحَ به أوله ، فانصروا الله يَنْصُرْكُمْ ، ويُصْلِحْ لَكُمْ أَمْرَكُمْ .

فتثاقلوا ، فلما رَأَى زيَادُ بْنُ حَنْظَلَةَ تَثَاقُلَ النَّاسِ انتدبَ^(١) لِمَلِيٍّ ، وقال له : إن تَثَاقَلُوا عَنْكَ فَإِنَا نَخْفُ مَعَكُمْ فَتَقَاتِلْ دُونَكَ . وقام أَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ فقال :

(١) انتدب إليه : خف لنصرته .

يا أمير المؤمنين ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلدني هذا السيف ، وقد أغمدته زماناً ، وقد حان تجريدُه على هؤلاء القوم الظالمين ، الذي لا يألون الأُمَّة غِشًّا ، وقد أحببت أن تقدّمني فقدّمني .

وقالت أمّ سَلَمَة : يا أمير المؤمنين ؛ لولا أن أعصى الله ، وأنت لا تقبله لخرجتُ معك ، وهذا ابن عمّي ، وهو والله أعزُّ عليّ من نفسي ، يخرجُ معك ، ويشهدُ مشاهدك . ثم تتابع الناس استعداداً لنصرته ، فاستخاف على المدينة ، وسار في تبعثته التي تبعّاها لأهل الشام ، آخرَ شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين .

وخرج من أَسَيط معه من الكُوفيين والبَصريين ، فلقّيه عبد الله بنُ سلام ، فأخذ بعنانه وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوالله إن خرجت منها لا يعودُ إليها سُلطانُ الساميين أبداً ، فسبّوه ، فقال عليّ : دَعُوا الرَّجُلَ فإنه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسار إلى الرَبَذَةِ^(١) ؛ فلما علمَ أمرَ عائشة وطلحة والزبير أقام بها ياتعمر ما يفعلُ ، وأناه ابنُه الحَسَنُ في الطريق ، فقال له : لقد أمرتك فَمَصَيْتَنِي ، وقد تُقَتِّلُ غداً ولا ناصِرَ لك ! فقال له عليّ إنك لا تزال تَخِنُ خنِينَ الجارية ، وما الذي أمرتني فَمَصَيْتُكَ؟ قال : أمرتك يوم أُحِيطَ بعمان أن تخرجَ من المدينة فَيُقَتَّلَ ولستَ بها ؛ ثم أمرتك يَوْمَ قُتِلَ أَلَّا تَبَايِعَ حَتَّى تَأْتِيكَ وفودُ العرب وبيعةُ أهلِ كُلِّ مِصْرَ ، فإِنَّهم لن يَقْطَعُوا أمراً دونك ، فأبَيْتَ عليّ ، وأمرتك حين خرجت هذه المرأةُ وهَذَانِ الرجلان أن تجلسَ في بيتك حتى يصطاحوا ، فإن كان الفسادُ كان على يَدِ غيرك — فَمَصَيْتَنِي في ذلك كُلِّهِ .

(١) الرَبَذَةُ هي التي جعلها عمر رضي الله عنه على لإبل الصدقة قرب المدينة (معجم ما استعجم

فقال على : أئى بُنى ، أمّا قولك : لو خرجت من المدينة حين أُحيطَ بعمان ، فوالله لقد أُحيط بنا كما أُحيط به . وأمّا قولك : لا تُبايع حتى تأتي بيعةُ الأنصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيعَ هذا الأمر ، وأمّا قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كانَ وَهناً على أهل الإسلام ، والله ما زلتُ مقهوراً منذ وليت ، منقوصاً لأصلٍ إلى شيء مما ينبغي . وأمّا قولك : اجلس في بيتك ، فكيف لي بما قد لزمنى ، وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عني يا بنى .

ثم كتب إلى أهل الكوفة : بسم الله الرحمن الرحيم . أمّا بعد ، فإنى اخترتكم والنزول بين أظهركم ، لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجلّ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن جاءنى ونصرنى فقد أجاب الحق ، وقضى الذى عليه .

ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبى بكر ومحمد بن عوف ، فضيا وبقى على الرّبذة يتهمياً ، وأرسل إلى المدينة فالحقه ما أراد من دابة وسلاح ، ثم خطب الناس وقال :

« إن الله أعزّنا بالإسلام ، ورفعنا به ، وجعلنا به إخواناً بعد ذلّةٍ وقلةٍ وتباغضٍ وتباعد ، فجرى الناس على ذلك ماشاء : الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب إمامهم ، حتى أُصيبَ هذا الرجلُ بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان^(١) لينزغ بين هذه الأمة . ألا إن هذه الأمة لا بدّ مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شرّ ما هو كائن .

ثم عاد ثانية فقال : ألا إنّه لا بدّ مما هو كائن أن يكون ، ألا وإنّ هذه

(١) نزغ : حرّكه ، ونزغ بينهم : أفسد وأغرى .

الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلني ، ولا تعمل بعملى ،
فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينكم ، واهتدوا بهدى نبيكم ، واتبعوا سنته ،
واغرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فما عرفه القرآن فالزموه ، وما أنكره
فردوه ، وارضوا بالله عز وجل رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه
وسلم حاكماً وإماماً .

ثم سار والناس من القبائل يتلاحقون حتى نزل بذي قار^(١) ، وقد وافاه
عثمان بن حنيف ، وبلغه ما صنع حكيم بن جبلة ، وما كان من شأن قتلة عثمان ،
فقال : الله أكبر ! ما ينجيني من طلحة والزبير ، إذا أصابا ثأرهما ، أو
ينجيهما !

ثم قرأ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾^(٢) . وأقام بذي قار حتى يأتيه أمر رسوليه إلى الكوفة .

أما رسوله إلى الكوفة فإنيهما أتيا أبا موسى الأشعري بكتاب على ، وقاما
في الناس بأمره ، فلم يجابا إلى شيء ؛ فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجاز على
أبي موسى فقالوا : ما ترى في الخروج ؟ فقال : كان الرأي بالأمس ، إن الذي تهاونتم
به فيما مضى هو الذي جرّ عليكم ماترون ، وما بقي إنما هما امران : القمود سبيل
الآخرة والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا ، فلم ينفروا إليه أحد ، فغضب الرجال
وأغلظا لأبي موسى ، فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لفي عنق وعنق صاحبكما ، فإن
لم يكن بدّ من قتال ، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

(١) ذوقار : ماء لبكر قريب من الكوفة . (٢) الحديد ٢٢ .

فانطلقا إلى عليّ بن أبي طالب وأخبراه الخبر ، فقال للأشتر - وكان معه : أنت صاحبنا في أبي موسى ، فاذهب أنت وابن عباس . نخرجنا إلى الكوفة ، وكلّمنا أبا موسى ، فجمع الناس وخطبهم فقال : أيّها الناس ، إنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله وبرسوله ممّن لم يصحبّه ، وإنّ لكم علينا حقّاً ، فأنا مؤدّيه إليكم ، كان الرأى ألا تستخفّوا بسلطان الله عزّ وجلّ . وألا تجترئوا على الله عزّ وجلّ ، وكان الرأى الثانی أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردّوهم إليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلّح له الإمامة منكم ، ولا تكلفوا الدخول في هذا . فأما إذ كان ما كان فإنّها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب فأغمّدوا السيوف ، واقطعوا الأوتار ، وآووا المظلوم والمضطهد ، حتى يلتئم هذا الأمر وتنبجلى الفتنة .

فرجع ابن عباس والأشتر إلى عليّ فأخبراه الخبر ، فأرسل ابنه الحسن وعمّار ابن ياسر إلى الكوفة ، فلقيهما مسروق بن الأجدع ، فأقبل على عمار وقال : يا أبا اليقظان ، علام قتلتم عثمان ؟ فقال : على شتم أعراضنا وضرب أبنائنا ! فقال : والله ما عاقبتكم بمثل ما عوقبتكم به ، ولئن صبرتم لكان خيراً للصّابرين .

وخرج أبو موسى ، فقال له الحسن : لِمَ تُثبِّط الناسَ عنا ، فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ! فقال : صدقت ، بأبي أنت وأمي ! ولكنّ المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب » . وقد جعلنا الله إخواناً ، وحرّم علينا أموالنا ودماءنا ، وقال : « يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم

بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ^(١) ، وقال جلّ وعزّ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ ^(٢) .

ثم جاء زيد بن صوحان بكتيب عائشة فقرأها على الناس ، فثاروا وافترقوا فريقين ، فقام الحسن بن عليّ فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَجِيبُوا دَعْوَةَ أَمِيرِكُمْ ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من يفِر إليه ، والله لأنّ يَلِيَهُ أُولُو النُّهْيِ أَمْثَلُ فِي الْعَاجِلَةِ ، وخيرٌ في الْعَاقِبَةِ ، فَأَجِيبُوا دَعْوَتَنَا ، وأعينونا على ما ابتليتنا وابتليتكم به .

فأجاب الناس ورضوا به ، وقال لهم الحسن : إِنِّي غَايِرٌ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَخْرُجَ مَعِيَ عَلَى الظَّهْرِ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْرُجْ فِي الْمَاءِ . فَنَفَرَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ تِسْمَةً آلَافٍ أَخَذَ بَعْضُهُمُ الْبَرَّ ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمُ الْمَاءَ .

ولما وصلت الجنود إلى ذِي قَارٍ قَالَ لَهُمْ عَلِيٌّ : قَدْ دَعَوْتُكُمْ لِتَشْهَدُوا مَعَنَا إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَإِنْ رَجَعُوا فَذَلِكَ مَا تُرِيدُ ، وَإِنْ يَلِجُوا دَاوِينَاهُمْ بِالرَّفَقِ ، وَبَايَعْنَاهُمْ حَتَّى يَبْدَهُوا بَظْلَمَ ، وَلَنْ نَدَعَ أَمْرًا فِيهِ صَلَاحٌ إِلَّا آثَرْنَاهُ عَلَى مَا فِيهِ الْفَسَادُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم دعا القمقاع بن عمرو للسِّفَارَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وقال له : أَلَيْسَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، فَادْعُهُمَا إِلَى الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَعَظَّمْ عَلَيْهِمَا الْفُرْقَةَ ، ثم قال له : كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِيمَا تَرَى مِنْهُمَا ، مِمَّا لَيْسَ عِنْدَكَ فِيهِ وَصَاةٌ مِنِّي ؟ فقال : نَلْقَاهُمُ بِالَّذِي أَمَرْتَ ، فَإِذَا جَاءَ مِنْهُمَا أَمْرٌ لَيْسَ عِنْدِي فِيهِ رَأْيٌ مِنْكَ اجْتَهِدْنَا الرَّأْيَ ، وَكَلَّمْنَاهُمُ عَلَى قَدَرٍ مَا نَسْمَعُ وَنَرَى أَنَّهُ يَنْبَغِي ، فقال : أَنْتَ لَهَا .

وقدم القمعاق البصرة ، فبدأ بمائشة ، وقال لها : أى أمة ، ما أشخصك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بُنى ، إصلاح بين الناس ، قال : فأبعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمى كلابى وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال : إني سألت أم المؤمنين : ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ، فأتقولان أنتم ؟ أمّا إيمان أم مخالفان ؟ فقالا : متا إيمان ، قال : فأخبراني ، ما وجه هذا الإصلاح ، فوالله إن عرفناه لنُصلحن ، وإن أنكرناه لا نصلح ، فقالا : قتلة عثمان ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل كان إحياء للقرآن . فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم الذى أفلت^(١) ، فبنه ستة آلاف ، وهم على رجل ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلوكم والذين اعتزلوكم فأديلوا^(٢) عليكم ، فالذى حذرتهم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحييتُم مُصّر وربيعة ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصره هؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالا وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟ فقال : لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة ودركٌ بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شرٍّ وذهاب هذا الثأر ، فأثروا العافية ترضوها ، وكونوا مفاتيح الخير ، ولا تمرضونا للبلاء ، ولا تتمرضوا له ؛ فيصرعنا وإياكم !

(١) يعنى حرقوا . (٢) أديلوا : نصروا .

فقال له القوم : أَحْسَنْتَ وَأَصَبْتَ ، فَإِنَّ جَاءَ عَلِيٌّ بِمِثْلِ مَا قُلْتَ
صَلَحَ الْأَمْرُ .

ثم رجع القَعْمَقَاعُ إِلَى عَلِيٍّ وَأَعْلَمَهُ عِلْمَ الْقَوْمِ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ وَمِنْهُمْ . فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ ،
ثُمَّ أَشْرَفَ الْقَوْمُ عَلَى الصُّلْحِ .

وَأَمَرَ عَلِيٌّ بِالرَّحِيلِ ، وَقَالَ : أَلَا وَإِنِّي رَاحِلٌ غَدًا فَارْتَحِلُوا ، وَلَا يَرْحَلَنَّ غَدًا أَحَدٌ
أَعَانَ عَلَى عَثْمَانَ بِشَيْءٍ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ .

ثُمَّ جَاءَتْ وَفُودُ قَبَائِلِ الْبَصْرَةِ إِلَى قَبَائِلِ الْكُوفَةِ ، وَهُمْ لَا يَرِيدُونَ حَرْبًا وَلَا
يُظَنُّونَهَا ، وَأَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

وَلَكِنْ نَفَرًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَرُقُّهُمْ الصُّلْحُ ، وَلَمْ يَطْمَئِنُّوا إِلَى حَقِّنِ الدِّمَاءِ ، فَاجْتَمَعَ
تَفَرُّدٌ مِمَّنْ سَارَ إِلَى عَثْمَانَ ، وَمَعَهُمُ ابْنُ السَّوْدَاءِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ
غَدًا وَاصْطَلَحُوا ، فَلَيْسَ الصُّلْحُ إِلَّا غُلِينًا ، وَقَالَ ابْنُ السَّوْدَاءِ : إِنَّ عَزَّكَمُ فِي خُلُطَةٍ
النَّاسِ ، فَصَانِعُوهُمْ ، وَإِذَا التَّقَى النَّاسُ غَدًا فَأَنْشِبُوا الْقِتَالَ وَلَا تَفَرِّغُوهُمْ لِلنَّظَرِ .
وَاتَّفَقُوا عَلَى ذَلِكَ وَالنَّاسُ لَا يَشْعُرُونَ .

وَلَمَّا وَصَلَ عَلِيٌّ إِلَى الْبَصْرَةِ بَعَثَ إِلَى الْقَوْمِ : إِنْ كُنْتُمْ عَلَى مَا فَارَقْتُمُ الْقَعْمَقَاعَ
فَكُفُّوا وَأَقْرَأُوا نَزَلَ ، وَنَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ . فَزَلُّوا ، وَالْقَوْمُ لَا يَشْكُوفُ فِي الصُّلْحِ ،
وَمَشَتْ السُّفَرَاءُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَبَاتَ الْقَوْمُ يَنْتَظِرُونَ الْمَافِيَةَ مِنْ هَذَا
الْحَادِثِ الْجَلَالِ .

وَلَمْ يَشْعُرِ النَّاسُ إِلَّا وَالَّذِينَ أَثَارُوا أَمْرَ عَثْمَانَ يَقُومُونَ فِي الْغَلَسِ ، وَيَضَعُونَ
السَّلَاحَ فِي عَسْكَرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَسَأَلَ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرُ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا ؛ طَرَقَنَا أَهْلُ
الْكُوفَةِ لَيْلًا ! فَقَالَا : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ عَلِيًّا غَيْرُ مُنْتَهٍ حَتَّى يَسْفِكَ الدَّمَاءَ وَيَسْتَحِلَّ
الْحَرَمَةَ ، وَأَنَّهُ لَنْ يُطَاوِعَنَا .

وسأل عليّ عن الخبر - وكان السَّبْثِيُّونَ^(١) قد وضعوا رجلاً قريباً منه يُخْبِرُهُ بما يريدون ، فقال له : فوجئنا بقومٍ بَيْتُونَا ، فرددناهم من حيث جاءوا . فقال عليّ : قد علمت أنّ طلحة والزبير غيرُ مُنْتَهِمَيْنِ حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يُطاوِعا ، ولم يجد الفريقان نُدّاً من القتال ؛ إذ لم يكن ثمة مجالٌ لاستجلاء الواقع .

وكانت عائشة في هَوْدَجِها ، قد جلّلتها بالحديد وهي بمسكة ، وجعلت فيه موضعاً لَعَيْنَيْها ، وهي في عسكر أهل البصرة ، وثار العسكران لبعضهما ، وكان القتال في ذلك اليوم من أشدّ القتال هَوْلاً ، وصَدَقَ كلّ فريق الحملة على الفريق الآخر ، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النجدة منهم يُلَوِّذُونَ بِجَمَلِ عائشة ، وَيُدْأَفِعُونَ عنها حتى لا تُصَابَ بِشَرٍّ ، فَقُتِلَ حوله بِشَرٍّ كثير ، وقطعت على زِمَامِه أَيْدٍ كثيرة ، ولا يدور بِخَلَدِ أَحَدٍ من الناس أن يَنْهَزِمَ ، وراجز أهل البصرة يقول :

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ نَزِلُ بِالموتِ إِذَا الموتُ نَزَلَ
نَعْمَى ابْنُ عَمَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلِ الموتُ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ
رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بِجَمَلٍ^(٢)

ولما رأى عليّ كثرةَ القتلى حَوْلَ الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يُسْلِمُونَهُ أبداً وفيهم عَيْنٌ تَطْرَفُ نادى : اعْقِرُوا الجمل . فجاء إلى الجمل رجل من خَلْفِهِ وضرب عرقوبه فَمَقَرَهُ ، وسقط وسقط الهَوْدَجُ ، وكأنه قنْفَذٌ لكثرة ما رُمِيَ به من الذَّبَلِ ، فجاء محمد بن أبي بكر وعَمَّار بن ياسر واحتملا الهَوْدَجَ ، فَنَحَّيَا عَنْ القتلى ، وخرج محمد بمائشة حتى أدخلها البصرة .

(١) السَّبْثِيُّونَ : جماعة نسبوا إلى الله بن سبأ ، وكانوا من الغلاة .

(٢) بِجَمَلٍ ، أى حسب .

وظهر الضعف في الناس فتركهم الزبير بن العوام ، وولى وجهه شطر المدينة ،
فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله وقتلته .
وقُتِلَ في هذا اليوم عشرةُ آلافَ فيهم كثيرٌ من أعلام المسلمين وذوو الغناء
والنَجْدَةِ ، منهم طلحة وابنه محمد وعبد الرحمن بن عتّاب ، وكثير من رجال
قريش .

ولما انتهت الواقعة مرّ على بين القتلى فكلمها رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم
قال : زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء ، وهذا فلان وهذا فلان ! ثم صلى
على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً .

وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه ، فسلم عليها ، وقعد عندها ،
ثم أمر بأن تُجهز إلى المدينة فجهزت خيرَ جهاز ، ولما جاء يومُ رحيلها ودّعها بنفسه
فقال وسط مُشيئها : إنّه والله ما كان بيني وبين عليّ في القسديم إلّا ما يكون
بين المرأة وأحمائها ، وإنّه عندي على معتبتي من الأخيار .

وقال عليّ : آتيا الناس ، صدقت والله وبرّت ! ما كان بيني وبينها إلّا ذلك ،
وإنها زوجةُ نبيكم صلى الله عليه وسلّم في الدنيا والآخرة .
وخرجت من البصرة ، فشيئها أميالاً ، وسرّح بنه معها يوماً .

٣٢ - يوم صفين *

لما عاد عليّ من البصرة بعد فراغه من الجبل قصد الكوفة ، وأرسل إلى جرير ابن عبد الله البجليّ ، وكان عاملاً على همدان^(١) ، استعمله عثمان ، وأرسل إلى الأشعث بن قيس ، وكان على أذربيجان^(٢) ، استعمله عثمان أيضاً ، وأمرهما بأخذ البئمة والحضور ، فلما حضرا عنده أراد عليّ أن يرسل رسولا إلى معاوية ، فقال جرير : أرسلني إليه فأدعوه إلى الدخول في طاعتك . فقال الأشعث لعليّ : لا تبعه ، فوالله إني لأظنّ هواه معه ، فقال عليّ : دعه ، حتى ننظر من الذي يرجع به إلينا . فبعثه إليه ، وكتب معه كتاباً يُعلمه فيه اجتماع المهاجرين والأنصار على بيئته ، ونكت طليحة والزبير ، وما كان من حربته إياهم ، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته .

فشخص جرير حتى قدم على معاوية ، فاطّله واستنظره ، ودعا عمرو بن العاص فاستشاره فيما كتب به عليّ إليه ، فأشار عليه أن يرسل إلى وجوه الشام ، ويُرِّم عليّاً دم عثمان ويقاتله بهم ، ففعل ذلك معاوية . وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان مضرّجاً بدمه مع شيء من كفه وضمو القميص على المنبر ، كما أمرهم معاوية ، واستثاروا الجنود فبكوا على القميص وآلى رجالهم

* الطبري ٥ : ٢٣٥ ، ٦ : ١ ، كان في صفر سنة ٣٧ . وصفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات .

(١) همدان : أكبر مدن الجبال ، فتحت سنة ٢٤ .

(٢) أذربيجان : إقليم بفارس ، من أشهر مدائنه تبريز والمراغة .

أَلَا يَمْسُوا الْمَاءَ ، وَلَا يَنَامُوا عَلَى الْفُرُشِ حَتَّى يَقْتُلُوا قَتْلَةً عُثْمَانَ ، وَمَنْ عَرَضَ دُونَهُمْ بَشِيءً ، أَوْ تَفَنَّى أَرْوَاحُهُمْ .

فَعَادَ جَرِيرٌ إِلَى عَلِيٍّ وَأَخْبَرَهُ خَبَرَ مَعَاوِيَةَ وَاجْتِمَاعِ أَهْلِ الشَّامِ مَعَهُ عَلَى قِتَالِهِ وَبُكَائِهِمْ عَلَى عُثْمَانَ وَاتِّهَامِهِمْ عَلِيًّا بِقَتْلِهِ وَإِيوَاءِ قَتَلَتِهِ ، فَقَالَ الْأَشْتَرُ لِعَلِيٍّ : قَدْ كُنْتَ نَهَيْتُكَ أَنْ تُرْسِلَ جَرِيرًا ، وَلَوْ كُنْتَ أَرْسَلْتَنِي لَكُنْتُ خَيْرًا مِنْ هَذَا الَّذِي أَقَامَ عِنْدَهُ حَتَّى لَمْ يَدْعُ أَبَا بَرْجُو فَتَفْتَحْهُ إِلَّا فَتَحَهُ ، وَلَا أَبَابًا يَخَافُ مِنْهُ إِلَّا أُغْلِقَهُ .

فَقَالَ جَرِيرٌ : لَوْ كُنْتُ نَمًّا لَقَتَلْتُكَ ، فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّكَ مِنْ قَتْلَةِ عُثْمَانَ ، فَقَالَ الْأَشْتَرُ : وَاللَّهِ لَوْ أَتَيْتُهُمْ لَمْ يُعَيِّنِي جَوَابُهُمْ ، وَلَحَلْتُ مَعَاوِيَةَ عَلَى خُطَّةٍ أُعْجِلُهُ فِيهَا عَنِ الْفِكْرِ ، وَلَوْ أَطَاعَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِحَبْسِكَ وَأَشْبَاهِكَ حَتَّى يَسْتَقِيمَ هَذَا الْأَمْرُ . ثُمَّ خَرَجَ عَلَى فَمَسْكَرٍ بِالنُّخَيْلَةِ^(١) ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ فَيَمَنَ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ فَاسْتَشَارَ عُمَرَ ، فَقَالَ : أَمَّا إِذَا سَارَ عَلَى فَيْسَرٍ إِلَيْهِ بِنَفْسِكَ ، وَلَا تَغِيبَ عَنْهُ بِرَأْيِكَ وَمَكِيدَتِكَ .

فَتَجَهَّزَ مَعَاوِيَةُ ، وَتَجَهَّزَ النَّاسُ ، وَحَضُّهُمْ عُمَرُو ، وَضَعَفَ عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ ، وَقَالَ : اللَّهُ فِي حَقِّكُمْ أَنْ تُضَيِّمُوهُ ، وَفِي دَمِكُمْ أَنْ تُطْلُوهُ^(٢) .

وَاسْتَنْهَضَ مَعَاوِيَةُ أَهْلَ الشَّامِ ، وَعَقَدَ لَوَاءً لِعُمَرُو ، كَمَا عَقَدَ لَابْنِيهِ عَبْدِ اللَّهِ وَمُحَمَّدٍ ، وَلَوَاءً لِفُلَامِهِ وَرَدَّانَ . وَسَارَ مَعَاوِيَةُ مَتَأْنِيًّا فِي سِيرِهِ .

وَأَخَذَ عَلِيٌّ بِجُنُودِهِ طَرِيقَ الْجَزِيرَةِ وَعَبَرَ الْفَرَاتَ مِنَ الرَّقَّةِ ، وَمِنْ هُنَاكَ قَدَّمَ طَلَائِئَهُ أَمَامَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِسُورِ الرُّومِ التَّقَوَّا بِطَلَائِعِ مَعَاوِيَةَ ، فَكَانَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مُنَاوَشَاتٌ قَلِيلَةٌ ، ثُمَّ تَحَاجَزُوا .

(١) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

(٢) أن تطلوه : أن تهدروه من غير نار .

وتلاحقت جنود عليٍّ ومعاوية ، وعسكرت الطائفتان في سهل صِفِّين ، وتوافقت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض .

وكان معاوية قد سبق عليًّا ، فنزل منزلاً اختاره واسماً أُفَيْح ، وأخذ شريعةَ الفرات ، وليس في ذلك الصَّمْعُ شريعةَ غيرها ، وجعلها في حوزته ، وبعث عليها أبا الأعور السُّلَميَّ يَحْمِيها وَيَمْنَعُها . فطلب أصحابُ عليٍّ شريعةَ غيرها فلم يجدوا فأتوا عليًّا ، فأخبروه بِفِعْلِهِمْ وبِعَطَسِ النَّاسِ ، فدعا صَمْعَةَ بنَ صُوحَانَ ، وأرسله إلى معاوية يقول له : إنا سِرْنَا مسيرنا هذا ونحن نَكْزِرُهُ قتالكم قبل الإغذار إليكم ، فقدَّمْتُ إلينا خيلَكَ ورجالَكَ فقاتلنا قبل أن نقارنَكَ ، ونحن من رأينا الكفَّ حتى ندعوك ونحتجَّ عليك ، وهذه أخرى قد فَعَلْتُمُوهَا : منعمُ الناس عن الماء ، والناس غير مُنْتَهين ، فابثْ إلى أصحابِكَ فليُخْلُوا بين الناس وبين الماء ، وليكفُّوا لِنَظَرِ فِيا بيننا وبينكم ، وفيما قَدِمْنَا له ، فإن أردتَ أن تَتْرُكَ ما جِئْنَا له ونَقْتَتِلَ على الماء حتى يكون الغالبُ هو الشارب فَعَلْنَا .

فقال معاوية لأصحابه : ماترون ؟ فقال الوليد بن عُقْبَةَ : امنعهم الماء كما منعه ابنُ عَفَّان ، اقتلهم عطشاً قتلهم الله ! فقال عمرو بن العاص : خلَّ بين القوم وبين الماء ، وإِنَّهم لن يَمُطِّشُوا وأنتَ رَيَّان ، ولستَ بغير الماء فانظر فِيا بينك وبينهم . فأعاد الوليد بن عُقْبَةَ مَقَالَه ، وقال عبد الله بن أبي سَرْح : امنعهم الماء إلى الليل ، فَإِنَّهم إن لم يَقْدِرُوا عليه رَجَعُوا ، ولو رَجَعُوا كان رجوعُهم هزيمة .

فقال صَمْعَةُ : إِنَّمَا يَنْعَمُ الله الفَجْرَةَ وشَارِبِي الخمر يومَ القيامة ، لعنكَ الله ولعن هذا الفاسق - يعني الوليد - فشتموه وتهدِّدوه . فرجَعَ صَمْعَةُ إلى عليٍّ فأخبره بما كان ، وأن معاوية قال : سيأتيسكم رأيي . فلما سمع عليٌّ ذلك قال : قَاتِلُوهم على الماء ،

فقال الأشعث بن قيس الكندي : أنا أسيرُ إليهم ، فقال له عليٌّ : فسيرُ إليهم ؛ فسارَ وسار معه بعضُ أصحابِ عليٍّ ، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرمواهم بالنبل ، فتراموا ساعة ، ثم تطاعنوا بالرماح ، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة ، ثم توات الأمداد للفريقين ، وغلب أصحابُ عليٍّ حتى صار الماء في أيديهم ، وقالوا : والله لا نسقيه أهلَ الشام ، فأرسل عليٌّ إلى أصحابه أن خذوا من الماء حاجتكم وخلّوا عنهم ، فإن الله نصركم ببنيهم وظلمهم .

ثم إنَّ عليًّا دعا ثلاثة من رجاله ؛ وهم بشير بن عمرو الأنصاري ، وسميد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعي التميمي ، فقال : ائتوا ههنا الرجل ، فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث : يا أمير المؤمنين ، ألا تُطمِئنه في سلطان توليه إياه ، أو منزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايمك ؟ فقال عليٌّ : ائتوه فالقوه واحتجّوا عليه وانظروا ما رأيته .

فساروا حتى دخلوا عليه ، ثم قام بشير بن عمرو الأنصاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معاوية ؛ إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عزّ وجلّ مُحاسبك بمملك ، ومجازيك بما قدّمتَ يداك ، وإنّي أنشدك الله عزّ وجلّ أن تفرّق جماعةَ هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها . فقطع عليه معاوية الكلام وقال : هلا أوصيتَ بذلك صاحبك ! فقال بشير : إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبي أحقُّ البرية كلّها بهذا الأمر ، في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقربة من الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : فيقول ماذا ؟ قال : يأمرُك بتقوى الله عزّ وجلّ ، وإجابة ابنِ عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلمُ لك في دنياك وخيرٌ لك في عاقبة أمرك . قال معاوية : ونُظِّل دَمَ عثمان ! لا والله ، لا أفعل ذلك أبداً .

فقام سميد بن قيس ليتكلم، فبادره شبت بن ربيع، فتكلم وحيد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معاوية ، إني قد فهمت ما ردّدت ، إنه والله لا يخفى علينا ما تفرو وما تطلب ؛ إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم ، إلا قولك : قُتل إمامكم مظلوماً ، فنحن نطأ دمه ، فاستجاب لك سفهاء طغام^(١) ؛ وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، وربّ مُتمنى أمرٍ وطالبه يحول الله عزّ وجلّ دونه بقدرته ، وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته ، والله ما أك في واحدة منهما خير ؛ لأن أخطأت ما ترجو إنك لشرّ العرب حالا في ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحلّ من ربك صلا النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فقام معاوية ، وحيد الله وأثنى عليه ؛ ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ أول ما عرفت فيه سفهك وخفة حلمك قطعك على هذا الحبيب الشريف سيّد قومه منطقة ، ثم عنيت بعد فيما لا علم لك به ، فقد كذبت ولومت أيها الأعرابيّ الجلف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف . فقال شبت : أفعلىنا تهول بالسيوف ! أقسم بالله ليُمنجلن بها إليك ! ثم اتوا عليّاً فأخبروه الخبر .

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك ، فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق ، فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون ، وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة ،

(١) الطغام : أوغاد الناس .

فلما أهلك المحرم توادع الفريقان على ترك الحرب فيه إلى انتقضائه طمعاً في الصلح ،
واختلف بينهما الرسل .

فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد
ابن خصفة . فلما دخلوا على معاوية حمد الله عدى بن حاتم ، ثم قال : أمّا بعد ، فإننا
أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به عزّ وجلّ كلمتنا وأمتنا ، ويحقن به الدماء ،
وتأمن به السبل ، وتصلح ذات البين ؛ إن ابن عمك سيّد المسلمين أفضّلنا سابقة ،
وأحسننا في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدكم الله بالذي رأوا ، فلم
يبق أحدٌ غيرك وغير من معك ، فانتبه يا معاوية ، لا يصيبك الله وأصحابك بيوم
مثل يوم الجمل .

فقال معاوية : كأنك إنما جئت متهدداً ولم تأت مصححاً ! هيهات يا عدى ! كلاً
والله إني لا أبن حرب ، ما يمتنع^(١) لي بالشنان ؛ أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ،
وإنك لمن قتلتته ، وإني لأرجو أن تكون بمن يقتل الله عزّ وجلّ به ، هيهات
يا عدى ، قد حلفت بالساعد الأشدّ .

فقال شبث بن ربعي وزياد بن خصفة : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ؛ فأقبلت
تضرب لنا الأمثال ! دَعْ ما لا يُنتفعُ به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمُنّا
وإياك نفعه .

وقال زيد بن قيس الأرحبي : إنّا لم نأتك إلا لنبلغك ما بُعثنا به إليك ولنؤدّي
عنك ما سمعنا منك ، ونحن على ذلك لن ندعك إلا بعد أن ننصح لك ؛ ونذكرك
ما ظننّا أنّ لنا به عليك حُجّة ، وإنك راجع به إلى الألفة والجماعة ، إن صاحبنا

(١) ما يمتنع لي بالشنان ، أى ما أخدع وما أروع ، وهو مثل . والشنان : الجلد اليابس ،
والنقمة به : تحريكه للبعير ليفزع .

مَنْ قَدْ عَرَفْتَ وَعَرَفَ الْمُسْلِمُونَ فَضْلَهُ ، وَلَا أَظُنُّهُ يَخْفَى عَلَيْكَ ؛ إِنْ أَهْلَ الدِّينِ وَالْفَضْلَ لَنْ يَمْدُلُوا بِعَلَى ، وَلَنْ يُعَيِّلُوا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعَاوِيَةُ ، وَلَا تَخَالَفْ عَلِيًّا ؛ فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطَّ أَعْمَلَ بِالتَّقْوَى وَلَا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا وَلَا أَجْمَعَ لِحَصَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا مِنْهُ .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّكُمْ دَعَوْتُمْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَأَمَّا الْجَمَاعَةُ الَّتِي دَعَوْتُمْ إِلَيْهَا فَمَعَنَا ، وَأَمَّا الطَّاعَةُ لِمُصَاحِبِكُمْ فَإِنَّا لَا نَرَاهَا ؛ إِنْ صَاحِبَكُمْ قَتَلَ خَلِيفَتَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَآوَى ثَأْرَنَا وَقَتَلْتَنَا ، وَصَاحِبَكُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ ، فَنَحْنُ لَا نَزِدُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، أَرَأَيْتُمْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا ؟ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ صَاحِبِكُمْ . فَلْيَدْفَعُوهُمْ إِلَيْنَا فَلْنَقْتُلْهُمْ بِهِ ، ثُمَّ نَحْنُ نُجِيبُكُمْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ .

فَقَالَ لَهُ شَبَثٌ : أَيْسَرُكَ يَا مَعَاوِيَةُ أَنَّكَ مُكِّنْتَ مِنْ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ ؟ فَقَالَ : وَمَا يَعْْنِي مِنْ ذَلِكَ ؟ وَاللَّهِ لَوْ أُمِيتُ مِنْ ابْنِ سُمَيَّةٍ مَا قَتَلْتُهُ بَعْمَانَ ، وَلَكِنْ كُنْتُ قَاتِلَهُ بَنَائِلَ مَوْلَى عُمَانَ .

فَقَالَ شَبَثٌ : لَا تَصِلْ إِلَى عَمَّارٍ حَتَّى تَنْدُرَ^(١) الْهَامَ عَنْ كَوَاهِلِ الْأَنْوَامِ ، وَتَضِيقَ الْأَرْضُ الْفَضَاءَ عَلَيْكَ بِرُحْبِهَا . فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهُ لَوْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ كَانَتْ الْأَرْضُ عَلَيْكَ أَضْيَقَ .

وَرَأَى مَعَاوِيَةُ أَنْ يَرْسِلَ لِعَلِيٍّ أَيْضًا فَبَعَثَ إِلَيْهِ حَبِيبَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيُّ وَشُرْحَبِيلَ بْنَ السَّمْطِ ، وَمَعْنُ بْنُ يَزِيدَ بْنَ الْأَخْنَسِ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَتَكَلَّمَ حَبِيبٌ ، فَقَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عُثْمَانَ كَانَ خَلِيفَةً مَهْدِيًّا يَعْمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُنِيبُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَاسْتَقْلَمَ حَيَاتَهُ ، وَاسْتَبْطَأَتْهُمُ وَفَاتَهُ ، فَمَدَّوْتُمْ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُمُوهُ ، فَادْفَعُوا إِلَيْنَا قَتْلَةَ عُثْمَانَ - إِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَقْتُلْهُ - نَقْتُلْهُمْ بِهِ ، ثُمَّ اغْتَرِزْ أَمْرَ

(١) تندر : تقطع .

الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يُؤْتِي النَّاسُ أَمْرَهُمْ مَنْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ رَأْيَهُمْ .
فقال له : ما أنت لا أمَّ لك والمزل وهذا الأمر ، اسكُتْ فَإِنَّكَ لَسْتَ هُنَاكَ ، ولا
بأهلٍ له ! فقام وقال : والله لترينني بحيث تسكره ! فقال عليّ : وما أنت وإن أجلبت
بخيالك ورَجَلِك ! اذهب فصوصب وصعد ما بدا لك !

وقال شُرْحَبِيلُ بْنُ السَّمُطِ : ما كلامي إلّا مثل كلام صاحبي ، فهل عندك
جوابٌ غيرُ الذي أجبتَ به من قَبْلِ ؟ فقال عليّ : نعم . ثم حمد الله وأثنى عليه ،
وذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ، ثم ذكر أن الله قبضه
إليه ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فأحسننا السيرة وعدلا في
الأمّة ، وقد وجدنا عليهما أن تولّيا عنا ، ونحن آل رسول الله ، فغفرنا ذلك لهما ،
وولى عثمانُ فعمل أشياء عابها الناس عليه ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتاني الناس وأنا
معتزلُ أمورهم ، فقالوا لي : بايع فأبيتُ عليهم ، فقالوا لي : بايع فإنّ الأمّة لا ترضى
إلا بك ، وإنّا نخافُ إن لم تفعل أن يَفْتَرِقَ الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعنى إلا شِقَاقُ
رجلين قد بايعاني ، وخلافُ معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سلف
صدق في الإسلام ، طليق ابن طليق ، حزب من هذه الأحزاب لم يزل الله ورسوله
وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين ، فلا غرو إلا انقيادُكم له
وتدعون آل نبيكم الذي لا ينبغي لکم شِقَاقُهُمْ ولا خلافهم ، ولا أن تمسّدوا بهم
من الناس أحدا ، ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإمارة الباطل وإحياء
معالم الدين .

فقال له شُرْحَبِيلُ : اشهد أن عثمان قتل مظلوما ، فقال لهما : لا أقول إنه قتل
مظلوما ، ولا إنه قتل ظلما . قالوا : فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فنحن منه
برّاء ، ثم انصرفا .

فقال على : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أَمْدَبِينَ *
وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يَوْمُنُ بَيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلَمُونَ ﴾ (١) .

ولما انسلخ المحرم أمر على من ينادى : أَلَا إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكُمْ : إِنْ قَدْ
اسْتَدْمَعْتُمْ لَتَرَا جَمْعَ الْحَقِّ وَتَنْبِيْهُوَ إِلَيْهِ ، وَاحْتَجَجْتُ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَدَعَوْتُكُمْ
إِلَيْهِ فَلَمْ تَنْتَهُوْا عَنْ طُغْيَانٍ ، وَلَمْ تُجِيبُوا إِلَى حَقٍّ ، وَإِنِّي قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ .

فَفَزَعَ أَهْلُ الشَّامِ إِلَى أَمْرَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ وَعُمَرُو يَكْتَبَانِ الْكِتَابَ
وَيُعَبِّثَانِ الْجِيُوشَ ، وَفَعَلَ عَلَى فَعْلِهِمَا ، وَقَالَ : لَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ ، فَأَنْتُمْ عَلَى
حِجَّةٍ ، وَتَرَكْتُمْهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ حِجَّةٍ أُخْرَى ، فَإِذَا هَزَمْتُمُوهُمْ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا وَلَا تُجْهِزُوا
عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَكْشِفُوا عَوْرَةً ، وَلَا تَمْثَلُوا بِقَتِيلٍ ، وَإِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى رِحَالِ الْقَوْمِ
فَلَا تَهْتَكُوا سِتْرًا ، وَلَا تَدْخُلُوا دَارًا ، وَلَا تَأْخُذُوا شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَلَا تُهْرِجُوا
امْرَأَةً ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَبْنِ أَمْرَاءَكُمْ فَإِنَّهُمْ ضِعَافُ الْقَوَى وَالْأَنْفُسِ . وَكَانَ
يَقُولُ هَذَا الْمَعْنَى لِأَصْحَابِهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ .

وَحَرَّضَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ : عِبَادَ اللَّهِ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ وَاخْفَضُوا الْأَصْوَاتَ
وَأَقْلُوا الْكَلَامَ ، وَوَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْمَسَازِلَةِ وَالْمَجَاوِلَةِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالْمِنَاضِلَةِ وَالْمَعَانِقَةِ
وَالْمَسَاكِمَةِ وَالْمَلَاظِمَةِ ، فَابْتَنُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ، وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، اللَّهُمَّ أَلْهِمَّهُمُ الصَّبْرَ ،
وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ ، وَأَعْظِمْ لَهُمُ الْأَجْرَ .

وَأَصْبَحَ عَلَى فَجْمَلٍ عَلَى خَيْلِ الْكُوفَةِ الْأَشْتَرِ ، وَعَلَى جَنْدِ الْبَصْرَةِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ

وعلى رجالة الكوفة سمار بن ياسر ، وعلى رجالة البصرة قيس بن سعد ، وهاشم بن عتبة معه الرّاية ، وجعل مسمر بن فدّك على قراء أهل البصرة .

وبعث معاوية على ميمنته ابن ذى الكلاع الحميري ، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري ، وعلى المقدّمة أبا الأعور السّلمي ، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص .
وعلى رجالة دمشق مسلم بن عتبة المُرّي ، وعلى رجالة الناس كلهم الضّحّاك ابن قيس .

وبايع رجال من أهل الشام على الموت ، فمقلّوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا خمسة صفوف ، وخرجوا أول يوم من صفر فاقتتلوا ، وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى من خرج من أهل الشام حبيب بن سلمة ، فاقتتلوا يومهم قتالاً شديداً معظم النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض .

ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال ، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السّلمي ، فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا .

وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ، فاقتتلوا قتالاً شديداً .

وفي اليوم الرابع خرج محمد بن عليّ بن أبي طالب ، وخرج إليه عبيد الله بن عمر ابن الخطاب في جمعين عظيمين ، فاقتتلوا أشدّ قتال ، وأرسل عبيد الله إلى ابن الحنفية يدعوه إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فحرك عليّ دابته ، وردّ ابنه ، وبرز عليّ إلى عبيد الله ، فرجع عبيد الله ، وقال محمد لأبيه : لو تركتني لرجوت قتله . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف تبرّز إلى هذا الفاسق ؟ والله إنّي لأرغب بك عن أبيه فقال عليّ : يا بنيّ ، لا تقل في أبيه إلا خيراً . وتراجع الناس .

وخرج عبد الله بن عباس في اليوم الخامس ، وخرج إليه الوليد بن عتبة ، فاقتلوا قتالا شديداً ؛ فسبَّ الوليد بنى عبد المطلب ، فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى وقتل ابن عباس قتالا شديداً .

وخرج في اليوم السادس قيس بن سعد الأنصاري ، وخرج إليه ابن ذى السكلاع الحميري ، فاقتلوا قتالا شديداً ، وانصرفوا .

ثم إن علياً قال : حتّى متى لانا هاض هؤلاء القوم بأجمعنا ! ثم حمد الله وأثنى عليه . ثم قال : الحمد لله الذي لا يُبرّم ما تنقض ، وما أبرّم لا ينقضه الناقضون ، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا اختلفت الأمة في شيء ، ولا جحد الفضول ذا الفضل فضله ، وقد ساقطنا هؤلاء القوم الأقدار ، فنحن من ربنا بمرأى ومسمع ؛ فلو شاء عجل النّعمة ، وكان منه التغير حتى يكذب الله الظالم ، ويعلم الحق أين مصيره ! ولكنّه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة دار القرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ألا وإنكم لا تؤقون القوم غداً ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، والقوم بالجد والعزم ، وكونوا صادقين .

فقام القوم يصلحون سلاحهم ، فترّ بهم كعب بن جُميل ، فقال :
أصَبَحَتِ الأُمّةُ في أمرٍ عَجَبُ والمُلكُ مجموعٌ غداً لَمَنَ غَلَبُ
فقلتُ قولاً صادقاً غيرَ كَذِبٍ إنَّ غداً تَهْلِكُ أعلامُ العربِ

وعبّى على الناسَ ليلته حتى الصباح ، وزحف بالناس ، وخرج إليه معاوية في أهل الشام ، وعرف على القبائل ، فقال للأزد : اكفونا الأزد ، وقال لخثم : اكفونا خثم ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام ، إلا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد ، فيصرفها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس منهم بالعراق

أحد ، مثل بجيلة ، إذ لم يكن بالشام منهم إلا القليل ، فصرّفهم إلى خُلم .
وتناهض الناسُ يومَ الأُرْبَعاءِ ، واقتتلوا قتالاً شديداً . ثم انصرفوا عند المساء
وكلٌّ غير غالب . فلما كان يوم الخميس صلى على بَغْلَسَ ، وخرج بالناس إلى أهل الشام ،
فرحف إليهم وزحفوا معه ، ثم انتهى هذا اليوم ، وقد انكشفت ميمنة أهل العراق ،
وانتهت هزيمتهم إلى على ؛ فشى نحو الميسرة ، فانكشفت عنه مُضَرَّ في الميسرة ،
وثبتت معه ربيعة ، ودنا منه أهل الشام ، فما زاده قُرْبُهُمْ إلا إسراعاً ، فقال له ابنه
الحسن : ما ضرّك لو سميتَ حتى تنتهى إلى هؤلاء القوم من أصحابك ! فقال : يا بني ،
إن لأبيك يوماً لا يعدوه ، ولا يبطيء به عنه السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ، إن
أباك والله لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

فلما وصل إلى ربيعة نادى بصوت عال كغير المكثرت لما فيه الناس : لمن هذه
الرايات ؟ قالوا : رايات ربيعة ، قال : بل رايات عصم الله أهلها ، فصبرهم وثبت
أقدامهم .

وصرّ بعلى في ذلك الوقت الأُشترُ التَّخَمي ، فقال له : ائت هؤلاء القوم . فقل
لهم : أين فراركم من الموت ؟ فذهب إليهم الأُشتر ، وهيج الناسَ لخوض الغمرات ،
فتأبموا وكرّوا معه ، فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه وردّه ،
ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجرة ، وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ،
ولم يزل الأُشتر في هيجته حتى وصل إلى حَرَسِ معاوية ، وكان معاوية يقول : أردتُ
في هذا الوقت أن أنهزم ، فذكرت قول ابن الإطنابة :

أبت لي عَفَّيتي وأبى بلائي	وإقداي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي	وأخذني الحمد بالثمن الربيع
وقولي كلما جشأت وجاشت :	مكانك تحمدي أو تستريحي

فدعنى هذا القول من الفرار .

ولما أمسى المساء على الفريقين لم يفترقا ، واستمر القتال حتى الصباح ؛ وسميت هذه الليلة ليلة الهرير ، يُشبهونها بليلة القادسية ، فتطاعنوا حتى نقصت الرماح ، وتراموا حتى نفذ النبل ، وأخذوا السيوف ، وعلى يسير فيما بين اليمين والميسرة ، ويأمر كل كتيبة أن تقدم على التي تليها ، والأشتر يقول : من يشتري نفسه ، ويقا تل مع الأشتر يظهر أو يلحق بالله ! فاجتمع إليه ناس كثير ، فقال لهم : شدوا شدة - فدى لكم خالى وعمى - ترضون بها الرب ، وتمزقون بها الدين ثم ضرب وجه دابته ، وقال لصاحب رايته : أقدم بها ، وحمل على القوم ، وحملوا معه ، ف ضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم ، فقاتلوه قتالا شديداً .

ولما رأى على الظفر من ناحية الأشتر أمدّه بالرجال ، فقال عمرو بن العاص لوردان موله : أتدرى ما مثلى ومثلك ومثل الأشتر ؟ قال : لا ، قال : كالأشقر ، إن تقدم عقر ، وإن تأخر عقر ؛ لأن تأخرت لأضربن عنقك ، قال : أما والله يا أبا عبد الله ؛ لأوردنك حياض الموت ، ضع يدك على غايتى . ثم جعل يتقدم ويتقدم ويقول : لأوردنك حياض الموت . واشتد القتال .

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك فى أمر أغرضه عليك ، لا يزيدنا إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فرقة ؟ قال : نعم ، قال : زفع المصاحف ، ثم نقول : هذا حكم فيما بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول : ينبغي لنا أن نقبل ، فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفمنا القتال عنا إلى أجل !

فوافق معاوية ، وأشار على أصحابه بهذا الرأى ، فرفموا المصاحف على الرماح ،

وقالوا : هذا حُكْمُ كتاب الله عزَّ وجلَّ بيننا وبينكم ، مَنْ لثغور الشام بَمَدِّ أهله !
مَنْ لثغور العراق بَمَدِّ أهله .

فقال أهل الكوفة : نجيب إلى كتاب الله ، فقال لهم عليٌّ : عبادَ الله ! امضُوا
على حقِّكم وصدقكم وقاتلِ عَدُوَّكُمْ ؛ فَإِنَّ معاويةَ وَعَمْرًا وَالضَّحَّاكَ وَمَنْ معهم
ليسوا بأصحابِ دين ولا قرآن ، أنا أعرفُ بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالا ،
ثم رجالا ، فكانوا شرًّا أطفالا وشرًّا رجالا ، وَيَحْكُمُ ! والله ما رفعوها إلا خديعة
ووهنا ومكيدة .

فقالوا له : لا يَسْمَعُنَا أَنْ نُدْعِيَ إلى كتاب الله فنأبى أَنْ نقبله . فقال لهم عليٌّ :
فإني إنما أقاتلهم لِيَدِينُوا لِحُكْمِ الكتاب ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا
عَهْدَهُ ، وَنَبَذُوا كِتَابَهُ . فقال له مسمر بن فديك التميمي وزيد بن حصين الطائي
في عصاة من القرءاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا عليُّ أجبْ إلى كتاب الله
عز وجل إذ دُعيت إليه ، وإلا دفمناك بِرُمَّتِكَ إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا
بأبن عفان ! قال : فاحفظوا عني تَهْشِييَ إياكم ، واحفظوا مقاتلتكم ، فإن تطيعوني
فقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم .

قالوا : ابْعَثْ إلى الأشتر فليأتِكَ . فبعث عليٌّ يزيد بن هانئ إلى الأشتر
يستدعيه ، فقال الأشتر : ليست هذه الساعة بالساعة التي ينبغى لك أن تُزِيلَنِي
عن موقفي : إني قد رجوتُ أَنْ يَفْتَحَ الله لي .

فرجع يزيد فأخبره ، وارتفعت الأصوات ، وارتفع الرَّهَجُ^(١) من ناحية
الأشتر ، فقالوا : والله ما نراك إلا أَمْرَتَهُ أَنْ يقاتل ، فقال عليٌّ : هَلْ رأيتُموني
ساررته ؟ أَمَا كلُّهُ على رؤوسكم وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعث إليه فليأتِكَ

(١) الرَّهَجُ : الشغب .

وإلا والله اعتزلناك ، فقال له : ويلك ! يا يزيد قل له أقبل إلى ، فإن الفِئنة قد وقعت ، فأبلغه ذلك ، فقال الأشر : أرفع المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : والله لقد ظننت أنها سترفع اختلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن العاص ، ألا ترى إلى الفتح ، ألا ترى ما يلقون ، ألا ترى ما صنع الله لنا ! لن ينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم . فقال له يزيد : أتحب أن تظهر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل ! قال : لا والله ، سبحان الله ، فأعلمه بقولهم . فأقبل إليهم الأشر وقال : يا أهل العراق ، يا أهل الذل والوهن ، أحين علوتم القوم ، وظننوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيا ! وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه . فأهلوني فوآقا^(١) ؛ فإني قد أحسست بالفتح . قالوا : لا ، قال : أمهلوني عدو الفرس فإني قد طمعت في النصر . قالوا : إذن ندخل معك في خطيئتك . قال : فخبروني عنكم ، متى كنتم محقين ! أحين تقاتلون وخياركم يقتلون ! فأنتم الآن إذا أمسكنم عن القتال مبطلون . أم أنتم الآن محقون ، فقتلكم الذين تنكرون فضلهم وهم خير منكم في النار .

قالوا : دعنا منك يا أشر ، قاتلناهم لله ، وندع قتالهم لله ؛ قال : خدعتم وانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتهم ، يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا ، وشوقاً إلى لقاء الله ، فلا أرى مرادكم إلا قبجاً ، يا أشباه النيب الجلالة^(٢) ، ما أنتم برائين بمسدها عزاً أبداً ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون .

فسبّوه وسبّهم وضربوا وجهه دابته بسياطهم ، وضرب وجوه دوابهم بسوطه ،

(١) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت . (٢) النيب الجلالة : النياق المسنة .

فصاح به وبهم عليّ فكفّوا . وقال الناس : قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً .

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال : أرى الناس قد رَضُوا بما دَعَوْهم إليه من حُكْم القرآن ، فإن شئتُ أتيتُ معاوية ، فسألته : ما يريد ؟ قال : ائته ، فأتاه فقال لمعاوية : لأى شيء رفعتُم هذه المصاحف ؟ قال : لنرجعَ نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه ، تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به ، نأخذ عليهما أن يَمَعَّلا بما في كتاب الله لا يَمْدُوانه ، ثم نتَّبِع ما اتفقا عليه . قال له الأشعث : هذا الحق .

ثم عاد الأشعث إلى عليّ ، وأخبره بما قال معاوية ، وتراضى الفريقان على هذا الرأي ، وقال أهل الشام : قد رضينا عمرو بن العاص . وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج : إنا قد رضينا بأبي موسى الأشعريّ ! فقال عليّ : قد عصيتُموني في أوّل الأمر ، فلا تعصوني الآن ، لأرى أن أوّلَ أبا موسى . فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسر بن فنك : لا نَرْضَى إلّا به ؛ فإنه قد حَذَرنا ما وقعنا فيه .

قال عليّ : فإنه ليس بشقة ، قد فارقتُ وخَذَل الناس عني ، ثم هرب مني حتى أمَّنته بمد أشهر ، ولكن هذا ابنُ عباس ، أوَّلِيه ذلك ، قالوا : والله ما نبألى أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلّا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء . قال عليّ : فإنى أجعل الأشر ، قالوا : وهل سَمَر الأرضَ غَيْرُ الأشر ! فقال : قد أبيتُم إلّا أبا موسى ؟ قالوا : نعم ، قال : فاصنعوا ما أردتم .

فبعثوا إليه ، وقد اعتزل القتال ، فدخل عليه مَوْلى له ، فقال : إن الناس قد

اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ، قال : قد جعلوك حكماً ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .
ثم جاء أبو موسى حتى دخل العسكر .

ولما علم الأشر جاء إلى عليّ فقال : أُرِزْتَنِي^(١) بعمر بن الماص ، فوالله لئن ملأت عينى منه لأقتلته . وجاء الأحنف بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رُميت بحجر الأرض ، وإنى قد عَجَمْتُ أبا موسى وحلبتُ أشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب القمر ، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يَدْنُو منهم حتى يصير في أكفهم ، ويبعدُ حتى يصير بمنزلة النجم منهم ، فإن أبيت أن تجعلنى حكماً فاجعلنى ثانياً أو ثالثاً ، فإنه لن يَعمد عُقدة إلا حللتها ، ولا يحل عُقدة أعقدتها لك إلا عقدتُ أخرى أحكم منها . فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب ، فقال الأحنف : إن أيتم إلا أبا موسى فأدْفنوا ظهره بالرجال .

وحضر عمرو بن الماص عند عليّ ليكتب العهد بحضوره ، فكتبوا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين . . . » فقال عمرو للكاتب : اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم ، وأما أميرنا فلا . فقال الأحنف : لا تمنحُ اسمَ أمير المؤمنين ، فإنى أخافُ إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً ، لا تمنحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً ! فأبى ذلك عليّ ملياً من النهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال للكاتب : امحُ هذا الاسم ، فحماه ، فقال عليّ : الله أكبر ! سنة بسنة ، وإنى لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فكتبت « محمد رسول الله » ، فقالت قريش : لست برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ،

(١) لزمه وألزمه : ألصقه .

فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه ، فقلت : لا أستطيع ، فقال : أرنيه ، فأريته ، فحاه بيده ، وقال : إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب ، فقال عمرو : سبحان الله ! أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ! فقال عليّ : ومتى لم تكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً ! فقال عمرو : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد هذا اليوم أبداً ، فقال عليّ : أنى لأرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك ، ثم كتب الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان ، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين : إننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، وألا يجمع بيننا غيره ، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِي ما أحيأ ، ونُمِيت ما أُمات ، فما وجد الحكمان - وما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص - في كتاب الله عز وجلّ عملاً به ، وما لم يجداه في كتاب الله عز وجلّ ، فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من اليهود والمواثق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهدُ الله وميثاقه أننا على ما في هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتُهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدٍهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يردّاها في حرب ولا فرقة حتى يمضيا الله . وأجلا القضاء إلى رمضان ، وإن أحبّا أن يؤخرا ذلك أخرا على تراضٍ منهما ، وإن توفّى أحد الحكّمين فإن

أمير الشيعة يختار مكانه - ولا يالو - من أهل المعدلة والقسط ، وإن كان القضية الذي يقضيان فيه مكانٌ عدل بين أهل الكوفة والشام ، وإن رضيا وأحبًا ، فلا يحضرهما فيه إلا مَنْ أرادا . ويأخذ الحكماء مَنْ أرادا من الشهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصارٌ على مَنْ ترك هذه الصحيفة ، وأراد إلحاداً أو ظلاماً ؛ اللهم إنا نستنصرك على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة .

وشهد الأشعث بن قيس وسعيد بن قيس الهمداني وورقاء بن سمى البجلي ، وغيرهم من أصحاب علي ، وأبو الأعور السلم ، وحبيب بن مسلمة وزمّل بن عمرو المذري من أصحاب معاوية . وقيل للأشعث ليكتب فيها ، فقال : لا صحتني يميني ولا نعمتني بعدها شمالي ، إن خطّ لي في هذه الصحيفة اسم . وكُتِب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين ، واتفقوا على أن يُوافي أمير المؤمنين عليّ موضع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان ، وكذلك معاوية ؛ مع كلّ منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه .

وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مرّ على طائفة من بني تميم ، فيهم عروة بن أدية ، فقرأ عليهم فقال عروة : تحكّمون في أمر الله الرجال ! لا حكم إلا لله . ثم شدّ بسيفه ، فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة ، واندفعت الدابة ، وصاح به أصحاب الأشعث ، فرجع وغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن ، فشى إليه الأحنف بن قيس وميسرة بن فدّكي وناس من تميم ، فاعتذروا ، فقبل وشكر .

وقيل لعليّ : إن الأشعث لا يُقرّ بما في الصحيفة ، ولا يرى إلّا قتال القوم . فقال عليّ : وأنا والله ماضيت ، ولا أحببت أن ترضوا ؛ فإذا أبيتم إلّا أن ترضوا

فقد رَضِيتُ ؛ وإذ رَضِيتُ فلا يَصْلُحُ الرجوع بعد الرضا ، ولا التَّبدِيلُ بعد الإقرار ،
إِلَّا أَنْ يُعَصَى اللهَ ويتمدَى كتابه ، فقاتلوا مَنْ تَرَكَ أَمْرَ الله . وأما الذى ذكرتم
من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ، ولستُ أخاف على ذلك ، ياليت
فيكم مثله اثنين ، ياليت فيكم مثله واحداً ، يرى فى عدوى ما أرى ؛ إِذَنْ خَلَفْتُ
على مَثُونَتِكُمْ ، ورجوتُ أَنْ يستقيم لى بعض أَوْدِكُمْ ، وقد نهيتكم فمعصيتموني ،
فكنتُ أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

وهل أنا إِلَّا من غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرَشَّدُ غَزِيَّةٌ أَرشُدُ^(١)

والله ، لقد فعلتم فعلةً ضمضت قوةً ، وأسقطت مئةً ، وأورثت وهنا وذلةً ، ولما
كنتم الأعلىين ، وخاف عدوكم الاجتياح ، واستحرج بهم القتل ، ووجدوا ألم الجراح
رفعوا المصاحف ، فدعواكم إلى ما فيها ليفتنوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب ، ويتربصوا
بكم المنون خديمةً ومكرًا ، فأعطيتموهم ما سألوا ، وأبيتم إِلَّا أَنْ تُدهنوا^(٢) ،
وايم الله ما أظنكم بعدها توفقون إلى الرشد .

ثم رجع الناس عن صِفَيْن ، وقد فشا فيهم النزاع ودب الشقاق ، وأخذوا
يقطعون الطريق بالتشائم والتضارب بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله ، أذهنتم
فى أمر الله ! ويقول الآخرون : فارقم إمامنا ، وفرقم جماعتنا !

وساروا حتى جازوا النُّخَيْلَةَ^(٣) ، ورأوا بيوت الكوفة ، فإذا بشيخ فى ظلِّ
بيتٍ عليه أثر المرض ، فسلم عليه علىٌّ ، فردَّ ردًّا حسنًا ، فقال له علىٌّ : أرى
وجهك متغيرًا ، أَمِنْ مرض ؟ قال : نعم ، قال : لعلك كرهته . قال : ما أحبُّ أَنه

(١) لدريد بن الصمة ، ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٦ .

(٢) الإدهان : المصانعة والنفاق .

(٣) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

بغيري ، فقال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك ؟ قال : بلى ! قال : فأبشِّرْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ
وغفران ذنبك ، مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ قال : صالح بن سُلَيْم ، قال : يَمُنُّ أَنْتَ ؟ قال :
أَمَّا الْأَصْلُ فَمِنْ سَلَامَانَ طَيْيٍّ ، وَأَمَّا الدَّعْوَةُ وَالْجَوَارُ فَمِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ ، فقال :
سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا أَحْسَنَ اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ ، وَاسْمَ مَنْ اعْتَزَيْتَ إِلَيْهِ ، وَاسْمَ أَدْعِيائِكَ !
هل شهدت معنا غزاتنا هذه ؟ قال : لا والله ، ولقد أردتها ، ولكن ما ترى من
أثر الحَيِّ مِنْهَا ، فقال عليٌّ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ مَا عَلَى الْحُسَيْنِ
مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

خبرني ، ما يقول الناسُ فيما كان بيننا وبين أهل الشام ؟ قال : فيهم السرور وهم
يفشّون الناس ، وفيهم المكبوت الآسف بما كان بينك وبينهم ، وأولئك نُصَحَاءُ
الناس لك . قال : صدقت ، جعلَ الله ما كان من شكواك خطأً لسيئاتك ، فإنَّ
المرض لا أُجْرَ فيه ، ولكن لا يدع على العبد ذنباً إلا حطّه ، وإنما الأجرُ في القولِ
باللسان والعمل باليد والرجل ، وإن الله عزّ وجلّ ليُدْخِلَ بِصِدْقِ النِّيَّةِ والسريّةِ
الصالحَةِ عَالِماً مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

ثم مضى غير بعيد ، فلقيه عبد الله بن وداعة الأنصاريّ ، فدنا منه ، وسلّم عليه ،
وسايره فقال له : ما سمعتَ الناس يقولون في أمرنا ؟ قال : منهم المعبّب ، ومنهم
الكاره له ، قال : فما قول ذَوِي الرَّأْيِ ؟ قال : يقولون : إِنَّ عَلِيّاً كَانَ لَهُ جَمْعٌ
عَظِيمٌ فَفَرَّقَهُ ؛ وَكَانَ لَهُ حَصْنٌ حَصِينٌ فَهَدَّمَهُ ، فَتَى يَبْنِي مَا هَدَمَ ، وَيَجْمَعُ مَا فَرَّقَ !
ولو كان مضى بمنّ أطاعه إذ عصاه مَنْ نَصَّاهُ ، فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك
الحزم قال عليٌّ : أَنَا هَدَمْتُ أَمْ هَمَّ هَدَمُوا ؟ أَنَا فَرَّقْتُ أَمْ هَمَّ فَرَّقُوا ؟ أَمَّا قَوْلُهُمْ :
لَوْ كَانَ مَضَى بِنِ أَطَاعَهُ فَقَاتَلَ حَتَّى يَظْفَرَ أَوْ يَهْلِكَ ، فَوَاللَّهِ مَا خَفِيَ هَذَا عَنِّي ، وَإِنْ

كنت لَسَخِيًّا بنفسي عن الدنيا، طَيِّب النفس بالموت ! ولقد هممتُ بالإقدام على القوم، فنظرت إلى هَـذِينَ قد ابْتَدَرَانِي - يعني الحسن والحسين - ونظرتُ إلى هَـذِينَ قد استَقْدَمَانِي - يعني عبد الله بن جعفر ومحمد بن علي - فَعَلِمْتُ أَنَّ هَـذِينَ إِنِّ هَلَكَا انقطع نسلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الأمة ، وكَرِهْتُ ذلك ، وأشفقت على هَـذِينَ أَن يَهْلِكَا ، وإيَّمُ الله لئن لَقِيتُهُم بعد يومى هذا لَأَلْقِيَنَّهُم وليسوا معى فى عسكر ولا دار .

ثم مضى ، وإذا على يمينه قبور سَبْعة أو ثمانية ، فقال عليّ : ما هذه ؟ فقليل : يا أمير المؤمنين ، إن خَبَّاب بن الأَرْت تَوَفَّى بعد نَحْرَجِك ، وأوصى بأن يُدْفَن فى الظَّهْر - وكان الناس إنما يُدْفنون فى دورهم وأفنيتهم ، وكان أول مَنْ دُفِن بظاهر الكوفة ، ودفن الناس إلى جَنْبِهِ ، فقال عليّ : رحم الله خَبَّاباً ، فلقد أُسْلِمَ راعباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مُجَاهِداً ، وابتُلِيَ فى جسمه أحوالاً ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً ، ثم وقف على القبور فقال : السَّلَام عليكم يا أهل الدِّيار الموحشة ، والحال المفقرة ، من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، أنتم لنا سَلَف فارط ، ونحن لكم تَبَع ، وبكم - عما قليل - لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بِمَفْئُوك عَنَّا وَعَنْهُمْ ، طوبى لمن ذكر الميماء ، وعَمِلَ للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عَن الله عزّ وجلّ .

ثم سار فسمع بكاءً ، فقال : ما هذه الأصوات ؟ فقليل : البُكاء على قَتْلَى صِفِّين ، فقال : أما أنى أشهد لِمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ صابراً عَتَسَباً بالشهادة .

ثم مرَّ بالشَّامِيِّين ، فسمع رَجَّةً شديدة ، فوقف ، فخرج إليه حرب بن شُرْحَبِيل الشَّامِيّ ، فقال له عليّ : أَيْغَلِبُكُمْ نساؤُكم ؟ أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ من هذا الرِّين ! قال : يا أمير المؤمنين ، لو كانت داراً أو دارَيْن أو ثلاثاً قدرنا على ذلك ؛ ولكن قُتِلَ

من هذا الحى ثمانون ومائة ؛ فليس دارٌ إلا وفيها البكاء ، فأما نحن معشر الرجال فإننا لا نبكى ؛ ولكن نفرحُ بالشهادة . قال علىؑ : رَحِمَ اللهُ قَتْلَكُمْ وموتاكم . ثم سار فأقبل حَرْبَ يمشى معه وعلىؑ راكب ، فقال له علىؑ : ارجع ووقف ، ثم قال : ارجع ؛ فإنَّ مَشَىَ مثلكَ معِ مثلى فتنةٌ للوالى ، ومذلةٌ للمؤمن .

ثم مضى حتى مرَّ بالناعطين - وكان جُلُهم عُمانيَّة - فسمعَ بعضهم يقول : والله ما صنع علىؑ شيئاً ، ذهب ثم انصرف فى غير شىء . فلما رأوه أبلَسُوا^(١) ، فقال علىؑ لأصحابه : وجوه قومٍ ما رأوا الشام ، ثم قال لأصحابه : مَنْ فارقناهم آنفاً خيرٌ مِنْ هؤلاء ، ثم قال :

أخوك الذى إنْ أُجْرَضَتْكَ مُلَمَّةٌ من الدَّهْرِ لم يبرحْ لبثكَ وأجاً
وليسَ أخوكَ بالذى إنْ تَشَعَّبَتْ عليكِ الأمورُ ظلَّ يلحَاك لا تَأْمَا
ثم مضى ، حتى دخل الكوفة .

وقَبْلَ أنْ يدخلَ الكوفةَ فارقه الخوارج ، وذهبوا إلى حَرُوراء^(٢) ، ونزل بها منهم اثنا عشر ألفاً ، ونادى مناديتهم : إنَّ أميرَ القتالِ شَيْثُ بنَ رِئْمَى التميمى ، وأميرُ الصلاةِ عبدُ اللهِ بنُ الكوَّاءِ الشُّكْرِى ، والأمرُ شورى بعد الفتح ، والْبَيْعَةُ لله عزَّ وجلَّ ، والأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر .

فلَمَّا سمعَ علىؑ بأمرهم بعثَ إليهم عبدُ اللهِ بنُ العباس ، وقال له : لا تمجِّلْ إلى جوابهم وخُصومتهم حتى آتَيْكَ .

نخرج إليهم ، فأقبلوا يُكَلِّمونَه ، فلم يصبر حتى راجعهم وقال : ما نَقَمْتُمْ مِنْ

(١) أبلَسُوا : تحيروا .

(٢) حروراء : موضع بظاهر الكوفة .

الحكمين ؟ وقد قال تعالى : ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ^(١) ، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ! فقالوا له : أما ما جعل الله حكمه إلى الناس ، وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه ، للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ^(٢) فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد ، والحدوث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ! ثم قالوا : إن هذه الآية بيننا ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يُقاتلنا ويسفك دماءنا ؟ فإن كان عدلاً فلنسنا بمدول ونحن أهل حرب . وقد حكمتم في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه : أن يُقتلوا أو يرجعوا . وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً ، وجعلتم بينكم المودعة ، وقد قطّع الله المودعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ نزلت براءة ، إلا من أقر بالجزية .

ثم جاء علي فوجد ابن عباس يُخاصمهم ، فقال له : ألم أنهك عن كلامهم ! ثم تكلم فقال : اللهم هذا مقام ، من يُفليح فيه كان أولى بالفلاح يوم القيامة ، ثم قال لهم : من زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء ، قال : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا : حكومتك يوم صفين ، قال : أنشدكم الله ، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، وقتلتم : نجيبهم قلت لكم : إني أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ! ثم قال لهم : قد اشترطت على الحكمين أن يُحييا . أحيأ القرآن ، ويميتا ما أُمات القرآن ، فإن حكماً بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف ، وإن أبيتا فنحن من حكمهما برآء .

قالوا : نجبرنا ، أترأ عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال ، إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين ،

لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : نخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال : لِيَعْلَمَ الجاهل ، وَيَتَثَبَّتَ العالم ، ولعلَّ الله عزَّ وجلَّ يصلح في هذه الهدنة الأمة . ادخلوا مِصْرَكُمْ رحمكم الله !

ولما جاء وقتُ اجتماع الحكّمين أرسل عليٌّ أربعاً رجل؛ عليهم شُريح بن هانئ ، وأرسل معهم عبد الله بن عباس ليصلّي بهم ، ويُلِيّ أمورهم ومهمهم أبو موسى الأشعريّ ، وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعاء من أهل الشام حتى توافوا دومة الجندل^(١) . وكان عمرو إذا أتاه كتاب من معاوية لا يُدرى ما جاء فيه ، ولا يسأله أهل الشام عن شيء ، وكان أهل العراق يسألون ابن عباس عن أيّ كتاب يصله من عليّ ، فإنّ كتّهم ظنّوا به الظنون وقالوا : أترأه كتب بكذا وكذا؟ فقال لهم ابن عباس : أما تَعْقِلُونَ ! أما ترون رسول معاوية يجيء ولا يَعْلَمُ أحد بما جاء به ، ولا يُسَمِعُ لهم صياح ، وأنتم عندي كل يوم تظنّون في الظنون !

وقال المنيرة بن شعبة لرجال من قريش : أترون أحداً يستطيع أن يأتي برأي يعلم به : أيجتمع الحُكّمان أم لا ؟ فقالوا : لا ، فقال : إني أعلمه منهما . فدخل على عمرو بن العاص فقال : كيف ترانا - معشر من اعتزل الحرب ؟ فإنّا قد شككنا في الأمر الذي استبان لكم فيها ؟ فقال له عمرو : أراكم خَلَفَ الأبرار ، وأمام الفجار . فانصرف المنيرة إلى أبي موسى فقال له مثل قوله لعمرو ، فقال له أبو موسى : أراكم أثبتَ الناس رأياً ، فيكم بَقِيَّةُ الناس . فماد المنيرة إلى أصحابه ، وقال لهم : لا يجمع هذان على أمرٍ واحد .

(١) دومة الجندل : حصن وقرى بين المدينة والشام .

فلما اجتمع الحكماء قال عمرو : يا أبا موسى ، ألسنت تعلم أن عثمان قُتِلَ مظلوما ؟ قال : أشهد ، قال : ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال : بلى ، قال : فما يمنحك منه وبيته في قريش كما قد علمت ؟ فإن خفت أن يقول الناس : ليست له سابقة ، فقل : وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه ، الحسن السياسة والتدبير ، وهو أخو حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتبه ، وقد صحبه . وعرض له بسلطان .

فقال أبو موسى : يا عمرو ، اتق الله ، فأما ما ذكرته من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله ، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدين والفضل ، مع أني لو كنت معطبه أفضل قريش شرفاً أعطيته على ابن أبي طالب ، وأما قولك : إن معاوية وليّ دم عثمان ، فوله هذا الأمر ، فلم أكن لأوليّه وأدعّ المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كله لما وليته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله ، ولكنك إن شئت أخيينا اسم عمر^(١) بن الخطاب رحمه الله .

قال له عمرو : فما يمنحك من ابني ، وأنت تعلم فضله وصلاحه ؟ فقال : إن ابنك رجل صدق ، ولكنك قد غمستته في هذه الفتنة .

وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه في الكلام ، يقول له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسنّ مني ، فتكلم وأتكلّم . وتمود ذلك أبو موسى . وأراد عمرو بذلك أن يقدمه في خلع عليّ ، فلما أراد عمرو على ابنه أو على معاوية أتى ، وأراد أبو موسى ابن عمر فأبى عمرو .

(١) يريد تولية عبد الله بن عمر .

ثم قال عمرو : مارأيك ؟ قال : أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . فقال عمرو : الرأى ما رأيت .
فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عمرو : يا أبا موسى ، أعلمهم أن رأينا قد اتفق ، فتكلم أبو موسى فقال : إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة .

فقال عمرو : صدق وبر ، تقدم يا أبا موسى فتكلم .

فتقدم أبو موسى ليتكلم ، فقال له ابن عباس : ويحك ! والله إنى لأظنه قد خدعك ، إن كننا اتفقنا على أمر فقدّمه فليتكلم به قبلك ، ثم تسكّم به بعده ، فإنه رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك أرضا بينكما ، فإذا قت في الناس خالفك .

وكان أبو موسى مغفلا ، فقال : إنا قد اتفقنا ، ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا ألبم لشمئها من أمر قد أجمع رأي ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، ويولي الناس أمرهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه أهلا . ثم تنحى .

وأقبل عمرو فقام وقال : إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه .

فقال سعد : ما أضغفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده ؟ فقال أبو موسى : فما أصنع ؟ وافقني على أمر ثم نزع عنه . فقال ابن عباس : لا ذنب لك يا أبا موسى ، الذنب لمن قدّمك في هذا المقام . قال : غدر ، فما أصنع ؟ فقال ابن عمر : انظروا

إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة ، صار إلى رجل لا يبالي ما صنع ، وإلى آخر ضعيف .
وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : لو مات الأشعريّ قبل هذا اليوم لكان خيراً له .
وقال أبو موسى الأشعريّ لعمره : لا وفّقك الله ، غَدَرْتَ وفَجَرْتَ ! إنما مثلك
كمثل الكبّ إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، قال عمرو : إنك مثل الحمار
يحمل أسفارا .

ثم حل شُرَيْح بن هانئ على عمرو فضربه بالسَّوط ، وحمل ابنُ عمرو على شُرَيْح
فضربه بالسَّوط أيضاً ، وحجّز الناس بينهما ، فكان شُرَيْح يقول بعد ذلك :
ما ندمت على شيء ندّأمتي على ضرب عمرو بالسَّوط ، ولم أضربه بالسَّيف .
والتمس أهل الكوفة أبا موسى ، فإذا هو قد هرب إلى مكة ، ثم انصرف عمرو
وأهل الشام إلى معاوية ، فسلموا عليه بالخلافة . ورجع ابن عباس وشُرَيْح إلى عليّ ؛
وأبلغاه خبر الحكمين !

٥٣ — يوم النهروان*

لما أراد عليٌّ أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج : زُرعة بن
البرج الطائي ، وحرْقوص بن زهير السعدي ، فقالا له : لا حُكْمَ إِلَّا لله ! وقال
حُرْقوص بن زهير : تَبُّ من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا
فقاتلهم حتى نلقى ربنا . فقال عليٌّ : قد أردتُكم على ذلك فمصيتموني ، وقد كتبنا
بيننا وبين القوم كتاباً ، وشرطنا شروطاً ، وأعطينا عليها عهداً ، وقد قال الله تعالى :
﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ ^(١) فقال حُرْقوص : ذلك ذَنْبٌ يَنْبَغِي أَنْ تَتُوبَ عَنْهُ .
فقال عليٌّ : ما هو ذنب ، ولكنه عَجَزٌ عن الرأي ، وقد نهيتُكم ؛ فقال زُرعة :
يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلتك ؛ أطلب وجه الله تعالى .

فقال عليٌّ : بؤساً لك ، ما أشقاك ! كأنني بك قتيلاً تسفى عليك الرياح !
قال : وددت لو كان ذلك — وخرجا من عنده يحكمَّان ^(٢) .

وخطب عليٌّ ذات يوم فحكمت المحكمة في جوانب المسجد ، فقال عليٌّ :
الله أكبر ! كلمة حق أريد بها باطل ؛ إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا
حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .

فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال : الحمد لله غير مودع ربنا ، ولا مستغنى
عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنيا في ديننا ، فإن إعطاء الدنيا في الله إذهان

* الطبري ٦ : ٤٠ ، كان في سنة ٣٧ . والنهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط ،
من الجانب الشرق ، وهو لعل على الخوارج .

(١) النحل ٩١ . (٢) التحكيم : قولهم « لا حكم إلا لله » .

في أمر الله ، وذلك راجع بأهله إلى سخط الله ، يا عليّ ، أبا القتل تخوّفنا ! أما والله
إني لأرجو أن تضربكم بها عما قليل غير مُصَفَّحاتٍ^(١) ، ثم لتعلمنّ أينما أولى بها
صلياً^(٢) .

ثم خطب عليّ يوماً آخر فقام رجل فقال : لا حُكْمَ إلا الله . ثم توالى عدّة
رجال يحكّمون ، فقال عليّ : الله أكبر ! كلمة حقّ أريد بها باطل ، أما إن لكم
عندي ثلاثاً ما صحبتهمونا : لا نمنعكم مساجدَ الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم
النِّيءَ ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدءونا ، وإِنَّمَا نتبع فيكم
أمر الله . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

واجتمع الخوارج بمسد ذلك في منزل عبد الله بن وهب الراسبيّ ، فخطبهم
وزهدهم في الدنيا ، وأمرهم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ثم قال :
اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كُور الجبال^(٣) ، أو إلى بعض
هذه المدائن ؛ منكرين لهذه البدع المضلّة ، فقال له خرقوص بن زهير : إن المتاعَ
بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك ، فلا تدعوناكم زيلتُها وبهجَتُها إلى
المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحقّ وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتَّقَوْا
والذين هم محسنون .

وقال حمزة بن سنان الأسديّ : يا قوم ؛ إن الرأي مارأيتم ، فولّوا رجلاً منكم ،
فإنكم لابدّ لكم من عماد وسِناد ورأية تحفّون بها وترجمون إليها ، فعرضوها
على زيد بن حصين الطائيّ فأبى ، وعرضوها على خرقوص بن زهير فأبى ، وعلى

(١) يقال : أصفحه ؛ إذا ضربه بعرضه .

(٢) قال ابن الأثير : خرج هو وإخوة له ثلاثة فأصيبوا مع الخوارج بالنهر .

(٣) الجبال : اسم علم للبلاد المعروفة بالعراق في اصطلاح المعجم .

حَمْزَةُ بْنُ سَنَانٍ وَشُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى الْعَبْسِيُّ فَأَيُّهَا . وَعَرَضُوهَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ فَقَالَ : هَاتُوهَا ، أَمَّا وَاللَّهِ ، لَا آخِذَهَا رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا ، وَلَا أَدْعَاهَا فَرَقًا مِنَ الْمَوْتِ ، فَبَايَعُوهُ لِمَشْرِئِ خَلَوْنٍ مِنْ شَوَالٍ .

ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ شُرَيْحِ بْنِ أَوْفَى الْعَبْسِيِّ ، فَقَالَ ابْنُ وَهَبٍ : اشْخَصُوا بَنِي إِلَى بَلَدِهِ لِيَجْتَمِعَ فِيهَا لِإِنْفَازِ حُكْمِ اللَّهِ ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَقِّ . قَالَ شُرَيْحٌ : نَخْرُجُ إِلَى الْمَدَائِنِ فَتَنْزِلُهَا وَنَأْخِذُهَا بِأَبْوَابِهَا ، وَنُخْرِجُ مِنْهَا سُكَّانَهَا ، وَنَبْعَثُ إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَيَقْدُمُونَ عَلَيْنَا .

فَقَالَ زَيْدُ بْنُ حَصِينٍ : إِنَّكُمْ إِنْ خَرَجْتُمْ مَجْتَمِعِينَ اتَّبِعْتُمْ ، وَلَكِنْ اخْرُجُوا وَحِدَانَا مُسْتَخْفِينَ . قَالُوا : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ . وَكَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ إِلَى مَنْ بِالْبَصْرَةِ مِنْهُمْ يُعَلِّمُهُمْ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، يَحْتَمُّهُمْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِ ، وَسَيَّرَ الْكِتَابَ إِلَيْهِمْ ؛ فَأَجَابُوهُ أَنَّهُمْ عَلَى اللَّحَاقِ بِهِ .

وَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى الْمَسِيرِ تَعَبَّدُوا لَيْلَتَهُمْ - وَكَانَتْ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ - وَسَارُوا يَوْمَ السَّبْتِ . وَخَرَجَ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدَيْنٌ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿^(١)﴾ .

وَلَمَّا خَرَجْتَ الْخَوَارِجُ مِنَ الْكُوفَةِ أَتَى عَلَيْهِمَا أَصْحَابُهُ وَشِيعَتُهُ فَبَايَعُوهُ وَقَالُوا : نَحْنُ أَوْلِيَاءُ مَنْ وَالَيْتَ ، وَأَعْدَاءُ مَنْ عَادَيْتَ ، فَشَرَطَ لَهُمْ فِيهِ سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَهُ رِبِيعَةُ بْنُ أَبِي شَدَادٍ الْخُثَمِيُّ - وَكَانَ شَهِيدًا مَعَهُ الْجَمَلُ وَصِيقَيْنِ وَمَعَهُ رَايَةُ خُثَمٍ - فَقَالَ لَهُ : بَايَعْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) القصص ٢١ ، ٢٢ .

فقال ربيعة : وعلى سنة أبي بكر وعمر . فقال له علي : ويلك ! لو أن أبا بكر وعمر عملا
بغير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونا على شيء من الحق ؛
فبايعه ، فنظر إليه علي وقال : أما والله لكأني بك ؛ وقد نفرت مع هذه الخوارج
فقتلت ، وكأني بك وقد وطئت الخيل بحوافرها^(١)

وأما خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل ، وجعلوا عليهم مسعر
ابن فدك التيمي ، فلم يهزمهم ابن عباس ، فأتبهم أبا الأسود الدؤلي ، فلحقهم
بالجسر الأكبر ، فتوافقوا حتى حجز بينهم الليل ، وأدلى مسعر بأصحابه ، وأقبل
يمترض الناس ، وعلى مقدمتهم الأشرس بن عوف الشيباني ، وسار حتى لحق
بمبد الله بن وهب .

ولما ترامت إلى علي أنباء خوارج الكوفة والبصرة وهرب أبي موسى إلى مكة
قام في الكوفة فخطب القوم وقال : الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدّان
الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ أما بعد فإن المصيبة تورث
الحسرة وتغيب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة
أمرى ، ونخلتكم رأيي ، ولو يُطاع لقضير أمر ؛ ولكن أبيت إلا ما أردتم ، فكنت
أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموها حكامين قد نبذا حكم القرآن وراء
ظهورها ؛ وأخيمّا ما أمات القرآن ، وأتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ؛
فحكما بغير حجة بيّنة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ،

(١) قتل مع الخوارج يوم النهروان .

فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدُّوا وتأهبوا للمسير إلى الشام ، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين .

ثم كتب إلى الخوارج بالنهر : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معها من الناس ؛ أما بعد ؛ فإن هذين الرجلين اللذين ارتضىناهما حكمين قد خالفا كتاب الله ، واتبعنا هواهما بغير هدى من الله ، فلم يعملوا بالسنة ، ولم ينفذا للقرآن حُكْمًا ، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون ؛ فإذا بلغكم كتابي هذا فأقبلوا إلينا فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذي كنّا عليه ، والسلام » .

فكتبوا إليه : « أما بعد ؛ فإنك لم تغضب لرئك ، وإنما غضبت لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك^(١) على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

فلما قرأ على كتابهم أيس منهم ، فرأى أن يدعهم ويعضى بالناس إلى أهل الشام ، حتى يلقاتهم ، فيناجزهم ، فقام في أهل الكوفة ، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنه من ترك الجهاد في الله ، وأذهن في أمره كان على شفا هلكة^(٢) إلا أن يتداركه الله بنعمته ، فاتقوا الله وقاتلوا من حاد الله ورسوله ، وحاول أن يُطْفِئ نور الله ؛ فقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين المجرمين الذين ليسوا بقرءاء القرآن ، ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام ؛ والله لو وُلِّوا عليكم لعمَلوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل . تيسروا للمسير إلى عدوكم

(١) المنابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ، ثم أرادا نقض ذلك العهد فينبذ كل فريق منهما لصاحبه العهد الذي تهادنا عليه .
(٢) الهلكة : الهلاك .

من أهل المغرب^(١) ، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة ليقدموا عليكم ، فإذا اجتمعتم شخضنا إن شاء الله ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وكتب إلى ابن عباس : « أما بعد فإننا خرجنا إلى معسكرنا بالثخيلة ، وقد أجمعنا على السير على عدونا من أهل المغرب ، فاشخص بالناس حتى يأتيك رسولي ، وأقم حتى يأتيك رأيي ، والسلام » .

فقرأ ابن عباس الكتاب على الناس ، وندبهم مع الأحنف بن قيس ، فشخص ألف وخمسمائة ، وخطبهم ابن عباس فقال : يا أهل البصرة ؛ أتاني كتاب أمير المؤمنين ، فأمرتكم بالنفير إليه ، فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم ستون ألف مقاتل ، سوى أبنائكم وعبدانكم ومواليكم ؛ ألا انفروا مع جارية بن قدامة السفدي ، ولا يجمعن رجل على نفسه سبيلا ، فإن موقع بكل من وجدته متخلفا عن دعوته ، عاصيا لإمامه ، ولا يلومن رجل إلا نفسه » .

فخرج جارية فاجتمع إليه ألف وسبعمائة ، فوافوا عليا وهم ثلاثة آلاف ومائتان ، فجمع إليه رءوس أهل الكوفة ورءوس القبائل ووجوه الناس ، ثم خطبهم ، وحيد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل الكوفة ، أنتم إخواني وأنصاري وأعواني على الحق ، وأصحابي إلى جهاد عدوي المحلّين ، بكم أضرب الذبر ، وأرجو تمام طاعة المقيّل ، وقد استنفرت أهل البصرة ، فأتاني منهم ثلاثة آلاف ومائتان ؛ فليكتب لي رئيس كل قبيلة ما في عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ، وعبدان عشيرته ومواليهم ، ويرفع ذلك إلينا .

فقام إليه سعيد بن قيس الهمداني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعا وطاعة ؛ أنا أول الناس جاء بما سألت . وقام مقل بن قيس وعدى بن حاتم ، وزباد بن خصفة

(١) يريد بأهل المغرب هنا أهل الشام ..

وحُجْر بن عدى وأشرافُ الناس والقبايل ، فقالوا مثلَ ذلك ، وكتبوا إليه ما طلبَ ، وأمروا أبناءهم وعبيدهم أن يخرجوا ، وألا يتخلف منهم متخلف ، فرفعوا إليه أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ، وثمانية آلاف من مواليتهم وعبيدهم .

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمداين يأمره بإرسال مَنْ عنده من المقاتلة ، وبلغَ عليّاً أن الناس يقولون : لو سارَ بنا إلى قتال هذه الجَرُورِية ، فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى قتال أهل الشام ! فقال لهم : بدغني أنكم قلمَ كيت وكيت ، وإن غير هؤلاء الخارجين أهدمُ إلينا منهم ، فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم ، كما يكونوا جبارين ملوكاً ، ويتخذوا عباد الله خولاً^(١) ، فناداه الناس : أن سِرْ بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت .

وقام إليه صَيْقُ بن قيس الشيباني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن حزبك وأنصارك ، نعادى مَنْ عاداك ، ونشايح مَنْ أناب إلى طاعتك ، فسرْ بنا إلى عدوك مَنْ كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تُؤتى من قلة عدد ، وضعف نية أتباع .

هذا ما كان من أمر عليّ ، وأما الخوارجُ ، فقد روى أن طائفة منهم كانت في طريقها من البصرة إلى النهروان ، فرأت عصابةً منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار ، فأنتهروه وأفزعوه وقالوا له : مَنْ أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أفزعناك ؟ قال : نعم ، قالوا : لارَوْعَ

(١) الخول : العبيد .

عليك ! حدثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعنا به . فقال : حدثني أبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تكونُ فتنة يموتُ فيها قلبُ الرجل ، كما يموت به بدنه ، يُمسي فيها مؤمناً ، ويُصبح كافراً ، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً » . قالوا : لهذا الحديث سألناك ، فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى عليهما خيراً ، قالوا : ماتقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟ قال : إنه كان مُحِقّاً في أولها وفي آخرها . قالوا : فما تقول في عليّ قبل التَّحْكِيم وبمسده ؟ قال : إنه أعلمُ بالله منكم وأشدُّ تَوَقُّياً على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنك تَتَّبِعُ الهوى وتُوَالِي الرِّجَالَ على أسمائِها لا على أفعالها ، والله لَنَقْتُلَنَّكَ قِتْلَةً ماقتلناها أحداً . ثم أخذوه وكتفوه ، ثم أقبلوا به وبامراته وهي حُبْلَى مُتِمٌّ^(١) ، حتى نزلوا تحت نخل فسقطت منه رُطبة ، فأخذها أحدهم فقذف بها في فيه ، فقال أحدهم : بغير حِلِّها وبغير ثمن ! فلفظها وألقاها من فيه ، ثم أخذ سيفه يمينه ، فرَّ به خنزير لأهل الدِّمَّة ، فضربه بسيفه ، فقالوا : هذا فساد في الأرض ، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خنزيره .

فلما رأى ذلك منهم ابن خَبَّاب قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى فما علىَّ منكم بأس ، إني لمُسْلِمٌ ، ماأحدثُ في الإسلام حَدَثاً ، وقد آمَنتُموني وقتلتم : لارَوْعَ عليك . فجاءوا به فأضجَّوه وذبحوه وسال دمه في الماء وأقبلوا إلى المرأة ، فقالت : إنما أنا امرأة ، ألا تَتَّقُونَ الله ! فَبَقَرُوا بَطْنَهَا ، وقتلوا ثلاث نسوة من طَيِّبٍ ، وقتلوا أمَّ سنان الصَّيِّداوية .

فبلغ ذلك على بن أبي طالب ومن معه من المسلمين . فبعث إليهم الحارث بن

(١) التَّم : التي دنا ولادها .

مرّة العبدى ليأتيهم ، وينظر ما بلغه عنهم ، ويكتب إليه ولا يكتبه ، فلما دنا منهم يسألهم قتلوه .

وأتى عليّاً الخبرُ والناسُ معه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ؟ سرّ بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا منهم سرّنا إلى عدوّنا من أهل الشام . وقام إليه الأشعث بن قيس فكلّمه بمثل ذلك ، وكان الناس يظنون الأشعث يرى رأى الخوارج ؛ لأنه كان يقول يوم صيفين : أنصفنا قوم يدعون إلى كتاب الله ، فلما قال هذه المقالة علم الناس أنه لم يسكن معهم .

ثم أجمع رأى علىّ على الخروج إليهم ، فمير الجسر وسار إليهم ، ولما صار قريباً منهم أرسل إليهم : ادفعوا إلينا قتلة إخواننا أقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكافّ عنكم ، حتى أتى أهل الشام ، فلملّ الله يقلّب قلوبكم ، ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم .

فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا مستجّل لدمائكم ودمائهم . فخرج إليهم قيس بن سعد ابن عبادة فقال لهم : عباد الله ، أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا في هذا الأمر الذى خرجتم منه ، وعودوا بنا إلى قتال عدوّنا وعدوّكم ، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر ، تشهدون علينا بالشرك ، وتسفكون دماء المسلمين . فقال له عبد الله بن شجرة السلمى : إن الحق قد أضاء لنا فلسنا متابعيكم أو تأتونا بمثل عمر . فقال : ما نعلمه غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟ قالوا : لا ، قال : نشدّكم الله فى أنفسكم أن تهلكوها ، فإنى لا أرى الفتنة إلا وقد غلبت عليكم .

وخطبهم أبو أيوب الأنصارى ، فقال : عباد الله ، إننا وإياكم على الحال

الأولى التى كنا عليها ، ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا ؟ فقالوا : إنَّالو تابعنكم اليوم حكمتم غداً . قال : فإنى أنشدكم الله أن تمَّجَّلو فتنه العام مخافة ما يأتى فى القابل .

وأناهم على فقال : أيتها العصابة التى أخرجها عداوة المراء واللجاجة ، وصدها عن الحقِّ الهوى ، وطمع بها النِّزق ، وأصبحت فى الخطب العظيم ، إتنى نذير لكم أن تُصَيِّحُوا تَلْفِيَكُمْ الأمة صرعى بأثناء هذا الوادى ، بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين ، ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، ونبأتكم أنها مكيدة ، وأن القوم ليسوا بأصحاب دينٍ فمصيتمونى ! فلما فعلتُ شرطت ، واستوثقت على الحكَّمين أن يُحْيِيَا ما أحيا القرآن ، ويُمَيِّتَا ما أمت القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة فنبدنا أمرهما ، ونحن على الأمر الأول ، فمن أين أتيتم ؟ فقالوا : إنَّنا حَكَّمْنَا ، فلما حَكَّمْنَا أَرَمْنَا ، وكنا بذلك كافرين ، فإن تَبَّتْ فنحن معك ، وإن أَيْتَ فَإِنَّا مُنابذوك على سواء .

فقال على : أصابكم حاصب^(١) ، ولا بقى منكم وابر^(٢) ، أبعَدَ إيمانى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرته معي ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد على نفسى بالكفر ! لقد ضللتُ إذا وما أنا من المُتَدِّين . ثم انصرف ، عنهم .

ثم إنَّ الخوارج قصدوا جسر النهر ، فعمَّبا على أصحابه ، وجعل على مَيْمَنَتِهِ حُجْر ابن عدى ، وعلى ميسرته شَبَث بن رُبْعَى ، وعلى الخليل أبا أيوب الأنصارى ، وعلى الرِّجَالِ أبا قتادة الأنصارى ، وعلى أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة .

(١) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء . (٢) وابر : أحد .

وعبأت الخوارج ، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حُصين الطائي ، وعلى اليسرة شريح بن أوفى العبسي ، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي ، وعلى رجالهم حُرْقوص بن زهير السعدي .

وأعطى عليُّ أبا أيوب الأنصاري رايةَ الأمان ، فناداهم أبو أيوب ، فقال : مَنْ جاء تحت هذه الراية منكم ، يَمُنُّ لم يَقْتُلْ ولم يستعْرِضْ فهو آمن ، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قَتْلَةً إخواننا منكم في سَفَكِ دماءكم .

فقال فرّوة بن نوَفل الأشجعي : والله ما أدرى على أي شيء نقاتل عليًّا ! أرى أن أنصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه ، وانصرف في خمسمائة فارس . وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلوا الكوفة . وخرج إلى عليٍّ نحو مائة - وكان أربعة آلاف - وبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة ، وزحفوا إلى عليٍّ ، وكان عليٌّ قد قال لأصحابه : كُفُّوا عنهم حتى يبدؤكم . فتنادوا : الرَّواح إلى الجنة ، وحملوا على الناس ، فلم تثبت خيلُ المسلمين لشدهم ، وافترقت خيل عليٍّ فرقتين : فرقة نحو الميمنة ، وفرقة نحو اليسرة ، فاستقبلت رماة عليٍّ وجوههم بالنبل ، وعطفت عليهم الخيلُ من الميمنة واليسرة ، ونهض إليهم الرجالُ بالرماح والسيوف . فلما رأى حمزة بن سنان صاحبُ خيلهم الهلاك نادى أصحابه : أن انزلوا ، فذهبوا لينزلوا ، فلم يلبثوا أن حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءتهم الخيل من نحو عليٍّ ، فأهلكوا في ساعة ، فكأنما قيل لهم : موتوا فماتوا .

٥٤ — يوم كربلاء*

كان معاوية بن أبي سفيان قد عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة ، بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار ، فبايعه الناس ، ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة ، وهم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

ولما توفّي معاوية لم يكن ليزيد هم إلا مبايعة هؤلاء الثلاثة ، وأرسل إلى الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة ، يقول له : أمّا بعد ، نخذ حسينا وعبد الله بن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة ، حتى يبايعوا ، والسلام .

فلما أتى الوليد نعى معاوية فظع^(١) وكبر عليه ، وأرسل إلى هؤلاء النفر ، فأما الحسين فجاءه ، فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم عليه ، وقال : أمّا البيعة ، فإن مثلي لا يبايع سراً ، ولا يجتزئ بها مني سراً ، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ، ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً ، فقال له الوليد وكان يحب العافية : انصرف ، فانصرف .

وأما ابن الزبير فترك المدينة ، وذهب إلى مكة ، وقال : إني عائذ بالبيت ، ولم يكن يصلّي بصلاتهم ، ولا يفيض^(٢) في الحج بإفاضتهم ، وكان يقف هو وأصحابه ناحية . وخرج الحسين من بعده ، وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه ؛ إلا محمد ابن الحنفية فإنه أبي الخروج معه ، ونصحه فلم يقبل نصحه .

* تاريخ الطبري : ٦ - ٢١٥ . كان في سنة ٦١ ، وكربلاء : موضع طرف البرية ، قرب الكوفة . (١) فظع بالأمر : ضاق به ذرعاً .

(٢) يقال : أفاض الناس من عرفات ؛ إذا أسرعوا منها إلى مكان آخر .

وأما ابنُ عمر فإنه قال : إذا بايع الناسُ بايعت . فتركوه ، وكانوا لا يتخوفونه .

وبينا كان الحسينُ في طريقه من المدينة إلى مكة لقيه عبيدُ الله بن مطيع ، فقال له : جُعِلَتْ فداءك ! أين تريد ؟ قال : أما الآن فمكة ؛ وأما بعد ، فإني أَسْتَحْيِرُ الله . قال : خار الله لك ، وجعلنا فداءك ! فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة ؛ فإنها بلد مشثومة ، بها قُتِلَ أبوك ، وخُذِلَ أخوك . الزم الحرم ، فإنك سيّدُ العرب ، لا يعدل بك أهلُ الحجاز أحداً ، ويتدأى إليك الناسُ من كلِّ جانب ، لا تفارق الحرم ، فإذاك عمى وخالى ! فوالله لئن هلكت لَسُتَرَقْنَ من بعدك .

وأقبل الحسين حتى نزل مكة ، وأهلها يختلفون إليه ؛ ويأتونه . وكان ابنُ الزبير بها ، قد لزم جانب الكعبة ، فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ، ويَطُوف ، ويأتى الحسين فيمن يأتيه ، ولا يزال يشيرُ عليه بالرأى ، وهو أثقلُ خلق الله على ابن الزبير ؛ لأن أهل الحجاز لا يبايعونه ، ما دام الحسينُ باقياً بالبلد . ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة أُرْجِفُوا^(١) بنزید ، واجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صُرد ، واتفقوا على أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه ليبايعوه ، فكتبوا إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . سلامٌ عليك ، فإننا نحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فالحمد لله الذي قصمَ عدوك الجبار العنيد ، الذي أنزى على هذه الأمة ، فابترَّها أمرها ،

(١) أُرْجِفُوا به : خاضوا فيه .

وَقَصَّبَهَا فَيْسَمَهَا ، وَتَأَمَّرَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ رِضَا مِنْهَا ، ثُمَّ قَتَلَ خِيَارَهَا ، وَاسْتَبْقَى شِرَارَهَا ،
وَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ ، فَأَقْبِلْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَى الْحَقِّ . وَالنَّهْزَانُ بْنُ بَشِيرٍ
فِي قَصْرِ الْإِمَارَةِ ؛ لَسْنَا نَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي جُمُعَةٍ وَلَا عِيدٍ ، وَلَوْ بَلَّغْنَا إِقْبَالَكَ إِلَيْنَا
أَخْرَجْنَاهُ حَتَّى نُلَحِّقَهُ بِالشَّامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ .

وَسَيَّرُوا الْكِتَابَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْعٍ الْهَمْدَانِيِّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ وَالٍ ، ثُمَّ كَتَبُوا
إِلَيْهِ كِتَابًا آخَرَ ، وَسَيَّرُوهُ بَعْدَ لَيْلَتَيْنِ ، وَكَتَبَ النَّاسُ مَعَهُ نَحْوًا مِنْ مِائَةِ وَخَسِينِ
صَحِيفَةٍ ، ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ رَسُولًا ثَالِثًا يُخْبِثُونَهُ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ . ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ شَبِثُ
ابْنِ رَبِيعٍ وَحِجَارُ بْنُ أَبِي جَرٍّ وَغَيْرُهُمَا بِنَحْوِ ذَلِكَ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِمُ الْحُسَيْنُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْكُتُبِ عِنْدَهُ : « أَمَا بَعْدُ ؛ فَقَدْ فَهِمْتُ
كُلَّ الَّذِي اقْتَصَصْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ بِأَخِي وَابْنِ عَمِّي وَثِقَتِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مُسْلِمٍ
ابْنِ عَقِيلٍ ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِحَالِكُمْ وَأَمْرِكُمْ وَرَأْيِكُمْ ، فَإِنْ كَتَبَ إِلَيَّ
أَنَّهُ قَدْ اجْتَمَعَ رَأْيُ مِثْلِكُمْ وَذَوِي الْحِجَابِ مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ مَا قَدِمْتُ بِهِ رُسُلَكُمْ
أَقْدَمَ وَشَيْكَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ فَلَعَمْرِي مَا الْإِمَامُ إِلَّا الْعَامِلُ بِالْكِتَابِ ، وَالْقَائِمُ بِالْقِسْطِ ،
وَالدَّائِنُ بِدِينِ الْحَقِّ ، وَالسَّلَامُ » .

ثُمَّ دَعَا الْحُسَيْنُ مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ ، فَسَيَّرَهُ إِلَى السَّكُوفَةِ ، وَأَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَكِتَابِهِ
أَمْرَهُ وَالتَّلَطُّفِ ؛ فَإِنْ رَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَجَّلَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ .

فَسَارَ مُسْلِمٌ نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، وَلَمَّا دَخَلَهَا صَلَّى فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَوَدَّعَ أَهْلَهُ ، وَاسْتَأْجَرَ دَلِيلَيْنِ مِنْ قَيْسٍ ، فَأَقْبَلَا بِهِ ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَعَطِشُوا ،
فَاتَّحَفَ الدَّلِيلَانِ . فَكَتَبَ مُسْلِمٌ إِلَى الْحُسَيْنِ : إِنِّي أَقْبَلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاسْتَأْجَرْتُ دَلِيلَيْنِ ،

فضلاً الطريق ، واشتد عليهما العطش ، فأتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ، فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وقد تطيّرتُ ، فإن رأيتَ أعفيتني وبعثتَ غيري .

فكتب إليه الحسين : أما بعد ؛ فقد خشيتُ ألا يكون حَمَلُكَ على الكتاب إلا الجبن ، فامض لوجهك ، والسلام .

فسار مُسَلِّمٌ حتى أتى الكوفة ، وأميرها يومئذ النعمان بن بشير ، فأقبلت إليه الشيعة تختلف إليه ، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين ، فيسكون ، ويعيدونه القتال والنصرة .

ولما بلغ ذلك النعمان بن بشير صعد المنبر وقال : أما بعد ، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإنّ فيهما تهلك الرجال ، وتُسْفَكُ الدماء ، وتُغْصَبُ الأموال - وكان النعمان حليماً ناسكاً يحبُّ العافية - ثم قال : إني لا أقاتل إلا مَنْ يُقاتلني ، ولا أئبُ على مَنْ لا يئبُ عليّ ، ولا أنبهُ نائمكم ، ولا أحرّشُ بكم ، ولا آخذ بالقرَف^(١) والظُّنة والتُّهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ، ونكثتم بيمتكم ، وغالتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله إلا هو ؛ لأضربنَّكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصِرٌ ولا مُعين . أما إني أرجو أن يكون مَنْ يعرف الحقّ منكم أكثرَ ممن يُرِدِّيه الباطل .

فقام إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي ، من شيعة بني أمية ، وقال له : إنه لا يُصْلِحُ ما ترى إلا التَّشَمُّ ، إنَّ هذا الذي أنت عليه رأى المُستضعفين . فقال : أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبُّ إليّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله .

(١) القرَف : الإيقاع .

فكتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُخبره بقدم مُسلم بن عَقِيل الكوفة ومُبايعة الناس له ، ويقول له : إن كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً يُنفذ أمرك ، ويممَلُ مثل عملك في عدوك ، فإن النعمان رجل ضعیف ، أو هو يتضمَّن . وكان هو أول من كتب إليه . ثم كتب إليه عُمارة بن الوليد ابن عُقبة وعمر بن سعد بن أبي وقَّاص بفحو ذلك .

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سرجون ، مولى معاوية ، فأقرأه الكتاب واستشاره فيمن يُؤَلِّيه الكوفة - وكان يزيد عاتبا على عبيد الله بن زياد - فقال له سرجون : أرأيت لو نُشِر لك معاوية كنت تأخذُ برأيه ؟ قال : نعم ، فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة ، وقال : هذا رأى معاوية ، ومات ، وقد أمر بهذا الكتاب .

فأخذ برأيه ، وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله ، وكتب إليه بمهده ، وأمره بطلب مُسلم بن عقيل وقتله أو نفيه .

فلما وصل كتابه إلى عبيد الله أمر بالتَّجَهُّز ليبرز من الغد - وكان الحسين قد كتب إلى أهل البصرة نسخةً واحدةً إلى الأشراف ، فكتب إلى مالك بن مُسْنَم البكرى ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسمود بن عمرو ، وفيس ابن الهيثم ، وعمر بن عبد الله بن معمر ، يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فكلهم كتموا كتابه إلا المنذر بن الجارود ؛ فإنه خاف أن يكون دسيساً من ابن زياد ، فأتاه بالرسول والكتاب ، فضرب عنق الرسول ، وخطب في الناس وقال : أما بعد ، فوالله ما بي تُقرَن الصَّنبَة ، وما يُقَمِّع لي بالشَّنَّان ، وإني لِنِكَلٌ لمن عاداني ، وسمُّ لمن حاربني ، وأنصف القارة من راماها . يا أهل البصرة ، إن أمير المؤمنين قد ولّاني

الكوفة وأنا إليها غادٍ بالغداة ، وقد استخلفتُ عليكم أخى عثمان بن زياد ، فإياكم والخلاف والإرجاف ؛ فوالله لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه وولّيته ، ولأخذنّ الأذنى بالأقصى حتى تستقيموا ، ولا يكون فيكم يخالف ولا مُشاقّ ، وإني ابن زياد ؛ أشبهته من بين من وطئ الحصى ، فلم ينترعنى شبهه خال ولا عمّ .

ثم خرج من البصرة حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل يمرّ بالمجالس ؛ فلا يشكّون أنّه الحسين ، فيقولون : مرحباً بك يا بن رسول الله ! وهو لا يكلمهم . وخرج إليه الناس من دُورهم ؛ فسأله ما رأى منهم . وسمع النعمان ، فأغلق عليه الباب ؛ وهو لا يشكّ أنّه الحسين . وانتهى إليه عبيد الله ، ومعه الخلق يصيحون ، فقال له النعمان : أنشدك الله ؛ إلا تنحيت عني ؛ فوالله ما أنا بمسلم إليك أمانتي ؛ ومالي في قتالك من حاجة . فدنا منه عبيد الله ، وقال له : افتح لا فتحت ! فسمِعها إنسانٌ خلفه ، فرجع إلى الناس وقال لهم : إنّ ابن زياد ! وفتح له النعمان ، وأغلَقوا الباب ، وتفرّق الناس .

وأصبح فجلس على المنبر ، وقال : أمّا بعد ، فإنّ أمير المؤمنين ولّاني مِصرَكم وثغرَكم وفيثَكم ، وأمراني بإنصاف مَظْلُومِكم ، وإعطاء محرومِكم ، وبالإحسان إلى سامعِكم ، ومطيعِكم ، وبالشدّة على مُريبِكم وعاصيِكم ، وأنا متّبع فيكم أمره ، ومنفّذ فيكم عهدّه ؛ فأنا المحسنُكم كالوالد البرّ ، ولُمّطيّكم كالأخ الشقيق ، وسيفي وسوطي على من ترك أمرى وخالف عهدي ؛ فليُبقِ امرؤ على نفسه .

ثم نزل ، وأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً ، وقال : اكتبوا إلى الغرباء ومن فيكم من طَلِبة أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحرورية وأهل الرّيب الذين رأيهم الخلاف والشقاق ، فمن كتبهم لنا فبرّى ، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا من في

عِرافته ؛ ألا يخالفنا فيهم مخالف ، ولا ينبغي علينا منهم باغ ؛ فمن لم يفعل برئت منه الذمة ، وحلال لنا دمه وماله ، وأيمًا عريف وُجد في عِرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صُلب على باب داره ، وألغيت تلك المرافة من العطاء .

وسمع مسلم بن عَقِيل بمقالة عبید الله ، فخرج من دار المختار ، وأتى دار هاني بن عُرْوَة المرادي ، فلما رآه هاني كره مكانه ، فقال له مسلم : أتيتك لتجیرني ونُضيفني ، فقال هاني : لقد كَلَفْتَنِي شططا ، ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني ؛ غير أنه يأخذني من ذلك ذمام ، ادخل .

ثم آواه ، واختلفت الشیمة إليه في دار هاني ، فدعا ابنُ زياد مولى له ، وأعطاه ثلاثة آلاف درهم ، وقال له : اطلب مُسلم بن عَقِيل وأصحابه ، وألفهم ، وأعطهم هذا المال ، وأعلمهم أنك منهم ، واعلم أخبارهم .

ففعل ذلك ، وأتى مُسلم بن عوسجة الأسدي بالمسجد ، فسمع الناس يقولون : هذا يُبايع للحسين - وهو يصلّي ، فلما فرغ من صلاته قال له : يا عبد الله ، إني امرؤ من أهل الشام ، أنعم الله عليه بحب أهل هذا البيت ، وهذه ثلاثة آلاف درهم ، أردت بها لقاء رجل منهم ؛ بلغني أنه قدم الكوفة يُبايع لابن بنت رسول الله ، وقد سمعت نفرا يقولون : إنك تعلم بأهل هذا البيت ، وإني أتيتك لتقبضَ المال ، وتُدخلني على صاحبك أبيه ، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائي إياه ، فقال : لقد سرّني لقاءك إياي لتنال الذي تحب ، وينصر الله بك أهل نبيه ، وقد ساءني معرفة الناس هذا الأمر متى قبل أن يتم مخافة هذا الطاغية وسطوته .

ثم أخذ بيعته والمواثيق المعظمة لينا نحن وليكتمن . ثم أدخله على مُسلم بن عَقِيل ، فأخذ بيعته ، وقبض ماله ، وجمل يختلف إليهم ، ويعلم أسرارهم ، وينقلها إلى ابن زياد .

وكان هانيءٌ قد انقطع عن عُبيد الله بمذَر المرض ، فدعا عُبيد الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارجة وعمرو بن الحجاج ، وسألهم عن هانيءٍ وانقطاعه ، فقالوا : إنه مريض ؛ فقال : بلغني أنه يجلس على باب داره ، وقد شفى ؛ فرؤوه ألا يدع ما عليه في ذلك من الحق . فأتوه فقالوا له : إن الأمير قد سأل عنك ، وقال : لو أعلم أنه شاكٍ لمُدته ، وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك ، وقد استبطأك ، والجفاه لا يحتمله السلطان ؛ أقسمنا عليك لو ركبت معنا !

فلبس ثيابه ، وركب معهم ، فلما دنا من القصر أحست نفسه بالشر ، فقال لحسان بن أسماء بن خارجة : يا ابن أخي ؛ إني لهذا الرجل لخائف ؛ فما ترى ؟ فقال : ما أتخوف عليك شيئاً ، فلا تجعل على نفسك سبيلاً ؛ ولم يعلم أسماء مما كان شيئاً ، وأما محمد بن الأشعث فإنه علم به .

ولما دخل القوم على ابن زياد وهانيءٌ معهم قال ابن زياد : أتت بجائنٍ رجلاه ، ثم أنشد :

أريدُ حياته ويريد قَتلى عذيرك من خليلك من مُراد^(١)

وكان ابن زياد مكرماً له ، فقال هانيءٌ : وما ذاك ؟ فقال : يا هانيءٌ ؛ ما هذه الأمور التي تُدبرُ في دارك لأُمير المؤمنين والمسلمين ؟ جئت بمُسلم بن عَقِيل ، فأدخلته في دارك ، وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت أن ذلك يخفى عليّ . قال : ما فعلت . قال : بلى . وطال بينهما النزاع ، فدعا ابنُ زياد مولاة ، ولما وقف بين يديه قال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ! وعلم هانيءٌ عند ذلك أنه كان عَيِّناً عليهم ، فسقط في يده ساعة ، ثم راجعته نفسه ، فقال : اسمع مِنِّي وصدقني ؛ فوالله لا أكذبك ؛ والله مادعوتهُ ، ولا علمت بشيء من أمره ؛ حتى رأيته جالساً على بابي يسألني النزولَ علىّ ، فاستحييت من ردّه ، ولزمني من ذلك ذِمَام ، فأدخلته داري ، ووضفته ،

(١) البيت لعمر بن معد يكرب ، اللآلي ٦٤ .

وقد كان من أمره الذى بلغك ؛ فإن شئت أعطيتك الآن موثقاً مطمئن به ، ورهينة تكون فى يدك ؛ حتى أنطلق وأخرجه من دارى ، وأعود إليك . فقال : لا والله ، لا تفارقنى أبداً حتى تأتبنى به ، قال : لا آتيك بضيفى تقتله أبداً .

فلما كثر الكلام قام مسلم بن عمرو الباهلى فقال : خلّنى وإياه ؛ حتى أكلمه ؛ لما رأى من لجأجه . وأخذ هاتئنا ، وخلا به ناحية من ابن زياد بحيث يراها ، فقال له : يا هانى ، أنشدك الله أن تقتل نفسك ، وتدخل البلاء على نفسك ، إن هذا الرجل ابن عم القوم ؛ وليسوا بقاتليه ولا ضائريه ؛ فادفعه إليه ، فليس عليك بذلك مخزاة ولا منقصة ؛ إنما تدفعه إلى السلطان ، قال : بلى والله ؛ إن على فى ذلك للخزى والعار . أنا أدفع جارى وضيفى وأنا حتى صحيح أسمع وأرى شديد الساعد ، كثير الأعوان ! والله لو لم أكن إلا واحداً ليس لى ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه ، فأخذ يناشده ، وهو يقول : والله لا أدفعه إليه أبداً .

فسمع ابن زياد ذلك فقال : أدنوه منى ، فأدنوه منه ؛ فقال : والله لتأتينى به أو لأضربن عنقك ! قال : إذن والله تكثر البارقة حول دارك ؛ وهو يرى أن عشيرته ستمنعه ، فقال ابن زياد : أبالبارقة تخوفنى ! ثم قال : أدنوه منى ، فأذنى ، فاستعرض وجهه بالقضيب ، ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخدّه حتى كسر أنفه ، وسيل الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خدّيه وجبينه على لحيته ؛ حتى كسر القضيب . وضرب هانى بيده إلى قائم سيف شرطى وجبذه ، فمنع منه ، فقال له عبيد الله : أحرورى سائر اليوم ، أخلّلت بنفسك ، قد حلّ لنا قتلك ؟ ثم أمر به فألقى فى بيت ، وأغلق عليه ، فقام إليه أسماء بن خارجة وقال : أرسله يا غادر ! أمرتنا أن نجيئك بالرجل ؛ فلما أتيناك به هشمت وجهه ، وسيلت دمه ! فأمر به ابن زياد فحبس . وأما ابن الأشعث فقال : رضينا بما رأى الأمير ؛ لنا كان أو علينا .

وأتى الخبرُ مسلم بن عَقِيل ؛ فنادى في أصحابه : يا منصور ! وكان هذا شعارهم ، وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً ، وحوله في الدور أربعة آلاف ، فاجتمع إليه ناس كثير ، فمبّأهم ، وأقبل إلى القصر فأحاط به ، وامتلاً المسجد والسوق من الناس ، ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلاً من الشرَط ، وعشرون رجلاً من الأشراف ، وأهل بيته ومواليه .

فرأى ابن زياد أن يُعْمِل الحيلة ، فدعا كثير بن شهاب الحارثي ، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحِج ، فيسير ويخذل الناس عن ابن عَقِيل ويخوّفهم ، وأمر محمد ابن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْدَةَ وحضر موت ، فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس ، وقال مثل ذلك للقمقاع بن شُور ، وشُبَّث بن رَبِيع ، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة عدد من معه .

وخرج أوائك النفر يخذلون الناس ، وأمر عبيد الله من عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر ، فيمَنُّوا أهل الطاعة ، ويخوّفوا أهل المعصية ، ففعلوا .

فلما سمع الناسُ مقالة أشرافهم أخذوا يتفرَّقون ؛ حتى بقي ابنُ عَقِيل في المسجد في ثلاثين رجلاً . فلما رأى ذلك خرج متوجّهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فلما خرج إلى الباب لم يبق معه أحد ، فضى في أزقة الكوفة لا يدرى أين يذهب . ثم انتهى إلى باب امرأة من كِنْدَةَ فسألم عليها ، وطلب الماء فسقته ، ثم جلس ، فقالت له : يا عبد الله ، ألم تشرب ؟ قال : بلى ! قالت : فاذهب إلى أهلك ، فسكت ، فقالت له ثلاثاً فلم يبرح ، فقالت : سبحان الله ! إني لا أحِلُّ لك الجلوس على بابي ، فقال لها : ليس لي في هذا المصّر منزل ولا عشيرة ، فهل لك إلى أجر ومعرفة ؟ ولعلّي أكاثلك به بعد اليوم . قالت : وما ذاك ؟ قال : أنا مُسلم بن عَقِيل ، كَذَبَنِي هؤلاء القوم

وغرؤنى . قالت : ادخل ، فأدخلته بيتاً فى دارها ، وعرضت عليه العشاء فلم يتمش .
وجاء ابنها بلال ، فرآها تسكّر الدخول فى ذلك البيت ، فقال لها : إنّ لك لشأناً فى
ذلك البيت ! وسألها ، فلم تخبره ، فألحّ عليها فأخبرته واستكتمته وأخذت عليه الأيمان
بذلك . فسكت .

* * *

أما ابن زياد فإنه لما سمع الأصوات قال لأصحابه : انظروا هل ترون منهم أحداً !
فنظروا فلم يروا أحداً ، فنزل إلى المسجد قبل العتمة ، وأجلس أصحابه حول المنبر ،
وأمر فنودى : برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمقاتلة صلى العتمة إلا
فى المسجد .

فامتلاً المسجد ثم صلى بالناس وقام ، فحمد الله ثم قال : أما بعد ، فإن ابن عَقِيل
السنه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلف والشقاق ، فبرئت الذمة من رجل وجدناه
فى داره ، ومن اتانا به فله دِيَّتُهُ . ثم أمرهم بالطاعة ولزومها .

ولما أصبح بلال ابن تلك المعجوز التى آوت مسلم بن عَقِيل أتى عبد الرحمن بن
عبد بن الأشعث ، وأخبره بمكان مسلم بن عَقِيل ، فأتى عبد الرحمن أباه وهو عند
ابن زياد فأسرّ إليه بذلك ، فأخبر به ابن زياد ، فقال له ابن زياد : قم فائتنى به الساعة ،
وبعث معه عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمى فى سبعين من قيس ، حتى أتوا
الدار التى فيها ابن عَقِيل ، فلما سمع الأصوات عرف أنه قد أتى ، فخرج إليهم بسيفه
حتى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه فأخرجهم مراراً . وضرب بُكَيْر بن حمران
فم مسلم فقطع شفتيه العليا ، وسقطت نثيتاه ، وضربه مسلم على رأسه وثنى بأخرى ،
فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت ، وجعلوا يرمونه بالحجارة

ويذهبون النار في القَصَب ويلقونها عليه . فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيفه ، فقال له محمد بن الأشعث : لك الأمان فلا تقتل نفسك ، فأقبل يقاتلهم فقال له محمد : إنك لا تُكذِّب ولا تُخدع . إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك . وكان قد أُثخِنَ بالجراحة وعَجَزَ عن القتال ، فأسند ظهره إلى حائط تلك الدار فأمنه ابن الأشعث والناسُ غَيْرَ عمرو بن عبيد الله السلمي فإنه قال : لاناقة لي في هذا ولا جمل . وأتى بيغلة فحُمِلَ عليها ، وانتزعوا سيفه فكأنه أيس من نفسه فدمعت عيناه ثم قال : هذا أول الغدر . قال محمد : أرجو ألا يكون عليك بأس ، قال : أين أمانكم ؟ ثم بكى ، فقال له عمرو بن عبيد الله السلمي : مَنْ يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثلُ الذي نزل بك لم يَبكِ ، فقال : ما أبكى لنفسى ، ولكنى أبكى لأهلى المنقلبين إليكم ؛ أبكى للحسين وآل الحسين !!

ثم أدخل إلى القصر ، وتقدّم محمد بن الأشعث فأخبر عبيد الله بن زياد الخبر وبأمانه له ، فقال له عبيد الله : ما أنت والأمان ! ما أرسلناك لتؤمنه ، إنما أرسلناك لتأتينا به ، فسكت محمد .

ثم إن مُسلم بن عَقِيل رأى جَرَّةً فيها ماء بارد ، فقال : اسقُونِي من هذا الماء . فقال له مُسلم بن عمرو الباهلي : أتراها ؟ ما أبردها ! والله لا تذوقُ منها قطرة حتى تذوقَ الحميم في نار جهنم . فقال له ابن عَقِيل : مَنْ أنت ؟ قال : أنا مسلم بن عمرو الباهلي ، فقال له ابن عَقِيل : لَأَمَّكَ الشُّكْلُ ! ما أجفاك وأفضلك وأقسى قلبك وأغلظك ! أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم . ثم أدخل على ابن زياد ، فلم يسلم عليه بالإمارة ، فقال له الحَرَسِيُّ : ألا تسلم على الأمير ؟ فقال : إن كان يُريد قتلى فما سلامي عليه ! وإن كان لا يريد قتلى فليَكُفِّرَنَّ تسليمي عليه . فقال له

ابن زياد : لعمرى لتقتلن ! فقال : كذلك ؟ قال : نعم . قال : فدعني أوص إلى بعض قومي ! قال : افعل .

فقال لعمر بن سعد : إن بيني وبينك قرابة ولى إليك حاجة - وهى سر - فلم يمكّنه من ذكرها . فقال ابن زياد : لا تتنصع من حاجة ابن عمك ، فقام معه فقال : إنَّ على بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة ، قدره سبعمائة درهم ، فاقضه عني ، وانظر جثتي فاستوهبها من ابن زياد ، فوارها ، وأبعث إلى الحسين من يردّه .

فقال عمر لابن زياد : إنه قال كذا كذا ، فقال ابن زياد : إنه لا يخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن ؛ أمّا مالك فهو لك ، تصنع به ما شئت ، وأمّا الحسين فإن لم يردنا لم نرده ، وإن أرادنا لم نكف عنه ، وأمّا جثته فإننا إذا قتلناه لأنبأى ما صنع بها .

ثم قال ابن زياد لمسلم : يا ابن عقيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع ، وكلّهم واحدة ، لتشتت بينهم ، وتفرق كلمتهم ! فقال : كلاً ، ولكن أهل هذا المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم ، وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب والسنة ، قال : وما أنت وذاك يافاسق ! ألم يكن يعمل بذلك فيهم إذ أنت تشرب الخمر بالمدينة ؟ قال : أنا أشرب الخمر ! والله ، إن الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق ، وأنا لست كما ذكرت ، وأن أحق الناس بشرب الخمر من يبلغ في دماء المسلمين ، فيقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والمداوة ، وهو يلهو ويلعب ؛ كأنه لم يصنع شيئاً ! فقال له ابن زياد : قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام ، قال : أما إنك أحق من أخذت في الإسلام حدثاً ؛ إنك لاتدع سوءاً لقتلة وقبح المثلة وخبث السيرة ولؤم

الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك . فشتمه ابن زياد وشتم الحسين وعائلاً وعقيلاً ، ثم أمر بـابن عقيل فأصعد فوق القصر ، وضربت عنقه .

أما الحسين فإنه لما عَزَمَ على المسير إلى الكوفة وتَهيَّأَ أتاه عُمَرُ بن عبد الرحمن ابن الحارث المخزومي فدخل عليه وقال له : أتيتك يا بن عمّ لحاجةٍ ؛ أريد ذكرَها لك نصيحة ؛ فإن كنتَ ترى أنك تَسْتَنْصِحُنِي ، وإلا كففتُ عما أريد أن أقول . فقال : قُلْ ؛ فوالله ما أظنك بِسَيِّئٍ الرأى ، فقال : بَدَغْنِي أنك تريدُ المسيرَ إلى العراق ؛ وإني مُشْفِقٌ عليك من مَسِيرِكَ ؛ إنك تأتي بلداً فيه عمّالُه وأمرأؤه ، وممهم بُيوت الأموال ، وإنما الناسُ عبيد لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمنُ عليك أن يُقاتلَكَ مَنْ وعدَكَ نصرَه ، وَمَنْ أنتَ أحبُّ إليه رِمْنٌ يُقاتلك معه .

فقال الحسين : جَزَاكَ اللهُ خيراً يا بن عمّ ، فقد والله علمتُ أنك مَشَيْتَ بِنُصْحٍ ، وتكلّمتَ بمقل ، ومهما يُقْضَى مِنْ أَمْرٍ يكن ، أخذت برأيك أو تركته ، فأنت عندي أحمَدُ مُشِيرٍ ، والنصح ناصح .

ثم جاءه ابنُ عباس ، فقال : يا بن عمّ ، قد أُرْجَفَ الناسُ أنك سائرٌ إلى العراق ، فبيّن لي ما أنت صانع ، قال : إني قد أَجَمَعْتُ المسيرَ في أحدِ يومَي هذين إن شاء الله تعالى . فقال له ابنُ عباس : فإنّي أعيذك بالله مِنْ ذلك ، أخبرني - رَحِمَكَ اللهُ - أَتَسِيرُ إلى قومٍ قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونَفَوْا عدوهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسيرُ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْكَ إليهم ، وأميرهم عليهم قاهرٌ لهم ، وعمّالُه تجيُّ بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمنُ عليك أن يفزوك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنَفِرُوا إليك ، فيكونوا أشدَّ الناس عليك .

فقال له الحسين : إني أستخير الله ، وأنظرُ ما يكون .

ولما خرج ابنُ عباسٍ مِنْ عنده أتاه ابنُ الزبير ، فحدثه ساعة ، ثم قال :
ما أدري ما ترَ كُنَّا هؤلاء القوم ، وكُنَّا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وولاء هذا
الأمر دُونهم ؟ خَبَّرَني ما تريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حَدَّثت نفسي
بإتيان الكوفة ، ولقد كتب إلى شيعتي بها وأشراف أهلها ، وأستخير الله . فقال
له ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثلُ شيعتك ما عدتُ بها . ثم إنه خَشِيَ أن
يَتَّهمه فقال له : أما إنك لو أقمْتَ بالحجاز ثم أردت هذا الأمر هاهنا ما خُوف
عليك إن شاء الله ، ثم قام فخرج من عنده ، فقال الحسين : إن هذا ليس شيء
يؤتاه من الدنيا أحبَّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه
ليس له من الأمر معنى شيء ، وإنَّ الناسَ لم يَعدِلوه بي فودَّ أني خرجت منها
لتخلو له .

ولما كان الغد أتاه ابنُ عباس ثانياً ، فقال له : يا بن عمِّ ، أتصبر ولا أصبر ،
إني أتخوَّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إنَّ أهلَ العراق قوم غدر ،
فلا تقربنهم ، أقيم بهذا البلد ، فإنك سيِّدُ أهل الحجاز فإن كان أهلُ العراق
يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم ، فلينفوا غَدُوَّهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن
أبيت إلا أن تخرج ، فسر إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشعاباً . وهي أرض عريضة
طويلة ولأبيك بها شِيعَة ، وأنت عن الناس في عِزْلَة ، فتكتب إلى الناس ،
وترسل وتبث دعائك ، فإنني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية .

فقال له الحسين : يا بن عمِّ ، إني لأعلم والله أنك ناصح مُشفق ، ولكني قد

أزمت وأجمعت على المسير .

فقال له ابن عباس : فإن كنت سائراً ، فلا تَسِرْ بنسائك وصبيّتك ، فوالله
إني لخائف أن تقتل ، كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فلم يَفِدْ
كلامه شيئاً .

ثم سار بأهله وأولاده ، فقابله بالطريق الفرزدق ، فسأله الحسين عن خبر الناس
بالكوفة ، فقال له : قلوبُ الناس معك ، وسيوفُهم مع بني أمية ؛ والقضاء ينزل
من السماء ، والله يفعل ما يشاء .

وبينا هو في الطريق جاءه كتابٌ من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : أمّا بعد ؛
فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ؛ فإني مُشْفِقٌ عليك من الوجه الذي
تتوجّه له ، أن يكون فيه هلاكك ، واستئصال أهل بيتك ؛ إن هلك اليوم
أطفي نور الأرض ، فإنك علمُ المهتدين ورجاء المؤمنين ؛ فلا تعجل بالسير ، فإني في
أثر الكتاب ، والسلام .

ثم ذهب عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سميد بن العاص ، فكلّمه وقال : اكتب
إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان ، وتمنّيه فيه البرّ والصّلة ، وتوثّق له في كتابك ،
وتسأله الرجوع ؛ لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال له عمرو بن سميد - وكان عامل
يزيد على مكة - : اكتب ما شئت ، واثقني به ؛ حتى أختمه .

فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن سميد إلى الحسين بن عليّ ،
أما بعد ، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يؤرّقك ، وأن يهديك لما يُرشدك ؛ بلغني
أنك توحّمت إلى العراق ، وإني أعيذك بالله من الشقاق ؛ فإني أخاف عليك فيه الهلاك ،
وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سميد ، فأقبل إليّ معهما ؛ فإن لك عندي
الأمن والصّلة والبرّ وحسن الجوار لك ، والله على بذلك شهيد وكفيل ومُراعٍ
ووكيل . والسلام عليك .

فكتب إليه الحسين : أما بعد ؛ فإنه لم يُشاققِ الله ورسوله مَنْ دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحاً ، وقال : إني من المسلمين ، وقد دعوت إلى الأمان والبرّ والصلة ؛ خَيْرُ الأمان أمانُ الله ، ولن يؤمّن الله يومَ القيامة مَنْ لم يخفْهُ في الدنيا ، فنسأل الله مخافةً في الدنيا ، توجب لنا أمانةً يومَ القيامة ؛ فإن كُنت نويتَ بالكتابِ مِيتتى وبرّى ، فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة ، والسلام .

ثم تمّ على طريقه ، فقابلهُ عبد الله بن مطيع ، ولما علم بوجهه قال له : أذكرك الله يا بن رسول الله ، وحرمة الإسلام أن تُنتهك ، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بنى أمية ليقْتُلُنّك ، ولئن قتلوك لا يهابون بمدك أحداً ، والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش ، وحرمة العرب ؛ فلا تفعل ، ولا تأت الكوفة ، ولا تمرّض نفسك لبنى أمية .

ثم إن الحسين كَما بلغه مقتلُ مسلم بن عَقِيل ، وتخاذلُ الناس أعلم أصحابه بذلك وقال : مَنْ أحبّ أن ينصرف فلينصرف ؛ فتفرّق الناس عنه بيميناً وشمالاً . فقال له بعضُ أصحابه : نشدك الله إلا ما رجعت من مكانك ؛ فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيعة ، بل نتخوّف أن يكرنوا عليك . فوثب بنو عَقِيل ، وقالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا ، أو ندوق كما ذاق مُسلم !

وسار حتى نزل بطن العقبة ؛ وهناك لقيه رجل من العرب ، فقال : أنشدك الله إلا ما انصرفت . فوالله ما تقدم إلا على الأستنة وحدّ السيوف ؛ إن هؤلاء الذين همّوا إليك لو كانوا كفّوك مئونة القتال ، ومهدوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً . فأما على هذه الحال التي تذكّر ؛ فلا أرى أب تفعل . فأبى أن يرجع .

ولما وصل الحسين إلى مكان يقال له شَراف^(١) وصل إليه الحرّ بن يزيد التيمي صاحب شُرطة عبيد الله بن زياد في أَلَفَى فارس ، حتى وقفوا مُقابل الحسين في حَرّ الظَّهيرة ، فقال لهم الحسين : ما أتيتُ إِلَّا بكتبكم ، فإن رجعتُم رجعتُ من هنا . فقال له الحرّ : إِنَّا أُمِرنا إِلَّا نفارقك حتى نوصلك إلى الكوفة ، بين يدي عبيد الله ابن زياد . فقال الحسين : الموت أهون علىّ من ذلك .

ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا ، فمنعهم الحرّ من ذلك ، فقال الحسين : سَكَتُكَ أُمَّكَ ! ما تريد ؟ فقال له : أما والله لو غيرُكَ من العرب يقولها ما تركتُ ذكرَ أمّه بالثَّكلِ كائنا مَنْ كان ، ولكنّي والله ما لي إلى ذِكرِ أُمَّكَ من سبيل ، إِلَّا بأحسن ما يُقدَّر عليه .

ثم سار الحسين والحرّ يُراقبه ، حتى لا يتمكّن من الانصراف إلى المدينة ، وبينما هما في الطريق ورد كتاب من ابن زياد إلى الحرّ يأمره أن ينزل الحسين ومن معه على غير ماء ، فأنزلهم في الموضع المعروف بكربلاء في يوم الخميس ، ثاني المحرم من سنة إحدى وستين ، فلما كان من الغد قدم من الكوفة عمر بن سعد ابن أبي وقاص بأربعة آلاف فارس ، أرسله ابن زياد لحرب الحسين .

فقال له الحسين : اختر واحدةً من ثلاث ، إما أن تدعني فأنصرف من حيث جئتُ ، وإما أن تدعني فأذهبَ إلى يزيد ، وإما أن تدعني فألحقَ بالثغور .

فقبلَ ذلك عمرُ بن سعد ، وأرسل بالخبر إلى عبيد الله بن زياد ، فكتب إليه : لا ، ولا كرامة ، حتى يضعَ يده في يده ، فقال له الحسين : لا يكونُ ذلك أبداً ، ثم دار القتال ، فقتل أصحابُ الحسين كلهم ، وهم لا يزيدون على ثمانين ، وفيهم

(١) شراف : ١٠ء بنجد .

بضعة عشر شاباً من أهل بيته . وجاءه سهم فأصاب ابنه معه في حجره ،
فجعل يمسح الدّم عنه ويقول : اللهم احْكُم بيننا وبين قومٍ دعونا لينصرونا ،
فقتلونا ، ثم أمر بحجرة فشقّها ، ثم لبسها ، وخرج بسيفه وقاتل ، حتى قُتل - صلوات
الله عليه - قتله رجل من مذحج ، وحزّ رأسه ، وانطلق به إلى عُبيد الله وقال :
أورِقْ رِكابِي فِصَّةً وَذَهَباً فَقَدْ قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحِبَّ^(١)
قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أُمًّا وَأَبَا وَخَيْرَهُمْ إِذْ يُنْسَبُونَ نَسَباً

وأوفده إلى يزيد بن معاوية ، ومعه الرأس ، فوضع رأسه بين يديه ، وعنده
أبو بَرَزَةَ الأَسْلَمِيُّ . فجعل ينكت بالقضيب على فيه ، ويقول :
يُفْلَقْنَ هَاماً مِنْ رِجَالِ أَعْزَةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمًا^(٢)
فقال له أبو بَرَزَةَ : ارفع قضيبك ، فوالله لرُبَمَا رأيت فأَ رسولَ الله صَلَّى الله
عليه وسلّم على فيه يكلّثمه !

(١) انظر العقد ٤ : ٣٨١ .

(٢) للحصين بن حمام المرى ، وانظر العقد ٤ : ٣٨٢ .

٥٥ — يوم الحرة*

كان عمرو بن سميد أميراً على الحجاز في عهد يزيد^(١) بن معاوية ، وعلى إثر مقتل الحسين - رضى الله عنه - أخذ عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه بمكة . واشترأبت إليه الناس ، فأظهر عمرو ومعه تهاوناً ظناً منه أن الأمور قد تثول إليه . فذهب ناس من بنى أمية ومعهم الوليد بن عتبة إلى يزيد وحدثوه في أمر عمرو بن سميد ، وقالوا : لو شاء لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك .

فسرح يزيدُ عمرأ وصرفه عن الحجاز ، وولى الوليد بن عتبة أميراً ، وقدم عمرو على يزيد ، فلما دخل عليه رحب به وأذنت مجلسه ، ثم إنه عاتبه في تقصيره في أشياء . كان يأمره بها في ابن الزبير ، فلا ينفذ منها إلا ما أراد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وإنَّ جُلَّ أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا إليه ، وهووه ، وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم بعضاً سرّاً وعلانية ، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحذرني ويتحرز مني ، وكنت أرفق به وأداريه لأستمكن منه ، فائب عليه ، مع أنى قد ضيقتُ

* ليريد بن معاوية على أهل المدينة سنة ٦٣ هـ . والحرة : أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، والحرار كثيرة في بلاد العرب ، أكثرها حوالى المدينة إلى الشام . والحرة التى وقعت فيها هذه الواقعة تقع شرقى المدينة ، اسمها حرة واقم .

تاريخ الضربى ٧ : ١ ، معجم البلدان ٣ : ٢٦٢ ، الفخرى : ١٠٦ ، الأغاني : ١ : ٢٣ ، مروج الذهب ٣ : ٩٥ ، أبو الفدا ٢ : ١٩٢ ، العقد ٣ : ١٤١ .

(١) ولى يزيد الخلافة سنة ٦٠ بعد وفاة معاوية ، وتوفى سنة ٦٣ ، وكان موفور الرغبة في اللهو والقنس والنساء ، وكان أيضاً فصيحاً كريماً شاعراً ، ولى ثلاث سنين ، في السنة الأولى قتل الحسين ، وفي السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ، وفي السنة الثالثة غزا الكعبة .

عليه ، ومنعته أشياء كثيرة لو تركته وإياها ما كانت له إلا مَعُونَةٌ ، وجعلت على مسكة وطُرُقها وشعابها رجالا لا يدعون أحدا يدخلها حتى يكتبوا إلى باسمه واسم أبيه ، ومن أي بلاد الله هو ، وما جاء به وما يُريد ، فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريد رَدُّ ذَنبِهِ صاغراً ، وإن كان ممن لا أتهم خَلَيْتُ سبيلَه ، وقد بعثت الوليد وسيأتيك من عمله وأثره ما لعلك تعرف به فَضْلَ مبالغتي في أمرك ، ومُنَاصَحَتِي لك . إن شاء الله . والله يصنَعُ لك ، وبَكَيتُ عدوك يا أمير المؤمنين .

فقال له يزيد: أَنْتَ أَصْدَقُ مِمَّنْ رَفَّقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ عَنْكَ ، وحلني بها عليك . وأنتَ ممن أُرِيقُ به ، وأَرْجُو مَعُونَتَهُ ، وأَدَّخِرُهُ لِرَأْبِ الصَّدْعِ ، وكفاية المهم ، وكشف نوازل الأمور العظام .

فقال له عمرو : وما أرى يا أمير المؤمنين أَنَّ أحداً أَوْلَى بِالْقِيَامِ بِتَشْدِيدِ سُلْطَانِكَ ، وتوهِينِ عَدُوَّكَ ، والشدة على مَنْ نَابَذَكَ مِنِّي .

وأقام الوليد بن عُتْبَةَ يَرِيدُ ابْنَ الزُّبَيْرِ فَلَا يَجِدُهُ إِلَّا مُتَحَذِراً مُتَمَتِّعاً .

ثم إن ابن الزُّبَيْرِ عمل بالمَكْرِ في أمر الوليد بن عتبة ، فكتب إلى يزيد بن معاوية: إنك بعثت إلينا رجلاً أُخْرَقَ ، لَا يَتَّبِعُهُ لِأَمْرٍ نَافِعٍ ، وَلَا يَرْعَوِي لِعِظَةِ حَكِيمٍ . ولو بعثت إلينا رجلاً سَهْلَ الْخُلُقِ ، لَيِّنَ الْكَنْفِ رَجَوْتُ أَنْ يُسَهِّلَ مِنَ الْأُمُورِ مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهَا ، وَأَنْ يَجْمَعَ مَا تَفَرَّقَ . فانظر في ذلك ، فإن فيه صلاحَ خواصِّنا وعوامنا . إن شاء الله .

فبعث يزيد بن معاوية إلى الوليد فمزله ، وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان فقدم المدينة وهو فتى غرَّ حَدَثَ عَمَرٌ ؛ لَمْ يُجَرِّبِ الْأُمُورَ ، وَلَمْ تَحْتَسِكْهُ السَّنَةُ ؛

ولم تفسرّسه التجارب ؛ وكان لا يكاد ينظر في شيء من سُلْطَانِهِ ولا عمله .

وبعث إلى يزيد وفدّاً من أهل المدينة ؛ فيهم عبدُ الله بن حنظلة الغسيل^(١) الأنصارى ، وعبدُ الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ؛ والمنذر بن الزبير ، ومعهما كثيرٌ من أشرفِ أهل المدينة .

فقدموا على يزيد فأكرمهم ، وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ؛ ثم انصرفوا كلهم وقدموا إلى المدينة إلا المنذر بن الزبير ، فإنه قدِم على عبيد الله بن زياد بالبصرة .

فلما دخلوا المدينة قالوا : إنّا قدمنا من عند رجل ليس له دين ؛ يشربُ الخمر ، ويمزِفُ بالطنّابير ، وتَضْرِبُ عنده القيّان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامرُ الخراب^(٢) والفتيان . وإنا نشهدكم أنّا قد خَلَعْنَاهُ . فتأبّعهم الناس ، وأتوا عبد الله بن حنظلة الغسيل ، فبايعوه ، وولّوه عليهم .

ولما بلغ يزيد أمرهم بعث إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، فقال له : إيتِ الناس وقومك ، فافْتَأْمُرْ^(٣) عَمَّا يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئِ الناسُ على خلافي . وبها من عشيرتي مَنْ لا أحبُّ أن يَنْهَضَ في هذه الفتنة فيهلك .

فأقبل النعمانُ بن بشير ؛ فأثى قومه ، ودعا الناس إليه عامة ، وأمرهم بالطاعة ، ولزوم الجماعة وخوفهم الفِتنَةَ ؛ وقال لهم : إنه لا طاقة لكم بأهل الشام . فقال عبد الله بن مُطِيع المدَوِيُّ : ما يحملك يا نُمْنُ على تَفْرِيقِ جماعتنا ، وفسادِ ما أصلح اللهُ من أمرنا ؟

(١) الغسيل : لقب حنظلة والد عبد الله ؛ وكان يسمى غسيل الملائكة ، استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت الملائكة يغسلونه . وآخرين يسترونه .
(٢) الخراب : اللصوص .
(٣) افتأمرهم : سكنهم واصرفهم عما يريدون .

فقال النعمان : أَمَّا وَاللَّهِ لَكُنْتُ بِكَ لَوْ قَدْ نَزَلَتْ تِلْكَ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهَا^(١) ؛
وَقَامَتِ الرِّجَالُ عَلَى الرُّكَبِ تَضْرِبُ مَفَارِقَ الْقَوْمِ وَجِبَاهَهُمْ بِالسُّيُوفِ ، وَدَارَتْ رَحَى
الْمَوْتِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ - قَدْ هَرَبْتَ عَلَى بَهْلَتِكَ تَضْرِبُ جَنْبَيْهَا إِلَى مَكَّةَ ؛ وَقَدْ خَلَفَتْ
هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ - يَعْنِي الْأَنْصَارَ - يُقْتَلُونَ فِي سِكَكِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ وَعَلَى أَبْوَابِ
دُورِهِمْ !

وَلَكِنِ النَّاسَ عَصَوْا النُّعْمَانَ ، وَوَثَبُوا عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ
بَنِي أُمَيَّةٍ وَمَوَالِيهِمْ ، وَمَنْ رَأَى رَأْيَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ ؛
وَخَرَجُوا بِجَمَاعَتِهِمْ حَتَّى نَزَلُوا دَارَ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ؛ وَحَاصَرُوا الْأُمَوِيِّينَ فِيهَا .
وَدَعَتْ بَنُو أُمَيَّةٍ حَبِيبَ بْنَ كُرَّةَ ؛ وَكَانَ الَّذِي بَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ
وَعَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ؛ وَكَانَ مَرْوَانُ هُوَ الَّذِي يَدْبِرُ أَمْرَهُمْ ؛ وَأَمَّا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ
فَإِنَّمَا كَانَ غُلَامًا حَدَثًا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَأْيٌ .

قَالَ حَبِيبُ بْنُ كُرَّةَ : كُنْتُ مَعَ مَرْوَانَ فَكُتِبَ مَعِيَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ
كِتَابًا إِلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ؛ فَأَخَذَ الْكِتَابَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ حَتَّى خَرَجَ مَعِيَ
إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ ؛ فَدَفَعَ إِلَى الْكِتَابِ وَقَالَ : قَدْ أَجَلَّتْكَ اثْنَتَى عَشْرَةَ لَيْلَةً ذَاهِبٌ ؛
وَاثْنَتَى عَشْرَةَ لَيْلَةً مُتَبَلًا ؛ فَوَارَفَنِي لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً فِي هَذَا الْمَكَانِ تَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ جَالِسًا أَنْتَظِرُكَ .

وَكَانَ الْكِتَابُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا قَدْ حُصِرْنَا فِي دَارِ
مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فَيَاغُوثَاهُ يَاغُوثَاهُ !

قَالَ : فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ وَمَضَيْتُ بِهِ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى يَزِيدَ ؛ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى

(١) يريد الفتنة .

كرسيّ ؛ واضع قدميه في ماء في طست من وجع كان يجده فيهما . فقرأه ثم قال متمثلاً :

لقد بدّلوا الحلم الذي من سجيّتي فبدّلت قومي غلظةً . بليان
ثم قال : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ! قال حبيب :
قلت : بلى . والله وأكثر ! قال : فما استطاعوا أن يُقاتلوا ساعة من نهار !
فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أجمع الناس كلهم عليهم . فلم يكن لهم بجمع الناس
طاقة .

قال حبيب : فبعث يزيد إلى عمرو بن سميد فأقرأه الكتاب وأخبره الخبر ؛
وأمره أن يسير إليهم في الناس . فقال له : قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت
لك الأمور ؛ فأما الآن إذ صارت دماء قريش تُهراق ، فلا أحب أن أكون أنا
أتولى ذلك ؛ يتولّاها منهم من هو أبعد منهم مني .

قال حبيب : فبعثني بذلك الكتاب^(١) إلى مسلم^(٢) بن عقبة المريّ - وهو
شيخ كبير ضميم مريض - فدفعته إليه الكتاب ؛ فقرأه وسألني عن الخبر
فأخبرته ؛ فقال لي مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة
ألف رجل ! قلت : بلى يكونون ، قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار !
ليس هؤلاء بأهل أن يُنصروا حتى يُجهدوا أنفسهم في جهادِ عدوهم وعزِّ سلطانهم .
ثم جاء حتى دخل على يزيد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تنصر هؤلاء ؛
فإنهم الأذلاء ؛ أما استطاعوا أن يُقاتلوا يوماً واحداً أو شطره أو ساعة منه !

(١) ذكر في الفخرى أن يزيد بعد أن عرض الأمر على عمرو بن سميد ولم يقبله ندب عبيد الله
ابن زياد لذلك فاعتذر وقال : والله لا اجتماعهما للفاسق ، أقتل ابن رسول الله (يريد الحسين) وأغزو
مدينته والكعبة !!

(٢) كان مسلم بن عقبة المري من جبابرة العرب وشياطينهم ، وقيل : إن أباة قال له : إن
خالفك أهل المدينة فارمهم بمسلم بن عقبة .

دَعَمُهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يُجَاهِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَعِزُّ سُلْطَانِهِمْ ؛
وَيَسْتَبِينَ لَكَ مَنْ يُقَاتِلُ مِنْهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ ، وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَسْتَسْلِمُ .

قَالَ يَزِيدُ : وَيَحْكُ ! إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْعِيشِ بِمَدْمِهِمْ ، فَأَخْرَجَ وَأَنْبِئَنِي نَبَأَكَ
وَسِيرَ بِالنَّاسِ .

فَخَرَجَ مُنَادِيهِ ، فَنَادَى : أَنْ سِيرُوا إِلَى الْحِجَازِ عَلَى اخْتِارِ أَعْطِيَاتِكُمْ كَامِلَةً ،
وَبِمِثْلَةِ مِائَةِ دِينَارٍ تَوْضَعُ فِي يَدِ الرَّجُلِ مِنْ سَاعَتِهِ . فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ
رَجُلٍ (١) :

قَالَ حَبِيبُ بْنُ كُرَّةَ : فَأَقْبَلْتُ حَتَّى أَتَوَيْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ
فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ بُعِيدَهَا شَيْئًا ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مُتَقَنِّمًا تَحْتَ شَجَرَةٍ ؛ فَأَخْبَرْتُهُ
بِالَّذِي كَانَ ؛ فَسَرَّ بِهِ ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى دَخَلْنَا دَارَ مَرْوَانَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ،
فَتَجَبَّأَتْهُمْ بِالَّذِي قَدِمْتُ بِهِ ، فَحَمَدُوا اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ .

وَفَصَّلَ الْجَيْشُ مِنْ عِنْدِ يَزِيدَ ؛ وَعَلَيْهِمْ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ ، وَقَالَ لَهُ يَزِيدُ :
إِنْ حَدَّثَ بِكَ حَدَّثٌ فَاسْتَخْلِفْ عَلَى الْجَيْشِ خُصَمَاءَ بَنِي نَعْمَانَ السَّكُونِيِّ ، وَادْعُ الْقَوْمَ
ثَلَاثًا فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ وَإِلَّا فَقَاتِلِهِمْ ؛ فَإِذَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ ، فَأَيِّحْهَا ثَلَاثًا ، فَمَا فِيهَا
مِنْ مَالٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ طَعَامٍ . فَهُوَ لِلْجَنْدِ ؛ فَإِذَا مَضَتْ الثَّلَاثُ فَأَكْثَفُ عَنِ النَّاسِ .
وَانْظُرْ عَلَى بَنِي الْحُسَيْنِ فَأَكْثَفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَوْصِرْ بِهِ خَيْرًا ، وَأَذِنْ بِمَجْلِسِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ

(١) ذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي الْعَقْدِ أَنَّ يَزِيدَ أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ كِتَابًا قَالَ فِيهِ : بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَمَّا بَعْدُ . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأْسَهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا
فَلَا مَرَدَ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . وَإِنِّي قَدْ لَبِستُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَرَفَعْتُكُمْ عَلَى رَأْسِي ، ثُمَّ عَلَى عَيْنِي ،
ثُمَّ عَلَى فَمِي ، ثُمَّ عَلَى بَطْنِي ، وَاللَّهِ لَأَنْ وَضَعْتُكُمْ تَحْتَ قَدَمِي لِأَوْطَانِكُمْ وَطَاءَةً أَقْلَ بِهَا عِدَّتْكُمْ وَأَتْرَكْتُكُمْ بِهَا
أَحَادِيثَ تَنْتَسِخُ أَخْبَارَكُمْ مَعَ أَخْبَارِ عَادٍ وَثَمُودَ .

في شيء مما دخلوا فيه ، وقد أتاني كتابه . وعلى لا يعرف شيئاً مما أوصى به يزيد مسلم بن عَقَبَة (١) .

وأقبل مسلم بن عَقَبَة بالجيش ، حتى إذا بلغ أهل المدينة إقباله وثبوا على من معهم من بني أمية ، فحصرهم في دار مروان ، وقالوا : والله لا نكف عنكم حتى نستزلكم ونضرب أعناقكم ، أو تعطونا عهد الله وميثاقه ، ألا تبغونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدواً ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا . فأعطوهم عهد الله وميثاقه : لا نبغيك غائلة ، ولا ندل لكم على عورة .

فأخرجوهم من المدينة (٢) ؛ فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عَقَبَة بوادي القرى ، فدعا عمرو بن عثمان أول الناس ، فقال له : أخبرني خبراً ما وراءك وأشير عليّ . قال : لا أستطيع أن أخبرك ، أخذت علينا اليهود والمواثيق ألا ندل على عورة ، ولا نظاهر عدواً . فانتهره . ثم قال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك . وإني (٣) والله لا أقبلها قريشاً بعدك .

وخرج بما لقي من عنده إلى أصحابه ، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك : ادخل قبلي ، لعلّه يجزي بك عني . فدخل عليه عبد الملك ، فقال : هات ما عندك ، أخبرني خبر الناس وكيف ترى ؟ فقال له : نعم ، أرى أن تسير بمن معك فتتسكب

(١) قال أبو الفرج : لما أخرج أهل المدينة بني أمية أتى مروان عبد الله بن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن هؤلاء القوم قد ركبونا بما نرى ، فضم عيالنا ، فقال : است من أمرك وأمر هؤلاء في شيء . فقام مروان وهو يقول : قبيح الله هذا أمراً وهذه دنيا ثم أتى على بن الحسين فسأله أن يضم أهله ونقله ففعل ، ووجهه وامرأته أم أبان بنت عثمان إلى الضائف ومعهما ابنه : عبدالله ومحمد . قال ابن جرير الطبري : وكان مروان شاكر العلي بن الحسين مع صداقة كانت بينهما .

(٢) قال في الأغاني : حبينا أراد أهل المدينة لإخراج أميرها عثمان بن محمد بن أبي سفيان قال لهم : أنشدكم الله في دماءكم وطاعتكم ، فإن الجنود تأتيكم وتطوؤكم ، وأعذر لكم ألا تخرجوا أميرة لأنكم إن ظفرت وأنا مقيم بين أظهركم فإيسر شأني وأقدركم على إخراجي ! وما أقول هذا إلا نظراً لكم أريد به حقن دماءكم . فشتموه وشتموا يزيد .

(٣) أصله : وإني ، وهو جمع إني ، والخبر مخذوف والتقدير : وإني الله قسبي .

هذا الطريق إلى المدينة ، حتى إذا انتهيت إلى أدنى نَخل بها نزلت ، فاستظلّ الناس بظله ، وأكَلُوا من صَقَرِهِ^(١) ، حتى إذا كان الليل أَذْكَيتَ الحرسَ الليل كله بين أهل العسكر ، حتى إذا أصبحت صليت بالناس الغداة ، ثم مضيت بهم وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم أَدْرَتَ بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرّة مُشْرِقًا ، ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها ، ويصيبهم أذاها ، ويَرَوْنَ - مادمت مُشْرِقِينَ اثتلاقَ بَيْنِكُمْ وجِرابِكُمْ وأسِنَّة رماحكم وسيوفكم ودُرُوعكم ، مما لا تَرَوْنَهُ أنتم لشيء من سلاحهم ماداموا مُقَرَّبِينَ - ثم قابِلهم ، واستَمِنَ بالله عليهم ، فإن الله ناصرُك إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة .

فقال له مسلم : لله أبوك ! أى امرئ وُلِدَ إذ ولدك ! لقد رأى بك خَلْفًا .

ثم إن مروان دخل عليه ، فقال له : إيه ! قال : أليس قد دخل عليك عبدُ الملك ؟ قال : بلى ! وأى رجل عبد الملك ! قلما كَلَّمْتُ من رجالِ قريش رجلًا شبيهًا به ! فقال له مروان : إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني . قال : أَجَلْ !

ثم ارتحل مُسلم من مكانه ذلك ، وارتحل الناسُ معه حتى نزل المنزل الذي أمره به عبد الملك ، فصنع فيه ما أمره به ، ثم مضى في الحرّة حتى نزَلَهَا ، فأَتاهم من قبل الشرق ، ثم دعاهم مُسلم بن عَقْبَة ، فقال : يا أهل المدينة ، إن أميرَ المؤمنين يزيد بن معاوية يزعمُ أنكم الأصل ، وإنى أكره هِراقةَ دِمَائِكُمْ ، وإنى أؤجلكم ثلاثًا ، فمن ارْعَوَى ورَاجَعَ الحقَّ قَبِلْنَا منه ، وانصرف عنكم وسرت إلى هذا

(١) الصقر : عسل الرطب .

الملحد^(١) الذى بمكة، وإن أبيتُم كُنا قد أَعَدَرْنَا إليكم .

ولما مضت الأيام الثلاثة قال : يا أهل المدينة ، قد مضت الأيام الثلاثة ؛ فما تعذرون ؟ أَسْأَلُمُونَ أم تحاربون ؟ فقالوا : بل نُحَارِبُ .

فقال لهم : لا تفعلوا ، بل ادخلوا فى الطاعة ، ونجعل حدّنا وشوكتنا على هذا الملحد الذى قد جمع إليه المِرّاق والفسّاق من كل أوب .

فقالوا : يا أعداء الله ؛ والله لو أردتُم أن تجوزوا إليهم ما تركناكم حتى نقاتلكم ، أنحن ندعكم لتأتوا بيت الله الحرام ، وتخيفوا أهله ، وتلحدوا فيه ؛ وتستحلوا حرمتَه ! لا والله لا نفعل .

وقد كان أهل المدينة اتّخذوا خندقاً فى جانب المدينة ، ونزله جمع عظيم ، وكان عندهم عبدُ الرحمن بن زهير بن عبد بن عوف وعبد الله بن مُطيع ومُعِيل بن سنان ، وأمير جماعتهم عبد الله بن حنظلة الغسيل .

وصمدُ مسلم بجميع مَنْ معه ، وأقبل من قِبَل الحرّة ، وضرب فُسْطاطَه على طريق الكوفة ، ثم وجّه الخيل نحو عبد الله بن حنظلة الغسيل ، وحمل ابن الغسيل على الخيل فى الرجال الذين معه ؛ حتى انتهوا إلى مسلم بن عُبَيْدَة ؛ فنهض فى وجوهم بالرجال ، وصاح بهم فانصرفوا ، فقاتلوا قتالاً شديداً .

ثم إن الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جاء إلى عبد الله ابن حنظلة الغسيل فقاتل فى نحو من عشرين فارساً قتالاً شديداً حسناً ، ثم قال لعبد الله : مرْ مَنْ معك فارساً فليأتنى وليقف معى ، فإذا حملت فليحملوا ، فوالله لا أنتهى حتى أبلغ مسلماً ، فإذا أن أقتله ، وإما أن أقتل دونه .

(١) يريد عبد الله بن الزبير ، وكان قد اعتصم بمكة .

فقال عبدُ الله بن حَنْظَلَةَ لعبدِ الله بن الضَّحَّاك : نَادِ فِي الْخَيْلِ ، فَلْتَقِفْ مَعَ الْفَضْلِ
ابنِ الْعَبَّاسِ ، فَنَادَى فِيهِمُ الضَّحَّاكُ ، فَجَمَعَهُمْ إِلَى الْفَضْلِ ؛ فَلَمَّا اجْتَمَعَتِ الْخَيْلُ إِلَيْهِ
حَمَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ فَانْكَشَفُوا ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : احْمِلُوا أُخْرَى جُعِلَتْ فِدَاكُمْ !
فَوَاللَّهِ لَنْ عَايِلَتْ أُمِيرُهُمْ لِأَقْتُلَنَّهُ أَوْ لِأَقْتُلَنَّ دُونَهُ . إِنَّ صَبْرَ سَاعَةٍ مُنْقِبٌ سُرُورٌ ،
إِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ صَبْرِنَا إِلَّا النُّصْرُ .

ثم حمل وحمل أصحابه معه ، فانقرجت خيلُ أهلِ الشَّامِ عن مسلمٍ في نحوِ خمسمائة
راجلٍ جثاةٍ على الركبِ ، مُشْرِعِي الْأَسِنَّةِ نحوَ الْقَوْمِ .

ومضى الْفَضْلُ كما هو نحوَ رَايَتِهِ حَتَّى يَضْرِبَ رَأْسَ سَاحِبِ الرَّايَةِ ، وَإِنْ عَلِيهِ
لِمَغْفَرًا ، فَقَطَّ الْمَغْفَرُ وَفَلَقَ هَامَتَهُ ، نَفَرَ مَيْتًا . فَقَالَ : خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ !
وظَنَّ أَنَّهُ قَتَلَ مُسْلِمًا ، فَقَالَ : قَتَلْتُ طَائِفَةَ الْقَوْمِ وَرَبَّ الْكُمْبَةِ . فَقَالَ مُسْلِمٌ :
أَخْطَأْتُ ضَرْبَتَكَ - وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ غُلَامًا لَهُ شَجَاعَةٌ . وَأَخَذَ مُسْلِمٌ رَايَتَهُ
وَنَادَى : يَا أَهْلَ الشَّامِ ، أَهَذَا الْقِتَالُ قِتَالُ قَوْمٍ يَرِيدُونَ أَنْ يَدْفَعُوا بِهِ عَنْ دِينِهِمْ ،
وَأَنْ يُعْزَّوْا بِهِ نَصْرَ إِمَامِهِمْ ، قَبِحَ اللَّهُ قِتَالُكُمْ مِنْذُ الْيَوْمِ ، مَا أَوْجَمَهُ لِقَابِي ، وَأَغْيِظُهُ
لِنَفْسِي ! أَمَا وَاللَّهِ مَا جَزَاؤُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ تُحْرَمُوا الْبَطَاءَ ، وَأَنْ تَجْمَرُوا^(١) فِي أَقْصَى
الْفُجُورِ . شَدُّوا مَعَ هَذِهِ الرَّايَةِ ، وَمَشَى بِرَايَتِهِ ، وَشَدَّتِ الرِّجَالُ أَمَامَ الرَّايَةِ ، وَصُرِعَ
الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَطْنَابِ مُسْلِمٍ إِلَّا عَشْرُ أَذْرَعٍ ، وَقَتَلَ مَعَهُ
زَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ نُسَيْمٍ الْمَدَوِيُّ فِي رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ كَثِيرٍ .

ثم إن خيلَ مسلمٍ ورجاله أقبلت نحوَ عبدِ الله بن حَنْظَلَةَ الْغَسِيلِ وَرِجَالِهِ حَتَّى

(١) جروا في أرض العدو : أى حبسوا

دَنَوْا منه ، وركب مسلم بن عُقبة فرساً له ، فأخذ يسير في أهل الشام ، ويحرضهم ويقول : يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها وأنسابها ، ولا أكثرها عدداً ، ولا أوسمها بلداً ، ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم ، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيَّروا فغير الله بهم ، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر .

ثم جاء حتى انتهى إلى مكانه الذي كان فيه ، وأمر الخيل أن تقدم على ابن الفسيل وأصحابه ، فأخذت الخيل إذا أقدمت على الرجال فتاروا في وجوها بالرمح والسيوف نفرت وأحجمت ، فنادى فيهم مسلم : يا أهل الشام ، ما جعلهم الله أولى بالأرض منكم . يا حصين بن نُمير ، انزل في جندك ، فنزل في أهل حمص ، فشى إليهم ، فلما رآهم ابنُ الفسيل قام في أصحابه فقال : يا هؤلاء ، إن عدوكم قد أصابوا وجهَ القتال ، الذي كان ينبغي أن تقاتلوهم به ، وإني قد ظننتُ ألا تلبثوا إلا ساعة ، حتى يفصل الله بينكم وبينهم ، إما لكم وإما عليكم ، أما إنكم أهل البصيرة ، ودار الهجرة ، والله ما أظنُّ ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضي منه عنكم ، ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخطَ منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، إن لكل امرئ مِيتة هو ميت بها ، والله ما من مِيتة بأفضل من مِيتة الشهادة ، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها ، فوالله ما كلما أردتموها وجدتموها .

ثم مشى برايته غيرَ بعيد ووقف ، وجاء ابنُ نُمير برايته حتى أدناها ، وأمر مسلمُ ابن عقيـل عبد الله بن عضاء الأشعري ، فشى في خمسمائة ، حتى دنوا من ابن الفسيل وأصحابه ، وأخذوا ينضحونهم بالنبل ، فقال ابنُ غسيل : علام تستهفون لهم ؟

من أراد التعجل إلى الجنة فليزِم هذه الراية . فقام إليه كل مستميت ، فقال : اتَّعِدُوا إلى ربكم ، فوالله إنى لأرجو أن تكونوا بعد ساعة قريرى عين .
فنهض القومُ بعضهم إلى بعض فافتتلوا أشدَّ قتال رُئى فى ذلك الزمان ساعة من نهار . وأخذ يقدم بليه أمامه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه . وابن الغسيل يضرب بسيفه ويقول :

بُمدأ لِمَنْ رامَ الفسادَ وطَمَى وجانبَ الحقِّ وآياتِ الهدى
* لا يُبْعِدُ الرحمنُ إلا من عَصَى *

فقتل وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت ، وقُتِلَ معه محمد بن عمرو بن حَزْم الأنصارى ، فرَّ عليه مروان بن الحكم ، فقال : رحمك الله ! فربَّ سارية قد رأيتك تطيل القيام فى الصلاة إلى جنبها .
وغلبت الهزيمة على أهل المدينة ، وأباحها مسلم ثلاثاً ، يقتلون الناس ، ويأخذون الأموال ، فأفرغ ذلك من كان بها من الصحابة ، فخرج أبو سميد الخدرى حتى دخل فى كهف فى الجبل ، فبصر به رجلٌ من أهل الشام فجاء حتى اقتحم عليه الفأر .

قال أبو سميد : دخل إلى الشامى يمشى بسيفه ، فانتصتُ سيفى ، ومشيتُ إليه لأرعيه لعله ينصرف عني ، فأبى إلا الإقدام على ، فلما رأيتُ أن قد جدَّ شئتُ سيفى ، ثم قلت له : لئن بسطتَ إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . فقال لى : من أنت ؟ لله أبوك ! فقلت : أنا أبو سميد الخدرى . قال : صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : نعم ! فانصرف عني .

ثم دعا الناسَ مُسلم بقباً إلى البيعة وطلب الأمان لرجلين من قريش : ليزيد ابن عبد الله بن زمعة ومحمد بن أبى الجهم ، ولمفل بن سنان الأشجعى ، فأتى بهم

بعد الوقعة بيوم ، فقال القرشيّان : نُبَايعُكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّتِ نَبِيِّهِ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَقْبِلُكُمْ ، وَقَدَّمَهُمَا فَضْرَبْتَ أَعْنَاقَهُمَا . فَقَالَ مَرْوَانُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَتَقْتُلُ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ أَتَيْسَا لِيُؤْمِنَا فَضْرَبْتَ أَعْنَاقَهُمَا ؟ فَنَخْصُهُ بِالْقَضِيبِ فِي خَاصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ : وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَوْ قُلْتَ بِمَقَالَتِهِمَا فَعَلْتُ بِكَ مَا فَعَلْتَهُ مَعَهُمَا .

وَجَاءَ مَعْقِلُ بْنُ سِنَانٍ فَجَلَسَ مَعَ الْقَوْمِ ، وَدَعَا بِشَرَابٍ لِيُسْقَى . فَقَالَ لَهُ مُسْلِمٌ : أَيُّ الشَّرَابِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْمَسْلُ . قَالَ : اسْقُوهُ ، فَشَرِبَ حَتَّى ارْتَوَى فَقَالَ لَهُ : أَقْضَيْتَ رِيكَ مِنْ شَرَابِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، لَا تَشْرَبْ بَعْدَهُ شَرَاباً أَبَدًا إِلَّا الْجَحِيمَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، أَتَذْكُرُ مَقَالَتَكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : سَرْتُ شَهْرًا ، وَرَجَمْتَ شَهْرًا ، وَأَصْبَحْتَ صَفْرًا ، اللَّهُمَّ غَيِّرْ ! تَعْنِي يَزِيدُ ، فَقَدَّمَهُ فَضْرَبَ عُنُقَهُ .

وَأَتَى يَزِيدُ بْنُ وَهَبٍ بْنُ زَمْعَةَ ، فَقَالَ : بَايِعْ ، قَالَ : أَبَايَعُكَ عَلَى سُنَّةِ عُمَرَ . قَالَ : اقْتُلُوهُ . قَالَ : أَنَا أَبَايَعُ ! قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَقْبِلُكَ عَثْرَتَكَ ، فَكَلَّمَهُ مَرْوَانُ ابْنَ الْحَكَمِ لَصْهَرٍ كَانَ بَيْنَهُمَا ، فَأَمَرَ بِمَرْوَانَ فَوُجِّتَ عُنُقُهُ ، ثُمَّ قَالَ : بَايَعُوا عَلَى أَنْكُمْ خَوْلُ لِيَزِيدَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ .

وَلَمَّا أَتَى لِمْلَى بْنُ الْحُسَيْنِ إِلَى مُسْلِمٍ قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ . قَالَ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ وَالطَّنْفَسَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْصَانِي بِكَ قَبْلًا ، وَهَؤُلَاءِ الْخَبَثَاءُ شَغَلُونِي عَنْكَ وَعَنْ صَلَاتِكَ ، ثُمَّ قَالَ لِمْلَى : لِمَلْ أَهْلَكَ فَرَعُوا ! فَقَالَ : إِي وَاللَّهِ ، فَأَمَرَ بِدَابَتِهِ فَأَسْرَجَتْ ، ثُمَّ حَمَلَهُ فَرَدَّهُ عَلَيْهَا .

وَأَتَى بِعَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ، فَقَالَ مُسْلِمٌ : يَا أَهْلَ الشَّامِ ؛ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : هَذَا الْخَبِيثُ ابْنُ الطَّيِّبِ ؛ هَذَا عَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، هِيَهِ يَاعَمْرُو ! إِذَا ظَهَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قُلْتُ : أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، وَإِنْ ظَهَرَ أَهْلُ الشَّامِ قُلْتُ : أَنَا ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَتَنَفَّتْ لِحْيَتُهُ .

٥٦ - يوم مَرَجِ رَاهِط*

مات يزيدُ بن معاوية فكانت بيعتان : إحداهما بالشام لمعاوية بن يزيد ،
والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير .

فأما معاوية فقد اختاره أهل الشام للخلافة ، وبمد قليل من خلافته نادى :
الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني قد
ضعفت عن أمركم ، فابتغيت لكم مثلَ عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم
أجدُه ؛ فابتغيت سنةً مثل سنة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاخياروا
له من أحببتم .

ثم دخل منزله وبقي فيه حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته .
هكذا فعل ذلك الشاب حين رأى المسلمين تصدّعت وحدتهم وتشمشت أمورهم
وتفرّقت أهواؤهم ، ولم يرَ في نفسه القدرة على جبر صدعهم ، ولم شملهم ، وإصلاح
أمرهم . وبذلك صار الشام لاختلافه فيه .

أما ابن الزبير فقد كان الحُصَيْن بن نُمَيْر^(١) محاصراً له حين مات يزيد ، وعرف
ابنُ الزبير الخبر قبل أن يعرفه الحُصَيْن ، فناداه وقال له : علام تقاتلون وقد هلك
طاغيئتكم ؟ فلم يصدّقوه .

ولما عرف الحُصَيْن وفاة يزيد بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته ، فجاءه ،
فكان فيما قال له : أنت أحقُّ بهذا الأمر ، هَلَمْ فلنبايعك ، ثم اخرجُ معنا إلى

* مَرَجِ رَاهِط : بالشام . وكان ذلك اليوم بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم ، في
الحرم سنة ٦٥ : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٢ - ٢٤٣ ، الطبري : ٧ - ٣٧
(١) الحُصَيْن بن نُمَيْر : شجاع من المقدمين في العصر الأموي . توفي سنة ٦٧ هـ .

الشام ؛ فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه ؛ فوالله لا يَخْتَفِ عَلَيْكَ اثْنان ، على أن تؤمن الناس وتهذر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك .

فقال ابن الزبير : أنا أهدير الدماء ! والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم . وأخذ الحصين يكلمه سرا ويكلمه ابن الزبير جهراً ، وهو يقول : والله لا أفعل .

فقال له الحصين : قد كنت أظن لك رأياً ! أكلّمك سرا وتسكمنى جهراً ! وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والمكسكة ! ثم فارقه ، ورحل إلى الشام غوملها ، وقد بُويعَ لهماوية .

هذا في الحجاز ، أما في العراق فإن عبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى : الصلاة جامعة ! فلما اجتمع الناس قال : يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ؛ إِنْ مُهَاجَرْنَا إِلَيْكُمْ ، وَدَارْنَا فِيكُمْ ، وَمَوْلَى بَيْنَكُمْ ، وَقَدْ وَلَيْتُ أُمُورَكُمْ ، وَمَا يُحْصِي دِيوانُ مَقَاتِلَتِكُمْ إِلَّا سَبْعِينَ أَلْفًا ، وَلَقَدْ أَحْصَى الْيَوْمَ مِائَةَ أَلْفٍ ، وَمَا كَانَ يُحْصِي دِيوانُ عُمَالِكُمْ إِلَّا تِسْعِينَ أَلْفًا ، وَلَقَدْ أَحْصَى الْيَوْمَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا ؛ وَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ قَاطِبَةً مَنِ أَخَافُهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا وَهُوَ فِي سِجْنِكُمْ ؛ وَإِنْ يَزِيدٌ قَدْ تَوَفَّى ، وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ بِالشَّامِ ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَكْثَرُ النَّاسِ عِدْدًا ، وَأَعْرَضْتُمْ فِئَاءً ، وَأَغْنَاهُمْ عَنِ النَّاسِ ، وَأَوْسَعْتُمْ بِلَادًا ؛ فَاخْتَارُوا لِأَنْفُسِكُمْ رِجَالًا تَرْضَوْنَهُ لِدِينِكُمْ وَجَاعَتِكُمْ ، فَأَنَا أَوَّلُ رَاضٍ مَنِ رَضِيتُمُوهُ ؛ فَإِنْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى رِجُلٍ تَرْضَوْنَهُ لِدِينِكُمْ وَجَاعَتِكُمْ دَخَلْتُمْ فِيهِ دَخْلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ كُنْتُمْ عَلَى أَحَدٍ يَلِيكُمْ حَتَّى تَقْضُوا مَآرِبَكُمْ ؛ فَنَابَكُمْ إِلَى أَحَدٍ مِنَ أَهْلِ الْبُلْدَانِ حَاجَةً ، وَلَا يَسْتَفْنِي عَنْكُمْ النَّاسُ .

فقالوا : قد سمعنا مَقَالَتَكَ ، وَمَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَقْوَى عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ ؛ فَهَلُمَّ خَلْبًا بِمَكَائِكَ ؛ فَلَبَّى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ فَبَايَعُوهُ . ثُمَّ انصرفوا عنه يمسحون

أيديهم بالحيطان ويقولون : أَظَنَّا أَنَّنَا نَنْقَادُ لَهُ ! ودعا بمضهم إلى بَيْعَةِ ابن الزبير ؛ ثم ضعف أمرُ ابن زياد ، فخاف وفرَّ إلى الشام ؛ فدخل أهلُ الكوفة والبصرة في بَيْعَةِ ابن الزُّبَيْرِ .

أما في الشام فكان أمير دِمَشْق الضَّحَّاك بن قيس ، وأمير رَحْص (١) النعمان بن بشير ، وأمير قِنَسَرِينَ (٢) زفر بن الحارث ؛ وهَوَّاهُمْ جميعاً مع ابن الزُّبَيْرِ .

أما أميرُ فلسطين فكان حَسَّان بن مالك الكَلْبِيُّ ، وهَوَّاهُ في بَنِي أُمَيَّة ؛ وقد بايَعَهُ على الدَّعْوَةِ لهم أهل الأَرْدُنَّ .

فكتب حَسَّان هذا إلى الضَّحَّاك بن قيس كتاباً يَمْظُمُ فِيهِ حَقَّ بَنِي أُمَيَّةٍ وَيَذْكُرُ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ ، وَحُسْنَ بِلَادِ بَنِي أُمَيَّةٍ عِنْدَهُ ، وَصَنِيْعَهُمْ إِلَيْهِ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِمْ ، وَيَذْكُرُ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَيَقْعُ فِيهِ وَيَشْتَمُهُ ، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ مَنَافِقٌ قَدْ خَلَعَ خَلِيفَتَيْنِ ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَقْرَأَ كِتَابَهُ عَلَى النَّاسِ .

ودعا رجلاً (٣) فَسَلَّمَهُ الْكِتَابَ ، وَأَعْطَاهُ سُورَةً مِنْهُ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ قَرَأَ الضَّحَّاكُ كِتَابِي عَلَى النَّاسِ ، وَإِلَّا فَقُمْ فَاقْرَأْ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى النَّاسِ .

وقدِمَ الرَّسُولُ بِالْكِتَابِ عَلَى الضَّحَّاكِ ، وَدَفَعَهُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ صَعِدَ الضَّحَّاكُ الْمَنْبَرَ ، وَخَطَبَ النَّاسَ ؛ وَلَمَّا رَأَى الرَّسُولَ قَدْ أَغْفَلَ كِتَابَ حَسَّانَ ، وَلَمْ يَقْرَأْهُ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! اذْعُ بِكِتَابِ حَسَّانَ فَاقْرَأْهُ عَلَى النَّاسِ ؛ فَقَالَ لَهُ الضَّحَّاكُ : اجْلِس . فَجَلَسَ . ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لَهُ : اجْلِس . ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ

(١) مدينة بالشام على نهر العاصي .

(٢) مدينة ببلاد الشام بين حلب ومرة النعمان .

(٣) يسمى ناغضة .

الثالثة ، فقال له : اجلس . فلما رآه الرسول لن يفعل أخرج الكتاب الذي معه ، فقرأه على الناس .

فقام الوليد بن عُتْبَةَ بن أبي سفيان فصدَّقَ حَسَّانَ ، وكذَّبَ ابن الزبير وشتمه . وقام غيره فقال : مثل مقالته ، واضطرب الناس تبعاً لهم ؛ فأمر الضحَّاك بهؤلاء الذين صدَّقوا مقالة حَسَّان وكذَّبوا ابن الزبير فخيَّسوا . ولكن القوم ثاروا فأخرجوهم من السجن^(١) .

ودخل الضحَّاك دار الإمارة وأصبح الناس ، فلم يخرج إلى صلاة الفجر ، وكان من الأجناد ناسٌ يهوؤن هَوَى بنى أمية ، وناس يهوؤن هوى ابن الزبير ، فبعث الضحَّاك إلى أنصار بنى أمية فدخلوا عليه ، فاعتذر إليهم ، وذكر حسن بلائهم ، وأنه لا يريد شيئاً يكرهونه . وأشار عليهم أن يكتبوا إلى حَسَّان ، ووعدهم أن يكتب إليه ، وقال لهم : نوافيه جميعاً بالجابية^(٢) ، فنبايع لرجل منكم ، فرضيت بنو أمية ، وتوجهوا يريدون الجابية .

وجاء ثَوْر بن مَعْنٍ إلى الضحَّاك ، فقال : دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك ، ثم تنكث ! فقال الضحَّاك : فما رأى ؟ قال : رأى أن نظهر ما كنا نُسرّ ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير ، ونقاتل عليها ، قال الضحَّاك بمن معه من الناس فمطعمهم ، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط ، وأظهر البيعة لابن الزبير .

واجتمع حَسَّان وبنو أمية بالجابية فتشاوروا فيمن يلى أمور المسلمين ، واتفقت كلمتهم على تولية مروان بن الحكم فبايعوه .

ولما تمت البيعة لمروان سار بالناس إلى مَرَجٍ راهط ، وبه الضحَّاك بن قيس ومن على رأيه ، وكانت بين الفريقين مواقع هائلة ، كتبت فيها الغلبة لمروان ،

(١) كان ذلك اليوم يسميه أهل الشام يوم جيرون الأول . (٢) الجابية : موضع بدمشق -

وَقُتِلَ الضَّحَّاكُ ، وَفَنِيَ مِنْ قَيْسٍ عَدَدٌ لَمْ يُقْتَلْ مِثْلُهُ فِي مَوْقِعَةٍ قَطُّ .

ولما وصلت أخبار الهزيمة إلى الزعمان بن بشير أمير حمص خرج هارباً ومعه أهله وأصبح أهل حمص يطلبوه وقتلوه . وخرج زُفَرُ بن الحارث من قنسرين هارباً فلحق بقرقيسيا^(١) وتحصن بها ، واجتمعت إليه قيس فرأسوه عليهم ، وقال زُفَرُ في ذلك :

أَرَيْنِي سِلَاحِي لَا أَبَا لَكَ إِنِّي	أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيًا
أَتَانِي عَنْ مَرْوَانَ بِالغَيْبِ أَنَّهُ	مُعْقِدٌ دِيٍّ أَوْ قَاطِعٌ مِنْ لِسَانِيَا
فِي الْعَيْسِ مَنَاجَاةٌ ، وَفِي الْأَرْضِ مَهْرَبٌ	إِذَا نَحْنُ رَفَعْنَا لَهْنَ الثَّانِيَا
فَلَا تَحْسِبُونِي إِنْ تَغَيَّبْتُ غَافِلًا	وَلَا تَفْرَحُوا إِنْ جِئْتُكُمْ بِلِقَائِيَا
فَقَدْ يَلَبْتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى	وَتَبَقَى خَزَايَا النُّفُوسِ كَمَا هِيََا
أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَمْ تَنْلُهَا رِمَاحًا ^(٢)	وَتُرِكَ قَتْلَى رَاهِطٍ هِيََا
لَتَمْعَرِي لَقَدْ أَبَقْتُ وَقِيَمَةُ رَاهِطٍ	لِحَسَابِ سَدْعًا بَيْنَنَا مَتْنَائِيَا
ظَلَمَ تَرُ مَنِي نَبْوَةٌ قَبْلَ هَذِهِ	فِرَارِي وَتُرِكِي صَاحِبِيَّ وَرَائِيَا ^(٣)
عَشِيَّةَ أَعْدُو بِالْقِرَانِ فَلَا أَرَى	مَنْ النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَلَى وَلَا لِيَا
أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَاتُهُ	بِصَالِحِ آيَاتِي وَحَسَنِ بِلَائِيَا !
فَلَا صُلُحَ حَتَّى تَنْحِطَ ^(٤) الْخَيْلُ بِالْقَنَا	وَتَشَارَ مِنْ نِسْوَانِ كَلْبٍ نَسَائِيَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَصِيبنَ غَارَتِي	تَنُوحًا وَحَيٍّ طَيِّبٍ مِنْ شِفَائِيَا !

(١) قرقيسيا : مدينة بالجزيرة على مصب نهر الخابور بالفرات .

(٢) كانت كلب مع بني أمية .

(٣) لما فرزفر كان معه شابان من بني سليم ، فجاءت خيل مروان تطلبهم ، فلما خاف السلمي أن تلحقهما خيل مروان قالوا لفرزفر : يا هذا ، أنج نفسك ، فأما نحن فمقتولان ، فغضى فرزفر وتركهما حتى آتى قرقيسيا .

(٤) النحيط : صوت الخيل من الثقل والإعياء .

٥٧ — يوم عين الوردة*

أراد سليمان بن صُرد^(١) الشُّخوص إلى عبيد الله بن زياد للطلب بدم الحسين ، فبعث إلى وجوه أصحابه ، فأتوه ، وخرج فدار في الناس ، فلم تعجبه عُدتهم ، فبعث حكيم بن مُنقذ الكندي ، والوليد بن غُصين الكِناني ، وقال لهما : اذهبا حتى تدخلَا الكوفةَ فناديا : يا لثاراتِ الحسين ! وابلغا المسجدَ الأعظمَ فناديا بذلك .

فأقبلا حتى مرّا ببني كثير ، فسمع صوتهما عبدُ الله بن خازم — وكان جالساَ مع امرأته سهلة ، وكانت من أجل الناس وأحبهم إليه — فدعا بسلاحه ، وأمر بيسراج فرسه . فقالت له امرأته : وَيَحْك ! أَجِنْتِ ؟ قال : لا ، والله ، ولكني سمعتُ دارعى الله ، فأنا مجيبه ، أنا طالبُ دم هذا الرجل حتى أموت أو يقتل الله في أمري ما هو أحبُّ إليه . فقالت له : إلى من تدعُ بَنِيكَ هذا ؟ قال : إلى الله وَحْدَهُ لا شريكَ له ، اللهم إني أَسْتَوْدِعُكَ أهلي وولدي . وخرج حتى لحق بهم ، فقدمت امرأته تبكيه ، واجتمع إليها نساؤها ، ومضى مع القوم .

وطافت تلك الليلة الخيلُ بالكوفة حتى جاءوا المسجد بعد العتمة وفيه ناسٌ كثيرون يصلّون ، فنادوا : يا لثاراتِ الحسين ! فلم يصبح سليمان حتى أتاها نحو ممن

* بلد في وسط الجزيرة . القنبري : ٧ - ٦٦ ، مروج الذهب : ٢ - ١١٠ ، لعبيد الله بن زياد على سليمان بن صرد وأصحابه التوايين سنة ٦٥ .

(١) سليمان بن صرد صحابي من الزعماء القادة ، شهد صفين مع علي وسكن الكوفة ، ثم كان ممن كاتب الحسين وتخلّف عنه ، ثم خرج بعد ذلك مطالبا بدمه فترأس التوايين ، وكانوا يطالبون بقتل عبيد الله بن زياد ، وعرفوا بالتوايين لعودهم عن نصرته الحسين حين دعاهم ، وقيامهم بطلب رأسه بعد مقتله .

كان في عسكره ، وأقام ثلاثاً يبعثُ ثقاته من أصحابه إلى مَنْ تخلف ، يُذَكِّرُهُم اللهَ وما أعطَوْه من أنفسهم ، فخرج إليه نحو ألف رجل .

فقام المسيب بن نجبة^(١) إلى سليمان بن صرد فقال : رحِمَكَ الله ! إنه لا ينفكُ عنك السكاريه ، ولا يقاتلُ معك إلا من أخرجتهُ النيةُ ، فلا تنظرونَ أحداً ، واكْمِشْ^(٢) في أمرِك .

قال سليمان : نِعَمَ ما رأيتَ ! وقام في الناس مُتَوَكِّفاً على قَوْسٍ له عربية ، فقال : أيُّها الناس ، من كان إنما أخرجتهُ إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك مدنا ونحنُ منه ، فرحمةُ الله عليه حيًّا وميتاً ! ومن كان إنما يريدُ الدنيا وحرثها فوالله ما نأتى قبيئاً نستفيثه ، ولا غنيمةً نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خَزٍّ ولا حرير ، وما هو إلا سيوفُنا في عَوَاتِقِنَا ورماحنا في أَكْفُنَا ، وزادَ قدرَ البلغةِ^(٣) إلى لقاءِ عدوِّنا ، فمن كان ينوي غير هذا فلا يصحِّبنا .

فقام صُخَيْر بن حذيفة ، فقال : أتاكَ اللهُ رُشْدَكَ ، ولَقَّاكَ حُجَّتَكَ ، والله الذي لا إله غيره ما لنا خير في صحبة مَنْ الدنيا همته ونيتته ، أيُّها الناس ، إنما أخرجتكم التوبةُ من ذنوبنا والطلب بدم ابن بنت نبيِّنا ، ليس معنا دينارٌ ولا درهم ، إنما نقدُنا على حدِّ السيوف وأطراف الرماح .

فتنادى الناسُ من كل جانب : إنا لا نطلبُ الدنيا وليس لها خَرَجْنَا ..

وقام عبيدُ الله بن سعد فقال - وحوله رهوسُ أصحابه : إني قد رأيت رأياً

(١) المسيب بن نجبة : شهد القادسية وفتوح العراق ، وكان مع علي في مشاهدته . وسكن وثار مع التوابين من أهلها في طلب دم الحسين وقتل مع سليمان بن صرد سنة ٦٥ هـ .
(٢) اكْمِشْ : أسرع . (٣) البلغة : ما يبلغ به .

إن يكن صواباً فالله وفقّ ، وإن يكن غير صواب فمن قبلي ، فإني لا آلوكم وتقسي نصيحاً ؟ إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلة الحسين كلهم بالكوفة ، فأنتي نذهب وندع الأوتار !

فقال سليمان بن صرد : فماذا ترون ؟ قالوا : والله لقد جاء برأى ! والله ما نلقى من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا ها هنا بالمصر .

فقال سليمان : لكنني لا أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال : لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكى ، هو عبيد الله ابن زياد ، فسيروا إلى عدوّكم على اسم الله ، فإن يُظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تفشّموا^(١) . وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلّين ، وما عند الله خير للأبرار والصدّيقين . إني لا أحب أن تجعلوا حدّكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن يُريد قتله ، فاستخيروا الله وسيروا .

وبلغ عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد خروج ابن صرد وأصحابه ، فبعثا إليه أنهما قادمان إليه . ثم جاء^(٢) ودخلا عليه فحمد الله عبد الله بن يزيد وأثنى عليه ، ثم قال : إن المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يفشّه ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحبّ

(١) لا تفشّموا : لا تقاتلوا .

(٢) جاء عبد الله في أشرف أهل الكوفة والشرطة وكثير من المقاتلة ، وإبراهيم بن محمد في جماعة من أصحابه .

خلق الله إلينا ، فلا تَفْجَمُونَا بِأَنفُسِكُمْ ، ولا تستبدُّوا علينا برأيكم ، ولا تنقضوا
عِدَدَنَا بِخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيسّر ونهيباً ، فإذا علمنا أنَّ عدوَّ
قد شارب بلدنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم . وتكلّم إبراهيم بن محمد بنحو من
هذا الكلام .

فقام سليمان بن صُرَد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال لها : إني قد علمتُ أنكم
مَحْضَتُمَا^(١) في النصيحة واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ،
ونحن نسأل الله العزّة على الرُّشد والتسديد لأصوَرِهِ ، ولا ترانا إلا شاخعين
إن شاء الله ذلك .

فقال عبدُ الله بن يزيد ، فأقيموا حتى نُعْجِيْ معكم جَيْشًا كثيرًا فتلقوا عدوكم
بَكَنَفٍ^(٢) وجمعٍ وَحَدٍّ . فقال له سليمان : تنصرفون وزي فيها بيننا ، وسيأتىكم إن
شاء الله رأى . فانصرفا إلى الكوفة .

وأجمع القومُ على الشخوص واستقبال ابن زياد ، ونظروا فإذا شِيعَتُهُم من أهل
البصرة لم يوافوهم ليعادهم ، وكذلك أهل المدائن ، وأقبل ناسٌ يلومونهم ، فقال سليمان :
لا تلوموهم فإنّي لا أراهم إلا سيُسرعون إليكم لو قد انتهى إليهم خبرُكم وحينُ مسيركم ،
ولا أراهم خلفهم ولا أقدمهم إلا قلةُ النفقة وسوء المدة ، فأقيموا ليتيسّرُوا ويتجهّزُوا
ويلحقوا بكم ، وبهم قوة ، وما أسرع القوم في آثاركم !

ثم قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ! أيها الناس ،
فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإنّ للدنيا تجّاراً وللآخرة تجّاراً ،

(١) محضتاً : أخلصتاً .

(٢) كنف : جماعة .

فأما تاجر الآخرة فساعِ إليها مُتَنَصِّبٌ^(١) بتطلّابها ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا يُرَى إلا قائما وقاعدا ؛ وراكما وساجداً ، لا يطلبُ ذهباً ولا فضة ، ولا دُنْيَا ولا لذة .

وأما تاجر الدنيا فسكبٌ عليها راتعٌ فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ، فعليكم - يرحمكم الله في وجهكم هذا - بطول الصلاة في جَوْف الليل ، وبذكرِ الله كثيراً على كلِّ حال ، وتقرّبوا إلى الله جلّ ذكره بكلِّ خير قدَرْتُمْ عليه ، حتى تلقوا هذا المدوّ ، والمحلّ القاسط ، فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسّلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنامُ العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء^(٢) ! وإنا مُدْلِجُونَ الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله ، فأدّيجوا^(٣) .

وخرج سليمان وأصحابه حتى انتهوا إلى قبر الحسين ، فنادوا صيحةً واحدة : ياربّ ، إنا قد خذلنا ابنَ بنتِ نبيّنا فاغفرْ لنا ماضى منّا ، وتُب علينا إنك أنت التّوابُ الرّحيم ، وارحَمْ حسيناً وأصحابه الشّهداء الصّديقين ، وإنا نشهدك ياربّ أنّا على مثل ماقتلوا عليه ، فإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين .

وأقاموا يوماً وليلة يصلّون عنده ويكون ويتضرّعون ، فما اتفكّ الناسُ من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه حتى صلّوا الغداة عند قبره ، وزادهم ذلك حنقاً .

ثم ركبوا فأمر سليمانُ الناسَ بالسّير ، فجعل الرجلُ لا يعصى حتى يأتى قبر الحسين فيقوم عليه ويستغفر له ، وازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على

(١) متّصّب : أى قد نصب نفسه طالباً لها . (٢) اللأواء : الشدة .

(٣) أدّج : سار من أول الليل ، فإن سار في آخره فهو مدّج بتشديد الدال .

الحجر الأسود ، ووقف سليمان عند القبر ، فكلما دعا قوم وترحوا قال لهم :
الحقوا بإخوانكم رحمكم الله ! فإزال كذلك حتى بق نحو من ثلاثين من
أصحابه فقام فيهم وقال :

الحمد لله لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين ، اللهم إذ حرمتناها معه
فلا تحرمناها فيه بعده . وقال عبد الله بن والي : أما والله إني لأظن حسيناً وأباه
وأخاه أفضل أمة محمد عند الله يوم القيامة ، أفما عجبتم لما ابتليت به هذه الأمة منهم !
إنهم قتلوا اثنين وأشفوا بالثالث على القتل .

وسار سليمان من موضع القبر ومعه أصحابه ، وبيننا هو في الطريق جاءه
كتاب من عبد الله بن يزيد فوقف وأشار إلى الناس فوقفوا ثم أقرأهم
الكتاب فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه
من المسلمين . سلام عليكم ، أما بعد فإن كتابي هذا إليكم كتاب ناصح ذي إراءة ،
وكم من ناصح مستفشي ، وكم من غاش مستنصح محب ، إنه بلغني أنكم تريدون
السير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير ، وإنه من يرد أن ينقل الجبال عن مراتبها
تكل ماو له ، وينزع وهو مذموم العقل والفعل . يا قومنا ، لا تطمعوا عدوكم في أهل
بلادكم ، فإنكم خياركم ، ومتى ما يصيبكم عدوكم يعلموا أنكم أعلام مصركم
فيطمعهم ذلك فيمن وراءكم . يا قومنا ، إن يظهر عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في
ملائهم ولن تفلحوا إذا أبدا . يا قوم ، إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة ، وإن
عدونا وعدوكم واحد ، ومتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدونا ، ومتى نختلف تن
شؤ كتمنا على من خالفنا . يا قومنا ، لا تستغشوا نصحي ، ولا تخالفوا أمري ، وأقبلوا

حين 'يقرأ عليكم كتابي أقبل الله بكم إلى طاعته ، وأذبر بكم عن معصيته . والسلام .

فلما قرى الكتاب على ابن ضرَد وأصحابه قال للناس : ما ترون ؟ قالوا : ماذا نرى ؟ قد أبینا ونحن في مضيرنا وأهلنا ، فالآن حين خرجنا ووطئنا أنفسنا على الجهاد ، ودنونا من أرض عدونا ! ما هذا برأى . ثم نادوه : أن أخبرنا برأيك . قال : رأيت والله أنكم لم تكونوا قط أقرب من إحدى الحسنين منكم يومكم هذا ؛ الشهادة أو الفتح ، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحق وأردتم به من الفضل ، إن هؤلاء مختلفون . إن هؤلاء لو ظهروا دَعَوْنَا إلى الجهاد مع ابن الزبير . ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا ، وإننا إن ظهرنا ردَدْنَا هذا الأمر إلى أهله ، وإن أصبنا فملى نيَّاتنا تائبين من ذنوبنا ، وإن لنا شكلا ، وإن لابن الزبير شكلا ، وإننا وإياهم كما قال أخو بني كنانة :

أرى لك شكلا غير شكلي فأقصرى عن اللوم إذ بدلت واختلف الشَّكلُ
فانصرف الناسُ معه حتى نزل هِيت ، فكتب إلى عبد الله بن يزيد :

بسم الله الرحمن الرحيم . للأمير عبد الله بن يزيد من سليمان بن صرد ومن مسه من المؤمنين . سلام عليك ، أما بعدُ فقد قرأنا كتابك وفهمنا ما زَرَيْتَ ، فنعم والله الوالى ونعم الأمير ، ونعم أخو المشيرة أنت والله من نأمنه بالغيب ونستنصحه في المشورة ، ونحمده على كل حال ، إنا سمعنا الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ

الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ . إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ اسْتَبْشَرُوا بَبَيْعَتِهِمُ الَّتِي بَايَعُوا ، إِنَّهُمْ قَدْ تَابُوا مِنْ عَظِيمِ جُرْمِهِمْ ، وَقَدْ تَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَرَضُوا بِمَا قَضَى اللَّهُ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .
والسلام عليك .

فلما أتاه هذا الكتاب قال : استمات القوم ! أول خبر يأتيكم عنهم قتلهم . وإيهم الله ليقتلن كراماً مسلمين ، ولا والذي هو ربهم لا يقتلهم عدوهم حتى تشتد شوكتهم وتكثر القتل فيما بينهم .

وساروا حتى انتهوا إلى قرقيسيا ، ونزلوا قريباً منها ، وبها زفر بن الحارث السكلابي وقد تحصن بها القوم ، ولم يخرج إليهم ، فبعث سليمان المسيب بن نجبة وقال له : أنت ابن عمك فقل له : ليخرج إلينا سوقاً فإننا لسنا نريده ، إنما صمدنا لهؤلاء المحلين . فخرج المسيب حتى انتهى إلى قرقيسيا فقال : افتحوا ، ممن تتحصنون ؟ فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا المسيب بن نجبة . فأتى الهذيل بن زفر أباه فقال : هذا رجل حسن الهيئة يستأذن عليك ، وسألناه من هو ؟ فقال : المسيب بن نجبة . فقال أبوه : أما تدري يا بني من هذا ؟ هذا فارس مضر الحمراء كلها ؛ وإذا عد من أشرافها عشرة كان أحدهم ، وهو بمد رجل ناسك له دين ، ائذن له .

فلما دخل المسيب أجلسه زفر إلى جانبه وساء له وألطفه في المسألة ، فقال له المسيب : ممن تتحصن ؟ إنا والله ما إياكم نريد ، وما نريد إلا أن تميننا على هؤلاء القوم الظلمة المحليين . فأخرج لنا سوقاً ، فإننا لا نقيم بساحتكم إلا يوماً أو بعض يوم .

فقال له زُفر بن الحارث : إنا لم نُفلق أبواب هذه المدينة ، إلّا لنعلم إِيَّنا اعْتَرَيْتُمْ^(١) أم غيرنا ، إنا والله ما بنا عَجْزٌ عن الناس ما لم تدهمنا حيلة ، وما نحبُّ أنّا بلينا بقتالكم ، وقد بلغنا عنكم صلاحٌ وسيرةٌ حسنةٌ جميلة ، ثم دعا ابنه فأمره أن يضع لهم سوقاً ، وأمر للمسيب بألف درهم وفرس ، فقال له المسيب : أمّا المالُ فلا حاجة لي فيه ، والله ما له خرجنا ولا إياه طابنا ، وأما الفرسُ فإنني أقبله لعلّي أحتاجُ إليه إن ظَلَمَ فرسي أو غمز تحتي ، فخرج به حتى أتى أصحابه .

وأخرجت لهم السوق فذسّو قوا ، وبعث زفر بن الحارث إلى المسيب بن نجبة - بعد إخراج الأسواق والأغلاف والطعام الكثير - بمشرين جَزُورا ، وبعث إلى سليمان ابن صرد بمثل ذلك ، وأخرج للمسكر عيرا عظيمة وشميرا كثيراً ، وقال غلاماً له : هذه عير فاجتروا منها ما أحببتم ، وهذا شميرٌ فاحتملوا منه ما أردتم ، وهذا دقيق فتزودوا منه ما أطقتم .

فظلَّ القوم يومهم ذلك مُخْصِبِينَ ، لم يحتاجوا إلى شراء شيء من هذه الأسواق التي وضعت ، وقد كفوا اللحم والدقيق والشمير إلا أن يشتري الرجل ثوباً أو سوطاً .

ثم ارتحلوا من القصد ، وبعث إليهم زُفر : إني خارج إليكم فمُشِيَّمُكُمْ . فأتاهم وقد خرجوا على تعبئة حسنة فسايرهم ، وقال لسليمان : وإيهمُ الله لَقَلَّما رأيت رجلاً هم أحسنُ هيئةً وعدّةً ، ولا أخلق بكل خير من رجالِ أراهم معك ، ولكنّه قد بلغني أنه قد أقبلت إليكم عدة لا تُحصى .

فقال سليمان : على الله توكلنا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

(١) اعتريتهم : طلبتهم .

فقال زفر : هل لكم في أمر أعرضه عليكم ، لعل الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيرا ! إن شئتم فتحنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرنا واحداً وأيدينا واحدة ، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا ، وخرجنا فمسكرنا إلى جانبكم ، فإذا جاء هذا العدو قاتلناهم جميعاً . فقال سليمان لزفر : أرادنا أهل مصر على مثل ما أردتنا عليه ، وذكرنا مثل الذي ذكرت ، وكتبوا إلينا به بعد ما فصلنا ، فلم يوافقنا ذلك ، فلسنا بفاعلين .

فقال زفر : فانظروا ما أشير به عليكم فاقبلوه وخذوا به ، فإنى للقوم عدو ، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة ، وأنا لكم واثق ، أحب أن يحوطكم الله بالعافية . إن القوم قد فصلوا من الرقة^(١) فبادروهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة في ظهوركم ، ويكون الرستاق^(٢) والماء والمادة في أيديكم ، وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم آمنون له ، والله لو أن خيولى كرجالى لأمددتكم ، اطووا المنازل الساعة إلى عين الوردة ؛ فإن القوم يسرون سير العساكر ، وأنتم على خيول والله لقلما رأيتم جماعة خيل قط أكرم منها ، تأهبوا لها من يومكم هذا ، فإنى أرجو أن تسبقوهم إليها ، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونيهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم ، فإن استهدقتم لهم لم يلبثوا أن يعرعوكم ، ولا تصفوا لهم حين تلقونهم ، فإنى لا أرى معكم رجالة ، ولا أراكم كلكم إلا فرسانا ، والقوم لا قوكم بالرجال والفرسان ، فالقوهم في الكتائب والمقائب^(٣) ثم بثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة إلى جانبها ، فإن حمل على إحدى

(١) فصلوا : خرجوا . والرقة : من مدن العراق .

(٢) الرستاق : السواد والقرى .

(٣) المقنب ، كنب من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاثمائة .

الكتيبتين ترَجَّلَت الأخرى فنَفَّست عنها الخيل والرجال . ومتى ما شاءت كتيبة ارتَفَعَتْ ، ومتى ما شاءت كتيبة انْحَطَّت ، ولو كنتم في صف واحد ، فزحفت إليكم الرجال فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة .

ثم وقف فودعهم وسأل الله أن يصحبهم ويُنْصِرَهم .

فَأَثْنَى الناس عليه ودَعَوْا له ، وقال له سليمان : نعم المنزول به أنت ! أكرمت النزول ، وأحسن الضيافة ، ونصحت في المشورة .

ثم إِنَّ القوم جدُّوا في السير ، وعَبَّى سليمان الكتائب كما أمره زُفَرٌ ، ثم أقبل حتى انتهى إلى عَيْنِ الْوَرْدَةِ فنزل في غريبها ، وسبق القوم إليها فمسكروا بها خمساً لا يرح . واستراحوا واطمأنوا وأراحوا خيْلهم .

وأقبل أهلُ الشام في عساكرهم حتى كانوا من عَيْنِ الْوَرْدَةِ على مسيرة يوم وليلة ، فقام سليمان في جنده فحمد الله فأطال وأثنى عليه فأطنب ، ثم ذكر السماء والأرض والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم يُخَصِّه ولم يَقْدِر على حفظه أحد ، ثم قال : أما بعد فقد أَتَاكم الله بعدوكم الذي دَأَبْتُمْ في المسير إليه آثَاءً^(١) الليل والنهار ، تريدون - فيما تظهرون - التوبة النَّصُوح ، ولقاء الله مُنْذَرِينَ ؛ فقد جاءوكم ، بل جثتموهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم واصبروا إن الله مع الصَّابِرِينَ ، ولا يولينهم امرؤ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّثًا^(٢) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا^(٣) إِلَى فِتْنَةٍ . لا تقتلوا مدبراً ولا تُجْهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً

(١) آثاء الليل : ساعاته .

(٢) متحرثاً : أى منعطفاً يريد الكر بعد الفر والتخير بالعدو ، فإنه من مكاييد الحرب .

(٣) متحيزاً : منحازاً إلى جماعة ليستنجد بهم .

من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بمسد أن تأسروه أو يكون من قَتلة إخواننا بالطف^(١) رحمة الله عليهم ، فإن هذه كانت سيرة أمير المؤمنين على بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة .

ثم قال : إن أنا قُتلت فأمير الناس المسيب بن نجبة ، فإن أُصيب فأمير الناس عبد الله بن سعد ، فإن قُتل فأمير الناس عبد الله بن والي ، فإن قُتل فأمير الناس رفاعه بن شداد ، رحم الله امراً صدق ما عاهد الله عليه .

ثم بعث المسيب في أربعمائة فارس ، وقال له : سر حتى تلقى أول عسكر من عساكرهم ، فشنّ فيهم الفارّة ، فإذا رأيت ما تحبّه وإلا انصرفت إلى في أصحابك .

فسار المسيب بجنده حتى أشرف على أدنى عسكر من القوم وهم غارون^(٢) ، فحمل عليهم ، فما قاتل كثير قتال حتى انهزموا ، وأصاب منهم رجلاً ، جرح منهم فأكثر الجراح ، فخرجوا عن عسكرهم وخلوه له ، فأخذ منه ما خفّ ، وصاح المسيب في جنده : الرجعة ، إنكم قد نصرتهم وغنمتم وسلّتم ، فانصرفوا .

وانصرفوا حتى أتوا سليمان ، وأتى الخبر عبيد الله بن زياد ، فسرّح إليهم الحصين بن نمير في اثني عشر ألفاً ، وتقابل الجيشان ، فانهزم جيش عبيد الله بن زياد وما زال الظفر لجيش سليمان حتى حَجَزَ الليل بينهم .

فلما كان من الغد أمده عبيد الله جيشه بالمدد والموءن ، وتقاتل الجيشان قتالاً لم ير الشيب والمرد مثله قط ، حتى جاء المساء ، فتحاجزوا وقد أكثروا في جيش سليمان الجراح .

(١) موضع قرب الكوفة . (٢) غارون : غير مستعدين للقائهم .

وأصبحوا وقد كثرهم أهل الشام ، وتمطفؤا عليهم من كل جانب ، ورأى سليمان ما لقي أصحابه فنزل فنادى : عباد الله ! من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بمعه فإلى ، ثم كسر جفن سيفه ، ونزل معه ناس كثير ، فكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه ، ونزلت خيلهم حتى اختلطت مع الرجال فقاتلهم حتى نزلت الرجال تشتد^(١) مضامنة بالسيوف ، وقد كسروا الحفون ، فحمل الفرسان على الخيل فقاتلهم وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة ، وجرحوا فيهم فأكثرُوا الجراح .

فما رأى الحصين بن نمير صبر القوم وبأسهم بعث الرجال ترميهم بالنبل واكتنفهم الخيل والرجال ، فقتل سليمان بن صرد ، فأخذ الراية المسيب بن نجبة ، وقال : رحمك الله يا أخى فقد صدقت ووفيت بما عليك ، وبقي ما علينا ، ثم أخذ الراية فشد بها فقاتل ساعة ، وفعل ذلك مراراً يشد ويرجع ثم قتل .

فأخذ الراية عبد الله بن سعد وقال : رحم الله إخواني ! منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّوا تبديلاً . وأقبل بمن كان معه فحفوا برايته ، وإنهم لكذلك إذ جاءهم البشير يقول : قد جاء إخوانكم من أهل المدائن وأهل البصرة . فقال عبد الله بن سعد : لو جاءونا ونحن أحياء !

واشتد القتال وطعن عبد الله بن سعد في ثغرة نحره^(٢) فقتل ، وبقيت الراية ليس عندها أحد ، فنادوا عبد الله بن والٍ فإذا هو قد استلحم في عصابة معه وهو يقول : من أراد الحياة التي ليس بعدها موت ، والراحة التي ليس بعدها نصب ، والسرور

(١) تشتد : تسرع . (٢) ثغرة نحره : أى وسط .

الذى ليس بمده حَزَنٌ فليقترب إلى ربه بجهاد هؤلاء المُجِلِّين والرواح إلى الجنة .
وقاتل حتى قُتل .

ثم أخذ أهل الشام يتنادون : إنَّ الله قد أهلكهم فأقْدِمُوا عليهم لتفرغوا منهم ؛
وأخذوا يقدمون عليهم فيقدمون على شوكة شديدة ويقاتلون فرسانا شجعاناً ليس
فيهم سقط رجل ، وليسوا لهم بمضجرين فيتمكنوا منهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً
فهمزوا وفروا .

وساروا حتى مروا بقرقيسيا ، فبعث إليهم زُفر من الطعام والعلف مثل
ما كان بعث إليهم في المرة الأولى ، وأرسل إليهم : أن أقيموا عندنا ما أحببتم ، فإنَّ
لكم الكرامة والمواساة . فأقاموا ثلاثاً ، ثم زود كلَّ امرئٍ منهم ما أحبَّ من
الطعام والعلف .

ثم انصرف أهلُ المدائن إلى المدائن وأهل البصرة إلى البصرة ، وأقبل أهلُ
الكوفة إلى الكوفة .

ولما أتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال : أما بعد فإنَّ الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق مُلقِحَ فتنة^(١) ورأس
ضلالة سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاري^(٢) ،
ألا وقد قتل الله من رؤوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سمد أخا الأزد ،
وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفع
ولا امتناع .

(١) أى مشعل الفتنة والحرب ضده .

(٢) أى قطعاً : جمع خذروف - كمصفور : شئ يدوره الصبي بخيط في يديه فيسمع له دوى .

٥٨ - يوم بنات تَلَّى *

كان مروان بن الحَكَم قد أرسل عُبيد الله بن زياد في جيش إلى العراق ، وجعل له ما غاب عليه ، وأمره أن ينهب السكوفة إذا هو ظفر بأهلها . فمرّ بأرض الجزيرة وبها قيس عيلان^(١) ، فلم يزل مشتغلاً بهم نحواً من سنة .

ثم أقبل إلى الموصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد - عامل المختار على الموصل - إلى المختار : أما بعد ، فإني أخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل ، وقد وجه قبلى خيله ورجاله ، وإني انحزتُ إلى تكريت حتى يأتيني رأيك وأمرُك ، والسلام عليك .

فكتب إليه المختار : أمّا بعد ، فقد بلغني كتابُك ، وفهمتُ كلَّ ما ذكرت فيه ، وقد أصبتُ بأحيازك إلى تكريت ، فلا تبرحنَّ مكانك الذي أنتَ به حتى يأتيتك أمرى إن شاء الله ، والسلامُ عليك .

ثم بعث المختارُ إلى يزيد بن أنس فدعاه وقال له : يا يزيدُ ، إنَّ العالمَ ليس كالجاهل ، وإنَّ الحقَّ ليس كالباطل ، وإني أخبرُك خبراً من لم يكذب ولم يكذب ، ولم يخالف ولم يرتب ، وإنَّا المؤمنون لَيَآمِينَ ، وأنتَ صاحبُ الخيل التي تَجُرُّ جماعها وتضفر أذنانها ، حتى تُورِدَها منابت الزيت غائرة عيونها ، لاحقة بطونها ، اخرج إلى الموصل حتى تنزل أدانيها ، فإني مُمدِّدُك بالرجال بعد الرجال .

* تاريخ الطبري : ٧ - ١١٢ ، لهب الله بن زياد على المختار الثقي .

(١) كانت قيس عيلان على طاعة ابن الزبير ، وقد كان مروان قيساً يوم مرج راهط وهم مع الضحاك بن قيس مخالفين عليه .

فقال له يزيد : سَرِّحْ معي ثلاثة آلاف فارس أنتخبهم ، وخذني والجهة التي
تُوجَّهنا إليها ، فإن احتجتُ إلى الرجال فسأكتب إليك .

قال له المختار : فأخرج فانتخب على اسم الله من أحببت .
فخرج فانتخب ثلاثة آلاف فارس ، وأمر عليهم الأمراء .

ثم إنه فصل من الكوفة ، وخرج معه المختار والناس يشيعونه ، فلما بلغ دير
أبي موسى ودَّعه المختار وقال له : إذا لقيت عدوك فلا تناظرهم ، وإذا أمكنتك
الفرصة فلا تؤخرها ، وليسكن خبرك في كل يوم عندي ، وإن احتجت إلى مددٍ
فاكتب إلي ، مع أني مُمدِّك ولو لم تستمديد ، فإنه أشدُّ لمعدك ، وأعزُّ لجندك ،
وأرعبُ لعدوك .

فقال له يزيد : لا تمدني إلا بدعائك فكفي به مددا ! وقال له الناس : صحبك الله
وأيدك ؟ وودَّعه ، فقال لهم يزيد : سلوا الله لي الشهادة ، وإيم الله لنن لقيتهم
ففاتني النصر لن تفوتني الشهادة إن شاء الله .

وكتب المختار إلى عبد الرحمن بن سميد^(١) : أمّا بعد فخلّ بين يزيد وبين البلاد
إن شاء الله . والسلام عليك .

وسار يزيد حتى قطع أرض الموصل ، ونزل ببسات تلي .

وبلغ عبید الله بن زياد مكان يزيد ومنزله الذي نزل به ، فسأل عدّة جيوشه ،
فأخبرته عيونُه أنه خرج من الكوفة في ثلاثة آلاف فارس . فقال : سأبعثُ إلى كلِّ
ألف ألفين ، ودعا ربيعة بن الخارق القنوي ، وعبد الله بن حملة الخنممي ،
فبعث كلاهما في ثلاثة آلاف . ثم كتب إليهما : أيهما سبق فهو أميراً على صاحبه

(١) عامل المختار على الموصل — كما تقدم .

وإن انتهيتما جميعاً فأكبرُكما سنّاً أميرٌ على صاحبه وعلى الجماعة .

وسبق ربيعة وعبيّ جيشه أحسن تعبئة ، وخرج في الخيل والرّجال ، وقال :
يا أهل الشام ، إنكم إنما تقاتلون العبيدَ الأَباق^(١) ، وقوماً تركوا الإسلام وخرجوا
منه ، ليست لهم تقية ، ولا ينطقون بالعربية .

وخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض على حمار يمسكونه عن يمينه وعن شماله
بنخذه وعضديه وجنبه ، فجعل يقف بين الجنود ويقول : يا شرّطة الله ، اصبروا
تَوَجَّرُوا ، وصابروا عدوكم تَظَفَّرُوا ، وقاتلوا أولياء الشيطان ، إنّ كيد الشيطان
كان ضعیفاً ؛ إن هلكتُ فأميرُكم ورقاء بن عازب ، فإن هلك فأميرُكم ...

ونزل فوضع على سرير بين الرجال ، ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعراء ، وقدّموني
في الرجال ، ثم إن شئتم فقاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففرّوا عنه .

واقْتَتَلَ الناسُ عند شفق الصبح ، فلم يرتفع الضحّا حتى غلبت جنود يزيد بن
أنس على جيش عبيد الله بن زياد وهزموهم هزيمةً قبيحةً ، وقتلوا قتيلاً ذريعاً ،
وفروا حتى انتهوا إلى عبيد الله فحدثوه بما لقوا .

ولكنَّ عبد الله بن حملة^(٢) أخذ ينادى : الكَرَّةُ بمد الفَرَّةُ ! يا أهل السمع
والطاعة . فكَرَّروا عليهم ، واقْتَتَلَ القوم فغلبت جنود عُبيد الله ، ولم يأت المساء حتى
مات يزيد .

ولما رأى أصحابه ما حلّ بهم وبأمرهم أسقط في أيديهم ، وانخلعت قلوبهم ،
فقال لهم ورقاء بن عازب : ماذا تَرَوْنَ يا قوم ؟ إنه قد بلغني أن عُبيد الله بن زياد
قد أقبل إلينا في ثمانين ألفاً من أهل الشام ! ثم دعا فرسان أصحابه وقال لهم :

(١) الأَباق : جمع أبق .

(٢) هو ثاني الرجلين اللذين بعثهما عبيد الله إلى يزيد كما تقدم .

يا هؤلاء ، ماذا ترون فيما أخبرتكم به . إنما أنا رجل منكم ، ولستُ بأفضلكم رأياً ،
فأشير أو على ، فإن ابن زياد قد جاءكم في جند أهل الشام الأعظم وبجلبتهم وفُرساتهم
وأشرافهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقة على هذه الحال ، وقد هلك يزيد بن أنس
أميرنا ، وتفرقت عنا طائفةٌ منا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا - قبل أن نلقاهم
وقبل أن نبلغهم - علموا أن الذي ردنا عنهم هلاكٌ صاحبنا فلا يزالون لنا هائبين .
وإننا إن لقيناهم اليومَ كنّا مخاطرين ، وإن هُزِمنا اليوم لم تنفعنا هزيمتنا إياهم
من قبل اليوم .

قالوا : نعم ما رأيتَ ؟ انصرف رحمك الله !

فانصرف ، وبلغ منصرفهم ذلك المختار وأهل الكوفة ، فدعا المختار إبراهيم
ابن الأشتر ، وعقد له على سبعة آلاف رجل ، ثم قال : سرّ حتى إذا لقيتَ جيش
ابن أنس فاردّهم معك ثم سرّ حتى تلقى عدوك فتناجزهم .

فخرج إبراهيم فوضع عسكره في حمام أعين ، ولكنه لم يلبث أن ثار أهل الكوفة
بالمختار فأرسل رسولا إليه يقول له : لا تَضَعْ كتابي من يدك حتى تُقْبِلَ بجميع
من معك إليّ . فرجع ومن معه من أصحابه أهل القوة والجلد .

٥٩ - يوم جَبَّانة السَّبِيح*

لما مات يزيد بن أنس التقى أشرافُ الناس بالكوفة فأرجفُوا بالمختار وقالوا : قُتِلَ يزيد بن أنس ولم يصدقوا أنه مات ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمَّر علينا هذا الرجلُ بغير رضا منا ، ولقد أدَّنى موالينا فحملهم على الدوابِّ وأعطاهم وأطعمهم فيئنةً ولقد عصتنا عبيدنا ... واتَّعدُوا عند شَيْث بن رُبْعَى ، فاجتمعوا وأتوا منزله ، فصلى بهم ثم تذاكروا هذا النحو من الحديث^(١) .

فقال لهم شَيْث : دعوني حتى ألقاه . وذهب فلقيه فلم يَدَعْ شيئاً مما أنكره أصحابه إلا وقد ذاكروه إياه ، فأخذ لا يذكر خصلة إلا قال له المختار : أرضيهم في هذه الخصلة وآتِ كلَّ شيء أحبُّوا ، وذكر المالك . فقال له : أنا أردُّ عليهم عبيدكم . وذكر الموالى ، وقال : عمدتَ إلى موالينا وهم في أفاء الله علينا فأغتنمنا رقابهم نأملُ الأجرَ في ذلك والثوابَ والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاء في فيئتنا .

فقال المختار : إنَّ أنا تركتُ لكم مواليتكم وجعلتُ فيئكم فيكم ، أتقاتلون ممى بنى أمية وابنَ الزبير ، وتمطون على الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقه ، وما أطمئنُّ إليه من الأيمان ؟ فقال شَيْث : ما أدري حتى أخرج إلى أصحابي فأذا كرم ذلك .

* الطبري : ٧ - ١١٦ ، للمختار على أهل الكوفة ، وكان هذا اليوم لست ليالٍ بقين من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ . وجبَّانة السَّبِيح : من مواضع الكوفة .

(١) لم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أنه جعل لدولى من الفداء نصيباً .

وخرج ولكنه لم يمدّ ، إذ أجمع أهل الكوفة على قتال المختار .

وذهب بعضُ أشرف الكوفة إلى عبد الرحمن بن مِخْنَف ، فدعوه أن يجيهم إلى قتال المختار ، فقال لهم : يا هؤلاء ، إنكم إن أيتّم إلا أن تخرجوا لم أخذكم وإن أنتم أطمعتموني لم تخرجوا . فقالوا : ولِمَ ؟ قال : لأنّي أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا وتتخاذلوا ، ومع الرجل شجمانكم وفرسانكم ، ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، وعبيدكم ومواليكم أشدّ حنفاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم . وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموه بقدوم أهل الشام ، أو بجىء أهل البصرة فتكونوا قد لقيتموه بغيركم .

قالوا : نندك الله أن نخالفنا ، وأن تفسد علينا رأينا ، وما قد اجتمعت عليه جماعتنا . قال : فأنا رجل منكم ، فإذا شئتم فاخرجوا .

وذهبوا إلى كعب بن أبي كعب الخثعمي فتكلم شبت عنده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أخبره بإجماع رأيهم على قتال المختار ، وسأله أن يجيهم إلى ذلك ، وقال فيما يعتب به على المختار : إنه تأمر علينا بغير رضا منا ، وزعم أن ابن الحنفية بمثله إلينا ، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل ، وأطعم موالينا فيثنا ، وأخذ عبيدنا ، وأظهر البراءة من أسلافنا الصالحين . فرحب بهم كعب وأجابهم إلى ما دَعَوْهُ . .

وسار بعضهم إلى بعض . وقالوا : ننتظر حتى يذهب عنه إبراهيم بن الأشتر وما أن بلغ إبراهيم بن الأشتر ساباط^(١) حتى وثبوا بالمختار ، فخرج عبد الرحمن

(١) حين خرج لقتال عبيد الله بن زياد .

ابن سعيد^(١) مع أهل اليمن في جَبَانَةِ السَّبِيْع ، ونزل شُبث بن ربعي في مُضَرَ بالكُنَاسَةِ ، وخرج غيرهم . . .

وبلغ الذين نزلوا بِجَبَانَةِ السَّبِيْع أن المختار قد عَجَبَ لهم خيلاً لتسير إليهم ، فبعثوا الرسل يتلو بعضها بعضاً إلى الأزدي وبجيلة وخثعم ، يسألونهم الله والرحم لما عَجَّلُوا إليهم فساروا إليهم واجتمعوا جميعاً بِجَبَانَةِ السَّبِيْع .

ولما بلغ المختار اجتماعهم سرَّه ذلك . وبعث رسولاً من يومه إلى إبراهيم بن الأشتر : لا تضع كتابي من يدك حتى تُقبل بجميع مَنْ معك إلي .

وبعث إليهم المختار في ذلك اليوم : أخبروني ما تريدون ، فإنني صانع كلِّ ما أحببتكم . قالوا : نريد أن تعزلنا ، فإنك زعمت أن ابنَ الحنفية بعثك ! ولم يبعثك ؟ فأرسل إليهم المختار : أن ابعثوا إليه من قبلكم وفداً ، وأبعث إليه من قبلي وفداً ثم انظروا في ذلك حتى تدينوه . وإنما أراد بذلك أن يُريَّتهم حتى يقدم عليه إبراهيم ابن الأشتر .

ولما قدم إبراهيم بن الأشتر نزل المختار فعبى أصحابه ، وقال لإبراهيم : أي الفريقين^(٢) أحب إليك أن تسير ؟ قال : إلى أيِّ الفريقين أحببت . فكره المختار أن يسير ابن الأشتر إلى قومه فلا يبالغ في قتالهم ، فقال : سرَّ إلى مُضَرَ بالكُنَاسَةِ^(٣) وأنا أسيرُ إلى اليمن .

وسار المختار إلى جَبَانَةِ السَّبِيْع ، وعلم أهلُ اليمن بمسيره فاستعدوا للملاقاة ، وتقاتل الجيشان كأشد قتال اقتتلهم قوم ، ودارت الدائرة على أصحاب المختار ، فلم يَرع

(١) كان عبد الرحمن بن سعيد عاملاً للمختار على الموصل . (٢) يريد أهل اليمن أو مضر .

(٣) الكُنَاسَةُ : موضع بالكوفة .

إلا وقد جاءه الفلّ فقال : ما وراءكم؟ قالوا : هزمنا . فصاح بهم أن انصرفوا ، ورجعوا
فأقتل القوم كأشد قتال .

أما ابنُ الأَشر ففقد لقي شِيث بن ربيعٍ ومَنْ معه من مضر ، فقال لهم : وبحكم !
انصرفوا ، فوالله ما أحبُّ أن يصاب أحدٌ من مضر على يدى ، فلا تُنهلكوا أنفسكم ،
فأَبَوْا وقاتلوه فهزمهم .

وبعث المختار البشرى من قبله إلى المقاتلة في جَبَّانَةِ السَّيِّع ، فحمل الجندُ حتى
دخلوا الجبَّانة وهم ينادون : يا لثارات الحسين ! فأجيبوا : يا لثارات الحسين ، فسمعها
يزيد بن عَمير ، فقال : يا لثارات عثمان ! فقال لهم رفاعَةُ بن شَداد : ما لنا ولعثمان !
لا أقاتل مع قوم يبيعون دم عثمان . فقال له أناسٌ من قومه : جئت بنا وأطعناك
حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف قلت : انصرفوا ودَعُوهم ، فمطف عليهم
وهو يقول :

أنا ابنُ شَدادٍ على دينِ عليٍّ استُ لعثمانَ بن أَرْوَى يَبُولى
لأُصْلِحَ اليومَ فيمن يَصْطَلِي بحرَّ نارِ الحربِ غيرَ مُؤْتَلِي

وقاتل حتى قُتل ، ثم قتل غيره من شجيمان الكوفة وقوادهم .

واستخرج من دور الوداعيِّين خمسمائة أسير فأتى بهم إلى المختار مكثمين ، فأخذ
عبد الله بن شَرِيك^(١) لا يخلو بمرتبٍ إلا خَلَّى سبيله ، فرُفِعَ ذلك إلى المختار ، فقال :
اعرضوهم عليّ ، وانظروا كلَّ من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به ، فأخذوا لا يمرُّ
عليه رجلٌ فقد شهد مقتل الحسين إلا قيل له : هذا ممن شهد قتله ، فيقدمه فيضرب
عنقه حتى قتل منهم مائتين وثمانية وأربعين قتيلا .

(١) رجل من بني نهد من رؤساء أصحاب المختار .

وأخذ أصحابه كلما رأوا رجلا كان يؤذيهم أو يماريهم أو يضربهم خلّوا به فقتلوه،
حتى قُتل ناس كثير منهم وما يشعر بهم المختار .

ولما أخبر بذلك بعدُ دعا بمن يق من الأسارى فأعتقهم^(١) ، وأخذ عليهم الموائيق
ألا يساعدوا عليه عدوًّا ، ولا ينفوه ولا أصحابه غائلة . ونادى منادى المختار :
إنه من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلا شرك في دم آل محمد صلى الله عليه وسلم .
وسار المختار إلى القصر ، فأخذ سراقه بن مرداس يناديه بأعلى صوته :
امتنن على اليوم يا خير معدن وخير من حل بشجر والجند
* وخير من حيّا ولبيّ وسجد *

فبعث به المختار إلى السجن ، فحبسه ليلة ثم أرسل إليه من الغد فأخرجه ،
ودعا به فأقبل وهو يقول :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنا	نزونا نزوة كانت علينا
خرجنا لا نرى الضمء شيتاً	وكان خروجنا بطراً وحينا
زاهم في مصافهم قليلاً	وهم مثل الدبّ حين التقينا
برزنا إذ رأيناهم فلما	رأينا القوم قد برزوا إلينا
لقينا منهم ضرباً طليحاً ^(٢)	وطعنا صائباً حتى اثنينا
نصرت على عدوك كل يوم	بكل كتيبة تنمى حسينا
كنصر محمد في يوم بدر	ويوم الشعب إذ لاقى حنينا

(١) أعتقهم إلا سراقه بن مرداس فإنه أمر أن يساق معه إلى المسجد .

(٢) طليحاً : شديداً .

فَأَسْجِحْ إِذْ مَلَكَتَ فَلَوْ مَلَكَتُنَا لَجُرْنَا فِي الْحُكُومَةِ وَاعْتَدِينَا
تَقْبَلُ تَوْبَةً مِنْنِي فَإِنِّي سَأَشْكُرُ إِن جَعَلْتَ الذَّقَّةَ دِينَنَا

ولما انتهى إلى المختار قال له : أصاحك الله أيها الأمير ! سراقه بن مرداس يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ، لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض . فقال له المختار : فاصعد المنبر فأعلم المسلمين . فصعد فأخبرهم ، ثم نزل فخلا به المختار . فقال له : إني قد علمت أنك لم تر الملائكة ، وإنما أردت ألا أقتلك ، فاذهب عني حيث أحببت ، ولا تفسد عليّ أعجابي !

وخرج أشراف الكوفة فلحقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وخرج سراقه ابن مرداس من الكوفة وهو يقول :

أَلَا أبلغُ أبا إسحاق أنَّي رأيتُ البُنُقَ دُهْمَا مَصْمَتَاتِ
كفَرْتُ بوحِكم وجعلتُ نَذْرًا على قتالكم حتى الماتِ
أرى عيني ما لم تُبْصِرَاهُ كلانا عالمٌ بالثرَّهاتِ
إذا قالوا أقول لهم كذبتم وإن حُرجوا لَيْسَتْ لهم أداني

٦٠ - يوم خازر*

كان مَرْوَان بن الحَكَم قد جهّز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا ، فإذا فرغ منها توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزُّبَيْر .

ولما وصل عبيد الله إلى الجزيرة بلغه موت مروان ، وأتاه كتابُ عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثّه على المسير إلى العراق .

فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنودٌ مقبلةٌ من العراق ، لم يبعثهم أمير ؛ ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم عثمان ، وسمّوا أنفسهم التّوّابين ، وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن عليّ ، ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذّنْب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره ، وقتلوا قَتَلَتَهُ ، وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان ابن صُرَد الخزاعي .

وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صُرَد ، ومعظم من معه ولم ينجُ منهم إلا قليل .

ولما بلغ عبد الملك قتلُ سليمان قام خطيباً في أهل الشام ، فقال : إن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صُرَد ، ألا وإني السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريق ، وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين

(*) تاريخ الطبري : ٧-١٤٢ ، وخازر : إلى جنب قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ ، وكان هذا اليوم لابن الأشتر على ابن زياد سنة ٦٧ هـ .

ضالّين مضلّين : عبد الله بن سعد الأزديّ ، وعبد الله بن والٍ البكريّ ، ولم يبقَ بعدهم منّ عنده امتناع .

وبعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة المختار بن عبيد الله الثقفي^(١) ، زاعماً أنّ محمد ابن الحنفية أرسله للأخذ بشأري الحسين ، وأنه لقّبه بالإمام المهديّ ، واتفق مع إبراهيم ابن الأشتر^(٢) على الخروج للثأر لمقتل الحسين .
ولما حان الموعد وثبوا جميعاً وغلبوا على الكوفة .

ثم بعث المختار العمال إلى أمصار الكوفة ، وتتبع قتلة الحسين فقتلهم قتلاً ذريعاً ، وتخيّر الجند لمقاتلة ابن زياد ، وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر ، فأخذ يسير بهم حتى نزل بخازر^(٣) ، وجاء عبيد الله بن زياد حتى نزل قريباً منهم .

وأرسل عمير بن الحباب إلى ابن الأشتر : إني معك ، وأنا أريدُ الليلة لقاءك .

فأرسل إليه ابنُ الأشتر : أن القبي إذا شئت . فأتاه عمير ليلاً فبايعه ، وأخبره أنه على ميسرة صاحبه ، ووعده أن ينهزم .

فقال له ابنُ الأشتر : ما رأيك ؟ أخذتُ علىّ وأتوّم يومين أو ثلاثة ؟ قال عمير : لا تفعل ؛ هل يريدُ القوم إلا هذه ! إن طاولوك وماطلوك فهو خيرٌ لهم ، هم كثيرٌ أضعافكم ، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة ، ولكنّ ناجز القوم ،

(١) كان خروجه في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ، وأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع .

(٢) أرسل إليه المختار من يعرض عليه انضمامه إليه فقبل أولاً على شرط أن يكون هو ولي الأمر ثم استطاع المختار أن يضمّه إليه بخدعة تجده تفصيلها بمحاضرات الحضري بك صفحة ٢٤٩ .

(٣) خازر ، بجوار قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ كما تقدم .

فإنهم قد مُلئوا منكم رُعباً فأتاهم ، فإنهم إن قاتلوا أصحابك يوماً بعد يوم ومرة بعد مرة أنسوا بهم واجترأوا عليهم .

قال ابنُ الأَشر : الآن علمتُ أنكَ لى مناصح . صدقت ! الرأى ما رأيت ، أما إنَّ صاحبى بهذا أوصانى ، وبهذا الرأى أمرنى .

قال عُمير : فلا تعدونَ رأيه ، فإنَّ الشَّيخَ قد ضَرَّسَتْهُ الحروبُ وقاسى منها ما لم نقاس ، وأصْبَحَ فناهضَ الرَّجُلَ .

ثم انصرف عُمير ، وأذكى ابنُ الأَشر حرسه تلك الليلة اللَّيْلَ كُلَّهُ ، ولم يَدْخُلْ عينيه غَمُضٌ ، حتَّى إذا كان فى السَّحَرِ الأول عَيَّي أصحابه وكنَّب كتابه وأمر أمراءه .

فلما انفجر الفجر صلبَ بهم الغداة بفلس ، ونزل يقولُ للناس : ازحفوا ، فزحف الناس معه حتى أشرف على تلٍّ عظيمٍ مُشْرِفٍ على القوم ، فجلس عليه ، وإذا أصحاب عبيد الله لم يتحرك منهم أحد .

وكان ابنُ الأَشر قد سرَّح عبد الله بن زُهَير السَّلُولى ، وقال له : قرَّبْ (١) على فرسك حتى تأتيني بخبر هؤلاء .

فانطلق فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء فقال : قد خرج القومُ على دهش وفشل ، لقينى رجلٌ منهم ، فما كان له هِجِيرَى إلا : يا شِيعَةَ أبى تراب ! يا شِيعَةَ المختار الكذاب ! فقلت له : ما بيننا وبينكم أجلٌّ من الشَّتم . فقال لى : يا عدوَّ الله ، إلأم تدعوننا ! أنتم تقاتلون مع غير إمام ! قلت له : يا ثارات الحسين ! ابن رسول الله ! ادفموا إلينا عُبَيد الله بن زياد فإنه قتل ابنَ رسول الله ، سيد شباب أهل الجنة ، حتى نقتله

(١) التقريب : ضرب من العدو .

يبيض موالينا الذين قتلهم مع الحسين ، فإننا لا نراه ندّا فنرضى أن يكون منه قوداً ، وإذا دُفتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم جملنا بيننا وبينكم كتاب الله ، أو أى شىء صالح من المسلمين شئتم حسكاً . فقال : قد جرّبناكم فى مثل هذا فنقدرتم . فقلت له : ما جئت بحجة ، إنما كان ضاحكنا على أنفسهما^(١) إذا اجتمعما على رجل تيمنا حكمهما ، ورضينا به ، وبايعناه ، فلم يجتمعا على واحد ، وتفرّقا فكلّهما لم يوفقه الله للخير ، ولم يسدّده .

فقال : من أنت ؟ فأخبرته ، وقلت له : من أنت ؟ فقال : عدسٌ - لبغلة - يزجرها فقلت له : ما أنصفتنى ! هذا أوّل غدرك .

ودعا ابن الأشتر بفرسٍ له فركبها ، ثم مرّ بأصحاب الرّايات كلّها ؛ فكلّمها مرّ على رايةٍ وقف عليها ، ثم قال : يا أنصار الدين ، وشيعة الحقّ ، وشرطة الله ، هذا عبيدُ الله بن مرّجانة قاتل الحسين بن علىّ وابن فاطمة بنت رسول الله ، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومنعه أن يأتى ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف إلى رَحْله وأهله ، ومنعه الذهاب فى الأرض المريضة حتى قتله ، وقتل أهل بيته ، فوالله ما عمل فرعون ببني إسرائيل ما عمل ابن مرّجانة بأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرّجسَ وطهرهم تطهيراً . قد جاءكم الله به ، وجاءه بكم ، فوالله إنى لأرجو ألا يكونَ الله جمع بينكم فى هذا الوطن وبينه إلا ليُشْفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم ، فقد علم الله أنكم خرجتم غَضَباً لأهل بيت نبيكم .

(١) يريد الحكيم .

وسار بين اليمنة والميسرة ، وسار في الناس كلهم فرغَّبهم في الجهاد ، وجرَّتهم على القتال ، ثم رجع حتى نزل تحت رايته ، وزحف القوم ، واحتدم القتال ، فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابنُ الأشر ، وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر^(١) .

وتمَّ الأمرُ للمختار ، واسكن ابنُ الزبير ولى أخاه معصبا على البصرة ، فجاءها ملثماً حتى أتاخ على باب المسجد ، ثم دخل فصعد المنبر وقال للناس ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضِفُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ - وأشار بيده نحو الشام - ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، وأشار بيده نحو الحجاز - ﴿ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾^(٢) وأشار بيده إلى الشام .
وخرج أهل الكوفة الذين كان المختار قاتلهم فلحقوا بمُصعب^(٣) بن الزبير بالبصرة ؛ وكان فيمن قدم شبت بن ربيعة ، قدم عليه وتحتة بغلة قد قطع ذنبها

(١) فقال سراقبة بن مرداس البارق يمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه في قتل عبيد الله بن زياد :

أَتَاكُمْ غِلَامٌ مِنْ عَرَانِينَ مَذْحَجٍ	جَرَى عَلَى الْأَعْدَاءِ عَيْرٌ نَكُولٍ
فِيَابِنُ زِيَادٌ بِؤْ بِأَعْظَمِ مَالِكٍ	وَذُقْ حَدَّ مَاضِي الشُّفَرَتَيْنِ صَقِيلٍ
ضَرْبَانِكَ بِالْعُضْبِ الْحُسَامِ بِحَدِّ	إِذَا مَا أَبَانَا قَاتِلَا بِقَثِيلٍ
جَزَى اللَّهُ خَيْرًا نَرْضَاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ	شَفَا مِنْ عَبِيدِ اللَّهِ أَمْسَ غَلِيلٍ

(٢) سورة القصص ١ - ٦ .

(٣) وروى أن معصماً لما قدم البصرة خطبهم فقال : يا أهل البصرة ؛ بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد سميت نفسي الجزار .

وقطع طَرَفَ أذنها وشقَّ قباءه ، وهو ينادى : يا غوثاه ! يا غوثاه ! فأَتَى مصعب فقبل له : إن بالباب رجلاً ينادى : يا غوثاه ! يا غوثاه ! مشقوق القباء ؛ من صفته كذا وكذا . فقال لهم : هذا شُبَّانُ رِبْعِي ، لم يكن يفعل هذا غيره ، فأَدْخَلُوهُ . فأَدْخَلَ عليه ، وجاءه أَشْرَافُ الكوفة ، فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أصيبوا به ، وسألوه النصَرَ لهم والمسير إلى المختار معهم^(١) .

وجنَّد مصعب جنداً عظيماً قادهم بنفسه وسار نحو الكوفة . وبلغ ذلك المختار ، فقام في أصحابه ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل الكوفة ، يا أهل الدِّين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضَّعيف ، وشيعة الرِّسول وآل الرِّسول ، إن فرَّاركم الذين كَفَرُوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغفروهم عليكم ليمحَّ^(٢) الحق ، وينتَمش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تَهْلِكُون ما عُبِدَ الله في الأرض إلا بالفِرَاقِ على الله واللعن لأهل بيت نبيه ، انتسبوا مع أحمر بن شُمَيْط ، فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قَتَلَ عادٍ وإِرمَ .

وبعث المختار مع ابن شُمَيْط جيشاً كثيفاً ، وسار حتى ورد المذار^(٣) ، وجاء مصعب حتى عسكر قريباً منه . وتزاحف الجيشان ، فقتل ابن شُمَيْط ، وهزم جند المختار ، وسار جند الكوفة الذين كان المختار طردهم وراءهم ليأخذوا بثأرهم ،

(١) كان فيمن قدم على مصعب محمد بن الأشعث ، وم يكن شهد وتعة الكوفة ، كان في قصر له بما يل القادسية ، فلما بلغه هزيمة الناس تهاً للشخوس وسأل عنه المختار فأخبر بمكانه فسرَّح إليه عبد الله بن قراد ، فلما علم بعسيرة خرج نحو مصعب حتى خق به واستحشبه على الخروج وأدناه مصعب وأكرمه لشرفه ، وطالب منه أن يضم إليه المذابح بن أبي سفرة عامله على فارس فاستماله وانضم إليه في جموع كبيرة .

(٢) ليمحَّ ، أى يذهب .

(٣) هذا هو يوم المذار لمصعب على أحمر بن شُمَيْط . والمذار : قصبة ميسان بينها وبين البصرة مفدار أربعة أيام .

فكانوا عليهم أشدّ من أهل البصرة ، لا يدركون منهزماً إلا قتلوه ، ولا يأخذون أسيراً فيعفوا عنه ، ولم ينجُ من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل ؛ وأما رجالتهم فأُبيدوا إلا قليلاً^(١) .

وسار مصعب يحمل الرجال وضعفاء الناس في السفن نحو الكوفة .

ولما بلغ المختار أنهم قد أقبلوا عليه في البحر وعلى الظهر ، وسار إليهم حتى نزل حَرُوراء ، ليحول بينهم وبين الكوفة ، وجاء مصعب يسير إليه وهو بحَرُوراء ، وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وتحطم أصحاب المختار حطمة منكّرة ، وانقصموا انقصافة شديدة ، كأنهم أجمةٌ فيها حريق ، وقاتل المختار حتى انصرف عنه القوم ، فقال له أصحابه : أيها الأمير ، قد ذهب القومُ فانصرف إلى منزلك إلى القصر^(٢) فقال المختار : والله ما نزلتُ وأنا أريد أن آتِيَ القصر ، فأما إذا انصرفوا فاركبوها بنا على اسم الله ، فجاء حتى دخل القصر .

ولما أصبح المصعب أقبل يسيرُ بمن معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة فأخذ بهم نحو السَّبَخَةِ ، فرّ بالمهلب ، فقال له المهلب : ياله فتحاً ما أهناه ؛ لو لم يكن محمد بن الأشعث قتل ! قال : صدقتَ ، فرحم الله محمداً ! وسار غير بعيد ، ثم قال : يا مهلب ، قال : لبيك أيها الأمير ! قال : هل علمتَ

(١) في ذلك يقول الأعشى :

ألا هل أناك والأنباء تنمى	بما لاقت بجيلة بالمدار
أتيح لهم بها ضرب طليح	وطعن صائب وجه النهار
كأن سحابة صعدت عليهم	فعمتهم هنالك بالدمار
فبشر شيعة المختار إما	صررت على الكويعة بالصغار
أقر العين صرعاهم وفل	لهم جم يقتل بالصغار
وما إن سرتي لهلاك قوى	وإن كانوا وجدك في خيار
ولكني سررت بما يلاق	أبو إسحاق من خزي وعار

(٢) كان قد حصن قصره والمسجد ، وأدخل في قصره عدة الحصار .

أن عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب قد قتل؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ومضى حتى نزل السبخة فقطع عنهم الماء والمادة، وبمّث عبد الرحمن بن الأشعث فنزل الكُنَاسَة، وبمّث عبد الرحمن بن مخنف إلى جبّانة السبيع. وضيّقوا الحصار على المختار وأصحابه حتى إنهم كانوا يمطون الدينار والدينارين في الراوية لما أصابهم من الجهد، وكانت معاشهم أفضلها من نساءهم، فكانت المرأة تخرج من منزلها، معها الطعام واللّطف والماء قد التفتحت عليه، فتخرج كأنها تريد المسجد الأعظم للصلاة، وكأنها تأتي وترور ذات قرابة لها، فإذا دنت من القصر فتتح لها، فدخلت على زوجها بطامه وشرابه ولطفه.

وبلغ ذلك مصعباً وأصحابه فقال له المهلب: اجعل عليهم دروباً حتى تنفع من يأتيهم من أهلهم وأبنائهم وتدعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه، ففعل.

وكان القوم إذا اشتدّ بهم العطش في قصرهم استقوا من ماء البئر، ثم أمر لهم المختار بمسل فصبّ فيه ليفيّر طعمه فيشربوا منه.

ثم أمر مصعب أصحابه فاقربوا من القصر، واشتدّ الحصار، فقال لهم المختار: ويحكم! إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً، انزلوا بنا فلنقاتل حتى نقتل كراماً إن نحن قُتِلنا، والله ما أنا بآيس إن صدقتموهم أن ينصركم الله. فضمّوا وعجزوا. فقال لهم المختار: أما أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكمهم في نفسي.

وأزع الخروج حين رأى من أصحابه الضعف. وأرسل إلى امرأته؛ فأرسلت إليه بطيب كثير، فاغتسل وتحنّط، ثم وضع ذلك الطيب على رأسه ولحيته وخرج. ولما خرج من القصر قال للسائب^(١): ماذا ترى؟ قال: الرأي لك. فإذا

(١) كان السائب بن مالك الأشعري خاليفته على الكوفة إذا خرج إلى المدائن.

ترى ؟ قال : أنا أرى أم الله يرى ؟ قال : بل الله يرى . قال : وَيَحْك ! أحق أنت ، إنما أنا رجل من العرب ، رأيْتُ ابن الزبير انتزى على الحجاز ، وصروان على الشام ، فلم أكن دون أحدٍ من رجال العرب ، فأخذتُ هذه البلاد فكنت كأحدهم ، إلا أنى قد طلبتُ بشارِ أهلِ بيتِ النبي صلى الله عليه وسلم إذ نامت عنه العرب ، فقتلتُ من شرك في دماءهم ، وبالغتُ في ذلك إلى يومى هذا ، فقاتلُ على حسبك إن لم تكن لك نية . فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! وما كنتُ أصنع أن أقاتل على حسي ؟ فقال المختار يتمثل بقول غيلان بن سلمة :

ولو يرانى أبو غيلانَ إذ حَسَرَتْ عَنى الممومُ بأمرٍ ماله طبقُ
لقال رُهباً ورُعباً يجمعان ممّا غم الحياة وهول النفس والشَّقَقِ
إما تُسِفَّ على مجد ومكرمةٍ أو أسوةٌ لك فيمن تهلك الورَقِ

وخرج في تسعة عشر رجلاً ، وضارب بسيفه حتى قُتل^(١) . وبذلك صار أمر العراق إلى ابن الزبير .

وبعث مُصَنَّب عماله إلى الجبال والسواد ، وكتب إلى ابن الأشتر كتاباً فيه : أما بعدُ ، فإن الله قد قتل المختار الكذاب وشيعته الذين دانوا بالكفر ، وكادوا بالسحر ، وإنا ندعوك إلى كتابِ الله وسنة نبيه ، وإلى بيعة أمير المؤمنين ، فإن أُجبتَ إلى ذلك فأقبلُ إلىّ ، فإن لك أرض الجزيرة وأرض المغرب كلها ما بقيت وبقي سلطان آل الزبير ، لك بذلك عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذ على النبيين من عهدٍ أو عقدٍ ، والسلام .

(١) قتل المختار ، وهو ابن سبع وستين سنة لأربعة عشر خلت من رمضان سنة ٦٧ .

وكتب إليه عبد الملك بن مروان : أما بعد ، فإن آل الزبير انتزوا على أئمة الهدى ، ونازعوا الأمر أهله ، وألحدوا في بيت الله الحرام ، والله ممسك منهم وجعل دائرة السوء عليهم ، وإنى أدعوك إلى الله وسنة نبيه ، فإن قبلت وأجبت فلك سلطان العراق ما بقيت وبقيت لك ، على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه .

فدعا ابن الأشر أصحابه فأقرأهم الكتاب ، واستشارهم في الرأي ، فقائل يقول : عبد الملك . وقائل يقول : ابن الزبير . فقال لهم . كيف أتبع أهل الشام ، وليست هناك قبيلة إلا وقد وترتها ، ولست بتارك عشيرتي وأهل مصرى .

وأقبل إلى مصعب ، فلما بلغ مصعباً إقباله وجه المهلب بن أبي صفرة على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية وأقام بالكوفة .

وأراد عبد الملك بن مروان أن يجمع كلمة الناس عليه^(١) ، فلما أجمع المسير إلى مصعب خطب الناس ، وأمرهم بالتهيؤ إلى مصعب ، فاختاف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلاف لما يريد ، ولكنهم أحبوا أن يقيم ويقدم الجيوش ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا أمدهم بالجيوش خشية على الناس ألا يكون وراءه ملك ، إن أصيب . وقالوا : يا أمير المؤمنين ، لو أقت مكانك ، وبمشت على هؤلاء الجيوش رجلا من أهل بيتك ، ثم سرحته إلى مصعب ! فقال عبد الملك : إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأى ، ولعل أبعث من له شجاعة ولا رأى له . وإنى أجد في نفسي أنى بصير بالحرب ، شجاع بالسيف ، إن ألجئت إلى ذلك . ومصعب في بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع ، ولا علم له بالحرب ، يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ومعى من ينصح لى .

(١) كان ذلك سنة ٧٠ أو ٧١ أو ٧٢ هـ على خلاف في ذلك .

وسار نحو العراق ، ولما أراد الخروج ودّع زوجته عاتكة ، فبكت وبكى معها جواريتها ، فقال : قاتل الله كُثَيَّرًا ! والله لكانه يرانى ويراك يا عاتكة حيث يقول :

إذا ما أرادَ الفَزَوُ لم تَنُيْ هَمَّهُ حَصَانٌ عليها عقد درٍ يزِينُها
نَهْتَهُ فلما لم تَرَ الدهى عاقه بَكَتْ فبكى مما شجاها قطِينُها

ثم نهض وسار حتى نزل مَسْكِن^(١) . وسار مصعب إلى باجَمَيْرَا . وكتب عبد الملك إلى شيعته من أهل العراق .

وأقبل إبراهيم بن الأشتر بكتاب عبد الملك إلى مصعب مختوماً ، فدفعه إليه . فقال : مافيه ؟ قال : اقرأه . فقرأه ، فإذا عبد الملك يدعوهُ إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق . فقال لمصعب : إنه والله ما كان أحد آيس منه منى . ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلى فاطمى فيهم فاضرب أعناقهم . قال : إذن لا تُناصحننا عشائُرهم . قال : فأوفرهم حديدًا ، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك ، ووكل بهم من إن غلبت ضرب أعناقهم ، وإن غلبت منيت بهم على عشائُرهم . فقال : يا أبا النعمان ، إني لنى شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر ! إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق ، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه .

وهمَّ أهلُ العراق بالقدْرِ بمصعب . فقال قيس بن الهيثم : ويحكم ! لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليصفينَّ عليكم منازلكم . والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله فى حاجة ! ولقد

(١) هذا هو يوم مسكن لعبد الملك على مصعب ، ومسكن : موضع على نهر دجيل .

رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وإن الرجل من وجوههم ليفزو على فرسه وزاده خلفه .

وتداني العسكران والتقى القوم ، وبدأت الدائرة تدور على مصعب ، فقال لابنه عيسى : يا بني ، اركب أنت ومن معك إلى عمك بمكة ، فأخبره ما صنع أهل العراق ودعني فأني مقتول . فقال ابنه : والله لا أخبر قريشاً عنك أبداً ؛ ولكن إن أردت ذلك فالحق بالبصرة فهم على الجماعة ، أو الحق بأمر المؤمنين . قال مصعب : والله لا تتحدث قريش أني فررت حتى دخلت الحرم منهزماً ، ولكن أقاتل ، فإن قتلت فلممرى ما السيف بمار ، وما الفرار بمادة وخلق ، ولكن إن أردت أن ترجع فارجع فقاتل ، فرجع فقاتل حتى قُتل .

واشتد القتال بين الفريقين حتى قُتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة ، وفرق أعمال المراق والكوفة والبصرة على عماله . . .

ولما قُتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة أمر بطعام كثير فصنع وأمر به إلى الخورنق وأذن إذناً عاماً ، فدخل الناس ، فأخذوا مجالسهم فدخل عمرو بن حريث الخزومي ، فقال له : إلى وعلى سريرى ، وأجلسه معه ، ثم قال : أى الطعام أكلت أحب إليك وأشهى عندك ؟ قال : عناق^(١) حمراء قد أجيد تمليحها وأحكي نضجها ! قال : ماصنعت شيئاً . فأين أنت من عمروس^(٢) راضع قد أجيد سمطه ، وأحكي نضجه ؛ اختلجت إليك رجله فأبتمتها يده ، غذى بشريحين من لبن وسمن ، ثم جاءت الموائد فأكلوا ، فقال عبد الملك بن مروان : ما ألدّ عيشنا لو أن شيئاً يدوم ؛ ولكننا كما قال الأول :

(١) العناق : الأنثى من ولد المعز . (٢) العمروس : الخروف .

وكلُّ جديدي يا أميم إلى بلِّ وكلُّ امرئ يوماً يصير إلى كان
فلما فرغ من الطعام طاف عبد الملك في القصر يقول لعمر بن حريث : لمن
هذا البيت ؟ ومن بنى هذا البيت ؟ وعمر بن حريث يخبره فقال عبد الملك :
وكلُّ جديدي يا أميم إلى بلِّ وكلُّ امرئ يوماً يصير إلى كان
ثم أتى مجلسه فاستلقى ، وقال :
اعمل على مهل فإنك ميتٌ واكدح لنفسك أيها الإنسان
فكان ما قد كان لميك إذ مضى وكان ما هو كائن قد كان
ثم دعى الناس إلى البيعة ، فجاءت قضاة فرأى قلة فقال : يامعشر قضاة ،
كيف سلمتم من مضر مع قتلتكم ؟ فقال عبد الله بن يعلى : نحن أعز منهم وأمنع ،
قال : بمن ؟ قال : بمن معك منا يا أمير المؤمنين .
ثم جاءت مذحج وهمدان ، فقال : ما أرى لأحدٍ مع هؤلاء بالكوفة شيئاً .
ثم جاءت جُعْفَى ، فلما نظر إليهم عبد الملك : قال : يامعشر جُعْفَى اشتهمتم على ابن
أختكم^(١) ووارثتموه ! قالوا : نعم . قال : فهاتوه . قالوا : وهو آمن ؟ قال :
وتشروطون أيضاً ! فقال رجل منهم : إنا والله ما نشترط جهلاً بحقك ، ولكننا
نتسحب عليك تسحب الولد على والده . فقال : أمّا والله لنعم الحى أنتم ! إن
كنتم لفرسانا في الجاهلية والإسلام ! هو آمن . فجاءوا به ، فلما نظر إليه
عبد الملك ، قال : أبا قبيح ! بأى وجه تنظر إلى ربك وقد خلعتنى ! قال : بالوجه
الذى خلقه . وبأى وجه تنظر عبد الملك في قفاه فقال : لله درّه أى ابن
زوملة^(٢) هو !

(١) يعنى يحيى بن سعيد بن العاص . (٢) كان يكنى أبا أيوب . (٣) ابن زوملة هو ابن الأمة .

وتقدمت إليه عدنان ، وقدّموا رجلا وسيما جميلا ، وتأخّر معبد بن خالد ، وكان
ديميا ، فقال عبد الملك : مَنْ ؟ فقال السكاتب : عدوان . فقال عبد الملك :

عذير الحيّ من عدوّنا نَ كانوا حيّة الأرضِ
بَقِيَ بعضهمُ بعضا فلم يرعُوا على بعضِ
ومنهم كانت السادا ت والموفون بالقرضِ

ثم أقبل على الرجل الوسيم فقال : إيه ! فقال : لا أدري ، فقال معبد بن خالد
من خلفه :

ومنهم حكمٌ يقضى فلا يُنقضُ ما يقضى
ومنهم من يُجيزُ الحجَّ بالسنة والفرصِ
وهم مُذْ وُلِدوا شَبُّوا بِسِرِّ النسبِ المحضِ

فتركه عبد الملك ، وأقبل على الجليل ، فقال : من هو ؟ قال : لا أدري ، فقال
معبد من خلفه : ذو الإصبع . فأقبل على الجليل فقال : ولم سمى ذا الإصبع ؟ فقال :
لا أدري ، فقال معبد من خلفه : لأنّ حيّة عضّت إصبعه فقطعتها . فأقبل على الجليل
فقال : ما كان اسمه ؟ فقال : لا أدري . فقال معبد من خلفه : خرّثان بن الحارث .
فأقبل على الجليل فقال : من أيكم كان ؟ قال : لا أدري . فقال معبد : من بنى ناج ،
فقال :

أبعَدَ بنى ناجٍ وسميكَ بينهم فلا تَتَّبِعَنَّ عَيْنَيْكَ ما كان هالكا
إذا قلتُ معروفًا لِأَصْلِحَ بينهم يقول وَهَيْبُ : لا أصالِحَ ذَلِكا
فأنضحى كظَهْرِ العينِ جُبَّ سنامهُ تُطِيفُ به الولدانُ أَحْدَبَ بارِكا

ثم أقبل على الجليل فقال : كمّ مطاؤك ؟ قال : سبعمائة . فقال لمعبد : فى كم

أنت ؟ قال : في ثلاثمائة ، فأقبل على السكّابيين ، فقال : حُطّا من عطاء هذا أربعمائة ، وزيدّاها في عطاء هذا .

ثم صعد منبر الكوفة ، وخطب الناس ، فقال : إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج فأنسى بنفسه ، ولم يفرز ذنبه في الحرم . ثم قال : إني قد استعملت حاكمكم بشر بن مروان ، وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، والشدة على أهل المصيبة ، فاسمعوا له وأطيعوا . ثم رجع إلى الشام .

أما عبد الله بن الزبير فإنه لما انتهى إليه قتل مصعب قام في الناس ، فقال : الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ وَيُعْزِّزُ مَنْ يَشَاءُ وَيَذِلُّ مَنْ يَشَاءُ . ألا وإنه لم يذل الله مَنْ كَانَ الْحَقَّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ فَرْدًا ، ولم يعزَّ مَنْ كَانَ وَلِيَّهِ الشَّيْطَانُ وَحُزْبُهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طَرًّا . ألا وإنه قد أتانا من العراق خبرٌ حَزَنٌ وَأَفْرَحُنَا ؛ أَنَا قَتْلُ مَصْعَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، فَأَمَّا الَّذِي أَفْرَحُنَا فَعَلِمْنَا أَنَّ قَتْلَهُ لَهُ شَهَادَةٌ ، وَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا فَإِنَّ لِفِرَاقِ الْحَكِيمِ لَوْعَةً يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ثُمَّ يَرْعَوِي مِنْ بَعْدِهَا ذُو الرَّأْيِ إِلَى جَيْلِ الصَّبْرِ وَكَرِيمِ الْعِزَاءِ ، وَلَئِنْ أُصِيبْتُ بِمَصْعَبٍ لَقَدْ أُصِيبْتُ بِالزُّبَيْرِ قَبْلَهُ ؛ وَمَا أَنَا مِنْ عُثْمَانَ بِخَارٍ مِنْ مَصِيبَةٍ ؛ وَمَا مُصْعَبٌ إِلَّا عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ وَعَوْنٌ مِنْ أَعْوَانِي . إِلَّا أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ أَهْلَ الْفُتُورِ وَالنِّفَاقِ أَسْلَمُوهُ وَبَاعُوهُ بِأَقْلِ الثَّمَنِ ، فَإِنْ يُقْتَلُ فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَمُوتُ عَلَى مُضَاجِعِنَا كَمَا تَمُوتُ بَنُو أَبِي الْعَاصِ . وَاللَّهِ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ فِي زَحْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا الْإِسْلَامِ . وَمَا نَمُوتُ إِلَّا قَعْمًا بِالرَّمَاكِ وَمَوْتًا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ . أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ مِنَ الْمَلِكِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَزُولُ سُلْطَانُهُ وَلَا يَبِيدُ مُلْكُهُ ، فَإِنْ تُقْبِلُ لَا آخِذَهَا أَخِذَ الْأَثَرِ الْبَاطِلِ ، وَإِنْ تُدِيرُ لَا أَبْكَ عَلَيْهَا بُكَاءُ الْخَرَقِ الْمُهِينِ . . . أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِسْكُمْ .

٦١ - يوم دير الجماجم*

رأى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث^(١) مَنْ مَعَهُ مِنَ الْجَيْشِ بِالْبَصْرَةِ ،
وَقَدْ نَازَلَهُ الْحِجَّاجُ بِهَا ؛ فَخَرَجَ يَرِيدُ الْكُوفَةَ ، لِأَنَّ أَهْلَهَا أُطَوِّعُ لَهُ مِنْ أَهْلِ
الْبَصْرَةِ لِبُغْضِهِمُ الْحِجَّاجَ ، وَلِأَنَّهُ يَجِدُ بِهَا مِنْ عَشَائِرِهِ وَمَوَالِيهِ أَنْصَارًا .

فَسَارَ إِلَيْهَا ، وَسَايَرَهُ الْحِجَّاجُ ، فَذَلَّ ابْنُ الْأَشْعَثِ دِيرَ الْجَمَامِ وَنَزَلَ الْحِجَّاجُ
بِإِزَائِهِ بِدِيرِ قُرَّةَ^(٢) ، وَوَقَعَتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا .

وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رُءُوسَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلَ الشَّامِ قَبَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ
قَالَوَالَهُ : إِنْ كَانَ يُرْضِي أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنْ تَنْزِعَ عَنْهُمْ الْحِجَّاجَ فَإِنَّ نَزْعَ الْحِجَّاجِ
أَيْسَرُ مِنْ حَرْبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَانْزَعَهُ عَنْهُمْ تَخْلُصُ لَكَ طَاعَتُهُمْ ، وَتَحْقِنُ بِهِ
دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ .

فَبَعَثَ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَخَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ مَرْوَانَ ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَعْزِزَا

(*) لِلْحِجَّاجِ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعَثِ ، كَانَ فِي شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ ٨٢ ، وَفِي قَوْلِ
بَعْضِهِمْ : كَانَ فِي سَنَةِ ٨٣ ، وَدِيرُ الْجَمَامِ : دِيرٌ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ ، عَلَى طَرِيقِ الْبَرِّ الَّذِي يَسْلُكُ
إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَاسْمُ بَدِيرِ الْجَمَامِ بِوَقْعَةِ إِيَادَ عَلَى أَهْلِهِمْ كَسْرَ بِشَاطِئِ الْفَرَاتِ الْغَرْبِيِّ حَيْثُ قَتَلَتْ
جَيْشَهُ فَلَمْ يَفُتْ مِنْهُمْ إِلَّا الشَّرِيدُ وَجَمَعُوا جَمَاعَهُمْ لِمُحَلُّوْمَا كَالْكُوفِ فَاسْمُ ذَلِكَ الْمَكَانِ دِيرَ الْجَمَامِ .
مَعْجَمُ مَا اسْتَعْجَمَ ٢ : ٥٧٣ ، تَارِيخُ الطُّبْرِ : ٨ - ١٤ .

(١) أَمِيرُ مِنَ الْقَادَةِ الشَّجْعَانِ الدَّهَاقَةِ ، سِيرَةُ الْحِجَّاجِ بِجَيْشٍ لِفَزْوِ بِلَادِ رَتْبِيلَ بِسَجِسْتَانَ فَدَخَلَهَا ،
وَاتَّفَقَ مَعَ قَادَةِ جَيْشِهِ عَلَى إِخْرَاجِ الْحِجَّاجِ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ ، فَاتَّقَضَ عَلَيْهِ وَلِشَبْتِ بَيْنَهُمَا مَارَكَ ظَفَرٍ
فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَتَمَلَّهَ بِذَلِكَ مَلِكُ سَجِسْتَانَ وَكَرْمَانَ وَالْبَصْرَةَ وَفَارِسَ لِأَخْرَاسَانَ ، وَكَانَ عَلَيْهَا الْمُهَلَّبُ
وَالْيَا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ . ثُمَّ خَرَجَتْ الْبَصْرَةُ مِنْ يَدِهِ فَاسْتَوَلَى عَلَى الْكُوفَةِ ، وَقَصَدَهُ الْحِجَّاجُ ،
فَخَدَّتْ بَيْنَهُمَا وَقْعَةُ دِيرِ الْجَمَامِ .

(٢) هُوَ بِإِزَاءِ دِيرِ الْجَمَامِ .

على أهل العراق نَزَعَ الحِجَّاج عنهم ، وأن يُجْرَى عليهم أعطياتهم كما تُجْرَى على أهل الشام ، فإن هم قَبِلُوا ذلك عزل عنهم الحِجَّاج ، وإن أَبَوْا أن يَقْبَلُوا فالْحِجَّاجُ أميرُ جماعة أهل الشام ووليُّ القِتَالِ ؛ ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته .

فلم يَأْتِ الحِجَّاجُ أمرٌ قطَّ كان أشدَّ عايه ولا أغْيَظَ له ، ولا أَوْجَعَ لقلبه من ذلك ، مخافة أن يقبلوا فيُعزَّل عنهم .

فكتب إلى عبد الملك يقول : يا أمير المؤمنين ، والله لئن أعطيت أهل العراق نَزْعِي لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليكم ، ولا يزيدكم ذلك إلا جُرْأَةً عليكم . أَلَمْ تَرَ وتسمع بوَثوب أهل العراق على ابن عَفَّان ؛ فلما سألهم ما يريدون قالوا : نزع سميذ بن العاص ! فلما نزع عنهم لم تَمْ لَهُم السَّنَةُ حتى ساروا إليه فقتلوه . إن الحديد بالحديد يُفْلَح . خَارَ اللهُ لك فيما ارتأيت ! والسلام عليك .

فَأَتَى عبدُ الملكَ إلا عَرَضَ هذه الخصال على أهل العراق إرادة العافية من الحرب .

وسار إلى الحِجَّاج محمد بن مروان وعبدُ الله بن عبد الملك ، فلما اجتمعا عنده خرج عبد الله بن عبد الملك فقال : يا أهل العراق ، أنا عبدُ الله ابنُ أمير المؤمنين ، وهو يُعطِيكم كذا وكذا ...

وقال محمد بن مروان : أنا رسولُ أمير المؤمنين ، وهو يَعْرِضُ عليكم كذا وكذا ...

قالوا : نَرَجِعُ المشيئة ؛ فرجموا فاجتمعوا عند ابن الأشعث فلم يَبْقَ قائِدٌ

ولا رَأْسٌ قوم ولا فارسٌ إِلَّا أَنَاهُ ، فحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عليه ، ثُمَّ قالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فقد أُعْطِيتُمْ أَمْرًا انتَهَازُكُمْ اليَوْمَ إِيَّاهُ فُرْصَةٌ ، ولا آمَنُ أَن يكونَ على ذِي الرأى غَدًا حَسْرَةً ، وإنْ بَكِمَ اليَوْمَ على النِّصْفِ ، فاقْبَلُوا ما عَرْضُوا عَلَيْكُمْ وأنتمُ أَعِزَّاءُ أَقْوياءَ ، والقَوْمُ لَكُمْ هائِبُونَ ، وأنتمَ لَهُمْ مُنْتَقِصُونَ . فلا وَاللهِ لا زِلْتُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرِياءَ ولا زِلْتُمْ عِنْدَهُمْ أَعِزَّاءَ ، إنْ أَنْتُمْ قَبِلْتُمْ .

فَوَثِبَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَقَالُوا : إنَّ اللهَ قد أَهْلَكَهُمْ فَأَصْبَحُوا فِي الْأُزْلِ^(١) وَالضَّنْكِ وَالْجَاعَةِ وَالْقَلَّةِ وَالذَّلَّةِ ، وَنَحْنُ ذَوُو الْعَدَدِ الْكَثِيرِ وَالسَّعْيِ الرَّفِيعِ وَالْمَادَةِ الْقَرِيبَةِ ؛ وَاللهُ لا يَقْبَلُ .

فَرَجَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى الْحِجَاجِ فَقَالَا : شَأْنُكَ بِمُسْكِرِكَ وَجُنْدِكَ فَأَعْمَلْ بِرَأْيِكَ ؛ فَإِنَّا قَدْ أَمِرْنَا أَنْ نَسْمَعَ لَكَ وَأُطِيعَ ، فَقَالَ : قد قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ لا يُرَادُ بِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرُكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا أَقَاتِلُ لَكُمْ ، وَسُلْطَانِي سُلْطَانُكُمْ . وَخَلِيَاءُ وَالْحَرْبُ فَتَوَلَّاهَا .

وَأَخَذَ الْفَرِيقَانِ يَتَزَاخَفَانِ وَيَقْتَتِلَانِ ، وَأَهْلُ الْعِرَاقِ تَأْتِيهِمْ مَوَادُّهُمْ مِنَ الْكُوفَةِ وَمِنْ سَوَادِهَا فَهُمْ فِيمَا شَاءُوا مِنْ خِيَصْبِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ؛ وَأَهْلُ الشَّامِ فِي ضَيْقٍ شَدِيدٍ قَدْ غَلَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَسْعَارُ وَقَلَّ عِنْدَهُمُ الطَّعَامُ وَفَقَدُوا اللَّحْمَ ؛ وَكَانُوا كَأَنَّهُمْ فِي حِصَارٍ . وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يُغَادُونَ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَيُرَاوِحُونَهُمْ فَيَقْتَتِلُونَ أَشَدَّ قِتَالٍ .

وَحَمَلَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى خَيْلِ جَبَلَةَ بْنِ زَخْرٍ^(٢) مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، فَنَادَاهُمْ

(١) الْأُزْلُ : الشَّدَّةُ وَسُوءُ الْحَالِ .

(٢) كَانَ عَلَى كِتَابَةِ الْقُرَاءِ ، وَكَانَ مَعَهُ خَمْسَةُ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ فِيهِمْ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ ، وَسَعِيدُ

ابْنُ جَبْرِ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ الطَّائِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى .

عبد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه ، فقال : يا معشر القُرَّاء ؛ إنَّ الفِرار ليس بأحدٍ من الناس بأقبح منه بكم ، إنِّي سمعت عليّاً رفع اللهُ درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهلَ الشام : أيها المؤمنون ، إنَّه من رأى عُذْواناً يُعمَلُ به ، ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلّم وبرئ ، ومن أنكره بدانه فقد أجز ، وهو أفضلُ من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمةُ الله العلياً وكلمةُ الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيلَ الهدى ، ونور في قلبه باليقين ، فقاتلوا هؤلاء المحلّين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالمعدوان فلا يُنْكِرُونَهُ .

وقال أبو البَختريّ : أيّها الناس ، قاتِلُوهُمْ على دينكم ودُنْيَاكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم لَيُفْسِدُنَّ عليكم دينكم ، وليُغْلِبَنَّ على دنياكم .

وقال الشعبيّ : يا أهلَ الإسلام ؛ قاتلوهم ، ولا يأخذكم حَرَجٌ من قتالهم ، فوالله ما أعلمُ قوماً على بسيط الأرض أعمَلُ بظلم ولا أجورَ منهم في الحكم . فليكنْ بهم البدّار .

وقال سعيدُ بن جُبَيْرٍ : قاتِلُوهُمْ ولا تَأْتُمُوا من قتالهم ، بِنَيْقٍ وبقين على آثامهم قاتلوهم ، وعلى جَوْرِهم في الحكم وتَجَبَّرْهم في الدين واستِذْلَلْهم الضمفاء وإماتهم الصلاة .

وتبَيَّأ أصحابُ جبلة للحَمَلَةِ فقال جبلة : إذا حماتم فاحملوا حَمَلَةً صادقة ، ولا تردُّوا وجوهكم عنهم حتى تُوافِقُوا صَفَّهم .

وحملوا عليهم بجِدِّ وقوة . وضربوهم حتى أزالوهم عن صفوفهم ، ثم انصرفوا ؛ فرأوا وهم مآرثون جبلة صريعاً لا يدرون كيف قُتِل ! فهدهم ذلك ، وكانوا فقد

كلٌّ منهم أياه أو أخاه ، بل هو في ذلك الوطن كان أشدَّ عليهم فقتلوا .

فقال لهم أبو البختري الطائي : لا يستبيننَّ فيكم قتلُ جَبَلَة ؛ فإنَّما كان كرجلٍ منكم أتته منيَّته ليومها ، فلم يكن ليتمتدَّ يومه ولا ليتأخَّرَ عنه ، وكلَّكم ذائق ما ذاق ، ومدَّعوٌّ فجيِّب .

وسمع القراء ذلك ، فإذا الكآبةُ على وجوههم بيَّنة ، وإذا ألسنتهم متقطَّعة ، وإذا الفشلُ فيهم قد ظهر ، وإذا أهلُ الشام قد سُروا وجَدَلوا ونادَوْا : يا أعداء الله قد هلكتم ؛ وقد قتل الله طاغوتكم .

ورأى بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني يأسَ الناس بعد قتل جَبَلَة فشحَّجهم فقالوا : هذا يقومُ مقامَ جَبَلَة ^(١) .

فسمع هذا القول من مضمهم أبو البختري ، فقال : قَبَّحْتُمْ ! إن قُتِلَ منكم رجلٌ واحدٌ ظننتم أنَّ قد أُحيطَ بكم ، فإن قُتِلَ الآن ابنُ مصقلة أقيمَ بأيديكم إلى الشهادة ، وقتلتم : لم يبقَ أحدٌ يقاتل ، ما أخلقكم أن يخلفَ رجاؤنا فيكم !

وجيء برأس جَبَلَة إلى الحجاج ، فحمله على رُمحَيْن ثم قال : يا أهل الشام ؛ أبشروا فهذا أولُ الفتح ؛ لا والله ما كانت فتنة قطَّ فخبت حتى يُقتلَ فيها عظيمٌ من عظماء أهل اليمن ، وهذا من عظمائهم .

ثم اقتتلوا ذات يوم ، ونُحِرَ رجلٌ من أهل الشام يدعو للمبارزة ، فنُحِرَ إليه الحجاج بن جارية فحمل عليه فطمنه فأذراه ، وحمل أصحابه فاستنفذوه ؛ فإذا هو رجلٌ من خشمٍ يقال له أبو الدرداء ، فقال الحجاج بن جارية : أما إني لم أعرفه حتى

(١) كان بسطام قد قُبِيعَ من الرِّى فالتقى هو وقتيبه في الطريق فدعاه قتيبة إلى الحجاج وأهل الشام ، ولكنه قال : لأن أموت مع أهل العراق أحبَّ إليَّ من أن أعيش مع أهل الشام .

وقع ، ولو عرفته ما بارزته ، ما أحب أن يُصاب من قومي مثله .

وخرج عبد الرحمن بن عوف الرّؤاسي ، فدعا إلى المبارزة فخرج إليه ابن عمّ له من أهل الشام ، فاضطربا بسيفيهما ، فقال كل واحد منهما : أنا الغلام السكّابني . فقال كل منهما لصاحبه : من أنت ؟ فلما تساءلا تحاجزا .

وخرج عبد الله بن رزام الحارثي إلى كتيبة الحجاج فقال : أخرجوا إلى رجل رجل ، فأخرج إليه رجل فقتله ، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام ؛ يقتل كل يوم رجلا ، حتى إذا كان اليوم الرابع أقبل ، فقالوا : قد جاء لا جاء الله به ! فدعا إلى المبارزة فقال الحجاج للجراح : اخرج إليه ، فخرج إليه فقال له عبد الله بن رزام - وكان صديقا له - ويحك يا جراح ! ما أخرجك إلي ؟ قال : قد ابتليت بك . قال : فهل لك في خير ؟ قال : ما هو ؟ قال : أنهزم لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده وحمدك ! وأما أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي عنك حبا لسلامتك ؛ فإني لا أحب أن أقتل من قومي مثلك .

قال : فافعل . فحمل عليه فأخذ يستطرد له ، فأطرد له عبد الله ، وحمل عليه الجراح حملة بجدي لا يريد إلا قتله ، فمطف عليه فضربه بالعمود على رأسه فصرعه وقال : يا جراح ؛ بئس ما جزيته ! أردت بك العافية وأردت أن تزيروني المنية ! فقال : لم أرد ذلك . فقال : انطلق فقد تركتك للقرابة والعشيرة .

وخرج رجل من أهل العراق يقال له قدامة بن الحريش التميمي ، فوقف بين الصّفين فقال : يا معشر جرامة الشام ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فإن أيتّم فليخرج إلى رجل .

فخرج إليه رجل من أهل الشام فقتله ، وكرّر ذلك حتى قتل أربعة ، فلم

رأى ذلك الحجاج أمر منادياً فنادى : لا يخرج إلى هذا الكلب أحدٌ .
فكفّ الناس .

ورأى ذلك سميد الحرشيّ ، فدنا من الحجاج وقال له : أصلح الله الأمير ! إنك رأيت ألا يخرج إلى هذا الكلب أحد ، وإنما هلك مَنْ هلك مِنْ هؤلاء النفر بأجلهم ؛ ولهذا الرجل أجلّ وأرجو أن يكون قد حضر فأذن لأصحابي الذين قدموا معي فليخرج اليه رجل منهم .

فقال الحجاج إن هذا الكلب لم يزل هذا عادة له ، وقد أرب الناس ، وقد أذنت لأصحابك ؛ فمن أحبّ أن يقوم فليقم .

فرجع سميد الحرشيّ إلى أصحابه فأعلمهم ؛ فلما نادى ذلك الرجل بالمبارزة برز إليه رجل من أصحاب الحرشيّ ، فقتله قدامة ، فشقّ ذلك على سميد ، وثقل عليه كلامه الحجاج .

ثم نادى قدامة : مَنْ يبارز ؟ فدنا سميد من الحجاج ، فقال أصلح الله الأمير ! ائذن لي في الخروج إلى هذا الكلب . فقال : أو عندك ذلك ! قال سميد : نعم ، أنا كما تحبّ . فقال الحجاج : أرني سيفك ، فأعطاه إياه فقال الحجاج : معي سيفٌ أثقلُ من هذا . وأمر بالسيف ، وأعطاه إياه .

ثم قال الحجاج - وقد نظر إلى سميد - ما أجودَ درّعك ، وأقوى فرسك ! ولا أدري كيف تكون مع هذا الكلب ؟ قال سميد : أرجو أن يُظفرني الله به : قال الحجاج : اخرج على بركة الله . قال سميد : فخرجتُ إليه ، فلما دنوتُ منه قال : قف يا عدوّ الله ، فوقفتُ فسرّني ذلك منه . فقال : اختر ، إما أن تمكّني فأضربك ثلاثاً . وإما أن أمكّنك فتضربني ثلاثاً . ثم تمكّني . قلتُ :

أَمْسِكْنِي ، فوضع صدره على قَرَبُوسِهِ^(١) . ثم قال : اضْرِبْ ، فَجَمَعَتْ يَدِي عَلَى سَيْفِي ، ثم ضَرَبْتُ عَلَى الْمَغْفَرِ مَتَمَكَّنًا ، فلم يصنع شيئًا ، فسألتني ذلك من سيفي ومن ضَرْبَتِي ، ثم أَجَمَعَ رَأْيِي أَنْ أَضْرِبَهُ عَلَى أَصْلِ الْعَاتِقِ ، فإِذَا أَنْ أَقْطَعَ وَإِنَّمَا أَنْ أُوهِنَ يَدَهُ عَنْ ضَرْبَتِهِ . فَضَرْبَتُهُ فَلَمْ أَصْنَعْ شَيْئًا ، فسألتني ذلك . وكانت الثالثة مثل الثانية .

ثم قال : أَمْسِكْنِي . فَأَمْسَكْنِي ، فَضَرْبَتِي ضَرْبَةً صَرَخَنِي مِنْهَا ، ثم نزل عن فَرَسِهِ ، وجلس على صدرى وانتزع من خُفَّيهِ خِنْجَرًا أَوْ سَكِينًا فَوَضَعَهَا عَلَى حَلْقِي يَرِيدَ ذَبْحِي . فقلت له : أَنْشِدْكَ اللَّهُ ! فَإِنَّكَ لَسْتَ مُعْصِيًا مِنْ قَتْلِ الشَّرَفِ وَالذِّكْرِ . مثل ما أَنْتَ مُعْصِيٌّ مِنْ تَرْكِ .

قال : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قلتُ : سَمِيدُ الْخُرَشِيِّ ، قال : أَوَّلَى لَكَ بِاعْدُوِّ اللَّهِ ! فَأَنْطَلِقُ بِاعْدُوِّ اللَّهِ وَأَعْلِمُ صَاحِبَكَ مَا لَقِيتَ ، قال سميد : فَأَنْطَلَقْتُ أَسْمَى حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْحِجَّاجِ ، فقال : كَيْفَ رَأَيْتَ ؟ قلتُ : الْأَمِيرُ كَانَ أَعْلَمَ بِالْأَمْرِ .

ثم خرج أهلُ العراق يوم الأربعاء لأربع عشرة مضت من جمادى الآخرة عند امتداد الضحى ، وخرج إليهم أهلُ الشام واقتتلوا عامَّةَ النهار .

وخرج سفيان بن الأبرد الكلبي في الخيل من قَبْلِ مَيْمَنَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، ودنا من الأبرد بن قرة التميمي وهو على ميسرة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ؛ ولم يقاتله هذا كبيرَ قتال حتى انهزم ، فَأَنْكَرَهَا النَّاسُ مِنْهُ - وَكَانَ شَجَاعًا ، ولم يكن الفرار له بعادة .

فَلَمَّا فَعَلَهَا تَقَوَّضَتِ الصَّنُوفُ ، وَرَكِبَ النَّاسُ وَجُوهَهُمْ ، وَأَخَذُوا فِي كُلِّ وَجْهِ ،

(١) القربوس : حنو السرج .

وصعد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث المنبر فأخذ ينادى الناس : عباد الله إلى ، أنا ابن محمد ، فأتاه عبد الله بن رزام الحارثي ، فوقف تحت منبره ، وجاء عبد الله بن ذؤاب السلمي في خيل له ، فوقف منه قريباً ، وثبت حتى دنا منه أهل الشام ، فأخذت نبلهم تحوزة ، فقال : يا بن رزام ، احمِلْ على هذه الرجال والخيل ، فحمل عليهم حتى أمعنوا ، وثبت لا يبرح منبره ، ودخل أهل الشام المسكر فكبروا فصعد إليه عبد الله بن يزيد بن المغفل الأزدي - وكانت مارية ابنة أخيه امرأة عبد الرحمن - فقال : انزل فأني أخاف عليك إن لم تنزل أن تُرأسَ ، ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به بعد اليوم .

فنزل وخلّى أهل العراق المسكر وانهزموا لا يألون على شيء .

ومضى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى انتهى إلى بيته وعاليه السلاح ، وهو على فرسه لم ينزل عنه ، نخرجت إليه ابنته فالتزمها ، وخرج إليه أهله ليكون ، فأوصاهم بوصيته وقال : لا تبكوا ، أرايتم أترككم ، كم عسيت أن أبقى معكم حتى أموت ؟ وإن أنا مت فإن الذي يرزقكم الآن حتى لا يموت ، وسيرزقكم بعد وفاتي كما رزقكم في حياتي ، ثم ودّع أهله وخرج إلى البصرة .

ولما رأى الحجاج انهزام أهل العراق قال : اتركوهم فليتبدّدوا ولا تتبّعوهم ، ونادى المنادى : من رجع فهو آمن .

ورجع محمد بن مروان إلى الموصل وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام بعد الواقعة وخلياً الحجاج والعراق .

وجاء الحجاج حتى دخل الكوفة وأجلس مصقلة البمدى إلى جنبه - وكان خطيباً - فقال : اشتّم كل امرئ بما فيه ، فإن كنا أحسنًا إليه فاشتّمه بقلة

شكره ولو لم عهد . ومن عامت منه عيباً فعبه بما فيه وصغر إلبه نفسه . وكان لا يُبأيه أحد إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال : نعم ، بآيمه ، وإلا قتله .

فجاء رجل من خشمم قد كان معتزلاً للناس جميعاً من وراء الفرات ، فسأله عن حاله ، فقال : ما زلت معتزلاً وراء هذا النهر ، منتظراً أمر الناس حتى ظهرت فأتيتهك لأبأيتك مع الناس . قال : أتشهد أنك كافر ؟ قال : بئس الرجل أنا إن كنتُ عبثتُ الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال : إذن أقتلك . قال : وإن قتلتني ، فوالله ما بقي من عمري إلا ظم حمار^(١) ، وإني لأنتظر الموت صباح مساء . قال : اضر بوا عنقه ، ففصربت عنقه .

فزعموا أنه لم يبق حوله قرشي ولا شامي ولا أحد إلا رحمه ورثي له من القتل .

ثم دعا بكميل بن زياد النخعي ، فقال له : أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين ! قد كنت أحب أن أجده عليك سبيلاً . فقال : والله ما أدري على أين أنت أشد غضباً ! ثم قال : أيتها الرجل من ثقيف ، لا تصرف على أنيابك ، ولا تهدم على تهدم الكتيب ، ولا تكسر كسران الذئب ، والله ما بقي من عمري إلا ظم حمار ، فإنه يشرب غدوة ويموت عشية ، ويشرب عشية ويموت غدوة . اقض ما أنت قاض ، فإن الموعد الله ، وبعد القتل الحساب .

قال الحجاج : فإن الحجة عليك ، قال : ذلك إن كان القضاء إليك ، قال : بلى ، كنت فيمن قتل عثمان وخلعت أمير المؤمنين . اقتلوه .

(١) العلم : ما بين السهتين ، أى لم يبق من عمره إلا اليسير ، لأنه ليس شيء أقصر ظمًا من الحمار .

فَقُدِّمَ فَقُتِلَ .

وَأَتَى بَآخِرَ مَنْ بَدَّه ، فَقَالَ الْحِجَاجُ : إِنِّي أَرَى رَجُلًا مَا أَظْفَهُ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ
بِالْكُفْرِ ! فَقَالَ : أَخَادِرِي عَنْ نَفْسِي ؟ أَنَا أَكْفَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَكْفَرُ مِنْ
فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ .

فَضَحَكَ الْحِجَاجُ وَخَلَّى سَبِيلَهُ .

٦٢ - يوم الهاشمية*

كان مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ^(١) مختفياً من أبي جعفر المنصور ، لِمَا كان منه من قتاله
المسودة مع ابن هُبَيْرَةَ مرةً بعد مرة .

وكان اختفاؤه عند مرزوق أبي الحصيب ، ليطلب له الأمان .

فلما خرج الرَّائِدِيَّةُ^(٢) أتى مَعْنُ البابَ فقام عليه^(٣) ، فسأل المنصورُ أبا الحصيب
— وكان يلي حِجَابَةَ المنصور يومئذ — : مَنْ بِالْبَابِ ؟ فقال : مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ . فقال
المنصور : رجل من العرب ، شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب ؛ أَدْخِلْهُ .
فلما دخل ، قال : إيه يا مَعْنُ ! ما الرأى ؟ قال : الرأى أن تُنَادَى في الناس
وتأمرَ لهم بالأموال . قال : وأين الناس والأموال ؟ وَمَنْ يُقَدِّمُ على أن يمرض نفسه
لهؤلاء المُلُوج ! لم تصنع شيئاً يا مَعْنُ ! الرأى أن أخرج فأقف ، فإن الناس إذا رأوني
قاتلوا وأبَلَوْا وثابوا إليّ ، وإن أقتُ تخاذلوا وتهاونوا .

* الهاشمية موضع بالكوفة أسسها السفاح ، وكان هذا اليوم سنة ١٣٦ أو ١٣٧ الطبرى

٩ - ١٨٣ .

(١) كان مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ من مشهورى قواد العرب ، وكان منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة
الغزاري . فلما جاءت الدولة العباسية وحاصر يزيد أبل معه بلاء حسناً ، ولما قتل يزيد خاف مَعْنُ
على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة إلى أن كان هذا اليوم .

(٢) هم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بلدة قرب فاشان ، وكانوا على رأى أبي مسلم
صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ، ويظهر أنهم كانوا يريدون أن يأخذوا بثأر أبي
مسلم ويقتلوا أبا جعفر .

(٣) في رواية أخرى أن المنصور خرج وهو يريد من فجاء مَعْنُ فأنتهى إليه ورى بنفسه وترجل
وأخذ بلجام دابة المنصور .

فأخذ مَعْنٌ بيده وقال : يا أمير المؤمنين إذا والله تُقَتَّل الساعة ، فأشذك الله في نفسك !

وأناه أبو الخصيب ، فقال مثل قولته مَعْن ، فاجتذب ثوبه منهما ؛ ثم دعا بدايته ووثب عليها من غير ركاب ؛ ثم سوى ثيابه ، وخرج ومَعْن أخذ بلجامه وأبو الخصيب مع ركابه ، فوقف .

وتوجّه إليه رجل ، فقال : يا مَعْن ، دونك الملقح ؛ فشدّ عاياه مَعْن فقتله . ثم والى بين أربعة .

وثاب الناس إلى المنصور ، فلم تسكن إلا ساعة حتى أفنوهم .

وتغيب مَعْنٌ بعد ذلك ، فقال أبو جعفر لأبي الخصيب : ويلك ! أين مَعْن ! فقال : والله ما أدري أين هو من الأرض ! فقال : أيقظ أن أمير المؤمنين لا يغفر ذنبه بعد ما كان من بلائه ! أعطيه الأمان وأدخله على .

فلما دخل لقبه أسد الرجال ، فقال مَعْن : والله يا أمير المؤمنين ، لقد أتيتك وأنا وجل القلب ، فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم ، وشدة الإقدام عليهم رأيتُ أمراً لم أره من خلق في حربٍ ، فشدّ ذلك من قلبي ، وحماني على ما رأيت مني . فأمر له بعشرة آلاف درهم دولاه اليمن .

فهرس الموضوعات

٣٠- ٧	١ - يوم بدر
٤٧- ٣١	٢ - يوم اُحد
٥٢- ٤٨	٣ - يوم الرجيع
٥٥- ٥٣	٤ - يوم بئر معونة
٥٨- ٥٦	٥ - يوم بنى النضير
٦٧- ٥٩	٦ - يوم الخندق
٧١- ٦٨	٧ - يوم بنى قريظة
٧٤- ٧٢	٨ - يوم ذى قرد
٧٧- ٧٥	٩ - يوم بنى المصطلق
٨٧- ٧٨	١٠ - يوم الحديبية
٩١- ٨٨	١١ - يوم مؤتة
١٠٣- ٩٢	١٢ - يوم الفتح
١٢٢-١٠٤	١٣ - يوم حنين
١٣٤-١٢٣	١٤ - يوم تبوك
١٤٠-١٣٥	١٥ - يوم السقيفة
١٤٣-١٤١	١٦ - يوم ذى القصة
١٥٢-١٤٤	١٧ - يوم بزاخة
١٥٨-١٥٣	١٨ - يوم البطاح
١٦٧-١٥٩	١٩ - يوم اليمامة
١٧٢-١٦٨	٢٠ - يوم جؤانا
١٧٦-١٧٣	٢١ - يوم صنعاء

الصفحة	
١٨٠-١٧٧	٢٢ - يوم ذات السلاسل
١٨٢-١٨١	٢٣ - يوم الثنى
١٨٤-١٨٣	٢٤ - يوم الوجة
١٨٧-١٨٥	٢٥ - يوم أليس
١٩٢-١٨٨	٢٦ - يوم الحيرة
١٩٤-١٩٣	٢٧ - يوم ذات العيون
١٩٦-١٩٥	٢٨ - يوم عين التمر
١٩٨-١٩٧	٢٩ - يوم دومة الجندل
٢١٤-١٩٩	٣٠ - يوم اليرموك
٢١٩-٢١٥	٣١ - يوم النمارق
٢٢١-٢٢٠	٣٢ - يوم السقاية
٢٢٥-٢٢٢	٣٣ - يوم قس الناطف
٢٣٠-٢٢٦	٣٤ - يوم البويب
٢٦١-٢٣١	٣٥ - يوم القادسية
٢٦٨-٢٦٢	٣٦ - يوم أرماث
٢٧٢-٢٦٩	٣٧ - يوم أغواث
٢٧٨-٢٧٣	٣٨ - يوم عماس
٢٨٢-٢٧٩	٣٩ - يوم بابل
٢٨٥-٢٨٣	٤٠ - يوم بهر سير
٢٨٩-٢٨٦	٤١ - يوم المدائن
٢٩١-٢٩٠	٤٢ - يوم جلولاء
٢٩٣-٢٩٢	٤٣ - يوم تكريت

٢٩٤	٤٤ - يوم ماسبندان
٢٩٥	٤٥ - يوم قرقيسياء
٢٩٧-٢٩٦	٤٦ - يوم الأهواز
٣٠٠-٢٩٨	٤٧ - يوم طاؤس
٣٠٥-٣٠١	٤٨ - يوم تستر
٣٠٧-٣٠٦	٤٩ - يوم السوس
٣٢٠-٣٠٨	٥٠ - يوم نهاوند
٣٥٠-٣٢١	٥١ - يوم الجمل
٣٧٨-٣٥١	٥٢ - يوم صفين
٣٨٩-٣٧٩	٥٣ - يوم النهروان
٤٠٨-٣٩٠	٥٤ - يوم كربلاء
٤٢١-٤٠٩	٥٥ - يوم الحرة
٤٢٦-٤٢٢	٥٦ - يوم مرج راهط
٤٤٠-٤٢٧	٥٧ - يوم عين الوردة
٤٤٤-٤٤١	٥٨ - يوم بنات تلي
٤٥٠-٤٤٥	٥٩ - يوم جبانة السبيع
٤٥٦-٤٥١	٦٠ - يوم خازر
٤٦١-٤٥٦	٦١ - يوم المذار
٤٦٥-٤٦١	٦٢ - يوم مسكن
٤٧٦-٤٦٦	٦٣ - يوم دير الجماجم
٤٧٨-٤٧٧	٦٤ - يوم الهاشمية

١ - فهرس الأعلام

١٨٩ ، ١٨٥	(١)
الأزاذبه (مرزبان الحيرة) ١٨٨ ، ١٨٩	آذين بن الهرمزان : ٢٩٤
أسامة بن زيد : ٣٣٨	آزار (امرأة الأسود العنسي) : ١٧٤
أسلم (غلام بني الحجاج) ١٤	آزر ميدخت (ابنة كسرى) ٢١٦ ، ٢١٩
أسماء بن خارجة : ٣٩٧ ، ٣٩٨	أبان بن سميد : ٨٢
أبو الأسود الدؤلى : ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢	إبراهيم (عليه السلام) : ٢٦
الأسود بن سريع السعدي : ٣٣٤	إبراهيم بن الأشتر : ٤٤٤ ، ٤٤٦ - ٤٤٨ ،
الأسود بن عبد الأسد المخزومي : ١٩	٤٥٢ - ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠
الأسود العنسي : ١٣٥ ، ١٧٣ ، ١٧٤ - ١٧٦	إبراهيم بن محمد : ٤٢٩ ، ٤٣٠
الأسود بن قطبة أبو مفرز : ٢٨٤ ، ٢٨٥	إبراهيم بن نعيم العدوى : ٤١٨
الأسود بن قيس المرادي : ٣٨٩	الأبرد بن قررة التيمي : ٤٧٣
ابن الأسود بن مسعود ١١٢	أبي بن خلف الجحى : ٣٨
الأسود بن المطلب : ٢٧	أبي بن كعب : ٨٦
أسيد بن حضير ، ٤٣ ، ٧٦ ، ١٤٠	أحر بن شيط : ٤٥٦
الأشتر الذخمي ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،	الأحنف بن قيس : ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٢ ،
٣٥٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٧ ، ٣٦٩	٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٩٤
الأشرس بن عوف الشيباني ٣٨٢	الأخرم الأسدي : ٧٣
ابن الأشعث = عبد الرحمن بن الأشعث	ابن أخطب = حي بن أخطب ٥٧
الأشعث بن قيس : ٢٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،	الأخنس بن شريق : ١٦ ، ٨٦
٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٧	أردمشير بن شيرى : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،

- ابن الإطناية : ٣٦٢
 أبو الأعور السلمي : ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩
 الأعور الشنّي : ٢٣٠
 الأقرع بن حابس : ١١٣ ، ١٩٣ ، ١٩٨
 أكيدر (صاحب دومة الجندل) : ١٢٧
 أكيدر بن عبد الملك : ١٩٧
 أمية بن خلف : ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩
 أنس بن الحليس : ٢٨٤
 أنس بن هلال النمرى : ٢٢٨
 أنس بن مالك : ٣٠٣ ، ٣٠٥
 الأندرزغر (من قواد الفرس يوم الوجة) :
 ١٨٣ ، ١٨٤
 أنوشجاف (من قواد الفرس) : ١٧٩ ،
 ١٨١
 أنوشروان : ١٨١
 أوس بن مغراء : ٢٦٤
 إلياس بن قبيصة : ١٨٩ ، ١٩١
 أبو أيوب الأنصاري : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩
 (ب)
 باذان (عامل الفرس على اليمن) : ١٧٣
 باهان (البطريق) : ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
 ٢٠٩ ، ٢٠٤
 بجير (أحد بني عبيد) : ١٩٥
 بجير بن زهير : ١١٦
 أبو البختری الطائي : ٤٦٩ ، ٤٧٠
 أبو البختری بن هشام : ١٥ ، ٢٢
 بدیل بن ورقاء الخزاعي : ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٣ ،
 ٩٤ ، ٩٧
 البراء بن عازب : ١٦٠
 أبو براء = عامر بن مالك
 البراء بن مالك : ١٦٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
 أبو برزة الأسلمي : ٤٠٨
 بسيس بن عمرو : ١٣ ، ١٥
 بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني : ٤٧٠
 بشر بن أبي رهم : ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥
 بشر بن سفيان : ٧٨
 بشر بن مروان : ٤٦٥
 بشير بن الخصاصية : ٢١٦
 بشير بن سعد : ١٣٩ ، ١٤٠
 بشير بن عمرو الأنصاري : ٣٥٤
 بصمهرى (من قواد الفرس) : ٢٨٠
 أبو بصير = عتبة بن أسيد
 ابن بقليلة : ١٧٩ ، ٢٤٩
 أبو بكر الصديق : ١٣ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٣٥ - ١٣٧ ،
 ١٣٩ - ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٢ - ١٥٨ ، ١٦٠ ،

ثابت بن قيس : ٧٧ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣
ثمامة بن أثال الحنفي : ١٧٠ ، ١٧٢

(ج)

جبان (من قواد الفرس) : ١٨٩ ، ٢١٩
جابر الأسدي : ٢٥٠

جابر بن بجير : ١٨٥

جابر بن عبد الله : ٤٣

الجارود بن الملقى : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
٢٩٩ .

جارية بن قدامة السعدي : ٣٣٦

الجالينوس (من قواد الفرس) : ٢٢٢ ، ٢٢٠ ،
٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧

جيلة بن زحر : ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

جبير بن مطعم : ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٩

جرجة (مقدم عسكر الروم يوم اليرموك)
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢

الجد بن قيس : ١٢٣

جدي بن أخطب : ٥٧

الجراح (من جنود الحجاج) : ٤٧١

أبو الجرباء التميمي : ٣٣٧

جرير بن عبد الله البجلي : ٢٢٦ ، ٣٠١

جرير بن عبد الله الحميري : ٣٠١

١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩١ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ - ٢٠١ ، ٢٠٣ -

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،

٢١٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٥٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ،

٤٢٢

بلال بن رباح : ٢٣ ، ٧٤

بندار (من أعلاج الفرس) : ٣١٣

البندوان (من قواد الفرس) : ٢٧٠

بهمن جاذويه (من قواد الفرس) : ١٨٣ ،

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٢٢ ، ٢٧٠

بوران (ابنة كسرى) : ٢٣١

البيزان (من قواد الفرس) : ٢٤٨ ، ٢٦٢ ،

٢٧٠

(ت)

تذراق (تيودوريك ، من قواد هرقل) .

٢٠٣ ، ٢٠٤

أبو تراب = علي بن أبي طالب

أم تميم (ابنة النهال) : ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٦٢ ، ١٦٣

(ث)

ثابت بن أرقم : ٩١

ثابت بن أرقم : ١٥٠

جبال (أخو طليعة) : ١٥٠	جرير بن عبد الله المجلى : ٣٥٢ ، ٣٥١
حبیب بن ذؤيب : ٣٢٢	جعفر بن أبي طالب : ٨٨ ، ٩٠
حبیب بن كزّة : ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤	أبو جعفر المنصور = المنصور
حبیب بن مسلمة الفهرى : ٣٥٧ ، ٣٦٠	جندل المجلى : ١٨٧
٣٦٩	جهجاه بن مسمود : ٧٥
أم حبيبة (زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ٩٤	أبو جهل بن هشام : ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٤٦٦ - ٤٦٨ ، ٤٧٠ - ٤٧٦	١٩ ، ٢٣ ، ٢٤
حجار بن أبجر : ٣٩٢	الجودى بن ربيعة : ١٩٧ ، ١٩٨
حجر بن عدى : ٣٨٥ ، ٣٨٨	جويرية بنت الحارث : ٧٧
حذيفة بن عتبة : ٢٢ ، ٢٤	(ح)
حذيفة بن محصن الغلفاني : ١٤٥ ، ١٦٠	حارث بن الأسود بن المطاب : ٢٧
٢٥٢ ، ٢٥٥	الحارث بن حسان : ٢٤٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
حذيفة بن اليمان : ٦٦ ، ٦٧ ، ٢٦٤ ، ٣١٢	الحارث بن أبي شمر الغساني : ٨٨ ، ١١٣
٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٣	الحارث بن أبي ضرار : ٧٥ ، ٧٧
حرام بن ملحان : ٥٣	الحارث بن ظبيان : ٢٧٠
حرب بن شرحبيل الشبامى : ٣٧٢ ، ٣٧٣	الحارث بن العبدى : ٣٨٦
حرثان بن الحارث = ذو الأصبع	الحارث بن عمير الأزدي : ٨٨
الحريز بن يزيد التميمي : ٤٠٧	الحارث بن عوف : ٥٩ ، ٦٢
حرقوص بن زهير السعدي : ٢٩٧ ، ٣٠١	الحارث بن هشام : ٣٢ ، ٢١٣
٣٨٠ ، ٣٧٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٠٢	الحارث بن يزيد العامري : ٢٩٥
٣٨٩	حاطب بن بلتمة : ٩٦
	الحباب بن المنذر : ١٦ ، ١٣٨ - ١٤٠
	جبال بن سلمة بن خويلد : ١٤١ ، ١٤٣

أم حكيم بنت الحارث : ٣٢	حرملة بن مريطة : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣٠٢
حكيم بن حزام ١٨ ، ٩٧	حسان (أخو أكيدر صاحب دومة الجندل) : ١٢٧
حكيم بن منقذ الكندي : ٤٢٧	حسان بن أسماء بن خارجة : ٣٩٧
أبو حلينة بن الأسود بن المطلب : ٢٧	حسان بن ثابت الأنصاري : ٤٦ ، ٦٤ ، ٥٥
الحليس بن معلقة : ٨٠ ، ٨١	حسان بن مالك الكلابي : ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦
حماس بن قيس : ١٠١	الحسن بن علي بن أبي طالب : ٩٤ ، ٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢
جمال بن مالك الأسدي : ٢٣٨ ، ٢٧٤	الحسين بن علي بن أبي طالب : ٣٧٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤
حمزة بن سنان الأسدي : ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٩	حصين بن نمير السكوني : ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩
حمزة بن عبد المطلب : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣	الحطيم بن ضبيعة : ١٦٩ ، ١٧١ ، الحطيئة : ٢٦٤
٣٢ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ١٠٣	حفصة بنت عمر : ٣٣٠
حملة بن جوية الكنانى : ٢٤٢	حكم بن سعد (ورد في الشعر) : ٥٥
حنة بنت جحش : ٤٢	حكيم بن جبلة : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥
ابن الحنيفة = عمر بن الخطاب	
حنظلة بن الربيع التيمي : ٢٤٢	
ابن الحنفية = محمد بن الحنفية	
حيرى بن أكل ١٨٩ ، ١٩١	
الحيسمان الخزاعي : ٢٦	
حي بن أخطب : ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١	
(خ)	
خالد بن سعيد بن العاص : ١٤٥ ، ١٩٩	
٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣	
خالد بن عرفطة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩	
خالد بن هلال : ٢٣٠	

ذو الحمار : ١٠٩	خالد بن الوليد : ١٠١ ، ٩١ ، ٧٨ ، ٣٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٧ - ١٦٠ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٧ - ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ، ٢٧٠
ذو الكلاع ٢٠٢ ، ٢٠٠	خباب بن الارت ٣٧٢
ابن ذى الكلاع الحميري : ٣٦١	خبیب بن عدی ٥١ ، ٤٩
(ر)	أبو الخصيب : ٤٧٨
رافع (دليل خالد بن الوليد) : ١٧٩	خلید بن المنذر بن ساوی : ٢٩٩ ، ٣٠٠
رافع بن عميرة الطائي : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨	خديجة بنت خويلد (زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ٢٨
رباح (غلام رسول الله) : ٧٢	خوات بن جبیر ٦١
ربيع بن الأفكل الغنزي : ٢٩٢	خويلة ابنة حكيم : ١١٢
ربيع بن عامر التميمي (أبو شيث) : ٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥	أبو خيثمة ٣٤
ربيع السعدي ٢٦٦	(د)
ربيعة بن رفيع : ١١٠	داذويه : ١٧٥
ربيعة بن أبي شداد الخثعمي : ٣٨١ ، ٣٨٢	داود (عليه السلام) ١٢٢
ربيعة بن المخارق الغنوي : ٤٤٢ ، ٤٤٣	أبو دجانة : ٣٦ ، ٣٨
الربيل الأسدي : ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧	الدراقص (من قواد هرقل) : ٢٠٣ ، ٢٠٤
رستم : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣١	أبو الدرداء ٤٧٠
٢٤٢ ، ٢٤٦ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ - ٢٥٩	دريد بن الصمة : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٠
٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥ - ٢٧٨	(ذ)
رفاعة بن شداد : ٤٣٨ ، ٤٤٨	أبو ذر النفاري ١٢٦ ، ١٢٧
أبو رهم = كلثوم بن حصين	ذو الإصبع المدواني ٤٦٤
(ز)	
الزبرقان بن بدر : ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٩٥	

زيد بن الخطاب : ١٦٠ ، ١٦٣	أبو زيد الطائي : ٢٢٥
زيد بن الدثينة : ٤٩	الزبير بن العوام : ١٤ ، ٤٢ ، ٧٠ ، ٩٦ ،
زيد بن صُوحان : ٣٤٦	١٠١ ، ١١١ ، ١٤٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
زيد بن عبد الرحمن بن عوف : ٤١٨	٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،
زيب (بنت رسول الله صلى الله عليه	٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٤٠ ، ٣٤٢ - ٣٤٤ ،
وسلم) : ٢٨	٣٤٧ - ٣٥١
(س)	زرعة بن البرج الطائي : ٣٧٩
سابور بن شهريران : ٢١٦	زفر بن الحارث : ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ -
سالم (مولى أبي حذيفة) : ١٦٢	٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥١
سالم بن نصر : ١٧٩	زمل بن عمرو المذري : ٣٦٩
ابن أم السائب : ٣٢٠	زهرة بن الحوية : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٧ ،
السائب بن الأقوع : ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠	٢٧٩ - ٢٨٣
السائب بن مالك الأشعري : ٤٥٨	زهرة بن عبد الله : ٢٣٨
سباع بن عرفة : ١٢٥	ابن زياد = عبيد الله بن زياد
سبرة الجهني : ٣٢٦	أبو زياد (مولى ثقيف) : ١٩٦
أبوسبرة بن أبي رهم : ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣	زياد بن حفصة : ٣٥٦ ، ٣٨٤
سبرة بن عمرو : ١٥٣	زياد بن حنظلة التيمي : ٣٢٧ ، ٣٤١
سجاح بنت الحارث : ١٥٣ ، ١٥٤	زياد بن أبي سفيان : ٢٣٨
سراقة بن مالك : ١٢	زياد بن السكن : ٣٧
سراقة بن مرداس : ٤٤٩ ، ٤٥٠	زيد بن حارثة : ٨٨ ، ٩٠
سرجون (مولى معاوية) : ٣٩٤	زيد بن حصين الطائي : ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٠
سعد بن الربيع : ٤١	٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩
سعد بن عباد : ٦١ ، ٦٢ ، ١٠١ ، ١١٥ ،	
١٣٥ - ١٣٧ ، ١٤٠	

سفيان بن الأبرد السكبي : ٤٧٣	سعد بن عبيد : ٢١٨
أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : ٢٧ ، ١٠٨	سعد بن مالك بن أبي وقاص = سعد بن أبي وقاص
أبو سفيان بن حرب : ٩ ، ١١ ، ١٤ - ١٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٥ - ٦٧ ، ٨٢ ، ٩٣ - ٩٧ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ٢١٠	سعد بن مسعود : ٣٨٥
أم سلمة (زوج النبي صلى الله عليه وسلم) : ٣٤٢ ، ٨٥	سعد بن معاذ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٨
سلمة بن الأكوع : ٧٢	أم سعد بن معاذ : ٦٣
سلمة بن دريد : ١١٠	سعد بن أبي وقاص : ٨ ، ١٤ ، ٣٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ - ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ - ٢٦٤ ، ٢٦٦ - ٢٧٩ ، ٢٧٧ - ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ، ٣٧٧
سلمة بن سلامة : ٢٥	سعد بن وهيب = سعد بن أبي وقاص
سلمى (زوج المثنى بن حارثة) : ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢	سعيد بن جبير : ٤٦٩
سلمى بنت خصة التيمية : ٢٣٨	سعيد الحرشي : ٤١٣
سلمى بن القين : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٣	سعيد بن خالد : ٢٠٢
سلمان الفارسي : ٢٣٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨	أبو سعيد الخدري : ٤٢٠
سليط بن قيس : ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣	سعيد بن العاص : ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٦٧
أم سليم : ١٠٩	سعيد بن قيس الهمداني : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨٤ ، ٣٦٩
سليمان بن مرد الخزاعي : ٣٩١ ، ٤٢٧ - ٤٤٠ ، ٤٥١	سعيد بن النعمان : ١٨٢

شرحبيل بن حسنة : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦١	سليمان الفارسي = سلمان الفارسي
٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠	ابن سمية = عمار بن ياسر
شرحبيل بن السمط الكندي : ٢٣٨ ، ٢٧٧ ،	أم سنان الصيداوية : ٣٨٦
٢٧٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨	سنان بن وبرة الجهمي : ٧٥
شرحبيل بن عمرو النساني : ٨٨	سهل بن حنيف : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٥٩
شرح بن أوفى السعدي : ٣٨٩	سهل بن عدى : ٣٠١
شرح بن هاني : ٣٧٥ ، ٣٧٨	سهلة (زوج عبد الله بن خازم) : ٤٢٧
الشعبي : ٤٦٩	سهيل بن عمرو ، أبو جندل : ٢٨ ، ٨٣-٨٥ ،
الشاخ : ٢٦٤	١٠١ ، ٢٠٢
شهر بن باذان : ١٧٣	سواد بن غزوية : ٢٠
شهر بزار (صاحب الخيل) : ٢٢٩	سواد بن مالك : ٢٣٨
شهريار بن كسرى : ٢٣١ ، ٢٨١ ، ٢٨٢	السوار بن هام : ٢٩٩
شهريار بن أردشير : ٢١٥	ابن السوداء : ٢٤٨
شبية بن ربيعة : ١٥ ، ١٩ ، ٢٠	سويد بن بشر : ٣٠٣
شبية بن عثمان : ١٠٧	سويد بن عمر بن مقرن : ٢٨٩
شيرازاذ : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤	سويد بن مقرن : ١٤٣ ، ١٤٥ ، ٣٠١
شيرويه : ٣٠٦	سويلم اليهودي : ١٢٤
شيري بن كسرى : ١٧٩	سيار العجلي : ٣٤١
(ص)	سيرين (أبو محمد بن سيرين) : ١٩٦
صالح بن سليم : ٣٧١	(ش)
صخير بن حذيفة : ٤٢٨	شبت بن ريمي التميمي : ٣٥٤ ، ٣٥٧ ،
صفوان بن أمية : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،	٣٧٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ، ٤٤٥ ،
٣١ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٣	٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦

طلحة النمرى : ١٦١	صفوان بن صفوان : ١٥٣
(ظ)	صفية بنت عبد المطلب : ٤١ ، ٤٢ ، ٦٤
ابن ظبيان : ٢٧٠	صمصمة بن صوحان : ٣٥٤ ، ٣٦٠
ظفر (رجل من جهينة) : ٣٣٠	صلوبا بن نسطونا : ١٩١
(ع)	صهيب بن سنان : ٣٣٩
عاتكة بنت عبد المطلب : ١٠ ، ١١ ، ٤٦١	صيفي بن قيس الشيباني : ٣٨٥
أبو العاص بن الربيع : ٢٨	(ض)
العاص بن هشام بن الميرة : ١١	الضحاك بن قيس : ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٤٢٤ - ٤٢٦
عاصم بن عمرو : ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢	ضرار بن الأزور : ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٨٩
٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩	١٩٠ ، ٢١٣
٢٨٧ ، ٢٧٤	ضرار بن الخطاب : ٢٨٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤
أبو عامر الأشعري : ١١٠	ضرار بن مقرن : ١٨٩
عامر بن الحضرمي : ١٩	ضمضم بن عمرو الغفاري : ٩ ، ١٠ ، ١١
عامر بن الطفيل : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦	(ط)
عامر بن مالك أبو براء (ملاعب الأسنة) :	طريفة بن حاجز : ١٤٥
٥٥ ، ٥٣	أبو طلحة : ١٠٩
عامر بن لؤي : ٧٩	طلحة بن خويلد الأسدي : ١٤١ ، ١٤٤
عائشة بنت أبي بكر الصديق : ٦٣ ، ٩٥	١٤٨ - ١٥١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٥
٣٣٩ - ٣٣٤ ، ٣٣٢ - ٣٢٧ ، ١٢٥	طلحة بن عبيد الله : ٣٨ ، ٧٢ ، ١٢٤ ، ١٣٣
٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤١	١٤٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٣١٠
العباس بن عبد المطلب : ١٠ ، ١١ ، ٢٢	٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ -
٢٣٣ ، ١٠٨ ، ٩٩ - ٩٧ ، ٢٥	٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٤٠ ، ٣٤١ - ٣٤٤
	٣٤٧ - ٣٥١

عبد الله بن جحش : ٧ ، ٨ ، ٤٢	عباس بن مرداس : ١١٤
عبد الله بن جدعان : ٢٣	عباية بن مالك : ٩٠
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : ٩١ ، ٣٧٢ ، ٤٠٥	عبد الأسود العجلى : ١٨٥ ، ١٨٦
عبد الله بن أبي حدرد : ١٠٦	عبد الرحمن بن أبي بكر : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٧٨
عبد الله بن حذف : ١٧١	عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي : ٢٣٨
عبد الله بن حملة الخثعمي : ٤٤٢ ، ٤٤٣	عبد الرحمن بن زهير بن عبد بن عوف : ٤١٧
عبد الله بن حنظلة الفسيل الأنصاري : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤١٨	عبد الرحمن بن سميد : ٤٤١ ، ٤٤٧
عبد الله بن خازم : ٤٢٧	عبد الرحمن بن عتاب : ٣٣٩ ، ٣٥٠
عبد الله بن خالد بن أسيد : ٣٣٢	عبد الرحمن بن عوف الرؤاسي : ٤٧١
عبد الله بن خباب : ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤	عبد الرحمن بن عوف الزهري : ٢٢ ، ٢٣
عبد الله بن دؤاب السلمي : ٤٧٤	٢٣٢ ، ٢٣٤
عبد الله بن ذى السهمين الخثعمي : ٢٣٨ ، ٣٠١	عبد الرحمن بن أبي ليلى : ٤٦٩
عبد الله بن أبي ربيعة : ٣١	عبد بن عوف الحميري : ١٧٧
عبد الله بن رزام الحارثي : ٤٧١ ، ٤٧٤	ابن عبد عوف : ٨٦
عبد الله بن رواحة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠	عبد الرحمن بن عيفية : ٧٢ ، ٧٣
عبد الله بن الزبير : ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩١	عبد بن أم كلاب : ٣٢٨
٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥	عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٤٠٠ ، ٤٥٨
٤٣٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٥	٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤
٤٦٠ ، ٤٦٥	عبد الرحمن بن محنف : ٤٤٦ ، ٤٥٨
	عبد الله بن أبي بن سلول : ٣٣ ، ٤٦ ، ٥٧
	١٢٥ ، ٧٦ ، ٧٥
	عبد الله بن بشر : ٣٠٣
	عبد الله بن جبير : ٣٤

عبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة	عبد الله بن زهير السلولى : ٤٥٣
الحزوى : ٤١١	عبد الله بن زيد : ٢٢٥
عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعري	عبد الله بن سبع الهمداني : ٣٩٢
عبد الله بن الكواء اليشكري : ٣٧٣ ، ٣٧٤	عبد الله بن أبي سرح : ٣٥٣
عبد الله بن مرثد الثقفي : ٢٢٤	عبد الله بن سعد الأزدي : ٣٢٨ ، ٣٣٨ -
عبد الله بن مسمود : ٢٣ ، ١٤٢	٤٤٠ ، ٤٥٢
عبد الله بن مسمود الحضرمي : ١٩٣ ، ٣٩٤	عبد الله بن سلام : ٣٤٢
عبد الله بن مطيع : ٣٩١ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤١٧	عبد الله بن شجرة السلمي : ٣٨٧
عبد الله بن معاوية : ٣٥٢	عبد الله بن شريك : ٤٤٨
عبد الله بن المعتم : ٢٣٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ ،	عبد الله بن الضحاك : ٤١٨
٢٩٣	عبد الله بن طارق : ٤٩
عبد الله بن مقرن : ١٤٣	عبد الله بن عامر : ٣٢٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣١
عبد الله بن وأل البكري : ٣٩٢ ، ٤٣٢	عبد الله بن عباس : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٦
٤٣٨ - ٤٤٠ ، ٤٥٢	٣٥٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، ٣٨٤ ،
عبد الله بن وديعة الأنصاري : ٣٧١	٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
عبد الله بن وهب الراسبي : ٣٨٠ ، ٣٨١	٤٠٣ - ٤٠٥
٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩	عبد الله بن عبد الله بن أبي : ٧٦
عبد الله بن يزيد بن الغفل : ٤٢٩ ، ٤٣٠	عبد الله بن عبد الملك : ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ،
٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٧٤	٤٧٤
عبد الله بن يعلى : ٤٦٣	عبد الله بن عضاء الأشعري : ٤١٩
عبد الملك بن مروان : ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥	عبد الله بن عمر : ١٦٦ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٣٠
٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ - ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧	٣٩٠ ، ٣٩١
عبدية بن الطبيب : ٢٦٤	عبد الله بن عمرو : ٣٤ ، ٤٢

٣٥٣ ، ٣٥١ : ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٥	عبيد الله بن زياد : ٣٩٤ - ٣٩٧ ، ٤٠١ ،
٣٨٦ : ٣٧٧ ، ٣٥٨ - ٣٥٦ ، ٣٥٤	، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ ،
٤٦٧ ، ٤٦٥ ، ٤٥١ ، ٤٤٨	، ٤٣٨ ، ٤٤١ - ٤٤٤ ، ٤٥١ - ٤٥٣ ،
عثمان بن مالك : ٥١	٤٥٥
عثمان بن محمد بن أبي سفيان : ٤١٠ : ٤١٢	عبيد الله بن عباس : ٣٢٥ ، ٣٢٦
عدى بن حاتم الطائي : ١٤٣ ، ١٤٩ - ١٥١ ،	عبيد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٦٠
٣٨٤ ، ٣٥٦ ، ١٧٨	عبيد الله بن مرجانة = عبيد الله بن زياد
عدى بن أبي الزغباء : ١٣ ، ١٥	أبو عبيد بن مسعود : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
عدى بن سهيل : ٢٤٢	٢٢١ ، ٣٢٢ ، ٢٢٣
عدى بن عدى : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١	أبو عبيدة بن الجراح : ٣٨ ، ١٠١ ، ١٣٧ ،
عرفجة بن هرثة : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ ،	١٣٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢٩٢	٢١٤ ، ٢٧٠
عروة بن أديّة : ٣٦٩	عبيدة بن الحارث : ١٩ ، ٢٠ ،
عروة بن زيد الخيل : ٢٢٥	عتاب بن أسيد : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٧ ،
عروة بن مسعود الثقفي : ٨١ ، ٨٢	عتبة بن ربيعة : ١٠ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ،
عريض أبو يسار (علام بن العاص بن سميد) : ١٤	عتبة بن غزوان : ٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ،
أبو عزة الجحفي : ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢	عثمان حنيف : ٣٢٥ ، ٣٣٣ - ٣٤٠ ، ٣٤٤ ،
عصمة بن الحارث : ٢٢٦	٣٤٥
عطارد بن حاجب : ٢٤٢	عثمان بن طلحة : ١٠٢ ، ١٠٣ ،
عفيف بن المنذر : ١٧١	عثمان بن عبد الله : ١٠٩
عقبة بن عامر : ٩١	عثمان بن عفان : ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ٢٣٢ ،
عقة بن أبي عقة : ١٩٥ ، ١٩٦	٢٣٣ ، ٣١٠ ، ٣٢١ - ٣٢٩ ، ٣٣١ ،
عقيل بن الأسود بن المطلب : ٢٧ ، ٤٠٣	- ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ -

٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ،
٢٩٠ ، ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٢٩٧ - ٣٠٥ ، ٣٠٧ -
٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٥٨ ، ٣٧٦ ،
٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

عمر بن سعد : ٤٠٢ ، ٤٠٧

عمر بن عبدالرحمن بن الحارث المخزومي : ٤٠٣

عمر بن عبد الله بن معمر : ٣٩٤

عمر بن عثمان بن عفان : ٤٢١

عمر بن مالك : ٢٩٥

عمران بن حصين : ٣٣٣ ، ٣٣٤

عمرو بن أمية الضمري : ٤٩ ، ٥٠ - ٥٢ ،

٥٤ ، ٥٦

عمرو بن ثبي : ٣١٥

عمرو بن جحاش : ٥٦

عمرو بن جرموز : ٣٥٠

عمرو بن الجوح : ٤٢

عمرو بن الحجاج : ٣٩٧

عمرو بن حرث المخزومي : ٣٢٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣

عمرو بن الحضرمي : ٨ ، ١١ ، ١٨

عمرو بن سالم الخزاعي : ٩٣

عمرو بن سعد بن أبي وقص : ٣٩٤

عكاشة بن محسن : ١٥٠

عكرمة بن أبي جهل : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٦٦

١٠١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ -

٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٣

العلاء بن الحضرمي : ١٤٥ ، ١٧٠ - ١٧٢

٢٩٨ ، ٣٠٠

علي بن الحسين : ٤١٤ ، ٤٢١

علي بن أبي طالب : ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٦ ،

٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٤ ،

٩٤ - ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ،

٢٠٣ ، ٢٣٣ ، ٣١١ ، ٣٢١ - ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،

٣٣٣ ، ٣٣٧ - ٣٤٦ ، ٣٤٨ - ٣٦٤ ، ٣٦٦ -

٣٨٨ ، ٤٠٣ ، ٤٣٨ ، ٤٦٩

عمار بن ياسر : ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠

عمارة بن شهاب : ٣٢٥ ، ٣٢٦

أم عمارة = نسيئة بنت كعب

عمارة بن الوليد بن عقبة : ٣٩٤

ابن عمر : ٣٧٦ ، ٣٧٧

عمر بن الخطاب : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ،

٣٨ - ٤٠ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٤ - ٩٨ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١١٢ ، ١٣٥ - ١٣٩ ، ١٥٦ - ١٥٨ ،

١٧٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ - ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ،

عيسى بن سعيد بن العاص : ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٠	عيسى بن مصعب : ٤٦٢
عمرو بن أبي سلمى المزني : ٣١٣	عيننة بن حصن : ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ١١٤ ، ١٥١ ، ١٤٩
عمر بن العاص : ١٤٥ ، ١٦١ ، ٢٠٠-٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٣٥١-٣٥٣ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠	(غ)
٣٦٣ - ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ - ٣٧٨	غالب بن عبد الله الأسدي : ٢٦٤ ، ٢٦٥
عمرو بن عامر : ١٠٥	ابن الغسيل : ٤١٩ ، ٤٢٠
عمرو بن عبد ود : ٦٣	ابنة غيلان ١١٢
عمرو بن عبد المسيح : ١٨٩ ، ١٩١	غيلان بن سلمة : ٤٥٩
عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمي : ٤٠٠ ، ٤٠١	(ف)
عمرو بن عثمان بن عفان : ٤١٢ ، ٤١٥	الفارعة بنت عقيل : ١١٢
عمرو بن عكرمة : ٢١٣	فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :
عمرو بن معد يكرب الزبيدي : ١٧٦ ، ٢٤٢	٩٤ ، ٩٥ ، ٤٥٤
٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥	فاطمة بنت الوليد : ٣٢ ، ٤٥٤
عمير بن الحباب : ٤٥٢ ، ٤٥٣	فرات بن حيان العجلي : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤
عمير بن الحمام : ٢١	الفرخزاد : ٢١٦
عمير بن عبد الله التيمي : ٣٣٢	الفرزدق : ٤٠٥
عمير بن وهب : ١٧ ، ٢٨-٣٠	فرغون : ٤٥٤
المنسي = الأسود	فروة بن نوفل الأشجعي : ٣٨٩
عوف بن عامر : ١٠٥ ، ١٥٣	أم الفضل بنت الحارث : ٣٣٠
عويم بن الكاهل الأسدي : ١٩٧	الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن
عياض بن غنم : ١٧٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨	المطلب : ٤١٧ ، ٤١٨
عيسى (عليه السلام) : ٢٦	فيرزان : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٠٩ ، ٣١٨

قيس بن عاصم : ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٢	خيروز : ١٧٥
قيس بن عبد يغوث : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦	الغيقار بن نسطوس : ٢٠٣ ، ٢٠٤
قيس بن العقديّة : ٣٣٤	(ق)
قيس بن هبيرة الأسدى : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠	قارب بن الأسود : ١٠٩
قيس بن الهيثم : ٣٩٤ ، ٤٦١	قارن بن قريانس : ١٨١
قيصر : ٨٢ ، ٤٠٢	قباد : ١٧٩ ، ١٨١
(ك)	أبو قتادة الأنصارى : ٧٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
كثير بن شهاب الحارثى : ٣٩٩	١٥٦ ، ٣٨٨
كثير بن عبد الرحمن (صاحب عزة) : ٤٦١	قثم بن العباس : ٣٢٧
كرز بن جابر الفهري : ٧	أبو قحافة : ١٠٠
كسرى : ٨٢ ، ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣	ابن أبي قحافة = أبو بكر الصديق
٢٨٨ ، ٣٨٣ ، ٤٠٢	قدامة بن الحريش التيمي : ٤٧١
كسرى شهريران : ٢١٥	قدامة بن مظعون : ٢٩٨
كعب بن أسد : ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨	قرط بن جراح : ٢٢٩
٧٠ ، ٧١	قرفة بن زاهر التيمي : ٢٥٢
كعب بن جعيل : ٣٦١	قطبة بن قتادة (من بنى عذرة) : ٩٠
كعب بن زهير : ١١٦ ، ١١٧	القمقاع بن شور : ٣٩٩
كعب بن زيد : ٥٤	القمقاع بن عمرو التيمي : ١٧٧ ، ١٧٩ ،
كعب بن سور : ٣٣٨ ، ٣٣٩	١٩٣ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٧ ، ٢٩٠ ،
كعب بن أبي كعب الخثعمي : ٤٤٦	٢٩١ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤٦ - ٣٤٨
كعب بن لؤى : ٧٩	قيس بن ساعدة : ٣٦١
كعب بن مالك : ٣٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،	قيس بن سعد : ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨
١٣٢ ، ١٣٣	
(٣٢ - أيام العرب في الإسلام)	

٢٤٤ - ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٩
 مجاعة بن مرارة : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧
 مجزأة بن ثور : ٣٠٣
 أبو محجن الثقفي : ٢٢٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
 محكم بن الطفيل : ١٦٥ ، ١٦٦
 محمد صلى الله عليه وسلم : ٧ - ٩ ، ١٢ - ٧١
 ٧٤ - ٨٩ ، ٩١ - ١٠٤ ، ١٠٦ - ١١٧
 ١٢١ - ١٤١ ، ١٤٣ - ١٤٨ ، ١٥٣
 ١٥٩ - ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 ١٧٣ ، ١٧٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ -
 ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ - ٢٣٥
 ٢٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠
 ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ - ٣٤٥
 ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ - ٣٨٣
 ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٤٠٦
 ٤٠٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٩
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٧١
 محمد بن الأشعث : ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
 ٤٠١ ، ٤٥٧
 محمد بن أبي بكر : ٣٤٣ ، ٣٤٩
 محمد بن ثابت : ٤٣٠

كلثوم بن حصين أبو رهم : ٩٧
 كلدة بن الحنبل : ١٠٧
 كميل بن زياد النخعي : ٤٧٥
 (ل)
 أبو لبابة بن عبد المنذر : ٦٩
 أبو لهب : ١١ ، ٢٧

(م)

ابن مالك : ٢٩٦
 مالك بن حبيب : ٢٩٥
 مالك بن الدخشم : ١٢٨
 مالك بن سنان : ٣٨
 مالك بن عباد : ٩٢ ، ١٧٨
 مالك بن عوف النصري : ١٠٤ ، ١٠٥
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤
 مالك بن قيس : ١٨٥ ، ١٨٦
 مالك بن مسمع البكري : ٣٩٤
 مالك بن نورة : ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨
 متعمم بن نورة : ١٥٧ ، ١٥٨
 المثني بن حارثة الشيباني : ١٧٨ ، ١٨١
 ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

مسروق بن الأجدع : ٣٤٥	محمد بن أبي الجهم ٤٢٠
مسعود بن حارثة ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠	محمد بن الحنفية : ٣٩٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢
مسعود بن عمرو : ٣٩٤	محمد بن سمة ٥٦ ، ٥٧
مسعود بن رخیلة : ٥٩	محمد بن طلحة : ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠
مسعر بن فدكي التيمي : ٣٦٠ ، ٣٦٤	محمد بن علي بن أبي طالب : ٣٢٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢
٣٦٦ ، ٣٦٩	محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ٤٢٠
مسلم بن عقبة المري : ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦	محمد بن عوف : ٣٤٣
٤١٧ ، ٤١٩	محمد بن مروان ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤
مسلم بن عقيل : ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦	محمية بن زعيم : ٢١١
٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠	المختار بن عبيد : ٣٩٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
مسلم بن عمرو الباهلي : ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢	٤٤٤ — ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،
مسلم بن عقبة المري ٣٦٠	٤٥٥ — ٤٥٩
مسلم بن عقيل : ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦	مخرمة بن نوفل : ١٦
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١	مذعور بن عدی العجلي : ٢٥٢
مسلم بن عوسجة الأسدي : ٣٩٦	مربع بن قيطي : ٣٤
المسيب بن نجبة : ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨	مرادة بن الربيع ١٢٩ ، ١٣١
٤٣٩ ، ٤٤٠	مرثد بن أبي مرثد الغنوي ٤٨
مسيبة السكذاب : ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩	ابن مرجانة = عبيد الله بن زياد
١٦٠ — ١٦٢ ، ١٦٤ — ١٦٦ — ١٧٠	مردان شاه : ٢١٩
مصعب بن الزبير : ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦	مروان بن الحکم : ٣٣١ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ،
٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١	٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٥١ ، ٤٥٩
٤٦٢ ، ٤٦٥	مروان بن محمد ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥
مصعب بن عمير : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢	مسنافع بن عبد مناف : ٣٢

ابن أم مكتوم : ٣٣	ابن مصقلة : ٤٧٠
مكرز بن حفص : ٢٨ ، ٨٠	مصقلة العبدي : ٤٧٤
منجباب بن راشد : ١٧٠	الضارب بن يزيد العجلي : ٢٥٢
مناذر : ٢٩٦ ، ٣٠١	معاذ بن جبل : ١٣٠ ، ٢٢٥
المنذر بن الجارود : ٣٩٤	معاوية بن أبي سفيان : ٣٢٣-٣٢٧ ، ٣٢٩
المنذر بن ساوى : ١٦٨	٣٣٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤
المنذر بن عمرو : ٥٣ ، ٥٤	٣٧٦-٣٧٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٣
المنذر بن النعمان بن المنذر : ١٦٩	معبد بن خالد : ٤٦٤
المنصور (الخليفة) : ٤٧٧ ، ٤٧٨	معبد الخزاعي : ٤٤
المنهال (زوج مالك) : ١٥٦	معبد بن مرة العجلي : ٢٥٢
المهاجر بن أبي أمية : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٦	معقل بن سنان الأشجعي : ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
مهران بن بهرام : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩	معقل بن قيس : ٣٨٤
٢٤٨ ، ٣٣٠	معن بن زائدة : ٤٧٧ ، ٤٧٨
مهران الرازي : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠	المثنى بن حارثة الشيباني : ١٨١ ، ٢١٥ ، ٢٣٨
مهران الهمداني : ٢٢٦	٣٤٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦
المهلب : ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠	معن بن عدى : ١٢٨
الموبذ : ٣٠٦	معن بن يزيد بن الأخنس : ٣٥٧
موسى (عليه السلام) : ١٣ ، ٢٦ ، ١٢٥	المغيرة بن زرار : ٢٤٢ ، ٢٤٤
أبو موسى الأشعري : ١١٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧	المغيرة بن شعبة : ٨١ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ٢٣٧
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ -	٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٣١٣
٣٧٩ ، ٣٨٢	٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢
(ن)	المقداد بن الأسود الكندي : ٧٣
نائل (مولى عثمان) : ٢٨٢ ، ٣٥٧	المقداد بن عمرو : ١٣

هيرة بن أبي وهب : ٤٦	ناثل بن جعشم الأعرجى أبو نباته : ٢٨١
الهذيل الأسدي : ٢٦٥	النجاشي : ٨٢
الهذيل بن زفر : ٤٣٤	النخيرجان : ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩
الهذيل بن عمران : ١٩٥	نُرسى : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩
الهربذ : ٢٩٩	نصير (أبو البطل الفاتح موسى بن نصير) : ١٩٦
هرقل : ٨٩ ، ٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٣٨٣	النعمان بن بشير الأنصاري : ٣٥١ ، ٣٩٢ -
هرمض : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،	٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
٢١٥ ، ٢٦٧	النعمان بن عمر بن مقرن الخراج : ٢٨٩
هرمض جاذويه : ٢١٥	النعمان بن مُقرن : ١٤٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٠١ -
الهرمزان : ٢٤٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٦ - ٢٩٨ ،	٣٠٣ ، ٣١٢ - ٣١٩
٣٠١ - ٣٠٦ ، ٣٠٩	النعمان بن المنذر : ١١٣
الهرهاز بن عمرو المجلي : ٢٧٠	نعم بن مسمود : ٦٤ ، ٦٦ ، ٢٩٦
هشام بن عامر : ٣٣٤	نعم بن مقرن : ٣١٣ ، ٣١٨
هلال بن أمية : ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣	نوج (عليه السلام) : ٢٦
هلال التيمي : ٢٧٦ ، ٢٧٧	نوفل بن معاوية : ٩٢
هلال الهجري : ٢٣٨	(ه)
هند بنت أثاثة بن عباد ٤٠	هارون (عليه السلام) : ١٢٥
هند بنت عتبة : ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣	هاشم بن عتبة بن أبي وقاص : ٢٧٠ ، ٢٧٣ ،
(و)	٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ،
وحشى (غلام جبير بن مطعم) : ٣٦ ، ٣٩	٢٩٥ ، ٣٦٠
وديعة السكلي : ١٩٨	هاني بن عروة المرادي : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨
ورقاء بن سمي البجلي : ٣٦٩	هاني بن قيس : ٢٩٢
ورقاء بن غازب : ٤٤٣	ابن هيرة : ٤٧٧

وكيع بن مالك : ١٥٤، ١٥٣	يزيد بن أنس : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ،
الوليد بن عبد المطلب : ٣٦١	٤٤٤ ، ٤٤٥
الوليد بن عقبة : ١٠ ، ١٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ،	يعلى بن أمية : ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢
٤٢٥ ، ٤١٠	يزيد بن عاصم المحاربي : ٣٧٩
الوليد بن عقبة : ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،	يزيد بن عبد الله بن زمعة : ٤٢٠
٢٠٣ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣	يزيد بن عمير : ٤٤٨
الوليد بن غصين الكنانى : ٤٢٧	يزيد بن قيس الأرحبي : ٣٥٦
(ى)	يزيد مسلم بن عقبة : ٤١٥
يحنة بن روبة : ١٢٧	يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
يحيى بن سميد : ٤٠٥	٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٣٦٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ،
يزدجرد : ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٦٣ ،	٤٠٥ ، ٤٠٨ — ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨	يزيد بن وهب بن زمعة : ٤٢١
يزيد بن أرقم ٧٥	

٢ - فهرس القبائل

بكي : ٨٩	(١)
بهاء : ٢٠٨ ، ٢٠٠ ، ٨٩	آل أبرهة بن الصياح : ٣٧٦
(ت)	الأبناء : ١٥٣
تغلب : ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٢٨ ، ١٦٨ ، ١٥٣	إرم : ٤٥٦
بنو تميم : ١١٤ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢	الأزد : ٣٦١ ، ٤٤٧
٢١٩ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٣٦٩	أسد : ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢٣٧
تنوخ : ٢٠٠ ، ٤٢٦	٢٦٨ ، ٢٦٩
(ث)	بنو إسرائيل : ١٣ ، ٧١ ، ٤٥٤
ثعلبة بن سمع : ١٤١	بنو الأسود بن رزق : ٩٢
ثقيف : ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤	أشجع : ٥٩
١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٧٢ ، ٣٣٢	بنو الأصفر = الروم
(ج)	الأكاسرة : ٢٩٨
جديلة : ١٥٠	الأكراد : ٢٩٧
حذام : ٨٩ ، ٢٠٠	بنو أمية : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
جعفي : ٤٦٣	٤٠٩ ، ٤١٢ - ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٥
جهينة : ١١٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧	الأوس : ٥٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١١١ ، ١٤٠
(ح)	إياد : ١٥٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
بنو حارثة : ٣٤ ، ٦٣	(ب)
بنو الحجاج : ١٤	بجيلة : ٢٢٦ ، ٣٦٢ ، ٤٤٧
الحوورية : ٣٨٥ ، ٣٩٥	بنو بكر بن عبد مناة : ١٢ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣
آل الحسين : ٤٠١	بكر بن وائل : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥

٢٠٢ - ٢٠٦ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣	بنو حصن : ٣٣٧
(ز)	حمير : ١٧٥
آل الزبير : ٤٥٩ ، ٤٦٠	بنو حنظلة : ١٥٣
بنو زهرة : ٦١	بنو حنيفة : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ - ١٦٣
(س)	١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠
السبئيون : ٣٤٩	(خ)
بنو سعد : ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٣٣٦	خثعم : ٣٦١ ، ٣٨١ ، ٤٤٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٥
سعد بن تميم : ١٧٠	خزاعة : ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧
سلامان طي : ٣٧١	الخزرج : ١١١ ، ١٤٠
بنو سلمة : ١٣٠ ، ١٣١	الخوارج : ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
سليح : ٢٠٠	٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ - ٣٨٩
بنو سليم : ٥٤ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٠	خولان : ١٧٥
١٣١ ، ١٤٥	(د)
سليم بن منصور ٣٧١	بنو الديل بن بكر : ٥١
(ش)	بنو دينار : ٤٣
الشباميون : ٣٧٢	(ذ)
بنو شيبان : ١٧٢ ، ٢٣٠	ذبيان : ١٤٣ ، ١٤٤
الشيعة : ٣٦٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦	(ر)
(ض)	الراوندية : ٤٧٧
ضبة : ٢٢٦	الرباب : ١٥٣ ، ١٧٠ ، ٢٣٧
(ط)	ربيعة : ٥٥ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٩
طي : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٣٨٦	١٧٨ ، ٣٤٠ ، ٣٦٢
	الروم : ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٠٠ ،

(غ)

غسان : ١٣٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٨

غطفان : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٤١ ، ١٤٩ ،

١٥١ ، ٢٣٦

الغوث : ١٥٠

(ف)

الفرس : ٩٠ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ — ٢٥٢ ،

٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ —

٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ — ٢٩٢ ،

٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ،

٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤

بنو فزارة : ١١٤ ، ١٥١

(ق)

القارة : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦١

قريش : ٧ — ١٨ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١

— ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٩

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ — ٦٧ ،

٧٨ — ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٢ — ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ٣٢٣ ،

٣٥٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٢ ،

٤٢٦

(ع)

عاد : ٤٥٦

بنو العاص بن سعيد : ١٤

بنو أبي العاص : ٤٦٥

بنو عامر : ٥٤ ، ٥٦ ، ١٦٢

بنو عبد البار : ٣٥

بنو عذرة : ٩٠ ، ٢٠٠

عبد القيس : ٤٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،

٢٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩

بنو عبد المطلب : ١١ ، ١١٣

بنو عبد مناة : ٣٢

عبد مناف : ٩٨ ، ٣٣٢

عبس : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٣٢٦

بنو عبيد : ١٩٥

عدنان : ٤٦٤

بنو عدي : ٨٢ ، ٩٨

عضل : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦١ ، ١٧٥ ، ٤٠٦

عمرو بن حنظلة : ١٧٠

عَمَك : ١٧٥

بنو العام بن مالك : ٢٩٦ ، ٢٩٧

بنو عمرو : ١٥٣

عنس : ١٧٢

بنو مرة : ١٤١ ، ٥٩	٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،
مزينة : ٩٩	٤٦٠ ، ٤٦٢
المسودة : ٤٧٧	بنو قريظة : ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٧١
بنو المصطلق : ٧٧ ، ٧٥	قضاة : ١٤٥ ، ١٦١ ، ٢٠١ ، ٤٦٣
مضر : ٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٨ ، ٣٦٢ ، ٤٣٤ ،	بنو قيس بن ثعلبة : ١٧١ ، ٢٣٦ ، ٤٠٠ ، ٤٤١
٤٨٨ ، ٤٦٣ ، ٤٤٧	(ك)
آل معاوية : ٣٧٦	بنو كثير : ٤٢٧
معد : ٢٦٥	آل كسرى : ٣١٩
مقاعس : ١٥٣	كعب : ١٠٥
(ن)	كلاب : ١٠٥
بنو ناج : ٤٦٤	بنو كلب : ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
الناعطيون : ٣٧٣	كنانة : ١٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٢
بنو النضير : ٥٦	٩٥ ، ١١٢ ، ١٤١ ، ١٥٦
النمر : ٢٩٢ ، ٢٩٣	كندة : ١٢٧ ، ١٤٥ ، ٣٩٩
(هـ)	(ل)
بنو هاشم : ٢٢	لحم : ٢٠٠ ، ٣٦٢
هذيل : ٤٨	(م)
بنو حصيص : ٢٧	بنو مازن : ١٨٩ ، ٣٣٧
همدان : ٢٣٠ ، ٢٧٩ ، ٤٦٣	بنو مالك : ١٠٩
هوازن : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،	بنو مالك بن حنظلة : ١٥٤
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٤٥ ، ٢٣٤	بنو مالك بن كنانة : ٣٢
بنو يربوع : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥	مخزوم : ٢٧
اليهود : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٨	مذحج : ١٧٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٦٣
	مراد : ٢٧٩

٣ - فهرس الأماكن

أوطاس : ١٠٤ ، ١١٠	(١)
آليس : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨	الأبرق : ١٤١
(ب)	الأبطح (مسيل وادى مكة) : ١٠
بابل : ٢١٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨١	الأبله : ١٢٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠
بادوريا : ٢٣١	أحد (جبل) : ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٦
باروسما : ١٩١	٤٨ ، ٦٠
بانقيا : ١٩١	أذربيجان : ٣٥١ ، ٤٦٠
البحرين : ١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،	أذرح : ١٢٧
٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠	أربك : ٣٠٢
بدر : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الأردن : ٢٠١
٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٩٧ ،	أرباث : ٢٧٤
١٠٣ ، ١٢٩	أرمينية : ٤٦٩
برس : ٢٤٩ ، ٢٨٠	أصبهان : ٣٠٦
برك الغماد : ١٣	إصطاخير : ٢٢٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦
البزاحة : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤	الأعوص : ٢٣٦
البصرة : ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٩٦ - ٣٠٣ ،	أمثيشيا : ١٨٨
٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ -	الأنبار : ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨
٣٣٥ ، ٣٣٨ - ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ،	الأنسر : ١٥٠
٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،	الأهواز : ٢٨١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ،
٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ،	٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ١٣

(ج)

جبان : ١٨٥ ، ١٨٦

الجابية : ٤٢٥ .

جبانة السبيع : ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨

الجحفة : ١٦

جرباء : ١٢٧

الجزيرة : ٤٥١ ، ٤٦٠

الجمرانة : ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤

جلولاء : ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦

جؤاثا : ١٦٩

(ح)

الحبشة : ٣١١ ، ٣٢

الحجاز : ٨ ، ٩ ، ١٧٧ ، ٢١٧ ، ٣٩١ ،

٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،

٤٥٥ ، ٤٥٩

الحديبية : ٧٩ ، ٩٢ ، ٣٦٧

الحرّة : ٤١٦ ، ٤١٧

حرة بنى حارثة : ٣٤

حروراء : ٣٧٣ ، ٤٥٧

حسا : ١٤٢

حضر موت : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٩٩

الحضوض : ٢٤٠

٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ،

٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨

بصرى : ٨٨ ، ٢١٨

البقيع : ٥٢

البلقاء : ٩٠ ، ١٢٣

بنات تلّ : ٤٤٢

بهر مسير : ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٢٨٦

البويّب : ٢٢٦ ، ٢٣٠

بئر معونة : ٥٣

(ت)

تبوك : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٤٢٥

تستر : ٣٠٢ ، ٣٠٧

تسكرت : ٢٩٢ ، ٤٤١

التنعيم : ٤٩ ، ٥١

تهامة : ١١٤ ، ٢٠٠

تهامة اليمن : ١٤٥

تيرى (نهر) : ٢٩٦ ، ٢٧٩ ، ٣٠١

تباء : ١٩٩ ، ٢٠٠

(ث)

الثنى : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

ثنية المرار : ٧٩

ثنية الوداع : ٤١٢

الحضير : ١٧٩	دجلة (نهر) : ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
حلوان : ٣٠٦	٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ،
حمام أعين : ٤٤٤	٢٩٣ ، ٣٠١
حمراء الأسد : ٤٤ ، ٤٥	دجيل : ٢٩٦
حمص : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ،	دستميسان : ٢٩٦
٤٢٦	دلت : ٢٩٦
حنين : ١١١ ، ١١٤	دمشق : ٢٠٢ ، ٢٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣٦٠ ، ٤٢٤
وادي حنين : ١٠٧	الدهناء : ١٧٠
الحيرة : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،	دومة الجندل : ١٢٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٦٩ ،
٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،	٣٧٥
٢٤٧ ، ٢٤٩	دير أبي موسى : ٤٤٢
(خ)	(ذ)
الحازر (نهر) : ٤٥٥	ذات عرق : ٣٣١
خفان : ٢١٩ ، ٢٥٠	الذفران (وادي) : ١٣ ، ١٤
الخليفة : ٩٦	ذو الحليفة : ٨٦
الخنديق : ٥٤	ذو طوى : ٧٨ ، ١٠٠
الخدمة (جبل) : ١٠١	ذو قار : ٢٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦
الخورنق : ١٨٩ ، ٢٤٠ ، ٤٦٢	ذو القصة : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤
خير : ٥٨ ، ١٣٤	ذو المروة : ٢٠٣
(د)	(ر)
دارين : ١٧٢	رامهرمز : ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦
دبا : ١٤٥	الربذة : ١٤١ ، ١٤٤ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣

(ش)

الشام : ٩ ، ٥٨ ، ٨٧ — ٩٠ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ،

١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ،

٢١٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ —

٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،

٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ،

٢٩٦ ، ٤١١ ، ٤١٨ — ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،

٤٢٩ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ،

٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤

شراف : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٤٠ ، ٤٠٧

الشووط (حائط عند جبل أحد) : ٣٣

(ص)

صرار : ٢٣٢ ، ٢٣٦

الصفاء : ١٠٣

الصفراء : ١٣

صنعاء : ١٧٣ ، ١٧٥

صفين : ٣٥٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨١

٣٨٧

الرجيع : ٤٨

الروحاء : ٢٥ ، ٤٤

(ز)

زباله : ٣٢٥

زروود : ٢٣٦

(س)

ساباط : ١٩٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٨٣ ، ٤٤٦

السفحة : ٣٢ ، ٦٣ ، ٤٥٧

سرف : ٣٢٨

سفوان : ٧

السقاطية : ٢٢٠ ، ٢٢٢

سقيفة بني ساعدة : ١٣٥ ، ١٣٧

سلع : ٥٩ ، ٦٣

سميراء : ١٤١ ، ١٤٨

السنح : ١٤٩

السند : ١٧٨

السهل : ٢٩٤

السواد : ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ،

٢٩٨ ، ٢٥٠

السوس : ٣٠٦

سوى : ٢٠٦ ، ٢٠٨

السيروان : ٢٩٤

عماس : ٢٧٤	(ض)
عمان : ١٤٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٠	ضجنان (جبل) : ٥١
عين التمر : ١٩٥ ، ١٩٧	(ط)
عين الوردية : ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١	طاوس : ٢٩٩ ، ٣٠٠
(غ)	الطائف : ١٠٩ ، ١١١ - ١١٤ ، ١١٦
الغريتان : ١٨٩	الطف : ٤٣٨
(ف)	طيبة : ١٤١
فارس : ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢١٥	(ظ)
٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ - ٢٢٩	الظهر : ٣٧٢
٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢	(ع)
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥	العتيق : ٢٠٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧	العتيق (نهر) : ٢٥٠
٢٧٠ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧	العراق : ١٥٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧
٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩
٢٩٩ ، ٣٠٠ - ٣٠٢ ، ٣٩٢ - ٣٠٧ ، ٣٩٩	٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ -
٣١٣ ، ٣١٨	٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٤٠٣ - ٤٠٥ ، ٤٢٣ ، ٤٤٠ ،
فارغ (حصن) : ٦٤	٤٥١ ، ٤٥٩ - ٤٦٢ ، ٤٦٥ - ٤٦٨ ، ٤٧١ ،
الفرات (نهر) : ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ،	٤٧٣ ، ٤٧٤
١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢	عسفان : ٧٨ ، ٩٤
٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣	العشيرة (بطن ينبع) : ٧
٤٢٤ ، ٤٥٤	العقبة : ١٢٩
(ق)	عقرباء : ١٦١
القصر الأبيض : ١٨٩	عكاظ : ٤٥

السكناسة : ٤٥٨ ، ٤٤٧	قصر ابن بقليلة : ١٨٩
كوثي : ٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨١	قصر العديسين : ١٨٩
الكوفة : ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١	قصر بني مازن : ١٨٩
٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤	القادسية : ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠	٢٤٦ - ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
٣٤١ ، ٣٤٣ - ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١	٢٧٣ ، ٢٧٨ - ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩
٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨	أبوفيس (جبل) : ١٠٠ ، ١٠١
٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨	قراقر : ٢٠٦ ، ٢٠٨
٣٨١ - ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ - ٣٩٦	قرقيسيا : ٢٩٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٥١
٣٩٩ ، ٤٠٢ - ٤٠٧ ، ٤١٧ ، ٤٢٤	قس الناطف : ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦
٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ - ٤٤٢ ، ٤٤٥	القسطل : ٢٠٠
٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ - ٤٥٢	القطيف : ١٦٩
الكوفة : ٤٥٢ - ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠	القليب : ١٧ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٧
٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤	قنسرين : ٤٢٤ ، ٤٢٦
(م)	(ك)
مآب : ٨٩	كاظمة : ١٧٩
ماسبذان : ٢٩٤	كربلاء : ٤٠٧
المدائن : ١٨١ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٤٠	كداء (جبل) : ١٠٠
٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣	كدى (جبل) : ١٠١
٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥	كراغ النعيم : ٧٨
٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣١٥	كسكر : ١٨٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣١٢
٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠	الكمبة : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٧٦

الشارف : ٩٠	الدينة : ٧ ، ٨ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٩ ،
مصر : ٣٢٥ ، ٣٤٢	٣٢ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
الصبيخ : ١٧٧	٤٦ ، ٥٠ ، ٥٢ — ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ ،
ممان : ٨٩	٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ —
الغاث : ١٨١	٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
الغيث : ١٨١	٩٧ ، ١٠٢ — ١٠٤ ، ١١٧ ، ١٢٥ ،
مكة : ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٦ ، ٣١ ،	١٢٨ — ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ —
٣٩ ، ٤١ ، ٤٨ — ٥١ ، ٥٩ ، ٧٨ ، ٧٩ ،	١٤٤ ، ١٥٢ — ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٨ ،
٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،	١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ،
٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٦ ،	٢١١ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
١١٢ ، ١٢٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ،	٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ،
٢٢٩ — ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ،	٣٠٣ — ٣٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،
٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٢ ،	٣٢٥ — ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ — ٣٤٣ ،
٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٦٢	٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ — ٣٩٢ ،
مهرة : ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٧٦	٤٠٢ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ — ٤١٣ ، ٤١٥ —
الموصل : ٢٩٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٧٤	٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٠ ،
مؤتة : ٨٨ ، ٩٠	المذار : ١٨١ ، ١٨٢ ، ٤٥٦ ،
ميسان : ٢٤٢ ، ٢٩٦ ، ٣٠١	المربد : ٣٢٥
(ن)	مرج راهط : ٤٢٢ ، ٤٢٥ ،
النباخ : ١٧٧ ، ١٧٨	مرج الصفر : ٢٠٢ ، ٢٠٨ ،
نجد : ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠	مرّ الظهران : ٩٧
نجران : ١٧٣	مرو : ٣٠١ ، ٣٠٨ ،
النجف : ١٨٩	المروحة : ٢٢٥

الواقصة : ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢١٣	نخلة (بين مكة والطائف) : ٧ ، ٨ ، ١١٠
وردان : ٣٥٢	الفخيلة : ٢٣٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤
الولجة : ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٤٠	نهاوند : ٢٨١ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٩
(ى)	النهروان : ٣٨٥
يأجج (موضع بمكة) : ٥٠	(هـ)
اليرموك : ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،	الهاشمية : ٤٧٧
٢٠٩ ، ٢٧٩	هجر : ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٣٨
اليامة : ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩ - ١٦٣ ، ١٦٦ ،	همدان : ٣١٨ ، ٣٥١
١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ٣٤١	الهند : ١٧٨
ينبيع : ٣٢٤	هيت : ٢٩٥
الين : ١٢٧ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ٢٠٠ ،	(و)
٢٣٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،	وادي السباع : ٣٥٠
٣٢٩ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٤٧ ، ٤٧٨	واردات : ١٤٨

٤ - فهرس الشعر

الصفحة	عدد الأبيات	(ب) القائل	البحر	الغاية
٤٠٨	٢	...	كامل	المحجبا
		(ت)		
٤٥٠	٤	سراقة	وافر	مصممتا
		(ح)		
٣٦٢	٣	ابن الإطنابة	وافر	المُشيج
		(د)		
٨٩	٣	عبد الله بن رواحة	بسيط	الزبدا
٢٧	٦	الأسود بن المطلب	وافر	السَّهودُ
٣٧٠	١	أخو هوازن	طويل	أرشد
٣٨٢	١	»	طويل	غدي
٢٥	٤	حسان	وافر	نجد
٣٩٧	١	عمرو بن معد يكرب	وافر	من مراد
		(ر)		
٣٢٨	٦	ابن أم كلاب	مقارب	الطر
١١٣	٢	...	بسيط	وننتظر
١٤٣	٤		طويل	لأبي بكر
٢٠٨	٥		طويل	وما ندري
٤		مبتم بن نوبة	كامل	يابن الأزور

الصفحة	عدد الأبيات	القائل	البحر	القافية
٣٣٧		...	وافر	لم يُقْبَر
		(ض)		
٤٦٤	٦	أبو الإصبع المدواني	هزج	الأرض
		(ع)		
١٥٨	٤	متمم بن نويرة	طويل	فأوجبا
		(ف)		
٢٧٢	٣	أبو محجن	وافر	سيوفا
٣٣٧، ٣٣٦	٤	...	كامل	الإنصاف
		(ق)		
٤٥٩	٣	غيلان بن سلمة	بسيط	طبق
٢٧٢	٢	أبو محجن	طويل	عروفا
		(ك)		
٤٦٤	٣	...	طويل	هاتكا
		(ل)		
٤٣٣	١	أخو كفانة	طويل	الشكل
١٢٢-١١٧	٥٩	كعب بن زهير	طويل	مكبول
٤٥، ٤٤	٦	معبد الخزاعي	بسيط	الأبايل
		(م)		
٣٧٣	٢	علي بن أبي طالب	طويل	واجم
٣٠٨	١	...	طويل	وأظلم
٣٢٧	١		طويل	المظالم

الصفحة	عدد الأبيات	الفائل (ن)	البحر	القافية
٤٦٣	٣	...	طويل	كان
٢٣٠	٦	الأعور الشنّى	بسيط	همدانا
٥٢	١	...	وافر	المسلمينا
١٦٩	٤	...	وافر	أجمعينا
٤٥٠،٤٤٩	٩	سراقة	وافر	علينا
٤٦١	٢	كثير	طويل	يزينها
(ي)				
٢٧١	٤	أبو محجن الثقفى	طويل	وثاقيا
٤٢٦	١٢	زفر بن الحارث	طويل	تماديا
٤٧	٤	حسان	بسيط	مخزبها

٥ - فهرس الى جز

الغافية	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
	(ب)		
غلب	كعب بن جميل	٢	٣٦١
الحلائب	...	٣	١٩٧
واقترأ بها	جعفر بن أبي طالب	٥	٩٠
	(ت)		
تموت	عبد الله بن رواحة	٤	٩١، ٩٠
	(د)		
محمدًا	عمرو بن سالم الخزاعي	١٧	٩٣
معد	سراقة بن مرداس	٣	٤٤٩
	(ر)		
عبد الدار	هند بنت عتبة	٣	٣٥
بدر	هند بنت عتبة	٨	٣٩
بدر	هند بنت أمية	٩	٤٠
	(س)		
باليابس	حكيم بن جبلة	٢	٣٤٠
	(ع)		
جذع	دريد بن الصمة	٢	٣٢٥، ١٠٥
	(ق)		
نماق	هند بنت عتبة	٤	٣٥

الغافية	الغائل	عدد الأبيات	الصفحة
بنات طارق	٢	٣٦
	(ل)		
حمل	سمعد بن معاذ	٢	٦٣
الجل	...	٥	٣٤٩
خليل	أبو دجانة	٤	٣٦
بولى	رفاعة بن شداد	٤	٤٤٨
	(م)		
الرزام	أبو عزة الجمحي	٤	٣٢
عصاما	الغابة الذبياني	٢	١٨٧
	(ن)		
لتنزلة	عبد الله بن رواحة	٦	٩٠
	(ي)		
الموالي	مكرز بن حفص	٣	٢٨
	(الألف المقصورة)		
اهتدى	٤	٢١٨
وطنى	ابن الفسيل	٣	٤٢٠

٦ - المراجع

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر المستقلاني ، نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٣٩ م
الأغانى لأبي الفرج الأصفهاني : مطبعة التقدم سنة ١٣٢٣ هـ ، مطبعة دار الكتب .
تاريخ ابن الأثير ، نشرة إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ .
تاريخ ابن خلدون ، مطبعة بولاق سنة ١٢٤٨ هـ .
تاريخ الطبري ، المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٦ هـ
تاريخ أبي الفدا ، المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٥ هـ
تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) ، مطبعة السعادة سنة ١٩٣٢ م
السيرة الحلبية (إنسان الميرون) ، المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٢ م
سيرة دحلان (على هامش السيرة الحلبية) ، المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٢ م
سيرة ابن هشام ، مطبعة حجازي سنة ١٩٣٧ م
المقدمة لابن عبد ربه ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٠ هـ
الفائق للزمخشري ، مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٩٤٥ م
فتوح البلدان للبلاذري ، نشرة المكتبة التجارية .
لسان العرب لابن منظور ، مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٢٦ م
مروج الذهب للمسعودي ، بولاق سنة ١٢٨٣
معجم البلدان لياقوت ، مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦
معجم ما استمعجم للبكري ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٤ م